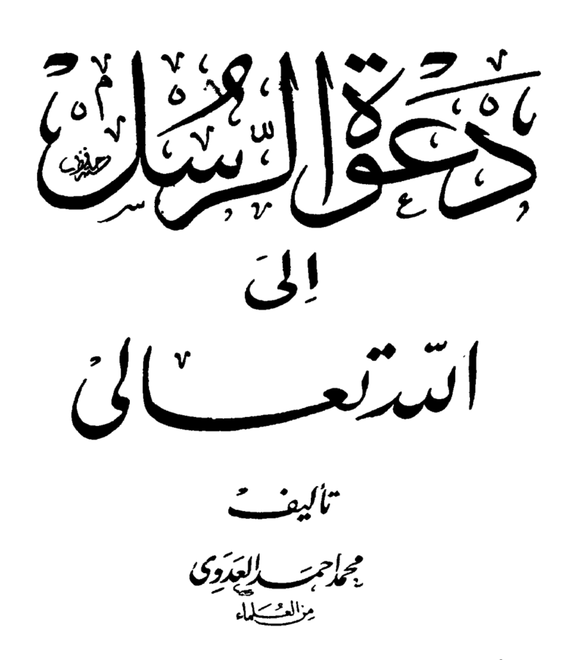
THE BOOK WAS DRENCHED

UNIVERSAL
LIBRARY
OU_190367
UNIVERSAL
LIBRARY



كتاب إصلاح ودين وخلق . يحتاج إليه الوعاظ ورجال السياسة والأخلاق . يتعزى به المصلح عما يناله من أذى ، وما يوضع فى سبيله من عقبات . ويجد فيه المؤمن ما يقوى يقينه ، ويثبت فؤاده .....

مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م / ٦١٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

فهـــرس

دعوة الرســـل إلى الله تعـالى

صحيفة

صحيفة

٢١ (الملأ) يقول لهود : ماجئتنا ببينة و يصرّون على الشرك ، و يقولون له : إن آلهتهم مسته بسوء وتعييبه لهم من آثار ذلك
٢٢ هود يشهد الله و يشهدهم براءته من الأصنام ، ثم يطلب إليهم أن يعملوا به مايستطيعون من كيد ساخرا بهم و بوعيدهم ، لأنه متوكل على ربه معتصم بالحقّ
٢٢ هود يتوعد قومه باستخلاف غيرهم فى ديارهم وأرضهم بعد هلاكهم
٢٣ العبرة فى نجاة هود ومن معه ، وهلاك عاد ، وقول الله (وتلك عاد) يلفتنا إلى ما حلّ بهم بسبب جحودهم بآيات الله وعصيان الرسل
٢٣ عصيان رسول من الرسل عصيان لجيع الرسل ، لأنه عصيان من أجل رسالته مع قيام الحجة على حقية دعوته
٢٤ دعاء الله تعالى على عاد بالهلاك والبعد عن رحمته
٢٥ هود ينكر على قومه تبذير المال والعبث به ، وفيه عبرة لأغنيائنا المترفين ، و يصف قومه بأنهم غلاظ جبابرة فى بطشهم بالضعفاء
٢٥ غلاة المستعمرين كقوم هود (إذا بطشوا بطشوا جبارين) فيتموا الأطفال ، وهتكوا الحرمات ، ومزّقوا المصاحف ، وقتلوا الأبرياء
٢٥ عاد تؤيس هودا من سماعها لوعظه ، وتحتجّ بأن عملها هذا خلق الأوّلين ، وتدّعى أنها لا تعذّب على الشرك ـ فأهلكهم الله ، وكان هلاكهم آية وعبرة

٢٦ دعوة صالح عليه السلام إلى الله تعالى

٢٧ القرآن سمى صالحا أخا لقومه ثمود لأخوته لهم فى النسب والوطن ، واليهودى والنصرانى يسمى أخا بذلك الاعتبار . ناقة صالح آية بينة من آيات الله بسبب توعد من تعرّض لها بسوء أن يعذّبه الله عذابا أليما ـ الناقة ابتلاء وفتنة من الله لثمود
٢٨ صالح يذكر قومه بنعم الله عليهم ، وجعلهم خلفاء لعاد فى الحضارة والعمران ، وما ألهمهم من فنون الصناعة ، وهندسة البناء ، وفنّ النحت ، ووهبهم من القوّة والصبر
٢٨ من أساليب وعظ القرآن وتربية النفوس تذكير المسيء بإكرام الله له بنعمه عليه ، ولاينبغى لمن كرّمه الله أن يضع نفسه موضع المهانة ، وكثيرا ما ينفع ذلك الأسلوب ، وقد يدع الرجل السفاسف لأنه من بيت طيب وأرومة صالحة
٢٩ (الملأ) المستكبر من قوم صالح يعلن كفره بما أتى به صالح ، و يذبح الناقة التى نهوا عن مسها بسوء ، و يقولون لصالح : ائتنا بما تعدنا إن كنت صادقا ـ عقاب الله لهم على ذلك التعدّى
٢٩ عقر الناقة كان من رجل منهم ، ولكنه نسب إليهم لرضاهم به ، ليرينا الله أن الراضى عن الظالم شريك له فى الظلم ، وأن العقوبة لا تقع على المباشر وحده ما دام فى استطاعة الناس منعه من ظلمه ، وهى عبرة كبرى

صحيفة

٣٩ دعوة إبراهيم عليه السلام إلى الله تعالى

صحيفة

٤٣ إبراهيم ينكر على أبيه وقومه عبادة الأصنام ، ولم تمنعه الأبوّة من إنكاره على أبيه ، ليرينا أنه ليس من الأدب مع الآباء تركهم على ضلالهم — إنذار محمد صلى الله عليه وسلم لعشيرته وأقاربه

٤٤ تدرّج إبراهيم فى محاجة قومه ، فقال فى الكوكب (هذا ربى) مسايرة لهم (فلما أفل قال لا أحب الآفلين) الخ

٤٤ إبراهيم ينكر على قومه مجادلتهم له فى الله الذى هداه

٤٥ حجة إبراهيم التى يمتنّ الله بها عليه هى من فضل الله عليه ، والواجب على من آتاه الله قوّة الحجة أن لا يستعملها فى إضعاف حقّ ، أو ترويج باطل ، وأن لا يعطلها عند الحاجة إليها ، وكثير من الناس لا يشكر الله على إعطائه حجة

٤٦ التأسى بإبراهيم فى الدعاء ، وهو باب كبير من أبواب العبادة ، وكلّ دعاء إبراهيم موجه لله وحده ليس فيه وسيط أو شفيع

٤٦ نفرة إبراهيم من الأصنام ، وقوله (ربّ إنهنّ أضللن كثيرا من الناس) والذى يضلّ الناس يجب أن يبغض

٤٦ إبراهيم يزيل أسباب الشرك وذرائعه بتكسير الأصنام — ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بإزالة كلّ صنم حول البيت ، ويحمل خلفاءه الراشدين أن لا يدعوا تمثالا إلا طمسوه ، ولا قبرا مشرفا إلا سوّوه — وعمر يقطع الشجرة التى كانت عندها البيعة حينما شعر أن الناس يتبركون بها ، ويزيل مظلة وضعها بعض الناس على ميت ، والمسلمون فى الصدر الأوّل يزيلون القباب فوق قبور الصالحين ، وملك الحجاز يتأسى بهم فى إزالة القباب حتى يبقى التوحيد خالصا لله من الشرك وذرائع الشرك

٤٧ إبراهيم يدعو ربه أن يجعل قلوب الناس تهوى إلى أبنائه بمكة وأن يرزقهم من الثمرات

٤٨ (إنّ إبراهيم كان أمّة) هى أبلغ من رسالة فى المدح والثناء ، وحسبه هذه الكلمة من ربه ، قنوته لله وعدم إشراكه — ردّ الله على أهل الكتاب الذين ينتسبون إليه بأنهم مشركون وهو إمام الموحدين وقدوتهم الصالحة

٤٩ أمر الله نبيه أن يتبع ملة إبراهيم ويتأسى به فى الصبر والاحتمال وبجميع الرسل الذين سبقوه وخصّ إبراهيم لأنه إمام الموحدين

٥٠ إبراهيم كان صدّيقا خلقه الصدق — حكمة تقديم الصدق على النبوّة أنه ملاك أمر النبوّة — جواز الكذب لمصلحة يفتح بابا من أبواب جهنم

٥١ تواضع إبراهيم فى وعظه لأبيه بقوله (يا أبت لم تعبد) الخ ، وأدبه معه — هضمه لنفسه فى قوله (قد جاءنى من العلم مالم يأتك) — ردّ أبيه عليه بقوله (لئن لم تنته لأرجمنك) الخ — قول إبراهيم لأبيه (سلام عليك)

صحيفة

٥١ إبراهيم يعتزل أباه حين نصحه فلم ينتصح، ليرينا أن من لم يزل المنكر ينبغي له أن يز ول عنه

٥٣ إبراهيم ينكر على قومه عبادة الأصنام فيعتذرون بعبادة آبائهم لها فيرميهم هم وآباءهم بالضلال الواضح، لتعطيلهم عقولهم ومواهبهم اعتمادا على عقول الآباء

٥٣ من خصائص أهل جهنم أن لهم قلوبا لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها الخ — التقليد سنة أعداء الرسل — كلمة الزمخشرى فى ذمّ التقليد وهى كلمة لها قيمتها

٥٤ إبراهيم يكسر الأصنام ويدع الصنم الأكبر علهم يرجعون إليه، ثم يسألونه فيقول لهم متهكما (فعله كبيرهم هـذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) فيرجعون إلى أنفسهم فيحكمون بظلمها، ثم ينقلبون على أعقابهم فيتعصبون لآلهتهم

٥٥ إبراهيم يعود فيتضجر منهم ومن آلهتهم ويرميهم بعدم العقل

٥٥ لجوء خصوم إبراهيم إلى الحديد والنار بعد أن عجزوا عن الحجة، شأن المبطل فى كلّ زمان أمروا بتحريقه ونصر آلهتهم، فقال الله للنار (كونى بردا وسلاما) ومكروا به فكان مكر الله خيرا من مكرهم، لأنه لتأييد الحقّ، ومكرهم لمناصرة الباطل

٥٦ إبراهيم ينكر على قومه أن يعبدوا آلهة لا تسمعهم إذا دعوهم، ولا ينفعونهم إذا أطاعوهم، ولا يضرّونهم إذا عصوهم — اعتذارهم عن ذلك بتقليد الآباء

٥٦ ابراهيم يعلن عداوته لآلهتهم إلا الله، ويبين سبب ذلك بخلقه له وهدايته، وإطعامه وسقايته وشفائه من مرضه، وإماتته وإحيائه الخ فى حدود إلهامه لأسباب الطعام والشراب وتعليمه لنا كيف يكون علاج الأمراض

٥٧ فى قصة إبراهيم ولجوئه لمولاه عبرة لمن يدعون من الموتى من لا يسمعهم ولا يملك أن يضرّهم أو ينفعهم، وعبرة لمن يتركون الأطباء ويعمدون فى علاج أمراضهم لأسباب خرافية جهلية كتعليق شعورهم على باب زويلة لشفاء رءوسهم من الصداع، ناسين قول الله تعالى (وأتوا البيوت من أبوابها)

٥٩ إبراهيم من شيعة نوح لأن الأنبياء يشايع بعضهم بعضا فى الحقّ — سلامة قلب ابراهيم من أمراض القلوب — الافك وتسمية آلهتهم به

٥٩ نظر ابراهيم فى النجوم وسيرها وأفولها وطلوعها، وأنها لا تصلح أن تكون آلهة تعبد — سقم قلبه من جهة عبادة الناس لها وكفرهم بخالقها — ضرب ابراهيم لآلهتهم وتهكمه بهم فى قوله (ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون)

٥٩ إنكار إبراهيم عليهم أن ينحتوا حجارة بأيديهم ويعبدونها — إطالة المتكلمين فى آية (والله خلقكم وما تعملون) من جهة دلالتها على أن العمل مخلوق لله — فى غير جدوى لأنها فى العمل بمعنى المعمول

٦٠ خصوم ابراهيم يوصى بعضهم بعضا ببناء بنيان يملأ بالنار وإلقائه فيـه — إنجاء الله له — بشارة الله له بغلام .

صحيفة

صحيفة

صحيفة

الأيدى لفتنتهن بيوسف ـ وقولهن ماهذا بشرا إن هـذا إلا ملك كريم ـ قول امرأة العزيز لهن : هذا يوسف الذى لمتننى فيه ليعذرنها

١١٠ من الغريب اعتراف امرأة العزيز أمام النسوة أنها راودت يوسف فامتنع بشدة ، وقسمها ان لم يجبها لطلبها لابد من سجنه ، اقتناع زوجها بأنها صاحبة الجرم بعد شهادة الشاهد ، وتنزيه الله له بقوله ـ إنه من عبادنا المخلصين ـ . والمفسرون يتهمونه بما لا يليق بمثله !!!

١١١ كلمة يوسف التاريخية بعد توعد امرأة العزيز له بالسجن وأن يكون من الصاغرين (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) وهوجواب زعيم دينى يعلم به الناس كيف يستهينون بالشدائد و يسخرون بها فى سبيل الحق والخلق

١١١ نصيحة للزعماء أن يتدبروا هذه الكلمة ويكرورنها عند مايساومون فى أمر يضر بمصلحة بلادهم ، ويهددون بالسجن أو النفى ، لأن السجن لايضيع حقا بل يثبته ، ولايزعزع عقيدة بل يقويها

١١٢ رجوعه الى ربه فى أن يصرف عنه كيدهن ليعلمنا كيف نستمسك بالحق والخلق ونرجع مع ذلك الى الله فى أن يمكن للحق ، ويبطل الباطل ـ استجابة الله له فى صرف كيدهن عنه

١١٢ العزيز يخضع لامرأته فى سجن يوسف بعد قيام الأدلة على براءته ، ويظهر أنها لم ينقطع أملها من يوسف فرأت أن تجربه بالسجن بعد أن جربته من طريق المراودة حتى إذا أجابها سعت لاخراجه منه ونسيت قوله (رب السجن أحب إلى) الخ

١١٥ دخول يوسف السجن ودخول فتيين معه ـ عرض رؤياهما عليه وطلب تأويلهما ـ وعد يوسف لهما أن لايأتيهما طعام إلانبأهما بتأويله قبل إتيانه ، وأن ذلك مما علمه الله ـ بيان السبب فى ذلك بأنه ترك ملة قوم غير مؤمنين بالله إلى ملة آبائه

١١٦ يوسف ينتهز فرصة سؤاله عن الرؤيا لينصح صاحبيه فى السجن وينشر مبدأه من الايمان بالله وتوحيده والايمان بالبعث والجزاء ، شأن صاحب المبدأ يتحين الفرص لنشر عقيدته

١١٧ يوسف يوازن بين التوحيد والشرك ، ويرى صاحبيه أن عبادة إله واحد خير من عبادة آلهة متفرقين ، وأن الخير للعابد أن يكون له إله واحد يعرف مايحبه فيسارع إليه وما يكره فيتركه ـ ويقبح لصاحبيه عبادة أسماء ما أنزل الله بها من سلطان ـ ويرجع فيؤول رؤيا أحدهما بأنه يخرج من السجن ويسقى ربه خمرا ، والثانى بأنه سيصلب فتأكل الطير من رأسه

١١٨ (اذكرنى عند ربك) اذكر مظلمتى عند سيدك

١١٩ آية يوسف على رسالته هل هى تأويله للرؤى واستعداده للاخبار بالغيب أو هى شىء آخر ؟ أوهى محنته مع إخوته ومع امرأة العزيز وارادته الحديدية وتفضيله السجن على فساد الخلق كل ذلك وأمثاله آية اصطفاء الله له

صحيفة

١٣١ يوسف يعلم الملك كيف يختار الوزراء بجعل قاعدة الاختيار الأمانة والعلم ولا غضاضة على الملك فى أن يأخذ بنصيحة يوسف فانه ملهم من الله تعالى ، ومن مثله تؤخذ الحكمة

١٣٢ القرآن من سنته أن يرجعنا إلى المختصين فى مختلف الشئون

١٣٢ (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) بتدبير أسباب التمكين ، ووضع مقدّماته بلطف .
جزاء الله للمحسنين فى الدنيا فوق جزائهم فى الآخرة

١٣٦ دخول إخوة يوسف عليه ليطلبوا طعاما بعد المجاعة وقد عرفهم وهم لم يعرفوه - طلبه أخاهم من أبيهم حتى يعطيهم الميرة التى يحتاجونها

١٣٧ أمر يوسف فتيانه أن يجعلوا بضاعتهم التى جاءوا بها لتكون ثمنا للطعام ليحملهم ذلك على حسن ظنهم فيه فيرجعوا - قولهم لأبيهم منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل مانحتاج إليه فى المستقبل - وسنحفظه - تذكير يعقوب إياهم مافعلوه بأخيه يوسف - لما فتحوا المتاع وجدوا بضاعتهم فيه فطمأنوا أباهم - طلب يعقوب منهم موثقا من الله أن يأتوه بولده ولا يفرّطوا فيه

١٣٩ نصيحة يعقوب لأولاده أن لايدخلوا من باب واحد - قيل خوفا عليهم من العين:الحسد عدم اهتداء الناس لليوم لكيفية تأثير العين على المحسود ، وكل ماقالوه انها خاصة فى بعض النفوس كالجاذبية فى بعض المعادن - وقيل نصحهم لاشتهارهم بمصر وتحدث الناس عنهم فأمرهم بذلك حتى لايخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم ، والآية محتملة

١٣٩ قول يعقوب (وما أغنى عنكم من الله من شىء) ليرينا أن تدبير العبد لايرفع قضاء الله فقد يكون ناقصا، ولكنه أمر بالاحتياط أخذا بالأسباب ، ولايمنع ذلك أنه متوكل على ربه. سفه كثير من الناس فى ترك الأسباب زاعمين أنهم متوكلون على الله تعالى

١٤٠ احتياط يعقوب لم يغن عنهم من الله من شىء فلم يدفع السوء وهو اتهامهم بسرقة صواع الملك فكان احتياط أبيهم فى ناحية وقضاء الله المدخر فى ناحية أخرى - قسوة الأبناء لاتحول دون شفقة الآباء - الثناء على يعقوب فى أخذه بالأسباب وأنه صاحب علم بتعليم الله له

١٤١ ضمّ يوسف لأخيه وقوله له سرّا : أنا أخوك فلا تحزن لعملهم فيما مضى - بشارة عظيمة بأخ غائب وملك لذلك الأخ وسلطان

١٤٢ احتيال يوسف لابقاء أخيه عنده بجعل مشربة الملك وهى الصواع الذى كانوا يكتالون به - أيتها العير انكم لسارقون من الفتية لابأمر يوسف ، أو تعريض بسرقتهم يوسف من أبيهم ، أو جملة استفهامية - تبرؤ الاخوة من السرقة - جعل الفتيان جزاء السرقة أخذ من وجد الصواع فى رحله - استخراج الصواع من وعاء أخيه - تعليم يوسف الكيد والحيلة - لأن شريعة الملك لاتسمح بأخذ الأخ بدون سبب - اتهامهم يوسف بالسرقة على مسمع منه - اسرارها فى نفسه - لم يكن ذلك أول اساءة ليوسف

صحيفة

صحيفة

١٨٢ موسى يبلغ فرعون أنه رسول ربّ العالمين ، وجدير بمثله أن لا يقول على الله الا الحقّ ، ويبلغه أنه جاءه بآية واضحة من ربه ، ويطالبه أن يرسل معه بنى إسرائيل لينقذهم من عذابه فيطلب منه فرعون أن يأتى بها ان كان صادقا

١٨٢ موسى يلقى عصاه فتنقلب ثعبانا تراه الأعين ، وينزع يده من تحت جناحه تخرج بيضاء من غير سوء

١٨٢ (الملأ) من قوم فرعون يرمى موسى بأنه ساحر عليم بفنون السحر ، ويؤلب على موسى بأنه يريد أن يخرجهم من أرضهم ويملك أمر الناس ، فهوطالب ملك لا رسول ، ويستشير فى أمر موسى

١٨٣ السحر وأنواعه ، والمعنى الجامع له ، وهو أنواع ثلاثة

١٨٤ الملأ يشير بجمع السحرة من المدائن لينازلوا موسى — السحرة يطلبون أجرا من فرعون ان غلبوا فيعدهم بذلك وبالزلفى منه — السحرة يلقون حبالهم وعصيهم فيقول لهم موسى (ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين) وهى سنة من سنن الله فى خلقه

١٨٥ موسى يلقى عصاه فتبتلع ما يأفكون من السحر ، فتغلب السحرة ، ويخرّون ساجدين لمعجزة موسى فيعلنون ايمانهم بالله — فرعون يضطرب من الايمان المفاجئ وينكر على السحرة ايمانهم بدون اذنه وهو جهل منه بعالم القلوب ، وأنها تخضع دائما للحجة — فرعون يرمى السحرة بتواطئهم مع موسى كبيرهم فى السحر ، ويخشى على ملكه من موسى والسحرة شأن المستبدّ

١٨٦ فرعون يتوعد السحرة بأشدّ أنواع الوعيد ، فلا يبالون بتهديده ، لأن الحقّ تمكن من نفوسهم ، وكذلك العقائد اذا ثبتت لا تؤثر عليها الشدائد — السحرة يطلبون من الله الصبر على ما ينالهم من أذى فرعون وأن يتوفاهم مسلمين

١٨٨ (الملأ) يغرى فرعون بموسى ويزعم أن موسى ان ترك أفسد فى الأرض وترك فرعون وآلهته

١٨٩ بطانات المستبدّ دائما تصوّر له المصلحين بصورة المفسدين لتعيش على حساب الاستبداد — افساد موسى افساد سياستهم ، وانقاذ للشعب الاسرائيلى من أيديهم — الآلهة فى عهد فرعون الكواكب ومنها الشمس — مصر سليلة الشمس — تطلع فرعون لعبادة الناس له وقوله (أنا ربكم الأعلى)

١٩٠ فرعون يتوعد الشعب الاسرائيلى بتقتيل الأبناء واستبقاء النساء ، لأنه فوقه بالسلطان والغلبة — موسى يأمر قومه أن يستعينوا بالله على كيد فرعون ويصبروا ، ويريهم أن الأرض ملك لله لا لفرعون يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة الحسنة للمتقين — قوم موسى يقولون له : لم نستفد من ارسالك سوى الايذاء فيعدهم برجائه فى الله أن يهلك عدوّهم ويستخلفهم فى الأرض

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

٢٥٧ فرعون يرمى موسى بالجنون لأنه يصف ربّ العالمين بما يليق به ــ فيقول موسى هو ــ ربّ المشرق والمغرب وما بينهما ــ ان كان لهم عقل فهموا قيمة ذلك القول

٢٥٧ فرعون يتهدّد موسى بالسجن إذا هو اتخذ إلها غيره ــ فيقول له موسى أتسجننى ولو جئتك بشيء واضح يدلّ على صدق ؟ فيلقى العصا فتقلب ثعبانا و ينزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين

٢٥٧ فرعون يستفزّ الملأ و يقول لهم انه ساحر عليم يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ــ السحرة يقسمون بعزّة فرعون انهم هم الغالبون ، أو يستعينون بعزّة فرعون على الغلب وقد خذلهم الله

٢٥٨ فرعون يستصرخ قومه ، و يستغيث عشيرته وهم يقولون فى دعوتهم (إنّ هؤلاء لشرذمة قليلون و إنهم لنا لغائظون) فليعتبر بذلك أرباب السلطان وأصحاب النفوذ والجاه ــ العبرة فى أن المبطل دائما يخشى الحقّ و يقضّ مضجعه ــ وان كان قليلا ــ إخراج الله لقوم موسى من خيراتهم ــ خوف أصحاب موسى من إدراك فرعون لهم ــ تطمين موسى لهم بأن الله معه سيهديه سبيل النجاة

٢٥٩ موسى يأمره الله أن يضرب بعصاه البحر فينفلق فيكون كلّ فرق كالجبل العظيم ــ وأغرق آل فرعون وأنجى موسى ومن معه ــ العبرة فى ذلك

٢٦٠ موسى يخاف من العصا بعد قلبها ثعبانا ــ قول الله له : لا تخف لأنك رسول ولا ينبغى له أن يخاف ــ قوم فرعون يجحدون آيات موسى مع استيقان أنفسهم لها ، والحامل لهم الظلم والعلوّ ــ كفر الجحود يستحقّ صاحبه الخلود فى النار

٢٦٢ نبأ موسى وفرعون وقصه بالحقّ

٢٦٣ فرعون مثل من أمثلة الاستبداد ، وعنوان للظلم واستعباد الناس ، وقدوة سيئة فى الشرّ ــ علوّه فى الأرض وطغيانه

٢٦٣ فرعون يجعل الناس شيعا وأحزابا ، يذلّ بكلّ حزب ما عداه من الأحزاب ، و يأمنهم جميعا بواسطة ذلك التحزّب الذى غرسه فيهم

٢٦٣ فرعون إمام للمستعمرين فى خلق الأحزاب وتغذية الحزبية فى الأمّة ليشغلوا الأمة بحزبيتها عن مصالحها

٢٦٣ المستعمرون يحزبون الأمة و يطلبون منها أن تتحد ، إذا طلبت مصلحة من المصالح يعلقون إجابتها إلى ما تطلب على محال ــ الأمة لا تتحد ما دام فيها الغاصب

٢٦٣ فرعون أوّل الغاصبين الملك بنى إسرائيل والخارجين على دستور الاله الذى يقضى بالشورى

٢٦٣ فرعون هو العمود الفقرى للغاصبين ، وربهم الأعلى الذى يملى عليهم من وحيه الشيطانى مايستبيحون به إذلال الناس

صحيفة

صحيفة

صحيفة

٢٨١ دعوة داود وسليمان الى الله تعالى

صحيفة

صحيفة

صحيفة

٣١٧ تسخير الجن لسليمان لتعمل له القصور الحصينة ، والتماثيل وحياض كبيرة يجمع فيها الماء ، وقدور ثابتة للطبخ

٣١٧ التماثيل التى أبيحت لداود لم تكن ذريعة لشرك كتماثيل العظماء الذين ليس من شأنهم أن يعبدوا بهذه التماثيل ، ولذلك أبيحت ، أما ما يعمل للصالحين فانه محرّم لأنه ذريعة إلى المحرم لاتفاق الرسل جميعهم على محاربة الشرك وذرائع الشرك ـ أمر آل داود بشكر الله

٣١٨ الكلام على منسأة داود ، وأكل دابة الأرض لها ـ بحث علميّ فى دابة الأرض لصاحب [الجواهر فى تفسير القرآن]

٣٢٢ أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكر عبده داود صاحب القوّة فى الدّين ، الرجاع إلى الله تعالى ليتأسى به فى الصبر والاحتمال ، والاعتماد على الله تعالى ـ تسخير الجبال والطير وشدّ ملكه ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب ـ كلّ أولئك لأنه صاحب قوّة فى دينه رجاع إلى الله تعالى فى شدّته ورخائه

٣٢٣ امتنان الله على داود بأنه قوّى ملكه : وهو نعمة عظمى ، وإنما يكون ذلك بتوفيقه لأسباب البقاء ، فجعل فى دولته من رجال السياسة والعلم والفنون والصناعة ماتستطيع به أن تعيش قوية منيعة ـ أهمّ شىء فى أسباب شدّ الملك : الخلق الطيب فى الأمة ، وتحرّى العدل والحقّ

٣٢٤ نبأ الخصمين ، وتسوّرهما محراب داود ـ مادسه اليهود على القرآن من قصص مرذول ـ المفسرون يأبون إلا أن يفسروا النعجة بالمرأة ، وفهم الآية لايتوقف على ذلك ـ من لنا بابلاغ العصريين أن القرآن يعبر عن المرأة بالنعجة

٣٢٥ تخبط المفسرين فى فهم فتنة داود ، والآية ترشدنا إلى هذه الفتنة بأنه أفتى بظلم صاحب النعاج لأخيه قبل أن يسمع حجة الآخر ـ وهناك احتمال أنه حجب نفسه عن الناس فى بعض أوقاته وكان ينبغى أن لا يفعل

٣٢٦ الخصم يطلب من داود أن يحكم بينهما بالحقّ ـ داود يعظ بعد أن حكم بين الخصمين ـ الايمان والعمل الصالح من شأنهما إبعاد أصحابهما عن الظلم

٣٢٧ الجنة لا تنال إلا بالايمان والعمل الصالح ـ ما أكثر الذين قنعوا من الايمان باسمه ـ استغفار داود به عند ماظنّ أن الله يختبره ويبتليه ـ غفران الله له ماظنه ذنبا ـ إخبار الله تعالى بمنزلة داود العظيمة عنده ، وحسن المرجع فى الآخرة

٣٢٨ خلافة داود فى الأرض ـ أمر الله له أن يحكم بين الناس بالحقّ ولا يتبع الهوى ـ وكذلك يجب على كلّ حاكم أن يتحرّى الحقّ ، ويجتهد فى الوصول إليه ، فان أخطأ بعد ذلك فهو معذور

٣٢٩ الهوى يعمى صاحبه عن الحقّ ويحول بينه وبين الصواب ـ توعد الله من ضلوا بسبب الهوى أن يعذّبهم العذاب الشديد فى الآخرة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

[تمت الفهرست]

مقـــــدمة الـكتاب والتعريف به

بسم الله الرحمن الرحيم

وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ «١٢٠» هود

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَٰفِلِينَ «٣» يوسف

لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «١١١» يوسف

اقتضت حكمة الله تعالى أن يبعث فى الناس رسلا مبشرين ومنذرين ، وأن يكون نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتماً لأولئك الرسل ، ويعلم الله أن الدعوة إلى الاصلاح محفوفة بالمخاطر ، محوطة بالأشواك ، ومن شأن هذه المخاطر أن تكون ذريعة لتثبيط همة الداعى ، وتسرّب اليأس إلى نفسه ـ فكان من الخير أن يحال بين اليأس . وبين قلب رسوله ، وأن يريه أن هذه العقبات التى تعترض الداعى ، وتلك الشدائد التى يراها المصلح ، لا غنى له عنها ، وأنها سنة فيمن سبقه من الرسل ،

« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِىْ الْمُرْسَلِينَ «٣٤» [1] .

وكيف ينجو المصلح من هذه الشدائد ، ومهمته أن يحول بين النفوس وشهواتها ، والقلوب وأهوائها ، يحاول أن يرسم لها طريقاً غير الطريق ، يباعد بينها و بين ما ألفت من الشهوات ، و يقارب بينها و بين ما تركت من الفضائل ، فهو مرب يريد أن يخلق الناس خلقاً جديداً ، ومهذب يحاول أن ينشئهم نشأة صالحة ، يؤلف بين غرائزهم المختلفة ، و يوفق بين أهوائهم المتفاوتة .

وكثيراً ما تستحكم الشهوات ، ويتمكن الفساد من الأمة إلى حد كبير ، كالأمة العربية فى جاهليتها ، فيحتاج المصلح إلى شيء كثير من السلوى ، ونماذج غير قليلة من سيرة المصلحين

فلا عجب أن تكون سيرة الرسل الماضين جزءا من دعوة خاتمهم ، وأن تكون دعوتهم لأقوامهم مُثلا صالحة لدعوته لقومه ، لا عجب أن تكون أنباء الرسل تثبيتاً لقلبه ، وتطميناً لنفسه

أبان الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فى سيرة الرسل الماضين أن العاقبة للتقوى ، وأن جند الحق هو الغالب : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ « ١٧١ » إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ « ١٧٢ » وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ « ١٧٣ » [2] كما أراه أن حزب الباطل لا يصلح الله عمله ، وأن الدائرة تكون عليه : « فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ « ٤٠ » [3] »

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ

[١] الأنعام . [٢] الصافات . [٣] العنكبوت .

فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا «٤٢» اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً «٤٣» [1].

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٨٢» فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءونَ «٨٣» فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ «٨٤» فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ «٨٥» [2].

هذه سنن الله تعالى لا تختلف ، ولا تتخلف فى المصلحين والمفسدين ، يسوقها الله فى كتابه الكريم لتكون تربية لنا ، وعبرة لأصحاب العقول منا ، ويكررها فى ذلك الكتاب بأساليب مختلفة ، فمرة يحدثنا القرآن عنها بأسلوب طويل ، ومرة بأسلوب وسط ، وأحياناً بطريق موجز ، علّنا نفقه سرها ، والغاية منها ، ومن تكرارها ، ونعلم أن القرآن كتاب هداية فوق أنه كتاب علم ، فهو يرينا ما فعله بالصالحين جزاءاً لهم على استقامتهم ، وما أوقعه بالمفسدين عقوبة لهم على طغيانهم ، ويرينا أن هذه سنته ، وأن الشعوب نسبتها إليه سواء ، يمكن لها فى الأرض ، ويغدق عليها من النعم ، إذا هى وقفت عند ما رسم لها من حدود ، وما شرع لها من أحكام ، ويريها العذاب ألواناً ، ويسلط عليها من يسلبها عزها وسلطانها ، إذا هى تنكبت طرق الهدى ، وداست قوانين الفطرة : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٩٦» [3].

---

[١] فاطر . [٢] غافر . [٣] الأعراف .

تلك هى الغاية من ذكر سيرة الرسل فى القرآن الكريم ، وتكرار القصة فى عدة سور بأساليب مختلفة ، وهى تمكين هذه السنن فى النفس ، وتثبيتها فى القلب ، حتى لايجد اليأس إلى قلب المصلح سبيلا ، فتقوى فيه داعية الاصلاح ، وحتى يعلم الناس أن مصيرهم مصير من سبقهم من الظالمين ، إذا هم أعنتوا الرسل ، وخرجوا على تعاليمهم وشرائعهم .

وكثيرا ما يسلى القرآن الكريم نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بما كان لسلفه من الرسل .

ويريه الله أنه لا يقابَل من أعدائه إلا بمثل ما قوبل به الرسل : « مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ «٤٣» [١] . وإن تلقى الرسول بالأذى شنشنة المفسدين ، تناقلوها جيلا عن جيل ، كأنهم تواصوا بها على تباعد أزمنتهم ، واختلاف أمكنتهم : « كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ «٥٢» أَتَوَاصَوْا بِهِ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ «٥٣» [٢] .

وكثيراً ما يأمره القرآن الكريم أن يعتصم بالصبر ، ويتذرع بالرضى ، ويريه أن وعد الله بنصر المصلحين حق لا مرية فيه : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ «٦٠» [٣] . وإن ذلك شأن أصحاب القوة من الرسل : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَٰسِقُونَ «٣٥» [٤] .

وكما يُربى الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه السِّيَر ، يربى العلماء الداعين إلى الله تعالى ، ويريهم أن لا حق لهم فى أن يسأموا من الدعوة لأن الناس

---

[١] فصلت . [٢] الذاريات . [٣] الروم . [٤] الأحقاف .

تتلقاهم بما يكرهون ، وتقابلهم بما لا يشتهون ، ولاسيما فى عصر تفشت فيه المنكرات ، وفسدت العقائد ، وذاعت البدع حتى طغت على السنن ، يُرى الله أولئك الدعاة أن من واجبهم أن يفطنوا لهذه السنن ، ويعلموا أنهم ورثة الأنبياء فى الدعوة ، وقد نالهم من جرائها ما نالهم مما اضطرهم إلى الهجرة من بلادهم ، وفرارهم بدينهم وعقيدتهم ، وأن عليهم أن يقوموا بالدعوة إلى الله تعالى متخلقين بأخلاقهم ، متأدبين بآدابهم : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ «١٩٩» وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «٢٠٠» إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ «٢٠١» [١]

يُطلعنا الله بسيرة الرسل مع أقوامهم على تاريخ الاصلاح فى الأرض ، ويرينا أن ذلك التاريخ حافل بالعظات والعبر ، وأنه لا غنى لمصلح أيا كان إصلاحه عن فهم ذلك التاريخ ، والوقوف على ما كان يعترض الاصلاح من عراقيل . وما يوضع فى سبيله من عقبات ، ومن أى الطبقات كانت هذه العقبات ؟ وما الذى كان يحملهم على وضعها فى طريق المصلح ؟ ولماذا لم تكن طبيعة الناس جميعهم واحدة حيال الدعوة إلى الاصلاح ؟

إن المصلح إذا قرأ دعوة الرسل إلى أقوامهم ، وما لاقاه كل رسول من جراء هذه الدعوة ، وقف على الشيء الكثير من أخلاق البشر فى بداوتهم وتحضرهم ، وعرف ما لا يقف عند حدّ من طباعهم وعاداتهم ، وبذلك يستطيع أن يسير فى إصلاحه على هُدى ، ويعدّ له من العُدد والقوى ما ينبغى أن يعدّ ، لأن نفوس المفسدين فى كل زمان متقاربة ، ووسائلهم فى محاربة الحق متشابهة . واضرب لهم مثلا ما قاله الملأ المستكبر من قوم نوح له عند دعوته لهم إلى الله تعالى ، ووازن بينه ، وبين ما يقوله غلاة المستعمرين اليوم للزعماء السياسيين ، تجد قوم نوح

---

[١] الأعراف .

يقولون له : « مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْى «٢٧» [1] . والأراذل : هم فقراء القوم ، وأصحاب المهن الحقيرة فيهم ، كالعمال فى وقتنا هذا ، وما الفرق بين هذه الكلمة ، وبين ما يقال للزعماء اليوم ، فى سبيل الغض من زعامتهم ، والتهوين لأمرهم ؟ لأن حزبهم من الفقراء ، وأصحاب الجلاليب الزرقاء ، وليسوا من أصحاب العقول الراجحة ، والمصالح الحقيقية . لو عرف الناس ذلك لعلموا أن أساليب المفسدين هى أساليبهم فى كل زمان ، وأن نفوسهم هى هى نفوسهم ، فان التاريخ دائماً يعيد نفسه .

لوعرف المصلح السياسى أن تحزيب الأمة ، وجعلها شيعاً تتقاتل فى سبيل حزبيتها ، وتنسى بذلك التحزب مصالحها ومرافقها ـ هو سنة عدو الله فرعون ، القدوة السيئة فى الاستبداد ، والمثل الواضح فى الطغيان والظلم ـ لو عرف الناس ذلك لعلموا أن هذه الوسيلة هى التى يلجأ إليها الغاصب فى تثبيت قدمه ، وتمكين سياسته ، يخلق فى الأمة الأحزاب ، ويغذى فيها معنى الحزبية بأساليبه الشيطانية ، ثم يطلب منها بعد ذلك أن تتحد إذا هى طلبت إليه مصلحة من مصالحها ، فيعلقها على محال ، إذ الحزبية لا يمكن أن تزول ما دامت الأمة الغاصبة باسطة سلطانها ، فانها على حساب الحزبية تعيش وبواسطتها تصل إلى ما تريد .

ففرعون قد فتح هذا الباب للغاصبين ، وسنّ لهم هذه السنة ، بل هو عمودهم الفقرى ، وربهم الأعلى ، يملى عليهم من وحيه الشيطانى مايستبيحون به ارهاق الناس وإذلالهم : « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ «٤» [2] .

ومثل ثالث نضربه للمصلح السياسى : هو أن طريق النفى للزعماء كان سنة لأقوام الرسل معهم ، وكأن الغاصب تلقاه عنهم ، فهذا ملأ شعيب المستكبر يقول له : « لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ

[١] هود . [٢] القصص .

فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ «٨٨» [1] . وهؤلاء قوم لوط يتآمرون على إخراجه وحزبه ، فيقول الله عنهم : « أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ «٨٢» [2] . وحسبك أن الله تعالى يحكى عن الكفار من أقوام الرسل جميعهم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا «١٣» [3] . أليس ذلك هو الذى يقوله الغاصب للزعماء ؟ وهل للغاصبين ملة سوى أن تبقى الناس لهم عبيدا مسخرين ، ويكدّون فى بلادهم وهم بخيراتها يتمتعون ، اذا ظلموهم شكروهم على الظلم ، واذا استعبدوهم حمدوهم على طريقة الحكم ، هل للغاصب مطلب من الزعماء فوق أن لاترتفع رأس للمطالبة بحق ؟ ولايصيح انسان فى وجه الظلم والاستبداد .

وكذلك لو رأى المصلح السياسى ماصنعه قوم ابراهيم معه ، وقد أقام عليهم الحجة ، وسد عليهم مسالك القول ، لورأى كيف يلجأون إلى الحديد والنار بعد أن أعوزتهم القوة المعنوية ، يحفرون له خندقا مملوءا بالنار لإلقائه فيه ليستريحوا منه ومن دعوته ، لورأى ذلك المصلح لعلم أنها سنة الله فى المبطلين ، لاغنى لهم عن البطش متى عجزوا عن الحجة .

هذا قليل من كثير مما تضمنته سيرة الرسل من عبر ، وما اشتملت عليه من آيات .

لذلك رأيت أن أضع كتابى هذا فى سيرة الرسل معوّلا على القرآن الكريم ، وسميته :

دعوة الرسل إلى الله تعالى

ولقد كنت صاحب فكرة دراسة هذا القسم من التاريخ فى قسم الوعظ والارشاد بالأزهر أيام المشيخة الأولى لأستاذنا المصلح «الشيخ المراغى» ، ومن حسن المصادفة أنى لم أضع مقدمة الكتاب إلا فى عهد مشيخته الثانية التى أرجو له فيها التوفيق والسداد ، وأتمنى له ما يتمناه كل مسلم غيور .

[١ ـ ٢] الأعراف . [٣] ابراهيم .

أما الرسل الذين عرضت لسيرتهم فهم فقط الذين لهم دعوة ذات شأن مع أقوامهم فى القرآن الكريم ، لأن الغرض الاعتبار بسيرتهم ، وإنما يكمل ذلك فى رسول له دعوة طال فيها مع قومه الأخذ والردّ ، وفيها من العظمة وعلوّ الشأن ما ينفع المصلح ، أومن الآيات الخلقية والعبر ما يقوّى الارادة ، وينمى داعية الخير ، فنبى الله يوسف عرضت لسيرته فى الكتاب على الرغم من أن دعوته فى القرآن لا تتجاوز كلمات لصاحبيه فى السجن ، لأن قصته مع الاخوة ، ومع امرأة العزيز حافلة بالعظات والعبر .

وقد رأيت أن يكون شرحى لكتاب « دعوة الرسل » متصلا بالحياة الحاضرة ، وعلى أسلوب جديد ، أصل فيه الماضى من التاريخ بحاضره جهد الطاقة وأقارب بين المفسدين فى عهودهم الأولى ، والمفسدين فى عهدنا الحاضر ، وإن كان الافساد متفاوتا . فأولئك يفسدون على الناس أمر الدين ، وهؤلاء يفسدون على الناس أمر الدنيا .

وقد كانت عُدّتى فى ذلك الكتاب بعد المراجع التى بينتها فى آخره هى التدبر العميق فيما تضمنه القرآن من علوم وعبر ، والامعان فيما عليه الناس من أخلاق وطباع ، وما تمليه الحوادث الحاضرة من عسف وجور ، ونفاق ورياء ، وفى اعتقادى أن أصدق تفسير هو الذى يستمده صاحبه من الواقع .

وكذلك أعنى كثيراً بتحليل كلمات كل رسول ، وأوازن بينها وبين كلمات خصومه ، وما اشتملت عليه كلمات الرسول من عفة وأدب ، وما يُقابل به من سخف وحمق ، وأعلق دائما على تعلق الرسول بربه ، واعتصامه بخالقه ومولاه ، وأدعو المصلح أن يتأسى بالرسول الذى أكتب عنه فى ذلك الخلق الطيب .

وكذلك أعنى بما انطوت عليه نفوس الرسل من حزم وعزم ، وما تملّك قوامها من حب للصالح العام ، وكيف صبروا على ما ينالهم من أذى ، ودأبوا على دعوتهم

واثقين بأن النصر حليفهم ، موطنين نفوسهم على أن العاقبة لهم ، وأنه ينبغى للمصلح أن يكون على الخلق الحميد ، وأن يكون له من الارادة الحديدية ما لأولئك الرسل ، حتى لا يزيده إيذاء الناس له إلا استمساكا بمبدئه ، وثباتا على عقيدته ورأيه ، وناهيك قول نبي الله يوسف عليه السلام للنسوة اللاتى تآمرن عليه .

« رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ «٣٣» فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٣٤» [1] .

كما أهتمّ كثيراً بربط سيرة الرسل بحال المسلمين اليوم فى سياستهم العامة . لأن الدين جاء لاصلاح حال الناس فى سياستهم ، كما جاء لاصلاحها فى نفوسهم وأخلاقهم ، ومن حاول أن يفهم الدين عاريًا عن السياسة العامة فانما يحاول أن يشطره شطرين ، فيأخذ بعضاً ، ويدع بعضاً .

فلا عجب أن يجد رجال الوعظ فى كتابى هذا ما يشدّ عزمهم ، وينير قلوبهم ، وأن يجد فيه رجال السياسة ما يرفع نفوسهم ، ويوجهها للصالح العام ، ويعرفها بالله وسننه فى وعده ووعيده ، وعادته مع المصلحين والمفسدين .

لا عجب أن يعرفوا أن لا غنى لهم عن الأخذ من مشكاة الوحى السماوى ، والتضلع من معين المعارف الالهية التى أودعها الله كتابه الحكيم ، حتى يكونوا ساسة علماء ، وقادة حكماء ؛ يبصرهم الله فيبصرون ، ويعرفهم فيعرفون .

إذا كان من الواجب على الزعماء السياسيين ، وقادة الشعوب ، أن يدرسوا تاريخ النهضات فى الأرض ، ليضموا عقولا إلى عقولهم ، فأولى بهم أن يدرسوا تاريخ الرسل ، وسيرة أول المصلحين فى الأرض من مصدرها الصحيح ، وينبوعها الصافى ، وهو القرآن الكريم . وأنا زعيم بأن دراستهم لتاريخ الرسل ستجعلهم قادة على نمط لم يألفوه من قبل ، ثم يكون للمسلمين شأن جديد بعد هذه الزعامة التى

---

[1] يوسف .

تبنى على سنن حكيمة عادلة ، وأخلاق طيبة مرضية ، وعقيدة كالجبال ثباتا ورسوخاً وبذلك يسعدون ويُسعدون أممهم .

لو أن الناس عُنوا بدراسة كتابهم السماوى عنايتهم بكتب الناس لكان لهم شأن غير هذا الشأن ، وحال غير ذلك الحال ، ولكن ماذا نصنع ، وقد كتب الله علينا الجحود حتى على رجال المدنية منا ، وقُدِر لنا الحرمان ، لطائفة تعدّ نفسها من المثقفين المتعلمين .

ويجمل بى وقد وصلت بالقارئ إلى ماوصلت أن أسوق قصة طريفة ، وإن كانت مؤسفة . أبلغنى المرحوم صديقى الشيخ عبد العزيز الخولى أنه تحدث إليه رجل من الذين درسوا دراسة واسعة ، وحصلوا على شهادات عالية ، وأبلغه أنه درس كتبا كثيرة فى الاجتماع ، ولم يعجبه مسلك القرآن الكريم فى مسألة خاصة ، فسأله ماهى ؟ قال : إن القرآن يأمر بقتال الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فأسف المرحوم الشيخ الخولى لهذه الجهالة من رجل دارس كهذا ، وقال : كان يجمل بك قبل أن تعيب على القرآن مسلكه فى مسألة عينتها أن تعطيه من العناية شيئا مما أعطيته لغيره من الكتب ، ومن المؤسف أن تدرس كل شئ فى موضوعك إلا القرآن . ليس فى القرآن آية بهذا المعنى الذى استشكلته . إنما هو حديث نبوىّ للعلماء كلام طويل فى تأويله وبيان معناه .

فانظروا كيف يصل بنا تناسى القرآن الكريم إلى أىّ حد ، وكيف يُحرم الرجل مافى كتاب الله من معارف وعلوم أحوج مايكون إليها ، لأنه تعود أن يأخذ العلم من كتب وضعها الناس ، لا من كتاب أنزله الله ، ليكون قانونا عاما للبشر ، ودستوراً صالحا لكل زمان ومكان ،

إن الذى يتأمل تاريخ أولئك الرسل الذين عرضت لهم فى كتابى هذا يجدهم متواطئين على دعوة الناس إلى التوحيد ، والايمان بالبعث والجزاء ، والايمان

بالرسل جميعهم ، لا فرق بين رسول ورسول ، وأن المكذب لرسول من رسل الله تعالى مكذب بالرسل جميعهم ، ألا ترى إلى قول الله تعالى : « كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ «١٠٥» »[1] . مع أنهم لم يكذبوا إلا رسولا واحداً هو نبيّ الله نوح ، ويقول : « كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ «١٦٠» »[2] . وكذلك يقول فى عاد ، ونرى القرآن الكريم قد أهدر إيمان الرجل إذا هو فرّق فى الإيمان بين رسول ورسول : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً «١٥٠» أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا «١٥١» وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا «١٥٢» »[3] .

وكذلك كانت دعوتهم أساسها العمل الصالح ، والخلق الطيب .

على هذه الأصول اتفقت دعوتهم ، واجتمعت كلمتهم ، وبذلك كانت الشرائع متحدة فى أصولها ، وإن تفاوتت فى مشاربها وأساليبها .

ترى الرسل دائما يذكرون أقوامهم بماضيهم معهم ، وأنهم لم يبعثوا فيهم جبارين ، بل مبشرين ومنذرين ، أمناء ناصحين ، لا يبتغون من دعوتهم سوى ارضائهم لربهم ، وإسعادهم لشعوبهم ، لا ينتظرون منهم أجرا على دعوتهم ، بل ينتظرونه من الذى فطرهم ، مؤمنين بأحقية ما يقولون ، وجدير بقوم ذلك حالهم ، وهذا ماضيهم ، أن يسمع الناس لهم .

إن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على اتفاقهم على أولئك الأصول يُعنون عناية خاصة بالأمراض التى تحيق بأقوامهم ، فتجد نبيّ الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام يهتمّ كثيراً للتوحيد ، ومحاربة الشرك ، حتى ليخيل لمن يقرأ قصته

[١ ـ ٢] الشعراء . [٣] النساء .

فى القرآن الكريم أنه لم يُبعث إلا بالتوحيد ، لتفشى الوثنية فى عهده ، وفتنة الناس بالأصنام فى مدته ، ولذلك اشتهر بأنه شيخ الموحدين .

وتجد نبيّ الله لوطا يُعنى بمحاربة الفاحشة التى فشت فى قومه ، حتى ألفها الناس ، وأصبح التنزه منها جرما يستحق عليه صاحبه النفى والتغريب ، وذلك منتهى الفساد الخلقى ، والنزول عن مستوى الانسانية . ألا ترى إلى القوم يقولون فى شأن لوط وحزبه : «أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ «٨٢»»[1]

وتجد نبيّ الله شعيباً يدعو القوم بعد توحيد الله تعالى إلى أن يوفوا الكيل ، ويزنوا بالقسطاس المستقيم لأن مرض الغش والتدليس كان شائعاً فيهم .

وترى نبى الله موسى يُعنى بانقاذ بنى إسرائيل من مخالب فرعون ، ويعمل على إحباط ظلمه ، ومحاربة طغيانه ، ويَجِدُّ فى تربية العزة والكرامة فى نفوس القوم ، لأنهم ألفوا الذل زمناً طويلا .

كل ذلك لنفهم أن المصلح دائما يجعل همه محاربة المرض الموجود ، وإذا كان هناك أمراض عمد إلى أفتكها بالنفوس ، وأضرها على الخلق والنفس، كالطبيب إذا عرض عليه رجل عنده أمراض ليس فى استطاعته أن يعالجها دفعة ، فانه يبدأ بأهمها خطراً .

وطريقتى فى كتاب : « دعوة الرسل » أن أستعرض قِصص الرسول فى القرآن كله ، وقد لا أترك منها إلا ما يتشابه مع ما أذكره من القصص تشابهاً كاملا ، ثم أبدأ بالقصة مرتبة على نظام القرآن الكريم ، وأعقب القصة من كل سورة بالشرح والتعليق ، وإذا طالت القصة من السورة الواحدة جعلتها قطعاً ، وعقبت كل قطعة بشرحها ، والتعليق عليها .

وكذلك التزمت أن أجعل كل رسول حيث وضعه التاريخ ، فأبدأ مثلا بنبيّ الله نوح ، وأعقبه بنبيّ الله هود ، ثم بنبيّ الله صالح . ثم بنبيّ الله إبراهيم ، ثم بنبيّ

---

[١] الأعراف .

الله لوط ، ثم شعيب ، ثم يوسف ، ثم موسى وهارون ، ثم داود وسليمان ، ثم عيسى ثم نبينا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ورأيت أن يكون تعليق على القصة بعيداً عن الاصطلاحات العلمية ، حتى يكون سهل التناول ، ميسرا على من يريده من المشتغلين بالعلم وغير المشتغلين ، وأن يكون الشرح والتعليق على هيئة فقرات مُرقَّمة بأرقام متسلسلة ، كل فقرة تتعلق بناحية خاصة فى الآية .

كما قصدت أن يكون شرحى بعيداً عن الإسرائيليات التى تعوّد المفسرون أن يشحنوا بها الكتب ، ويملئوا بها أدمغة القارئين .

فقد أصيب الدين فيما أصيب بالأحاديث التى وضعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذها العامة دينا ، وبما حُشيت به كتب التفسير من اسرائيليات نقلها فريق من اليهود بقصد افساد دين المسلمين عليهم ، كالقصة التى ينسبونها زوراً لنبى الله داود مع أحد قوّاده .

وإذا كان العلماء قد وضعوا قوانين بها عرف الموضوع من الصحيح ، واستطاعوا أن يقاوموا الأحاديث الموضوعة بعض المقاومة . فان ماشُحنت به بعض كتب التفسير من الإسرائيليات لايزال الناس تقاسى آلامه ، ويجد المفسر من العناء فى تفنيده وإقامة الأدلة على بطلانه مايجد .

من أجل ذلك قصدت أن يكون تعليق على الآية بعيداً كل البعد عن الروايات صحيحها وضعيفها ، لأن فهم الآية لايتوقف عليها ، وأن يكون شرحى للقصة متمشيا مع سياق الآية ، ومتفقا والأصول العامة للدين ، مسايرا لما ينبغى لرسل الله من عصمة ، لائقا بما أعده الله لهم من زعامة ، وماهيأه لهم من منصب .

وتجدنى دائما فى تعليق على قصص الأنبياء أعول على ماقرره العلماء من أصول صحيحة ، فأرجع فى التراجيح عند التعارض إلى قاعدة علماء الجرح والتعديل ،

فاذا ورد حديث ظاهره طعن فى عصمة رسول من الرسل . رجعت بالقارئ إلى ماااتفق عليه العلماء من أن عصمة الأنبياء وردت من طريق قطعى ،فلا نبطلها من طريق ظنى ، وخذ مثلا لذلك قول الله تعالى فى نبيه إبراهيم : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا «٤١» [1] . وما رواه بعض المحدثين من حديث « كذب إبراهيم ثلاث كذبات » فماذا نصنع فى التوفيق بين الحديث والآية ؟ لاشئ أكثر مما قرره العلماء ، من أن الآية أقوى من الحديث فتقدم عليه ، ومن أجل ذلك يُردّ الحديث ، وتعجبنى كلمة للفخر الرازى « إذا دار الأمر بين كذب الراوى وكذب الرسول وجب أن نعمد إلى كذب الراوى » .

بمثل هذه القاعدة يمكن إبطال كثير من الاسرائيليات ، وبمثل هذه القاعدة تستطيع أن تدفع عن عصمة الأنبياء ماورد عليها من شبه وشكوك .

وسترى عند الكلام على سيرة كل رسول مايجلى لك ناحية العظمة والخلق المتين فيه ، وأن القرآن الكريم أحسن معبر عن سيرة الرسل الطيبة متى فهم فهما مرضيا ، وجُرّد عن كل ماأحاطه به بعض المفسرين من اسرائيليات .

(وأوّل) رسول عرضت لقصته نبى الله نوح عليه السلام : عرضت لها فى سورة الأعراف ، ويونس ، وهود ، والمؤمنون ، والشعراء ، وسورة نوح .

وأوّل شئ يلفت نظرك فى هذه القصة صبر نوح على الدعوة ذلك الوقت الطويل الذى يحدثنا الله عنه فى قوله : « فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا « ١٤ » [2] . فليعتبر بذلك الدعاة الذين تغلب على نفوسهم اليأس ، ليعتبروا بذلك الصبر الخارق ، وتلك الارادة الحديدية ، ولولم يكن لنوح من الآيات الخلقية سوى هذه الآية لكفته دليلا على تأييده من ربه ، وصدقه فى دعوته ، دع أدبه مع قومه ، وتوكله على مولاه . وقد أنزل فيه مع قومه سورة كاملة تمثل لك كيف يكون الجمود على الباطل ، والدفاع عن الشرك . وكيف استباح نوح بعد أن

---

[١] مريم . [٢] العنكبوت .

لبث فيهم ذلك الوقت الطويل أن يدعو عليهم بقوله : « رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَٰفِرِينَ دَيَّاراً «٢٦» [1] .

(الثانى) نبى الله هود عليه السلام : وقد عرضت لقصته فى سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والذى تراه جديداً فى قصة هود أن يُذكر قومه أن الله جعلهم خلفاء فى الأرض من بعد قوم نوح ، وزادهم فى الخلق بسطة ، وأنه ينبغى لهم أن يذكروا هذه النعم ليصلوا بها إلى مُسديها ، وأمرهم باستغفار الله والتوبة إليه ، ليرسل السماء مدراراً عليهم ، ويزيدهم قوة إلى قوتهم ، فيرمونه بأن بعض آلهتهم مسه بسوء ، ومن أجل ذلك يحقرهم ، فيشهد الله ويشهدهم أنه برىء من شركهم وآلهتهم ، ثم يذكرهم بنعم الله عليهم فى رفع البناء الشامخ ، لا لأغراض صحيحة ، ومنافع تعود عليهم بالخير ، بل للعبث واللهو ، ويذكرهم أن من خُلقهم أنهم إذا بطشوا بالضعيف بطشوا جبارين ، كغلاة المستعمرين فى كل زمان ، فيقولون له : « سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَٰعِظِينَ «١٣٦» إِنْ هَٰذَا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ «١٣٧» [2] .

(الثالث) نبى الله صالح : عرضت له فى سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والنمل . وأظهر شىء فى دعوته الناقة ، وتحذير الله لهم أن يمسها أحد بسوء لا فى شربها ولا فى جسمها ، وأن أولئك القوم عقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، وطلبوا من صالح أن يأتيهم بما يعدهم به من عذاب الله إن كان صادقاً ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا جاثمين على ركبهم .

ومن مواطن العبرة فى القصة أن الذى عقر الناقة واحد منهم ، ولكن القوم كانوا راضين عن عمله ، فنسب العقر لهم ، وعمهم الله بعذابه ، ليرينا أن الناس إذا لم يأخذوا على يد الظالم عمهم الله بعذاب من عنده : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ «٢٥» [3]

[١] نوح . [٢] الشعراء . [٣] الأنفال .

(الرابع) نبى الله ابراهيم عليه السلام : وقد عرضت لدعوته فى سورة البقرة ، والأنعام ، وسورة ابراهيم ، والنحل . ومريم ، والأنبياء ، والشعراء ، والصافات ، والممتحنة ، ويمتاز ابراهيم باتمام الكلمات التى ابتلاه الله بها ، وبشارة الله له أن يجعله إماماً للناس ، وبدعواته الحكيمة الموافقة للسنن الالهية ، وبنائه البيت هو وولده اسماعيل ، وتطهيره من الأرجاس الحسية والمعنوية .

كما يمتاز بايتاء الله له الحجة ، وأدبه مع أبيه فى دعوته إلى الله تعالى ، وكراهته للأصنام ، مما اضطر المبطلين أن يلجأوا معه إلى الحديد والنار ، حينما أعوزتهم الحجة ، كما يمتاز إبراهيم بقصة ابتلاء الله له بذبح ولده ، واستسلامهما لله تعالى ، مما يدل على علوّ منزلتهما ، وأنهما قدوة صالحة فى التضحية ونكران الذات ، وناهيك قول الله فى شأنه : « إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً «١٢٠» »[1] .

(الخامس) نبى الله لوط عليه السلام : وقد عرضت لقصته فى الأعراف ، وهود . والشعراء ، والعنكبوت ، نهى لوط عليه السلام قومه عن الفاحشة المعروفة ، وأراهم أنها جناية على الفطرة . وإذلال للرجال بكسر مافيهم من إباء وشمم . وتعطيل للنسل ، ومفسدة للنساء بتعريضهن للزنا ، كما أراهم أنهم مسرفون بذلك العمل . متجاوزون للحدود ، وقد هدّدوه باخراجه من بلده إن لم يرجع عن دعوته ، وقد كان عاقبة أمرهم أن أخذهم الله بعذابه ، وأنجى لوطا وأهله .

(السادس) نبى الله يوسف عليه السلام : وقد عرضنا لقصته من سورة يوسف ، ويالها من قصة ، فيها من الآيات والعبر مالا يقف عند حدّ ، وقد أخذت قسطا كبيراً من الكتاب ، شغلت منه ثمانين صفحة لوطبعت على حدة لكانت رسالة .

افتتحت القصة بالكلام على القصص ومعناه وأغراض الناس منه ، ثم برؤيا يوسف ، وبحث طويل فى الرؤى والأحلام ، وآراء العلماء اسلاميين وغير اسلاميين فيها وفى تعليلها ، وفى أصول التأويل ، ثم تآمر اخوة يوسف عليه

[1] النحل .

و إلقائه فى الجبّ ، وكيف أوصله الله بتدبيره ولطفه إلى أكبر بيت فى مصر هو بيت العزيز .

ومن أهمّ ما فى القصة فتنة امرأة العزيز به ، ومراودتها إياه عن نفسه ، ورده عليها بإباء وشمم ، شأن من أعده الله لمنصب الرسالة وهيأه لزعامة الناس ، وقوله : « مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ «٢٣» [1] » وبيان أن الهمّ الذى حصل من امرأة العزيز همّ يتناسب مع شهوتها وجهلها ، أما همّ يوسف فهو همّ بالخلاص منها ، وقد سخر الله له العزيز فى الوقت الذى استحكم فيه الخلاف ، شأنه مع أحبابه وأوليائه يجعل لهم من كل ضيق مخلصاً ، ومن كل همّ فرجا ، ثم شهد الله له بأنه من عباده المخلصين ، وشهدت له امرأة العزيز بأنها راودته فاستعصم ، ثم عرضت لقصته فى السجن ، وامتناعه على الملك بعد أن طلبه إلا أن تظهر براءته ، وذلك صبر خارق ، وانتهاء القصة بشهادة امرأة العزيز مرة ثانية ، وشهادة النسوة اللائى قطعن أيديهن بأنهنّ ماعلمن عليه من سوء .

ومن أهمّ ما فى القصة أن الملك طلبه ليكون بطانة خالصة له بعد تجربة دامت سنين ، وقال له : «إنك اليوم لدينا مكين أمين» وأن نبى الله يوسف طلب منه أن يجعله وزيراً لمالية الدولة ، وعلل ذلك بقوله : « إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ » يعلم الملك كيف يختار الوزراء من ذوى الخلق والعلم ، وأن الخلق أول شىء يجب أن يحرص عليه الملوك فى اختيار الوزراء ، وتبع ذلك بحث طويل فى بطانة الملوك ، وأثرها فى سعادة الأمم وشقائها .

ولو أن ملوك المسلمين تأسوا بذلك الملك ، فاحتضنوا النابه الأمين من الأمة لكان لهم ولأممهم حال غير هذه الحال .

---

[1] يوسف .

(السابع) نبي الله شعيب عليه السلام : وقد عرضت لدعوته فى سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء ، وأظهر شىء فيها دعوته إلى الصدق فى البيع والشراء وما إلى ذلك ، وأن قومه هددوه إن لم يرجع عن دعوته أن يخرجوه والذين معه من بلده ، فيقول لهم شعيب : « أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ «٨٨» (١) » ثم يؤيسهم من هذه العودة ، ويريهم أن ذلك لم يكن شأن الرسول الذى يدعو الناس إلى الحق فيقول : « قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ «٨٩» (٢) ». وأن قومه أخذوا يتهكمون به ، ويسخرون من عبادته . ويقولون له : « مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ «٩١» (٣) ».

فيردّ عليهم نبيّ الله شعيب بقوله : « يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ «٩٢» وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ «٩٣» (٤) ».

(الثامن والتاسع) نبيا الله موسى وأخوه هرون عليهما السلام ، عرضت لقصتهما فى المائدة ، والأعراف ، ويونس ، وإبراهيم ، وطه ، والمؤمنون ، والشعراء ، والنمل ، والقصص ، وغافر ، والدخان ، والنازعات ، وهذه السيرة لها شأن عظيم فى القرآن ، ولهذا أطال فيها إطالة لا تكاد تجدها فى غيرها من السِّيَر ، ولا عجب فهى قصة الاستبداد المقنع ، والظلم الصارخ ، والطغيان البالغ منتهاه ، هى قصة الخروج على دساتير العدل ، وقوانين الفطرة ، وحرمة الانسانية ، وجدير

[١ـ٢] الأعراف . [٣ـ٤] هود .

بالانسان أن يقف على هذه القصة العجيبة، قصة ظلم الانسان لأخيه الانسان ، جدير به أن يعرف كيف نشأ ذلك الظلم ، ولماذا أقدم فرعون عليه ، وأن يعرف كيف كانت عاقبة الظالمين .

علمنا الله فى هذه القصة أن فرعون استخفّ قومه فأطاعوه ، فكان منه ما كان من عسف وجور ، وأن كل ظالم شأنه شأن فرعون ، متى وجد بطانة تحببه فى الظلم وتعينه عليه ـ عظم أمره ، وانتشر شرّه : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ «٥٤» [1] .

كما يرينا أن عاقبة الظلم الهلاك الدائم ، والتنكيل بالظالمين . عرضت هذه القصة لمهمة نبي الله موسى وأخيه هرون ، ويالها من مهمة شاقة ، لتعلقها بفرعون الطاغية ، ولأن بنى إسرائيل قوم ألفوا الذل ، ووطنوا أنفسهم على الاستعباد ، فتربية العزة والكرامة فى نفوسهم أشقّ شيء على المصلح . كما عرضت فيها للسحر وأنواعه ، وكيف أنَّ الملأ من قوم فرعون كان يغريه بنبى الله موسى وأخيه هرون ويريه أنهما يريدان ملكا لا رسالة ، وتلك ألعن دسيسة تعوّد الناس أن يتقدموا بها للملوك .

وناهيك بقصة السحرة الذين حشرهم فرعون ليتغلبوا على موسى ، وما فى هذه القصة من عبَر ، وكيف أن الحق استولى عليهم ؟ فلم يحفلوا بتهديد فرعون لهم أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، ويصلبهم فى جذوع النخل ، لتفهم أن الحق متى وصل إلى النفوس لا تستطيع قوة فى الأرض أن تقاومه ، كما عرضت لحديث السامرى ، وصنعه العجل الذى عبدوه بعد ذهاب موسى إلى ميقات ربه ، ودعوة موسى المستجابة على فرعون وقومه أن يطمس على أموالهم . ويشدّ على قلوبهم ، وأن إيمان فرعون عند وقوع الهلاك به لم ينجه ، لأنه إيمان المضطرّ ، وكيف

---

[١] الزخرف .

طمأن الله موسى عند تخوّفه من فرعون ، وطلب من الله تعالى أن يعينه بأخيه هرون ، وفيها بحث عن وزارة الرسل ، والغاية منها ، والفرق بينها وبين الوزارات المدنية اليوم .

كما عرضت لجبروت فرعون وعلوّه فى الأرض ، وجعله أهلها شيعاً وأحزابا ، يستعين ببعضهم على بعض ووعد الله المستضعفين أن يمكنهم فى الأرض ، وقصة تربية موسى فى بيت فرعون ، وقتله للقبطى خطأ ، وقصة زواجه ، ووعظ مؤمن آل فرعون ، وما فيه من عبر ، ولا تنس افتتان فرعون بملكه ، وقوله : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ «٥١» [١] .

ولو كان للملوك عقول لاعتبروا بفرعون وملكه ، وعرفوا أن الاستبداد ما كان يوماً طريقاً لعمارة الأرض ، والاحتفاظ بالعروش .

وختمت القصة بقطعة من سورة النازعات جمعت أصول ما تفرق فى السور من سيرة فرعون ، لنلفت النظر إلى إعجاز القرآن فى إطنابه ، وإيجازه ، بأسلوبه القاهر ، وبيانه الأخاذ .

وجملة القول أن قصة نبىّ الله موسى وأخيه هرون مع فرعون : هى قصة حافلة بالعظات ، غاصة بالعبر ، فيها من الدروس النافعة مالا يستغنى عنه مصلح ، ولا سيما إذا كان مصلحاً سياسياً ، ولذلك أطال القرآن الكريم فيها ، وقد شغلت من كتابى هذا مائة صفحة وستاً ، ولو شئت أن أزيد فى بسطها لفعلت ، ولكنى خشيت الملل ، فوقفت عند هذا الحد .

(العاشر والحادى عشر) نبيا الله داود وولده سليمان عليهما السلام : عرضت لقصتهما فى سورة البقرة ، والأنبياء ، والنمل ، وسبأ ، وسورة صٓ . وإنك لترى فى قصة هذين الرسولين من عظمة الملك ، واتساع السلطان ما يبهر نفسك ، وترى

---

[١] الزخرف .

بجانب هذه العظمة شكرا لله تعالى واعترافا باحسانه ، تجد لنبيّ الله داود قصة تتجلى فيها شجاعته ، كما تجد نعمة الله على سليمان وأبيه بالحكم والعلم على تفاوت بينهما ، ونعمته على داود بصناعة دروع الحرب ، وتسخير الريح والشياطين لسليمان ، وتعليم الله له منطق الطير ، وقصة ملكة سبأ ، ونقل عرشها ، وتسخير الجبال والطير ، وإلانة الحديد لداود ، وإسالة معدن النحاس ، وكذلك قصة موت سليمان ، وقصة الخصم والمحراب ، وفتنة داود وسليمان ، وإلقاء جسد على كرسيه ، كما عرضت فى هذه القصة للقضاء ، وما يجب أن يكون عليه ، وكيف أن الهوى قد استولى على الناس فأفسد عليهم كلّ شىء .

(الثانى عشر) نبيّ الله عيسى عليه السلام : عرضت لقصته فى سورة آل عمران ، والمائدة ، ومريم ، والزخرف ، والحديد ، والصف . وأهمّ شىء فيها بعد: بيان آياته على الصدق ، وقصة ولادته الخارقة . فتنة الناس به وبأمه ، وبراءتهما من عبادة الناس لهما ، ودعوة عيسى الناس إلى التوحيد ، شأن عباد الله المقرّبين ، وحسبنا أنّ الله يقول فى عيسى وأمه « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ «٧٥» »[1] . ويقول : « إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِى إِسْرَائِيلَ «٥٩» »[2] .

كما عرضت فى قصته للرأفة والرحمة التى جعلها الله فى قلوب أتباعه . وأن أولئك المستعمرين الجبارين ليسوا من أتباع المسيح فى شىء .

(الثالث عشر) نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : وحسبها أنها الدعوة الباقية إلى قيام الساعة ، والمتفقة فى أصولها العامة ، والأزمنة المقبلة ، والملائمة لرشد الناس وثقافتهم التى أعدهم الله لها فى قرونهم الأخيرة .

وقد أردت أن أصور للناس الأسس التى قامت عليها الدعوة . فى مرحلتيها بمكة

---

[١] المائدة . [٢] الزخرف .

والمدينة ، وأريهم الفرق بين القسم المكى من القرآن ، والمدنى منه ، وأن المكى كان يدور حول الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وحول توحيده فى الألوهية والربوبية والدعوة إلى العمل الصالح والأخلاق الطيبة .

وعرضت لطوائف من آى القرآن الكريم فى هذه الأصول ، وتجد من بين هذه الطوائف جدل الناس فى الرسالة ، وكيف أن القرآن الكريم دفع هذه الشبه حتى قامت حجته على العصاة والمكابرين ؟ كما تجد قسما كبيراً من آى القرآن فى الأخلاق والعمل الصالح .

وكذلك عرضت فى هذا القسم لوظيفة الرسول ، وأنها التبشير والانذار ، والقدوة الصالحة ، والسيرة المرضية ، كما عرضت لتربية الله له ، وإعداده لمنصب الرسالة ، وكان من تربيته إياه أن قص عليه من سيرة الماضين ما فيه العبرة ، ولاغنى لواعظ أو مصلح عن دراسة ذلك النوع من الآيات .

وكذلك عرضت لتعنت المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإحراجه باقتراح الآيات ، وتيئيس الله إياه من إيمانهم لأنهم معاندون ، والمعاند لايقنع بشىء ، وتسلية الله له على ما لقى من المشركين من شدة ، وما قاسى من ألم ، وأن ذلك شأن الناس مع المصلحين .

تلك هى الأصول التى كان يدور عليها التشريع بمكة ، وهى لا تعدو العقائد ، والأخلاق ، والدعوة إلى العمل الصالح ، لم يفرض الله تعالى من العبادات بمكة سوى الصلاة ، فرضها فى السلم والحرب ، والسفر والاقامة .

أما دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فقد كان فيها التشريع الدينى والمدنى والسياسى والاجتماعى ، ولم يعن القرآن الكريم بالعقائد فيها إلا فى محاجته لليهود والنصارى فى شأن عيسى وأمه ، والعزير ، وسبب ذلك فتنة فريق من الناس بهم .

ومن أهمّ ماشرعه الله فى المدينة القتال ، وقد عرضنا له ، وجمعنا كثيراً من آى القرآن الكريم فيه ، لنُرى القارئ لماذا شُرع القتال ؟ وأنه لم يكن لاكراه الناس على الدين ، بل كان لحماية الدعوة والداعى ، حتى يكون الناس آمنين على دينهم وعقائدهم ، ثم عرضنا لآيات الله فى التحريض على القتال ، وسلوكه طرائق عجيبة فى تهييج النفوس .

وكذلك عرضت فى هذه الدعوة لمسألة الايمان ، والكفر ، والنفاق ، وإن الناس كانوا ولا يزالون حيال كل إصلاح أقسام ثلاثة : فريق يناصر المصلح ظاهراً وباطناً ، وهو المؤمن . وفريق يعاديه سراً وعلانية ، وهو الكافر ، وفريق ثالث يوارب ويداجى ، وهو المنافق ، فيناصره ظاهراً ، ويحاربه باطناً .

ثم عرضت لخصائص المؤمنين والآيات فيهم ، ولخصائص الكافرين كذلك فقد يظن الرجل نفسه مؤمناً ، وهو كافر فى واقع الأمر ، وقد يزعم أنه من المؤمنين مع أنه من المنافقين ، وجدير بالمؤمن أن يمعن النظر فى آيات الله فى المؤمنين ، وآياته فى الكافرين .

وكذلك عرضت لآيات القرآن الكريم فى المنافقين ، وذكرت منها قسما كبيراً ، وختمت ذلك القسم بسورة المنافقين ، ذلك أن المنافقين شر مستطير على الاصلاح فى كل زمان ، وما من إصلاح فى الأرض سواء كان دينياً أم سياسياً أم خلقياً أم اقتصادياً إلا ولهم فى إفساده ضلع كبير .

ثم عرضت بعد سوق الآيات فى المنافقين إلى : « كبريات العبر فى المنافقين » أبنت فيها ما نقاسيه من آثار النفاق والمنافقين ، ثم أخذت من آى القرآن الكريم ثلاثة عشر خلقاً من أخلاق المنافقين ، تجد فيها بحثاً مستفيضاً فى الأخلاق والاجتماع ، والسياسة ، وكيف أن كثيراً من أصحاب هذه الأخلاق كان شراً على إصلاحنا السياسى والعامى ، بل كان شراً على كل شىء .

أطلت فى هذا القسم من أمراض الأمة لأن مصيبتنا به كبيرة، وشقاءنا به عظيم .

ثم عرضت لأشهر الغزوات : غزوة بدر الكبرى ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق ، من طريق القرآن الكريم . لأرى القارئ كيف يكون فهمه للحوادث وانتفاعه بالعبر .

ثم تكلمت على الزكاة ، و بيان حكمتها . وأنها صلة بين الغنىّ والفقير ، وطهرة لنفوس الأغنياء من مرض الشحّ الذى هو خطر داهم على مصالح الأمة ومرافقها ، وكذلك عرضت للصيام وحكمته ، وتيسير الله إياه على عباده باسقاطه عن أصحاب الأعذار والمشقات .

وعرضت للحج وفائدته الدينية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والخلقية ، ولأصول المعاملات العادلة ، ونظام البيوت والأسر ، ونظام التوريث المبنى على الحكمة والعدل ، وللحكومة فى الإسلام أساسها الشورى .

وختمت الدعوة ببيان العقوبات فى الإسلام ، ووجه الحاجة إليها من قصاص ، وحدّ لقاطع الطريق ، وللسارق ، والزانى ، والقاذف ، وأن ذلك كله مقتضى الحكمة .

تلك هى : « دعوة الرسل إلى الله تعالى » أولهم نوح عليه السلام ، وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم ، كلها هدى وخير ، وحكمة وعبرة ، وعظة وتذكير .

« وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ «١٢٠» [١]

محمد أحمد العدوى

---

[١] هود .

دعـــوة نوح

إلى الله تعـالى

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «٥٩» قَالَ ٱلْمَلَأُ[1] مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ «٦٠» قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ «٦١» أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ «٦٢» أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ «٦٣» فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ «٦٤» الأعراف

شرح وعـــبرة

(١) لقد كان أوّل شيء بدأ به نبيّ الله نوح عليه السلام قومه أن دعاهم الى عبادة الله وحده . وسنرى ذلك فى دعوى غيره كهود وشعيب وصالح وغيرهم من الرسل عليهم السلام . ولا عجب ، فان الدّعوة الى التوحيد هى أساس كلّ رسالة ، وقد بذلوا فى سبيل التوحيد أكثر وقتهم ، وخاطروا بمهجهم وأرواحهم . يتجلى ذلك فى سيرة نبى الله ابراهيم ، وما لاقاه من قومه عبدة الأوثان ، ولم يشأ نبيّ الله نوح أن يدعو قومه الى التوحيد دعوة خالصة من تخويفهم من عذاب الله و بطشه ، فقال بلسان الخائف المشفق (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وهو يوم القيامة أو اليوم الذى ينزل عليهم فيه عذاب العصيان والمخالفة فى الدنيا وهو الطوفان .

كيف كان جواب قومه ؟

(قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين) لم يكن هذا جواب قومه عامة . وانما هو جواب «الأشراف والسادة» الذين امتلأت نفوسهم بحبّ الجاه والسمعة والرياسة والاستئثار ،

---

[١] الأشراف والسادة يجتمعون على رأى فيملؤن العيون رواء ومنظرا ، والنفوس بهاء وجلالا «عمين» جمع عمى ، والمراد بهم فاقدو البصيرة .

وهم المترفون الذين قال الله فيهم (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون «٣٤» وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين «٣٥» [1]) . ياسبحان الله إن الذين يسمون أنفسهم الأشراف والسادة هم عقبة الاصلاح منذ نشأ العالم، وهم الذين يحسدون كلّ داع الى خير ، ويقفون حجر عثرة فى سبيل دعوته .

ألا ترى ذلك [الملأ] من الأشراف والسادة يقول لنبيّ الله هود عليه السلام (إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين «٦٦» [2]) وكذلك الملأ من قوم صالح يقول للمؤمنين منهم (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون «٧٥» قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون «٧٦» [3]) . ثم ألا ترى ما يحكيه الله لنا عن شعيب وقومه إذ يقول : (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أولتعودنّ فى ملتنا قال أولوكنا كارهين «٨٨» [4]) تلك آثار الأشراف والسادة ، وهذه أعمالهم مع الرسل وأئمة الاصلاح .

(٢) أما جمهرة الشعب الذين سلمت قلوبهم من الضغن ، وطهرت من الحسد فهم أتباع الرسل فى كلّ زمان ، وهم أنصار كلّ داع الى الحق ، وحسبك فى فهم هذه السنة أن تعرف أن هرقل وهو يسأل أبا سفيان عن محمد بن عبد الله قال له « فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال أبو سفيان : بل ضعفاؤهم ، فقال له هرقل كذلك أتباع الرسل » رواه البخارى .

وحسبك أن تعرف أن صناديد قريش هم الذين ناصبوا الرسول صلى الله عليه وسلم العداوة ، وقلبوا له الأمور ، ومكروا به ، ولكن مكر الله كان فوق مكرهم ، وتدبيره قضى على تدبيرهم ، ولم يستقرّ أمر للرسول صلى الله عليه وسلم إلا بعد أن نكل الله بهم ، فمنهم من قتل بأحد وبدر ، ومنهم من خذل ، وهنالك استقرّت الدعوة وظهر أمر الله وهم كارهون .

(٣) وتأمل كيف يسرف الملأ من قوم نوح فى الطعن عليه والزراية به فيقول بصيغة المؤكد (إنا لنراك فى ضلال مبين) وليتهم وقفوا عند رميه بالضلال ، بل أرادوا أن يفهموه أن ضلاله جدّ واضح يستطيع كلّ أحد أن يتبينه ، فيقول نبيّ الله لهم : ياقوم ليس بى شىء من الضلال ولكنى رسول من الله المربى لأجسام العالم بالنعم ، ولأرواحه بالشرائع ، أبلغكم أوامر الله ونواهيه ومواعظه وزواجره ، وأمحض لكم النصح ، وأعلم من أمر الله مالا تعلمونه ، فأعلم من صفات الله وقدرته الباهرة ، وبطشه بأعدائه ماجهلتم ، وأعلم أن بأسه لايردّ عن القوم المجرمين . ثم أراد أن يريهم أنه لم يكن موضع عجب ودهشة أن يجيئهم وعظ على لسان رجل منهم ليخوّفهم عذاب الله ، وليتقوا محارمه، وليهيئهم لرحمة الله ورضوانه، فماذا كان من قومه بعد هذا الردّ المتواضع والنصح الخالص؟ لم يكن منهم سوى التكذيب، فأنجى الله نوحا ومن معه فى السفينة من الطوفان ، وأغرق المكذبين ، وعلل ذلك بقوله (انهم كانوا قوما عمين) عن الحق ، متغافلين عن الحجة ، وقوم هذا حالهم يستحقون من عذاب الله ما حلّ بهم . وفى القصة من العبر مقابلة السفه بالحلم . رموه بالضلال فكان ردّه عليهم أنه ليس به ضلال ، ولكنه رسول من الله، فكان موقفه موقف المدافع عن

---

[١] سبأ . [٢و٣و٤] الأعراف .

نفسه وأن رميه بالضلال لم يوغر صدره من جهتهم ، بل أخذ ينصحهم ويخوّفهم ويريهم أن عليه واجبا : هو تبليغ رسالات الله ، وليس من شأن الداعى الى الله أن يصرفه عن دعوته مايسمعه من قول ممض ، أو لفظ منفر . واغراق المكذبين ، ونجاة الرسل ، وأتباع الرسل ، وتعليل ذلك بعماهم عن الحق .

نوح عليـــه السلام

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ [١] عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِئَايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ «٧١» فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٧٢» فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِئَايَٰتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ «٧٣» يونس

شرح وعـــبرة

(١) يأمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتلو على قومه قصة نوح وهو يقول ياقوم إن كان قد ثقل عليكم إقامتى فيكم زمنا طويلا ، وتذكيرى لكم بآيات الله فللتم دعوتى ، فانى متوكل فيها على ربى الذى أرسلنى ، وهو الذى يؤيدنى وينصرنى فأجمعوا ماتريدون من أمركم مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله ، ثم لا يكن أمركم الذى تعتزمونه خفيا فيه شىء من الحيرة واللبس الذى يقتضى التردد فى الانفاذ ، ثم أنفذوا الىّ ذلك الأمر بعد اجماعه واعتزامه ، ولا تمهلون بتأخير هذا القضاء ، فان انصرفتم عنى فلاحق لكم فى ذلك الاعراض ، لأنى ماسألتكم على هذا التذكير أجرا ومكافأة ، وإنما أطلب الأجر من ربى الذى أرسلنى ، وقد أمرت أن أكون من المذعنين لما أدعوكم إليه ، أسلمتم أم كفرتم ؟ (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام لهم الحجة بقوله وعمله على حقية دعواه ، فأنجاه الله ومن معه فى الفلك ، وجعلهم خلائف من المكذبين ، وأغرق المكذبين بآياته ، فانظر كيف كان عاقبة الذين خوّفوا من عذاب الله فأصروا على تكذيبه .

(٢) وفى القصة من العبر أنه إذا سئم المدعوّون من طول مدة الدعوة فليس للداعى أن يسأم ،

---

[١] عظم وشقّ « مقامى » قيامى ومكثى بين أظهركم « فأجمعوا أمركم وشركاءكم » من أجمع الأمر نواه وعزم عليه ، والواو بمعنى مع « غمة » سترة : من غمه ستره « ثم اقضوا إلىّ » أنفذوه « الفلك » السفينة ، ويستعمل فى الواحد والجمع « خلائف » يخلفون الهالكين بالغرق .

واعتماد الداعى فى دعوته على ربه ، لأن ذلك يملأ قلبه شجاعة وأملا ، واستهانته بكل مايلاقى فى سبيل الدعوة ، ويمحص قلبه ، ويرفع منزلته ، فهذا نبى الله نوح لايبالى بتجمع قومه عليه ، واستعانتهم بشركائهم ، ويأمرهم بأن يجمعوا أمرهم ، وينفذوا قضاءهم فيه ، لأنه واثق بأن النصر حليفه ، والعاقبة له ولأنصاره .

يلفتك نبى الله نوح الى مسألة هى جديرة بالاهتمام : هى أنه ماسأل قومه أجرا على دعوته ، والشأن فى كل داع لايطلب أجرا إلا مرضاة ربه أن يكون مخلصا فى دعواه ، وهذه نغمة نسمعها من جميع الرسل ، وهى جديرة بالعناية ، ومقياس صدق الداعى ، وبرهان أن دعوته تتصل بالقلب والوجدان ، وحسبنا أن الله تعالى يقول (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين « ٢٠ » اتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون « ٢١ » [1]) .

لنعرف أن من لايسأل الأجر على دعواه وهو يعمل بما يدعو الناس إليه هو داعى صدق ، وصاحب عقيدة خالصة ، ومبدأ حق يقف عند عقيدته ، ويكافح عن مهمته ، ويرحب بكل أذى يناله من ذلك الطريق .

نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ «٢٥» أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ «٢٦» فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا [2] بَادِىَ الرَّأْىِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ «٢٧» قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ «٢٨» وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ «٢٩» وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٣٠» وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنْفُسِهِمْ

---

[١] يس . [٢] أخساؤنا وأدنياؤنا الذين ليس لهم رزانة عقل أو أصالة رأى ، جمع أرذل ، والمراد بهم فقراء المؤمنين « بادى الرأى » ظرف لقوله اتبعك ، والمراد أنهم اتبعوه من غير روية ونظر « عميت » أخفيت ، وقرئ عميت بالتخفيف : خفيت .

إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ «٣١» قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ «٣٢» قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ «٣٣» وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ[1] هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ «٣٤» أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ «٣٥» وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ «٣٦» وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ «٣٧» وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ «٣٨» فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ «٣٩» حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ «٤٠» وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «٤١» وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ «٤٢» قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ «٤٣» وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٤٤» وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ

---

[١] « يغويكم » يهلككم « افتراه » اختلقه « تبتئس » تحزن حزن البائس «بأعيننا» ملحوظة برعايتنا « التنور » وجه الأرض كما قال : (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر «١١» وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر «١٢») القمر . « استوت » استقرت « الجودي » جبل في نواحي ديار بكر من بلاد الجزيرة .

وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَٰكِمِينَ «٤٥» قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ «٤٦» قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ الْخَٰسِرِينَ «٤٧» قِيلَ يَٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ «٤٨» تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ «٤٩» هود

شرح وعـــبرة

(١) يرى قوم نوح أن نوحا بشر مثلهم يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون ، ومن كان كذلك لايصح أن يكون رسولا ، وهذه الشبهة هى التى قالها أقوام الرسل حينما دعوهم الى الله . ألا ترى الى قول الله تعالى فى سورة الأنبياء (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون «١» مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون «٢» لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون «٣») وقد ردّ الله على هذه الشبهة بقوله (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون « ٧ » وماجعلناهم جسدا لايأكلون الطعام وما كانوا خالدين «٨») وقال فى سورة الفرقان (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا « ٢ ») وفى سورة ابراهيم (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين « ١٠ » قالت لهم رسلهم ان نحن إلا بشر مثلكم ولكنّ الله يمنّ على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون « ١١ ») فالآيات المذكورة ترينا أن البشرية لاتنافى الرسالة . ولامانع من أن يمنّ الله على بعض البشر فيختاره لذلك المنصب الجليل ، ويصطفيه للوحى ينزل عليه ويبلغه للناس ، ولله درّ بعض المفسرين إذ يقول [ما أعجب شأن أهل الضلال لم يرضوا للنبوّة ببشر ورضوا للالوهية بحجر] .

(٢) ان أتباعه من أراذل القوم وأدناهم منزلة ، كأصحاب المهن الحقيرة من الصناع والعمال ، ولو كانت دعوته حقة كان أتباعه من أصحاب العقول الراجحة ، والثراء الواسع ، وذوى المكانة الذين يتبعونه عن بحث واقتناع ، أما أراذل القوم فيتبعونه [بادى الأمر] بدون روية ولانظر . ويصح أن يكون تقرير الشبهة على وجه آخر تفسره القصة فى سورة الشعراء (قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون « ١١١ ») يريدون أن لاينبغى أن نتبعك وقد اتبعك سفلة القوم وفقراؤهم ،

ولا يصح لنا - مع مانحن فيه من القوة والغنى - أن نكون قرناء لأولئك الأرذلين فيجمعنا معهم دين واحد ، وملة واحدة ، وسواء جرينا على الوجه الأول أو الوجه الثانى فاتباع الأرذلين لنبيّ الله نوح ذنب له وسيئة من سيآته ، فيعتذر نبيّ الله لهم بأن لا يستطيع أن يطرد المؤمنين لبساطة عقولهم ، أو دناءة مهنتهم ، ويقول لخصومه من الذى ينصره من عذاب الله إذا هو طردهم عن مجلسه ؟ وأبعدهم من عطفه . ومادام صاحب مبدأ وعقيدة فهو يرحب بكل من يعتنق ذلك المبدأ أيا كانت مهنته . ولو كانوا من أهل العلم ماعابوا على نوح أن يتبعه الفقراء والضعفاء لأنهم أتباع الرسل فى كلّ زمان ومكان ، ولكنهم قوم يجهلون سنة الله فى ذلك ، كما يجهلون أن نوحا عليه السلام جاء برسالة من ربه ، ويهمه أن تبلغ الناس ، ملوكهم وسوقتهم ، أغنياءهم وفقراءهم . ولا يستطيع أن يحتقر مؤمنا لفقره أو يقدّس غنيا لغناه . تلك هى شبهة قوم نوح على نوح ، وذلك هو ذنبه عند خصومه وأعدائه . وقد يخيل إليك وأنت تقرأ هذه الشبهة أن المستعمرين لبلاد المسلمين وصنائع المستعمرين ، قد تمكنت تلك الشبهة من نفوسهم ، وتغلغلت فى أحشائهم ، فأخذوا يدفعون بها فى صدور الزعماء ، الذين يطالبونهم بالجلاء ، ويوهمون الناس أنهم لا يعترفون بزعامتهم ، ولا ينصاعون لرغباتهم ، إلا حيث التفّ حولهم علية القوم وأشراف الناس ، وأصحاب المصالح فى البلاد . أما الزعماء الذين يؤيدهم سواد الأمة ، والرعاع منها ، وأصحاب المهن الحرة كالعمال وأرباب الصناعات فلا يقام لزعامتهم وزن ، ولا يعمل لها حساب ، يريدون بذلك الغض من قيمة الزعماء ، والتخلص من طلبهم ، وتعجيزهم عن الاضطلاع بمهمتهم ، ومضيهم للحصول على غايتهم ، وهم يعلمون أن انصياع الأشراف والسادة لهم ضرب من المحال ، لأنهم جدّ حريصين على مصالحهم ، يداورون لقضاء حاجاتهم ، والابقاء على ثروتهم ، فلا يستطيعون أن يعرضوا أنفسهم لسخط المستعمرين وأصحاب النفوذ والسلطان ، يقول المستعمرون ذلك لزعماء الأمة ، وفى الوقت نفسه يعترفون من قرارة قلوبهم أن أولئك [الأرذلين] أو رعاع الناس وغوغاءهم هم الشرّ المستطير على المستعمر ، وهم الذين يقضون مضجعه ، ولا يستطيع أن يجد الى إرضائهم سبيلا ، وآية ذلك أنه يعمل لهم ألف حساب وحسابا فى بلاده ، وكثيرا مازلزلوا عروشا ، وأقاموا دولا ، وألفوا على حسابهم وزارات يولونها الثقة ، ويناقشونها الحساب .

أولئك هم الذين سماهم قوم نوح [الأرذلين] ويعيبون نوحا لأن توابعه منهم . وأولئك هم [الرعاع] الذين يعيبون الزعماء باصاختهم لدعوتهم وانصياعهم لمبادئهم ، وأولئك هم الضعفاء أتباع الرسل فى كلّ زمان ومكان كما قال هرقل لأبى سفيان حين سأله أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ، قال : كذلك أتباع الرسل . وأولئك هم المساكين الذين قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم « اللهمّ أحينى مسكينا وتوفنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » [1] .

(٣) يقول قوم نوح له ولأتباعه (ومانرى لكم علينا من فضل) يجعلكم أهلا للرسالة وزعامة الناس فى الدين ، وعقبوا ذلك بقولهم (بل نظنكم كاذبين) وقد اقتصروا فى نسبة الكذب الى نبيّ الله نوح فلم يقطعوا به حتى لا ينسبوا الى المجازفة ، فيجيبهم نبى الله بقوله (ياقوم أرأيتم ان كنت

---

[١] أخرجه الطبرانى فى الدعاء ، ورجاله موثقون .

على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنـده فعميت عليكم) يطالب قومه أن يخبروه إذا كان على برهان من ربه ، ورزقه النبوّة بلا كسب منه ولاتعب ، وقد خفى عليهم ذلك وجهلوه ، فماذا يصنع معهم ؟ وماذا يفعل بهم ؟ أيلزمهم الاهتداء بالنبوّة ، ويلجئهم الى الاعتراف بها ، وهم لها كارهون لايختارونها ، ولايتأملون فيها ؟ لا يكون ذلك ، لأنه لا إكراه فى الدين ، ولاسبيل الى وصول الدين الى النفوس الا باقبالهم على الداعى ، وعنايتهم بالدعوة ، وتفهمها من طريقها الصحيح ، ثم ينبههم الى أنه لم يقل ان عنده خزائن الله ، أو إنه يعلم الغيب ، أو يقول إنه ملك فيدّعى أنه يفضلهم فى شىء من ذلك ، ولا يحكم على من استرذلوا من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيرا لهوانهم عليه ، ولو قال ذلك لكان ظالما ، لأن الله أعلم بما فى أنفسهم فيحاسبهم عليه ، ويجزيهم بما تكنه صدورهم ويصح أن يراد أنكم زعمتم أن عهد النبوّة لاينالة إلا من له فضل على سائر الناس ، فأخبرونى ان امتزت عنكم بحيازة فضيلة من ربى ، وآتانى بحسبها نبوّة من عنـده ، نخفيت عليكم تلك المزية ، ولم تنالوها ، ولم تعلموا حيازتى لها ، أنلزمكم قبول نبوّتى التابعة لها ، والحال أنكم كارهون لذلك ؟ وسواء فهمنا هذا أو ذاك فهو جواب على قولهم (وما نرى لكم علينا من فضل) يجعل نوحا أهلا للرسالة وزعامة الناس فى الدين ، وحسبه أن يقيم البراهين على صدقه فى دعوته ، وحقية ما يقول ولذلك خلص من ذلك القول الى دلائل الصدق فقال (وياقوم لا أسألكم عليه مالا) والشأن فيمن لا يسأل الناس مالا على قبول دعوته ، وأن يعمل بما يدعو الناس اليه ، أن يكون صادقا فيما يقول مخلصا فيما يدعى .

(٤) (أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلىّ إجرامى وأنا برىء مما تجرمون) يقول قوم نوح له انه افترى على الله الكذب ، واختلق هذه الدعوى ، فيردّ عليهم بالمنطق ويقول : ان كنتم صادقين فى أنى اختلقته ، وجئت به من قبل نفسى ، فعلىّ عقاب جرمى ، وان كنت صادقا وكذبتمونى فعليكم عقاب ذلك التكذيب ، ومن ايجاز القرآن أن يحذف هذه البقية لأن الكلام دالّ عليها ، وهو كقوله فى سورة الأحقاف (أم يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم «٨») .

(٥) بعد أن أقام نوح على قومه الحجة ، وشرح لهم وظيفة الرسول ، قال له قومه (يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) استعجلوا عذاب الله ، وطلبوا منه الآيات التى تخضع لها أعناقهم ، وتذلّ لها نفوسهم ، وجعلوا وقوع هذه الآيات أمارة صدقه ودليل نبوّته ، فأخبرهم أن الاتيان بالآيات شأن من شئون الله ، يأتى بها ان شاء ، ويؤخرها متى شاء ، وسواء أتى الله بالآيات أو أخرها فلستم بمعجزين له فى الأرض ، وأراهم أن نصحه لهم لا يجدى إذا كان الله قد طمس على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الهداية بما كسبته أيديهم وباعراضهم عن الحقّ .

(٦) بعد ذلك أوحى الله الى نوح أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، فلا تحزن لعملهم وأمره بصناعة الفلك تحت رعايته وبواسطة إلهامه ، ونهاه أن يخاطبه فى شأن من شئون الظالمين ، لأنه حقت عليهم كلمة العذاب ، واستأهلوا الغرق ، فلم يكن من نوح إلا امتثال أمر ربه ، فأخذ فى

صناعة الفلك (وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه) فيقول لهم (إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) يريد به عذاب الغرق.

وهنا ينبغي أن نقف وقفة لها مغزاها عند قوله (عذاب يخزيه) لننبه القارئ الى أن من العذاب ما هو مشرف لذات المعذب، رافع له فوق الهامات، كالعذاب الذى يحلّ بالرسل عند قيامهم بواجبهم، وعذاب المصلحين وأرباب المبادئ الحقة حينما يدعون الناس الى عقائدهم. فأولئك عذابهم مرّ على الأجسام، حلو على القلوب، عذابهم رفع لدرجاتهم، وتمحيص لنفوسهم. وهذا عذاب المجاهدين فى سبيل الله، والمقاتلين لاعلاء كلمته، يتقدّم اليه المؤمنون، ويسارع إليه المخلصون، لا لأنه حلو المذاق، لذيذ الطعم، بل لأن من ورائه من النعيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ذلك هو العذاب العذب، الذى يجعل صاحبه مثلا كاملا فى الفضيلة ونكران الذات.

أما عذاب أعداء الحقّ، وحزب الشيطان، وأنصار الشهوة والهوى، فذلك هو العذاب الذى يخزى صاحبه، ويفضح من وقع به، ذلك هو عذاب أعداء الرسل وخصوم الحقّ.

(٧) بعد أن قضى الأمر، وحلّ بالقوم من الغرق ماحلّ، قال الله للأرض ابلعى ماءك، وللسماء أقلعى عن المطر، فلم يكن منهما سوى الطاعة والرضا، فغاض الماء، واستقرّت السفينة بمن فيها على الجبل المسمى بالجودى، (وقيل بعدا) وطردا (للقوم الظالمين) هنالك نادى نوح ربه وقال ربّ إن ابنى من أهلى، وقد أغرقته فيمن غرق، وقد وعدتنى أن تنجى أهلى، فما بال ولدى؟ فردّ الله عليه ردّ القوى القاهر (يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) تأمّل ذلك الحكم العادل الذى فرق بين نوح وبين فلذة كبده، فجعل ولده فى جملة الهالكين، وجعل نوحا فى عداد المرسلين المجاهدين، وإنها لعبرة كبرى، وآية عظمى، أن يكون الوالد فى ناحية، والمولود فى ناحية أخرى، الوالد فى عداد الناجين، والولد فى جملة الهالكين، لأن الولد عمل غير صالح، ولعل فى هذه القصة عبرة لمن يعتمدون على أنسابهم، ويتكلون على غير عملهم، وينسون قول الله تعالى (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى «٣٦» وابراهيم الذى وفى «٣٧» أن لا تزر وازرة وزر أخرى «٣٨» وأن ليس للانسان الا ماسعى «٣٩» وأن سعيه سوف يرى «٤٠» ثم يجزاه الجزاء الأوفى «٤١[1]»).

(٨) (تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) يرينا الله بهذه الآيات أن قصة نوح مع قومه من أخبار الغيب أوحاها الله الى محمد صلى الله عليه وسلم ما كان يعلمها هو ولا قومه من قبل هذا، وهى من دلائل نبوّته، ثم يختتم القصة بأمره محمدا بالصبر كما صبر نوح على قومه، فان العاقبة ستكون له كما كانت لنوح من قبله، فان سنة الله أنها تكون للمتقين، يمكن لهم فى الأرض، ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين وما أحوج الداعى الى الصبر والثبات على الدعوة، وعدم تسرّب اليأس الى نفسه.

---

[١] النجم.

نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٢٣» فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ (١) عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ «٢٤» إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ «٢٥» قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ «٢٦» فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ «٢٧» فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٢٨» وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ «٢٩» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ «٣٠» المؤمنون

شرح وعبرة

(١) يطالب نبي الله نوح قومه بعبادة الله وحده فى رفق ولين فيقابله الملأ المستكبر مقابلة منكرة، ويرمونه بأنه لايريد بهذه الدعوة إلا أن يتفضل على الناس ويرأسهم، لأنه بشر يماثل الناس ، وليس له مزية عليهم بها يكون رسولا وهي الفرية التى قالها فرعون لنبيّ الله موسى وأخيه هارون (قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ومانحن لكما بمؤمنين «٧٨» (٢)) وقد سبق الردّ على شبهة أن نوحا بشر فى القصة من سورة هود ، أما أن نوحا يريد أن يتفضل الناس ويرأسهم فذلك خلق الأشراف والسادة الذين يريدون أن يتعبدوا الناس ، أما الرسل الذين يحملون فى حنايا دعوتهم أن كلّ الناس لآدم ، وآدم من تراب ، وأنه لافضل لأحد على أحد الا بالتقوى ، فلاحظ لهم من هذه الفرية ، لافى قليل ولا كثير ، وفى المثل العربى [رمتنى بدائها وانسلت] الرسل لم يريدوا أن يتفضلوا على الناس ، ولكن عاقبة أمرهم أن يكونوا قادة ، وأئمة اصلاح ، يلتف الناس حولهم ، ويترسمون خطاهم ، وذلك مايخشاه

---

[١] يرأسكم « تربصوا » انتظروا « حتى حين » الى زمان ينجلى فيه أمره « بأعيننا » بحفظنا وكلاءتنا « التنور » وجه الأرض « آيات » عبر « مبتلين » مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم ، أو مختبرين العباد بهذه الآيات لننظر من يعتبر بها ومن لا يعتبر . [٢] يونس .

المستكبرون وعباد الشهرة على أنفسهم ، فهم يعلمون أن الرسل ما أرادوا التفضل على الناس ، ولكنهم تضطرهم مهمتهم التى كلفوا بها من الله — وهى خلافته فى عمارة الأرض والاصلاح فيها — أن يكونوا سادة الأمم ، حاملين لواء الحق ، مكافحين عن بيضة الدين ، قدوة صالحة ، ومثلا عالية فى الخلق والفضيلة ، وانها لعاقبة ما أشدّها على المستكبرين الذين لم يريدوا أن يفضلوا الناس بعلم أوعمل ، وإنما يريدون أن تكون لهم العظمة والعزة لأنهم من البيوتات الكبيرة ، وأصحاب الثروة الطائلة ، فنبيّ الله نوح عليه السلام لم يرد أن يتفضل على الناس ، ولم يخطر له ذلك الخاطر على بال ، وإنما أراد أن يبلغ رسالات ربه ، ويقوم بما أوجبه الله عليه ، فاذا عنّ له أن يفضل الناس فانما يريد أن يفضلهم فى أداء الواجب ، والاضطلاع بمهامّ الرسالة ، والصبر على الايذاء ، والاحتمال فى ذلك السبيل ، بما يجعله مضرب الأمثال فى الخلق الطيب ، والسيرة المرضية ، ذلك هو الذى يريد أن يفضل الناس به ، وأن الذى يريد أن يفضل الناس فى العلم والعمل ، ويواصل الليل بالنهار ليصل الى ذلك الغرض ، هو رجل عالى الهمة ، كبير النفس ، شريف الغاية ، أما رجل يريد أن يتفضل بدون فضل ، ويمتاز بلا ميزة ، فذلك مايمقته الدين ، ولايرضى عنه خلق ، ولا يستسيغه عقل ، وهو ماينبغى أن يحارب من خلق المستكبرين والمتعاظمين .

(٢) يقول الملأ من قوم نوح (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) يريدون لوشاء الله أن تكون هناك رسالة فى الأرض لجعلها فى الملائكة ، وبذلك تكون هذه الجملة متممة لقوله (ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) أو أرادوا لوشاء الله أن يدلل على رسالته لأنزل ملائكة يشهدون له بالرسالة ، ويعترفون له بالصدق ، ومثله فى سورة الفرقان (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا «٧») .

وقد ردّ الله تعالى على الشبهة بشقيها فى سورة الأنعام (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون «٨» ولوجعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون «٩») والمراد أن الله تعالى لو أنزل معه ملكا يصدّقه ، وأجابهم الى ما اقترحوه من الآيات لقضى الأمر باهلاكهم ، ثم لايؤخرون ليؤمنوا ، بل يأخذهم العذاب عاجلا ، أو لقضى الأمر بقيام الساعة ، وفى معنى هذا قول الله تعالى فى سورة الحجر (لوما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين «٧» ماننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين «٨») أى لم يكن من شأن الله أن ينزل الملائكة إلا نزولا ملتبسا بالحق وهو الرسالة للرسل ، أوالعذاب للأمم المعاندين لهم ، وكذلك قول الله تعالى فى سورة الفرقان (وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوّا كبيرا «٢١» يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا [1] «٢٢») .

أما الشق الأوّل من الشبهة فقد ردّ الله عليه بقوله (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون «٩») فلوجعل الرسول ملكا لجعل الملك متمثلا فى صورة البشر ليمكنهم رؤيته ، وسماع كلامه الذى يبلغه عن الله تعالى ، ولو جعله ملكا فى صورة البشر لاعتقدوا أنه بشر ، لأنهم

---

[١] هى كلمة استعاذة ، وكأن المعنى أسأل الله أن يحجر ذلك حجرا ، ويمنعه منعا .

لايدركون إلا صورته البشرية التى تمثل بها ، وحينئذ يقعون فى اللبس والاشتباه الذى يلبسونه على أنفسهم باستنكارهم جعل الرسول بشرا ، ولاينفكون يقترحون جعله ملكا .

(٣) يقول قوم نوح (ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) ماسمعنا بنوح أو بدعوة نوح فى آبائنا الأوّلين ، وهو يدلّ على أنهم قوم كانوا فى فترة متطاولة ، وأنهم لما لم يهتدوا الى معرفة الحقّ من الباطل ، والصدق من الكذب بأنفسهم ، رجعوا الى الآباء ، شأن الضعيف الذى لايثق بنفسه ، ويعيش على حساب غيره ، شأنه اذا حز فى عنقه الدليل ، وسدّ عليه البرهان الطرق أن يرجع الى الآباء فيتمسح بها ، والى الأوّلين فيتحكك فيهم ، ذلك إذا كانوا صادقين فى تحيرهم لهذه الشبهة ، وارتباكهم لذلك التقليد ، أما إذا كانوا متعنتين مع الرسل ، مشاقين لهم ، متقوّلين عليهم مايعتقدون أنهم برآء منه ، فشأنهم فى ذلك الاعنات أعظم ، واجتراؤهم على ذلك التخاص أشدّ وأنكى ، ولم لا يكون هذا أقرب الى الصواب ، وأدنى الى الحق ؟ وقد سمحوا لأنفسهم أن يصفوه بالجنون ، وهم يعلمون أنه من أرجح الناس عقلا ، وأوزنهم قولا ، وصموه بتلك الوصمة وقالوا فى شأنه (إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) علّه بطول الزمن يفيق من جنونه ، وينجلى أمره ، وهى فرية قيلت لجميع الرسل ، ألا ترى الى قول الله تعالى (كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون «٥٢» أتواصوا به بل هم قوم طاغون «٥٣» [1]) كأن بعضهم كان يوصى بها البعض الآخر ، ولا عجب فنفوس المستكبرين متشابهة ، وشهواتهم متفقة ، فلا عجب أن تكون آثارهم فى محاربة الحق قد تشابهت ، وكلماتهم فى الطعن على المصلحين قد تقاربت ، فيقولون لمحمد صلى الله عليه وسلم (يا أيها الذين نزل عليه الذكر انك لمجنون «٦» [2]) ويقال له فى التسلية (مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم «٤٣» [3]) فيكون ردّه على ذلك الطعن البذىء ، والاعتداء الصارخ ، أن يلجأ الى ربه ، فيطلب منه النصر على خصومه ، فيقول (رب انصرنى بما كذبون) أبدلنى من غمّ تكذيبهم لى سلوة النصر عليهم ، فيجيب الله دعوته ، ويوحى إليه أن يصنع الفلك التى فيها نجاة نوح ومن تابعه ، ويأمره أن يحمل فيها مايحتاجه لحياته وأهله سوى من حقت عليه كلمة العذاب ، ثم ينهاه أن يخاطبه فى شأن الظالمين ، وأن يحمد ربه على نجاته منهم حينما يستقر هو ومن معه على الفلك ، ليستشعر فضل ربه عليه ، ومقدار عنايته بالمصلحين ، وتنكيله بالظالمين ، كما يطلب منه أن ينزله منزلا يبارك له فيه . وأنه خير المنزلين .

(٤) ولقد كانت آخر كلمات هذه القصة (ان فى ذلك لآيات وان كنا لمبتلين) ليرينا أن فى هذه القصة ، قصة نوح عليه السلام مع قومه عبرا عظيمة ، تفيد المؤمن وتنفع الداعى (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كلّ شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون «١١١» [4]) فى هذه القصة نزاهة القول ، ومقابلة السيئة بالحسنة ، واللجوء الى الله تعالى عند الشدّة ، وخذلان الله للمفسدين ، ونصره للمصلحين وتعليم نبىّ الله نوح كيف يدعو ربه ، ويحمده على نعمه . فى هذه القصة هذه الآيات والعبر ، وفيها

---

[١] الذاريات . [٢] الحجر . [٣] فصلت . [٤] يوسف .

ابتــلاء قومه ببلاء عظيم ، وعقاب شــديد ، وابتلاء العباد بهذه الآيات ، لينظر من الذى يعتبر ويذكر كما قال فى ســورة القمر (ولقد تركناها آية فهل من مدكر) جعلنا الله من المدكرين بآياته المنتفعين بعظاته .

نوح عليـــه السلام

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ «١٠٥» إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ «١٠٦» إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ «١٠٧» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ «١٠٨» وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَلَمِينَ «١٠٩» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ «١١٠» قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ[1] «١١١» قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١١٢» إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ «١١٣» وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ «١١٤» إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ «١١٥» قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ «١١٦» قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ «١١٧» فَافْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِى وَمَنْ مَعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «١١٨» فَأَنْجَيْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ «١١٩» ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَقِينَ «١٢٠» إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ «١٢١» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١٢٢» الشعراء

شرح وعـــبرة

(١) يطالب نبى الله نوح كعادته فى رفق ولين قومه بالتقوى ، ويريهم أنه كان ولا يزال معروفا بالأمانة فيهم ، كمحمد صلى الله عليه وسلم فى قريش ، وما كان له أن يدع الكذب على الناس ثم يستبيح لنفسه أن يكذب على الله ، يذكرهم بماضيه معهم ، علهم يقدرون قيمة ذلك ، وهو رسول أمين بمعنى أنه ناصح لهم ، فهو أمين فى رسالته ، ليس له أن يخون فى شىء منها ، فيبلغها لهم كاملة غير منقوصة ، وهى أمانة الله عنده لا يستطيع أن يبدل فيها أو يغير ، كما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته[2])

---

[١] سبق شرحها عند الكلام على القصة من سورة هود ، ونزيد هنا أن ابن عباس فسرهم بالفاقة من الناس ، وقيل هم أصحاب الصناعات الدنية كنسج الثياب والكفة ، وإنما استرذلوهم لفقرهم وقلة نصيبهم من الدنيا « فافتح » احكم والفتاح الحاكم لأنه يفتح المستغلق كما سمى فيصلا لأنه يفصل بين الخصومات « المشحون » المملوء . [٢] المائدة .

وهى من الصفات التى اتصف بها جميع الرسل ، وما دام نوح رسـولا من عند الله ، أمينا على رسالته ، فينبغى أن يتلقوها بالقبول و يأخذوها بالرضا ، ثم كرّر أمر قومه بالتقوى والطاعة ، وعقب ذلك بما يرشدهم إلى أمانته وصدقه ، إذ يقول (وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى إلا على رب العالمين) وعقب ذلك بطلب التقوى والطاعة ، شأن المهتمّ المعنى ، المتفانى فى نجاح مهمته ، والحصول على غايته ، ، فماذا كان منهم بعد هذا التلطف ، وماذا أجابوا به بعد تكرار الطلب ؟ كان منهم بعد ذلك أن قالوا .

(٢) (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) فلا يليق بهم [وهم من عليـة القوم وسادتهم] أن ينقادوا لنوح وقد اتبعه سـفلة القوم وضعفاؤهم ، وأصحاب العقول الصغيرة ، والمهن الحقيرة ، وأين السادة من العبيد ، وخاصة الناس من عامتهم وسوقتهم ، وكيف يليق فى حكم التقاليد أن يجمعنا بهم مجلس ، أو تربطنا بهم رابطة ؟ وهم على مانعرف من الضعة والفقر ،ونحن على ماترون من العظمة والجاه ، وكيف تتفق الديموقراطية بأوسع معانيها ، والاستقراطية بأخص أوصافها ، وأين المثقفون وأصحاب العقل الراجح من السذج البسطاء الذين آمنوا بك [بادى الأمر] بدون روية ولا نظر ، فيقول لهم نبي الله نوح (وما علمى بما كانوا يعملون «١١٢» إن حسابهم إلا على ربى لوتشعرون «١١٣» وما أنا بطارد المؤمنين «١١٤» ان أنا إلا نذير مبين «١١٥») حاسوه على سذاجتهم ، وأنهم لم يؤمنوا عن روية وعقل ، فقال وأى شيء يعلمنى بنياتهم وضمائرهم ، وماحسابهم فى ذلك إلا على ربى لا علىّ ، فالله محاسبهم ومجازيهم ، وما أنا إلا منذر لو تشعرون ذلك ماوجهتم الىّ لوما ، ولكنكم تجهلون ، وتتساقون مع الجهل حيث سيركم ، وكأنه يلفتهم بذلك الى انكار أن يسـمى المؤمن [رذلا] وان كان أفقر الناس ، وأوضعهم نسبا ، فان الغنى غنى الدين والخلق ، والنسب نسب التقوى (وما أنا بطارد المؤمنين «١١٤») ارضاء لشهواتكم ، وتطييبا لنفوسكم (إن أنا إلا نذير مبين «١١٥») أحوّفكم عذاب الله وأقيم حجته على العصاة وأرباب الشهوات ، بطريق بين واضح ، فيقولون له :

(٣) (لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين «١١٦») آخر سهم فى كنانة القوم ، لجأوا الى القوة بعد أن أعوزتهم الحجة ، يذكرهم بماضيه معهم ، وانه كان ولا يزال أمينا، فلا يجديهم ذلك التذكير ، ينبههم الى أنه لم يطلب منهم أجرا ولا مالا ، وهو أسبقهم الى مايطالبهم به ، أبعدهم عما ينهاهم عنه ، فلا ينفعهم ذلك التنبيه .

يعتذرون عن قبول دعوته بضـعة أتباعه وفقرهم ، فيريهم أنه رسول لا يستطيع أن يطرد مؤمنا لفقره ، ولا أن يقبل كافرا لغناه ، وأنه لا يشق عن قلوب الناس ، ليعرف من آمن عن اقتناع ومن آمن بدون نظر وروية ، فلا تنفعهم المناقشة ، ويقولون له (يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين «٣٢»[1]) فيريهم أن الاتيان بالآيات لم يكن من شأنه ، وإنما هو شأن من شـئون الله تعالى يأتى به متى شاء ، يسلك بهم كلّ أولئك المسالك ، ويترفق بهم الى حدّ كبير ، فينتهى بهم الأمر أن يهددوه بالرجم بالحجارة ، واللجوء الى الحديد

[١] هود .

والنار ، وهي حجة القوة الغاشمة . لم يكن من نبيّ الله نوح بعد أن أعذر الى قومه ، و بشر وأنذر إلاأن يرجع الى ربه و يطلب منه أن يفتح بينه و بينهم فتحا لااستغلاق بعده ، و يحكم له حكما يكون فيه النصر لعباد الله الصالحين ، والخزى لأعدائه المستكبرين ، وماهو إلا أن أجاب الله دعوته ، فأنجاه ومن معه فى الفلك المشحون ، وأغرق الظالمين المتعنتين ، وهى عبرة ما أبردها على قلوب المؤمنين (ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين «١٠٣» [1]) .

نوح عليـــه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «١» قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ «٢» أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ «٣» يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ [2] مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٤» قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً «٥» فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلَّا فِرَاراً «٦» وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً «٧» ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً «٨» ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً «٩» فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً «١٠» يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً «١١» وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَٰراً «١٢» مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً «١٣» وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً «١٤» أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقاً «١٥» وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً «١٦» وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً «١٧» ثُمَّ

[١] يونس . [٢] الوقت المضروب لهم والمراد أنهم اذا أطاعوه أمهلهم ومكنهم من الوقت الذى يمهلون فيه فانه اذا جاء الأجل الذى ضربه لوفاتهم لا يؤخر « استغشوا » طلبوا أن تغشاهم وتغطيهم « مدرارا » كثير الدرور « جنات » بساتين « وقارا » تعظيما منه لكم « أطوارا » طورا بعد طور وحالا بعد حال « طباقا » بعضها فوق بعض .

يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا «١٨» وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا «١٩» [1] لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا «٢٠» قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً «٢١» وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً «٢٢» وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً «٢٣» وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلَالاً «٢٤» مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً «٢٥» وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً «٢٦» إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً «٢٧» رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً «٢٨» نوح

شرح وعبرة

(١) ينبهنا الله تعالى فى هذه السورة الى أن نوحا عليه السلام أنذر قومه و بشرهم ، ووعدهم اذاهم أطاعوه أن يغفر الله لهم ما فرط من الذنوب ، و يؤخرهم فى تمكن من الطاعة ، متمتعين بما سخر الله لهم من خيرات هذه الحياة الى الوقت المضروب لموتهم ، وهو كقوله فى سورة هود (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى و يؤت كلّ ذى فضل فضله و إن تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير «٣»)

وأراهم أن أجل الله الذى حدّده لهلاك الأمم وعقوبتها إذا جاء لايمكن تأخيره (ولكلّ أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون «٢٤» [2])

وقد تمنى نوح عليه السلام أنه لو كان قومه يعلمون من الله هذه السنن فى عقوبة الأمم والشعوب حينما تفسق عن دين الله ، وتعصى أمره ونهيه ، ووعدهم كذلك أن يرسل السماء كثيرة الدرّ عليهم ، فينتفعوا بالماء فى الشرب والزرع وحياة الحيوان ، ويجعل لهم البساتين والأنهار العذبة

(٢) ثم رجع إليهم بعد ذلك الوعد وقال (ما لكم لا ترجون لله وقارا)

يسائلهم أىّ شىء يمنعهم أن يرجو من الله تعظيما لهم فى دار الثواب وقد خلقهم على أطوار مختلفة ، وحالات متفاوتة ، فخلقهم من سلالة من طين ، ثم جعلهم نطفة فى قرار مكين ، ثم خلق النطفة علقة ، فخلق العلقة مضغة ، ثم جعل المضغة عظاما ، فكسا العظام لحما ثم أنشأها خلقا آخر

---

[١] «بساطا» مبسوطة تتقلبون عليها ، كما يتقلب الرجل على بساطه «فجاجا» واسعة «كبارا» مبالغة فى الكبر «تذرن» تتركن «ديارا» أحدا وهو من الأسماء المستعملة فى النفى العام «تبارا» هلاكا . [٢] الأعراف .

فشقّ لها أذنا تسمع ، وعينا تبصر ، ولسانا ينطق ، ودماغا يفكر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .
إله له هذه الآيات لماذا ينصرف الناس عنه ولا يدينون له بالطاعة ؟

(٣) ثم قصد الى طريق آخر يرغب به فى طاعة الله ، والوقوف عند حدوده ، فأخذ يذكرهم بآيات الله فى سمائه وأرضه ، وما جعل فيهما من نور القمر وضوء الشمس . وكيف أنبتنا الله من الأرض نباتا ، ثم يعيدنا فيها ويخرجنا منها عند البعث إخراجا ، وكيف جعل لنا الأرض بساطا ومهدها للزرع والمشى ، لنسلك منها السبل ، ونستخرج منها الزرع ، ونستخلص منها المعادن .

(٤) شكا نبىّ الله نوح قومه الى ربه ، وأنه دعاهم ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا ، وأنه كلما دعاهم سدّوا مسامعهم ، وتغطوا بثيابهم ، حتى لا يسمعوا قولا للداعى ولا يبصروه ، وأصرّوا على عنادهم ، واستكبروا على رسولهم ، وقد لوّن لهم الدّعوة ، وفاوت بين الأساليب ، فمرّة يخوّف ، وأخرى يبشر ، ومرّة يشتدّ ، وأخرى يلين ، ومرّة يعدهم بنعم الله ، وأخرى يذكرهم بآياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، فلم تنفعهم مع ذلك الموعظة ، ولم تفدهم الذكرى ، ومكروا بدعوته ، وأصروا على عصيانه ومخالفته ، ووصى بعضهم بعضا بالباطل وقالوا :

(٥) (لاتذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ ودّا ولا سواعا ولايغوث ويعوق ونسرا)

كانت أصناما تعبد لقوم نوح ، نهاهم عن عبادتها ، وواصل الليل بالنهار فى تنفيرهم منها ، وبعد الجهد الطويل ، ومئات السنين التى أنفقها فى الدّعوة الى عبادة الله وحده ، يوصى بعضهم بعضا أن لا يدعوا هذه الآلهة ، ولا يتركوا أولئك الأصنام ، وقد روى المحدّثون وعلماء الأثر أن أولئك الآلهة كانت أسماء لرجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون اليها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى اذا هلك أولئك ، وذهبت علامات تلك الصور عبدت ، وقد أخذ نبىّ الله نوح يشكو من أولئك الأصنام ، وإضلالها للناس ، أو من رؤوس الكفر الذين يتواصون بالباطل .

(٦) بعد أن عيل صبره ، ونفدت جميع أساليبه فى الدعوة الى الله ، أخذ يدعو عليهم (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) . (ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وعلل ذلك بقوله (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) فانهم أئمة الضلال ، ورؤوس الكفر ، وما داموا على ذلك الحال فهم خطر على كلّ موحد ، وحجر عثرة فى سبيل الاصلاح . لذلك دعا الله أن لا يدع على وجه الأرض واحدا منهم ، لأنه ان تركهم أضلوا عباده . وان ولدوا نشئوا أولادهم على الشرك ، وربوهم على الكفر ، ثم أخذ يدعو ربه أن يغفر له ولوالديه ، ولمن دخل بيته مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات . وما طلب مغفرة لكافر ولا لمشرك ، وإنما طلبها لنفسه وأقاربه المؤمنين ولمن دخل بيته منهم ، وختم دعاءه بقوله (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) وهلاكا .

(٧) وقد أجمل الله فى هذه السورة عقوبة قوم نوح على مخالفة أمره ، فقال (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا « ٢٥ ») ليريننا أنه غرق سببه الخطيئة ، وأن ذلك الغرق الذى حلّ بهم لم يستطع أحد أن ينقذهم منه

ومن مواطن العبرة فى القصة أن الله تعالى يقول فيهم (أغرقوا فأدخلوا نارا) ليرينا أنه ليس بينهم و بين أن يدخلوا نارجهنم سوى فترة قصيرة، وأنه لا غنى لهم عن نار الآخرة بعد أن أخزاهم الله فى الدنيا بالغرق ، فخسروا الدنيا والآخرة بعصيان الله ، كما فاز من فاز بسعادة الدارين بطاعته والوقوف عند حدوده .

دعـــــوة هود

إلى الله تعـالى

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٦٥» قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ (١) وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ «٦٦» قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ «٦٧» أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ «٦٨» أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً (٢) فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ (٣) اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «٦٩» قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ (٤) مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ «٧٠» قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ (٥) وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَٰنٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ «٧١» فَأَنْجَيْنَٰهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ (٦) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ «٧٢» الأعراف

---

[١] خفة الحلم وسخافة العقل . [٢] سعة . [٣] نعمه : جمع إلى كضلع وأضلاع . [٤] نترك . [٥] عذاب . [٦] استأصلنا .

شرح وعـــبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه أرسل الى عاد أخاهم هودا ، وسماه أخا لهم باعتبار النسب ، كما يقال فى أخوّة الجنس كله : يا أخا العرب ، فطالبهم بعبادة الله تعالى شأن جميع الرسـل ، ثم قال (أفلا تتقون) ما يسخط الله تعالى من الشرك والمعاصى ، وهو إنكار من نبىّ الله هود أن يكون من قومه شرك وعصيان ، بعد أن كان من عقاب الله تعالى لقوم نوح ، وقال فى سـورة هود (أفلا تعقلون) أى أليس عندكم من العقل مايحول بينكم و بين عصيان الله تعالى والفسوق عن أمره ؟ وغاير بين الأسلوبين لتنويع الفائدة ودفع الملل عن القارئ كما هى سنة القرآن فى القصص .

(٢) (قال الملأُ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة و إنا لنظنك من الكاذبين) الملأ الأشراف والسادة ، وقيد الملأ هنا بذلك الوصف ، وهو الذين كفروا ، دون الملأ من قوم نوح لأن فى أشراف قوم هود من آمن به ، ولم يكن فى أشراف قوم نوح مؤمن ، ونحوه قوله تعالى (وقال الملأُ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة «٣٣» [١]) و يجوز أن يكون وصفا واردا للذم لا غير ، وقد وصفوا نبىّ الله هودا بأنهم يرونه فى سفاهة ، وهو أبلغ فى الذمّ من قولهم : نراك قد سفهت ، لأنهم أرادوا بالظرفية على سبيل المجاز أنه متمكن فيها ، غير منفك عنها ، ثم زادوا على ذلك أنهم يظنونه كاذبا فى جملة الكاذبين فى دعوى الرسالة عن الله تعالى ، وهو يتضمن تكذيب كلّ رسول ، إذ عبروا عن أصحاب هذه الدعوى بالكاذبين ، وجعلوا هودا واحدا منهم ، فكان ردّ نبىّ الله عليهم غاية فى الأدب والاغضاء ، اذ ترك مقابلتهم بالمثل ، مع علم نبىّ الله أن خصومه أضلّ الناس وأسفههم ، وفى ذلك من الأدب الحسن ، والخلق العظيم ، مايتناسب مع مركز الدعوة الى الله تعالى ، والارشاد الى طريقه ، فأخذ يريهم أنه لم يكن به شىء من السفاهة ، ولكنه رسـول من ربّ العالمين ، مهمتى أن أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه ، لأن فيه سـعادتكم ، أمين على ما أقول عن الله تعالى ، فانى لا أكذب عليكم حسب ما عوّدتكم من سيرتى ، فكيف لا أستبيح الكذب عليكم وأستبيحه على ربى عزّ وجلّ ؟ (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) أى أكذبتم وعجبتم أن جاءكم موعظة من ربكم على لسان رجل منكم ليحذركم عذاب الله ، ثم أخذ يذكر فضل الله عليهم علهم ينتفعون بذلك النوع من التذكر ، فأمرهم أن يذكروا فى نفوسهم أن الله تعالى جعلهم خلفاء فى الأرض من بعد قوم نوح ، وزادهم سـعة و بسطة فى الخلق ، بسعة الملك والحضارة ، ثم أعاد عليهم أن يذكروا نعم الله عامّة رجاء أن يفلحوا بذلك الذكر ، وهو يشبه قول نبىّ الله نوح (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا «١٥» وجعل القمر فيهنّ نورا وجعل الشمس سراجا «١٦» والله أنبتكم من الأرض نباتا «١٧» ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا «١٨» والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا «٢٠» [٢]) يلوّن لهم الخطاب ، و يتفنن فى أساليب الدعوة ، فمرّة يخوّفهم ، وأخرى يبشرهم ، وأحيانا يذكرهم بنعم الله عليهم ، وآونة ينذرهم عذابه و بطشه .

---

[١] المؤمنون . [٢] نوح .

(٣) فكان جوابهم بعد ذلك كله أن قالوا (أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) فأنكروا عليه أن يجيئهم بالتوحيد، وترك ما كانوا عليه من شرك وأصنام كان يعبدها الآباء، ثم قالوا له (فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) فى إنذارك، أو فى دعواك أنك رسول من ربّ العالمين، فيقول الرسول لهم بعد هذه المقابلة المنكرة، والتحدّى المكشوف، بلسان الواثق من وعيد ربه، المطمئن لنصره (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) وذكر الغضب بعد الرجس لبيان أن الرجس قد أريد به الانتقام الحتم، فلا يمكن رفعه، ونعوذ بالله من رجس معه غضب، والرجس الذى توعدهم به نبيّ الله هود هو العذاب الذى بينه الله فى سورة القمر إذ يقول (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر «١٨» إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا [١] فى يوم نحس مستمر «١٩» تنزع [٢] الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر «٢٠» فكيف كان عذابى ونذر «٢١») ثم قال لهم منكرا عليهم: أتخاصموننى فى أسماء وضعتموها أنتم وآباؤكم الذين قلدتموهم على غير علم ولا هدى منكم، ما أنزل الله بها من حجة ولا سلطان، فانتظروا نزول العذاب الذى طلبتموه إنى معكم من المنتظرين. فكان عاقبة أمره أن نجاه الله ومن آمن معه برحمة عظيمة من الله تعالى واستأصل أعداءه بريح (تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين «٢٥» [٣]).

هود عليه السلام

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ «٥٠» يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ «٥١» وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا [٤] وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ «٥٢» قَالُوا يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ [٥] وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ «٥٣» إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ [٦] بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ «٥٤» مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ «٥٥» إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ «٥٦» فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم

---

[١] ذات صوت شديد عاتية. [٢] تصرعهم على الأرض «منقعر» قلع عن منابته وزال عن أماكنه.
[٣] الأحقاف. [٤] كثيرة الدرور كالمغزار. [٥] حجة. [٦] مسك وأصابك.

مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ [1] «٥٧» وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ «٥٨» وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ «٥٩» وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا [2] لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ «٦٠» هود

شرح وعـــبرة

(١) يرينا الله تعالى فى هذه السورة أنه أرسل الى عاد أخاهم هودا ، وأنه دعاهم الى عبادة الله وحده ، ثم قال لهم انكم مفترون على الله الكذب باتخاذ الأوثان شركاء له ، ثم أراهم أنه لم يطلب على دعوته أجرا منهم ، وإنما يطلب الأجر من الله تعالى . وإنك لو قرأت دعوة الرسل جميعهم لرأيتهم جميعهم يواجهون قومهم بذلك القول ليعرّفونا أن شأن الرسل تمحيض النصح لأقوامهم ، وذلك لا يكون إلا حيث خلت دعوتهم عن المطامع ، وتمحضت لارضاء الله تعالى ، والرغبة فيما عنـده من ثواب ، ولذلك عقب ذلك بقوله (أفلا تعقلون) إذ تردّون نصـيحة من لايطلب أجرا إلا من الله ، ثم أخذ يدعوهم الى استغفار الله تعالى من الشرك السابق والى الايمان به ، ويريهم أن ذلك الاسـتغفار يكون سببا فى ارسال السماء عليهم بالأمطار كثيرة الدرور ، وفى أن يزدادوا قوة الى قوتهم ، فقد كانوا أقوياء . واستـكبروا فى الأرض بسبب قوتهم (فأما عاد فاستـكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشدّ منا قوة «١٥» [3]) فوعدهم الله ، ووعده الحق أنهم ان آمنوا بربهم ازدادوا قوة الى قوتهم ، ثم قال لهم (ولا تتولوا مجرمين) لاتعرضوا عنى وعما أدعوكم اليه مصرّين على إجرامكم وآثامكم .

(٢) فكان ردّهم على هود نبيّ الله ورسوله أن قالوا (ياهود ماجئتنا ببينة) وهو كذب منهم وجحود . كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم (لولا أنزل عليه آية من ربه) مع ثبوت آياته الحصر (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) لاندع آلهتنا صادرين فى ذلك الترك عن قولك ونصحك ، بل سـنظلّ لها عابدين (وما نحن لك بمؤمنين) اقناطا له من الاجابة ، وتيئيسا له من الايمان ، ثم لم يقفوا من نبيّ الله عند ذلك الحدّ ، بل قالوا فى سـبب دعوته لهم : ان آلهتهم التى يعبدونها قد مسته بسوء ، وخبل ، لصـدّه الناس عنها ، وعداوته لها . ومن أجل ذلك يهذى فى نظرهم هذيان المجانين ، وقد دلت أجوبتهم أن القوم كانوا جفاة ، غلاظ الأكباد . لايبالون بالبهت ولا يلتفتون الى النصح ، ولاتلين شـكيمتهم للرشـد ، ولا سيما قولهم (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) فانه يدلّ على جهل مفرط ، وبله متناه ، حيث اعتقدوا فى حجارة أنها تنتصر وتنتقم ، ولعلهم حين أجازوا لها أن تعاقب كانوا يجيزون لها أن تثيب .

[١] رقيب . [٢] دعاء بالهلاك . [٣] فصلت .

(٣) فكان من نبىّ الله بعـد ذلك التهديد أن قال لهم (إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون) ومن أعظم آيات الصدق ، والاخلاص أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا الى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة ، ثقة بربه أن يعصمه منهم فلا تنشب فيــه مخالبهم ، ومثـل ذلك قول نوح عليه السـلام (ثم اقضوا الىّ ولا تنظرون) وانظر الى قوله (فكيدونى جميعا) يريد أننى لا أبالى بكم وبكيدكم ، ولا أخاف معرنكم وان تعاونتم علىّ ، وأنتم الشداد الأقوياء ، فكيف تضرنى آلهتكم ، وما هى إلا جماد ، وكيف تنتقم منى اذا نلت منها ، وصـددت عن عبادتها ، بأن تخبلنى وتذهب بعقلى ، نعم إن هذه آية من آيات الله فى أنصار الحقّ ، وعبرة من العبر ، من آيات الله فيهم أن يزيل من قلوبهم هيبة الظالمين ، وخشية المفسدين ، لأن قلوبهم امتلأت بالخشية من الله والخوف منه ، ولأنهم واثقون بضعف كيد الشيطان ، وأنصار الباطل ، وقد أرانا الله تعالى أن الباطل لجلج ، وأن الحقّ واضح أبلج ، وأن العاقبة لأوليائه، والخذلان لأعدائه ، وقدوتنا الحسنة فى ذلك أئمة الهدى ، وهداة البشر من اختارهم الله تعالى لهداية الناس ، وسعادة الانسانية ، فهم الذين يرسمون لنا طريق الدعوة ، ويعرفوننا الاستهانة بالباطل ، وإكبار الحقّ ، ومن أجل ذلك كانوا أشجع الناس قلوبا ، وأوثقهم عقيدة ، وأربطهم جأشا ، تضطرب الأرض ومن عليها بفساد المفسدين وهم لايضطربون ، وتضج من هول الجبابرة والمستكبرين ، وهم على دينهم دائبون ، وبدعوتهم معتصمون ، وعلى ربهم متوكلون ، وانظر الى قوله بعد ذلك التحدّى (إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) لتعلم سرّ هذه الشجاعة النادرة ، والثقة الغالية ، سرّها أنه متوكل على ربه، معتصم بمولاه (ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم «١٠١» [1]) وجدير بمن يتوكل على ربه . ويلجأ الى خالقه أن يبدل خوفه أمنا ، وضعفه قوة ، ويرزقه عزا لاينقطع ، وقوة لاتقف عند حدّ (ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولـكنّ المنافقين لايعلمون «٨» [2]) وما أحوج الداعى الى الله لذلك التوكل ، وتفويض الأمور الى الله تعالى ، والاستعانة بالصبر والرضا ، وطلب الأجر منه تعالى . ثم وصف الربّ الذى توكل عليــه ووثق به فى حفظه وكلاءته بما يوجب التوكل عليه ، فقال (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) والناصية : منبت الشعر فى مقدّم الرأس ، وإذا وصفوا انسانا بالذله والخضوع قالوا : ماناصية فلان إلا بيد فلان ، يريد أنه مطيع له ، لأن كلّ من أخذت بناصيته فقد قهرته : أى مامن حيوان إلا تحت قهره وقدرته ومنقاد لقضائه وقدره ، ثم ختم ذلك بقوله (إن ربى على صراط مستقيم) يريد أنه على طريق الحقّ والعدل فى ملكه ، لايفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به .

(٤) ثم أراهم أنهم ان أعرضوا عنـه بعد ذلك فقد قام بما أوجبه الله تعالى عليه وأبلغهم رسالات ربه فلا يعاتب على تفريط فى الابلاغ ، وهم الذين يعاقبون على عنادهم ، وامتناعهم من اجابة داعى الحق ، ثم توعدهم بأن الله تعالى (سيستخلف) قوما غيرهم فى ديارهم وأموالهم بعد أن يهلـكهم ، كما قال فى سورة محمد (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم «٣٨»)

---

[١] آل عمران . [٢] المنافقون .

ولاتضرّون ربكم شيئا من الضرر بذلك التولى ، وإنما تضرّون أنفسكم ، ثم علل ذلك بقوله (ان ربى على كلّ شىء حفيظ) فما تخفى عليه أعمالكم ، ولايغفل عن مؤاخذتكم .

(٥) ثم أرانا أنه لما جاء أمر الله بالعذاب نجى هودا والذين آمنوا معه من ذلك العذاب : أى بسبب رحمة من الله لهم ، وهى ماهداهم إليه من الايمان به والعمل الصالح ، ثم أراد الله أن يرينا مقدار فضله عليهم فى هذه التنجية ، فقال (ونجيناهم من عذاب غليظ) وقد شرح القرآن الكريم ذلك العذاب الغليظ فى سورة الذاريات (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم «٤١» ماتذر من شىء أتت عليه الا جعلته كالرميم [1] «٤٢») وكذلك فى سورة الحاقة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية «٦» سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية «٧» فهل ترى لهم من باقية «٨») والريح الصرصر : ذات الصوت الشديد لعتوّها وشدّتها (وحسوما) متتابعة ، ثم قال مهدّدا لقريش ، ومن على دين قريش (وتلك عاد) فسيحوا فى الأرض وانظروا الى قبورهم ، واعتبروا بآثارهم (تلك عاد) التى نسيت ربها ، واعتزت بسلطانها وقوّتها ، واغترت بأبهتها وعظمتها (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحقّ وقالوا من أشدّ منا قوّة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشدّ منهم قوّة وكانوا بآياتنا يجحدون «١٥» فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات [2] لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون «١٦» [3]) ثم أراد أن يبين سبب ذلك العذاب فقال (جحدوا بآيات ربهم) والجحود : نفى مافى القلب اثباته واثبات مافى القلب نفيه (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين «١٤» [4]) ترينا الآية أن أولئك أنكروا آيات الله لا عن شبهة فى أنفسهم ، بل الذى حملهم على الانكار الظلم والاستكبار أما قلوبهم فهى مستيقنة بها ، مقتنعة بأحقيتها . وقال فى سورة العنكبوت (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ــ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون [5]) وقال (قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون «٣٣» [6]) من ذلك كله نعرف أن عادا جحدوا بآيات ربهم وهم يعلمون أنها حق من عند الله ، وذلك هو السبب الأوّل للعذاب الذى حلّ بهم ، أما قوله (وعصوا رسله) ومثله (كذبت قوم لوط المرسلين) مع أنهم لم يعصوا إلا رسولهم وهو هود عليه السلام ، فهو يرينا أن من يعصى رسولا واحدا فقد عصى جميع الرسل ، لأنه عصاه من أجل رسالته ، وخالفه مع قيام الحجة على حقية دعوته ، فصار عاصيا لكلّ الرسل ، لأنهم جميعهم أرسلوا لاصلاح الخلق ، وإقامة الحجة على أرباب الشهوة والهوى (لا نفرّق بين أحد من رسله) وهى كلمة لها خطر على قوم يدّعون الايمان ببعض الرسل : كموسى وعيسى عليهما السلام ، ثم هم مع ذلك ينكرون الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولوكانوا صادقين فى دعوى الايمان برسولهم لآمنوا بسائر الرسل . فانه لا فرق بين رسول ورسول ، فاذا كان عيسى رسولا حقا لأنه أقام البينة على دعواه ، فمحمد كذلك أقام البينة على دعواه ، أما أن نعصب لبعض الرسل

---

[١] التى لا تلقح سحابا ولا شجرا « الرميم » الفتات من الخشب والتبن . [٢] مشئومات .
[٣] فصلت . [٤] النمل . [٥] ٤٧ ــ ٤٩ العنكبوت . [٦] الأنعام .

ونبحث فى أدلته و براهينه ، ثم نغمض العين عن رسـول آخر ، فذلك ما لا يرضاه الانصاف ، وحسبنا أن القرآن الكريم يقول فى ذلك (ان الذين يكفرون بالله ورسله و يريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله و يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض و يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا « ١٥٠ » أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا « ١٥١ » والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرّقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما « ١٥٢ » [١])

وقوله (واتبعوا أمر كلّ جبار عنيد) يرينا أن أولئك الأقوام استمعوا الى رؤسائهم وكبرائهم فى الكفر والضلال ، وأطاعوهم طاعة عمياء ، فأضلوهم السبيل ، فكان جزاؤهم على ذلك الجحود وعصيان الرسل ، وتقليد الرؤساء ، أن أتبعوا لعنة و بعدا عن رحمة الله فى هذه الحياة ، ثم لعنة أخرى يوم القيامة ، تحول بينهم و بين مواطن الكرامة .

ثم أخذ ينبه النفوس الى ما حاق وحيق بأولئك التعساء فى الدنيا وفى الآخرة ، فقال مهوّلا لأمرهم ، ومفظعا له (ألا بعدا لعاد قوم هود) دعاء بالهلاك بعد وقوعه ، ليرينا أنهم قد استأهلوه بعملهم ، واستحقوه بجحودهم وعصيانهم ، وقوله (قوم هود) ليرينا أن عادا نوعان : عاد الأولى وهو قوم هود ، وأن ذلك العذاب الذى بينه فى هذه القصة هولهم ، والثانية هم إرم ذات العماد ، فذكر ذلك لازالة الاشتباه

هود عليـــه السلام

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ «١٢٣» إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ «١٢٤» إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ «١٢٥» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ «١٢٦» وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ «١٢٧» أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ [٢] آيَةً تَعْبَثُونَ «١٢٨» وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ [٣] لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ «١٢٩» وَإِذَا بَطَشْتُمْ [٤] بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ «١٣٠» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ «١٣١» وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ «١٣٢» أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ «١٣٣» وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ «١٣٤» إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «١٣٥» قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ «١٣٦» إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ [٥] الْأَوَّلِينَ «١٣٧» وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ «١٣٨» فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ «١٣٩» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١٤٠» الشعراء

---

[١] النساء . [٢] المكان المرتفع الذى يبدو من بعيد ، و « آية » بناء عاليا . وقيل العلم . [٣] جمع مصنعة كالحوض يجمع فيها ماء المطر . [٤] البطش تناول الشىء بصولة «جبارين» قاهرين . [٥] عادة .

شرح وعـــــبرة

(١) الجديد فى هـذه السورة أن نبىّ الله هودا عليه السلام بعد أن دعاهم الى التقوى ، وعرفهم أنه رسـول أمين ، لا يسألهم على تبليغهم رسالة الله أجرا — بعد ذلك كله أخذ ينهاهم أن يتخذوا بكلّ مكان مرتفع من الأرض بناء شامخا هو آية للناس ، وعلم ظاهر يلفت نظر كلّ من يراه ، وأنهم لم يبنوا أولئك الآيات لأغراض صحيحة ، ومصالح تعود عليهم بالنفع ، وإنما كانوا عابثين لاعبين ، فكانوا سـفهاء فى بعثرة المال ، وإضاعة الثروة . وما أكثر هؤلاء فى زماننا ، ما أكثر البانين للعب والعبث ، والمشيدين للرياء والفخر ، وما أضيع المال فى أيدى أولئك السفهاء العابثين ، وما أحوجهم الى أوصياء يضربون على أيديهم ، ويحولون بينهم وبين ذلك العبث ، وهى دعوة من نبىّ الله هود عليــه السلام الى الاقتصاد وتوفير المال ، ووضعه حيث يفيد ويثمر ، وما فائدة الأمة من قصر مشيد قد بذل فى بنائه عشرات الآلاف من الجنيهات ؟ مافائدة الأمة من ذلك القصر الذى يلهو به ويتمتع رجل واحد ، والملايين من الأمة لاتجد مأوى ولا مأكل ، ولاتعرف أين تعيش ؟ نعم ان ذلك القصر وأمثاله يكون قذى فى عين كلّ عاقل ، مادامت صناعة الأمة ضائعة ، وصناعاتها معطلة ، وأيديها العاملة لاتجد مكانا تعمل فيه ، ولعل لأغنيائنا الذين لم يعرفوا قيمة للمال ولامنزلة للثروة ، أن يعتبروا بتلك النصيحة ، فيبنى المثرى منهم على قدر متاعه ، غير لاعب ولا عابث ، ذاكرين أن المال قد جعله الله قياما للناس فى معاشهم ومصالحهم ، وأنهم خلفاء الله فيه ، وسيحاسبهم عليه الحساب العسير ، كما يحاسبهم على كلّ نعيم يـنعمون به . كما ينـكر عليهم نبىّ الله أن يتخذوا مآخذ للماء يجمعونه فيها كالأحواض ، راجين أن يخلدوا فى هذه الحياة ، فنبىّ الله لم ينـكر عليهم بناء الآيات ، وإنما أنـكر عليهم أن يعبثوا بذلك البناء . ولم ينـكر عليهم اتخاذ المصانع ، بل أنـكر عليهم رجاءهم الخلود بها ، ونسيانهم الموت وما بعد الموت . ثم قال لهم (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) يريد أنكم قساة غلاظ ، إذا سـلطتم على من هو دونكم فى القوّة كان بطشكم بهم بطش جبابرة ، لاترعون له عهدا ، ولا تعملون لجواره حسابا .

وما أقرب ذلك الوصف الذى يصف به نبىّ الله هود قومه عادا الى غلاة المستعمرين ، ودول الحضارة اليوم ، إذا سلطهم الله على شعب من الشعوب بطشوا به بطش الجبابرة ،وأذاقوه العذاب ألوانا فيتموا الأطفال ، وسبوا النساء ، وهتكوا الحرمات ، ومزقوا المصاحف ، وقتلوا الأبرياء ، وهذه آثارهم فى كلّ مكان تشيب الطفل ، وتضج لها الانسانية ، ويغض لها ماء الجماد .

(٢) ثم أخذ يكرر مطالبتهم بالتقوى والطاعة، ويذكرهم بما أمدّهم الله به من أنعام وبنين، وجنات وعيون ، ويخوّفهم من عذاب الله إذاهم خالفوه ، فكان جوابهم بعد تلك العظة أن قالوا له (سـواء علينا أوعظت أم لم تـكن من الواعظين إن هذا إلا خلق الأوّلين ومانحن بمعذبين) لم يبالوا بوعظه ، ولم يعملوا حسابا لتذكيره ، سيان عندهم كلامه وسكوته ، وما عكوفهم على آلهتهم إلا عادة من سبقهم من الأمم ، وتقدّمهم من الآباء والجدود ، ولاغنى لهم عن سـنة آبائهم ، وتقليد أسـلافهم ، ولم يريدوا أن يقفوا من نبى الله عند ذلك الحدّ ، بل قالوا (ومانحن بمعذبين) على ذلك الشرك ، ولاندرى بأىّ حجة يضمنون لأنفسهم النجاة من العـذاب ، إذا كانوا مؤمنين

بالحساب ، ولعلهم أرادوا بقولهم (إن هذا إلا خلق الأولين) أن مانحن عليه من حياة وموت ان هو إلا عادة لم يزل عليها الناس من قديم الدهر ، فليس هناك ثواب ولاعقاب ، ولاجنة ولانار ، كما يقول الدهريون (وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم ان هم إلا يظنون «٢٤» [1]) ثم أرانا أنهم كذبوا نبيّ الله هودا فأهلكهم الله بذلك التكذيب، وأن فى ذلك التكذيب عبرة للمعتبرين ، وما كان أكثر قوم هود مؤمنين ، وان ربك (العزيز) الغالب على أمره ، لايفلته ظالم ، ولايعجزه متكبر ، وهو رحيم بالناس فى عقوبتهم ، لطيف بهم فى معاملتهم ، ومن ناحية أخرى يرينا أنه مع عزته وقهره هذا واسع الرحمة ، ورحمته سبقت غضبه .

دعـــوة صالح

إلى الله تعالى

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ [2] مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٧٣» وَٱذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ [3] فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا ءَالَاءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ «٧٤» قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ «٧٥» قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ «٧٦» فَعَقَرُوا [4] ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ «٧٧» فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ [5] فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ [6] «٧٨» فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ «٧٩» الأعراف

---

[١] الجاثية . [٢] آية واضحة . [٣] أنزلكم فيها وجعلها مباءة لكم . [٤] نحروا «عتوا» تمردوا مستكبرين . [٥] الزلزلة . [٦] باركين على ركبهم من شدة الهول .

شرح وعـــــبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه أرسل الى ثمود أخاهم فى النسب والوطن صالحا ، وقد سماه أخا بذلك الاعتبار . سـئل الامام عبد الله بن أبى ليلى عن اليهودى والنصرانى يقال له أخ ؟ فقال الأخ فى الدار ، واستدلّ بالآية، رواه أبو الشيخ، وقد قال لهم نبيّ الله بعد أن طالبهم بعبادته وحده شأن بقية الرسل (قد جاءتكم بينة من ربكم) وقد أرانا الله فى قصة صالح من سورة هود أنه أراهم آية فى الناقة بعد ردّهم لدعوته ، وتصريحهم بالشك فى صدقه . وجاء فى سورة الشعراء أنهم طلبوا منه الآية وتحدّوه بها . إذ قالوا (فأت بآية إن كنت من الصادقين) ومن مجموع السـور نعرف أن الدعوة إلى الله تعالى ، والتخويف من عذابه و بطشه كانت أوّلا ، والاتيان بالآية بعد طلبها كان ثانيا ، ولم يعن القرآن بترتيب الحوادث فيذكرها على نسـق أوقاتها ، لأن القرآن لم يكن كتاب تاريخ جاء لتحديد الحوادث ، و بيان أوقاتها ، وانما هو كتاب عبرة ببيان سنن الله تعالى فى البشر ، وهداية الرسل عليهم السلام ، ولذلك ترى القصة الواحدة فيها الاجمال والبسط ، والتقديم والتأخير ، وفيها زيادات فى بعض السـور لم تكن فى البعض الآخر ، وكلها صحيحة ، لا يتنافى إجمالها وتفصـيلها ، ولا يتناقض ما فيها من زيادات بل يكمل بعضها بعضا ، وقوله (من ربكم) للاعلام بأن هـذه الآية لم تكن من عمل نبيّ الله صالح ، ولا مما بنالها كسبه عليه السلام ، شأن ما يؤيد الله تعالى به الرسـل من خوارق العادات ، ومنـه نعلم أن الخوارق لم تكن من كسب الصالحين بالأولى

(٢) وقد بين البينة التى جاء بها فقال (هـذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسـوء فيأخذكم عذاب أليم) وقد وصف العذاب فى سـورة الشعراء بالعظيم ، فهو أليم وعظيم ، ووصفه فى سورة هود بالقريب ، وهو أنه يقع بعد ثلاثة أيام من مسهم لها بسوء ، وقد أضاف الناقة الى اسمه الكريم تعظيما لشأنها . وقيـل لأنه لم يكن لها مالك ، وقد أراهم الله أن الماء الذى سخره لهم قسمة بينهم و بين تلك الناقة، تشرب منه يوما ، و يشربون منه يوما آخر (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم «١٥٥» [١]) وقال فى سورة القمر (إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر «٢٧» ونبئهم أن المـاء قسمة بينهم كلّ شرب محتضر [٢] «٢٨» فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر «٢٩» فكيف كان عذابى ونذر «٣٠») وجاء فى سـورة الشمس (كذّبت ثمود بطغواها «١١» إذ انبعث أشقاها «١٢» فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها «١٣» فكذّبوه فعقروها فدمدم [٣] عليهم ربهم بذنبهم فسـوّاها «١٤» ولا يخاف عقباها «١٥») فدلّ مجموع الآيات أن آية الله تعالى فى الناقة أن لا يتعرض لها أحد من القوم بسوء فى نفسها ، ولا فى أكلها ، ولا فى شربها ، والمتبادر من إضافة الأرض إلى الله تعالى أن المراد بها المباحة للأنعام أن ترعى فيها ، دون ما يزرعه الناس و يحمونه لأنفسهم ، وفيه مراعاة النظير بين ناقة الله وأرض الله ، أى فدعوا ناقته تأكل من أرضـه ، والمتبادر من كلمة (سوء) أن الوعيد

---

[١] الشعراء . [٢] محضور لهم أو للناقة . [٣] أطبق عليهم العذاب « فسوّاها » أى الدّمدمة لم يفلت منها صغيرهم ولا كبيرهم .

مرتب على أىّ نوع من أنواع الايذاء جلّ أو حقر ، لأنه نكرة بعد نهى .

(٣) ثم أخذ نبىّ الله يذكرهم بنعم الله عليهم ، وأنه جعلهم خلفاء لعاد فى الحضارة والعمران ، والقوّة والبأس ، وأنه بوّأهم فى الأرض ، وجعلها منازل لهم ، وقد بين ذلك بقوله (تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا) يذكرهم بما ألهمهم من فنون الصناعة ، وهندسة البناء ، ودقة النجارة ، وما علمهم من فن النحت ، وآتاهم من القوّة والصبر ، قيل كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء ، لما فى البيوت المنحوتة من القوّة على الأمطار والعواصف ، ويسكنون السهول فى سائر الفصول لأجل الزراعة والعمل .

انظر كيف يذكر القرآن قوم هود بأنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ، ويذكر قوم صالح بأنه جعلهم خلفاء من بعد عاد ، وذلك أسلوب من أساليب التربية ، وضرب من ضروب العظة ، يذكر فيها القرآن أولئك القوم بأنه غمرهم بفضله ، وعمهم باحسانه ، وجعلهم أجلاء عظماء فى شئون الحياة ، ووسائل العمران ، ولا ينبغى ممن كرّمهم الله ذلك التكريم أن يلوّثوا أنفسهم بالمعاصى ، ويدنسوها بالجرائم ، بل اللائق بذلك النوع من الناس أن يكون ممن يكرم نفسه حيث أكرمه الله ، ولا ينبغى له أن يعمل على بخس نفسه حقها ونقصها قيمتها ، وعلى هذا الأسلوب قول الله تعالى (ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا « ٧٠ » [1]) وقوله (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين « ٤٧ » [2]) ذلك الأسلوب الذى يشعر المخاطب بعلوّ نفسه ، وكبر منزلته ، ثم يطالبه بحقوق هذه العزة ، وما تتطلبه تلك المنزلة ، ويريه أن عصيان الله تعالى هو امتهان للنفس ، ونزول عن المكان اللائق بها ، وكثيرا ما يثمر ذلك النوع من التأثير فى نفس المستمع ، وكثيرا ما انتفع الناس بالعظة من ناحية ما فى نفوسهم من عظمة ، وكثيرا ما يلجأ الواعظ الى أن يقول للمسرف على نفسه : إنك رجل من بيت طيب ، وأرومة [3] عالية ، وأبوين شريفين ، وقد كان لأبيك من المجد والسؤدد كيت وكيت ، فلا يليق بك أن تجارى أولئك النحوت وسفلة الناس فى تهافتهم على المعصية ، وانحدارهم إلى سفاسف الأمور ، وكثير من الناس يعفّ عن المحرّمات لأنها لا تتفق وما ينبغى لمثله من عظمة ، ولا تتناسب مع منزلته فى الحياة ، وأن الطامة الكبرى ، والبلاء الذى لا نجد له علاجا ، تلك الطائفة التى لا تشعر لنفسها بكرامة ، ولا تحسّ بمنزلة ، فلا تبالى أن تكون نفسها نفس إنسان أو حيوان ، ولا يعنيها أن تكون حقيرة أو عظيمة ، بل المهانة أحبّ إليها من الكرامة ، وعبوديتها للشهوة والهوى أعذب لديها من الحزم والعزم ، نعم ان هذه الطائفة هى لغز الواعظ ، وعقبته الكأداء ، إذا شاء أن يستعين عليها بما فى نفسها من حياء وجد معين الحياء قد نضب ، واذا أراد أن ينمى فيها عاطفة احترام النفس ، وتكريم الانسانية ، رأى أنها قد انحدرت الى دركة الحيوان الأعجم ، فيقف مكتوف الأيدى أمام تلك النفس الوضيعة ، وهيهات أن يجد لها علاجا ناجعا ، أو دواء نافعا لذلك عنى القرآن الكريم بذلك النوع من التذكير ، وهذا الأسلوب من التربية ، لذلك يبدئ ويعيد فى ذلك التذكير ،

---

[١] الاسراء . [٢] البقرة . [٣] أصل .

و بعد أن ذكرهم بنعم خاصة ، قال لهم (فاذكروا آلاء الله) عليكم عامّة ، واشكروا هذه النعم باستعمالها فيما فيه صلاحكم ، ولا تتصرّفوا فى هذه النعم تصرّف عثيان وكفر بمخالفة ما يرضى الله فيها ، متصفين بالافساد ، ثابتين عليه .

(٤) بعد ذلك قال (الملأ المستكبر) من قوم صالح للمستضعفين المؤمنين (أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) قدّمنا فى قصة نبى الله نوح عليه السلام أن الملأ : هم الأشراف والسادة الذين هم عقبة الاصلاح فى كلّ زمان ، وأن أتباع الرسل دائما المستضعفون ، لا الأغنياء المترفون ، لأنه لا يثقل على المستضعفين أن يكونوا تابعين لغيرهم ، وليس فى قلوبهم من حب الرياسة ما يمنع من استماعهم للحق ، أما السادة والأشراف فيشق عليهم أن يكونوا مرءوسين ، وأن يخضعوا للأوامر والنواهى التى تحرّم عليهم الاسراف الضارّ ، وتقف شهواتهم عند حدود الحق والاعتدال ، على هذه السنة جاء سؤال المستكبرين للمستضعفين ، وعلى هذه السنة كان جوابهم لهم (انا بما أرسل به مؤمنون) وعلى هذه السنة كان ردّ المستكبرين عليهم (إنا بالذى آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين) وقد أسند الله العقر الى أولئك المستكبرين الكافرين — والمتعاطى له واحد منهم — لأنه بتواطئهم ورضاهم ، كما قال فى آية القمر (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) ليرينا أن مثل هذا من أعمال الأمم ينسب إليها فى جملتها ، كما أنها تعاقب عليه فى جملتها (واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب «٢٥» [1]) ومنه نعلم أن الأمّة متضامنة متكافلة فى الخير والشر ، وأنها متى سكتت على منكر ، وكان فى استطاعتها أن تقف فى سبيل صاحبه ، عاقبها الله على ذلك السكوت العقاب الشامل ، روى أبو داود والترمذى عن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه قال : يا أيها الناس انكم تقرءون هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم) وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » .

فليعتبر بذلك المسلمون الذين تحللت روابطهم ، وتفككت عراهم ، وأصبح كلّ واحد لا يهمه سوى شخصه ومصلحته الخاصة ، وإذا رأى الظالم يحزّ فى عنق اخوانه و بنى جلدته لم يحرّك لذلك الظلم ساكنا ، مادام هو ممتلىء البطن ، آمنا على نفسه ومصالحه . فليعتبر بذلك المسلمون ، وليعلموا أنهم ما أصيبوا إلا من جراء ذلك التفكك والانحلال ، وليثقوا أن ذلك الظالم هو معهم اليوم ، وعليهم فى الغد ، وأنه يستعين على بعض الأمّة ببعضها الآخر ، يعطى من معه من الشهوات والمصالح ما يسخره به لقضاء مصلحته ، ثم متى انتهت حاجته منه قلب له ظهر المجن ، ونكل به كما نكل بأخيه . ليعتبر بذلك المسلمون ، وليفطنوا لما يريده العدوّ الغاصب من اتخاذ بطانة منا ، وأيد عابثة فاجرة ، يستعين بها على امتلاك بلادنا و إذلال أمّتنا ، ولو كانوا ممن يتعظون بالقرآن وعظاته لعرفوا أن اقرار الظلم فى الأمّة وسكوتها عليه هو شرّ مستطير ، لا يعلم مداه إلا الله تعالى ، وأنه يعاقبنا عليه بانتقاص بلادنا ، وتثبيت أقدام الغاصب فيها ، وتسخير خيراتنا وجهودنا لمصلحة ذلك العدوّ الذى لا يرعى لنا ذمه ، ولا يحفظ لنا عهدا .

---

[١] الأنفال .

هؤلاء قوم صالح لما رضوا عن عقر الناقة نسب الله اليهم المعصية ، وعاقبهم عليها العقاب الشامل ، مع أن الذى عقرها واحد منهم ، ولكنه عقرها على رضا منهم ، وكان فى استطاعتهم منعه ، والضرب على يديه ، ولكنهم بدل أن يمنعوه شجعوه ، فكان عذابهم من أجل ذلك عذابا شاملا ، وعقوبة عامة .

وهذه شعوب المسلمين المحتلة يسلط عليها الغاصب من نفسها أناسا يظلمونها ، ويسومونها سوء العذاب ، ثم هى ترضى عن ذلك الظلم ، وتستكين للهوان ، ولا تأخذ على يد الظالم ، فتحول بينه وبين الظلم ، فيعاقبها الله بتمكين الغاصب فى الأرض ، وتثبيت قدمه ، واستيلائه على خيرات هذه الأرض ، وهى عقوبة لا تصيب الظالم وحده ، بل تشمله وغيره ، بل وتشمل الأجيال المقبلة ، وما أشدها من عقوبة ، وما أقساه من انتقام يسوقه الله ، لأننا قصرنا فى الأمر ، وخنعنا للظلم .

(٥) بعد ذلك قالوا للنبى الله صالح (ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين) وقد نادوه باسمه تهوينا لشأنه ، وتعريضا بما يظنون من عجزه (فأخذتهم الرجفة) وفى سورة هود (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) وفى سورة فصلت (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون «١٧») وفى سورة الذاريات (فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون «٤٤») أما الرجفة : فهى الزلزلة والاضطراب ، وأما الصيحة فهى رفع الصوت ، ولما كانت الصيحة قد تنزع عبر بها عن النزع ، وأما الصاعقة فهى اشتعال يحدثه الله تعالى عند اختلاف كهربائية سحابة قريبة من الأرض مع كهربائية الأرض ايجابا وسلبا ، ولا تنافى بين الرجفة ، والصيحة ، والصاعقة . ذلك أن الصاعقة هى الشرارة الكهربائية التى تتصل بالأرض فتحدث بها تأثيرات عظيمة بقدرها ، كصعق الناس والحيوان وموتهم ، وهدم المبانى أو تصديعها ، واحراق الشجر والمتاع وغير ذلك . فالصاعقة لها صيحة شديدة القوة والطنين ، ترجف من وقعها الأفئدة ، وتضطرب الأبدان ، فقوم ثمود عاقبهم الله بذلك كله . أخذتهم بالصاعقة التى لها صوت شديد مزعج ، يصحبه زلزلة . فاذا قال القرآن فأخذتهم الرجفة . أو قال فأخذتهم الصيحة . أو قال فأخذتهم الصاعقة ، كان ذلك كله حقا وصحيحا .

ومن الجائز أن يكون الخالق القادر المقدّر قد جعل هلاكهم فى وقت ساق فيه السحاب المتشبع بالكهرباء الى أرضهم بأسبابه المعتادة ، ويجوز أن يكون قد خلق تلك الصاعقة لأجلهم على سبيل خرق العادة ، وأيا ما كان فالآية قد وقعت ، وصدق الله رسوله فى انذار قومه (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) والمراد أنهم سقطوا على ركبهم مصعوقين ، وجثموا هامدين خامدين (فتولى عنهم) بعد ما أبصرهم جاثمين تولى متحسر على مافاته من ايمانهم ، ويقول لهم ياقوم لقد بذلت فيكم وسعى ، ولم آل جهدا فى إبلاغكم النصيحة لكم (ولكن لا تحبون الناصحين) وقد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت — وكان قد نصحه حيا فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه فى التهلكة — يا أخى كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل منى ، وفى سورة هود أن صالحا عليه السلام أمهل قومه ثلاثة أيام بعد عقر الناقة ، فلما انتهت أنجاه الله تعالى ومن معه من المؤمنين برحمة منه ، وأنزل العذاب بالباقين الظالمين بعد انجائه ، وانما يكون الانجاء من عذاب صيحة الصاعقة بالبعد عن المكان الذى تقع

فيه ، والمعهود فى مثل هذه الآية أن تتقدم على ماقبلها فى الذكر ، كتقدم مدلولها بالفعل ، ولكن عهد فى كلام العرب ترك الترتيب بين المعانى لنكت فى الكلام ، ولاسيما كلام يعرف فيه الترتيب بالضرورة ، أو مايقرب منها فى الظهور ، فيكون تولى نبى الله عنهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب ، ويكون خطابه لهم وتعنيفه اياهم جاء حسب المألوف من خطاب الأحياء . والله أعلم .

صالح عليه السلام

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ (١) فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ «٦١» قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا (٢) قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَىٰنَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٣) «٦٢» قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٤) «٦٣» وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ «٦٤» فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ «٦٥» فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ «٦٦» وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ «٦٧» كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا (٥) لِّثَمُودَ «٦٨» هود

شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى فى هذه السورة أنه أرسل الى ثمود أخاهم صالحا وطالبهم بالتوحيد ، ثم ذكرهم بتنشيئه لهم من الأرض ، وقد أجمل فى هذه الكلمة ما فصله الله فى آيات أخر كما تدل عليه آيات المؤمنين (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين «١٢» ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين «١٣» ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا

---

[١] فوض اليكم عمارتها ومكنكم فيها . [٢] مأمول الخير . [٣] موقع فى الريبة وقلق النفس .
[٤] إهلاك وضلال . [٥] دعاء عليها بالهلاك .

آخر فتبارك الله أحسن الخالقين «١٤») فهو يلفتهم الى آيات الله فيهم من جهة خلقهم الأول ، علهم يذكرون أن من قدر على ذلك الخلق هو على الاعادة أقدر ، وعلهم يذكرون أن صاحب النشأة الأولى هو الأولى بأن يعبد ، وأنه ليس من الرأى التسوية بين من يخلق ومن لايخلق ، ثم ذكرهم بنعمة أخرى هى نعمة استعمار الأرض فقال (واستعمركم فيها) جعلكم عمارا لها ، تشقون فيها الأنهار ، وتنشئون فيها البساتين ، وتبنون فيها القصور ، وتنتفعون بما فيها من خيرات ومعادن وجبال وبحار ، وتستخدمون كلّ شيء فيما خلق له — يذكرهم الله تعالى بهذه النعم ، وأنه هو الذى أسداها اليهم ، وهداهم اليها ، وخلقهم مستعدّين لها ، بما وهبهم من عقول ، وما ألهمهم من صناعات وعلوم ، ومامنحهم من الصبر والجلد على حذق أولئك الصناعات ، والتفنن فيها ، وهو يشبه قوله فى سورة الأعراف (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد و بوّأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا فى الأرض مفسدين «٧٤») وقوله فى قصة هود من سورة الأعراف (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون «٦٩») وقد عقب تذكير الله لهم بهذه النعم بقوله (فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب) لأن ذلك هو اللائق باله له هذه النعم ، اللائق به أن ترجع اليه الناس فى مغفرة الذنوب وقبول التوبة ، فانه دانى الرحمة ، سهل المطلب ، مجيب لمن دعاه .

(٢) (قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوّا قبل هـذا) ذلك هو ردّهم على نبيّ الله صالح أنه كان مأمول الخير تلوح فيه مخايل الرشد ، قبل أن يقوم بهذه الدعوة فيسفه أحلامهم ، ويعيب آلهتهم ، أما الآن فقد انقطع رجاؤهم فيه ، وخاب ظنهم من ناحيته ، أوكانوا يؤملون فيه أن يشاركهم فى عباداتهم ، ويدخل معهم فى دينهم ، لأنهم كانوا يعرفون فيه لين الجانب ، وحسن الخلق ، ثم أخذوا ينكرون عليه نهيهم عن عبادة الأوثان فقالوا (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب) .

ياسبحان الله كأن الناس قدّوا من أديم واحد ، هؤلاء قوم صالح يعترفون له بأنه كان مرجوّ الخير ، مأمول الرشد ، قبل أن يقوم فيهم بالدعوة ، و يبين لهم ماهم عليه من أخطاء ، أما بعد أن قام فيهم بالدعوة ، وأخذ يعيب عليهم ماهم عليه من باطل ، يقومون فى وجهه ، ويناصبونه العداوة و يقلبون له ظهر المجنّ ، وهذه قريش كان محمد فيها الصادق الأمين ، لم يجرّبوا عليه كذبا : فلما أخبرهم عن الله أنه رسوله جاء ليبشر و ينذر قامت قيامتهم ، وتألبوا عليه ، وفعلوا به ما فعلوا من الكيد والمكر ، وحاولوا أن يفتنوه عما أوحاه الله اليه ، وهنالك يكون خليلا لهم محبوبا (وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا «٧٣» [1]) (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولىّ ولا نصير «١٢٠» [2]) وهؤلاء الذين كفروا بالرسل جميعهم يقولون لهم (لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنّ فى ملتنا «١٣» [3]) ومن العجيب أن

---

[١] الاسراء . [٢] البقرة . [٣] ابراهيم .

قوم صالح يطمعون فى حسن خلقه ، وطهارة ماضيه ، وغفلوا عن أن تلك الناحية كان عليهم أن ينتفعوا بها ، وكثيرا مايقول الرسول لقومه (إنى لكم ناصح أمين) يريد أننى لم أعرف فيكم بخيانة ولم تجرّبوا علىّ كذبا فى شأن واحد منكم ، فكيف أجرؤ أن أكذب على ربى ؟ فاذا كان صالح مرجوّ الخير قبل هـذا ، وكان تاريخه أبيض ناصعا ، وحياته حياة أطهار ، قد نقيت سيرتهم ، وحسنت معاملتهم ، أفلا يكون ذلك حاملا لكم على تصـديقه ، والعناية بدعوته ، ثم لماذا يكون مرجوّ الخير مأمول الرشـد ما دام لم يعرض لآلهتكم بسوء فاذا هو عابها ، وبين أنها لا تصلح أن تكون آلهة تعبـد ، يكون ميئوس الخير مقطوع الرجاء ؟ أليس ذلك تعصبا أعمى وسيرا وراء الشهوات والأهواء .

(٣) (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير) يتلطف معهم نبىّ الله صالح ، ويخاطبهم خطاب المتردّد فى أنه على بينة ، وان كان يقطع بأنه على بينة ، ويقول لهم : خبرونى اذا كنت على برهان من ربى فى أنى رسـول لكم ، وآتانى منه رحمة وهى الرسالة ، ثم عصيته ووافقتكم على ما أنتم عليه من باطل ، فمن ينصرنى منه إن عصـيته ؟ أتنصرنى آلهتكم وهى أضعف من أن تنصر نفسها ؟ أم تنصرونى أنتم من عذابه ؟ وما أنتم إلا عبيد لا تملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا ؟

الحق أنه لا جواب لهم من ذلك السؤال ، ولذلك قال عقب ذلك (فما تزيدوننى غير تخسير) يريد أنه لو فرض أنه انضمّ إليهم وعصى ربه فلا يزيدونه إلا هلاكا وضلالا ، وبذلك أيأسهم من إجابتهم الى طلبهم ، ثم أراهم أن الله تعالى أرسل الناقة آية له على صدقه ، وأمرهم أن يتركوها تأكل فى أرض الله ، ولايتعرّضوا لها بسوء ، وأنهم ان تعرضوا لها بنوع من أنواع الأذى أخذهم عذاب قريب ، فلم يكن منهم إلا أنهم نحروها فقال لهم ، تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، وان ذلك وعد صادق، ولما جاء أمر الله بالعذاب نجى صالحا والمؤمنين معه رحمة من الله من ذلك العذاب ، ومن خزى ذلك اليوم الذى حلّ بقوم صالح ، ولا عجب فى أن يحلّ بالقوم من عذاب الله ما يحلّ ، وأن ينجى صالحا والذين آمنوا معه من ذلك العذاب (ان ربك هو القوىّ العزيز) فلا يستطيع أحد أن يفلت من عذابه إذا جاء وقته ، ولا يستطيع أحد أن يخذل من أنصاره من تكفل الله له بالنجاة ، وبعد هـذه النجاة أخذ الذين ظلموا صيحة العذاب ، فأصبحوا فى بلادهم جاثمين على ركبهم ، ثم بين أسباب هذه العقوبة فقال (ألا إن ثمود كفروا ربهم) ليرينا أن عاقبة الكافرين بربهم بعد وضوح الأدلة على الايمان أن يصيروا الى ما صار إليه قوم صالح ، ثم ختم القصة بقوله (ألا بعدا لثمود) دعاء عليهم بالهلاك بعد أن وقع ، نعرف منه أنهم استأهلوه ، وأنه وقع بهم وقوعا عادلا حكيما .

صالح عليـــه السلام

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ «١٤١» إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ «١٤٢»

إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ «١٤٣» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ «١٤٤» وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعٰلَمِينَ «١٤٥» أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هٰهُنَا ءَامِنِينَ «١٤٦» فِى جَنّٰتٍ وَعُيُونٍ «١٤٧» وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا (١) هَضِيمٌ «١٤٨» وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فٰرِهِينَ (٢) «١٤٩» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ «١٥٠» وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ «١٥١» الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ «١٥٢» قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (٣) «١٥٣» مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ «١٥٤» قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ (٤) وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ «١٥٥» وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ «١٥٦» فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نٰدِمِينَ «١٥٧» فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ «١٥٨» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١٥٩» الشعراء

شرح وعبرة

(١) أضاف الى ثمود فى هذه السورة تكذيب الرسل جميعهم مع أنهم لم يكذبوا إلا صالحا ليريك أن من يكذب رسولا مع قيام الأدلة عنده على صدقه هو مكذب للرسل جميعهم ، لأنه لافرق بين رسول ورسول ، و بعد أن طالبهم بتقوى الله تعالى ، وعرفهم أنه رسول أمين على دعوته لم يخن فيها شيئا من الخيانة ، وأنه لم يسألهم على تبليغه لهم أجرا ، ومن كان كذلك ينبغى أن تقابل دعوته بالرضا . بعد ذلك كله قال لهم (أتتركون فيما هاهنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) يذكرهم بنعمته عليهم فى تخلية الله اياهم وما يتمتعون به من الجنات وغيرها مع الأمن والدعة ، وهى من أجل نعم الله على عباده : أن يغمرهم بنعيم الأرض ، وأن يعدهم لاتخاذ بيوت من جبالها فى حذق و إتقان ، ثم هم مع ذلك وادعون آمنون ، ويجوز أن يكون انكارا من نبى الله صالح عليه السلام على قومه أن يفهموا أنهم يتركون فى هذه النعم التى غمرهم الله بها آمنين على أنفسهم من حلول عذب الله بهم ، فيبدل

---

[١] مايبدو من ثمره فى أول ظهوره «هضيم» لطيف ضامر، من قولهم: كشح هضيم، وطلع إناث النخل فيه لطف، وقيل اللين النضيج أو متدل متكسر من كثرة الحمل . [٢] حاذقين . [٣] الذى سحر كثيرا حتى غلب على عقله . [٤] نصيب من الماء .

نعيمهم شقاء ، وأمنهم خوفا ، مع أن موقفهم من صاحب النعم موقف الكافر لا موقف الشاكر ، وأن يكون نبيّ الله صالح ينكر عليهم أن يفهموا أنهم يتركون فى هذه النعم بدون جزاء عليها ، وكأنه يقول لهم : إذا فهمتم من حالكم الوادع المطمئنّ أن هذه كلّ حياتكم ، وأن ليس لكم حياة وراء هذه الحياة محاسبون فيها على كلّ ما قدّمتم من خير أوشر — إذا فهمتم ذلك فأنتم خاطئون ، ولا بدّ لكم من يوم تجزون فيه على أعمالكم ، وتحاسبون على ما قدّمتم فى دنيا كم ، وخصّ النخل بقوله (طلعها هضيم) ليرينا أنها نخل من نوع الاناث المثمر ، لامن نوع الذكور ، أو من صنف جيد ، أو كثير الحمل ، ولذلك كان موضع الامتنان ، وخصّ النخل بعد دخوله فى جنات تنبيها على انفراده عنها بفضله عليها ، أو لعله كان أكثرها نفعا عندهم .

(٢) بعد ذلك عاد فأمرهم بتقوى الله تعالى وطاعته ، ونهاهم أن يطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، يريد بهم أئمة الضلال وأساطين الكفر ، وهم الملأ من قوم صالح ، وقد وصفهم بعدم الاصلاح بعد وصفهم بالافساد ليرينا أن أولئك القوم فسادهم فساد مصمت ، ليس معه شىء من الاصلاح ، كما تكون حال بعض المفسدين ، فيكون جواب قومه (إنما أنت من المسحرين) رموه بأنه مغلوب على عقله ، ولذلك دعاهم الى مادعاهم إليه ، ثم قالوا له (وما أنت إلا بشر مثلنا) ومن كان كذلك لا يكون رسولا ، لأنهم يدّعون أن الرسول لا يصحّ أن يكون بشرا ، وقد سبق لنا الردّ على هذه الشبهة الواهية الضئيلة فى قصة نبيّ الله نوح من سورته

ثم طالبوه بالآية التى تخضع لها أعناقهم ان كان صادقا فى دعوى الرسالة ، فقال لهم بعد ذلك التحدّى (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم الخ) فهذه آية الله لنبيه صالح ، وقد صدقه الله وعده ، وحلّ بهم من العذاب على عقر الناقة ما حلّ ، وكانت عقوبة الله لهم على عصيانه . والخروج عن أمره آية من آياته ، وعبرة من العبر ، وما كان أكثر قوم صالح مؤمنين برسالته ، ولا موقنين بصدقه ، لذلك حلّ بهم من العذاب ما حلّ ، ولا غرابة فى ذلك فان الله عزيز ، والعزيز لا يغلب ، ومع عزته هو رحيم فى هذه العزة ، فلا يسلط عذابه للتشفى ، وإنما يسلطه للتأديب والاصلاح فى الأرض ، فهو رحيم فى عزته لطيف فى تأديبه لمن عصاه ، ولا تفهم من قوله (فأصبحوا نادمين) أنهم ندموا على عقر الناقة ندم توبة ، ولكنهم ندموا ندم خائف أن يعاقب على العقر عقابا عاجلا ، ولذلك لم يفدهم ذلك الخوف ، فأخذهم العذاب ، ولو كان ندم توبة فانه لا يجديهم ، لأنه عند معاينة العذاب فتوبتهم توبة إلجاء ، لا فضل لهم فيها كتوبة فرعون وهو يقاسى شدّة الغرق .

صالح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ «٤٥» قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ

ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ «٤٦» قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا (١) بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ (٢) عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ «٤٧» وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ (٣) يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ «٤٨» قَالُوا تَقَاسَمُوا بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ (٤) وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ «٤٩» وَمَكَرُوا (٥) مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ «٥٠» فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ «٥١» فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «٥٢» وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ «٥٣» النمل

شرح وعـــبرة

(١) يرينا الله فى هـذه السورة أنه أرسل الى ثمود أخاهم صالحا ، ولم يلبث أن يدعوهم الى عبادة الله حتى صاروا فريقين مختصمين : فريق مؤمن يدافع عن الايمان بالحجة والبرهان ، وفريق كافر يدعو الى الكفر و يتعصب له . شأن الناس فى كلّ زمان إذا وصلتهم دعوة جديدة ، فتجدهم حزبين : حزب يناصرها ، وحزب يحاربها ، فليست هذه التفرقة ذنبا للدّاعى ، ولا سيئة من سيئاته ، وانما هى من طبع الدّعوة ، وأثرها الذى لايفارقها ، وكثير من الناس إذا رأى ذلك الانقسام فى بلد من البلاد التى بدأ فيها الوعظ والدّعوة الى الله تعالى ينسبه الى الواعظ ، و يعدّه سيئة من سيئاته ، و يقول : ان فلانا قسم البلد قسمين ، وشطرها الى فريقين ، ولو علم أن الواعظ لم يرد ذلك ولم يعمل له ، وانما أراد أن تسمع الناس له ، وتصغى إلى قوله ونصائحه . لو علم ذلك ما عاب ذلك الواعظ بذلك العيب ، بل لو علم أن سنة الله فى الناس إذا جاءهم رسـول من الرسل أن ينقسموا إزاء دعوته ، ففريق منهم يناصره ، وآخر يعاديه ويخاصـمه — ما عاب الواعظ ولا أضاف له هذه السيئة ، سيئة التفريق بين الناس ، وان نظرة واحدة فيما حولنا من حوادث ترينا كيف كان الناس جدّ مختلفين أمام دعوة الرسل ، فقد رأينا عند نهضة البلاد إلى طلب استقلالها ، وقيام زعماء فيها ، ينقسـمون على أنفسهم انقساما غير محدود ، و يختصمون فى مبادئهم اختصاما واسعا ، حتى إنك تجد أهل البيت الواحد على أقسام شتى ، فتجد رئيس البيت فى ناحية ، وأبناءه فى ناحية أخرى ، وقد تجد الرجل على عقيدة سياسية ، وزوجه على عقيدة تضادّها وتصادمها ، فهل الزعيم السياسى هو الذى فرق بين هؤلاء ، أو طبيعة دعوته هى السبب الأوّل لهذه التفرقة .

---

[١] تشاءمنا . [٢] سببكم الذى يجىء منه خيركم وشرّكم عند الله وهو قدره وقسمته .

[٣] من ثلاثة إلى عشرة يقال له رهط . [٤] نباغتهم ليلا . [٥] دبروا الفتك بصالح فى الخفاء ومكر الله اهلاكهم من حيث لايشعرون .

وكانت هذه سنة فى العالم لاتتبدّل ، لأن النفوس فى استعدادها للحق ، وتقديرها للبرهان والدليل ، وطهارتها من الأمراض التى تحول بينها و بين قبول الدعوة متفاوتة بحسب تربيتها ، وما يحيط بها من بيئات وأوساط ، وما ورثته عن البيوت والأسر من أخلاق وعادات ، وآية ذلك اتباع الرسل فى كلّ زمان ومكان ، فانك تجدهم من الضعفاء ، وجمهرة الشعب ، وفقراء القوم ، وتجد على عكس ذلك السادة والأشراف الذين يعبر القرآن الكريم عنهم بالملأ ، فالصنف الأوّل من الناس قد خلت نفوسهم من الحقد ، ولم ينشئوا على الكبر والغطرسة ، ولم يكن لهم من عظمة الآباء مايخشون إضاعته ، ولا من المكانة فى المجتمع مايحول بينهم و بين اتباع الرسول ، لذلك كان الناس جدّ متفاوتين فى قبول الدّعوة ، وكان من الطبعىّ أن ينقسموا على الداعى ، و ينقسموا على أنفسهم فقد كنا نرى فى بعض الغزوات الاسلامية أن الرجل يقاتل فيمن يقاتل أباه ، و يبرز له بالسيف ، وليس ذلك إنكارا لما أسداه له من جميل ، وما قدّمه له من تربية ، و إنما هى العقيدة تسلطت على النفوس ، واستولت على المشاعر ، فنسيت كلّ الأوامر إلا أوامر الدين ، وروابط الطاعة لله تعالى (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم «٢٢» [1]) .

(٢) هنالك قال نبىّ الله صالح للفريق الكافر ، وقد بلغ من عناده وعتوّه ما بلغ حتى قال له (ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) — هنالك قال لهم (ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون) يريد أن الله تعالى قد مكنهم من رحمته وثوابه ، فلماذا يستعجلون بالعقوبة السيئة وهى إتيانهم بالعذاب الذى توعدهم به نبىّ الله صالح قبل النعمة الحسنة وهى التوبة فيؤخرونها ، ثم عقب ذلك بقوله (لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون) هنالك (قالوا) لصالح (اطيرنا بك و بمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون) كان الرجل يخرج مسافرا فيمرّ بطائر فيزجره ، فاذا مرّ من الميامن إلى المياسر تيمن ، و إذا مرّ من المياسر إلى الميامن تشاءم ، فلما نسبوا الخير والشرّ إلى الطائر استعير اسمه لما كان سببهما من قدر الله وقسمته ومنه قالوا : طائر الله لا طائرك : أى قدر الله الغالب الذى ينسب إليه الخير والشر ، لا طائرك الذى تتشاءم به وتتيمن ، فلما قالوا لصالح (اطيرنا بك وبمن معك) أى تشاءمنا ، قال لهم (طائركم عند الله) أى سببكم الذى يجيء منه خيركم وشركم عند الله ، وهو قدره وقسمته ، إن شاء رزقكم ، وان شاء حرمكم ، ويجوز أن يراد بقوله (طائركم عند الله) أن عملكم مكتوب عند الله ، ومن ذلك العمل نزل بكم مانزل عقوبة لكم وفتنة ، ومنه قوله (طائركم معكم «١٩» [2]) (وكلّ انسان ألزمناه طائره فى عنقه «١٣» [3]) .

وانظر كيف يطالب نبىّ الله صالح قومه باستغفار الله والرجوع اليه ، وعدم التعرّض لعذابه فيقولون له (اطيرنا بك و بمن معك) وأىّ صلة بين طلب المغفرة من الله التى دعاهم اليها نبيهم ، و بين تشاؤمهم به ، لم يكن هناك صلة بين الأمرين ، وانما هو العناد والعتوّ ، وكراهتهم للدّعوة ، وتمحل أسباب للجحود والانكار ، ولم تكن تلك المقابلة المنكرة خاصة بقوم صالح ، فهؤلاء

---

[١] المجادلة . [٢] يس . [٣] الاسراء .

أصحاب القرية يحكى لنا القرآن ما كان منهم مع الرسل (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون «١٤» قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ان أنتم الا تكذبون «١٥» قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون «١٦» وما علينا إلا البلاغ المبين «١٧» قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم «١٨» قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون «١٩» [1]) وهؤلاء قوم موسى يقصّ الله عليهم قصصهم (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون «١٣٠» فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لايعلمون «١٣١» [2]) وقوله (بل أنتم قوم تفتنون) أى مستعدّون للفتنة والزلزلة فى عقائدكم بواسطة شياطين الانس والجنّ فيكم ، ولعله يشير الى أن أولئك القوم لما لم يفتحوا آذانهم للحقّ ولاقلوبهم للوحى، بل عموا عن الدعوة وصموا . كانوا بذلك مستعدّين لأن يتأثروا خطى رؤسائهم والمستكبرين منهم ، ولو أنهم اعتصموا بالله لهداهم الى صراط مستقيم وحال بينهم و بين الفتنة .

(٣) يرينا الله أنه كان فى مدينته تسعة هم رهط ، أو تسعة من الرهط ، والمراد أنهم تسع جماعات . ويرينا أن أولئك كانوا يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وأنهم قالوا لبعضهم تقاسموا بالله الخ، أو قالوا ذلك متقاسمين بالله أن يفاجئوه وأهله بالغيلة ، ثم لنقولنّ لوليّ أمره وصاحب الدم (ماشهدنا مهلك أهله وانا لصادقون) .

وانظر كيف عزم قوم صالح على جريمتين ، مباغتة صالح ، ومباغتة أهله حتى لا يوجد من أهله من يرشد الى المجرّم ، ويصير دمه هدرا ، ثم انظر كيف يؤكدون ذلك العزم على الجريمتين بالقسم بالله ، ثم انظر كيف يدبرون حيلة ليتخلصوا بها اذا وجه اليهم اتهام : هى أن يقولوا لوليّ أمر صالح (ماشهدنا مهلك أهله) كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحا و بيتوا أهله فجمعوا بين البياتين ، ثم قالوا ماشهدنا مهلك أهله فذكروا أحدهما كانوا صادقين ، لأنهم فعلوا البياتين جميعا لا أحدهما ، أو ماحضرنا مهلك أهله ، وانا لصادقون ، لأن الشاهد للشيء غير المباشر له .

هذه حيلتهم التى دبروها ليتخلصوا بها من ولى نبيّ الله صالح ، وهى حيلة مكشوفة ، وكيف ينجو من قتل صالحا وأهله إذا قال ماقتلت أهله ! ! أم كيف يصدق من قتل محمدا وابراهيم ، ثم قال ماقتلت ابراهيم ، لأنه قتل محمدا معه ! ! ثم كيف يكونون صادقين فى قولهم (ماشهدنا مهلك أهله) لأن الشاهد للشيء غير المباشر له ، مع أن المباشر للقتل قاتل وشاهد ، لأن الشهود هو الحضور ، ومنه أخذت الشهادة ، لأن الأصل فى الشاهد أن يكون حاضرا مع المشاهدة بالبصر أو البصيرة ، وقد وصف الله المؤمنين بأنهم (لايشهدون الزور) أى لايحضرونه ، فهم ينفرون من حضور مجلسه فضلا عن الشهادة عليه . ثم تأمّل كيف يحرصون على الصدق ولايبالون بقتل نبيّ من الأنبياء ؟ وهل ذلك القتل من الصدق مع الله فى عهوده ومواثيقه التى أخذها على عامة البشر ؟ وهل أولئك القوم إذا كانوا صادقين فى ظاهر الأمر أمام الناس قد صدقوا أمام أنفسهم ومن قرارة قلوبهم ؟ وهل هذا الا اعتراف بقبح الكذب ، وإيمان بأن الفطر لاترضى لأصحابها إلا

---

[١] يسٓ . [٢] الأعراف .

الصدق ، ولذلك تحتال فى الحصول عليه ، وتكدّ فى الفرار من الكذب ؟ تلك الفطر التى تكافح عن الكفر ، وتحارب الرسل ، وتعمل لتدبير المكائد لها ولدعوتها ، ولو لم يكن من قبح الكذب سوى فرار الكفرة أعداء صالح نبى الله منه لكفى أهله معرّة وذما .

(٤) ثم أرانا الله تعالى أنهم دبروا لنبىّ الله مادبروا ، واحتالوا لاهلاكه ما احتالوا ، فدبروا أن يباغتوه ليلا حتى لايراهم أحد ، ولايستعدّ هو لدفعهم ، ثم دبروا أن يكون التبييت له ولأهله حتى لايوجد من يرشد الى الجريمة إذا هى وقعت ، ثم دبروا أن يقولوا لوليه ماشهدنا مهلك أهله ، دبروا ذلك كله وهم لايشعرون أن تدبير الله فوق تدبيرهم ، ومكره غالب على مكرهم ، لأن مكرهم شرّ كله ، أما مكر الله فهو للخير العامّ ، ولذلك يقول (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين «٥٤» [1]) وقال (ولايحيق المكر السيء إلا بأهله «٤٣» [2]) ثم قال (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) وبعد أن أرانا أنه أهلكهم وقومهم قال (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) من أراد أن ينظر اليها فلينظر ، خالية من ساكنيها ، أوساقطة متهدمة ، ان فى ذلك الذى حلّ بقوم صالح لعبرة لقوم هم من أهل العلم والذكرى ، وأرانا بعد ذلك أنه أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون الكفر والمعاصى من هذا التدمير العامّ ، والعذاب الشامل .

دعـــوة ابراهيم

إلى الله تعالى

وَإِذِ ابْتَلَىٰ [3] إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ «١٢٤» وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً [4] لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ «١٢٥» وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ «١٢٦» وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا

---

[١] آل عمران . [٢] فاطر . [٣] اختبر . [٤] مرجعاً .

إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «١٢٧» رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا (١) وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ «١٢٨» رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ (٢) وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «١٢٩» وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ (٣) نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَٰهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ «١٣٠» إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ «١٣١» وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ (٤) الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ «١٣٢» البقرة

شرح وعـــــبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه اختبر ابراهيم عليه السلام بتكاليف فأتمها ابراهيم ، وقام بها كما يريده الله ، ولم يبين لنا ماهذه الكلمات ، وماعددها ، وحسبنا أن نعرف أنها تكاليف اختبر بها نبيّ من الأنبياء فأدّاها كاملة غير منقوصة ، ومن فوائد ذلك الابتلاء تعريف ابراهيم عليه السلام بنفسه ، وأنه جدير بما اختصه الله به ، وتقوية له على القيام بما يوجه اليه ، وهذه الكلمات التى اختبر بها نبيّ الله ابراهيم كالتمهيد لجعله إماما للناس ، ولذلك يقول عقبها (قال انى جاعلك للناس إماما) ولم يقل فقال انى جاعلك ليدلنا على أن هـذه الامامة بمحض فضـل الله تعالى واصطفائه لابسبب اتمام الكلمات ، فان الامامة هنا عبارة عن الرسالة ، وهى لاتنال بكسب الكاسب ، والمراد أن ابراهيم عليه السلام جدير بذلك المنصب الجليل وهو امامة الناس ، فالله تعالى قد جعل الرسالة فى مكانة هو أهل لها ، ولعلنا نلمح من هذه القصة أن منزلة الرجل من ربه تكون بمقدار قيامه بما أوجبه الله عليـه ، وعنايته بالتكاليف ، والناس جدّ متفاوتين فى أداء أولئك التكاليف (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضـل الكبير «٣٢» (٥)) لم يقنع ابراهيم بأن يكون اماما للناس وقدوة صالحة

---

[١] علمنا مناسكنا ، جمع منسك من النسك بضمتين ، وهو غاية العبادة ثم غلب استعماله فى عبادة الحجّ .

[٢] القرآن ، وقيل مصدر كتب ، والمراد صنعة الكتابة لحاجة الأمة إليها لأنها أمة أمية ، و «الحكمة» معرفة سرّ الشيء وفائدته ، والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع ، مأخوذة من الحكمة بالتحريك ، وهى ما أحاط بحنكى الفرس من اللجام ، وفى ذلك معنى ما يضبط الشيء ، ومن ذلك إحكام الشيء وإتقانه .

[٣] امتهن . [٤] اختاره لكم . [٥] فاطر .

فطلب من الله تعالى أن يجعل من ذريتـه أئمة للناس ، وقد جرى ابراهيم على سنة الفطرة فى دعائه فان بقاء الذرية الصالحة بقاء للانسان ، ولذلك دعا بمثل ذلك فى سورة ابراهيم (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذرّيتى) وقد راعى الأدب فى الطلب فلم يطلب الامامة لجميع ذرّيته بل لبعضها ، لأنه الممكن ، وفيه ارشاد لأدب من آداب الدعاء ، وهو أن يكون موافقا لسنن الله فى خليقته ، وقد أجاب الله نبيه ابراهيم بقوله (قال لاينال عهدى الظالمين) وهو وعد ضمنىّ بأن يجعل من ذريته أئمة للناس ، ولكن عهده بالامامة لاينال الظالمين ، لأنهم ليسوا أهلا لأن يقتدى بهم ، لينفر ذرية ابراهيم من الظلم ليتحاموه ، و ينشئوا أولادهم على كراهته ، ولتنفير سائر الناس من الظالمين ، وترغيبهم من الاقتداء بهم .

يذكرنا الله تعالى بهذه القصة قصـة ابتلاء ابراهيم بكلمات واتمامه لها ، وجعله إماما للناس وقدوة صالحة فى الخـير ، وحرص على أن تبقى الامامة فى ذريته ليدوم الاصـلاح فى الأرض ، واقتصاده فى الدعاء بوقوفه عند ماتقضى به سنن الفطرة من أن الناس فيهم الصالح ، وغير الصالح. يذكرنا بذلك كله علنا نـكون أئمة فى الخـير ، وقدوة صالحة فى القيام بالتـكاليف ، والوقوف فى أدعيتنا عند حدود الأدب .

(٢) يذكرنا نعمة أخرى هى جعله البيت الحرام مرجعا للناس ، يأمن فيه الخائف ، و يطمئن عنـده المذعور ، وقد أودع الله فى قلوب جميع الطوائف محبة هـذا البيت ، و إجلاله ، واحترام اللاجئين اليـه ، وامتنّ على العرب بقوله (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم[١]) وقال لهم للتأسى بابراهيم (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وهو الحرم كله ، أومواقف الحج كلها ، وعهد لابراهيم واسمعيل بطهارة البيت من الأرجاس حسيها ومعنويها كالشرك وأصنامه واللغو والرفث والقاذورات (للطائفين والعاكفين والركع السجود) ليرينا كيف نهتمّ ببيوت الله تعالى وأماكن العبادة ، ونطهرها من الأرجاس كما طهرها نبىّ الله ابراهيم وولده اسمعيل ، وانها لمهمة شاقة ومجهود كبير ، وقد تأسى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فطهر الـكعبة مما حولها من الأصنام فكان بيت الله خالصا له وحده لايعبد فيه غيره ، ولايصمد فيه سواه .

وها هى بيوت الله اليوم ، ومساجد المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، كثير منها أنشئت على قبور للصالحين ، وقباب للمشاهير منهم ، ولا سيما المساجد التى أنشئت فى عهد الفاطميين .

هاهى بيوت الله يطالبنا الله بتطهيرها من الرجس ، وابعادها من الشرك ، لتـكون عبادة الله فيها خالصة لوجهه ، والتوجه اليها توجها الى الله وحده، لاتوجها إلىصاحب القبر ، ولا استعانة به فى شأن من شئون الحياة ، فهل عهد الله الى ابراهيم واسمعيل بطهارة البيت الحرام خاصّ به ، أو هو عامّ ينبغى أن يكون فى كلّ مسجد من مساجد المسلمين ، وكلّ معبد أعدّوه لما تعدّ لمثله المساجد من صلاة ودعاء ، ان الأسوة الحسنة فى ابراهيم واسمعيل تقضى على المسلم أن يترسم خطاها فى كلّ عمل من أعمال الخير ، ولا سيما عمل يتعلق بتوحيد الله فى العبادة ، وتطهير أماكن العبادة من الشرك وذرائع الشرك ، و إذا كانت مساجد المسلمين التى بها قباب ومشاهد للصالحين

---

[١] العنكبوت .

قد خلت من الشرك الظاهر فانها لم تخل من الشرك الخفيّ وذرائع الشرك ، وان كنت فى شك من ذلك فاذهب الى مسجد الحسين رضى الله عنه أو مسجد الامام الشافعى فانك ترى فيه مالا يرضاه الله ولا يرضاه صاحب القبر .

(٣) يذكرنا الله تعالى بدعوة ابراهيم أن يجعل الله مكة بلدا آمنا لايستطيع أن يعتدى عليه أحد بسوء ما، وهى غير أمن الناس فيه التى امتنّ الله بها ، وكذلك يذكرنا بدعوته أن يرزق أهل ذلك البيت المؤمنين منهم من الثمرات ، وقد أجاب الله دعوته فقال (أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كلّ شىء رزقا من لدنا ولكنّ أكثرهم لايعلمون «٥٧» [1]) ثم أراه أنه سيرزق من كفر كما يرزق المؤمن فان رزق الدنيا عامّ للمؤمن والكافر (كلا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا «٢٠» [2]) ولكن تمتيع الكافر محدود بذلك العمر القصير ، ثم يضطره الله الى عذاب النار و بئس المصير .

(٤) يذكرنا الله تعالى بقصة بناء ابراهيم واسمعيل للبيت ورفع قواعده ليرينا أن إقامة بيوت الله التى أعدّت لعبادته وتقديسه من أهمّ القرب التى يتقرّب بها الى الله تعالى ، وأنه لاينبغى لانسان كائنا من كان أن يستنكف من مساهمته فيها ، وأخذه بحظ وافر منها ، فهذا نبىّ الله ابراهيم وولده اسمعيل يرفعان قواعد البيت ، و يؤسسان أصوله بأنفسهما كما هو الظاهر من نسبة العمل اليهما ، وانهما لقدوة حسنة فى ذلك العمل الجليل ، وأسوة صالحة لمن بعدهما من عباد الله المؤمنين ، لم يستنكف نبىّ الله ابراهيم ولا ولده اسمعيل أن يكونا عاملين فى بناء البيت ، لأنهما يعلمان أن ذلك العمل مما يثيب الله تعالى عليه ، ولذلك أخذا يلهجان بالدعاء خلال ذلك العمل أن يتقبل الله منهما عملهما ، فانه السميع لأقوالهما ، العليم بنياتهما ، وأن يجعلهما منقادين له ، ويجعل من ذريتهما أمة مسلمة له ، ليبقى توحيد الله فى الأرض ببقاء الذرية ، كما طلبا منه أن يعلمهما مناسكهما ، و يتوب عليهما إنه هو التواب الرحيم .

يذكرنا الله تعالى بذلك كله ليعلمنا كيف نتأسى بابراهيم وولده اسمعيل فى اقامة بيوت الله ، وأن نرجع اليه فى قبول الأعمال ، وأن نلجأ اليه فى تعليمنا أمور الدين ، وفى قبول توبتنا .

(٥) من دعاء نبىّ الله ابراهيم أن يبعث فى ذريته رسولا منهم ، يتلو عليهم آيات الله ودلائل قدرته ، وعلمه وحكمته ، و يعلمهم القرآن ، و يوقفهم على أسرار الشريعة ، ومقاصد الأحكام ، وتلك هى الحكمة التى قال الله فيها (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر إلا أولوا الألباب «٦٩» [3]) وقد أجاب الله دعوته كما ورد فى حديث أحمد «أنا دعوة ابراهيم و بشارة عيسى » . ثم أرانا الله بعد ذلك أنه لا يرغب عن ملة ابراهيم من التوحيد الخالص ، واسلام الوجه لله ، والقيام بما أوحاه الله كاملا غير منقوص ، إلا من امتهن نفسه وازدراها ، وأن الله اختاره فى الدنيا لامامة الناس ، وجعل فى ذريته النبوّة والكتاب ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين لجوار ربه ، المتمتعين برحمته ورضوانه ، لأن الله قال له أسلم فقال أسلمت لرب العالمين ، ووصى بها ابراهيم بنيه و يعقوب وهو يقول يابنىّ ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون .

---

[١] القصص . [٢] الإسراء . [٣] البقرة .

إبراهيم عليـــه السلام

وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا [١] ءَالِهَةً إِنِّى أَرٰيكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلٰلٍ مُبِينٍ «٧٤» وَكَذٰلِكَ نُرِى إِبْرٰهِيمَ مَلَـكُوتَ [٢] السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ «٧٥» فَلَمَّا جَنَّ [٣] عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفِلِينَ «٧٦» فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ «٧٧» فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذَا رَبِّى هٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ «٧٨» إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا [٤] وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ «٧٩» وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحٰجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدٰنِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ «٨٠» وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا [٥] فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٨١» الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمٰنَهُمْ بِظُلْمٍ أُولٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ «٨٢» وَتِلْكَ حُجَّتُنَا [٦] ءَاتَيْنٰهَا إِبْرٰهِيمَ عَلٰى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجٰتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ «٨٣» الأنعام

شرح وعـــبرة

(١) يرينا الله تعالى أن نبيّ الله ابراهيم رأى أباه وقومه يعبدون الأصنام فأنكر عليهم ، ولم تمنعه الأبوّة من ذلك الانكار ، ليرينا أنه لم يكن من الأدب مع الآباء تركهم وماهم فيه من باطل تأدبا معهم ، ولئن كان ذلك العمل مغضبا للآباء فهو مرض للرّب ، وحق الله فوق حق الآباء ، ومن

---

[١] قيل فرق بين الوثن والصنم ، هو أن الوثن ماله جثة تنصب فتعبد ، والصنم الصورة بلا جثة ، وقيل لافرق بينهما و يطلقان على المعنيين . [٢] ملك . [٣] غطاه ، أفل : غاب واحتجب .

[٤] من الحنف بالتحريك ، وهو الميل من المعوجّ إلى الاستقامة . [٥] برهاناً ، يلبسوا : يخلطوا .

[٦] الدلالة المبينة للمقصد المستقيم .

ناحية أخرى فان الأب قد أحسن الى ولده الاحسان كله بتربيته والانعام عليه ، فكان من اللائق مكافأته على ذلك الاحسان ، وان أكبر إحسان للأب دعوته الى مافيه سعادته ، وانقاذه من عذاب الله ، ومن فوائد دعوة ابراهيم لأبيه أن يقيم الحجة على قومه ، حتى لايقولوا لماذا يدع أقاربه فى ضلالهم و يدعونا ؟ أليس من اللائق أن لايفرق بين قريب و بعيد إذا كان مايقوله حقا ، فلكى تنقطع أعذارهم دعا أباه الى عبادة الله وحده ، كما دعا قومه ، ولعلّ هذا هو السرّ فى تكليف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بانذار عشيرته الأقربين قبل انذاره لقومه ، وقد صدع بالأمر ، وأخذ يجمعهم ويخوّفهم من الله ، ويريهم أنه لايغنى عنهم من عذاب الله شيئا إذاهم خالفوه، وأخذ يقول «ياعباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا . ياصفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا و يافاطمة بنت محمد سلينى ماشئت من مالى لاأغنى عنك من الله شيئا [1]» من ذلك نعرف أن نبىّ الله ابراهيم كان قويا فى الحق ، شديدا على أهل الضلال أيا كانت مكانتهم منه، ألا تراه يقول لأبيه آزر (انى أراك وقومك فى ضلال مبين) وكما أرى الله ابراهيم قبح عبادة الأصنام أراه «ملكوت السموات والأرض» وما أودع فيهما من آيات ، وما اشتملا عليه من دلائل ولأجل أن يكون ابراهيم موقنا بوحدة الله وقدرته وحكمته فعل به مافعل ، وأراه بعينى بصيرته من جلال الله وجماله ما أراه .

(٢) تأمّل كيف استطاع ابراهيم عليه السلام أن يحج قومه بطريق الاستدراج ، فحينما غطى عليه الليل رأى كوكبا فقال لقومه بأسلوب المتهكم (هذا ربى) فلما غاب ذلك الكوكب قال (لا أحبّ الآفلين) فلا أعبد إلها يحضر أحيانا و يغيب أحيانا (فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) وكيف أعبد إلها يضىء بعض الوقت و يغيب البعض الآخر ، ومن الذى يهدينى من الضلال إذا هو غاب ؟ (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر) لأن ضوءها أشدّ ، ونفعها أشمل وأعمّ (فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وهى مهارة من نبىّ الله ابراهيم ، واستدراجه للقوم حتى أقام عليهم الحجة ، ووضع أيديهم على مواطن الضعف منهم ، انتقل بهم من كوكب الى كوكب ، وأراهم أن موقفه منهم موقف الباحث ، حتى لاينفروا من مجادلته ، وأراهم أن الكواكب على اختلافها قوّة وضعفا لا يصلح واحد منها أن يكون إلها معبودا لأنها تغيب وتحضر ، ثم بعد أن أقام الحجة عليهم بذلك الأسلوب اللين ، أملى عليهم عقيدته ، فأراهم أنه برىء مما يشركون بالله ، وأنه أسلم وجهه للاله الذى فطر السموات والأرض مائلا من الباطل الى الحقّ ، وما أنا من المشركين .

(٣) يرينا الله تعالى أن قوم ابراهيم جادلوه فى الله ، وحاجوه فى توحيده ، وخوّفوه من آلهتهم أن يصيبه سوء منهم ، فأنكر عليهم هذه المحاجة وقد هداه الله تعالى الى التوحيد ، وأراهم أنه لايخاف شركاءهم أن ينزلوا به سوءا إلا اذاشاء الله ذلك السوء ، فهوالذى يخاف ، لأنه وسع كلّ شىء علما ، ولو كانوا من أهل التذكر ماخوّفوه من آلهتهم ، ثم أراهم أنه كيف يخاف شركاءهم وهم

---

[١] رواه البخارى فى تفسيره .

خلق من خلق الله ، ولايخافون هم أن يشركوا بالله مالم ينزل به عليهم برهانا ودليلا ، وأىّ الفريقين أحقّ بالأمن : ابراهيم الموحد ، أم قومه المشركون ، ثم ختم الآية بقوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ليريهم أن الأحقّ بالأمن هم أهل التوحيد الخالص ، والايمان الصحيح ، الذين لم يخلطوا ايمانهم بظلمهم لأنفسهم ، أما أهل الشرك ، وعباد الأوثان فليسوا أهلا للأمن من عذاب الله ، وطمأنينة القلب (ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق «٣١» [١]) .

(٤) بعد ذلك امتنّ الله تعالى على ابراهيم بتلك الحجة العظيمة التى أقامها ابراهيم عليه السلام على قومه ، وأن الذى آتاها ابراهيم هو الله تعالى ، ولولاهدايته لاقامة هذه الحجة ما اهتدى ، فهو الذى يرفع من يشاء فى العلم والحكمة واقامة الحجة درجات ، وهو الذى يهب الناس قوّة البيان ، وحضور البديهة — يمتنّ الله تعالى على ابراهيم بأنه آتاه حجة بالغة ، وقد أريناك فى هذه السورة كيف تغلب ابراهيم على قومه بذلك الأسلوب الساحر ، وأعجب منه تلك المحاجة التى ينبهنا الله لها فى سورة البقرة (ألم تر الى الذى حاجّ ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين «٥٨») يقول ابراهيم لمناظره (ربى الذى يحيي ويميت) والمراد أنه هو الذى يهب الحياة وينزعها فقال (أنا أحيي وأميت) يريد أنه يستبقى الحىّ ، وتلك حياة له ، وأنه يعتدى على الحىّ فيموت ، وبذلك ظنّ أنه يماثل إله ابراهيم ، وأنه حجة ، فترك ابراهيم عليه السلام ذلك الطريق ، وسلك به أسلوبا آخر لايستطيع أن يردّ عليه ، فقال (ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) وهى حجة لاتقبل جدلا ، ولا تتحمل تأويلا ، ولذلك بهت بها الذى كفر ، وفلج بها نبىّ الله ابراهيم ، وهى مقدرة عظيمة ، وقوّة نادرة يهبها الله لمن شاء من عباده ، ومن شكر الله على هذه النعمة أن لانستعملها فى إضعاف حقّ ، أو ترويج باطل ، وأن لانعطلها عند الحاجة اليها ، وكثير من الناس يعطى حجة دامغة ، وبيانا قويا ، ولكنه يقف من الحق كالشيطان الأخرس ، يسكت على الباطل حتى يشيع ، ويترك الحق مخذولا غير منتصر ، وسيحاسبه الله تعالى على ذلك البيان وهذه النعمة (ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم «٨» [٢]) .

إبراهيم عليه السلام

وَإِذْ قَالَ إِبْرٰهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا الْبَلَدَ ءامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ «٣٥» رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٣٦» رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ

[١] الحج . [٢] التكاثر .

ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً (١) مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ «٣٧» رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ «٣٨» الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ «٣٩» رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ «٤٠» رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ «٤١» ابراهيم

شرح وعـــبرة

(١) أهمّ شيء فى هذه القصة من سورة ابراهيم عليه السلام التأسى به فى الدعاء ، وهو باب كبير من أبواب عبادة الله تعالى ، وقد ورد فى الحديث الصحيح « الدعاء هو العبادة» لأنه مظهر واضح من مظاهر العبودية للمدعوّ ، واعتراف بأنه أهـل لأن ترفع له الحاجات ، ويلجأ اليـه الداعون عند الشـدّة ، وقد غفل كثير من الناس عن ذلك فوجهوا وجوههم شطر الصالحين ، ويمموا الأضرحة والتوابيت ، وأخذوا يستغيثون بأصحابها ، ويستنصرون بهم فى قضاء حوائجهم (ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرّك فان فعلت فانك إذا من الظالمين «١٠٦» وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلاهو وان يردك بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم «١٠٧» (٢)) .

(٢) طلب من الله تعالى أن يجعل مكة حرما آمنا من اعتداء الناس عليه ، وقصـده بسوء وأن يجنبه وذرّيتـه عبادة الأصنام التى كان يبغضها بغضا شـديدا ، وقد بين سبب بغضـه لها فى قوله (رب انهنّ أضللن كثيرا من الناس) وما كان سـببا فى ضلال الناس جدير به أن يبغض ، وجدير به أن تطهر منه الأرض ، ولذا تجد نبيّ الله ابراهيم فى سـورة الأنبياء أقسم بالله ليكيدنّ أصنامهم ، وقد برّ فى قسمه (فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون «٥٨» (٣)) ليرينا أن الطريق فى إفراد الله بالعبادة : هى ازالة كلّ أسـباب الشرك ، وذرائع الوثنية ، وهو الذى حمل رسول الله محمدا صلى الله عليه وسـلم على أن يزيل من حول البيت كلّ صنم ، وحمل خلفاءه الراشدين أن لايدعوا تمثالا إلا هدموه ، ولا قبرا مشرفا على الأرض الاسوّوه ، وهو الذى حمل عمر بن الخطاب أن يقطع الشـجرة التى كانت عندها بيعة الصحابة حينما شـعر أن الناس سيتبركون بها ، فرأى أن ذلك عرق من عروق الشرك ، وباب من أبواب الفساد ، وذلك السبب نفسه هوالذى حمله على أن يزيل مظلة وضعها بعض الناس لأحد الموتى ، فسأله لماذا وضعت عليه هذه القبة ؟ قال لتظله ، فقال عمر «دعوه يظله عمله» .

---

[١] قلوبا ، تهوى : تميل . [٢] يونس . [٣] الأنبياء .

وهو الذى دعا المسلمين فى الصدر الأوّل لازالة القباب من فوق القبور ، وهو الذى حمل الامام عبد العزيز آل سعود على أن يزيل القباب من بلاد الحجاز كما أزالها سلفه فى نجد — كلّ ذلك لأنها تضلّ كثيرا من الناس ، وتفتح عليهم بابا من أبواب الشرك ، فالتأسى بابراهيم عليه السلام فى بغضه للشرك وذرائع الشرك ، والتأسى بابراهيم عليه السلام فى تطهير الأرض من كلّ ماله علاقة بالشرك ليبقى توحيد الله خالصا لايشوبه شىء من الوثنية ، والتأسى بابراهيم عليه السلام فى تدبر هذه الكلمة التى قالها نبىّ الله ابراهيم (ربّ إنهن أضللن كثيرا من الناس) لنعرف أسباب فتنة الناس فى دينهم ، وصرفهم عن الحق الذى أتى به الرسل ، فكلّ من كان قدوة سيئة فى الباطل، وسببا فى صرف الناس عن الدين ، ينبغى للمؤمن أن يبغضه ، ويعمل على الحيلولة بينه وبين الناس ، حتى لايفتنوا به ، ثم قال ابراهيم (فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم) يريد ابراهيم أن من تبعه فى محبة الحقّ والعمل له فانه بعض منى ، وقد أجاب الله فيه دعوته ، ومن عصانى ثم تاب مما فرط منه فان الله يغفر له ذنبه ، ويقبل توبته .

(٣) ثم دعا ربه أن يجعل قلوب الناس تهوى الى بعض أبنائه الذى أسكنهم بمكة عند بيت الله المحرم ، وهى بلد مجدب لازرع فيه ، وأنه يرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون فضله عليهم ، وقد أجاب الله دعوته، فحبب الناس فى ذلك البيت، وأودع فى قلوب الناس اجلاله وتوقيره، وجلب اليه الثمرات من جهات شتى ، فترى فيه الفاكهة على اختلاف أنواعها (أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كلّ شىء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لايعلمون «٥٧» [1]) ثم قال مخاطبا لربه (إنك تعلم مانخفى ومانعلن ، ومايخفى على الله من شىء فى الأرض ولافى السماء) وما طلبنا منك لنعرفك مالا تعرف ، وانما طلبنا منك اعترافا بقدرتك ، وذعانا لربوبيتك ، وافتقارا لما عندك ، واستعجالا لنيل أياديك ، ثم حمد ربه أن وهبه مع كبر سنه اسماعيل واسحق ، بعد أن طلب منه أن يهبه ذرية صالحة ، حمده أن سمع دعاءه ، وأجابه الى ماطلب ، ثم طلب منه أن يجعله مقيما للصلاة ، وأن يجعل من ذريته من يقيمها ، وأن يتقبل دعاءه ، ويغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .

إبراهيم عليه السلام

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٢٠» شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَٰهُ وَهَدَٰهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ «١٢١» وَءَاتَيْنَٰهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْأَخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ «١٢٢» ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٢٣» النحل

---

[١] القصص .

شرح وعـــبرة

(١) ان القلم ليقف حيران لايدرى ماذا يكتب فى تصوير هذه الكلمة التى وصف الله بها نبىّ الله ابراهيم ، وتقريبها من نفوس القارئين ، وهو يقول (ان ابراهيم كان أمّة) ولو أمعن الانسان النظر فيها الرأى أنها مقال مسهب فى مدح نبىّ الله ابراهيم ، بل هى رسالة من رسائل الثناء ، يرينا الله بها أن ابراهيم قد بلغ من الكمال فى صفات الخير ما استحق به أن يكون أمّة وحده ، فكلّ ماتفرّق فى الناس من خلال طيبة وشيم مرضية ، وخلق طاهر ، قد جمعه الله تعالى لنبيه ابراهيم ، وبذلك صار ابراهيم أمّة ، فهو أمّة فى الدّعوة الى الله تعالى ، فى الاحتمال والصبر ، فى لين الجانب وجمال الأسلوب ، فى الثبات على الحق ، فى التأفف من الباطل، والاشمئزاز منه ،وحضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، فى التواضع والخشية من الله تعالى وما إلى ذلك من صفات الكمال .

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

(٢) ثم وصف الله تعالى ابراهيم بأنه (قانت) لله وهو القائم بأمر الله تعالى ، الخاضع له ، و (حنيف) وهو المائل الى ملة الاسـلام ميلا لايزول عنه . وقوله (ولم يك من المشركين) ردّ على اليهود الذين ادّعوا أنهم على ملة ابراهيم ، وكذلك النصارى ، وأخذ كلّ فريق يضمه إليه على ماهم عليه من الشرك .

وقد ردّ الله عليهم فى سـورة آل عمران (يا أهل الـكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون «٦٥» هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون «٦٦» ما كان ابراهيم يهوديا ولانصرانيا ولـكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين «٦٧» إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهـذا النبىّ والذين آمنوا والله ولىّ المؤمنين «٦٨») . ومن خلال ابراهيم أنه شاكر لأنعم الله ، وهى كلمة جامعة لأنواع الشكر الذى يقابله الـكفر ، ومن الغض من شـكر ابراهيم لربه أن يفسره بعض العلماء بأنه عليه السلام كان لايتغذى إلا مع ضيف ، إلا أن يكون ذكر ذلك على سبيل المثال ، وإلا فالشـكر لأنعم الله تعالى أعمّ من شـكره على نعمة المـال ، والولد ، والصحة، وغير ذلك من أنواع النعم التى لايحصيها العدّ . وما أحسن قول الله (اجتباه وهـداه إلى صراط مستقيم) فان الاجتباء هو أن تأخذ الشيء جميعه ، من جبيت المـاء فى الحوض : جمعته ، فالاجتباء : الجمع على طريق الاصطفاء ، وكأن الله تعالى يلفتنا الى أن الله ضمه اليه ليصطفيه لذلك المنصب الجليل ، وهو منصب النبوّة ، فى هداه الى صراط مستقيم فى الدّعوة الى الله تعالى ، والترغيب فى الدّين الحق ، والتنفير عن الباطل ، ثم قال (وآتيناه فى الدنيا حسنة) قيل هى إقرار أهل الأديان به ، وقيل هى قول المصلى (كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم) وقيل الذكرى الطيبة تحقيقا لطلبه (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين «٨٤» [١]) وقيل الصدق والوفاء والعبادة ، ويصح أن يراد بالحسنة كلّ ذلك (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) كما طلب (ربّ هب لى حكما وألحقنى بالصالحين «٨٣» [٢]) .

[١و٢] الشعراء .

(٣) يرينا الله تعالى أنه بعد أن عرّف محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان عليه ابراهيم من كمال الصفات ، وأحاسن الأخلاق ، و بعد أن عرفه أنه كان أمّة جامعا لصفات الخير ، مطيعا لله مائلا عن الباطل الى الحق ، وأنه كان شاكرا لنعم الله ، وأن الله اجتباه وهداه ، ورزقه حسنة فى الدنيا وهو فى الآخرة من الصالحين — بعد ذلك كله أراه أنه أوحى اليه أن يتبع ملة ابراهيم ، ويتأسى به فى الاحتمال والصبر على ايذاء الناس له ، ووضعهم العقبات فى سبيل دعوته ، ومجادلتهم بالحسنى فالمراد أن يتبعه فى طريق الدعوة الى التوحيد ، وهو أن يكون بطريق الرفق والسهولة ، وايراد الدلائل مرّة بعد أخرى ، ونظيره (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده «٩٠» [١]) وقوله (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم «٣٥» [٢]) أو يتبع ملته فى التوحيد الخالص ، و بغضه للشرك وذرائع الشرك .

وقد خصّ ابراهيم بذلك لأنه رئيس الموحدين ، وقدوة العباد والناسكين . والمشركون على اختلاف نحلهم كانوا مفتخرين به ، معترفين بحسن أسلوبه ، مقرّين بوجوب الاقتداء به ، وآية ذلك أن اليهود ادّعوا أنهم على ملته ، والنصارى يقولون : انهم على طريقته .

وقد ردّ الله عليهم بأنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، فلم يكن معكم فى الشرك ، فاذا شئتم النسبة اليه فاتبعوه فى التوحيد ، واسلكوا طريقه فى ملته الحنيفية ، فلا عجب أن ينفى الله عن نبيه ابراهيم فى هذه القطعة من السورة نسبته الى الشرك مرّتين ، فمرّة يقول (ولم يك من المشركين) ومرّة يقول (وما كان من المشركين) .

(٤) وهناك نكتة لطيفة فى قوله (ثم أوحينا إليك الخ) ترينا أن أشرف ما أوتى خليل الله من الكرامة ، وأعظم ماحباه الله تعالى من نعم ، اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته ، وهى تدلّ على تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم و إجلال مكانته ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحابته وتابعيه ، وعلى حامل لواء التوحيد نبيّ الله ابراهيم صلاة تليق بمقامهم ، وتتناسب مع مكانتهم ، وعلوّ منزلتهم .

إبراهيم عليه السلام

وَاذْكُرْ فِي الْكِتٰبِ إِبْرٰهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا [٣] نَبِيًّا «٤١» إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يٰأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا «٤٢» يٰأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرٰطًا سَوِيًّا «٤٣» يٰأَبَتِ لَا تَعْبُدِ [٤] الشَّيْطٰنَ إِنَّ الشَّيْطٰنَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا «٤٤» يٰأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ

---

[١] الأنعام . [٢] الأحقاف . [٣] خلقه الصدق . [٤] تطع .

أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا [١] «٤٥» قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰإِبْرَٰهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا [٢] «٤٦» قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا [٣] «٤٧» وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا «٤٨» مريم

شرح وعبرة

(١) يأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكر فى الكتاب ابراهيم ليعتبر الناس بسيرته، ويذكروا بقصته، وقد كان أول خلق فى نبىّ الله ابراهيم أنه كان من الصدّيقين، و «الصدّيق» من أمثلة المبالغة كنطيق، واستحق ذلك اللقب الكبير لفرط صدقه، حتى صار الصدق خلقا راسخا فيه، أو لفرط تصديقه بآيات الله وكتبه ورسله، فسماه الله «صدّيقا» لذلك وكان مع ذلك نبيا، أى كان جامعا خصائص الصديقين والأنبياء حينما خاطب أباه تلك المخاطبات.

وتأمّل كيف وصفه الله تعالى بذلك الوصف، وهو أنه صدّيق قبل أن يصفه بالنبوّة، ليرينا قيمة الصدق وأنه ملاك أمر النبوّة. ولعلّ فى ذلك مذكرا لقوم يطمعون فى امامة الناس، ثم هم مع ذلك لا يتحرّجون من الكذب، واذا أنت أخذت تلومهم رأيت منهم المعاذير تلو المعاذير، وأسهل شيء عندهم أن يقولوا: انه كذب قضت به المصلحة، وما دروا أن هذا العذر يفتح عليهم بابا من أبواب جهنم، وأىّ باب من أبواب الكذب لا يستطيع الرجل أن يعتذر عنه بمثل هذا؟ فشاهد الزور أمام المحاكم يحرّف فى الشهادة لأن تحريفه لها قضت به مصلحته المادّية، وكاتم الشهادة يكتم شهادته لاعتقاده أن هذه الشهادة ان أدّيت على وجهها الصحيح أضرّت بالمشهود عليه، والذى يفتى الناس بغير ما يعتقد اتباعا لشهواتهم وأهوائهم انما يتقى بهذه الفتوى ضررا يلحق به، أو يجلب نفعا يعود عليه، وكلّ كذب من العقلاء لا يمكن أن يكون لغير مصلحة، إما جلب نفع، أو دفع ضرر، ولذلك عظم أمر الصدق، وإقامة الشهادة على وجهها الصحيح (يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين [٤]) وهى خلة لا يقوى عليها سوى أقوياء الايمان، ثابتى العقيدة، ما أبرد الصدق على النفوس، وما أشقه فى هذه الأوساط الموبوءة، ما أبرده على نفوس الأتقياء المؤمنين، وما أصعبه على نفوس الضعفاء والمنافقين.

(٢) لو تأمّلت أسلوب نبىّ الله ابراهيم مع أبيه فى هذه القصة لرأيت فيها العجب، ترى فيها أدبا جما، وتلطفا بأبيه غير محدود، وتواضعا فى تزكية نفسه، وحجة دامغة، وأسلوبا سهلا، يقول له (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) فيستهلّ خطابه بتذكيره برابطة الأبوّة، وهى رابطة من أقوى الروابط، من شأنها أن تجعل كلا من المترابطين جدّ حريص على مصلحة صاحبه، ومن ناحية أخرى يحاول نبىّ الله ابراهيم أن يكسر بذلك الأسلوب الجذاب حدّة أبيه،

---

[١] ناصراً. [٢] طويلا. [٣] معنيا. [٤] النساء.

حتى يستطيع أن يبلغه رسالة الله ، ويقيم عليه حجته وهو هادئ غير ثائر ، بعد أن ناداه بذلك الأسلوب الموجب للحنان والعطف قال له فى أدب : لم تعبد إلها لا يسمعك إذا ناديته ، ولا يبصرك إذا عبدته ، ولا يغنى عنك إذا حلّ بك مكروه شيئا من الغناء ، وهل يستوى إله يسمع ، وإله أصمّ ؟ وهل يستوى أعمى وبصير .

(٣) ثم عقب ذلك بدعوة أبيه الى الحق فى رفق ولين ، فلم يصف أباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق فقال (يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا) ثم أخذ ينهاه عن طاعة الشيطان فان الشيطان عصىّ الله تعالى ، ولا ينبغى للانسان أن يطيع من عصى ربه ، ثم ختم وعظه باشفاقه على أبيه ، وخوفه أن يصاب بعذاب من الله فيكون وليا للشيطان ، وقد أمرنا الله باتخاذ الشيطان عدوّا لا وليا ، فقال (ان الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير «٦» (١)) فماذا كان من أبيه بعد ذلك الترفق البليغ ؟ كان منه أن قال له (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا) أنكر على ولده ابراهيم أن يرغب عن آلهة أبيه آزر ، ثم أخذ يقابل اللين بالشدّة ، والرفق فى القول بالفظاظة، فناداه باسمه ، ولم يقابل (يا أبت) كلمة العطف بقوله (يابنىّ) وأراه ان آلهته لا ينبغى أن يرغب عنها أحد ، ثم لجأ الى طريق التهديد ، فقال (لئن لم تنته لأرجمنك) يريد بذلك الشتم والسبّ ، ومنه الرجم المرمى باللعن ، أو لأطردنك رميا بالحجارة ، وأصل الرجم : الرمى بالرجام وهى الحجارة ، ثم طلب منه أن يهجره زمنا طويلا لا يراه فيه .

(٤) فلم يكن من ابراهيم بعد الشدّة التى رآها من أبيه سوى أن قال (سلام عليك) سلام توديع ومتاركة كقوله (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين «٥٥» (٢)) وقوله فى وصف عباد الرحمن (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما «٦٣» (٣)) ثم وعده مع ذلك أن يستغفر له ربه ، عله يغفر له ذنبه ، وكان ذلك قبل يأسه من ايمانه أما بعد أن تبين له أنه عدوّ لله ، لا يقبل فى آلهته كلاما ، ولا يستطيع أن يدع عبادتهم ، فقد تبرأ منه وكفّ عن الاستغفار له (ما كان للنبىّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم «١١٣») وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرّأ منه إنّ ابراهيم لأوّاه حليم «١١٤» (٤)) ثم وعده بأن يعتزله هو وآلهته ويدعو ربه وحده رجاء أن لا يكون شقيا بذلك الدعاء ، عرض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم مع تواضعه لله بكلمة (عسى) وما فى ذلك التواضع من هضم النفس — يرينا نبىّ الله ابراهيم أنه لما لم يستطع أن يحول بين أبيه وقومه وبين عبادة الأوثان تجنبهم هم ومعبوديهم ، حتى لا يكون مظهره من أولئك القوم مظهر الراضى عن عبادتهم ، ليرينا أن من رأى صاحبه على منكر فليعمل على إبعاده منه ، فان أخفق فى ذلك فليتجنبه فى ذلك المنكر ، وان كان أقرب الناس اليه ، ولا يمنعه ذلك أن يؤدّى للأبوّة حقها من البرّ ، فان ذلك حق مستقل لا أصل له بالعقيدة ، ولذلك يقول الله (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا «١٥» (٥))

---

[١] فاطر . [٢] القصص . [٣] الفرقان . [٤] التوبة . [٥] لقمان .

فاذا طالبك أبوك بمعصية الله فلا تطعه ، فان حق الله فوق حق الوالد ، و إن طلب منك مالا فأجبه فان ذلك من الصحبة بالمعروف ، وكفاء حسن التربية بالحسنة ، وذلك هو نهاية الحكمة ، وغاية الانصاف .

إبراهيم عليه السلام

وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إِبْرٰهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عٰلِمِينَ «٥١» إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عٰكِفُونَ «٥٢» قَالُوا وَجَدْنَا ءابَاءَنَا لَهَا عٰبِدِينَ «٥٣» قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءابَاؤُكُمْ فِي ضَلٰلٍ مُبِينٍ «٥٤» قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللّٰعِبِينَ «٥٥» قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ [١] وَأَنَا عَلَى ذٰلِكُمْ مِنَ الشّٰهِدِينَ «٥٦» وَتَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنٰمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ «٥٧» فَجَعَلَهُمْ جُذٰذاً [٢] إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ «٥٨» قَالُوا مَنْ فَعَلَ هٰذَا بِءالِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظّٰلِمِينَ «٥٩» قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرٰهِيمُ «٦٠» قَالُوا فَأتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ «٦١» قَالُوا ءأَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِءالِهَتِنَا يٰإِبْرٰهِيمُ «٦٢» قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هٰذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ «٦٣» فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظّٰلِمُونَ «٦٤» ثُمَّ نُكِسُوا [٣] عَلَى رُءوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ «٦٥» قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ «٦٦» أُفٍّ [٤] لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ «٦٧» قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا ءالِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فٰعِلِينَ «٦٨» قُلْنَا يٰنَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلٰماً عَلَى إِبْرٰهِيمَ «٦٩» وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنٰهُمُ الْأَخْسَرِينَ «٧٠» وَنَجَّيْنٰهُ وَلُوطاً إِلَى

---

[١] أبدعهنّ وخلقهنّ . [٢] قطعاً صغيرة . [٣] من النكس ، وهو قلب الشيء على رأسه « ومن نعمره ننكسه فى الخلق » نردّه إلى ما كان عليه من ضعف الجسم والعقل .

[٤] أصل الأفّ بالضم كلّ مستقذر ، ويقال لكلّ مستخفّ استقذاراً له ، وقد أففت بالتشديد لكذا إذا قلت ذلك استقذاراً له .

الارْضِ الَّتِي بٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعٰلَمِينَ «٧١» وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً (١) وَكُلاًّ جَعَلْنَا صٰلِحِينَ «٧٢» وَجَعَلْنٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرٰتِ وَإِقَامَ الصَّلٰوةِ وَإِيتَاءَ الزَّكٰوةِ وَكَانُوا لَنَا عٰبِدِينَ «٧٣» الأنبياء

شرح وعـــبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه أعطى ابراهيم رشده وهداه لوجوه الصلاح من قبل موسى وعيسى ، وكان عالما به حينما قال لأبيه وقومه تلك القصة الآتية ، والمراد أن ابراهيم عليه السلام قد أوتى رشده ، وكان موضع رضا الله وهو يناقش قومه ويحاججهم ، وما دام ابراهيم كذلك فتأسّ به وترسم خطاه (إذ قال) ابراهيم (لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) وهو تجاهل من ابراهيم لأصنامهم وتغاب، ليحقر آلهتهم ، ويصغر من شأنها مع علمه بتعظيمهم اياها وإجلالهم لها ، كما تقول اذا ذكر أمامك رجل من الناس بلسان المستخفّ المنكر لأن يكون هناك رجل له ذلك الاسم « ومن ذلك الرجل ؟ » فكان جوابهم عن ذلك أن قالوا (وجدنا آباءنا لها عابدين) فكلّ ما عندهم من حجة لعبادة أولئك الأصنام أن وجدوا آباءهم عابدين لها ، وما دام ذلك عمل الآباء والأجداد فكيف نحيد عنه ؟ وهى شبهة أعداء الرسل جميعهم ، ونكأتهم فى صدّ الناس عن الحقّ وإبعادهم عن الرشد ، عمدوا الى العقول فعطلوها،والى الأسماع فأصموها ، والى الأبصار فأعموها ، اعتمادا على عقل الآباء والأجداد، وتعويلا على سمع السابقين والمتقدّمين ، وكأن الله تعالى خلق لهم هذه الأسماع والأبصار ، ووهبهم أولئك العقول ، ليعطلوها عن وظائفها ، ويحولوا بينها وبين أداء واجبها ، ومادروا أن الله تعالى يمتنّ علينا بهذه النعم ، ويذكرنا بتلك المواهب لنشكره عليها باعمالها ، ولا نكفره فيها بتعطيلها واهمالها (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون « ٨٨ » (٢)) وحسبنا أن أهل النار يقولون وهم يصطرخون فيها (لو كنا نسمع أونعقل ما كنا فى أصحاب السعير « ١٠ » فاعترفوا بذنبهم فسحقا (٣) لأصحاب السعير « ١١ » (٤)) وأن الله تعالى يقول فى صفات أهل جهنم الذين خلقوا لها وخلقت لهم ، وبها تستطيع أن تعرفهم فى هذه الحياة (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجنّ والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون «١٧٩» (٥)) نعم إن هذه السنة سنة التقليد هى سنة أعداء الرسل جميعهم ، وعادتهم فى التخلص من دعوة الحقّ ، أن يعمدوا الى الآباء فيتمسحوا بهم ، ويلجأوا الى السابقين فيستمسكوا بطريقهم ، وان كان السابقون ليسوا من العقل فى قليل ولا كثير ، وليسوا من العلم فى نقير أوقطمير (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لوكان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون «١٧٠» (٦)) ونظيره قول الله تعالى فى سورة

---

[١] ولد الولد ، من النفل وهو الزيادة . [٢] النحل . [٣] بعداً وهلاكا . [٤] الملك .
[٥] الأعراف . [٦] البقرة .

المائدة (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ماوجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولايهتدون «١٠٤») . ولله درّ الزمخشرى إذ يقول : [ما أقبح التقليد والقول المتقبل بغير برهان ، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم الى أن قلدوا آباءهم فى عبادة التماثيل ، وعفروا لها جباههم ، وهم معتقدون أنهم على شىء ، وجادّون فى نصرة مذهبهم ، ويجادلون لأهل الحقّ عن باطلهم ، وكفى أهل التقليد سبة أن عبدة الأصنام منهم] فلاعجب إذا لم يقم نبىّ الله ابراهيم لهذه الشبهة وزنا ، ولم يعمل لها حسابا ، بل قال (لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) لأنكم لاتعتمدون على دليل ، بل على هوى متبع ، وشيطان مطاع .

(٢) قد عجب قوم ابراهيم من صنيعه معهم ، وحسبوا أنه قال ماقال فى آلهتهم على وجه المزاح والمداعبة ، لاعلى سبيل الجدّ ، فقالوا له (أجئتنا بالحقّ أم أنت من اللاعبين) فأراهم أن الأمر جدّ لالعب ، وأن أولئك الأصنام لاتستحق أن تكون لكم أربابا ، بل الذى يستحقّ ذلك و يستأهله ربّ السموات والأرض الذى خلقها على غير مثال سابق ، أو فطر الأصنام التى تعبدونها ، وأنا شاهد على ذلك بالحجة والبرهان ، لأنى لست مثلكم ، فأقول ما لا أقدر على إثباته ثم لم يكتف نبىّ الله ابراهيم بانكاره على قومه عبادة الأصنام ، وتضليلهم فى ذلك العمل هم وسلفهم بل أتبع القول بالعمل ، فأقسم ليكيدنّ أصنامهم بعد أن يتركوها ، فأخذ يجذّهم صنما بعد صنم ، حتى صارت قطعا صغيرة ، عدا صنمهم الأكبر ، تركه بدون جذّ ، علهم إليه يرجعون فى حلّ ذلك الأشكال ، ومعرفة المعتدى على جيرانه من الأصنام ، أو علهم يرجعون إليه فيسألوه لماذا تتحمل الاهانة للأصنام وأنت مطرق ساكت ؟ ولماذا لاتذود عنهم ذلك الأذى الذى حلّ بهم ؟ ولعلّ ذلك المنطق يقودهم إلى معرفة الاله الحق ، ويقولون فى أنفسهم مابالنا نعبد آلهة لا تدفع الشرّ عن نفسها ؟ و إذا كانت من العجز الى ذلك الحدّ فكيف تدفع الشرّ عن عابديها ؟ وما قيمة إله بلغ من العجز الى ذلك الحدّ المزرى ؟ (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون «٤٣»[1]) (قالوا) فيما بينهم (من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين) وأخذوا يبحثون عنه ، و يتلمسونه فى القوم ، فقال قائلهم (سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) فأمروا أن يؤتى به على مرأى من الناس علهم يشهدون عليه بما فعل ، و يشهدون عقوبتناله على ذلك العمل الجرىء ، ثم سألوه (ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟ قال) متهكما بهم (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون ف)لما ألقمهم الحجر، وأخذ بمخانقهم (رجعوا الى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) بسؤال ابراهيم . وعدم سؤال الصنم الأكبر ، أو رجعوا الى أنفسهم ليحاسبوها على عبادة أولئك الأصنام التى بلغت من الضعف الى ذلك الحدّ المخجل ، فقالوا إنكم أنتم الظالمون لأنفسكم بعبادتها ، ثم انتكسوا وانقلبوا راكبي رءوسهم عن تلك الحالة ، فأخذوا فى المجادلة بالباطل ، أو قلبوا على رؤوسهم خجلا من ابراهيم وانكسارا ، قائلين له (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فلماذا تدعونا إلى سؤالهم ، وهل تريد بذلك السؤال شيئا وراء التهكم بآلهتنا ؟ والزراية بمعبوداتنا ؟ فلما علم نبىّ الله ابراهيم أنهم لا يصيخون لحجة ، ولا ينصاعون لبرهان ،

---

[١] الأنبياء

(قال) لهم بأسلوب المتضجر (أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) قيمة الحجة، ومكانة البرهان؟

(٣) بعد أن أقام نبيّ الله عليهم الحجة، وأخذ عليهم طرق الجدل والكلام، لجأوا الى الحديد والنار فقالوا فيما بينهم (حرّقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) والمراد ان كنتم تريدون نصر الاله نصرا مؤزرا، فقال الله للنار (كونى بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) وتلك سنة الله مع الرسل إذا حزبهم الأمر، و بلغت بهم الشدّة منتهاها، سنته معهم أن يجيئهم النصر من عنده، فينجو به المتقون، ويخذل المستكبرون والمعاندون (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولايردّ بأسنا عن القوم المجرمين «١١٠» (١)) فلا عجب أن ينجيه الله ومعه لوط الى بلاد الشام، ويهب له اسحق و يعقوب، ويجعلهم كلهم صالحين، و يجعلهم أئمة يهدون الناس الى الحق بأمر الله، و يوحى اليهم بفعل الخيرات، و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة، ويكونون لله تعالى عابدين، وعند حدوده واقفين.

إبراهيم عليه السلام

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ «٦٩» إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ «٧٠» قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ «٧١» قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ «٧٢» أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ «٧٣» قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ «٧٤» قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ «٧٥» أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ «٧٦» فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ «٧٧» ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ «٧٨» وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ «٧٩» وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ «٨٠» وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ «٨١» وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ «٨٢» رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ «٨٣» وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ (٢) فِى ٱلْءَاخِرِينَ «٨٤» وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ «٨٥» وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ «٨٦» وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ «٨٧» يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ «٨٨» إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ «٨٩» الشعراء

---

[١] يوسف. [٢] ذكراً حسناً وسيرة مرضية، أو المراد أنه سأل الله تعالى أن يجعله صالحاً بحيث إذا أثنى عليه من بعده لم يكن ذلك الثناء كذباً بل يكون كما قال الشاعر:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح   فأنت الذى نثنى وفوق الذى نثنى

١٢٠٠٨

شرح وعـــــبرة

(١) يسـأل نبيّ الله ابراهيم أباه وقومه عن معبوديهم ، حتى إذا أجابوه ناقشهم فى جوابهم فأقام عليهم الحجة ، يسألهم عن المعبودين لهم فيقولون فى جوابه (نعبد أصناما) ولم يقفوا عند حدّ المسـئول عنه بل قالوا (فنظلّ لها عاكفين) ليظهروا ما فى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج بذلك ، فيسألهم ابراهيم (هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون) فلا يستطيعون أن يجيبوا ابراهيم بأن أصنامهم كذلك ، تسمعهم إذا دعوهم ، أو تجلب لهم نفعا ، أو تدفع عنهم ضرا ، ويجيبون جواب المفحم المبهوت فيقولون (بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) فيقول لهم ابراهيم (أفرأيتم ما كنتم تعبـدون أنتم وآباؤكم الأقدمون) يريد أنظرتم فأبصرتم معبوديكم أنتم وآباؤكم حقّ الابصار ؟ فان أولئك المعبودين بغضاء لى ، وأعداء لا أبالى بهم ، لـكن ربّ العالمين ليس كذلك ، بل هو وليى فى الدنيا والآخرة .

ثم بين الصفات التى يستحقّ بها أن يكون إلهه ومعبوده ، فقال (الذى خلقنى فهو يهدين) بما وهبنى من الفطرة التى تدعونى الى جلب النافع ودفع الضارّ ، وأعطانى من السمع والبصر والعقل ما أستطيع به أن أعرف الحقّ من الباطل ، وأقف به على ملـكوت السـموات والأرض ، وهدانى بالوحى السماوى الى مافيه سعادتى فى الدنيا والآخرة ، وإله له ذلك كله لا يستوى هو وأصنام لا تملك من ذلك شيئا ، بل هى ملك لله تعالى وخلق من خلقه .

ثم وصفه بقوله (والذى هو يطعمنى ويسقين) بما سخر لى من أسباب الرزق ووسائل العيش وبما أنزله وينزله من الأمطار ، ويفجره من العيون ، ويجريه من الأنهار ، ودعانى اليه من العمل وأعدّنى له بصحة وعافية واستطاعة لعمارة الأرض والانتفاع بخيراتها .

ثم وصفه بوصف آخر هو قوله (واذا مرضت فهو يشفين) وقد أضاف المرض الى نفسه لأن كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الانسان فى مطاعمه ومشاربه ووسائل حياته ، وقد نسب الشفاء الى ربه لأنه خلق لكلّ داء دواء ، وهدى الناس إلى علاج أمراضهم من طريق البحث فى العقاقير ، ووسائل الأدوية .

وقد قطع الناس شوطا كبيرا فى ذلك ، وأصبحوا بواسطة العلم يهتدون الى علاج مقدار كبير من الأمراض ، فتقدّموا تقدّما يذكر فى الوقوف على العقاقير التى تعالج بها الأمراض ، كما نبغوا فى طريق كشف الأمراض ، والوقوف على مكنونات الأجسام بواسـطة الأشعة الـكهربائيـة ، وذلك كله فضل من الله ، وهداية لبنى الانسان الى مافيه حفظ حياتهم وصحتهم ، فهو الذى يستحق الشكر على هذه الهداية .

ثم وصفه كذلك بأنه الاله الذى يملك الاماتة والاحياء ، وأنه الذى يطمع أن يغفر له خطيئته يوم القيامة ، وإله له كلّ هـذه الخصائص جـدير بأن يكون وليا لابراهيم ، ومعبودا لابراهيم ، ومن على ملة ابراهيم .

(٢) انتقل نبيّ الله ابراهيم من وصف ربه بجلائل الصفات الى دعوته بأن يهبه الحـكمة ، وهى الـكمال فى العـلم والعمل ، بحيث يتمـكن من خلافة الحق ، ورياسة الخلق ، وأن يوفقه من

الأعمال والعلوم مايؤهله للانتظام فى زمرة الكاملين ، وأن يرزقه جاها وحسن صيت فى الدنيا بحيث يبقى أثره الى يوم الدين ، وقد أجاب الله دعوته ، فما من أمة من الأمم إلا وهى محبة له ، مثنية عليه ، أو اجعل لى لسانا صادقا من ذريتى ، يجدّد أصل دينى ، ويدعو الناس الى ماكنت أدعوهم إليه من التوحيد ، وهو النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم « أنا دعوة أبى ابراهيم » ثم طلب أن يجعله فى الآخرة من ورثة جنة النعيم ، وأن يغفر لأبيه انه كان فى الدنيا من الضالين .

وقد سبق أن ذلك الدعاء كان عند طمعه فى اسلامه ، وقد وعده ابراهيم أن يستغفر الله له ، أما بعد أن تبين له أنه عدوّ لله فقد تبرّأ منه ، ثم طلب أن لايخزيه الله فى الآخرة فى اليوم الذى لاينفع فيه مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم من الشرك ، بعيد عن النفاق .

(٣) لعلّ فى هذه القصة عبرة لمن يدعون من الموتى من لايسمعهم ، ولايملك أن يضرّهم أو ينفعهم ، ولعلّ فى القصة عبرة لقوم ألفوا البطالة، وتركوا العمل ، معتمدين على أن الاله يطعمهم ويسقيهم ، ذاهلين عن قوله (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله [1]) وقوله تعالى (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه [2]) لعلّ فيه عبرة لقوم أرادوا أن يكونوا عالة على غيرهم فى هذه الحياة، ثم يزعمون مع ذلك أنهم (خير أمّة أخرجت للناس) كيف وعمر بن الخطاب يقول « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ثم يمدّ يده الى السماء يقول يارب فان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » .

(٤) ولعلّ فى القصة عبرة لقوم جهلوا سنة الله فى هذه الحياة ، وجهلوا أن البيوت انما يلجها الناس من أبوابها ، فتركوا رجال العلم ، وأساتذة الطبّ ، الذين درسوه دراسة عميقة ، ولا يزالون يدرسون وينقبون ، ويجرّبون ويختبرون ، ويعملون المؤتمرات ، ويواصلون الليل بالنهار ، للوقوف على أسباب الأمراض وعلاجها ، وخصائصها وأعراضها ـ تركوا أولئك القوم الذين درسوا ذلك العلم ولجأوا الى طرق ما أنزل الله بها من سلطان ، فأحيانا يلجأون الى باب زويلة المعروف فى مصر ببوّابة « المتولى » يعلقون عليه الشعور لشفاء ما برأسهم من صداع ، وأحيانا يلجأون الى بعض المنائر فى مساجد المسلمين يصعدون عليها علها تزيل مابهم من عقم ، ومرّة يلجأون الى الدجاجلة والنصابين ، حملة كتب الدجل والشعوذة ، والضار بين للرمل ، والمحضرين للشياطين ، وغير ذلك .

وقد خرجوا بعملهم هذا على قول الله تعالى (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنّ البرّ من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون « ١٨٩ » [3]) .

إبراهيم عليه السلام

وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَٰهِيمَ «٨٣» إِذْ جَاءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ «٨٤» إِذْ قَالَ

[١] الجمعة . [٢] الملك . [٣] البقرة .

لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ «٨٥» أَئِفْكًا[١] ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ «٨٦» فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ «٨٧» فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ «٨٨» فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ[٢] «٨٩» فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ «٩٠» فَرَاغَ[٣] إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ «٩١» مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ «٩٢» فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ «٩٣» فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ[٤] «٩٤» قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ «٩٥» وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ «٩٦» قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ «٩٧» فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ «٩٨» وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ «٩٩» رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ «١٠٠» فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ «١٠١» فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ «١٠٢» فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ «١٠٣» وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ «١٠٤» قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ «١٠٥» إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا ٱلْمُبِينُ «١٠٦» وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ «١٠٧» وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ «١٠٨» سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ «١٠٩» كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ «١١٠» إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ «١١١» الصافات

---

[١] الإفك : كلّ مصروف عن وجهه الذى يحق أن يكون عليه ، ومنه (أنى يؤفكون) أى يصرفون عن الحقّ فى الاعتقاد إلى الباطل ، ومن الصدق فى المقال إلى الكذب ، ومن الجميل فى الفعل إلى القبيح ، وقد يستعمل الإفك فى الكذب (إنّ الذين جاءوا بالإفك) (ويل لكلّ أفاك أثيم) وإفكا فى الآية مفعول تريدون ، وآلهة بدل منه ، ويكون قد سماهم إفكا على المبالغة ، ويصحّ أن يكون إفكا مفعول من أجله : أى أتريدون آلهة من أجل الإفك الذى كان منكم وصرف الأمور عن وجهها الذى يحقّ أن تكون عليه .

[٢] مريض النفس من إعراضهم عن الله . [٣] مال نحوهم لأمر يريده منهم بالاحتيال ، من الرّوغ وهو الميل . [٤] يسرعون ، « تله » أسقطه على التلّ ، « صدقت الرؤيا » نسبتها إلى الصدق أو حققتها وحصل المقصود منها ، « البلاء المبين » : الاختبار الظاهر ، « بذبح » : مذبوح .

شرح وعـــــبرة

(١) يرينا الله تعالى فى هذه القصة أن ابراهيم عليه السلام من شيعة نبىّ الله نوح ، وشيعة الرجل الذين يتقوّى بهم ، من شاع الخبر : كثر وقوى ، والمراد أن نبىّ الله ابراهيم على دين نوح وسنته ، ومنه تعلم أن الأنبياء عليهم السلام يشايع بعضهم بعضا فى الحق والدعوة إلى الله تعالى ، والتصلب فى دينه ومصابرة المكذّبين .

وقد بين الله تعالى ما شايعه فيه بقوله (إذ جاء ربه بقلب سليم) الخ ، والمراد أنه سليم من أمراض القلوب كالنفاق والحسد ، والخور والضعف أمام العدوّ القوىّ .

ثم بين تهكم ابراهيم بالأصنام ، وقوله منـكرا لعملهم (أئفكا آلهة دون الله تريدون) والمراد أتريدون آلهة من دون الله إفكا ، فسمى الآلهة إفكا على المبالغة ، فان الافك هو الكذب ، ويصحّ أن يكون المراد أتريدون آلهة من أجل الافك الذى كان منكم ، وصرفكم الأمور عن وجهها الذى يحق أن تكون عليه ثم سألهم (فما ظنكم بربّ العالمين) أىّ شىء هو حتى جعلتم الأصنام له أندادا ، وما ظنكم فيما هو فاعل بكم من عقوبة على ذلك الشرك ، وتسويتكم القوىّ بالضعيف ، والمخلوق بالخالق .

(٢) يرينا الله تعالى أن نبىّ الله نظر نظرة فى النجوم ، وعبادة القوم لها مع أنها تنادى بلسان حالها بأن لها ربا دبرها ، وخالقا سيرها ، وما قصته فى سورة الأنعام ببعيدة ، وفيها أنه حينما رأى كوكبا من الكواكب قال لقومه هـذا ربى على زعمكم ، فلما أفل قال لقومه لا أحبّ الآفلين ، فأيأسهم من عبادته ذلك الكوكب ، بعد ذلك رأى القمر بازغا ، فقال لقومه هذا ربى ، فلما غاب قال إن هذا الكوكب لايهدينى لأنه يغيب ويحضر ، فلا يصلح إلها ، فلما رأى الشمس بازغة قال لقومه هذا ربى ، هذا أكبر الكواكب ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون .

تلك نظرة نبىّ الله ابراهيم فى الكواكب ، واقتناعه أنها لاتصلح أن تكون آلهة تعبد ، ومع ذلك كله يصرّ قومه على عبادتها ، فتلك هى نظرته فى النجوم ، وذلك هو سقمه من عبادة الناس لها وكفرهم بخالقها ، والمهيمن عليها ، فهو سقيم من كفر القوم وعنادهم .

وجدير بمن يجد من كفر الناس وعنادهم ماوجد نبىّ الله ابراهيم أن يسقم قلبه ، ويتألم ضميره ووجدانه ، بعد أن عرّفهم ذلك انصرفوا عنه مدبرين عن دعوته ، مولين عن طريقه .

(٣) بعد ذلك (راغ الى آلهتهم) من راغ الثعلب يروغ روغانا : إذا مال إليه على سبيل الاحتيال لأمر يريده ، وبعد أن وصل اليهم أخذ يتهكم بهم ، ويقول (ألا تأكلون مالكم لاتنطقون) ثم أقبل اليهم يضربهم بقوّة ، وذلك مظهر من مظاهر غيظ ابراهيم منهم ، وحدبه عليهم ، وهو الذى يقول فى دعائه (رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) .

وجدير بالعاقل أن يبغض من هذا حاله ، فأخذ قومه يسرعون إليه ، لانزعاجهم من تحقير معبوديهم ، والتهكم بآلهتكم ، فأخذ يناقشهم (أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون) يستنكر عليهم أن يصنعوا آلهة بأيديهم ، ثم هم مع ذلك يعبدونها ، وينكر عليهم أن يعبدوا آلهة هى وهم من خلق الله تعالى ، وكانت الأصنام من خلق الله ومن عملهم كالباب والكرسى ، هما من

عمل النجار باعتبار الشكل والصورة ، ومن خلق الله تعالى باعتبار الذات والجوهر ، وكالسوار والخلخال من عمل الصائغ من جهة شكلها ، ومن خلق الله باعتبار جوهرها .

وقد أطال المتكلمون فى الكلام على هــذه الآية من جهة دلالتها على أن العمل مخلوق لله تعالى ، والآية ليست فى باب العمل الذى هو مصدر ، و إنما هى فى العمل الذى هو معمول ، أى مكان العمل ، لأن قوله (وماتعملون) ترجمة عن قوله (ماتنحتون) ومافى قوله (ماتنحتون) اسم موصول ، وليست مصدرية ، فكذلك فى قوله (وماتعملون) و إلا لاختلفت الترجمة والمترجم عنه ، ولما كان لاحتجاج ابراهيم على قومه معنى ، إذا كان المراد والله خلقكم وخلق عملكم ، و إنما تنتظم الحجة ، ويستقيم الاستدلال إذا كان المراد أتعبــدون ماتنحتونه بأيديكم ، والله خلقكم وخلق ماعملتم وهم أولئك الأصنام التى من صنع يدكم .

(٤) بعد أن أخــذ عليهم نبىّ الله ابراهيم كلّ باب من أبواب الحجة ، لجأوا الى الحديد والنار ، فقالوا لبعضهم (ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم) وهى النار الشديدة الوقود ، وقيل كلّ نار على نار وحجر فوق حجر فهو جحيم ، وقد أخبرنا الله تعالى أنهم أرادوا بابراهيم كيدا فردّ الله عليهم كيدهم ، ومكروا فكان مكر الله فوق مكرهم ، ودبروا فكان تدبيره خيرا من تدبيرهم .

وقد أرانا الله تعالى فى سورة الأنبياء أن الله تعالى قال للنار (كونى بردا وسلاما على ابراهيم) عقب قولهم (حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين) . بعد أن نجاه الله من قومه قال (إنى ذاهب إلى ربى سيهدين) أراد بذلك مهاجرته الى حيث أمره الله بالمهاجرة إليــه من أرض الشام كما قال (إنى مهاجرا إلى ربى) ثم طلب من الله أن يهبه من الأولاد الصالحين ، فبشره الله تعالى بغلام حليم .

(٥) من عادة القرآن أن يحذف من القصــة مالا تدعو إليه العبرة . ولايتوقف عليه الفهم اعتمادا على فطنة السامع ، فيرينا الله تعالى أنه بعــد أن بشره بغلام ووهبه ذلك الغلام ، ثم نشأ وترعرع حتى وصــل إلى سنّ يستطيع معه أن يسعى قال له (يابنىّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟) وهى استشارة تحمل فى حناياها لواعج الألم ، ومثيرات الحزن والأسى ، استهلها نبىّ الله بقوله (يابنىّ) وكأنه يقول: يابنىّ ، ويافلذة كبدى ، الذى وهبك الله لى بعد دعائى إياه أن يهب لى ذرية صالحة ، تعاوننى فى الدعوة ، وتناصرنى فى إقامة دين الله ، إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فما الذى أنت فاعل فى ذلك البلاء ؟ و بأىّ عزيمة تلقى تلك المحنة ؟ و إنها لمحنة ما أشدّها على نفوس الوالد والولد . فماذا كان جوابه عن ذلك السؤال الرهيب وتلك الاستشارة الموجعة ؟ ولو أن ملكا من ملوك الدنيا بعث الى رجل من رعيته رســوله له ، يبلغه أن ذلك الملك المطاع ، أمر أن تصادر أملاكه ، و يعيش صــفر اليدين ، أو أمر أن ينفى من بلده ، ويحال بينه و بين مواطنيه — لو أن رجلا من الناس بلغه ذلك على لسان رســول لايكذب لكان من شأن ذلك الخبر أن ينخلع له قلب ذلك الرجل عند سماع القصة ، فكيف بصبىّ يبلغه عن ربه ، بواســطة أبيه ، وأبوه رســول لايكذب ، مطيع لايعصى ، أن يحرمه من هذه الحياة ، ويحول بينه و بين أن يعيش ؟ كيف بصبىّ يبلغه أبوه رؤياه المنامية أنه يذبحه ! ! ماذا تكون نفسه التى بين جنبيه

فى ذلك الحين ؟ وماذا يكون قلبه ؟ وماذا تكون إجابته ؟ [وقد استشير] ولو أن الأمر كان من طريق القسر لكان أهون على النفس ، وأخف فى الاحتمال ، كان جواب ذلك الصبى أن يقول قالة الراضى المطمئن (يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) وكأنه يقول لأبيه انى أقدر قيمة ألمك لتلك التضحية ، وجهاد نفسك فى ذلك العمل الشاق ، لأنى قطعة منك ، ولكن حق الله عليك فوق حق الأبناء والأحفاد ، و إجابتك لداعيه أهم من إجابتك لدواعى الفطرة ، فأجب داعى الله ، وتغاض عن داعى الشفقة والحنان ، واصدع بأمر الله ، ارغاما للشيطان ، فاذا كنت قد ناديتنى بقولك (يابنى) فانى أناديك بقولى لك (يا أبت) وأقول لك قول الراضى بقضاء الله وحكمه (افعل ماتؤمر) وسوف لاترانى ممتعضا بذلك البلاء (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) فلم يكن من نبى الله ابراهيم وولده سوى استسلامهما لأمر الله ، فأخذ ابراهيم ينفذ أمره ، وأخذ ولده يصبر لقضاء الله وحكمه ، فحينما أسقطه على التل ، ناداه الله أن يا ابراهيم قد حققت الرؤيا فاغتبط وأبشر بالفرج بعد الشدة ، واليسر بعد العسر ، ولا تعجب من ذلك ، فان هذه سنتنا فى جزاء المحسن .

ثم أرانا الله تعالى أن ذلك البلاء الذى ابتلى به ابراهيم وولده هو الاختبار البين الذى يتميز به المخلصون ، أو هو المحنة البينة الصعوبة التى لامحنة أصعب منها ، وأى محنة أشد من محنة الرجل بابنه وفلذة كبده ، ثم فداه الله بمذبوح سمين .

ثم أرانا الله تعالى أنه ترك على ابراهيم فى الآخرين من الأمم هذه الكلمة (سلام على ابراهيم) وأنه تعالى يجزى المحسنين بتخليد ذكرهم وابقاء أثرهم .

فانظر كيف وصل نبى الله ابراهيم من طاعته لربه إلى ذلك الحد ، وكيف وصل ولده من رضاه بقضاء الله وحكمه إلى ذلك المكان من الرضا ، ولعلنا إذا قسنا التكاليف بتلك الفتنة فانها تصغر أمامها وتذبل ، ولعلنا نتأسى بذلك النبى الذى هو قدوة صالحة فى الصدع بأمر الله ، و بولده فى الرضا بقضاء الله .

هذه قصة نبى الله ابراهيم وولده الذبيح . وهى لاتتجاوز آيات تعد على أصبع اليد الواحدة ومع ذلك نرى بعض الخطباء فى يوم العيد الأكبر يذكرون هذه القصة و يضيفون إليها من الاسرائيليات ماتمجه النفوس ، رجاء أن يؤثروا على العامة بذلك الحشو ، وقد سمعت خطيبا يتلو فى هذه القصة وما أضافه إليها من حشو زهاء نصف ساعة ، ولا أدرى من أين للخطباء ذلك اللغو الذى يضعونه فى هذه القصة ، وهل التاريخ يحفظ للناس ما كان من نبى الله ابراهيم مع ولده حتى يستطيعوا أن يعولوا عليه ؟ . اللهم انا لانعلم من قصة ابراهيم مع ولده وقومه إلا ما علمناه منك ، ولا نعلم من قصة يوسف و إخوته إلا ما علمتنا على لسان نبيك وكذلك بقية الرسل ، فعلمنا كيف نأخذ الغيب عنك ، وكيف نتأدب معك ، ونفيض فى القصص حيث أفاض كتابك ، ونسكت حيث سكت (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين «٤٩» [1]) .

---

[١] هود .

إبراهيم عليـــه السلام

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ «٤» رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً [١] لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٥» لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ «٦» الممتحنة

شرح وعـــبرة

(١) الذى يقرأ سورة الممتحنة وسابق الآية ولاحقها يستطيع أن يفهم المراد من الآيات ، ينهانا الله فى أول السورة أن نتخذ عدوّه وعدوّنا فى دينه أولياء ، نناصرهم ونعينهم على المؤمنين ، ونلقى اليهم بالمودّة ، وقد كان منهم أن كفروا بما جاءنا من الحق ، وأخرجوا رسولنا وأخرجونا من مكة لالذنب سوى إيماننا بالله ربنا وخالقنا .

وقد شرح حنق أولئك الأعداء على المؤمنين فى قوله (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) ليرينا أن ذلك النفر من الكفار ان عثروا عليكم كانوا أعداء لكم ، و بسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء لينالوا به منكم .

وقوم حالهم معكم حرب مستمر لاينبغى أن تتخذوا منهم أولياء ، ولا أن يكون بينكم و بينهم مودّة ، هذا مايعطيه سابق الآيات ، وأما لاحقها فيرينا الله فيه أنه لاينهانا عن الذين لم يقاتلونا فى الدين ، ولم يخرجونا من الديار أن نبرّهم ونقسط اليهم ، إنما ينهانا عن الذين قاتلونا فى الدين ، وأخرجونا من ديارنا ، وظاهروا على اخراجنا أن نتولاهم ولاية نصرة ومودّة .

من ذلك كله نستطيع أن نفهم التأسى بنبيّ الله ابراهيم عليه السلام والذين معه ، فى تبرّئهم من عبادة غـير الله ، وكفرهم بمعبوديهم ، واعلانهم العداوة والبغضاء لهم الى أن يؤمنوا بالله وحده ، لأن سبب حنق أولئك على المؤمنين هم شركهم ، ومتى زال ذلك الشرك زال الحنق ، وحلت المودّة محل الخصومة ، لذلك غيي نبيّ الله ابراهيم عداوته لأولئك بهذه الغاية ، وليس المراد

---

[١] ابتلاء واختباراً ، والمراد لا تجعلنا قدوة سيئة لهم تحملهم على الكفر وتحببهم فيه ، بل اجعلنا قدوة صالحة فى الايمان كما تفيده الآية السابقة واللاحقة .

أننا نعادى كلّ من يخالفنا فى الدين ، وان لم يقاتلنا فيه ، ولم يخرجنا من الديار ، ولم يظاهر الناس على اخراجنا ، ولو كان ذلك هو المراد لناقض القرآن بعضه بعضا ، ولكان ذلك العمل مخالفا للحكمة والمنطق ، ومخالفا لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم العملية وسيرة خلفائه الراشدين ، فقد وادع النبيّ صلى الله عليه وسلم اليهود حين قدم المدينة وأقرهم على دينهم وأموالهم ، فالتأسى بنبيّ الله ابراهيم فى كراهة المشركين واعلان عداوتهم و بغضائهم لم يكن لحجر شركهم ، بل لدفاعهم عن الشرك ، و إيذاء أنصار التوحيد ، وفتنتهم الناس فى عقائدهم ، حتى لا يكونوا آمنين على دينهم أما الشرك الذى لايحارب توحيدا ، ولايصدّ أصحابه الناس عن الايمان ، ولا يعرضون لهم بشىء من الأذى ، فلا معنى لعداوة أصحابه ومحاربتهم .

أما قوله (إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك) فهو استثناء من الأمر بالتأسى بابراهيم ، والمراد أن ابراهيم لاينبغى التأسى به فى وعده أباه أن يستغفر الله له ، لأن القرآن يرينا أنه لاينبغى لنبيّ ولالمؤمن أن يستغفر لمشرك ولو كان قريبا له من بعد ماظهر له أنه من أهل النار ، وأن نبيّ الله ابراهيم لم يستغفر لأبيه آزر إلا لأنه وعده الاستغفار ، فلما ظهر له أنه عدوّ لله ، مصرّ على الشرك ، محارب للتوحيد ، تبرّأ منه : لذلك لم يكن ابراهيم أسوة صالحة فى ذلك ، لأن الله نهانا عنه .

(٢) أما قول ابراهيم (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) فهى دعوة ما أعظم شأنها وأجلّ قيمتها ، وأصل المادّة من الفتن ، وهو ادخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ، فالفتنة هى الاختبار والمحك الذى به يظهر حال الانسان ، ومن أجل ذلك كانت الشدائد فتنة ، وكان المال فتنة ، وكانت الأولاد فتنة ، وكانت المناصب فتنة ، وكان لاغنى للمؤمن عن أن يختبر فى دنياه بأنواع من الاختبار (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون «٢» ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين «٣» [١]) وتطلق الفتنة على تضليل الرجل وزلزاله بواسطة الشدائد التى تقع عليه (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق «١٠» [٢]) (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله «١٩٣» [٣]) (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك «٤٩» [٤]) أى يوقعوك فى بلية وشدّة فى صرفهم إياك عما أوحى إليك .

فنبيّ الله ابراهيم يطلب من ربه أن لا يكون فتنة واختبارا للذين كفروا يحببهم فى الكفر ، و يصرفهم عن الايمان ، أو يطلب من الله تعالى أن لا يكون فاتنا لهم ، ومضللا عما يجب أن يكونوا عليه ، من الحق والهدى ، و إنما يكون ذلك إذا كان نبيّ الله ابراهيم قدوة سيئة ، ومثلا غير صالح ، لأن القدوة السيئة من رجل ينتسب إلى الدين تؤثر على ضعاف العقيدة ، ضعاف النفوس ، ولعلك تفهم من ذلك قول الكفار وهم يعتذرون عن سيئاتهم (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا «٦٧» [٥]) فكان رؤساؤهم فاتنين لهم عن الحق صارفين لهم عن الدين . وفى ذلك المعنى يقول حكيم الاسلام المرحوم جمال الدين الأفغانى « ليس بيننا و بين اقناع الغربيين بالدين

---

[١] العنكبوت . [٢] البروج . [٣] البقرة . [٤] المائدة . [٥] الأحزاب .

سوى اقناعهم بأننا لسنا مسلمين» لأن الغربيين يفهمون الدين من عملنا أكثر من فهمه من أقوالنا ، وكثيرا ماقالوا إذا كان دين المسلمين مصدر سعادتهم فلماذا نراهم أشقياء ؟ و إذا كان دينهم طريق عزتهم فلماذا نجدهم أذلاء ؟ وسبب تلك الفتنة أننا صرنا حجة على الدين ، ودعاية عليه لاله ، فيريد ذلك المصلح أن يقول إذا اقتنع الغربيون بأن الاسلام شيء والمسلمون شيء آخر ، هنالك يسلمون ، وهنالك تزول الحجب التي بينهم و بين الاسلام .

ومن المفسرين من فسر الفتنة بالعذاب : أي لاتجعلنا معذبين بأيديهم حتى يعتقدوا أن ذلك العذاب لأننا مبطلون وهم محقون ، والآية تشمل ذلك كله ، والمراد لاتجعل حالنا فاتنا لهم وسببا في ضلالهم ، سواء أكانت الفتنة بسبب أننا قدوة سيئة أو بسبب أننا ضعفاء ومعذبون ، فيقع في وهمهم أن ذلك الضعف أمارة أننا على باطل ، وهم على حق .

دعـــوة لوط

إلى الله تعـالى

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ «٨٠» إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ «٨١» وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (١) «٨٢» فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٢) «٨٣» وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا (٣) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ «٨٤» الأعراف

شرح وعـــبرة

(١) يرينا الله تعالى في هـذه الآيات أنه أرسل نبيه لوطا (إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) وأطلق عليها فاحشة لأن النفوس السليمة تستفحشها وتعدّها قبيحة ، وقوله (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) يريهم أنهم أوّل من عمل هـذه الفاحشة ، فهم قدوة سيئة عليهم وزرها ووزر العاملين بها الى يوم القيامة ، وقوله (شهوة من دون النساء)

---

[١] يتنزّهون . [٢] الذين غبروا في ديارهم أي بقوا فهلكوا .

[٣] أنزل الله عليهم نوعاً من المطر عجيباً هو الحجارة .

يريهم أنه لا حامل لهم على هذه الفاحشة إلا مجرّد الشهوة ، والمراد أنهم خرجوا بعملهم هذا عن مقتضى الفطرة ، وصاروا أخسّ من العجماوات التى تطلب اناثها بسائق الشهوة لأجل النسل الذى يحفظ به نوع كلّ منها .

ألا ترى إلى الطير والحشرات تبدأ حياتها الزوجية ببناء المساكن الصالحة لنسلها فى راحته وحفظه مما يعدو عليه : من عشّ فى الأشجار ، أو جحر فى باطن الأرض . أما هؤلاء المجرمون فلا غرض لهم إلا إرضاء حسّ الشهوة ، وقضاء وطر اللذّة . ومن قصد الشهوات لذاتها ، والتمتع بلذاتها دون الفائدة التى خلقها الله لأجلها ، جنى على نفسه غائلة الاسراف فيها ، فانقلب نفعها ضرّا ، وصار خيرها شرّا ، بجعل الوسيلة مقصدا ، وصيرورة الاسراف فيه خلقا ، إذ الفعل يكون عن داعية ثابتة ، لا عن علة عارضة ، فلا يزال صاحبه يعاوده حتى يصير ملكة راسخة له ، فتكرار العمل يكوّن الملكة ، والملكة تدعو إلى تكرار العمل والاصرار عليه .

(٢) ثم عقب ذلك بقوله (بل أنتم قوم مسرفون) ليرينا أنهم قوم أسرفوا فى إتيان هذه الفاحشة وتجاوزوا الحدود ، وقال فى سورة الشعراء (بل أنتم قوم عادون) أى تجاوزتم بذلك العمل الفاحش حدود الفطرة ، وحدود الشريعة ، وفى سورة النمل (بل أنتم قوم تجهلون) وهو يشمل الجهل الذى يضادّ العلم ، والجهل الذى هو بمعنى السفه والطيش .

ومجموع الآيات يرينا أنهم كانوا مرزوئين بفساد العقل والنفس . فلاهم يعقلون ضرر هذه الفاحشة فى الجناية على النسل ، وعلى الصحة والفضيلة ، والآداب العامّة ، ولاهم على شىء من الحياء وحسن الخلق يصرفهم عن ذلك .

وكانت هذه الفعلة فاحشة لأنها جناية على الفطرة البشرية ، ومفسدة للشبان بالاسراف فى الشهوة ، وإذلال للرجال ، وكسر لما فيهم من إباء وشمم ، وتعطيل للنسل . ومفسدة للنساء اللواتى تصرف أزواجهن عنهن ، حتى يقصروا فيما يجب عليهم من إحصان . وكم من امرأة اضطرّها زوجها إلى الزنا لانصرافه عنها بتلك الفاحشة ، مع وفور جمالها وكمالها .

ومن آثار تلك الفاحشة أنها ذريعة للاستمناء ، وإتيان البهائم ، وهما معصيتان قبيحتان شديدتا الضرر فى الأبدان والآداب ، لأن تلك الفاحشة تمرّن الانسان على قصد الشهوة لذاتها ، بقطع النظر عن المكان المعدّ لها ، وهو يفضى إلى وضعها فى غير موضعها ، وإنما موضعها الزوجة الشرعية المتخذة للنسل ، وفى الحياة الزوجية الشرعية إحصان كلّ من الزوجين الآخر ، بقصر لذّة الاستمتاع عليه ، وجعله وسيلة للحياة الوالدية التى تنمى بها الأمة ، ويحفظ النوع البشرى من الزوال .

(٣) ومن العجيب أن يكون جواب قومه له (أن قالوا أخرجوهم من قريتكم) وتعليلهم الاخراج بأنهم أناس يتطهرون ، ويتنزّهون عن مشاركتهم فى الرجس .

من العجيب أن تكون الطهارة ذنبا يعاقب صاحبه عليه ، وينفى من بلده من أجلها ، وأن ترتكس النفوس فى المحرمات ، وتنتكس بالجرائم حتى تستقبح الحسن ، وتستحسن القبيح ،

وتفسد منها الفطرة الى ذلك الحدّ المزرى ، وهى سخرية بنبيّ الله لوط ومن معه ، وتهكم بطهارتهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا عليه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم أبعدوا عنا هذا المتقشف ، وأريحونا من هذا المتزهد .

وللنقص والرزائل دركات ، كما أن للكمال والفضائل درجات، فأولاها أن يلمّ بالرذيلة وهو يشعر بقبحها ، ويلوم نفسه عليها ، ويليها أن يعود إليها المرّة بعد المرّة مستخفيا ، ويليها أن يصرّ عليها حتى يزول شعوره بقبحها ، ويليها أن يجهر بها ويكون قدوة سيئة ، وأحط دركاتها أن يفاخر بها أهلها ، ويحتقر من يتنزهون عنها ، وهذه دركة قوم لوط ، ولايهبط اليها من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وقد وصف الله المؤمنين بأنهم إذا عملوا السيئات يعملونها بجهالة ثم يتوبون من قريب ، وأنهم لايصرّون على مافعلوا وهم يعلمون .

(٤) كانت عاقبة نبيّ الله لوط ومن معه من المؤمنين أن نجاه الله من عذابه ، وأمطر على قومه مطرا عجيبا ، وهو الحجارة التى رجموا بها ، ثم أمر الله أن ينظر عاقبة أولئك المجرمين ليرينا أن هذه سنة فيمن عصاه وفسق عن أمره ، وهى سنن لاتتبدّل ، ولولا أن رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم نبيّ الرحمة لحلّ بنا من أنواع العذاب ماحلّ بأولئك الأقوام .

وتأمّل كيف استثنى الله تعالى امرأة لوط ممن نجاهم ، وأنها كانت فى جماعة الهالكين ، ليرينا أن ماعنده من رضا ورحمة لاينال بنسب أو قرابة للرسل ، وإنما ينال بالطاعة ، ولو كان النسب منجيا لصاحبه لنجا من الهلاك امرأة لوط .

وقد ضرب الله المثل فى سورة التحريم (للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين «١٠») كما ضرب لنا مثلا قصة نوح وابنه الذى أغرقه الله وهو يقول (ربّ إن ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين «٤٥» قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين «٤٦» قال ربّ إنى أعوذ بك أن أسالك ماليس لى به علم وان لاتغفرلى وترحمنى أكن من الخاسرين «٤٧» [1]) .

لوط عليه السلام

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ [2] «٦٩» فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ [3] مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ «٧٠» وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ «٧١» قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰ

[١] هود . [٢] مشوىّ على حجارة محماة ، وقيل : يقطر دسمه لسمنه ، ويدلّ عليه قوله فى سورة أخرى : (بعجل سمين) . [٣] أضمر .

ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ «٧٢» قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ «٧٣» فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ (١) وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ «٧٤» إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ (٢) مُنِيبٌ «٧٥» يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ «٧٦» وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ (٣) بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ «٧٧» وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ (٤) إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ «٧٨» قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ «٧٩» قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي (٥) إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ «٨٠» قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ (٦) مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ «٨١» فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧) مَنْضُودٍ «٨٢» مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ «٨٣» هود

شرح وعبرة

(١) عرضنا فى هذه السورة لطائفة من قصص نبيّ الله ابراهيم لاتصالها بقصة لوط، و (البشرى) هنا فيما يظهر هى البشرى بالولد (قالوا سلاما) نسلم عليك سلاما ، والمراد طمأنته حتى لايخاف ،

---

[١] الخوف . [٢] كثير التأوه والتوجع « منيب » راجع إلى الله تعالى .

[٣] قال الأزهرى : الذرع يوضع موضع الطاقة ، والأصل فيه البعير يذرعه بيديه فى سيره ذرعا على قدر سعة خطوته ، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه عن ذلك فضعف ، ومدّ عنقه ، فجعل ضيق الذرع عبارة عن قدر الوسع والطاقة ، فيقال : مالى به ذرع ولا ذراع : أى مالى به طاقة . « عصيب » : شديد من عصبه : شده . [٤] يسرعون . [٥] أستند . [٦] قطعة ، والمراد هاجر بهم ليلا .

[٧] شىء مركب من الحجارة والطين ، وفى منتهى الصلابة . « منضود » : يرسل بعضه فى أثر بعض متتابعاً . « مسوّمة » : معدة للعذاب .

و بعد أن قدّم اليهم عجلا مشويا ليأكلوه ، فلم يمدّوا إليه أيديهم توجس الشرّ منهم ، لأن الشأن فيمن يريد السلام أن يأكل ، فطمأنوه . وأفهموه أنهم ملائكة الله ، أرسلهم الى قوم لوط ولم يرسلوا له ، وكانت امرأته قائمة فسمعت ذلك فضحكت سرورا بزوال الخيفة ، أو سرورا بهلاك أهل الخبث ، فبشرها الله بواسطة الملائكة باسحق ثم بيعقوب ، فتعجبت من البشارة ، وقالت (ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب) وكان عجبها لكبر سنها وسنّ زوجها ابراهيم ، فقالوا لها: أتعجبين من أمر الله ، وأنت فى بيت النبوّة ، التى هى مهبط المعجزات ، وخوارق العادات ؟ ولذلك عقبوا ذلك بقولهم (رحمت الله و بركاته عليكم أهل البيت) أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به ربّ العزة ، ويخصكم بالانعام به ياأهل بيت النبوّة ، وكان عليك أن تسبحى الله تعالى وتمجديه مكان التعجب ، و (حميد) فاعل مايستوجب الحمد من عبادة ، و (مجيد) كريم كثير الاحسان اليهم .

(٢) يرينا الله تعالى أنه لما ذهب الروع عن نبيّ الله ابراهيم وجاءته البشرى بالولد ، اجترأ على خطاب الله تعالى ، وأخذ يجادل فى شأن عذاب قوم لوط ، ثم علل ذلك بقوله (إن ابراهيم لحليم أوّاه منيب) وهى صفات تدلّ على رقة القلب ، والرأفة والرحمة ، وذلك هو ماحمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع العذاب عنهم ، و يمهلوا لعلهم يحدثون تو بة وانابة ، كما حملته هذه الصفات على استغفاره لأبيه ، فقال الله له (ياابراهيم أعرض عن هذا) فلا فائدة فيه (إنه قد جاء أمر ربك) بالعذاب . وهو قضاء وحكم لايصدر إلا عن صواب وحكمة ، والعذاب نازل بالقوم لامردّ له بجدال ولا دعاء .

(٣) لما وصلت رسل الله تعالى إلى نبيه لوط حسب أنهم انس ، فخاف عليهم خبث قومه ، وأن يعجز عن مقاومتهم فساءه رؤيتهم ، وضاقت بهم طاقته . وقال هذا يوم عصيب ، وجاءه قومه مسرعين إليه ، ومن قبل ذلك كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها فضروا بها ، ومرنوا عليها ، فلذلك جاءوا مجاهرين لا يكفهم حياء ، ولا يردعهم خلق ، فأراد أن يقى أضيافه ببناته ، وقال (ياقوم هؤلاء بناتى هنّ أطهر لكم) فتزوّجوهنّ . ومن سفه القول أن يفهم أحد كائنا من كان (هؤلاء بناتى) لتتبدلوا فاحشة اللواطة بفاحشة الزنا ، وما قيمة المجهود الذى يعمله نبيّ الله لوط إذا ، وهل يليق بنبيّ أن يدعو الناس إلى فاحشة ، وهل مهمته تتفق وذلك ؟

ثم عقب ذلك بقوله (فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد) ومن ذلك الأسلوب تفهم مقدار الضيق الذى كان عند نبيّ الله لوط من ذلك الحادث ، يطلب منهم أن يتقوا الله ولا يفضحوه فى حق ضيوفه ، فان ضيف الرجل اذا خزى كان خزيه يلحق مضيفه ، ثم يقول أليس منكم رجل واحد يهتدى إلى الحق ، وفعل الجميل ، والكفّ عن السوء ، وهى كلمة اليائس من أن يوجد فيهم رجل واحد يناصره فى الدّعوة ، و يأخذ بيده فى إنقاذه من خزى ضيفه ، فقابلوه بقولهم (لقد علمت مالنا فى بناتك من حق) لأن إتيان الذكران صار مذهبا لهم وديدنا ، فكان هو الحق عندهم ، ونكاح الاناث هو الباطل ، ويجوز أن يكون قولهم هذا على وجه الخلاعة ، والغرض أنهم لا يشتهون الاناث ، لأن نفوسهم انصرفت عنهنّ (وإنك لتعلم مانريد) من إسراعنا إلى ضيفك .

(٤) عند ذلك قال نبيّ الله (لو أن لى بكم قوّة أو آوى ركن شديد) أى لفعلت بكم وصنعت وهى أمنية من نبيّ الله أن يقوى عليهم بنفسه ، أو يأوى الى ركن قوىّ يستند إليه ، فيحميه منهم ويحمى ضيفه ، ومنهم من جعل أو بمعنى بل الاضرابية يتنقل بها من ذلك التمنى الى ركونه الى ربه ، واعتصامه به .

وقد روى البخارى « يغفر الله للوط ان كان ليأوى الى ركن شـديد ، وهو ربه وخالقه » والغرض من الحديث دفع شبهة تتعلق بنبيّ الله لوط ، وهى أنه يتمنى أن يستند إلى ركن شديد ، وأىّ ركن شديد أقوى من ربه وخالقه ؟ فالحديث يرينا أن لوطا كان يأوى الى ركن شديد هو ربه وخالقه ، والركن الشديد الذى تمناه مرجع من الخليقة كعصبية ، أو حزب قوىّ ، فهو يتمنى أن يكون قويا بنفسه ، أو قويا بغيره ليفعل مع أولئك المجرمين ما يستحقون .

(٥) فى خلال هذه الشدّة ، وفى ظلام هذه الفتن ، ناداه الرسل (يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) فلسنا بشرا كما فهمت ، بل نحن رسل عذاب ، وقد جئنا لتنفيذ أمر الله تعالى بالهلاك فدعنا وهم ، فهاجر بقومك فى جنح الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلى ما فى البلد من مال وأصدقاء (إلا امرأتك) فدعها ولا تسافر بها ، انه سيحلّ بها من العذاب ما يحلّ بالقوم ، وموعدهم فى الهلاك الصبح (أليس الصبح بقريب) فلما جاء أمر الله بالعذاب جعل عالى القرية سافلها ، وهو كناية عن محوها وذهاب معالمها ، وأمطر عليها من الحجارة المتتابعة ما شاء أن يمطر . ثم ختم القصة بقوله (وما هى من الظالمين ببعيد) وهو وعيد لأهل مكة وصناديد قريش ، يقول لهم : ماهذه القرى التى دمرها الله لفسوق أصحابها ببعيدة عنكم ، أو ما هـذه الحجارة التى سلطها على قوم لوط ببعيدة عنكم ، ومن السهل أن يعاقبكم الله بها كما عاقب من سبقكم .

لوط عليـــه السلام

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ «١٦٠» إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ «١٦١» إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ «١٦٢» فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ «١٦٣» وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ «١٦٤» أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ «١٦٥» وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ [١] «١٦٦» قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ «١٦٧» قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ [٢] «١٦٨» رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ «١٦٩» فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ «١٧٠» إِلَّا عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ «١٧١» ثُمَّ دَمَّرْنَا

---

[١] متجاوزون الحدّ . [٢] الباغضين .

الْآخَرِينَ «١٧٢» وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ «١٧٣» إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ «١٧٤» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١٧٥» الشعراء

شرح وعـــبرة

(١) يطالب نبيّ الله لوط قومه بالطاعة فى رفق ولين ، ويذكرهم بأنه رسول أمين لاغنى له عن تبليغ رسالة ربه ، ثم يكرر عليهم طلب التقوى والطاعة ، ثم يريهم أنه لايطلب منهم أجرا على رسالته ، وإنما يطلبه من الله تعالى ، ثم ينتقل الى انكار فاحشتهم مستقبحا لها فيقول (أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) يريهم أنهم بصنعهم ذلك عطلوا ماخلق للتمتع وهنّ الأزواج ، ولجأوا الى الذكران الذين خلقوا للعمل فى هذه الحياة ، وأنهم بذلك العمل عكسوا الفطرة التى فطر الناس عليها ، وبذلك صاروا قوما عادين للحدود ، متجاوزين لها ، كما وصفهم فى آية أخرى بأنهم قوم مسرفون ، وقوم يجهلون سنة الله ونظامه ، فهم بذلك العمل جنوا جنايتين .

الأولى : إفسادهم للذكران ، والقضاء على شهامتهم ، وكسر مافيهم من إباء وشمم .

والثانية تعطيلهم النساء من التمتع بهنّ وقد خلقن لذلك ، ويتبع ذلك تعريضهنّ للزنا والقضاء على النسل ، وذلك مضادّ لنظام الحياة ، وهدم لكيان المجتمع .

(٢) يقابله قومه فى هذه الموعظة اللينة ، وذلك الأسلوب الهادئ بقولهم (لئن لم تنته يالوط لتكوننّ من المخرجين) يطالبون لوطا بالانتهاء عن تقبيح أعمالهم ، فاذا لم ينته عن ذلك النهى أخرجوه من بلده ، وحالوا بينه وبين وطنه ، وأخرجوه فيمن أخرجوا .

ياسبحان الله ، رسول من الله ، يدعو الناس إلى الطهر ، ويحببهم فى النزاهة ، ويحول بينهم وبين فساد الفطر ، يكون جزاؤه من قومه أن يهدّدوه بالنفى ، ويتوعدوه بالتغريب ، ولاذنب له فى ذلك سوى طهارة غايته ، وسموّ مبادئه ، ونبل مقصده ، ذلك هوذنبه عند قومه ، وقد صرحوا بذلك فى سورة الأعراف إذ يقولون (أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون) وكان الوطن الذى نشأ فيه الرجل ، وأعقب فيــه مالا وأولادا ، هو المكان المحبوب الذى يهدّد به كلّ مصلح ، ويتوعد به أرباب المبادئ الصحيحة ، إلى أن ينزلوا عن مبادئهم ، ويسكتوا عن دعوتهم ، فهؤلاء قوم لوط يقولون لرسولهم (لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين) وهــذا الملأ من قوم شعيب يقول له (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ فى ملتنا «٨٨»[1]) .

فليس بعجيب أن يلجأ المســتعمرون فى أنحاء الأرض إلى ذلك العمل الذى لجأ إليه أعداء الرسل فى كلّ زمان ومكان (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أولتعودنّ فى ملتنا)

[١] الأعراف .

ليس بعجيب أن يلجأ المستعمرون الى ماالجأ إليه أعداء الرسل من نفى وتغريب ، ولكن الله تعالى تكفل لهم بالنصر ، ووعدهم ميراث الأرض ، كما توعد أعداء الرسل بالهلاك (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين «١٣» ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد «١٤» [١]) فليمعن المبطل فى باطله ، وليزدد الفاجر من فجوره ، (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض «١٧» [٢]) .

(٣) لم يكن من نبىّ الله لوط بعد ذلك التهديد سوى أن قال لهم (إنى لعملكم من القالين) فهو ينكر عليهم صنيعهم ، ويبغض عملهم ، ثم لجأ إلى الله تعالى فى أن ينجيه هو وأهله من عقوبة عملهم ، كأنه كان متوقعا أن يحلّ بهم من العذاب مايستحقون ، فأجاب الله دعوته وأنجاه وأهله إلا عجوزا هلكت مع الهالكين ، هى زوجه ، ثم دمر الله الآخرين ، وأمطر عليهم مطرا فساء مطرهم ، ثم ختم القصة بقوله (إن فى ذلك لآية) . نعم فيه عبرة لمن أراد العبرة ، وذكرى لمن أراد أن يذكر ، فيه عبرة للعصاة علهم يكفون عن عصيانهم ، وللفسقة رجاء أن ينخلعوا عن فسقهم ، وفيه ذكرى للمؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كلّ شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون «١١١» [٣]) .

لوط عليه السلام

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَٰلَمِينَ «٢٨» أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ [٤] الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ «٢٩» قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ «٣٠» وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَٰلِمِينَ «٣١» قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَٰبِرِينَ «٣٢» وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَٰبِرِينَ «٣٣» إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا [٥] مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ «٣٤» وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ «٣٥» العنكبوت

---

[١] ابراهيم . [٢] الرعد . [٣] يوسف . [٤] المجلس فيه أهله . [٥] عذابا .

شرح وعـــبرة

(١) ينكر نبيّ الله لوط على قومه إتيان الرجال ، وقطع السبيل ، قيل كانوا يعترضون المارّة بالفاحشة ، وقيل يقطعون سبيل النساء بالاعراض عن الحرث ، وإتيان ما ليس بحرث ، فان النساء هى المعدّة لتربية الولد فى الرحم ، وقد خلقن لذلك ، وقيل يقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال ، ولا مانع من إرادة ذلك كله ، كما أنكر عليهم إتيان المنكر فى مجلسهم على مرأى ومسمع منهم ، ولم يبين لنا ما ذلك المنكر . والظاهر أنه فاحشة اللواطة كانوا يفعلونها جهارا ، والمجاهرة بالعصيان من مضاعفات الفاحشة ، فهو ينكر عليهم كلّ هذه الرذائل ، فيكون جواب قومه أن يقولوا له (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) فيما تعدنا من نزول العذاب ، فيرجع إلى ربه يستنصره على أولئك القوم الذين أفسدوا فى الأرض بهذه الفواحش ، فكانوا قدوة سيئة ، ومثلا غير صالح .

(٢) يرينا الله تعالى أن رسله لما جاءت نبيه إبراهيم بالبشرى قالوا له (إنا مهلكوا أهل هذه القرية) ثم عللوا ذلك بقولهم (إنّ أهلها كانوا ظالمين) فقال لهم نبيّ الله إبراهيم (إن فيها لوطا) وهو برىء من الظلم ، قال ذلك إظهارا للشفقة عليه، وما يجب للمؤمن من التحزن لأخيه ، والخوف من أن يمسه أذى ، فكان جوابهم (نحن أعلم بمن فيها) خفض على نفسك ، وهوّن عليك الخطب ، ثم وعدوه بالنجاة فقالوا (لننجينه وأهله إلا امرأته) وانظر الى قوله (بما كانوا يفسقون) لتعلم أن سبب هلاك أولئك القوم هوفسوقهم عن أمر ربهم ، وانتهاكهم لحرمة دينهم ، وافتياتهم على رسولهم ونبيهم ، ثم ختم القصة بقوله (ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) هى آثار منازلهم الخربة ، وقيل الخبر عما صنع الله بهم .

دعـــوة يوسف

إلى الله تعـالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ «١» إِنَّا أَنْزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «٢» نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ [١] بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا

---

[١] من القصّ ، وهو تتبع الأثر ، فالقصص هو الأخبار المتتبعة .

الْقُرْءانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَفِلِينَ «٣» إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَجِدِينَ «٤» قَالَ يَبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَنَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوٌّ مُبِينٌ «٥» وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ (١) الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٦» يوسف

شرح وعـــــبرة

(١) (نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هـذا القرآن) القصص : اتباع الخبر بعضه بعضا ، وأصله فى اللغة المتابعة . قال تعالى (وقالت لأخته قصيه «١١» (٢)) أى اتبعى أثره . وقال تعالى (فارتدا على آثارهما قصصا « ٦٤ » (٣)) أى يقصانهما قصصا ويتبعانهما اتباعا ، وإنما سميت الحكاية قصصا لأن الذى يقصّ الحديث يتبعه شيئا فشيئا ليبلغه للسامع .

والقصص فى هذه الآية يحتمل أن يكون مصدرا بمعنى الاقتصاص ، من قصّ الحديث : طرده وساقه ، كما يقال أرسله يرسله إرسالا ، ويجوز أن يكون من باب تسمية المفعول بالمصدر . كقولك هذا قدرة الله : أى مقدوره ، وهذا الكتاب علم فلان : أى معلومه ، وهذا رجاؤنا : أى مرجوّنا ، فان حملناه على المصدر وهو الاقتصاص كان الحسن عائدا الى البيان لا إلى القصة ، والمراد من هذا الحسن كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة فى الفصاحة إلى حدّ الاعجاز ، لأن هـذه القصة مذكورة فى كتب التاريخ ، مع أن شيئا منها لا يشابه هذه السورة فى فصاحتها وحسن بيانها ، وخفتها على السمع وان تكرّرت .

وان حملنا القصص على المقصوص كان معنى كونه أحسن القصص أنه حوى من الحكم والعجائب ووسائل تربية النفس ، وتهذيب الخلق ما ليس فى غيره من القصص .

ولاعجب فقد ساقه الله فى كتابه الكريم لأمثال هـذه الغايات : كما قال (وكلا نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك «١٢٠» (٤)) وقال (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كلّ شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون «١١١» (٥)) .

ما دام القصص فى القرآن الكريم قد سيق لأمثال هـذه الغايات ، ولم يسق لمجرّد إيناس النفس وإبعادها عن ملل الحياة ، وترويحها بنقلها من مطالعة أمور شاقة إلى أمور سهلة ، كما هو

---

[١] بيان ماتؤول إليه من المعنى ، وهو تعبير الأحلام . [٢] سورة القصص . [٣] الكهف .
[٤] هود . [٥] يوسف .

الحال فى الروايات القصصية التى يعمد إليها كثير من الناس لمثل ذلك الغرض — وجب أن يكون القصص الذى حواه القرآن الكريم أحسن القصص .

وسترى من فوائد القصص فى هذه السورة أنه لادافع لقضاء الله تعالى ، ولامانع من قدره ، وأنه تعالى لو قضى للانسان بسعادة ومكرمة واجتمع العالم كله على أن يمنعوه ما قدّر له ما وجدوا لذلك سبيلا ، وكذلك سترى من هذه القصة أن مغبة الحسد الخذلان ، وعاقبة الصبر الفرج والفوز ، إلى غير ذلك من العبر (و إن كنت من قبله لمن الغافلين) أى خالى الذهن من قصة يوسف و إخوته ، لأنك ماعلمتها إلا بالوحى الالهى .

ولذلك ختم القصة بقوله (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون «١٠٢» [1]) يريد إخوة يوسف وهم يمكرون به و يتآمرون عليه ، ولكنّ الله علمك مالم تكن تعلم من أخبار الرسل (أو) الغافلين عن الدين والشريعة قبل ذلك كما قال (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان «٥٢» [2]) .

(إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين قال يا بنىّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إنّ الشيطان للانسان عدوّ مبين) هذا بدء لقصة يوسف مع إخوته،وهو قوله لأبيه يعقوب عليه السلام إنى رأيت أحدعشر كوكبا.

وقد أخذ منه بعض العلماء أن إخوة يوسف كانوا أحد عشر ، والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين : أى رأيت الشمس والقمر وهما أعظم الكواكب التى يستضىء بها أهل هذه الأرض خاضعين لى ، وقد فطن والده يعقوب لخطر هذه الرؤيا ، وأن إخوته إذا سمعت منه ذلك حسدته على ذلك الخير المقدّر له ، فقال له : يابنىّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا ، ثم علل ذلك بأن الشيطان عدوّ مبين للانسان ، وهم عرضة لأن يسلط عليهم .

ومنه نعلم أن يعقوب عليه السلام لم يك مؤمنا بعصمة أولاده من حسد أخيهم ، وتدبير المكايد له ، بل كان مشفقا على يوسف أن تحسده إخوته ، وأن يدبروا له مايودى بحياته ، و يقضى عليه ، وذلك وحده كاف فى أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ولا رسلا ، لأن ذلك الحسد الذى ظهر على إخوة يوسف مرض قلبى من شأنه أن لايفارق صاحبه ما دام فى هذه الحياة ، ولو كان ذنب إخوة يوسف معه شيئا وراء الحسد لقلنا انه ذنب وقع قبل النبوّة وفارقهم بعدها ، والأنبياء ليسوا معصومين فى ذلك الحين ، أما وهو مرض نفسىّ يتعلق بالقلب ، ثم هو حقد على أخيهم يوسف لأنه سيكون له شأن من ناحية الرسالة والملك — فمن الصعب أن نوفق بين ذلك المرض و بين النبوّة أو الرسالة بحال من الأحوال ، وكان ذلك وحده كافيا فى أن لايفهم الناس أنهم أنبياء بل هم من عامّة القوم يجرى عليهم ما يجرى على بقية الناس ، فكيف إذا كانت النبوّة أو الرسالة لا تثبت إلا بنصّ قاطع ! ! وأولئك الاخوة لم يرد فيهم نصّ من الكتاب ولامن السنة الصحيحة يدلّ على أنهم أنبياء أو رسل ، و إنما ورد النصّ القاطع بأنهم دبروا ليوسف ما دبروا ، وكادوا له ماكادوا . وكذبوا على أبيهم ما شاء لهم الهوى ، فكيف يكون أولئك الاخوة أنبياء أو رسلا .

---

[١] يوسف . [٢] الشورى .

وقد دلّ تحذير يعقوب ليوسف عليهما السلام أن يقصّ رؤيته على إخوته أنهم كانوا مستعدّين لفهم هذه الرؤيا ، وأنهم فى نهاية أمرهم سيكونون تبعا ليوسف خاضعين له ، وكذلك أبواه سيخضعون له ، وهى من الرؤى الواضحة التى يفهمها كثير من الناس ، ولاسيما إخوة يوسف الذين هم أحد عشر ، وتأويل الشمس والقمر ، وهما أعظم الكواكب بالأبوين واضح جلىّ من شأنه أن يفهمه إخوة يوسف .

(٢) (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) الخ بشارة من نبىّ الله يعقوب عليه السلام لولده يوسف [بناء على وحى سماوى] بأن الله تعالى كما ألهمه هذه الرؤيا العظيمة يجتبيه للرسالة ويعلمه من تأويل الأحاديث الخ ، أو أن تلك البشارة مبنية على فراسة من نبىّ الله يعقوب وقرائن لمحها فى استعداد ولده يوسف . وكأنه يقول لولده : إنى أرجو أن يجتبيك الله ويصطفيك كما اجتباك لهذه الرؤيا التى تدلّ على مستقبل مملوء بعظائم الأمور .

فقوله (وكذلك يجتبيك ربك) أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الأجرام العلوية لك (يجتبيك ربك) يصطفيك على أشراف الخلائق ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة : أى كما سخرت لك الأجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك (ويعلمك من تأويل الأحاديث) توطين لنفس يوسف عليه السلام : أى فتطلع على حقية ما أقول ، والمراد بتأويل الأحاديث تعبير لرؤيا ، إذ هى أحاديث الملك ان كانت صادقة ، وأحاديث النفس أوالشيطان ان لم تكن كذلك ، وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الأنبياء عليهم السلام ، والأوّل هو الأظهر ، وتسمية التعبير تأويلا ، لأنه جعل المرئىّ فى النوم آيلا الى مايذكره المعبر وراجعا اليه ، من الأول ، وهو الرجوع ، وكلمة (تأويل) فى القرآن الكريم يراد منها مايئول اليه الشىء ويرجع إليه ، فاذا قال الله تعالى فى شأن المتشابه من القرآن (وما يعلم تأويله إلا الله) فالمراد ما تئول اليه تلك الآيات فى الواقع من كيفية صفات الله تعالى وكيفية عالم الغيب من الجنة والنار وما فيهما ، فلا يعلم أحد كيفية قدرته وتعلقها بالايجاد والاعدام ، وكيفية استوائه على العرش ، ولا كيفية نعيم أهل الجنة أو عذاب أهل النار ، فليست نار أهل النار كنار الدنيا ، وليست ثمرات الجنة ولبنها وعسلها من جنس المعهود لنا ، وإنما هو شىء آخر يليق بذلك العالم ويناسبه ، وإذا قال الله تعالى (فان تنازعتم فى شىء فردّوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا «٥٩» [1]) فالمراد به أحسن مآلا وعاقبة ، ولذلك فسره مجاهد وقتادة بالثواب والجزاء . والسدّى وابن زيد وابن قتيبة والزجاج بالعاقبة ، وكلاهما بمعنى المآل ، لكن الثانى أعمّ ، لأنه يشمل حسن المآل فى الدنيا ، وإذا قال الله تعالى (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون «٥٢» هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون «٥٣» [2]) فالمراد بتأويله ما يئول إليه ، ولذلك

---

[١] النساء . [٢] الأعراف .

فسره ابن عباس بتصديق وعده ووعيده : أى يوم يظهر صدق ما أخبر به من أمر الآخرة . وقال قتادة : تأويله ثوابه . ومجاهد جزاؤه ، ومثله فى سورة يونس (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله «٣٩») المراد منه مايئول إليه الأمر من ظهور صدقه ، وكذلك يقال فى قوله (ويعلمك من تأويل الأحاديث) أى بيان مائئول إليه الرؤى والأحلام ، وكذلك قوله فى آخر السورة لأبيه يعقوب عليهما السلام (ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) أى هذا الذى وقع من سجود أبويه واخوته الأحد عشر له هو الأمر لواقعى الذى آلت إليه رؤياه المذكورة فى أوّل السورة (إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) فتأويل الرؤيا الاخبار عما تئول إليه وذلك التأويل هو الذى يسمونه (تعبيرا) وهو العبور من ظاهر الرؤيا إلى باطنها ، وأصله من العبر وهو التجاوز من حال إلى حال وخصوا تجاوز الماء بسباحة أو غيرها بلفظ العبور ، وكأن المعبر تجاوز لفظ الرؤية ، وظاهرها إلى عاقبتها وباطنها ، وأخذ من ظاهر اللفظ مايوصله إلى باطنه فيرجع إلى معنى التأويل ، وهو مائئول إليه الرؤيا من الحقائق ، وهو لايخالف من قال ان تعبير الرؤيا تفسيرها ، لأن المفسر يعبر اللفظ إلى المعنى ويتجاوز ظاهر الرؤيا إلى باطنها ، ويفسر مائئول إليه وتنتهى عنده ، و (الرؤيا) بوزن فعلى ما يراه الشخص فى منامه ، وقد تجىء بمعنى الرؤية البصرية على ندور وقلة (ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب) الخ : أى يضم إلى النبوّة المستفادة من الاجتباء الملك ، ويجعله تمة لها و (آل يعقوب) أهله من بنيه وغيرهم (كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق) باتخاذ ابراهيم عليه السلام خليلا ، وإنجائه من النار ، وإعفائه من ذبح الولد الذى هو فلذة كبده ، ونعمته على اسحق بانجائه من الذبح ، وفدائه بذبح عظيم ، واخراج يعقوب والأسباط من صلبه (إن ربك عليم) فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من التعليم المذكور ، وإتمام النعمة العامّة (حكيم) فاعل لكلّ شىء حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

آراء العلماء فى الرؤى والأحلام

(٣) قال المازرى : كثر كلام الناس فى حقيقة الرؤيا وقال فيها غير الاسلاميين أقاويل كثيرة منكرة ، لأنهم حاولوا الوقوف على حقائق لاتدرك بالعقل ولا يقوم عليها برهان ، وهم لا يصدّقون بالسمع ، فاضطربت أقوالهم ، فمن ينتمى الى الطبّ ينسب جميع الرؤيا الى الأخلاط ، فيقول من غلب عليه البلغم رأى أنه يسبح فى الماء ، ونحو ذلك لمناسبة الماء طبيعة البلغم ، ومن غلبت عليه الصفراء رأى النيران والصعود فى الجوّ ، وهكذا إلى آخره ، وهذا وإن جوّزه العقل ، وجاز أن يجرى الله العادة به ، لكنه لم يقم عليه دليل ، ولا اطردت به عادة ، والقطع فى موضع التجويز غلط .

ومن ينتمى إلى الفلسفة يقول : إن صور مايجرى فى الأرض هى فى العالم العلوى كالنقوش ، فما حاذى بعض النقوش منها انتقش فيها ، قال وهذا أشدّ فسادا من الأوّل، لكونه تحكما لابرهان عليه ، والانتقاش من صفات الأجسام ، وأكثر مايجرى فى العالم العلوى الأعراض ، والأعراض

لاينتقش فيها ، قال : والصحيح ماعليه أهل السنة أن الله يخلق فى قلب النائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان ، فاذا خلقها فكأنه جعلها علما على أمور أخرى يخلقها فى ثانى الحال ، ومهما وقع منها على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان ، ونظيره أن الله خالق الغيم علامة على المطر ، وقد يتخلف ، وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة الملك فيقع بعدها مايسرّ ، أو بحضرة الشيطان فيقع بعدها مايضرّ ، والعلم عندالله تعالى. وقال القرطبي : سبب تخليط غيرالشرعيين إعراضهم عما جاءت به الأنبياء من الطريق المستقيم ، و بيان ذلك أن الرؤيا من إدراكات النفس ، وقد غيب عنها علم حقيقتها : أى النفس ، و إذا كان كذلك فالأولى أن لانعلم علم إدراكاتها ، بل كثير مما انكشف لنا من إدراكات السمع والبصر إنما نعلم منه أمورا جلية لاتفصلية .

ثم قال : ثم جميع المرائى تنحصر فى قسمين : الصادقة ، وهى رؤيا الأنبياء ومن تبعهم من الصالحين ، وقد تقع لغيرهم بندور ، وهى التى تقع فى اليقظة على وفق ماوقعت فى النوم ، والأضغاث وهى التى لاتنذر بشىء . وهى أنواع :

(الأول) تلاعب الشيطان ليحزن الرائى كأن يرى أنه قطع رأسه وهو يتبعه ، أو رأى أنه واقع فى هول ، ولايجد من ينجده ، ونحو ذلك .

(الثانى) أن يرى أن بعض الملائكة تأمره أن يفعل المحرّمات مثلا ، ونحوه من المحال عقلا .

(الثالث) أن يرى ماتتحدّث به نفسه فى اليقظة ، أو يتمناه فيراه كما هو فى المنام ، وكذا رؤية ماجرت به عادته فى اليقظة ، أو يغلب على مزاجه ، و يقع على المستقبل غالبا ، وعن الحال كثيرا وعن الماضى قليلا [1] اه .

وقال الشيخ النابلسى فى مقدّمة كتابه « تعطير الأنام فى تعبير المنام » مانصه :

وقد قال بابطال الرؤيا قوم من الملحدين يقولون : إن النائم يرى فى منامه مايغلب عليه من الطبائع الأربعة ، فان غلبت عليه السوداء رأى الأجداث والسواد والأهوال والأفزاع ، وان غلبت عليه الصفراء رأى النار والمصابيح والدم والمعصفرات ، و إن غلب عليه البلغم رأى البياض والمياه والأنهار والأمواج ، و إن غلب عليه الدم رأى الشراب والرياحين والمعارف والمزامير .

وهذا الذى قالوه نوع من أنواع الرؤيا ، وليست الرؤيا منحصرة فيه فانا نعلم قطعا أن منها مايكون من غالب الطبائع كما ذكروا ، ومنها مايكون من الشيطان ، ومنها مايكون من حديث النفس ، وهذه أصح الأنواع الثلاثة . اه .

(٤) وقال الأستاذ الشيخ «طنطاوى جوهرى» فى كتابه الجواهر فى تفسير القرآن :

اعلم أن الرؤى على أقسام :

(القسم الأوّل) ما نشأ من غلبة الدم الناجم من الاكثار من الأغذية الدموية الحارة الرطبة كالطبائخ الدسمة ، والحلواء ، فتهيج الطبيعة ، فتبخر فى الدماغ بخارا حارا رطبا ، فيكون الصداع العظيم ، وفترة الحواس ، وقد يزداد فتحمرّ العين ويكون وجع الحلق وذات الجنب وورم الكبد والطحال والأمعاء والأنثيين ، و يرى فى منامه الرعاف والاحتجام والدم واللعابين والرقاصين .

---

[1] انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ج ١٢ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(القسم الثانى) ماننشأ من غلبة الصفراء الناجة من الاكثار من الأغذية اليابسة كالعسل ولحم الكبش الحولى ونحو ذلك ، فتحترق الطبيعة من الجوف إلى الدماغ ببخار صفراوى غير معتدل ، فيكون صداع فى الرأس وشقيقة وقلة نوم وحرارة اللمس ، وقد يصفر اللون والعين ويكون الفم مرًّا ، ويرى فى منامه النيران والشمس المحرقة والصواعق والحروب ، ولايزال مغتما مهتما .

(القسم الثالث) الرؤيا الناشئة من البلغم الناجم من الاكثار من الأغذية الباردة الرطبة المولدة بخارا رطبا يوقع فترة فى الجسم ورخاوة فى المفاصل وكثرة الريق ولزوجيته وبرد الجسم وقلة شهوة الطعام أوّل النهار ، وقلة العطش وضعف المعدة وبياض البول ، وكثرة النوم والكسل والنسيان . وأن يرى صاحبه فى نومه الأمطار والمياه والأودية والاغتسال والسباحة .

(القسم الرابع) الرؤى الناجة من غلبة السوداء الناشئة من الاكثار من الأغذية السوداوية كالعدس والدخن ولحم البقر والباذنجان فيبتدئ المرض السوداوى بفترة فى البدن وشدّة عطش وقلة نوم ، وقد يطغى المرض إذا لم يتدارك فيكون الجذام والجرب والحكة والفالج والسكتة وخفة الرأس والرعاف والثآليل والناسور والصرع والماليخوليا والقوبا والبهقة والسعال اليابس الخ ، ويرى فى منامه الأهوال والمخاوف والخيالات والظلمة والأشياء السوداء المحرقة ، ويهرب من كلّ أحد ، ويرى الأموات ونحو ذلك . وأكثر مايقع ذلك من أكل الملوحة والحوضة والفول والعدس

(القسم الخامس) أن تكون القوّة المخيلة فى الدماغ مشغولة بصور واردة عليها من الحواس مخزونة فيها ، ومن خصائص هذه القوّة العجيبة أنها تحلل تلك الصور وتركبها كأن تتخيل :

أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد

وكأن تتصوّر إنسانا مقطوع الرأس وهو لايزال حيا .

(القسم السادس) أن تحاكى القوّة المتخيلة المذكورة ماغلب على النفس من منازعها الشهوية الطبيعية كشهوة الطعام وشهوة التزاوج والتناسل ، فان تلك القوّة تخترع الأعاجيب فى المنام ، فتقدّم للنائم الطعام والشراب والأنس والأصحاب والأوانس والغادات مضاهاة ومحاكاة لما يحصل فى العيان .

(القسم السابع) أن تحاكى تلك القوّة ماغلب على النفس قبل من القوّة الغضبية والحمية والعصبية فتخترع له تلك القوّة آلات للقتال ودروعا للنضال وسيوفا وحرابا لملاقاة الأبطال ومدافع لكفاح الأعداء ، فتجد ما كان فى النهار قوّة كامنة فى النفس ظاهرا فى النوم عند تلك القوّة تفتك بأقرانه وتجندل أعداءه وهو منصور فى المنام .

(القسم الثامن) أن يكون البدن هادئا ساكنا لم تغلب عليه الصفراء ولا السوداء ولا الدم ولا البلغم ولا الشهوة البهيمية ، ولا القوّة الغضبية ، ولم تزدحم معدته بالطعام ، فان هذا ربما يرى فى منامه واردات من عالم العقل فترتسم تلك المعانى العالية الواردة عليه ، وتصوّر بصور المحسوسات وقد تكون بديعة جدّا بهية المنظر ، وقد تكون تلك الواردة عليه أقوالا لطيفة ورموزا لها معان اجمالية تخبر بأمر فى الحال أو الاستقبال ، فهذه هى الأقسام الثمانية التى لايخلو منها أو من بعضها أصحاب الرؤى من الناس .

واعلم أيها الذكى أن هذا القول ملخص ما ذكره الفارابى فى علم النفس ، وملخص ماجاء فى علم الطب فى هذا المقام ، فهذا المقام أصوله فى فلسفة الفارابى ، وفى علم الطب ، قد فصلته لك تفصيلا ، ومزجته مزجا جيلا ، وأبنته أيما تبيان . وعلى ذلك تكون الأقسام السبعة وهى حال الصفراء والدم والبلغم والسوداء والصور الواردة من الحواس وغلبة القوة الغضبية والقوة الشهوية الرؤى فيها أضغاث أحلام لاتأويل لها ، و إنما هى نتيجة ماقام بالجسم من الأمزجة والأحوال . فاما القسم الثامن فان له ضروبا شتى وأحوالا مختلفة ، فمنها مايكون واضح الدلالة ، ومنها مايحتاج الى تأويل ، وهذا هو الذى تكون منه الرؤيا الصادقة ، وهى نادرة فى النوع الانسانى ، فأما أكثر الرؤى فانها أضغاث أحلام ، وهى تلك السبع ، والله أعلم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وهذا خير ما اطلعت عليه مما ذكره أهل العلم فى الرؤى والاحلام ، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

ثم قال الأستاذ [هل من علاقة بين الأحلام والحوادث ؟] ونقل عن مجلة علمية فصلا حاولت به المجلة أن تشرح به مسألة الأحلام ، وتثبت أن بينها و بين الحوادث التى تقع حولنا علاقة لا يمكن إنكارها .

فمن ذلك ما رآه الدكتور [دى سرمين] وهو أنه حلم ذات يوم أن ولده وقع فى نار ملتهبة واحترق ، فأخذ يراقب ولده فى اليوم التالى فوجده صحيح الجسم ولكنه أصيب فى اليوم الذى بعده بالتهاب الرئة الحاد ، وتوفى بعد بضعة أيام .

ومنه ما وقع لسيدة من أهالى مدينة [فيلادلفيا] بأمريكا حلمت أن ابنها « وهو رجل كهل » سقط بين عجلات الترامواى وقتل ، فنهضت من نومها مذعورة ، فنامت مرة ثانية ، فتكرر الحلم ، ففى اليوم التالى ذهبت الى [نيو يورك] حيث كان ابنها يسكن ، وما كادت تخرج من محطة [نيو يورك] حتى أبصرت جمهورا من الناس حول رجل ميت دهمه الترامواى ، وكان ذلك الرجل هو ابنها .

ومن ذلك القبيل أن ضابطا إمريكيا يدعى الكابتن [مكجون] عزم أن يذهب هو وولده إلى مسرح [بروكلين] فطلب من إدارة المسرح أن تحجز له ثلاثة أماكن ، وفى الليلة السابقة للمسرح حلم أن نارا عظيمة شبت فى المسرح والتهمته فهلك ثلاثمائة نفس ، فهب من نومه مذعورا ، وأخبر إدارة المسرح أنه عدل عن الذهاب هو وولداه ، وفى تلك الليلة شبت نار هائلة التهمت المسرح كله وهلك بالنار ثلاثمائة نفس بين رجال ونساء ، ومن الناس من استفاد من الأحلام فربح جوائز اليانصيب أو الرهن على الجياد الفائزة فى ميادين السباق .

ثم قال : والحوادث التى من هذا القبيل كثيرة متعددة ، ولكن لا يصعب إرجاع معظمها إلى مبدأ الاتفاق التى تسميه العامة المصادفة إلا إذا حلم المرء أن الرقم الفلانى من أرقام أوراق اليانصيب ربح الجائزة الكبرى ، وفى الواقع ربح ذلك الرقم الجائزة ، فان الربح فى هذه الحالة لا يمكن إرجاعه إلى ناموس الاتفاق ، بل يجب تعليله على وجه آخر .

ثم ختمت المجلة بحثها بقولها ان العلماء يواصلون البحث لمعرفة أسرار الأحلام والوصول إلى

تعليلها تعليلا علميا صحيحا ، ولا بدّ أن ينتهوا الى حلّ يحسن السكوت عليه ، فيثبتوا أن الأحلام ليست مجرّد مشاهد تعرض للنائم بلاسبب منطقى ، بل ان بينها و بين الحوادث علاقة لا سبيل الى إنكارها [١] اه .

تعليل العلماء للرؤيا

(٥) علل العلامة ابن خلدون فى مقدّمته الرؤيا بأن الروح العاقل المدرك فى الانسان انما يمنع من تعقله للمدارك الغيبية حجاب الاشتغال بالبدن ، وقواه وحواسه ، فاذا تخلص عن بعض ذلك الحجاب بالنوم خفت شواغله ، فاستعدّ لقبول ماهنالك من المدارك اللائقة ، وانكشف للروح العاقل من المدارك الغيبية ما هو مستعدّ له .

و يرى ابن خلدون فى الفرق بين الرؤيا والأضغاث — وان كان كلّ منهما صورا وأمثلة فى خيال النائم — أن تلك الصورة ان كانت متنزلة الى الخيال عن طريق الروح العقلى المدرك فهى رؤيا ، وان كانت مأخوذة من الصورة التى أودعت فى الحافظة منذ اليقظة فهى أضغاث أحلام ، ولم يرد ابن خلدون بذلك حصر الأضغاث فى ذلك النوع ، بل ذلك النوع من الأضغاث ، وكذلك يرى ابن خلدون أن الخيال إذا ألقى إليه الروح العاقل ما أدركه صوره فى القوالب المعتادة للحس . فمن ولد أعمى لا يصوّر له الخيال السلطان بالبحر ، ولا العدوّ بالحية ، ولا الانسان بالأوانى ، لأن حسه لم يتعوّد إدراك هذه ، وانما يصوّر له الخيال أمثال هذه فيما يناسبها من جنس مداركه التى هى المسموعات والمشمومات ، ثم قال : وليتحفظ المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه [٢] اه بتصرّف .

وقال فى فتح البارى : ونقل القرطبى عن بعض أهل العلم أن لله تعالى ملكا يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم فيمثل له صورة محسوسة . فتارة تكون أمثلة موافقة لما يقع فى الوجود ، وتارة تكون أمثلة لمعان معقولة ، وتكون فى الحالين مبشرة ومنذرة . قال : أى القرطبى ويحتاج فيما نقله عن الملك الى توقيف من الشرع ، و إلا فجائز أن يخلق الله تلك المثالات من غير ملك .

وقيل : إن الرؤيا إدراك أمثلة منضبطة فى التخيل جعلها الله أعلاما على ما كان أو يكون اه وهو الموافق لما تقدّم عن المازرى من أن الله تعالى يخلق فى قلب النائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان ، فاذا خلقها فكأنه جعلها علما على أمور أخرى يخلقها فى ثانى الحال ، ومهما وقع منها على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان . ونظيره أن الله خلق الغيم علامة على المطر ، وقد يتخلف ، وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة الملك فيقع بعدها ما يسرّ ، أو بحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضرّ ، والعلم عند الله تعالى اه .

وقال القاضى أبو بكر بن العربى : الرؤيا إدراكات علقها الله تعالى فى قلب العبد على يدى ملك أو شيطان إما بأسمائها : أى حقيقتها ، وإما بكناها : أى بعبارتها ، و إما تخليط ، ونظيرها فى اليقظة الخواطر فانها قد تأتى على نسق فى قصة ، وقد تأتى مسترسلة غير محصلة .

---

[١] انظر ج ٧ ص ١٦ — ٢٩ . [٢] انظر ص ٤٥٠ الطبعة الأميرية الثالثة .

هذا حاصل قول الأستاذ أبي إسحق . قال : وذهب القاضي أبو بكر بن الطيب إلى أنها اعتقادات ، واحتجّ بأن الرائي قد يرى نفسه بهيمة أو طائرا مثلا ، وليس هذا إدراكا فوجب أن يكون اعتقادا ، لأن الاعتقاد قد يكون على خلاف المعتقد . قال ابن العربي : والأوّل أولى ، والذى يكون من قبيل ماذكره ابن الطيب من قبيل المثل ، فالادراك انما يتعلق به لا بأصل الذات[1] اه .

ماورد فى صحيح البخارى فى الرؤيا

(٦) قد وضع البخارى فى الرؤيا كتابا سماه [كتاب التعبير] وقد جمع فيه نيفا وأربعين بابا ، وصدّره بحديث: أوّل مابدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، لأنها أصل ذلك الباب ، ثم عقبه بباب رؤيا الصالحين ، وقوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام ان شاء الله آمنين — الى قوله فتحا قريبا) ليرينا أنه كان من وحى الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بعد النبوّة وحى طريقه الرؤيا ، وبحديث الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة .

وقد اختلف الشراح فى معنى ذلك اختلافا كبيرا ، ومما قالوه: انها مدرك من مدارك الغيب ، وهى بهذا الاعتبار جزء من النبوّة ، لأن النبوّة تعتمد الاخبار بالغيب ، ثم حديث الرؤيا الصادقة من الله والحلم من الشيطان .

قال الشراح : ان الرؤيا الصادقة هى الخالية عن الأضغاث ، والحلم هو الأضغاث ، وأضافه الى الشيطان لأنه الذى يخيل بها ولاحقيقة لها فى نفس الأمر ، ولأنها تحزن صاحبها ، وذلك غرض من أغراض الشيطان ، ولذلك أضيفت إليه ، كما حدثنا البخارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرجل إذا رأى رؤيا يحبها فهى من الله وليحمد الله عليها ، وليحدّث بها الناس ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هى من الشيطان . فليستعذ بالله من شرّها ، ولايذكرها لأحد فانها لاتضرّه ، وذلك أدب من آداب الرؤيا ، ثم عرض لحديث لم يبق من النبوّة إلا المبشرات ، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة ، زاد مسلم فى صحيحه : يراها المسلم أو ترى له ، ثم عرض لباب رؤيا يوسف ، ورؤيا ابراهيم عليهما السلام ، ثم باب رؤيا أهل السجون والفساد والشرك ، لقوله تعالى (ودخل معه السجن فتيان) ليرينا أن الرؤيا الصحيحة ، وإن اختصت غالبا بأهل الصلاح ، لكن قد تقع لغيرهم من المشركين أو الفسقة ، نقل صاحب الفتح عن أهل العلم بالتعبير أنه إذا رأى الكافر أو الفاسق الرؤيا الصالحة فانها تكون بشرى له بهدايته الى الايمان مثلا أو التوبة ، أو انذارا من بقائه على الكفر أو الفسق ، وقد تكون لغيره ممن ينسب إليه من أهل الفضل : أى كما تقدّم فى مسلم : يراها المسلم أو ترى له — وقد يرى مايدلّ على الرضا بما هو فيه ويكون من جملة الابتلاء أو الغرور والمكر ، نعوذ بالله من ذلك .

---

[١] انظر الفتح ج ١٢ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

ثم عقب ذلك (بباب) من رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وحديث من رآنى فى المنام فسيرانى فى اليقظة ، وفى رواية فكأنما رآنى فى اليقظة ولايتمثل بى الشيطان ، قال أبو عبد الله البخارى . قال ابن سيرين : إذا رآه فى صورته أى التى كان عليها فى الدنيا .

قال الشراح : المراد من قوله فسيرانى فى اليقظة أنه سيرى تفسير مارأى لأنه حق ، وقوله فكأنما رآنى فى اليقظة : أى هى رؤيا حق لاشك فيها ، ويدلّ له قوله : ولايتمثل بى الشيطان : أى أن الله تعالى حفظ مثاله من أن يتمثل به الشيطان ، فمن رآه فى منامه لم تكن رؤياه من قبيل الأضغاث ، ويدلّ لذلك رواية أخرى للبخارى من رآنى فقد رأى الحق .

ثم وضع البخارى (بابا) لرؤيا الرجل بالليل ، و (بابا) لرؤياه بالنهار ، وساق أحاديثه فى البابين ليرينا أن الرؤيا لاتختص بالليل بل تكون فى النهار كما تكون فى الليل .

طائفة من تأويلات الرؤيا

(٧) روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أنه أتى بقدح من لبن فشرب منه حتى روى ، ثم أعطى فضله عمر ، قالوا فما أوّلته يارسول الله ؟ قال العلم .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم مرّ على عمر بن الخطاب فى النوم وعليه قميص يجره ، قالوا ما أوّلته يارسول الله ؟ قال : الدين .

وروى البخارى أن عبد الله بن سلام رأى فى منامه كأن عمودا نصب فى روضة خضراء وفى رأسه عروة ، وفى أسفله منصف : أى خادم ، فقيل لعبد الله : اصعد عليه . فصعد حتى أخذ العروة . فقصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يموت عبد الله وهو آخذ بالعروة الوثقى .

وروى عن عائشة قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أريتك قبل أن أتزوّجك والملك يحملك فى سرقة من حرير : أى قطعة من أجوده ، فقلت له : اكشف فكشف فاذا هى أنت ، فقلت ان يك هذا من عند الله يمضه .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم رأى وهو نائم أنه أوتى مفاتيح خزائن الأرض فوضعت فى يديه قال أهل التعبير : المفتاح عزّ وسلطان .

وروى أن ابن عمر رأى كأن فى يديه سرقة من حرير لايهوى بها فى مكان فى الجنة الاطارت به إليه ، فقصها على حفصة فقصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ان أخاك رجل صالح .

وروى أنه رئى لعثمان بن مظعون فى المنام عين تجرى فأوّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمله الذى يجرى له .

وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أنه بينما هو على بئر ينزع منها إذ جاءه أبو بكر فأخذ الدلو فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفى نزعه ضعف ، ثم أخذها عمر فاستحالت دلوا عظيما ، فلم ير أحدا من الناس ينزع نزعه — وقد أوّلها العلماء بخلافة أبى بكر وعمر ومايجرى فيهما من الفتوحات الاسلامية على يديهما .

وروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى أنه فى الجنة ، وإن امرأة تتوضأ الى جانب قصر ،

فقال لمن هـذا القصر ؟ فقيل لعمر ، فذكر غيرته ، فولى مدبرا ، فلما بلغ عمر ذلك بكى وقال : أعليك بأبى أنت وأمى يارسول الله أغار ! ! .

قال أهل التأويل : القصر فى المنام عمل صالح لأهل الدين ، ولغيرهم حبس وضيق ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى نفسه فى المنام يطوف بالكعبة ـ قال أهل التعبير : الطواف يدل على الحج وعلى التزويج ، وعلى حصول أمر مطلوب من الامام ، وعلى بر الوالدين وعلى خدمة عالم ، والدخول فى أمر الامام .

وروى عن ابن عمر أنه رأى فى منامه أن ملكين جاآه فى يد كل منهما مقمعة من حديد يقبلان به الى جهنم ، فاستعاذ بالله منها ، وأن ملكا آخر طمأنه ، وقال له : نعم الرجل أنت لو تكثر الصلاة ، فانطلقوا به الى شفير جهنم ، فرأى صفتها وما فيها من رجال ، فقصها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن عبد الله رجل صالح ، فلم يزل بعد ذلك يكثر الصلاة .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أن فى يديه سوارين من ذهب ، فكرههما ، فأذن له فنفخهما فطارا ، فأولهما بكذابين يخرجان . فقال عبيد الله : احداهما العنسى الذى قتله فيروز باليمن ، والآخر مسيلمة . قال فى الفتح : انما أول السوارين بالكذابين . لأن الكذب وضع الشيء فى غير موضعه ، فلما رأى فى زراعيه سوارين من ذهب وليسا من لبسه لأنهما من حلية النساء عرف أنه سيظهر من يدعى ماليس له ، وأيضا فى كونهما من ذهب والذهب منهى عن لبسه دليل على الكذب ، وأيضا فالذهب مشتق من الذهاب ، فعلم أنه شيء يذهب عنه ، وتأكد ذلك بالاذن له فى نفخهما فطارا ، فعلم أنه لايثبت لهما أمر اه .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى كأن امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة ، وهى الجحفة ، فأولها بأنه وباء المدينة نقل إليها ـ قال ابن المهلب هو مما ضرب به المثل ، ووجه التمثيل أن شق من اسم السوداء السوء والداء ، فتأول خروجها بما جمع اسمها .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم رأى أنه هز سيفا فانقطع صدره ، فاذا هوما أصيب من المؤمنين يوم أحد ، ثم هزه مرة أخرى فعاد أحسن ما كان ، فاذا هوما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين .

ثم ختم البخارى ذلك الكتاب بأحاديث النهى عن الكذب فى الرؤيا كحديث «من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل» ، ثم (باب) إذا رأى الرجل ما يكره وساق أحاديث منها إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها ، و إذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هى من الشيطان ، فليستعذ من شرها ، ولا يذكرها لأحد فانها لاتضره [1] .

أصول التاويل

(٨) يقول ابن القيم بعد أن تكلم على ضرب الأمثال فى القرآن الكريم وتوسع فيها ، وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وصرفها قدرا وشرعا و يقظة ومناما ، ودل عباده على الاعتبار

---

[١] انظر ج ١٢ من ص ٢٨٧ ـ ٣٥٨ من الفتح .

بذلك ، وعبورهم من الشيء الى نظيره ، واستدلالهم بالنظير على النظير ، بل هذا أصل عبارة الرؤيا التي هي جزء من أجزاء النبوّة ، ونوع من أنواع الوحي فانها مبنية على القياس والتمثيل ، واعتبار المعقول بالمحسوس .

(ألاترى) أن الثياب في التأويل كالقمص تدلّ على الدين ، فما كان فيها من طول أو قصر أو نظافة أو دنس فهو في الدين ، كما أوّل النبيّ صلى الله عليه وسلم القميص بالدين والعلم ، والقدر المشترك بينهما أن كلا منهما يستر صاحبه ويجمله بين الناس ، فالقميص يستر بدنه ، والعلم والدين يستر روحه وقلبه ، ويجمله بين الناس .

(ومن) هذا تأويل اللبن بالفطرة لما في كلّ منهما من التغذية الموجبة للحياة ، وكمال النشأة وأن الطفل إذا خلى وفطرته لم يعدل عن اللبن ، فهو مفطور على إيثاره على ماسواه .

(وكذلك) فطرة الاسلام التي فطر الله الناس عليها (ومن) هذا تأويل البقر بأهل الدين والخير اللذين بهما عمارة الأرض ، كما أن البقر كذلك مع عدم شرّها وكثرة خيرها ، وحاجة الأرض وأهلها إليها ، ولهذا لما رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم بقرا تنحر كان ذلك نحرا في أصحابه .

(ومن) ذلك تأويل الزرع والحرث بالعمل ، لأن العامل زارع للخير والشرّ ، ولابدّ أن يخرج له ما بذره كما يخرج للباذر زرع مابذره ، فالدنيا مزرعة والأعمال البذور ، ويوم القيامة يوم طلوع الزرع وحصاده .

(ومن) ذلك تأويل الخشب المقطوع المتساند بالمنافقين ، والجامع بينهما أن المنافق لاروح فيه ولاظل ولاثمر ، فهو بمنزلة الخشب الذي هو كذلك ، ولهذا شبه تعالى المنافقين بالخشب المسندة لأنهم أجسام خالية عن الايمان والخير ، وفي كونها مسندة نكتة أخرى ، وهي أن الخشب إذا انتفع به جعل في سقف أو جدار أو غيرهما من مظانّ الانتفاع ، ومادام متروكا فارغا غير منتفع به جعل مسندا بعضه الى بعض ، فشبه المنافقين بالخشب في الحالة التي لاينتفع فيها بها .

(ومن) ذلك تأويل النار بالفتنة ، لافساد كل منهما ما يمرّ عليه ويتصل به ، فهذه تحرق الأثاث والمتاع والأبدان ، وهذه تحرق القلوب والأديان والايمان .

(ومن) ذلك تأويل النجوم بالعلماء والأشراف لحصول هداية أهل الأرض بكلّ منهما ، ولارتفاع الأشراف من الناس كارتفاع النجوم .

(ومن) ذلك تأويل الغيث بالرحمة والعلم والقرآن والحكمة وصلاح حال الناس .

(ومن) ذلك خروج الدم في التأويل يدلّ على المال والقدر المشترك أن قوام البدن بكلّ واحد منهما .

(ومن) ذلك الحدث في التأويل يدلّ على الحدث في الدين ، فالحدث الأصغر ذنب صغير ، والأكبر ذنب كبير .

(ومن) ذلك اليهودية والنصرانية في التأويل بدعة في الدين ، فاليهودية تدلّ على فساد القصد واتباع غير الحق ، والنصرانية تدلّ على فساد العلم والجهل والضلال .

(ومن) ذلك الحديد فى التأويل وأنواع السلاح يدلّ على القوة والنصر بحسب جوهر ذلك السلاح ومرتبته .

(ومن) ذلك الرائحة الطيبة تدلّ على الثناء الحسن ، وطيب القول والعمل (و) الرائحة الخبيثة بالعكس (و) الميزان يدلّ على العدل (و) الجراد يدلّ على الجنود والعساكر والغوغاء الذين يموج بعضهم فى بعض (و) النحل يدلّ على من يأكل طيبا ، و يعمل صالحا (و) الديك رجل عالى الهمة بعيد الصيت (و) الحية عدوّ أو صاحب بدعة يهلك بسمه (و) الحشرات أوغاد الناس (و) الخلد [١] رجل أعمى يتكفف الناس بالسؤال (و) الذئب رجل غشوم غادر فاجر (و) الثعلب رجل غادر محتال مكار مراوغ عن الحق (و) الكلب عدوّ ضعيف كثير الصخب والشرّ فى كلامه وسبابه ، أو رجل مبتدع متبع هواه مؤثرله على دينه (و) السنور العبد والخادم الذى يطوف على أهل الدار (و) الفأرة امرأة سوء فاسقة فاجرة (و) الأسد رجل قاهر مسلط (و) الكبش الرجل المنيع المتبوع .

(٩) ومن (كليات التعبير) أن كلّ ما كان وعاء للماء فهو دالّ على الأثاث ، وكلّ ما كان وعاء للمال كالصندوق والكيس والجراب فدال على القلب ، وكلّ مدخول بعضه فى بعض وممتزج ومختلط فدال على الاشتراك والتعاون أو النكاح ، وكلّ سقوط وخرور من علو الى سفل فمذموم وكلّ صعود وارتفاع فمحمود إذا لم يجاوز العادة وكان مما يليق به ، وكلّ ما أحرقته النار فجائحة وليس يرجى صلاحه ولاحياته (و) كذلك ما انكسر من الأوعية التى لاينشعب مثلها ، وكلّ ماخطف وسرق من حيث لايرى خاطفه ولا سارقه فانه ضائع لايرجى ، وما عرف خاطفه أو سارقه أو مكانه أولم يغب عن عين صاحبه فانه يرجى عوده (و) كلّ زيادة محمودة فى الجسم والقامة واللسان والذكر واللحية واليد والرجل فزيادة خير (و) كلّ زيادة متجاوزة للحدّ فى ذلك فمذمومة وشرّ وفضيحة (و) كلّ ماروّى من اللباس فى غير موضعه المختص به فمكروه كالعمامة فى الرجل ، والخف فى الرأس ، والعقد فى الساق ، وكلّ من استقضى أو استخلف أو أمّر أو استوزر أو خطب ممن لايليق به ذلك ناله بلاء من الدنيا وشرّ وفضيحة وشهرة قبيحة (و) كلّ ما كان مكروها من الملابس فخلقه أهون على لابسه من جديده (و) الجوز مال مكنوز فان تفقع كان قبيحا وشرّا (و) من صار له ريش أو جناح صار له مال ، فان طار سافر (و) خروج المريض من داره ساكتا يدلّ على موته ، ومتكلما يدلّ على حياته (و) الخروج من الأبواب الضيقة يدلّ على النجاة والسلامة من شر وضيق هو فيه ، وعلى توبة ولاسيما ان كان الخروج الى فضاء وسعة ، فهو خير محض (و) السفر والنقلة من مكان الى مكان : انتقال من حال الى حال بحسب حال المكانين (و) من عاد فى المنام الى حال كان فيها فى اليقظة عاد إليه مافارقه من خير وشرّ (و) موت الرجل ربما دلّ على توبته ورجوعه الى الله ، لأن الموت رجوع الى الله ، قال تعالى ثم ردّوا الى الله مولاهم الحق (و) المرهون مأسور بدين أو بحق عليه لله أولعبيده (و) وداع المريض أهله أو توديعهم له دال على موته .

---

[١] من معانيه : الفأرة العمياء .

[وبالجملة] فما تقدم من أمثال القرآن كلها : أصول وقواعد لعلم التعبير لمن أحسن الاستدلال بها وكذلك من فهم القرآن فانه يعبر به الرؤيا أحسن تعبير ، وأصول التعبير الصحيحة إنما أخذت من مشكاة القرآن، فالسفينة تعبر بالنجاة ، لقوله تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة) وتعبر بالتجارة، والخشب بالمنافقين ، والحجارة بقساوة القلوب ، والبيض بالنساء ، واللباس أيضا بهن ، وشرب الماء بالفتنة، وأكل لحم الرجل بغيبته ، والمفاتيح بالكسب ، والخزائن والأموال ، والفتح يعبرونه بالدعاء ومرة بالنصر ، وكالملك يرى فى محلة لا عادة له بدخولها يعبر باذلال أهلها وفسادها ، والحبل يعبر بالعهد والحق والعضد (و) النعاس قد يعبر بالأمن (و) البقل والبصل والفوم والعدس يعبر لمن أخذه بأنه قد استبدل شيئا أدنى بما هو خير منه من مال أو رزق أو علم أو زوجة أو دار (و) المرض يعبر بالنفاق والشك وشهوة الرياء (و) الطفل الرضيع يعبر بالعدو ، لقوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا (و) النكاح بالبناء (و) الرماد بالعمل الباطل ، لقوله تعالى : مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح (و) النور يعبر بالهدى (و) الظلمة بالضلال .

ومن ههنا قال عمر بن الخطاب لحابس بن سعد الطائى وقد ولاه القضاء فقال له يا أمير المؤمنين إنى رأيت الشمس والقمر يقتتلان ، والنجوم بينهما نصفين ، فقال عمر : مع أيهما كنت ؟ قال مع القمر على الشمس ، قال : كنت مع الآية الممحوة ، اذهب فلست تعمل لى عملا ، ولا تقتل إلا فى لبس من الأمر ، فقتل يوم صفين .

وقيل لعابر : رأيت الشمس والقمر دخلا فى جوفى . فقال تموت . واحتج بقوله تعالى : فاذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الانسان يومئذ أين المفر .

وقال رجل لابن سيرين رأيت معى أربعة أرغفة حين طلعت الشمس ، فقال : تموت إلى أربعة أيام ، ثم قرأ قوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا) وأخذ هذا التأويل أنه حمل رزقه أربعة أيام . وقال له آخر رأيت كيسى مملوء أرضه ، فقال أنت ميت ، ثم قرأ (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض) والنخلة تدل على الرجل المسلم ، وعلى الكلمة الطيبة ، والحنظلة تدل على ضد ذلك ، والصنم يدل على العبد السوء الذى لا ينفع ، والبستان يدل على العمل ، واحتراقه يدل على حبوطه لما تقدم فى أمثال القرآن .

ومن رأى أنه ينقض غزلا أو ثوبا ليعيده مرة ثانية فانه ينقض عهدا وينكثه، والمشى سويا فى طريق مستقيم يدل على استقامته على الصراط المستقيم ، والأخذ فى بنيات [1] الطريق يدل على عدوله عنه الى ما خالفه ، واذا عرضت له طريقان ذات يمين وذات شمال فسلك أحدهما فانه من أهلها ، وظهور عورة الانسان له ذنب يرتكبه ويفتضح به ، وهروبه وفراره من شىء نجاة وظفر ، وغرقه فى الماء فتنة فى دينه ودنياه ، وتعلقه بحبل بين السماء والأرض تمسكه بكتاب الله وعهده واعتصامه بحبله ، فان انقطع به فارق العصمة إلا أن يكون ولى أمرا فانه قد يقتل أو يموت .

[فالرؤيا] أمثال مضروبة يضربها الملك الذى قد وكله الله بالرؤيا ليستدل الرائى بما ضرب له من المثل على نظيره ، ويعبر منه الى شبهه ، ولهذا سمى تأويلها تعبيرا ، وهو تفعيل من العبور ،

---

[١] الأباطيل .

كما أن الاتعاظ يسمى اعتبارا وعبرة لعبور المتعظ من النظير الى نظيره (ولولا) أن حكم الشيء حكم مثله وحكم النظير حكم نظيره لبطل هذا التعبير والاعتبار ، ولما وجد إليه سبيل [1] اهـ .

(١٠) وقال الشيخ محمد بن سيرين فى أوّل كتاب [تعبير الرؤيا] ما نصه : اعلم وفقنى الله وإياك إلى طاعته أن الرؤيا لما كانت جزءا من ستة وأربعين جزءا من النبوّة لزم أن يكون المعبر عالما بكتاب الله ، حافظا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، خبيرا بلسان العرب واشتقاق الألفاظ ، عارفا بهيآت الناس ضابطا لأصول التعبير ، عفيف النفس ، طاهر الأخلاق ، صادق اللسان ، ليوفقه الله لما فيه الصواب ، ويهديه لمعرفة معارف أولى الألباب ، فان الرؤيا قد تعبر باختلاف أحوال الأزمنة والأوقات ، وتارة تعبر من كتاب الله ، وتارة تعبر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارة تعبر من المثل السائر ، وربما صرفت عن الرائى الى نظيره أو سميه وقد تئول الرؤية مرّة من لفظ الاسم ، ومرّة من معناه ، ومرّة من ضدّه ، ومرّة من اشتقاقه ، ومرّة بالزيادة ، ومرّة بالنقصان .

فأما التأويل من القرآن فكالبيض يعبر عنه بالنساء ، لقوله تعالى — كأنهنّ بيض مكنون — وكالحجارة يعبر عنها بالقسوة ، لقوله تعالى — ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشدّ قسوة — وكاللحم الطرىّ يعبر عنه بالغيبة ، لقوله تعالى — أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه — وكالمفاتيح فانه يعبر عنها بالكنوز ، لقوله تعالى — وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوّة — فتزيد أمواله لأن الكنوز لا يتوصل إليها إلا بالمفاتيح ، وكالسفينة يعبر عنها بالنجاة ، لقوله تعالى — فأنجيناه وأصحاب السفينة — ولقوله تعالى — فأنجيناه ومن معه فى الفلك — وكالملك يرى أنه قد دخل دارا أو بلدة أو محلة ولم يكن له عادة بالدخول إليها يعبر عنها بحلول مصيبة أو ذلّ ينال أهل ذلك الموضع ، لقوله تعالى — إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها — إلى قوله — أذلة — وكاللباس يعبر عنه بالنساء ، لقوله تعالى — هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ — وأشباه ذلك كثير .

وأما التأويل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكالغراب يعبر عنه بالرجل الفاسق ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه فاسقا ، وكالفأرة يعبر عنها بالمرأة الفاسقة ، لقوله صلى الله عليه وسلم « الفأرة فاسقة » . وسماها أيضا فويسقة ، وكالضلع يعبر عنه بالمرأة أيضا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المرأة خلقت من ضلع أعوج » وأسكفة الباب السفلى : أى عتبته يعبر عنها بالمرأة ، لما روى عن خليل الله ابراهيم عليه السلام أنه قال لولده اسماعيل غير أسكفة بابك ، يعنى زوجته وأشباه ذلك مما لا يعدّ .

وأما التأويل من الأمثال السائرة فكالرجل يرى فى يده طولا فانه يعبر عنه باصطناع المعروف لقولهم : هذا أطول منك يدا أو باعا : أى أكثر عطاء ، وكالاحتطاب يعبر عنه بالنميمة لقولهم : من مشى بين الناس بنميمة فانه يحتطب . وكالمرض يعبر عنه بالنفاق ، لقولهم لمن لايوفى وعده : فلان يمرض فى وعده ، وكالمخطة يعبرعنها بالولد ، لقولهم الذى يشبه أباه هو مخطة الأسد ، وكالذى يرمى

---

[١] انظر جـ ١ من أعلام الموقعين من ص ٢٢٨ — ٢٣٤ ، طبع فرج الله الكردى .

الناس بالسهام والبندق والحجارة يعبر عنه بأنه يذكرهم بسوء ، لقولهم: رمى فلان فلانا وقذفه، وكالرجل الذى يرى أنه يغسل يده بالأشنان ونحوه كالصابون يعبر عنه بالاياس من الشيء ، لقولهم غسلت يدى بالأشنان منك : أى قد أيست من خيرك ، وكالكيس يعبر عنه بالرجل العزيز فى قومه المنيع فيهم وأشباه ذلك مما لا يعدّ .

وأما التأويل بظاهر الاسم فكرجل اسمه الفضل فانه يعبر عنه بالفضل ، وراشد يعبر عنه بالرشد ، وسالم يعبر عنه بالسلامة وشبه ذلك .

وأما التأويل بالمعنى فمثل النرجس والورد إذا عبر بهما لمن يسأل عنهما أو من ينسبان إليه يعبر عنهما بقلة البقاء ، والآس بالضدّ لبقائه ونضارته وأشباه ذلك .

وأما التأويل بالضدّ فمثل البكاء يعبر عنه بالفرح مالم تكن معه رنة أو صوت أو شق جيب ، والفرح والضحك والرقص يعبر عنه أنه حزن وهم وغم .

ومثل الرجلين يقتتلان أو يصطرعان فان المصروع هو الغالب ، ومثل الرجل يرى أنه يحتجم فانه يكتب عليه شرط ، أو يرى أنه يكتب عليه شرط فانه يحتجم .

ومثل الرجل يرى أنه يدخل قبرا فانه يسجن أو يرى أنه يسجن فى موضع مجهول الأهل والهيئة فانه يقبر إذا لم يكن يرى أنه قد خرج من ذلك الموضع .

ومثل الحرب يعبر عنه بأنه تهجم ، وان رأى عدوّا هجم فانه سيل يسيل .

ومثل الجراد يعبر عنه أنه جند، والجند جراد ، وأشباه ذلك كثيرة لاتحصى ، وأما الجراد فيعبر عنه بمال مكنوز مالم يسمع معه قعقعة فهو خصومة ، وفى الشعر أنه مال وزينة ، فان سال على الوجه أو كثر على الخدّ فهو غمّ وهمّ ، وقيل انه كسوة ، فان كان مكفوفا فهو كلام سوء يرمى به ولايقدر على دفعه ، ومن رأى أن له ريشا وجناحين فانه مال ورياش ، فان طار بهما سافر ، ومن رأى أن يده قطعت فاحتملها و بقيت معه فهو أخ أو ولد يستفيده ، فان فارقته فهى مصيبة له فى أخ أو ولد ، وفى المريض يرى أنه صحيح يخرج من بيته ولا يتكلم فانه يموت ، وان تكلم يبرأ ، وفى المقامات أنها نساء غير عفيفات ، مالم تختلف ألوانها ، و إن كانت بيضاء وسوداء فهى الأيام والليالى ، وفى السمك ان عرف عدده فهو نساء ، و إن لم يعرف فهو مال وغنيمة ، وأشباه ذلك كثيرة .

وأما اختلاف الناس وهيآتهم فقد تختلف الرؤيا باختلاف ذلك مثل الرجل يرى أنه مغلول اليد أو العنق ، فان كان الرجل سيماه الخير والدين فهو صلاح فى حقه واجتناب الشرّ والفساد ، و إن كان سيماه ضدّ ذلك فهو كثير المعاصى من أهل النار ، أجارنا الله منها بكرمه آمين .

وأما اختلاف الأوقات فمثل الرجل يرى أنه راكب فيلا ، فان كان ذلك ليلا نال أمرا جسيما كامل المنفعة ، و إن كان نهارا طلق زوجته اه .

وقال الشيخ ابن خلدون فى مقدّمته . ثم ان علم التعبير علم بقوانين كلية يبنى عليها المعبر عبارة مايقصّ عليه وتأويله كما يقولون البحر يدلّ على السلطان ، وفى موضع آخر يقولون البحر يدلّ على الغيظ ، وفى موضع آخر يقولون البحر يدلّ على الهمّ والأمر الفادح ، ومثل مايقولون الحية

تدلّ على العدوّ ، وفى موضع آخر يقولون هى كاتم سرّ ، وفى موضع آخر يقولون تدلّ على الحياة وأمثال ذلك ، فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ، و يعبر فى كلّ موضع بما تقتضيه القرائن التى تعين من هذه القوانين ماهو أليق بالرؤيا ، وتلك القرائن منها فى اليقظة ومنها فى النوم ، ومنها ماينقدح فى نفس المعبر بالخاصية التى خلقت فيه ، وكلّ ميسر لما خلق له ، ولم يزل هذا العلم متناقلا بين السلف ، وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء ، وكتب عنه فى ذلك القوانين ، وتناقلها الناس لهذا العهد ، وألف الكرمانى فيه من بعده ، ثم ألف المتكلمون والمتأخرون وأكثروا ، والمتداول بين أهل الغرب لهذا العهد كتب ابن أبى طالب القيروانى من علماء القيروان مثل الممتع وغيره ، وكتاب الاشارة للسالمى ، وهو علم مضىء بنور النبوّة للمناسبة بينهما كما وقع فى الصحيح والله علام الغيوب [1] اه .

يوسف عليه السلام

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ [2] لِلسَّائِلِينَ «٧» إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُبِينٍ «٨» اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ [3] أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَٰلِحِينَ «٩» قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ [4] الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَٰعِلِينَ «١٠» قَالُوا يَٰأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَٰصِحُونَ «١١» أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ «١٢» قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ «١٣» قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَٰسِرُونَ «١٤» فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ «١٥» وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ «١٦» قَالُوا يَٰأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ «١٧» وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ

---

[١] ص ٤٥٢ الطبعة الأميرية الثالثة . [٢] عبر وعظات . [٣] ألقوه فى أرض منكرة تسلم لكم محبة أبيكم . [٤] ماغاب منه عن الناظر وأظلم من أسفله « السيارة » المارّة .

أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ «١٨» وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ (١) فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً (٢) وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ «١٩» وَشَرَوْهُ (٣) بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّٰهِدِينَ «٢٠» وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَٰهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَٰهُ (٤) عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ (٥) عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٢١» وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «٢٢» يوسف

شرح وعبرة

(١) (لقد كان فى يوسف و إخوته آيات للسائلين) أى لقد كان فى قصة يوسف و إخوته علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته فى كلّ شىء (للسائلين) أى المفكرين الذين من شأنهم أن يسألوا عن الأمور و يفكروا فيها ، وفيها من العبر ما يتسلى به رسول الله صلى الله عليه وسلم على ايذاء قريش له ، لأنه إذا عرف مافعله إخوة يوسف به ـ ويجمعهم به أب واحد ـ وأنهم دبروا له ما دبروا لمجرّد أن يعقوب عليه السلام كان يختصّ ولده يوسف وأخاه بشىء من العطف والحنان ـ إذا عرف الرسول ما فعله أولئك الاخوة بأخيهم مرضاة لعامل الحسد فى قلوبهم فانه لايحزن من عمل قريش الذين ناصبوه العداوة وصنعوا معه من صنوف الايذاء مالا يليق ولاينبغى .

(إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منا ونحن عصبة إنّ أبانا لفى ضلال مبين) .

فهم المفسرون أن ذلك الأخ كان أخا من الأمّ ليوسف ، أما هم فكانوا إخوة من الأب فقط والآية ترينا السبب الذى حمل إخوة يوسف على حسده ، وقولهم (ليوسف) بلام القسم إشارة إلى أنهم تأكدوا من أبيهم ذلك الايثار (ونحن عصبة) جماعة أقوياء فينا الكفاية والمنفعة ، فنحن أولى بهذه المحبة من صغيرين لا كفاية فيهما ولا نفع ، وفاتهم ما قاله بعض فصحاء العرب لكسرى حين سأله : أىّ بنيك أحبّ إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يؤوب ، والمريض حتى يبرأ .

و يوسف كان صغيرا ، وفوق ذلك كانت تظهر عليه مخايل النجابة والذكاء ، وقوّى ذلك الرؤيا العجيبة الدّالة على مستقبل باهر كما نسوا أن مسألة المحبة قد لا يكون للانسان كسب فيها ، فقد يكون للرجل ولدان ولكنه يشعر بمحبة لأحد الولدين فوق محبته للآخر ، وان كان الغالب

---

[١] الذى يرد الماء ليستقى للقوم . [٢] أخفوه على أنه متاع للتجارة . [٣] باعوه بثمن ناقص عن قيمته . [٤] منزله ومقامه ، والمراد تفقديه بالإحسان . [٥] لا أحد يمنعه مما يشاء .

أن المحبة للأولاد فى الكبر تعتمد الخصائص والمزايا ، فمن كان مطيعا لوالديه كانت محبتهما له أكثر ومن كان فيه نجابة وذكاء وحرص على مصلحته ومصلحة أبويه وما إلى ذلك كان إقبال أبويه عليه أكثر لهذه الأسباب ، ولا بدّ أن يكون يعقوب كان حبه ليوسف إلهاما من الله تعالى ، أو لما رأى فيه من الخصائص مالم ير فى غيره من بقية إخوته ، فلاذنب له فى هذه المحبة ، وعلى فرض أن له ذنبا فما ذنب يوسف وأخيه فى أن يحبهما أبوهما يعقوب ؟ وهل يستطيع أن يقول لأبيه : انزع من قلبك حبى و إشفاقك علىّ ، وسوّنى باخوتى فى المحبة ؟ هذا ما لا يستطيعه يوسف ولا سبيل إليه ، ولا ذنب له فيه ، ولكن الحسد وحبّ الايثار يحملان إخوة يوسف على أن يكيدا ليوسف وأخيه ذلك الكيد ، و يدبرا لهما ذلك التدبير .

وقد أوجد الله فى الانسان غريزة الحسد لطلب المجد والرفعة وعلوّ الشأن ، وليسابق الانسان غيره فى المفاخر والفضائل والمجد ، فيكثر العمل و يزداد العمران ، وهو الذى يسمى [بالغبطة] ولكنّ الانسان أساء فى استعمال ذلك الخلق ، وطغى فى تصريفه والانتفاع به ، فأخذ يعمل على إزالة النعمة والفضل عن المحسود ، و بذلك لحقه من الذمّ وعقاب الله ما لحقه ، و يظهر أن الحاسد الذى يتمنى زوال نعمة الغير ، و يعمل لذلك ، يحسّ من نفسه انحطاطا عن المحسود ، وأنه لا قبل له بمجاراته فى وسائل النعمة ، وطرائق الفضل ، وأن الطريق المألوف لتلك المجاراة يكلفه من الجهد والمشقات ما لا قبل له به ، وأنه لذلك أراد أن يختصر على نفسه الطريق ، و يصل إلى غايته بدون أن يكلف نفسه مشقة أوعناء ، فعمل على أن يفتك بالمحسود ، و يحول بينه و بين الحياة ، و بذلك يصل إلى أمنيته من طريق يراها سهلة ، ولكنها محفوفة بالأخطار والمخاوف .

فقد كانت عاقبة الحسد من إخوة يوسف إقدامهم على الكذب ، و إلقاء أخيهم يوسف فى ذلّ العبودية ، و إبعاده عن أبيه المشفق ، و إلقاء أبيهم فى الحزن الدائم والأسف العظيم .

والشأن فى الحسد أن لا يكون إلا بين المتشاركين فى حال : كالجار والعبد والقريب ، والمشارك لك فى صناعة أو تجارة أو زراعة أو إمارة أو علم أو سنّ ، أو المقيم معك فى مدرسة أو منزل أو شارع ، وكلما ارتفع صيت الانسان حسده من يشاركه فى ذلك الصيت ، وترى العالم لا يودّ أن يشاركه فى ذلك المجد أحد ، و يزداد الحسد كلما ازداد الصيت وحسن الذكر (إنّ أبانا لفى ضلال مبين) خطأ بين فى تدبير أمر الدنيا وكيف يؤثر حبّ يوسف علينا مع صغره وعدم نفعه ونحن عصبة نقوم بمصالحه من أمر دنياه ومواشيه .

(٢) (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) نزول على طاعة داعى الحسد ، وشروع فى قضاء شهوتهم فى يوسف ، وكأن ذلك الرأى كان محل وفاق منهم إلا الذى قال (لاتقتلوا يوسف) (أو اطرحوه أرضا) منكورة مجهولة بعيدة عن العمران (يخل لكم وجه أبيكم) يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم الى غيركم ، فالمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها ، وينازعهم إياها ، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه ، ويجوز أن يراد بالوجه الذات ، كما قال تعالى (ويبقى وجه ربك « ٢٧ » [1]) ذلك هو الذى

---

[١] الرحمن .

يحملهم على أن يكيدوا ليوسف و يمكروا به ، وهو أن تسلم لهم محبة أبيهم ، ويخلو لهم وجهه ، فلا يلتفت الى غيرهم ، ويختصهم بالعطف والرعاية ، ولوصح هذا سببا للحسد لساغ للمرأة أن تقتل ضرتها ليخلو لها وجه الزوج ، وللتلميذ أن يقتل زميله ليخلو له وجه أستاذه ، وللموظف فى عمل من الأعمال أن يفتك بأخيه فى ذلك العمل ليخلو له وجه رئيسه ، ولبطانة الملك أن يقتل صاحبه ليخلو له وجه الملك ، والأمر الواقع أن الناس قد غلب عليهم ذلك الخلق : خلق الحسد المذموم وأغضبوا به ربهم وخالقهم ، والذى يزين لهم ذلك العمل الشيطانى هو أن يخلو لهم الوجه ، و يستأثروا بالمنفعة ، وأنهم يتأسون باخوة يوسف فى كيدهم ومكرهم بأخيهم ، ولافرق بين ماتعمله الناس و بين اخوة يوسف إلا أشكال ومظاهر ، أما الجوهر فهم متفقون فيه ، ذلك أن القتل حسى ومعنوى ، أو بعبارة أخرى مادّى وأدبى ، فاخوة يوسف اتفقوا فى أوّل الأمر على قتل يوسف قتلا ماديا ، أو مايئول الى ذلك القتل من وضعه فى أرض مهجورة لا أمان الذى يعيش بها ، ثم لما أشار عليهم واحد منهم بأن القتل عظيم وحسن لهم إلقاءه فى قعر الجب أجابوه الى ماقال .

أما القتل الفاشى اليوم فى المتنافسين فهو قتل أدبى ، ألا ترى الى الرجلين وقد وليا عملا من الأعمال يكيد خبيث النفس منهما للآخر ، ويدبر له من وسائل الفتك مالايعلم حدّه إلا الله تعالى ليخلو له وجه الرئيس ، و يستأثر بالحظوة منه والمكانة عنده ، ولاسيما إذا كان الرئيس صاحب نفوذ وسلطان ، لأنه يرى زميله مشاركا له فى تلك المحبة ، أو يمتاز عليه فيها ، فتسوّل له نفسه أن تختلق على صاحبه المفتريات ، و يدسّ بينه و بين ذلك الرئيس حتى تسوء بينهما العلاقات ، وقد ينتهى الأمر بابعاد ذلك الزميل من العمل الذى يعمله فيه ان لم يكن بفصله منه ، وذلك قتل أدبىّ سببه حرص الانسان الظالم على أن يخلو له وجه رئيسه .

ثم ألا ترى ذلك الخلق خلق الحسد فاشيا فى بطانات الملوك والأمراء كل يريد أن يكون موضع السرّ ومكان الحظوة والرضا ، ولا يسمح لزميله أن يظفر بتلك المنزلة ، وهو قادر على أن يحول بينه و بينها ، ولذلك تجدهم أحزابا وشيعا ، كلّ حزب يكيد للآخر ويدسّ له ، و يعمل على إسقاطه والتنكيل به ، إلا من كان له خلق متين ، ودين صالح ، فانه لايسمح لنفسه بذلك العمل الخبيث ، وقليل ماهم ، وذلك الصنف من البطانة لاتلبث مع الملوك إلا قليلا ، لأنها لا تستطيع أن تعيش فى جوّمملوء بالدسائس، كمالاتستطيع أن تجارى أصحاب الأهواء والشهوات، فتحاربهم بسلاحهم، وتناضلهم بمثل مايناضلون به ، ذلك شىء من العبرة فى يوسف واخوته وماقصه الله علينا من عملهم وسيرتهم.

نرجو أن لانكون ممن تأسى بأولئك الاخوة فى ذلك الحسد المذموم الذى جرّ عليهم من غضب الله وسخطه ماجرّ ، وأن يكون حسدنا لغيرنا ممن فضله الله علينا فى العلم والفضل هو الغبطة لهم ، وتمنى مثل مالهم ، وأن لايكون هذا التمنى مما يمقته الله تعالى و يبغضه ، بل يكون تمنيا للخير مع الأخذ فى أسبابه والعمل على الوصول إليه ، وأن يكون موقفنا ممن أعطاه الله مالا أو جاها موقف الراضى بما أعطاه الله وقسمه ، المطمئن لقول الله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا [1] ورحمة ربك

---

[1] يسخر غنيهم فقيرهم .

خيرمما يجمعون «٣٢» ولولا أن يكون الناس أمّة واحدة لجعلنا (١) لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون «٣٣» ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون «٣٤» وزخرفا وان كلّ ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين «٣٥» (٢)) .

(وتكونوا من بعده قوما صالحين) الضمير ليوسف عليه السلام ، أو للقتل الذى يدلّ عليه قوله (اقتلوا يوسف) والمراد بكونهم صالحين صلاح دنياهم وانتظام أمورهم بخلوّ وجه أبيهم لهم ، أو (صالحين) تائبين الى الله تعالى عما جنيتم ، وما أشبه هذا بقول الفسقة إذا أنت أردت أن تردعهم عن الفسق ، وتحول بينهم و بين الفجور : نتوب الى الله بعد أن نمتع أنفسنا و باب التوبة مفتوح .

وهذا إمعان فى المعصية . وكأنهم أخذوا على الله عهدا أن يبقيهم الى مابعد المعصية ، وأن يمهلهم حتى يتمكنوا من التوبة إذا كانوا يريدونها ، وماعلموا أن الموت قد يفجأهم فلا يمكنون من توبة ، ولا يوفقون لانابة ، وهنالك يندمون ولاينفعهم الندم ، على أن ذلك القول ليس من شأنه أن يصدر من رجل حريص على التوبة ، و إنما يصدر من رجل لايبالى أعصى الله أم أطاعه ، أرضاه أم أسخطه ، و إلا فكيف يحرص على التوبة من يقدم على عصيان الله تعالى راضيا مختارا ولاهمّ له إلا إرضاء شهوة نفسه ، معتمدا على أن يصلح مابينه و بين الله بعد ذلك العصيان .

والشأن فى المؤمن أن يكون خائفا وجلا من عصيان الله تعالى ، ولايقع فيه إلا لأسباب وقتية جاهلة ، و بزوالها تزول المعصية كالرجل الطيب الخلق الوادع لايسبّ أحدا أو يشتمه إلا إذا طرأ سبب قاهر كأن أغضبه أحد أو حرك فيه داعية الانتقام ، فوقع منه على خلاف العادة سبّ أو لعن ، فان ذلك الحدث النادر لايخرج عن أن يكون طيب الخلق وادع النفس (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما «١٧» (٣)) وكذلك يقال إذا قلنا المراد من قوله (صالحين) أى يصلح مابينكم و بين أبيكم بعذر تمهدونه فانه تعليل بالأمانىّ ، وكأنهم يتغفلون أباهم يعقوب عليه السلام بذلك القول فيما بينهم ، و يقولون نعمل بيوسف مانعمل ، و بعد ذلك نصالح أبانا ونرضيه ، وهو شىء هين ، وما دروا أن ذلك العمل سيجرّ عليهم مغارم ، وأن أباهم سيتألم منهم ألما لايحدّ ، وستسوء العلاقة بينهم و بينه حتى لا يكون فيها شىء من الصلاح ، ولكنّ الشيطان يهوّن على الانسان المعصية ، و يريه أن الخلاص من آثارها أسهل شىء على النفس ، ومن شأنه دائما أنه إذا زين للرجل سوءا ينسيه عاقبته التى تحلّ به ، و يريه أنه من السهل عليه الفرار منه ، فاذا كان سارقا أراه أنه فى استطاعته أن لا يعلم به أحد ، واذا اعترضه أحد فى الطريق فتك به وخلص منه ، واذا زين له زنا أراه أن فى استطاعته أن يعمل ذلك العمل وهو بعيد عن الرقباء حتى لايفضح أمره ، واذا زين له القتل أوهمه أنه قلّ أن تتوفر عليه شهادة الشهود حتى يقتل فى ذلك القتل ، وهكذا وهكذا .

---

[١] أمة واحدة أى فى الكفر . [٢] الزخرف . [٣] النساء .

(٣) قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف) الخ : أى إن ذلك القائل وهو واحد منهم لم يسمه الله لنا لأن العبرة لا تتوقف على معرفة اسمه ـ قد خالف إجماعهم واستعظم القتل ، وأشار بالقائه فى غيابة الجب : أى قعره ، سمى به لغيبو بته عن العيون ، والجبّ : البئر الكبيرة التى لم تبن ، وسمى بذلك لأنه جبّ : أى قطع ولم يطو (يلتقطه بعض السيارة) يأخذه من البئر ويرفعه منه بعض الذين يسيرون فى الأرض (إن كنتم فاعلين) أى إن كنتم مصرّين على عمل يتعلق بيوسف ، ويشير بهذا التعليق إلى أنه متألم من ذلك العمل ، ولكنه يشير بذلك لأنه أقلّ أثرا من القتل ، وفيه توفيق بين أغراض إخوة يوسف وبين مصلحته بوضعه فى ذلك المكان علّ بعض المارّة يلتقطه فيحفظ حياته .

ومنه نعلم أن القوم أو الجماعة إذا قسوا وغلظت منهم الأكباد لانعدم أن نجد فيهم من رقّ قلبه ، وغلب عليه الاشفاق ، فاخوة يوسف أصرّوا على قتل أخيهم أوما يكون ذريعة إلى ذلك القتل ، لكنّ واحدا منهم أشار عليهم بعدم القتل رجاء أن يكون فى ذلك الرأى مصلحة ليوسف وإنقاذ لحياته ، ويظهر أن داعى الشفقة قد تغلب على داعى الانتقام لأنهم إخوة قبل كلّ شىء ، فنزلوا على رأى ذلك القائل ، وعدلوا عن قتله (قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون) اعتراف منهم بأن يعقوب عليه السلام كان يحسّ منهم بما يوجب عدم أمنهم عليه ، فأخذوا يسألونه عن السبب ويعجبون منه : أى لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه ، وذلك قوله (وإنا له لناصحون) يحاولون أن ينزلوه عن رأيه فى حفظه منهم ، والحيلولة بينهم وبينه .

ثم أخذوا يرغبونه بما يحببه فى تركه لهم ، فقالوا (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) يريدون أنه يشترك معنا فى التمتع بأكل الفواكه ونحوها ، من الرتعة . وهى الخصب والسعة ، ويشاركنا فى الألعاب التى تعوّدناها بالاستباق والصيد والركض وغير ذلك (وإنا له لحافظون) من أن يناله شىء من الأذى ، وقالوا ذلك بأسلوب المؤكد لأن يعقوب كان شديد الحرص على ولده يوسف وكان سيئ الاعتقاد فى إخوته ، فبالغوا فى دعوى حرصهم عليه ، فقالوا [أوّلا] وإنا له لناصحون و[ثانيا] وإنا له لحافظون .

(قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) .

أراهم أن ذهابهم بيوسف يحزن له ، ويخشى من تركه معهم أن يأكله الذئب فى وقت يغفلون عنه فيه .

ومنه نعلم أن يوسف كان صغيرا فى ذلك الوقت ، لأن الذى يخشى عليه من الذئب هو الصغير والذى يغفل عنه إخوته ويكون معرّضا للخطر لهذه الغفلة هو الصغير . أما تحديد سنه فى ذلك الوقت فلا سبيل إليه إلا بوحى عن المعصوم . وهنا تتجلى شفقة الآباء على أبنائهم الصغار وحنانهم عليهم فى وقت الضعف ، ولو علم الأبناء ما تقاسيه الآباء فى سبيل حرصهم على حياتهم ما فكر ولد فى عقوق والديه ، وما تأفف منهما عند الكبر والضعف عن الكسب ، وهذه الشفقة التى يضعها الله تعالى فى قلوب الوالدين هى لحكمة بالغة وغايات سامية ، وهى بقاء النسل وعمارة هذه الحياة ، ولولا تلك الشفقة ، وذلك العطف البالغ لمات الأبناء جوعا ، وتركوا للطوارئ تفعل بهم ماتفعل ،

وتعرّضوا لأخطار لا قبل لهم بها ، وهلكوا من الجهل وسوء التربية ، ولكن حكمة الله تعالى قضت بأن يجعل فى قلوب الآباء ذلك الحنان والعطف وتحت تأثير هذه العوامل تعيش الأبناء ، وتربى التربية الصالحة ، ويضحى فى سبيل حياتهم الصالحة ومستقبلهم المرجو من شقاء الأبوين مايضحى، ولولا أن هذه العاطفة التى أودعها الله فى الأبوين قد يكون معها جهل الأبوين بوسائل السعادة للأبناء — لآتت هذه العاطفة أكلها كلّ حين باذن ربها ، وأثمرت ثمرتها الصالحة ، ولكن الجهل فى كثير من الآباء يجعل هذه العاطفة شرّا مستطيرا على الأبناء ، وخطرا على أخلاقهم وحياتهم .

ألا ترى الى الأمّ الجاهلة بوسائل التربية كيف تعطى ولدها من الأطعمة الغليظة ما يفسد معدته ، ويجعل حياته ضعيفة ضئيلة ، وبذلك يكون مستعدّا للأمراض معرّضا للآفات ، بل قد نرى من بعض الأمّهات الجاهلات من تكون حائلا بين الولد وبين شفائه إذا أوجد الطبيب له من الأدوية ماتعود به صحته ، وماحملها على ذلك كراهتها لصحة ولدها ، وإنما هو الجهل يريها النافع ضارّا ، والضارّ نافعا ، وقد يصاب الولد بمرض خبيث يوجب على أبويه أن يذهب به الى مستشفى من المستشفيات العامّة حتى لا تنتشر العدوى فيمن يتصل به من إخوته وأبويه ، فتقف الأمّ الجاهلة أو الأب الجاهل حجر عثرة فى سبيل نقله من البيت وإسعافه بالعلاج الناجع حيث المستشفيات العامّة المستعدّة لمثل هذه الأمراض ، فان وجوده بالمستشفى ومعه أطباء كثيرون فيه استعداد للطوارئ ومضاعفات المرض ، أما البيوت فانها لم تعدّ لمثل ذلك ولا سيما إذا كانت بيوت فقراء ، فانها لم تبن على قواعد الصحة ، ولم يتوفر فيها من الهواء الطلق ونظافة البقعة ما يساعد المريض على شفائه من المرض ، بل هى بما اشتملت عليه من القذارة ورداءة الموقع وخبث الهواء تضاعف المرض ، وتحول دون الشفاء ، كلّ ذلك من جهل الآباء وتحكيم العاطفة تحكيما أعمى .

ثم قد نرى من النساء الجاهلات حيلولة بين الولد وبين تربيته لأن أستاذه قسا عليه يوما ، فتكون تلك القسوة سببا فى حرمانه من التعليم ، وبقائه فى ظلمات الجهل والفساد ، وقد يتعلم الولد تعليما ناقصا ثم تريد الحكومة أن تكمل له التعليم وترسله فى بعثة الى بلد أجنبى ، فيكون الحائل بين الولد وذلك الخير أمّه الجاهلة حرصا منها على مصلحة ولدها فيما تزعم ، وخوفا عليه من [الغربة] والذنب فى ذلك كله لم يكن على الأم وإنما هو على من أهملها وتركها بدون تربية حتى نشأت على ذلك الجهل الفاضح ، وتحكمت فى بنيها ذلك التحكم باسم العاطفة الجاهلة ، لاباسم الحق والانصاف ، ولو أنها تعلمت لتصرّفت تصرّفا معقولا ، فلم تتغلب عاطفتها على عقلها ، بل سارت مع العقل جنبا الى جنب ، وخافت على ولدها فى موضع الخوف ، وأمنت فى موضع الأمن ، وشجعته على الأسفار ، وغرست فى نفسه محبة المجد ، والاستهانة بالمشاق والعقبات . ومتى يمنّ الله علينا بتلك الأمّ وذلك الوالد ؟ ومتى تكن الآباء قدوة صالحة للأبناء ، ومثالا يحتذى فى الخير والفضيلة والشجاعة الأدبية ؟ .

نسأل الله أن يجعل ذلك الزمن قريبا ، وأن يمهد لنا أسباب السعادة ووسائل الحياة الحقة .

(قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) يريدون أن يؤكدوا لأبيهم يعقوب

عليه السلام أنه لايمكن أن يتسلط عليه الذئب الذى تخشاه ، لأنهم جماعة أقوياء قادرون على دفع الذئب عنه ، ولو حصل ذلك لكانوا جماعة خاسرين وضعفاء لا يستطيعون حفظ مواشيهم ، ولا حراسة أموالهم ، وأىّ خسارة أكبر من أن يتهاونوا فى أخيهم حتى يعدو عليه الذئب ؟

اعتذر لهم نبىّ الله يعقوب بأمرين : [الأوّل] قوله (إنى ليحزننى أن تذهبوا به) . [الثانى] قوله (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) . وقد أجابوا أباهم عن الثانى ، أما الأوّل فأعرضوا عنه ، لأن حزن يعقوب عليه السلام على ولده هو الذى كان يغيظهم ، فكان من المعقول أن يعيروا ذلك العذر آذانا صما ولم يجيبوا أباهم عنه .

(٤) (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجبّ) الخ جواب لما محذوف تقديره أقدموا على فعلهم ، وقد أكثر المفسرون فيما حصل من يوسف عند إلقائه فى الجبّ من أحاديث البكاء والامتناع وغيرها ، ونحن نمسك عنها لأنه لا طريق لاثباتها إلا خبر المعصوم ، وليس عندنا خبر صحيح فيها (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) أى ألهم الله يوسف ليخبرن إخوته بصنيعهم هذا به بعد اليوم ، وهم لا يشعرون عند إخبارهم بأنك يوسف ، أو وهم لايشعرون بما أوحيناه إليك ، والقصد من هذا الالهام تأنيس يوسف وتقوية قلبه وهو فى ظلمة الجبّ ، و بشارته بما يئول إليه أمره من الخلاص من هذه الشدائد والمحن ، وأنه سيستولى عليهم و يصيرون تحت قهره وسلطانه ، ولله هذه البشارة فى ذلك الوقت العصيب ، ما أبردها على قلب يوسف ، وما أحوج يوسف إليها ، انها بشارة تهوّن عليه المصاعب ، وتشدّ قلبه على الصبر ، وتعطيه قوّة معنوية تجعل الصعب أمامه سهلا ، وتتحوّل به الظلمة نورا ، والشدّة رخاء ، والوحشة أنسا ، كيف وهى بشارة من خالق يوسف وربّ يوسف و إخوته ، يريه فيها أنه سيأتى عليه وقت يطلع فيه إخوته على ما كان منهم مع أخيهم ، وأنه سيخلصه من هذه الشدائد مرموقا بعناية الله ، مكنوفا بحياطته ، ومن ظفر بهذه البشارة فهو جدير بأن يرضى بكلّ ما يلقى من شدائد ، وما يعمل به من مكروه .

وان عظماء الرجال ليستعذبون الموت ، و يستهينون بالتغريب والنفى فى سبيل آمال عظيمة ، قد استولت على نفوسهم ، وتملكت مشاعرهم ، وفى هذه الآمال يتسلون على المصائب ، وتشتدّ العزائم ، وتقوى الرغائب ، وأن هذه الآمال أيا كانت درجتها لم تصل إلى حدّ الوحى الالهى فكيف إذا كانت وحيا من الله ، و بشارة صادقة ، يشعر صاحبها بعلم ضرورى أن ما فيها حق لا باطل فيه وصدق لا كذب معه ، لاشك أن القلب إذا بشر بأمثال هذه البشارة يكون موقف صاحبها من الشدائد فوق موقف صاحب الآمال ، ومنزلته من المصائب التى تحلّ به منزلة المستهين المستخفّ. وجملة القول أن بشارة يوسف عليه السلام بما آل أمره عناية عظمى من الله به فى ذلك الوقت العصيب ، ورعاية كبيرة من علام الغيوب فى وقت من شأنه أن تتزلزل فيه القلوب ، وتضطرب له الأفئدة ، ودرس من دروس التربية يتقدّم الرسالة التى تتطلب من صاحبها جدّا وعزما .

(وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) بعد أن فعلوا فعلتهم المنكرة ، جاءوا أباهم آخر النهار يتصنعون البكاء ، متورّين فى

أنفسهم عذرا باطلا ، وسببا كاذبا ، هو أنهم ذهبوا للاستباق وتركوا يوسف عند المتاع فأكله الذئب ، وقولهم (وما أنت بمؤمن لنا ولوكنا صادقين) أى ما أنت بمصدّق لنا ولو كنا صادقين لسوء ظنك بنا ، وفرط محبتك ليوسف ، أو ولوكنا من أهل الصدق ، فكيف مع سوء ظنك بنا ؟ وقولهم (وما أنت بمؤمن لنا) إحساس منهم بإجرامهم ، وشعور بأنهم لايقع قولهم من أبيهم موقع القبول والرضا ، (كاد المرتاب أن يقول خذونى) وهو أسلوب من شأن الكاذب أن يلجأ إليه فيعاجل من يتهمه بمثل ذلك القول ، و يقول له : مهما قدّمت لك من أدلة ، وذكرت لك من براهين ، فأنت سيء الظنّ بى ، لاتصدّق لى قولا ، ولاتقبل منى دليلا .

(وجاءوا على قميصه بدم كذب) وصف بالمصدر للمبالغة كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذّاب هو الكذب بعينه ، والزور بذاته . قيل انهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها ، وفاتهم أن يشقوه ، فقال يعقوب كيف أكله الذئب ولم يشقّ قميصه ؟ فاتهمهم بذلك ، والقرآن لم يبين لنا طريق الدم ولا الحيوان الذى أخذ منه ، و إنما أخبرنا أن الدم كذب وزور .

أماملاحظة يعقوب عليه السلام على ذلك القميص الملوّث بالدم فهى ملاحظة عقل وفكر ، لأن الذئب إذا أكل طفلا فالشأن فيه أن يمزق قميصه ، فبقاء القميص سالما من التمزيق عنوان كذب هذه الدعوى، وما أشبه ذلك بدعوى امرأة العزيز أن يوسف أراد بها سوءا ، فجاء الشاهد الذى هومن جهتها وقال (إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهومن الكاذبين وان كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيدكنّ إنّ كيدكنّ عظيم) وهو تحكيم للقرائن ، لأن الشأن فى المرتاب أن يتأخر و يجرّه البرىء الى الباب ، فاذا كانت امرأة العزيز صادقة كان تمزيق قميصه من أمام ، لأنها تجرّه منه الى الباب وهو يمتنع عليها ، وان كانت كاذبة يكون هو الذى يسارع الى الباب ليشكوها الى سيده ، فتجرّه لتمنعه فيمزق قميصه من خلف ، فلما رأى القميص قدّ من دبر قال العزيز لامرأته (إنه من كيدكنّ إن كيدكنّ عظيم)

(قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا) أى قال يعقوب ليس الأمر كما تدّعون ، بل زينت لكم أنفسكم أمرا عظيما ارتكبتموه مع يوسف (فصبر جميل) أى فأمرى صبر جميل ، أو فصبر جميل أمثل من الشكوى ، و إذا لم يكن الصبر من نبىّ الله يعقوب على مصيبته فى ابنه وفلذة كبده جميلا فممن يكون ؟ (والله المستعان على ماتصفون) أى على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف ، ونبىّ الله يعقوب قدوة صالحة فى الصبر على المصائب ، واحتمال المكاره والرجوع الى الله تعالى فى أن يربط قلبه على الحقّ ، فلا يجد السخط إليه سبيلا . وما أجدرنا بالتأسى به فى مثل ذلك المصاب ، والرجوع الى الله تعالى كما رجع يعقوب عليه السلام . والصبر الجميل هو الذى ليس معه شكوى للمخلوق و بثّ حزن اليه ، ونبىّ الله يعقوب كان على ذلك الحال ، فقد قال حينما اشتدّ به الحزن وأفزعه الأسى (انما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لاتعلمون) لأنه رسول ومن شأن الرسول ذلك ، فلابدّ أن يكون صبره جميلا ، وان الصبر على أمثال هذه المصائب هو جهاد للنفس ومحاربة للهوى ، وارغام للشيطان ، وما أحوج صاحبه الى أن يستعين بربه على ذلك الجهاد

المرّ، والعمل الشاق، ولاعجب أن يجعل الصبر نصف الايمان لهذه الاعتبارات .

(٥) (وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يابشرى هذا غلام وأسرّوه بضاعة والله عليم بما يعملون) جاء رفقة يسيرون من مدين الى مصر فنزلوا قريبا من الجبّ (فأرسلوا واردهم) الذى يتقدّم الرفقة الى الماء فيهيءُ الأرشية والدلاء، يقال أدليت الدلو إذا أرسلتها فى البئر، ودلوتها إذا أخرجتها، فرأى يوسف معلقا بالدلاء، أو رآه فى قعر البئر وهو ينزع الماء، أوعلى صخرة فى البئر، كلّ محتمل، وقوله (يابشرى) نداء لها : أى هذا أوانك فاحضرى، كأنه يقول لأصحابه أبشروا، وقرئ يابشراى بالياء (هذا غلام) ولم ينزعج الوارد من تعلق يوسف بحبال الدلاء أو رؤيته فى قعر الجب بل استبشر، لأن يوسف كان حسن الطلعة جميل الوجه، ومن يراه لا يستطيع أن يجد الحزن إليه سبيلا، فانطلق لسانه بالبشرى ونداء الأصحاب، وقوله لهم : هذا غلام، ولوكان المرئىّ غير يوسف لفزع الوارد من رؤيته فى ذلك المكان الذى لم يؤلف فيه وجود غلمان (وأسروه بضاعة) أى أخفى الوارد وأصحابه أمر يوسف عن بقية الرفقة خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه، بل يختصّ به الوارد وأصحابه دون بقية السيارة، والبضاعة مابضع : أى قطع من المال للتجارة، أو الضمير للسيارة جميعها، لا لطائفة منها، أى ان هذه السيارة أخفت أمر يوسف فلم تدعه على أنه لقيط، بل أخفت أمره وادّعت أنه بضاعة وصلت اليهم كبقية الأموال، ولعل حكمة ذلك خوفهم أن يكون تبعا لقوم ضل الطريق منهم فوقع فى البئر، فلو أذاعوا أمره على أنه لقيط لوصلهم أذى من قومه ومتبوعيه، ولذلك أخفوه على أنه مال كبقية الأموال .

(والله عليم بما يعملون) وعيد للسيارة بأن الله يعلم عملها وسيحاسبها عليه، لأنه ما كان لهم أن يستبضعوا ماليس لهم، أو الضمير لاخوة يوسف، فهو وعيد لهم على ماصنعوا مع أخيهم يوسف ومع أبيه يعقوب عليهما السلام .

(وشروه بثمن بخس) باعوا يوسف بثمن مبخوس ناقص عن القيمة لمثله نقصا فاحشا، وقد بين ذلك الثمن القليل بقوله (دراهم معدودة) ومن شأن المعدود أن يكون قليلا (وكانوا فيه من الزاهدين) الراغبين عنه، ولذلك باعوه بثمن طفيف، ولقد كان زهد السيارة فى يوسف على جماله وحسن طلعته لحكمة عالية، وهى بيعهم له من عزيز مصر، وكان من أمره مع ذلك العزيز ما كان مما سيشرحه القرآن الكريم فى الآيات الآتية، ورب مزهود فيه عند قوم مرغوب فيه عند آخرين، وقد يعثر الطفل أوالجاهل على الدرة فيظنها حجرا عاديا فيلقيها الى من يعرف قيمتها ويعلم مقدارها .

(وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) قيل ان الذى اشتراه قطفير صاحب أمر الملك، وكان على خزائن مصر، وكان يسمى العزيز، وليس عندنا نصّ قاطع على أن امرأته كانت تسمى زليخا أو راعيل، والعبرة لاتتوقف على معرفة الأسماء، ولذلك لم يعرض القرآن لها فسواء علينا أصحت الروايات التاريخية بها أم لم تصحّ، وقوله (أكرمى مثواه) أى اجعلى مقامه عندنا كريما وحسنا: أى أحسنى تعهده (عسى أن ينفعنا) فى ضياعنا أو أموالنا، ونستعين به على مصالحنا (أو نتخذه ولدا) نتبناه، ويظهر أنه كان عقيما

وقد تفرس الرشد فى يوسف ، ويحتمل أنه لم يكن عقيما ، ولكنه أحبّ يوسف وقال لامانع من تبنيه ، لأنه تفرس فيه حسن المستقبل وعظمة التاريخ .

قال العلماء : أفرس الناس ثلاثة . عزيز مصر . وابنة شعيب التى قالت يا أبت استأجره ، وأبو بكر حين استخلف عمر .

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى وعلى ذلك النحو الذى رأيت ، والصنع اللطيف الذى قدّمناه بانجائه من كيد إخوته ، وتعطيف قلب عزيز مصر عليه ، مكنا له فى أرض مصر ، إذ صار واحدا من بيت العزيز الذى هو على خزائن مصر ، وصاحب أمر الملك (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) أى صنعنا به من ألطافنا الخفية ماصنعنا (والله غالب على أمره) لايردّه شىء فى أمر يوسف ولا فى غيره ، وقد أراد اخوة يوسف أمرا ، ودبر الله غيره ففلهم (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون «٥٠» [1]) (ولكنّ أكثر الناس لايعلمون) لطائف صنعه ، وخفايا لطفه ، وان الشرّ الظاهر قد يكمن فيه الخير الكثير ، كما حصل ليوسف فى الجب ، وأن الخير والنصر الظاهرى قد يكون وراءه الندامة والحسرة ، كما نصر اخوة يوسف ورموه فى الجب ، ثم انتهى الأمر بأن صار سيدهم ، وأن مافعلوا به كان من أسباب ارتقائه .

وقيل (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى جعلناه ملكا فى أرض مصر ليقيم العدل ويدبر أمور الناس (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) فيعلم معانى كتب الله وأحكامه ، وتعبير المنامات ، والمراد أن الله تعالى كما أنجاه من كيد اخوته ، وعطف قلب العزيز عليه ، جعله ملكا على أرض مصر ، لأن ذلك هو المتبادر من كلمة (مكنا) كما قال (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون «٥» [2]) فالتمكين فى الأرض : جعله صاحب مكانة فيها وتثبيت قدمه عليها ، وكأنه جبل شامخ لايستطيع أحد أن يزلزله عن مكانه ، وذلك لا يكون إلابالقوّة التى أعطاه الله إياها ، والنفوذ والسلطان الذى حصل عليه .

ثم عقب ذلك بقوله (والله غالب على أمره الخ) ليرينا أنه لا غرابة فيما صنعه الله تعالى مع يوسف ، لأنه غالب على أمره ، ولا رادّ لقضائه وحكمه ويظهر أن كلمة [ملك] التى جرت فى عبارة المفسرين يريدون بها صاحب السلطان والنفوذ ، فهى ترادف كلمة [سلطان] ولذلك جاء فى هذه السورة (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ، قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) فالتمكين فى الأرض فى هذه الآيات هو التمكين فى تلك ، وإنما يراد به أن يكون وزيرا نافذ الكلمة صاحب حول وطول ، ولم يرد بقوله (اجعلنى على خزائن الأرض) أن يتنازل له عن ملكه ، لأن ذلك غير معهود طلبه من الملوك ، وكذلك لم يعهد أن الملوك تجيب إليه على فرض طلبه منها ، فالملك لما أحبه وطلب أن يحضروه ليستخلصه لنفسه ، وشهد له بالأمانة والمنزلة طلب منه يوسف لذلك أن يوليه خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم ، وقد أجابه إلى ذلك ، فأصبح بهذه التولية صاحب أمر ونهى ، وصار وزيرا له مكان العزيز .

---

[1] النمل . [2] القصص .

(ولما بلغ أشدّه آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) تكملة لقصة يوسف عليه السلام ، فبعد أن قصّ علينا رؤياه ، وحسد إخوته له على محبة أبيه ، ومكرهم به وإحباط ذلك المكر ، وتعطيف قلب عزيز مصر عليه حتى وصل الى ما وصل إليه من النفوذ ، أرانا أنه لما بلغ أشده : أى منتهى استعداد قوّته (آتيناه حكما وعلما) قيل الحكم : هو الحكمة . وقيل : العلم المؤيد بالعمل . وقيل : قوّة الحكم بين الناس والقضاء فى مصالحهم ، أو الحكم هنا حكم النبوّة ، و (علما) أى فقها فى الدين وتنكيرهما للتفخيم : أى حكما وعلما لا يعرف كنههما ولا يقدّر قدرهما والآية ليست نصا فى نبوّة يوسف عليه السلام ، وانما يدلّ على ذلك آيات أخر كآية (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا «٣٤» [1]) (وكذلك نجزى المحسنين) أى كما جزينا يوسف على صبره بالعلم النافع والحكمة الصالحة نجزى كلّ محسن على احسانه .

يوسف عليه السلام

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ [2] لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ «٢٣» وَلَقَدْ هَمَّتْ [3] بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ «٢٤» وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٢٥» قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ «٢٦» وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ «٢٧» فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ «٢٨» يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ «٢٩» وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا [4] حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ «٣٠» فَلَمَّا سَمِعَتْ

---

[١] غافر . [٢] تعال ، وقرئ هئت بكسر الهاء وضم التاء : تهيأت .

[٣] لتنتقم منه لأنه لم يطاوعها وهمّ بها ليدفع عن نفسه . [٤] خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل الى الفؤاد ، والشغاف : حجاب القلب .

بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ[1] لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ «٣١» قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ[2] وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ «٣٢» قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ[3] إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ «٣٣» فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٣٤» ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ «٣٥» يوسف

شرح وعبرة

(١) (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) الخ ليس المراد أن يوسف عليه السلام وقع له ذلك الحادث بعد أن آتاه الله حكما وعلما كما هو الظاهر من ذكره بعده ، لأن القرآن كما قلنا غير مرة ليس من أغراضه أن يذكر الحوادث مرتبة على حسب أزمنتها كما هو الشأن فى كتب التاريخ بل مهمة القرآن مهمة هداية وعبرة ، فقد يذكر القصة ويبدأ فيها بالحادثة قبل حادثة تسبقها فى الزمن لأنها أهم منها ، والحكمة قضت بذلك ، والله تعالى أراد أن يرينا قصة يوسف فى صغره وعطف أبيه عليه ، والمنام الذى رآه وقصه على أبيه ، وتحذير أبيه له أن يقصه على اخوته فيكيدوا له كيدا .

ثم انتقل الى حسد اخوته له على هذه المحبة ، وتدبير مكيدة له .

ثم عقب ذلك بمطالبة أبيهم أن يتركه ليشترك معهم فى السباق والتمتع ، وخوف أبيه عليه ، ثم حادث إلقائه فى البئر والتقاط بعض السيارة له ، ثم بيعه الى رجل من مصر ، ثم تمكينه فى الأرض واعطائه حكما وعلما ، ثم تعليل ذلك بقوله (وكذلك نجزى المحسنين) أى كما جزى يوسف على احسانه يجزى كل محسن .

ثم شرح لنا حادثا من حوادث احسان يوسف الذى جازاه الله عليه فقال (وراودته) الخ الآيات فقصة المراودة ، وسجن يوسف ، وظهور براءته ، كل ذلك من إحسانه الذى كافأه عليه بالحكم والعلم ، وكل ذلك كان قبل أن يسلطه الله على مصر ، ويختاره الملك على خزائن أرضها .

والذى جرأ امرأة العزيز على مراودته أنه كان خادما عندها فى البيت ، فطمعت فيه كما يطمع النساء المخدومات فى خدمهن ، بل كانت تظن أنها ستجاب الى ما طلبت وهى صاحبة الفضل عليه شأن سائر النساء اللائى يكن مثلها فى الغنى والجاه والسلطان الذى سرى اليها من زوجها العزيز ،

---

[١] بعدا منه وتنزيها له . [٢] امتنع بشدة وقوة . [٣] أمل ، من الصبوة وهى الميل الى الهوى .

ولكن يوسف عليه السلام أراها أنه لم يكن خادما عاديا ، بل هو فتى ذو خطر كبير ، وشأن عظيم ، وان الله تعالى سيختاره لخدمته قبل أن تصطفيه امرأة العزيز لقضاء لباناتها ، وأنه أجلّ وأعظم من أن يكون خادما لامرأة شهوانية ترضى عنه إذا هو خالف ربه ومولاه ، وتغضب عليه إذا هو اعتصم وحافظ على أخلاقه ودينه (وراودته) من راد يرود إذا جاء وذهب : كأن المعنى خادعته عن نفسه وفعلت مايفعله المخادع لصاحبه عن الشيء الذى لايريد أن يخرج من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهى مفاعلة من طرف واحد نحو مطالبة الدائن ، ومماطلة المديون ، ومداواة الطبيب ، ويصح أن يراد بصيغة المفاعلة مجرد المبالغة فى الاحتيال ، والتمحل فى مواقعته اياها .

وفى ذكر الموصول ، وبيان أن يوسف فى بيتها وتحت سلطانها ، ثم تغليق الأبواب واستعدادها له : اعلاء لشأن يوسف ولأن ذكر الاسم فضيحة . وكونه فى بيتها وتغليق الأبواب ، كلّ ذلك داع الى المواقعة ، فان المستتر لاسيما مع من يملك أمره يفعل مالايفعله الذى استبان فعله وانكشف حاله ، فالعفة مع هذه الأحوال ، وتسهيل سبيل الفاحشة ، وتوفر أسبابها ــ أرقى ماوصل إليه الأخيار

وقوله (غلقت) يشير الى أن الأبواب كانت كثيرة (وقالت هيت لك) أى أقبل وبادر ، وقرئ (هئت لك) أى تهيأت لك ، من هاء يهيء كجاء يجيء : إذا تهيأ .

(قال معاذ الله) أعوذ بالله معاذا أن أقع فى مثل ذلك ، وهى كلمة تدلّ على النفور من المعصية والاشمئزاز ، وذلك هو المنتظر من فتى أعدّه الله لأن يكون رسولا ، وقدوة صالحة فى الخير ، ومثالا يحتذى فى البعد عن المآثم ، ولم يرد يوسف عليه السلام أن يقف عند حدّ تعوّذه بربه ، وتحصنه به من إجابة امرأة العزيز الى ماطلبت ، فأضاف الى ذلك قوله (إنه ربى أحسن مثواى) والضمير لله تعالى ، والربّ هو المربى له بنعمته الظاهرة والباطنة ، وهو الذى حفظه فى الجبّ ، وعطف عليه قلب العزيز ، وأنجاه من مكر اخوته ، وإذا كان هذا فعل الله معه ، فكيف يقابل ذلك الاحسان بالاساءة ؟ وكيف يقارف امرأة ليست له بزوج ؟ ثم عقبه بقوله (إنه لايفلح الظالمون) يريد أنه إذا فعل ماطلب منه كان ظالما ، ولم يكتب الله للظالمين فلاحا ، وإنما حظهم دائما الخيبة والخسار ، [فأوّلا] استعاذ بالله ، ثم علله بقوله : إنه ربى أحسن مثواى ، ثم بقوله : انه لايفلح الظالمون .

وقيل الضمير فى قوله (إنه ربى أحسن مثواى) للعزيز ، والمراد أنه ربّ البيت ورئيسه ، أو سيده الذى رباه فى بيته ، وجعله تحت رعايته وكنفه ، وقوله (أحسن مثواى) أى أكرم نزلى ، وإقامتى ببيته ، وأوصى امرأته بذلك ، إذ قال لها (أكرمى مثواه) ولايليق أن أقابل ذلك الاكرام الذى تقدّم به العزيز باساءة ، ومن اللؤم أن أخونه فى أهله ، ولوفعلت ذلك كنت ظالما ، ولايفلح الظالم ، ولامانع من ارادة كلّ من المعنيين لكلمة (ربى) والمراد أن إجابتها لما طلبت إغضاب لله تعالى المربى لنا بنعمه ، وخيانة لصاحب البيت ، ومقابلة للحسنة بالسيئة ، حيث أوصى امرأته أن تكرم مثواى ، فلا يليق بى أن أقابل ذلك الاكرام باساءة ، لأنى لوفعلت ذلك كنت ظالما مع خالقى ، ومع ربّ البيت ، ولا أرضى لنفسى ذلك الخلق ، ومهما يكن من شيء فان

يوسف غير مستعدّ لأن يجيب المرأة الى ماطلبت ، ونافر نفورا شديدا من السير فى ذلك الطريق الوعر الذى يغضب الله و يسخطه ، و يجعله رجلا لئيما يجحد الجميل و ينكر الاحسان .

ولعلّ فى عفة يوسف عليه السلام ، وقوله فى شأن العزيز (انه ربى أحسن مثواى) عبرة لقوم انحطت نفوسهم ، وتدنست أخلاقهم ، وفقدوا معنى كرم الطبع وشرف النفس ، فلم يتعففوا أن يفسقوا بامرأة جار أوقريب أو صاحب فضل ، لعلّ هناك عبرة لهؤلاء الذين أغضبوا ربهم ، وقطعوا حقوق جيرانهم وأقربائهم ، ونسوا قول الرسول صلى الله عليه وسلم « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه (١) » كمانسوا حقّ القرابة ، وأن الزنا بامرأة الجار عذابه مضاعف . وكذلك الزنا بامرأة القريب فاحشة وقطيعة رحم ، لأن الشأن فى الزنا أن يورث عداوة فى القلوب ، و يترك أثرا غير محمود ، فاذا قال نبىّ الله يوسف (إنه ربى أحسن مثواى) فليقل الرجل إذا سوّلت له نفسه أن يفسق بحليلة جاره [انه جارى أحسن جوارى] و إذا سوّلت له نفسه أن يفجر بامرأة قريبه يقول (انه قريبى قد وصل رحمى) وكذلك إذا زينت له نفسه أن يواقع امرأة صاحبه يقول (انه صاحبى أحسن الصحبة) .

وجملة القول أن نبىّ الله يوسف كان مثالا صالحا فى الوفاء ، ورعاية حق المحسنين ، ومقابلة الاحسان باحسان مثله . فليكن لنا عبرة فى ذلك الرسول ، واتعاظ بسيرته وأخلاقه .

(٢) (ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه) يستطيع القارئ أن يفهم المراد من هذه الجمل بعد أن سمع أن نبىّ الله يوسف أجاب امرأة العزيز تلك الاجابة الجافة التى تدلّ على نفرته من المعصية ، وتعليل ذلك النفور بقوله (إنه ربى) الى آخر الآية ، و يستطيع القارئ أن ينزه نبىّ الله يوسف مما شحن به بعض كتب التفسير مما لايليق بفتى أعدّه الله لأن يكون رسولا وهيأه ليتولى زعامة أمّة فى دينها وخلقها ، ولولا أن بطلانه من الظهور الى حدّ كبير لعنيت بالردّ عليه ، وحسب القارئ أن يفكر فى القصة وهو بعيد عن آراء المفسرين ، والقرآن كفيل بأن يفهمها نقية خالصة من الاسرائيليات والمفتريات .

فالقرآن يرينا أن امرأة العزيز تعلق قلبها بيوسف وظنت [و بعض الظنّ إثم] أنه خادم كبقية الخدم لا يخالف لها أمرا ، فراودته عن نفسه ، وهيأت له أسباب الفاحشة ، بأن غلقت الأبواب ، وخلصت إليه حتى لايحتشم من شىء ، فلم يطعها فى ذلك ، واستعاذ بالله ، وقال لوفعلت ذلك أكون ظالما ، وانقلب من خادم وادع ، وفتى مطيع الى شخص ثائر ، و يدلّ لثورته هذه الكلمات ، لأنها لا تصدر إلا من قلب امتلأ بالغضب . و بذلك يمكنك أن تفهم المراد من قوله (ولقد همت به وهمّ بها) وهو أنها همت به لتنتقم منه لأنها حانقة عليه اذ لم يجبها الى ذلك الطلب وهى سيدة مطاعة لم تتعوّد أن يعصى لها أمر ، ولا سيما من خادم كيوسف ، ومن ناحية أخرى فان شغفها بيوسف قد وصل بها الى حدّ الجنون ، فاذا تأبى عليها وحال بينها و بين ما تشتهى ، فان ذلك يؤلمها ألما شديدا ، بل و يزعجها ، فاذا همت بيوسف همّ ايذاء فلأنه أضاع عليها فرصة كانت تعتقد أنها مواتية ، وخيب ظنها فى وقت كانت تعتقد فيه أنه عند ظنها فيه ، ولا يعقل أن

---

[١] رواه البخارى ومسلم .

يكون همها بيوسف بعد نفرته منها واستعاذته بربه إلا على ذلك النحو .

أما همه بها فهوهمّ دفاع عن النفس ، وفرار من المعصية ، وسدّ لأبواب الشرّ والفسق ، لأن ذلك هو اللائق بيوسف من جهة مكانته ، ومن جهة مستقبله ، ومن جهة الواجب عليه فى ذلك الظرف العصيب ، وما أدق موقف يوسف فى ذلك الوقت ، وما أشق مهمته مع امرأة جاهلة ، قد تملكتها الشهوة ، وغرّها مركزها ومركز زوجها العزيز وهو فتى يخدم فى ذلك البيت ، وليس له ناصر إلا مولاه وخالقه ، ولا مغيث له إلا من يعلم سرّه ونجواه ، وما الذى كان يفكر فيه يوسف ليخلص من ذلك البلاء ، وماذا كان يفعل لو طال به ذلك الحال بينه و بين امرأة العزيز ؟ وتحت يدها الخدم والحشم ، وفى قبضة يدها السلطة والنفوذ ؟ وما الذى كان يمنعها من قتل يوسف فى ذلك الوقت الذى يغلى فيه قلبها كما يغلى المرجل ؟ وما الذى كان يمنع يوسف من مقابلة الشرّ بالشرّ ، والشدّة بالشدّة ؟ وهل اذا طال ذلك الوقت بامرأة العزيز و يوسف هل كان يقف تيار الشرّ عند حدّ الاثنين ، أو يتخطاها الى أناس آخرين ؟ ذلك هو الذى سوّغ حذف جملة الجواب فى قوله (لولا أن رأى برهان ربه) والربّ هنا هو ربّ البيت وهو العزيز ، و برهانه علامة أنه حضر : أى لكان ما كان مما لا يعلم حدّه إلا الله تعالى ، فحذف الجواب لتذهب النفس فيه كلّ مذهب ممكن ، وذلك أسلوب من أساليب التفخيم والتعظيم ، وكأنه يريد أن يرينا أن جواب هذا الشرط لا تستطيع العبارة أن تفى به ، وأىّ جواب قدّرته فهو أقلّ مما أريد به ، ولذلك حذف الجواب . فاذا قلت (لولا أن رأى برهان ربه) لقتلته ، لم يف بالمراد ، وكذلك اذا قلت لقتلها ، وكذلك إذا قلت لتطاير الشرّ وتفاقمت الفتنة ، وما الى ذلك مما يناسب المقام .

وجملة القول : أن امرأة العزيز همت بيوسف لتنتقم منه ان لم يجبها الى طلبها ، وهمّ بها ليدفع عن نفسه ، فالهمّ هنا همّ بعمل هو الانتقام من ناحية امرأة العزيز ، وهو عمل ايجابى ، ودفاع من يوسف وهو موقف سلبى ، وقد ينقلب ايجابيا ، وهو كقوله (وهمت كلّ أمّة برسولهم ليأخذوه«٥»[1])

وقوله (لولا أن رأى برهان ربه) أى لحصل ماحصل مما لا يعلم كنهه إلا الله تعالى ، ويدلّ لذلك قوله بعد (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) أى فعلنا بيوسف [كذلك] من تسخير العزيز للحضور فى ذلك الظرف الذى اشتدّ فيه النزاع بين يوسف وامرأته وهو نعمة كبرى على يوسف ، ومخرج من ذلك المأزق ، وتخليص له من يد امرأته ، ولولا حضور العزيز فى ذلك لكان ما كان .

فالله تعالى يرينا أنه هيأ ليوسف ذلك المخلص ليصرف عنه السوء والفحشاء ، ثم علل ذلك بقوله (إنه من عبادنا المخلصين) أى الذين أخلصوا فى عبادة الله تعالى ، ومن كان كذلك فقد تكفل الله له بمثل ذلك ، أو الذين استخلصهم الله لأن يكونوا رسلا وأئمة ، وما دام يوسف من ذلك الصنف ، تكفل الله له بأن يصرف عنه السوء والفحشاء ، ونظيره قول الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب — ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ٣ و ٤[2]) .

(٣) (واستبقا الباب) تسابقا إليه فحذف الجار ، أو ضمن الفعل معنى ابتدر : أى ابتدر كلّ

---

[١] غافر . [٢] الطلاق .

منهما الباب وسبق إليه ، فأما يوسف فقد أراد الفرار منها ليخرج وليشكوها الى سيدها ، وأما هى فأسرعت وراءه تريد أن تمنعه الخروج ، واجتذبته من ورائه فاقدّ قميصه ، والقدّ : الشقّ طولا (وقدّت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب) أى وجدا سيدها وهو العزيز لدى الباب ولم يدخل لأن الأبواب كانت مغلقة (قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أوعذاب أليم) وفى الأمثال [ضربنى وبكى وشتمنى واشتكى] كذلك امرأة العزيز مع يوسف لما رأت سيدها عند الباب يريد الدخول ، وقد يكون أحسّ وهو لدى الباب بشىء مما دار بين يوسف وامرأته من نزاع ، أرادت أن تشفى غلّ صدرها وحنقها على يوسف لما فاتها من التمتع به ، وتوقعه فى الشرّ جزاء إبائه عن مطاوعتها ــ تقدّمت الى زوجها شاكية باكية قائلة (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) تريد أن تفهمه بذلك أنه هو الذى راودها وأنه لم يكن منها سوى الاباء . وفى قولها (ما جزاء من أراد) بصيغة الماضى ، وتحديدها الجزاء بسجن أوعذاب تمويه على العزيز ، ومحاولة إفهامه أن ذلك أمر وقع من يوسف ، وأن جزاءه على ذلك أمر لا يصحّ أن يكون موضع مناقشة أو جدل ، بل هو أمر مفروغ منه ، وقولها (بأهلك) استفزاز للعزيز ، وإشعال لنار الغيرة فى نفسه ، لأن فتاه أراد سوءا بأهله ، ولو قالت [ما جزاء من أراد بى سوءا] لفات ذلك الغرض ، وهو محاولة إلهاب العزيز والتأثير عليه ، وتلفتنا الآية من جهة أخرى الى أن امرأة العزيز كانت صاحبة سلطان عليه ودلال ، حتى اجترأت أن تحدّد الجزاء وتقترح على زوجها أحد أمرين : السجن ، أو العذاب الأليم .

ولو أن امرأة العزيز كانت امرأة عادية لأبلغته الحادث مجرّدا عن تحديد العقوبة ، فبادرت الى ذلك القول لترى العزيز أنها غاضبة للشرف والكرامة اللذين يحميهما ويزود عنهما ، ولتشفى صدرها باقتراح عقوبة فى اعتقادها أن العزيز ينزل على رأيها فيها ، وفى اعتقادها أن أمثال هذه التهمة لا تحتاج الى بحث وتحقيق ، لأنها تتعلق بشرف العزيز وأهله ، فليس بعد البلاغ إلا العقوبة ، وفاتها أن هناك إلها يرقبها ، وربا هو لها بالمرصاد ، وأن ذلك الاله ادّخر لمن أطاعه فى وقت الشدّة ، وجاهد فى سبيل دينه وخلقه ما شاء الله أن يجاهد مايخلصه منها ، وضاء الجبين ، أبيض الصحيفة وأنه سيقيض له من أقاربها مايشهد ببراءة يوسف من ذلك الجرم الذى حاولت إلصاقه به ، وسيقيض لها من النسوة كذلك من يشهد هذه الشهادة ، وستعترف هى ببراءة يوسف مما نسبته اليه من إرادة السوء بها ، وستقول هى للنسوة (أنا راودته عن نفسه فاستعصم) وهكذا ينتصر حق يوسف على باطل امرأة العزيز ، ويبوء بالعزة والكرامة ، وتبوء هى بالخزى وسوء السيرة (قال هى راودتنى عن نفسى) أى بعد أن قالت فيه ما قالت واتهمته عند زوجها بأنه أراد بها سوءا ، واقترحت على العزيز عقوبة ، وحاولت إلهاب نفسه بذلك الأسلوب الذى بيناه ، عند ذلك لم يجد بدّا من أن يقول الحق ، وهى أنه راودته عن نفسه ، وهى كلمة جريئة من خادم لسيده أمام مخدومته من شأنها أن تصدر من قلب مؤمن مطمئن ، ومن شأنها أن تدلّ على صدق قائلها ، ولو كان يوسف على ريبة من جهة نفسه مااستطاع أن يواجه امرأة العزيز فى حضرة زوجها بذلك القول ، وأن يبهتها ذلك البهت ، ولكنه الحق لا يخشى باطلا ، ولا يعمل حسابا لشىء ، ولا يحابى ولا يداجى ،

ظهر على لسان فتى خادم ضدّ سيدة مخدومة مطاعة فى بيتها وأبهتها وعظمتها ، تستطيع أن تدبر لذلك الخادم من أنواع التنكيل والعذاب ما شاء لها الهوى ، وسوّلت لها النفس .

لم يبال يوسف بكلّ ذلك ، بل قال الحقّ ، والحقّ أحقّ أن يقال ، ولو أن امرأة العزيز لم تبادر يوسف بتلك التهمة أمام زوجها لاستحى يوسف أن يقول ما قال لزوجها ، ولكتم عليها تلك الفعلة ، ولكنها بدأت [والبادئ أظلم] بدأت فقالت فيه الباطل ، فاضطر أن يقول فيها الحق .

(٤) (وشهد شاهد من أهلها) الخ ، كثر كلام المفسرين فى ذلك الشاهد أكان رجلا أم صبيا ، ورجح الرازى فى تفسيره الكبير أنه كان رجلا لوجوه :

(الأوّل) أن الله تعالى لو أنطق الطفل بذلك الكلام لكان مجرّد قوله انها كاذبة برهانا على كذبها ، أما الاستدلال بما فى قوله من المنطق من قدّ القميص من قبل ومن دبر فلم يكن محتاجا اليه .

(الثانى) قوله من أهلها ، فانها سيقت لتقوية الشهادة ، ولا يصار الى هذه التقوية إلا حيث كان الشاهد رجلا ، ولو كان صبيا فى المهد لكان قوله حجة ، ولم يبق لهذا القيد فائدة .

(الثالث) أن لفظ الشاهد لا يقع إلا لمن تقدّمت له معرفة بالواقعة ، واحاطة بها ، وذلك لا يكون إلا من رجل .

والذى حمل المفسرين على ذلك ولوعهم بالغريب ، وورود حديث ينسبه المفسر أبو السعود للحاكم ، وفيه [تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج . وعيسى عليه السلام) وتصحيح الحاكم إذا تفرّد به لا يوثق به عند المحدّثين . فان من عادته أن يتساهل فى التصحيح فيصحح الضعيف .

وعندى أن ذلك الشاهد هو رجل كما رأى الفخر نقلا عن جماعة من المفسرين ، وأن الحجة فى منطق الشاهد وتحكيمه العقل فى شهادته ، وفراسته فى تحقيق الحق من قولهما ، إذ يقول (ان كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين) الخ لأن الهاجم على المرأة وهى تدافعه إنما يظهر أثر دفاعها فى مقدّم قميصه ، والهارب من المرأة العالقة بثوبه إنما يظهر أثر ذلك فى ثوبه من الخلف ، لأنه يكون مستدبرا لها وهى تجاذبه من خلف ، فظهر صدق يوسف وكذب امرأة العزيز حينما رأوا قميصه قدّ من دبر ، فعاد العزيز على امرأته باللوم وقال (إنه من كيدكنّ إن كيدكنّ عظيم) وأمر يوسف بكتمان الخبر ، وأمرها بالاستغفار لذنبها ، وجزم بأنها مخطئة فيما صنعت .

ذلك هو المنطق الذى امتازت به شهادة ذلك الشاهد ، وتبين به الحق للعزيز . أما كونه من أهلها فلأن الشأن فى أمثال هذه الحوادث أن يطلع عليها أهل المرأة [أوّلا] وتكون محصورة فيهم ، لأنها مسئلة تتعلق بالأعراض ، ومن شأن الأهل أن يحرصوا على كتمانها جهد المستطاع ، ويروى أن ذلك الشاهد كان مع العزيز عند وصوله الى الباب ، وقيل إنه كان بالبيت مختفيا لم يشعر به أحد ، وسواء صح ذلك أم لم يصحّ ، فان المهمّ شهادته وما فيها من حجة ومنطق .

وأن ما شهد به ذلك الشاهد على حادث امرأة العزيز مع يوسف يصلح أساسا للتحقيقات الجنائية التى يقوم بها ضباط المباحث ورجال النيابات عند ما يريدون أن يقفوا على حقيقة واقعة

من الوقائع ، و يتبينوا وجه الصواب فى المسئلة والأخذ بالقرائن وتحكيم العقل فى الحوادث والجنايات هو شأن الناس فى كلّ زمان ، وقد تقدّم ذلك النوع من تحكيم القرائن ، وأصبح له شأن كبير حتى أنشئوا له فى مصر وغيرها وظائف ، وأعدّوا له مايلزم من معدّات ، وكم كشف ذلك النوع عن مخبآت ، وفضح من أستار جنايات ، وأعان القضاء على أداء مهمته ، وسهل له المضىّ فى عمله .

وانك لترى للمحققين أساليب باهرة عند شروعهم فى تحقيق قضية ، وترى رجال المحاماة قد برعوا فى توجيه أسئلة للشهود تكشف من القضية كلّ غامض ، وتزيل منها كلّ لبس ، مما يجعل الحقّ واضحا أبلج ، والباطل كاسفا لجلج . ولو أنك ذهبت الى قاعات المحاكم الجنائية لرأيت من ذلك النوع مايثلج صدرك ، و يطمئن نفسك ، وقوله (انه من كيدكنّ إن كيدكنّ عظيم) الضمير فيه لما حصل من امرأة العزيز مع يوسف حيث خانت زوجها ، واتهمت يوسف بأنه طلب منها الفاحشة (إن كيدكنّ عظيم) أى معاشر النساء لأنكنّ ألطف حيلة ، وأعظم كيدا .

قال بعض العلماء : (انى أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان ، لأن الله تعالى قال — ان كيدكنّ عظيم — وقال — ان كيد الشيطان كان ضعيفا «٧٦» [1]) .

وعندى أن الله تعالى وصف كيد الشيطان بالضعف لأن من استولى عليه الشيطان أو طاف حوله طائف منه يذهب عنه الشيطان عند تذكره لربه ورجوعه اليه ، ولذلك يوصف الشيطان بالخناس الذى يخنس و ينقبض كلما ذكر اسم الله تعالى ، ولذلك يقول فى شأنه (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون «٩٩» [2]) فالشيطان ضعيف فى كيده لايسلط إلا على ضعيف الايمان الذى لم يعتصم بربه وخالقه ، وان ذلك الكيد عظيم فى ذاته ، باعتبار أثره وعاقبته .

أما كيد النساء فهو عظيم فى ذاته ، وهو لم يصل اليهنّ إلا بواسطة تسويل الشيطان لهنّ ، ولولا أنه ينفخ فى أوداجهنّ ، و يغريهنّ بالفاحشة ما فعلن فعلهنّ ، وكلّ امرأة فاسقة معها شيطان أو شياطين ، يزين لها الفاحشة ، و يتلمس لها طريق الخلاص منها ، فالشيطان هو الذى أغراها حتى طلبت من يوسف الفاحشة ، والشيطان هو الذى عظم فى عينها امتناع يوسف وتأبيه عليها ، وقال لها كيف يكون خادما لك ثم يمتنع عليك ذلك الامتناع ، ولولا شيطانها ما ألصقت بيوسف أنه أراد بها سوءا ، ولشكرته على عفته ، واستخلصته لنفسها لأمانته كما طلبه الملك بعد ظهور براءته وقال (ائتونى به أستخلصه لنفسى) وقال له (انك اليوم لدينا مكين أمين) .

وقد راجعت النيسابورى بعد الفراغ من التعليق الذى علقته على قول بعض العلماء ، و إذا هو يقول : وأقول لاشك أن القرآن كلام الله إلا أن هذا حكاية قول الشاهد فلايثبت به ما ادّعاه ذلك العالم ، ولو سلم فالمراد أن كيد الشيطان ضعيف بالنسبة الى مايريد الله تعالى امضاءه وتنفيذه ، وكيد الشيطان ضعيف بالنسبة الى كيد الرجال ، فانهنّ يغلبنهم و يسلبن عقولهم إذا عرضن أنفسهنّ عليهم ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « النساء حبائل الشيطان » اه .

وجملة القول أن كيد النساء جزء من كيد الشيطان ، وهو عظيم الخطر ، كبير الأثر ، لأنه كيد فيما يتعلق بالأعراض ، وما كان من ذلك النوع فهو جدّ خطير ، وان كيد الشيطان قد وصفه

---

[١] النساء . [٢] النحل .

الله بالضعف لأنه يعتمد الباطل ، ويعول على زخرف القول ، كقول الرجل البخيل لك [احرص على مالك ولاتضعه فان الرجل إنما يكون رجلا بالمال ومن ليس معه قرش لايساوى قرشا] يحاول بذلك أن يصرفك عن بذل المال فى وجوه الخير ، وهو كما يقول الله فى شأن الشيطان الذى يأمر بالشحّ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم «٦٨» [١]) فكيده لايعدو أن يكون تضليلا ، وكيد ذلك حاله هو كيد ضعيف ، ومن ناحية أخرى فان أوّل الآية يطالب بالجهاد والشجاعة ، ويقوّى قلوب المؤمنين ، ويرينا الفرق بين قتال المؤمنين وقتال الكافرين ، وأن المؤمنين يقاتلون فى سبيل الله ، وأن الكافرين يقاتلون فى سبيل الطاغوت والباطل ، ويحرض المؤمنين أن يقاتلوا أولياء الشيطان وأنصاره ، لأنهم لا قلب لهم ، فهم ضعفاء العقيدة ضعفاء النفوس ، لايؤمنون بعاقبة ، ولايدينون دين الحق (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا «٧٦» [٢]) ولاشك أن براءة يوسف من تهمة امرأة العزيز أمام زوجها وأمام ذلك الشاهد وقوله لها (إنه من كيدكنّ) الخ هى [أوّل شهادة] ليوسف عليه السلام بالبراءة من رجل حاولت امرأة العزيز أن تؤلبه عليه ، وتثير فيه عاطفة الغيرة ، وتريه أن يوسف الذى أمر باكرام مثواه أراد بأهله سوءا ، ولذلك عقبه بقوله (يوسف أعرض عن هذا) أى دع هذا الحديث ولاتذكره لئلا يفشو بين الناس ، أو لاتكترث بهذا الأمر وتتأثر به ، ثم التفت اليها وقال (واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين) أمرها بالاستغفار من ذنبها .

ثم علل ذلك بأنها كانت فى عملها هذا مع يوسف من جملة الخاطئين ، وحكاه بصيغة التأكيد لأنه وثق من صدق يوسف ، وكذب امرأته ، ولاسيما بعد شهادة الشاهد .

وفيه دليل على أن العزيز حليم قليل الغيرة إذ لم يزد على ذلك مع امرأته ، ولذلك كثرت الاشاعة حتى اتهمها نساء المدينة بأنها راودته عن نفسه .

(٥) (وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) الخ ، لما شاع أمر يوسف تحدّث به النسوة ، وخاضوا فى شأن امرأة العزيز وضعفها أمام شهوتها ، وقالوا إنها تراود فتاها [وهو الشاب الحديث السنّ] (عن نفسه قد شغفها حبا) أى شقّ شغاف قلبها ، وهو حجابه حتى وصل الى فؤادها ، وحبا منصوب على التمييز المحوّل عن الفاعل : أى شقّ حبه شغاف قلبها حتى وصل الى الفؤاد ، وذلك أشدّ أنواع الحب (إنا لنراها فى ضلال مبين) لأنه لا يليق بها وهى امرأة العزيز ، وفى ذلك البيت الكبير أن تنزل الى ذلك المستوى الذى لايليق بمثلها ، وهو مراودة الفتى ، فان اللائق بمثل امرأة العزيز أن تكون فى عفة وعزّة ، ولم تكتف النسوة بوصف امرأة العزيز بالضلال ، بل وصفنه بأنه بين وواضح لايشك فيه أحد (فلما سمعت بمكرهنّ أرسلت اليهنّ وأعتدت لهنّ متكأ) الخ لما بلغ امرأة العزيز ما قاله النسوة وخوضهنّ فى قصتها ، والمكر هنا الغيبة ، وسميت مكرا لما فيها من الخفاء ، وقيل إن امرأة العزيز استكتمت النسوة أمرها فأفشينه عليها — لما سمعت امرأة العزيز قول النسوة فيها (أرسلت اليهنّ وأعتدت لهنّ

---

[١] البقرة . [٢] النساء .

متكأ) هيأت لهن مايتكئن عليه من نمارق ومساند ، ويتبع ذلك اعداد طعام يقدم لهن ، ويطلق [المتكأ] على نفس الطعام فان كل من دعوته ليطعم من عندك فقد أعددت له وسائد يجلس ويتكىء عليها ، فيكون الطعام متكأ على سبيل المجاز ، وسواء أكان المتكأ هو مايتكأ عليه عند الطعام والشراب أو نفس الطعام ، فان المآل واحد ، فان امرأة العزيز أعدت طعاما وفيه مايقطع من لحم وفاكهة (وآتت كل واحدة منهن سكينا) على ماهى العادة فى أطعمة المتمدنين من قدماء المصريين ، فلما أخذن يأكلن وأمسكت كل واحدة بسكينها انتهزت تلك الفرصة (وقالت اخرج عليهن) يايوسف وهو لايعصى لها أمرا (فلما رأينه) أى رأى النسوة يوسف (أكبرنه) أعظمنه ودهشن عند رؤيته لذلك الحسن الرائق والجمال الفائق ، كما شاهدن فيه مهابة وهيبة وعدم التفات الى الشهوات من النساء والمطاعم ، وإذا كان الجمال مقرونا بهذه الصفات حق للنسوة أن يهبنه (وقطعن أيديهن) أخذن يقطعن أيديهن بالسكاكين التى معهن وهن يظنن أن يقطعن مامعهن من طعام أو فاكهة . أذهلهن جمال يوسف وكماله عن نفسهن ، فلم يشعرن بأن التقطيع فى الأيدى أو فيما معهن من الطعام (وقلن حاش لله) معاذ الله (ما هذا بشرا) أى تنزيها لله أن يخلق هذا بشرا ، لأنا لم نعهد فى البشر ذلك الجمال والكمال (إن هذا إلا ملك كريم) وحين ذاك وصلت امرأة العزيز الى ما كانت تقصد من دعوة النساء للطعام ، ونجحت فى تلك الوليمة التى أعدتها للنساء الخائضات فى شأنها مع فتاها .

(قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) أى ذلك الفتى الغريب فى حسنه ، البعيد فى مكانته ، الخارق للعادة فى صفاته ، هو الفتى الذى صورتن فى أنفسكن ، وفهمتن أنه فتى عادى كبقية الفتيان ، وقلتن فى أنفسكن إنها امرأة ضعيفة أمامه لم تستطع ضبط نفسها ، ولا ملك عواطفها من جهته ، وقد مر عليكن [لأول مرة] فذهلتن عن أنفسكن ، ونسيتن أن فى الأيدى سكاكين تشتغل بقطع الطعام ولذائذ الفاكهة ، فقطعتن أيديكن وقلتن (حاش لله ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) فلماذا لا تعذرننى فيما فعلت ، وقد أمضيت معه زمنا طويلا ، أطالع جماله ، وأرى حسنه فى كل وقت من أوقات الخدمة ؟ وحين ذاك اشترك معها النسوة فى محبة يوسف ، وإكبار يوسف فلم تبق فريدة فى تلك المحبة ، وان كانت المحبة تتفاوت ، فان المحبة التى مضى عليها زمن طويل تختلف اختلافا كبيرا عن المحبة التى حدثت .

وما دامت النسوة قد اشتركن مع امرأة العزيز فى محبة يوسف وإكباره ، أوما دامت النسوة قد علمن من حسن يوسف وجماله ما تعذر فيه امرأة العزيز ، فلا تحتشم أن تصارحهم بالأمر ، وتكاشفهم بالحقيقة ، وتقول لهم (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) وهى شهادة من امرأة العزيز بصدق يوسف فيما قال لزوجها ، وبراءته مما اتهم به ، وليست هذه شهادة عادية ، بل هى شهادة لها شأنها وقيمتها ، لأنها شهادة مما اتهمته بارادة السوء وهى امرأة العزيز ، وهى خصم فى قضية الاتهام [والفضل ما شهدت به الأعداء] وقولها (فاستعصم) ولم تقل فامتنع لتدلنا على أن يوسف كان شديدا فى امتناعه كما تدل عليه الصيغة، فان الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ،كأنه فى عصمة وهو يجد فى الاستزادة منها ونحوه استمسك ، واستجمع

الرأى ، واستفحل الأمر .

والعجيب لبعض المفسرين ينسبون ليوسف عليه السلام من الأكاذيب ما تنزهه منه التى اتهمته وهى امرأة العزيز ، وكأنهم أصبحوا خصما ثانيا ليوسف عليه السلام يحاولون بشتى الأساليب أن ينسبوا اليه ما هو منه براء ، و ياليتهم كانوا فى إنصافهم كامرأة العزيز ، بل كانوا أقلّ منها إنصافا .

ومن عجيب أمرهم أن يقبلوا فى قصة يوسف ماصحّ ومالم يصحّ من الروايات ذاهلين عن أنه فتى أعدّه الله لأن يكون رسولا ، وهيأه لأن يكون قدوة صالحة ، ومثالا يحتذى فى العفة والأمانة يجب أن يهذّب بذلك المثل العملى : النساء والرجال ، ونسوا أن العبرة فى قصة يوسف مع امرأة العزيز أنه شابّ من أجل الشبان صورة ، وأكملهم بنية ، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان ، هى سيدة له وهو عبد لها ، فيحملها الافتتان بجماله وكماله على أن تذلّ له ، وتخون بعلها ، وتدوس شرفها ، وتراوده عن نفسه ، والمعهود فى أدنى النساء تربية ومنزلة أن يكنّ مطلوبات لاطالبات ، فيسمعها يوسف من حكمته ، ويريها من كماله وعصمته : ما هو أفضل قدوة فى الايمان بالله والاعتصام به ، وفى حفظ أمانة السيد الذى أحسن مثواه ، وائتمنه على عرضه وشرفه ، ويقول لها (معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون) فتشعر بالذلة والمهانة ، والتفريط بالشرف والصيانة ، فتهمّ بضربه أو قتله ، ويهمّ هو بالدفاع عن نفسه ، ويكاد يحصل ما لا تحمد عقباه من جراء ذلك النزاع (لولا أن رأى برهان ربه) .

فكيف يتفق ذلك وماقاله المفسرون من أقوال منكرة ، ومانسبوه إليه من روايات مختلقة ، ولكن الله تعالى تكفل ببراءة يوسف على يد العزيز بعد شهادة الشاهد ، وتكفل ببراءة يوسف على لسان امرأة العزيز نفسها أمام النسوة ، وهى شهادة لها قيمتها فى المسألة لأنها الخصم ليوسف ومصدر اتهامه .

(٦) لما شعرت امرأة العزيز بأن النسوة عذرنها فى شغفها بيوسف ، واشتركن معها فى إكبار ذلك الجمال اعترفت أمامهنّ بأنها التى راودته عن نفسه فاستعصم ، ولم ترد أن تقف عند ذلك الحدّ ، بل أصرت على التمادى فى الباطل ، فقالت (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكونا من الصاغرين) قلنا فيما تقدّم أن حبها ليوسف قد وصل بها الى حدّ الجنون ، ولولا ذلك ما أصرّت على مطالبة يوسف بالفاحشة ، وما تجرأت على هذه الكلمة فى جمع من النسوة .

ولعلّ الذى هوّن عليها ذلك أنها أمنت أمر النساء ، لأنهنّ أصبحن شريكات لها فى محبة يوسف ، أوعاذرات لها فى تلك المحبة ، ورأت من زوجها العزيز سهولة ولينا ، إذ كلّ ماقاله لها عند ظهور كذبها وصدق يوسف (إنه من كيدكنّ ان كيدكنّ عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) .

و إذا كان زوجها من اللين وعدم الغيرة الى ذلك الحدّ ، والنسوة اللاتى تكلمن فى شأنها قد أمنتهنّ أن يتكلمن فيها مرّة ثانية ، وهى امرأة العزيز صاحب خزائن الملك ، وهى السيدة المطاعة ، ويوسف فتاها وخادمها ، فلماذا لاتبقى على طمعها فيه ، ورجائها فى الحصول على غايتها

وقد خاطبت يوسف أوّل مرّة بقولها (هيت لك) أى بأساوب لين هين ، فيه اغراء للمطلوب ، فلم يجبها يوسف الى ماطلبت ، فرأت أن تلوّن له الخطاب ، وتغير له الأسـاوب ، فخاطبته خطاب المهدّد المتوعد ، وقالت (لئن لم يفعل ما آمره ليسـجنّن وليكونا من الصاغرين) وهنا كشفت القناع عن أنها صاحبة الأمر والنهى ، وان أمر السـجن والتعذيب فى يدها وتحت سـلطانها ، فأقسمت للنسوة ان لم يفعل يوسف ماتريده منه لابدّ أن يسجن ويحشر مع الأذلاء من اللصوص وسفاكى الدماء وأصحاب الجرائم .

ماذا كان من يوسف ؟

(قال ربّ السـجن أحبّ الىّ ممـا يدعوننى إليه) جواب رجل أعدّه الله لأن يكون نبيا ، وهيأه لأن يكون زعيما دينيا ، جواب ما أبرده على قلب المؤمن ، وأحبه الى نفسه ، يقول يوسف فيه مخاطبا لربه ومولاه وصاحب الفضل الأوّل عليه ، إن السجن على ما فيه من شظف العيش ، وخشونة الفراش ، وحيلولة بين الرجل و بين الحياة ، هو أحبّ الى نفسى ممـا يدعوننى إليه لأنهنّ يدعوننى الى عصيانك ، والخروج على طاعتك ، وامتهان النفس ، وضياع الخلق والـكرامة ، وضعف الارادة ، فأنا أفضل أن أعيش فى السجن متحملا ما فيه من تعذيب على ما يدعوننى اليه من عصيانك ، والفسوق عن أمرك .

وانها لعبرة عظيمة من نبىّ الله يوسف ، ترينا كيف يؤثر الانسان غليظ العيش على ناعمه مادام ذلك العيش الناعم من ورائه ضرر يتعلق بالخلق أو النفس . ومن حقّ الزعماء أن يكثروا من قراءة هـذه الجملة عند مايعاملهم الغاصب معاملة امرأة العزيز ليوسـف ، حينما طلبت منـه ما لايليق بخلقه وكرامته وتوعدته ان لم يجبها الى ماطلبت أن يسجن ، أو يعذّب العذاب الأليم ، فقال لها (رب السـجن أحب الىّ ممـا يدعوننى إليه) فاذا كانت امرأة العزيز تملك سـجنى فانها لاتملك خلق وكرامتى ، و إذا كانت تستطيع أن تعذب جسمى فانها لاتملك أن تعذب روحى ونفسى

وكذلك المستعمرون إذا طلبوا من الزعماء أمرا يضرّ بمصالح بلادهم ، و يعود عليها بالشرّ ، كأن يطلبوا منهم أن يسكتوا عن المطالبة بالجلاء ، أو يقدّموا لهم مصالح البـلاد لقمة سائغة ، وهددوهم ان لم يصيخوا لأمرهم أن يضعوهم فى السجن ، أو يعذبوهم العذاب الأليم — فليقولوا لهم ماقال يوسف (ربّ السجن أحبّ الىّ ممـا يدعوننى إليه) لأن السـجن لايضيع حقا ، بل يثبته ، ولايزعزع عقيدة ، بل يقوّيها و يؤيدها ، والسجن سكن العظماء ، ومأوى المصلحين ، وأرباب المبادئ .

وكم أعان السجن على حقّ ، ومحص من نفوس ، وأعدّها لأن تـكون قوية مسـتعدّة للطوارئ والأحداث ، وكم خلق السـجن لأنصار الباطل أعداء ، ولأنصار الحقّ أولياء ، ولحزب الشـيطان قوّة لاقبل لهم بها ، وما من مبدأ من المبادئ إلا وهو فى حاجة الى ما يميـه ، و يضع فيه إكسير الحياة ، ولا شىء أنفع للمبادئ من اضطهادها ، وللعقائد من الفتن التى تمرّ بأصحابها .

(وان لاتصرف عنى كيدهنّ أصب اليهنّ وأكن من الجاهلين) فزع من يوسف الى الله

تعالى فى ذلك الوقت العصيب ، ورجوع إليه فى وقت اشتدت فيه ظلمات الفتنة ، واستفحل أمر النسوة ، وكاد أن يطغى فيه حزب الشيطان على حزب الرحمن ، فخلا الجو لامرأة العزيز ، وأمنت كلام النسوة ، واطمأنت من جهة زوجها ، لأنها جربت عليه ضعف الغيرة ، فهددت وتوعدت ، وأرغت وأزبدت ، وقالت له بلغة الآمر الذى لايخالف : انك ان لم تفعل ما آمرك به سجنتك وعذبتك ، وأنزلتك من ذلك البيت الرفيع الى درجة المجرمين ، فيخاطب ربه بأن السجن أحب إليه مما يدعونه إليه ، ثم يلجأ إليه أن يصرف عنه كيدهن بلطفه وتدبيره ، وأنه ان لم يفعل الله — وهو فاعل ولابد — يميل يوسف اليهن ويدخل فى عداد الجاهلين الذين لايعملون بما يعلمون وهو فى معنى الدعاء من يوسف فى وقت الشدة .

وجدير بمن دعا ربه فى ذلك الوقت ليخلصه من محنته ، وينقذه من فتنته ، ولاهم له من طلب الخلاص إلا إرضاء ربه ، والوقوف عند حدوده — .

جدير بمن لجأ الى ربه فى ذلك الوقت أن يستجيب الله دعوته ، ويعطيه ماطلب ، ولذلك قال (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن) .

ثم علل ذلك بقوله (إنه هو السميع العليم) فهو سميع لأقوال يوسف ، عليم بما يريد ويقصد ، وكذلك هو سميع لامرأة العزيز ، عليم بجبروتها وسلطانها ، وفتنتها ليوسف بوسائل مختلفة ، فمرة تحاول الوقيعة بينه وبين العزيز ، وتقلب الحق باطلا ، والباطل حقا ، وتريه أنه أراد سوءا بأهله ، وجزاؤه فى ذلك : السجن أو العذاب الأليم ، ومرة تقول للنسوة على مسمع من يوسف (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) ونسيت أن هناك إلها يعلم سرها ونجواها ، ويدبر ليوسف الخير كما تدبر له الشر ، وأن تدبيره فوق تدبيرها ، لأن تدبيرها الى فساد ، وتدبيره الى صلاح .

وقد نسب يوسف المكر الى النسوة جميعهن فى قوله (وان لاتصرف عنى كيدهن) لأنهن شاركن امرأة العزيز فى محبته ، والتوله به ، أولأنهن عذرنها فى محبتها ، وطلبن منه أن يطيعها ، وزين له مطاوعتها ، وقلن له اياك وإلقاء نفسك فى السجن والصغار .

وعندى أن يوسف قد نسب المكر الى النسوة جميعا مع أن الماكر به امرأة العزيز وحدها لأن مكر المرأة الواحدة ينسب الى الصنف كله ، فهو مكر لصنف النسوة ، أو للاشارة الى أن مكرها بلغ من عظم أثره أن صار مكرا للنساء جميعهن فهو كيد امرأة واحدة فى ظاهر الأمر ، ولكنه فى معنى مكر الجماعة .

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) الضمير فى لهم للعزيز وأهله : أى ظهر للعزيز وأهله من بعد ما رأوا الآيات الدالة على صدق يوسف ، وبراءته مما نسب إليه أن يسجنوه الى زمان ، وذلك أنها أفهمت العزيز أن بقاء يوسف فى البيت قد يكون سببا فى إشاعة الفاحشة ، وفى فضيحة العزيز ، فوضعه فى السجن أعون على الستر ، وفى الوقت نفسه ترى يوسف أنها استطاعت أن تنفذ وعيدها معه ، وتجعله فى السجن ، لأن ذلك الوعيد لم يعلم به العزيز ، وانما كان بمحضر النسوة على مسمع من يوسف ، فتم لها ما أرادت ، وتغلبت على العزيز وألقت

يوسف فى السجن ، وهى مع ذلك لا تزال طامعة فيه ، ممنية نفسها بذلك الوقت الذى يرسل لها فيه أنه على استعداد لاجابة طلبها ، والنزول على إرادتها ، وحين ذاك يصدر الأمر العزيزى باخراج يوسف من السجن ، ونسيت قوله (ربّ السجن أحبّ إلىّ مما يدعوننى إليه) وأن يوسف أبعد من ذلك كله غرضا ، وأعلى نفسا ، وأصلب عودا ، وهيهات أن يلين لامرأة شهوانية همها فى قضاء حاجتها ، ورضاؤها فى الحصول على مأربها ، هيهات أن يؤثر يوسف مرضاة امرأة على مرضاة ربه ، ونعيما زائلا على نعيم مقيم .

يوسف عليه السلام

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرٰنِى أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْأٰخَرُ إِنِّى أَرٰنِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ «٣٦» قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْأٰخِرَةِ هُمْ كٰفِرُونَ «٣٧» وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَاءِى إِبْرٰهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَىْءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ «٣٨» يٰصٰحِبَىِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «٣٩» مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ [١] وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٤٠» يٰصٰحِبَىِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْأٰخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِىَ الْأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ «٤١» وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِى [٢] عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسٰهُ الشَّيْطٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ «٤٢» وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّى أَرٰى سَبْعَ بَقَرٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ [٣] وَسَبْعَ سُنْبُلٰتٍ

[١] الثابت الذى تقوم به مصالح الناس . [٢] صفنى عند الملك بصفتى . [٣] جمع عجفاء وهى الهزيلة .

خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ «٤٣» قَالُوا أَضْغَٰثُ (١) أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ «٤٤» وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ (٢) بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ «٤٥» يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ «٤٦» قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا (٣) فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ «٤٧» ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤) «٤٨» ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٥) «٤٩» وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ «٥٠» قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْـَٰٔنَ حَصْحَصَ (٦) الْحَقُّ أَنَا رَٰوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّٰدِقِينَ «٥١» ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ «٥٢» وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ «٥٣» وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ (٧) أَمِينٌ «٥٤» قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ «٥٥» وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ (٨) مِنْهَا حَيْثُ

---

[١] جمع ضغث ، وهو الحزمة من الحشيش أو القضبان ، وبه شبه الأحلام المختلطة .

[٢] تذكر . أمة : مدة طويلة . [٣] دائبين أي مستمرين . [٤] تخبئون .

[٥] العنب والزيتون والسمسم ، أو من عصره إذا أنجاه . [٦] ثبت واستقر .

[٧] صاحب مكانة ومنزلة . [٨] يتخذ منها متبوأ له ومسكناً .

يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ «٥٦» وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ «٥٧» يوسف

شرح وعـــبرة

(١) (ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) أى دخل فى صحبة يوسف فتيان ، قيل كانا فتيين للملك [أحدهما] خبازه، و[الثانى] شرابيه : أى صاحب الشراب ، وأنهما أدخلا السجن بتهمة السم للملك ، وفهم الآية لا يتوقف على صحة هـذه الأخبار (قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا) وهوصاحب شراب الملك (وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) وهو الخباز .

(نبئنا بتأويله) أخبرنا بتأويل ما رأينا (إنا نراك من المحسنين) أى من الذين يجيدون عبارة الرؤيا ويحسنونها ، أو من المحسنين لأهل السجن فى معاملتك لهم ، والأحسن أن يطلق لفظ المحسنين ويراد به أنه من أهل الاحسان . والاحسان : الاتقان وتأدية الشىء كاملا ، ومنه حديث « ان الله كتب الاحسان على كل شىء » ومن الاحسان تعبير الرؤيا وتأويلها تأويلا صحيحا .

(قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) قال السدى : لا يأتيكما طعام ترزقانه فى النوم . يريد بذلك أن علمه بالرؤيا ليس بقاصر على ما قصصتما على . وقيل لا يأتيكما طعام فى اليقظة الا أخبرتكما أى طعام هو ؟ وأى لون هو ؟ وكم تكون عاقبته إذا أكله الانسان. وحاصله ادعاء العلم بالمغيبات ، وهو يجرى مجرى قول عيسى عليه السلام (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم « ٤٩» [1]) ولعل حكمة مبادرتهما بذلك تطمين صاحبيه على حياتهما ، لأنه عهد عندهما وفى عصرهما أن الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما مسموما فأرسله إليه . وكأنه يقول لهما : اطمئنا على ما يقدم لكما من طعام ، فكل ما يصل إليكما أبلغكم ما فيـه من خير أو شر ، وصحة أو مرض .

(ذلكما مما علمنى ربى) أى ذلك التأويل للرؤى والأحلام مما علمنى ربى وفقهنى فيه ، وعلم تأويل الرؤيا يعتمد فقه الانسان وفراسته : كما يعتمد صفاء النفس وقوة التفكير ، وكل ذلك فضل من الله تعالى يؤتيـه للانسان ، ولذلك نسب تعليمه الى ربه ، لأنه الواهب لذلك الاستعداد ، المانح لذلك الفضل .

هذا إذا ذهبنا الى المعنى الأول فى قوله (لا يأتيكما طعام) الخ . أما إذا فهمنا أنه إشارة الى إخبار الصاحبين بالغيب ، و بيان ما فى الطعام من صحة أو مرض ، وأمثال ذلك يكون قوله (مما علمنى ربى) أوحى الى ، لأن علم الغيب مقصور عليه تعالى لا يطلع عليه أحد إلا من طريقه هو (انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق

---

[١] آل عمران .

ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) تعليل لقوله (ذلكما مما علمنى ربى) أى ان سبب ذلك التعليم أنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله الخ ، وهو يرينا أن المؤمن بالله أهل لأن يفيض الله عليه من العلم والمعرفة مالا يعلم حدّه إلا الله تعالى .

وقد انتهز يوسف هذه الفرصة لينصح صاحبيه فى السجن ، وينشر مبدأه من الايمان بالله تعالى ، وتوحيده ، والايمان بالبعث والجزاء .

وقد جمع يوسف فى تلك الدعوة أصول الايمان الثلاثة ، وهى الايمان بالله ، وتوحيده ، والايمان باليوم الآخر ، وهل يوسف جاءته الرسالة وهو فى السجن ؟ ولما لم يجد معه سوى صاحبيه دعاهم الى أصول الايمان الثلاثة ، أو أن ذلك كان ملة لآبائه فأخذه عنهم ، ودعا دعوتهم ؟ كلّ محتمل ، وسواء قلنا ان يوسف نبىٌّ فى ذلك الوقت أم لم ينبأ فانه افترص هذه الفرصة وأخذ يدعو من معه الى دين الأنبياء جميعهم ، وقد تقدّم بذلك بين يدى تأويل رؤيا الصاحبين لأنه لو أجابهما الى ماطلبا أوّلا لضاعت عليه هذه الفرصة ، وما استطاع أن يبلغهما التوحيد والايمان بالله وثوابه وعقابه ، ولا سيما أن أحد الفتيين قد تأوّل له رؤيا تأويلا يزعجه ، وهو أنه يصلب فتأكل الطير من رأسه .

فيوسف عليه السلام يرينا أن صاحب المبدأ والعقيدة من شأنه أن ينتهز الفرص لنشر مبدئه وعقيدته ، ومن شأنه أنه إذا طولب بشىء أو سئل عنه يخلق لها المناسبة لينشرها بين الناس ، وفى الأمثال [ان صحّ منك الهوى : أرشدت للحيل] ويرينا يوسف عليه السلام أن لا مانع من تعريف العالم نفسه بالناس وأن يخبرهم أنه يحسن كذا وكذا من العلم ، وليس فى ذلك غضاضة على نفسه ، فيوسف لم يجد بأسا فى أن يقول للصاحبين (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى) الخ ليلفت نظر الفتيين إليه ، ويحملهما على التوجه له . وقوله (إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله) تحريض لهما على الايمان بالله لأن عاقبة المؤمن به أن يفقهه الله فى دينه ، ويعلمه كما علم يوسف ، وقوله (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب) يريد أنه من بيت النبوّة تربى على الايمان الصحيح ، والتوحيد الخالص ، والحكمة العالية ، والعلم النافع المفيد ، فاستمعا الىّ ، وخذا العلم والحكمة عنى ، وقوله (ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء) أى لايليق بنا ولاينبغى ونحن من هذه السلالة الطيبة ، والبيت الماجد أن نشرك بالله من شىء من الأشياء (ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون) أى ان ذلك التوحيد فضل من الله علينا ، وفضل منه تعالى على الناس ، ولكنّ أكثر الناس لايشكرون الله على ذلك الفضل الذى هداهم إليه ، وأوصله لهم .

(٢) (ياصاحبى السجن ءأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار) يريد ياساكنى السجن أو ياصاحبىّ فيه ، ءأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهار؟ يريد هل الخير للانسان أن يعبد إلها واحدا ، يعرف مايحبه فيبادر إليه ، وما يبغضه فيدعه ويتركه ، أم الخير للانسان أن يعبد آلهة كثيرين ان أرضى هذا غضب ذاك ، وان أغضب ذلك رضى هذا ، وهو أسلوب بديع من

أساليب الاقناع ، يرجعنا فيــه الى المألوف من عادات البشر ، وهو أن الانسان إذا كان له ملاك يتشاكسون فيه ، ويتنازعونه الملك والسلطان ، هل يسـتوى هو وعبد ليس له الا مالك واحد ، يعرف مايطلبه منه فيعمله ، وما ينهاه عنه فيـذره ؟ ان الفرق بين العبدين كبير ، فالعبد الذى له ملاك متشاكسون فيه لايهدأ له بال ، ولايطمئنّ له قلب ، أما العبد الذى ليس له إلا مالك واحد فيستطيع أن يعيش مع ذلك المـالك هادئا وادعا ، وفى ذلك يقول الله تعالى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا « ٢٩ » [1]) .

فنبىّ الله يوسف يرينا أن توحيد الاله المعبود مصلحة للناس وخير لهم ، وتنظيم لعباداتهم ، وجمع لشتاتهم ، أما الشرك فهو مدعاة لتشويش نفس العابد ، وتفريق أمره ، فيما بينـه وبين معبوديه ، ولذلك كان التوحيد متفقا مع الفطر ، ومتناسبا مع العقول ، ومتمشيا مع المصلحة ، فمن ناحية تعدّد الآلهة مدعاة لنزاعها الدائم ، وخلافها المستمرّ ، وذلك يفسد النظام ، كما قال تعالى (لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا « ٢٢ » [2]) وقال (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون « ٩١ » [3]) ومن ناحية أخرى فان الشرك مدعاة لتشويش أمر العابد ، واختلال نظامه ، فلا يستطيع أن يوفق بين مرضاة إلهين أو آلهة اختلفت مشاربهم ، وتباينت مطالبهم . ذلك ما يشير إليه نبىّ الله يوسف عليه السـلام (ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) يريد أنكم سميتم آلهة وعبدتموها ، وخلقتم ألفاظا فارغة لامسميات لها وخضعتم لها . والسلطان : الحجة والبرهان . وقوله (ما أنزل الله بها من سلطان) أى حجة لأنها باطل ، والباطل لاينزل الله به حجة ، وإنما ينزل حجة بالحق (إن الحكم إلا لله) فى أمر العبادة والدين (أمر أن لاتعبدوا إلا اياه ذلك الدين القيم) الثابت الذى تقوم عليه مصالح الناس ومعايشهم ، وفيه حياتهم فى الدنيا والآخرة (ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون) قيمة ذلك الدين .

(٣) (ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا) وهو الذى رأى أنه يعصر خمرا ولم يبين ذلك الأحد لوضوحه وجلائه : أى فيخرج من السجن ويعود الى سيده فيسقيه خمرا ، لأن عصير العنب مآله أن يكون خمرا . والشأن فى العاصر أن يمدّ للقوم شرابهم ، وكأنه أخذ عودته الى ما كان عليه ، وعصره خمرا لسيده من قرائن تتعلق بصاحب الرؤيا .

(وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) وهو الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل منـه الطير ، لأن ذلك هو المعهود من أكل الطير من رأس الرجل ، ولعلّ تعيين طريق القتل وتحديده بالصلب لأن المصلوب يبقى منتصبا ، ومن الممكن أن تسلط عليـه الطير وهو على ذلك الحال ، أما الذى يموت بطريق آخر فالشأن فيه أن لايكون كذلك ، فلا تسلط عليه الطير ، وإنما تسلط عليـه ديدان الأرض وهوامها ، ويظهر أنه كان من عادتهم إذا صلبوا أحدا تركوه على حاله مصلوبا حتى يتعفن وتأكل منـه الطير ، ولعلّ ذلك النوع من التمثيل بالقتيل كان خاصا بالجرائم المتعلقة بالملك ، وذلك مما يؤيد صحة الاخبار بأن ذلك الرائى كان خباز الملك واتهمه — وما أكثر هذه الاتهامات فى كلّ زمن — بأنه دسّ للملك فى طعامه سما .

---

[١] الزمر . [٢] الأنبياء . [٣] المؤمنون .

(قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) أى بتّ فى تعبيره وتأويله ، فليس محلا للمناقشة والجدل . وقد ظهر لى الآن حكمة قول يوسف (أما أحدكما) وقوله (وأما الآخر) بلفظ مبهم ، وهو أن يوسف لم يرد أن يواجه كلّ واحد من الصاحبين بتأويل مارأى ، لأن إحدى الرؤييين سارّة ، والأخرى مزعجة ، ولذلك رأى أن يعبر بذلك اللفظ المبهم ، وان كان المعنى مفهوما ، وذلك تلطف من يوسف فى التعبير ، وحرص على عدم إزعاج صاحب الرؤيا قدر المستطاع ، وهو أدب ينبغى أن يراعى فى باب التعبير .

(وقال للذى ظنّ أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك) أى قال يوسف للصاحب الذى ظنّ أنه ناج من السجن وعائد الى ما كان عليه من النعيم (اذكرنى عند ربك) أى اذكر مظلمتى عند سيدك ، والضمير فى قوله (ظنّ) ان كان للرجل الناجى فالأمر ظاهر ، لأنه لم يكن هو وصاحبه مؤمنين بنبوّة يوسف و إخباره عن الله تعالى، بل كانا حسنى الاعتقادفيه ، وكأن وعظه لهما قد وصل بهما الى مجرّد الظنّ ، أو فهما أن تعبير يوسف يرجع الى الفراسة ، وهى لا تفيد أكثر من الظنّ .

أما إذا كان الضمير ليوسف فالظنّ بمعنى اليقين لأن يوسف مؤمن بصدق نفسه فيما أخبر عن الله تعالى إذا كان تأويل الرؤيا بتوقيف من الله تعالى ، أو هو ظانّ ذلك التأويل ان كان عن اجتهاد وفراسة ، واطلاق الظنّ على اليقين مألوف فى القرآن الكريم ، ومنه قول الله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون «٤٦» [1]) قال ذلك فى وصف المؤمنين الخاشعين، و إيمان هؤلاء لم يكن مجرّد ظنّ ، و إنما هو يقين عبر عنه بالظنّ لقربه منه فى الرتبة والمنزلة ، والأظهر أن يوسف كان على بينة من تأويله ، وأن تأويله وصل من نفسه الى حدّ القطع واليقين وآية ذلك قوله للصاحبين بعد تعبير رؤياهما (قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) أى أنه ليس له تأويل سوى ذلك ، و إنما يقول ذلك من يثق بتأويله الى حدّ كبير ، وقوله (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى) هو إخبار بأنه على استعداد لأن يخبرهما عن مآل كلّ طعام يصل إليهما ، ولا يقول ذلك إلا واثق بما يخبر به ، وهو مما يرجح أن ذلك التأويل كان إلهاما من الله تعالى مباشرة ، وأن مسألة الطعام التى استعدّ لها يوسف كانت بوحى من الله تعالى ، كما أخبر عيسى عليه السلام أنه مستعدّ لأن يخبر قومه عما يأكلون وما يدخرون فى البيوت .

ولعلّ تأويل يوسف للرؤى والأحلام ، واستعداده للاخبار بالغيبيات هو آية رسالته ، ودليل صدقه ، فان كلّ رسول له من الآيات ما من شأنه أن تؤمن عليه الناس ، كما وردفى الحديث الصحيح و يظهر أن تأويل الأحلام كان له شأن فى عصر يوسف ، و إلا فما بال يوسف بمجرّد وضع رجله فى السجن يقصّ عليه فتيان دخلا معه السجن مارأيا ، ومابال الملك يرى الرؤيا فيسأل عنها الملأ والأشراف من قومه وعشيرته ، و يهتمّ بتأويل هذه الرؤيا على غير عادة الملوك فى أحلامهم ورؤاهم فيعتذرون له بأنها أخلاط ، وأنهم ليسوا أهلا لتأويل الأحلام ، وليسوا من العلم الى حدّ يمكنهم من ذلك .

---

[١] البقرة .

أما الاخبار بالغيبيات فهو آية واضحة على صدق يوسف ، لأن الله استأثر بالغيب فلا يعلمه أحد إلا بتعليم منه . وأما تأويل الأحلام فبعضه يعتمد الالهام والوحى ، وبعضه يعتمد الفقه فى دين الله ، وقياس الأمور بأشباهها ، وبعضه يعتمد الكياسة والحذق وفهم الحياة ، والفراسة الصادقة ولذلك علمه الرسل وعلمه توابع الرسل ، وهذه أئمة المسلمين أخذوا بسهم وافر بل بأسهم فى ذلك العلم ، ووضعوا له قوانين ، ونبغوا فيه الى حدّ كبير .

وهذه مؤلفاتهم بين أيدينا : منها مؤلف محمد بن سيرين المحدّث المشهور ، ومؤلف النابلسى ، وهما مطبوعان بمصر فى كتاب واحد ، وغيرهما كثير ، وهذا ابن خلدون يقول فى مقدّمته :

(أما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجودا فى السلف كما هو فى الخلف ، وربما كان فى الملوك والأمم من قبل ، إلا أنه لم يصل إلينا للاكتفاء فيه بكلام المعبرين من أهل الاسلام ، وإلا فالرؤيا موجودة فى صنف البشر على الاطلاق ، ولا بدّ من تعبيرها ، فلقد كان يوسف الصدّيق صلوات الله عليه يعبر الرؤيا كما وقع فى القرآن ، وكذلك ثبت فى الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن أبى بكر رضى الله عنه .

ثم اعلم أن التعبير علم بقوانين كلية يبنى عليها المعبر عبارة مايقصّ عليه وتأويله ، كما يقولون : البحر يدلّ على السلطان ، وفى موضع آخر يقولون: البحر يدلّ على الهمّ والأمر الفادح ، ومثل مايقولون: الحية تدلّ على العدوّ ، وفى موضع آخر يقولون هى كاتم السرّ ، وفى موضع آخر يقولون تدلّ على الحياة ، وأمثال ذلك ، فليحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ، ويعبر فى كلّ موضع بما تقتضيه القرائن التى تعين من هذه القوانين ما هو أليق بالرؤيا ، وتلك القرائن منها فى اليقظة ، ومنها فى النوم ، ومنها ماينقدح فى نفس المعبر بالخاصية التى خلقت فيه ، وكلّ ميسر لما خلق له .

ولم يزل هذا العلم متناقلا بين السلف ، وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء ، وكتب عنه فى ذلك القوانين ، وتناقلها الناس لهذا العهد ، وألف الكرمانى فيه من بعده ، ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثروا ، والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبى طالب القيروانى من علماء القيروان ، مثل الممتع وغيره ، وكتاب الاشارة للسالمى ، وهو علم مضىء بنور النبوّة للمناسبة بينهما ، كما وقع فى الصحيح والله علام الغيوب [1] اهـ .

وجملة القول أن تأويل الأحلام يجوز أن يكون آية ليوسف ، ودليلا من دلائل صدقه ، أما إخباره بالغيب فى مسألة الطعام إذا فهمنا فى الآية أنها فى الاخبار بالمغيبات فهى آية واضحة على صدق يوسف ، فاذا لم يكن يوسف قد أرسل إليه وهو فى السجن كان ذلك إرهاصا لنبوّته ، وتمهيدا لرسالته ، وقد عهد فى الرسل أن يتقدّم رسالاتهم الارهاصات والخوارق ، وقد قال الله وهو يحدّثنا عن مؤمن آل فرعون فيما يحدّث (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا « ٣٤ » [2]) ولم يبين لنا القرآن ما هذه البينات أهى الآيات المتلوّة من الكتب التى كانت تنزل على الرسل ؟ أم هى دلائل صدقه ؟ وهل هذه الدلائل خوارق للعادة أو غير خوارق ؟ كلّ محتمل ، فان الله تعالى لم يلتزم مع كلّ

---

[١] مقدمة ابن خلدون ص٤٥٢ ــ طبع بولاق . [٢] غافر .

رسول أن يؤيده بخوارق ، بل يؤيده بآيات تدلّ على صدقه ، ومن آيات الصدق سيرته المرضية وتاريخه المجيد ، وعدم مطالبة الناس بأجر على ما يدعو اليه ، وأمثال ذلك .

ولقد كان ليوسف الماضى المجيد ، والتاريخ الحافل بالعظات ، وقوّة الارادة ، والصبر والعفة فى أحرج أوقات الفتنة ، وأشدّ أنواع الزلزلة ، فكان مثلا صالحا ، وقدوة حسنة فى الاستقامة ، والتضحية ، ونكران الذات — كلّ ذلك وأمثاله دلائل على يوسف إذا هو ادّعى أنه رسول من عند الله ، ولعلّ الله تعالى ذكرنا يوسف فى هذه السورة . وقال (لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين) ليرينا أنها هى وحدها تكفى دليلا على صدق يوسف عند ادّعائه رسالة الله ، فانها مشحونة بالعظات ، غاصة بالعبر ، ولاسيما فيما يتعلق بشخص يوسف ، وارادته الحديدية ، وصبره على كيد امرأة العزيز ، بعد صبره على كيد إخوته ، وتفضيله السجن على فساد الخلق ومحاربة الله ، وامتناعه عن الملك بعد أن طلبه من السجن حتى تقوم الأدلة على براءته ، ويعلم الناس جلية أمره ، كلّ ذلك أدلة على صدق يوسف ، وقوّة إرادة يوسف ، واصطفاء الله ليوسف ، وإعداده لمنصب هو أعلى ما يصل إليه البشر فى هذه الحياة : هو منصب الرسالة العظمى ، والخلافة فى الأرض ، ليقيم العدل ، ويحكم بين الناس بالحق .

هذا هو الفخر لا قعبان[1] من لبن شيبا بماء فكانا بعد أبوالا

(٤) (فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين) أى أنسى الشيطان الشرابىّ أن يذكر يوسف وقصته عند ربه وسيده فكان ذلك سببا فى بقائه فى السجن بضع سنين ، والبضع من ثلاثة الى تسع ، والمراد أنه لبث مدّة بين ثلاث وتسع ، أما تحديدها فلا دليل عليه ، وهى عقوبة من الله تعالى ليوسف على قوله للذى ظنّ نجاته من الرجلين (اذكرنى عند ربك) روى ابن جرير عن مالك بن دينار قال : لما قال يوسف للساقى اذكرنى عند ربك قال قيل ليوسف اتخذت من دون الله وكيلا ؟ لأطيلنّ حبسك . فبكى يوسف ، وقال : يا ربّ أنسى قلبى كثرة البلوى ، فقلت كلمة : فويل لأخوتى .

وروى عن الحسن قال : قال نبىّ الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله يوسف لولا كلمته مالبث فى السجن طول مالبث . يعنى قوله : اذكرنى عند ربك . قال ثم يبكى الحسن فيقول : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا الى الناس .

وقد عاقب الله تعالى يوسف بلبثه فى السجن بضع سنين على هذه الكلمة ، وهى قوله (اذكرنى عند ربك) ليرينا أنه لا ينبغى لمن أعدّه الله للرسالة أن يعرض حاجته على أحد سوى الله تعالى ، ويقول المفسرون ان هذه العقوبة لأن يوسف ممن اصطفاهم الله تعالى ، فلا يليق به والحالة هذه أن يلجأ الى مخلوق فى دفع ظلامته ، وان كان التعاون على الخير ودفع الظلم مشروعا لعامة الناس إلا أن اللائق بمقام يوسف تفويضه الأمر الى الله تعالى ، وهو كقولهم [حسنات الأبرار سيئات المقرّبين] هكذا يقول المفسرون .

وأنا أرى أن من حق يوسف أن يبلغ ظلامته للملك بواسطة الساقى الذى كان معه ، وأن يعمل

---

[١] واحده قعب بفتح القاف ، وهو القدح ، شيباً : خلطاً .

على تبرئة نفسه مما ألصق به .

وقد وصف الله المؤمنين بقوله (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون « ٣٩ » [١]) وقوله (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا « ٢٢٧ » [٢]) وإذا كان يوسف لم يستطع أن ينتصر لنفسه بالعمل فلا أقلّ من القول والبلاغ ، وإذا لم يكن من حق يوسف أن يدفع الظلم عن نفسه فلماذا واجه العزيز فى حضرة زوجه بقوله (هى راودتنى عن نفسى) أليس ذلك دفاعا عن النفس ، وانتصارا من الظالم ؟ فإذا قال للساقى (اذكرنى عند ربك) فهو يريد دفع ظلم عن نفسه بواسطة رجل أسدى إليه جميلا ، وأحسن إليه أيام إقامته معه بالسجن ، عند ملك هو صاحب الأمر والنهى . وإذا أنسى الشيطان الساقى أن يذكر يوسف عند سيده فإنما ذلك لأن بلاءه وفتنته لم تنته بعد ، وقدّر الله له أن يبقى فى السجن بضع سنين بعد خروج الساقى .

وقد يؤيد أن يوسف محق فى رفع ظلامته ، وأنها ليست محلّ غضب الله أو عتبه عليه قوله (فأنساه الشيطان ذكر ربه) أى ان ذلك الانساء الذى سلط على الساقى كان من الشيطان ، ولولا أن الذكر كان موضع رضا من الله تعالى ما كان الانساء من الشيطان .

أما ما ورد من روايات كرواية ابن جرير وغيره فقلّ أن يصحّ منها شىء كما قال أحمد بن حنبل قلّ أن يصحّ فى باب التفسير شىء .

(٥) (وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) رأى الملك هذه الرؤيا ، وعرضها على الملأ والأشراف من قومه من علماء وغيرهم وطلب منهم أن يفتوه فى تلك الرؤيا ان كانوا ممن يعبرون الرؤيا (تعبرون) تذكرون عاقبتها وآخر أمرها كما تقول عبرت النهر : إذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه ، ونحوه أوّلت الرؤيا : إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها (قالوا أضغاث أحلام) تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث ما جمع من أخلاط النبات وحزم ، الواحد ضغث ، فاستعيرت لذلك ، والاضافة بمعنى من : أى أضغاث من أحلام . والمعنى هى أضغاث أحلام ، وقد جمع مع أنها حلم واحد ، كما تقول فلان يركب الخيل ، ويلبس عمائم الخز ، لمن لا يركب إلا فرسا واحدا ، وما له إلا عمامة فردة ، تزيدا فى الوصف ، فهؤلاء أيضا تزيدوا فى وصف الحلم بالبطلان فجعلوه أضغاث أحلام ، ويحتمل أن الملك قد قصّ عليهم مع هذه الرؤيا غيرها .

(وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) إما أن يريدوا المنامات الباطلة خاصة فيقولوا ليس لها عندنا تأويل ، فان التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة ، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا فى تأويل الأحلام مطلقا بعلماء نحارير (وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمّة أنا أنبئكم بتأويله) الضمير للصاحبين : أى قال الرجل الذى نجا من الصاحبين وهو الساقى ، وقد تذكر علم يوسف بالرؤيا وتأويله لها بعد مدّة : أى انه لم يتذكر وهو فى مجلس الملك الذى وجه فيه الى الملأ

[١] الشورى . [٢] الشعراء .

سؤالهم عن هذه الرؤيا ، بل تذكر قصة يوسف وعلمه بعد مدّة طويلة من الوقت الذى وقع فيه السؤال (أنا أنبئكم بتأويله) أخبركم بمآل هذه الرؤيا وعاقبتها (فأرسلون) أى الى يوسف فى السجن ومهلا لى طريق مقابلته فيه ، فأرسلوه فذهب إليه وقابله (يوسف أيها الصدّيق) أى وقال (يوسف أيها الصدّيق) الخ ، والقصة فيها إيجاز على عادة القرآن أن يحذف من القصة مايدلّ عليه السياق، وفيه دليل على أن العلم يرفع من شأن صاحبه ، ويوجه الناس إليه أنى وجد وحيث حلّ ، وقد وصف يوسف بأنه [صدّيق] أى كثير الصدق حتى أصبح الصدق خلقا له ، وعادة لما جرّب عليه وهو معه فى السجن من صدقه البالغ ، ولما جرب عليه من صدقه فى تأويل رؤياه .

(أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف) الخ (قال تزرعون سبع سنين دأبا) أى دائبين على عادتكم المستمرة، أو هو خبر بمعنى الأمر : أى ازرعوا سبع سنين دائبين على زراعتكم (فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون) أى اتركوا ما حصدتم من الغلال فى سنبله لئلا يأكله السوس إذا درستموه (إلا قليلا مما تأكلون) أى فادرسوه ، والمراد أن يزرعوا سبع سنين بجدّ واجتهاد ، وكل ماجمعوه من الغلال يدّخرونه فى السنابل حتى لايتعرّض للفساد ، ولا يدرسون منه إلا القليل الذى يحتاجون إليه فى الأكل ، ذلك هو تأويل البقرات السمان ، والسبع السنابل الخضر أوّلها بسنين خصبة فيها الزرع والخير ، لأن السمين من البقر هو الذى يؤكل ، وهو الذى فيه الخير لأصحابه فى لحمه ولبنه وما يتعلق به ، وكذلك السنابل الخضر .

(ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلهن ماقدّمتم لهنّ إلا قليلا مما تحصنون) أى ثم يأتى بعد السنين السبع الخصبة سبع سنين مجدبة شديدة على الناس يفنين ماقدّمتم لهنّ : أى يأكل أهلهنّ ما ادّخرتم لأجلهنّ فى السنين الخصبة (إلا قليلا مما تحصنون) تحرزون لبذرو الزراعة ، ذلك هو تأويل البقرات العجاف والسنابل اليابسات (ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) أى ما يصلح للعصر كالعنب والزيتون والسمسم ، والمراد بذلك كثرة النعم ، وعموم الخصب فى الزرع والثمار ، فيغاثون فيه بالمطر ، ومتى حلّ المطر حلّ الخصب والخير .

وقد أخذ يوسف عليه السلام من تحديد البقرات والسنابل بالسبع أن سنى القحط سبع ، وأن سنى الخصب كذلك . أما الاخبار بأن يكون عام بعد السبع فيه يغاث الناس فليس فى الرؤيا مايدلّ عليه ، فليكن ذلك من إلهام الله ووحيه له ، ولو قال ثم يأتى من بعد ذلك وقت فيه يغاث الناس لقلنا ان يوسف فهم ذلك من تحديد البقر والسنابل بالسبع ، ومعناه أن بعد السبع المجدب الماحل يكون الخصب المستمرّ ، أما وقد حدّده بالعام ، والعام : هو السنة فلا سبيل الى ذلك التحديد إلا من طريق الوحى أو من طريق اختصّ يوسف بفهمه . وهو تأويل خطير يهمّ الملك أن يقف عليه ، ويعلم مصدره ويتبين قيمة هذه الرؤيا ، لأنه خطر يهدّد دولته وأمّته ، وهو خطر المجاعة التى أخبر عنها يوسف ، ولو كانت مجاعة تبقى شهرا أو سنة لهان الأمر ، ولكنها مجاعة تبقى سنين . والمهمّ من تأويل يوسف فوق اخباره بهذه المجاعة أنه وصف للملك طريق الخلاص منها ، وتوقيها ، حتى لاتقع أمّته فى ضيق . ذلك كله مما حمل الملك على أن يطلب يوسف ،

وهو لم يعلم من أمره أكثر من أنه فتى سجين ، وكان يظنّ أنه سجن بجريمة عادية نسبت إليه كبقية السجناء ، وما كان يدرى أن هناك مؤامرة قد دبرت ضدّه كفاء أمانته وعفته ، و إبقائه على شرف العزيز ، ومقابلة الاحسان بالاحسان . وجريمة هذه أسبابها لا بدّ أن يقيض الله للمتهم بها من يخلصه منها .

(٦) (وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهنّ إن ربى بكيدهنّ عليم) طلب يوسف لمناسبة تأويله رؤياه الخطيرة ، فلم يكن من يوسف إلا التأبى ، وقال للرسول (ارجع الى ربك) وسيدك وهو الملك (فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهنّ) أى ماشأنهم وقصتهم ، وهل لاحظن على يوسف مايؤيد تهمة امرأة العزيز أو مايبرئه ؟ ولعلّ يوسف طلب أن يكون السؤال للنسوة لأنه لم يكن يظنّ أن امرأة العزيز تعترف أمام الملك بأنها هى الخاطئة ، فكان أمله فى النسوه فوق أمله فى امرأة العزيز .

وتأمّل ذلك الصبر البالغ ، وهذه الارادة الحديدية التى تجلت فى يوسف ، يطلبه الملك من السجن لحاجته اليه ، ومعنى ذلك أن مدّة المحنة قد انتهت ، وآذنت بالخروج ، وكان المنتظر أن يتلقى يوسف ذلك الأمر بفارغ الصبر ، فيهرول الى الخروج ، ولكن يوسف الصدّيق ، يوسف المعدّ لأن يكون رسولا ، يوسف الذى امتحن بامرأة العزيز وراودته عن نفسه فقال لها (معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون) فحفظ لربّ البيت احسانه ، ولمولاه وخالقه فضله عليه ، يوسف صاحب هذا الخلق المتين لم يكن همه أن يخرج من السجن فحسب ، وانما همه أن يخرج ظافرا منتصرا ، همه أن يخرج من هذه الفتنة كالابريز الخالص ، وأن يظهر للجماهير أنه قدوة حسنة ، ومثال صالح فى الخلق وحسن السيرة .

ولو تصوّر الانسان مايقاسيه السجين ، وما يلقى من شظف العيش ، وأن يوسف قد لبث فيه بضع سنين بسبب نسيان صاحبه أن يذكره عند ربه وقد أوصاه بذلك .

لو تصوّر الانسان ذلك كله لعلم مقدار التضحية التى ضحى بها يوسف الصدّيق فى ردّه رسول الملك وقوله له (ارجع الى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهنّ) ومعنى ذلك أنه لايريد أن يخرج من السجن الا حيث ثبتت براءته ، وعلم الناس جميعا أن صحيفته بيضاء نقية ، لم تتدنس بشىء من الغبار ، وذلك حزم وعزم من يوسف يحفظه له التاريخ ، وحسبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه [لو لبثت فى السجن مالبث يوسف لأجبت الداعى [1]]

وهى شهادة لها قيمتها ، ومنقبة ما أعظمها من منقبة ، تعلمنا كيف يستهين الانسان بالشدائد فى سبيل طهارة النفس و براءة العرض ، وترينا أن عذاب الجسم وان عظم دون عذاب الروح ، فان عذاب الجسم الى زوال ، أما عذاب الروح ، وألم الضمير ووخزه فهو عذاب الأبد فلا يوازيه شىء من عذاب الجسم ألا ترى الى المؤمنين فى كل زمان يستهينون بعذاب أجسامهم فى الجهاد والحروب فى سبيل راحة قلوبهم ، وقيامهم بواجبهم نحو دينهم وربهم .

وقد ترى فى الرجل مالا يحصى من الضربات والطعنات و يبلغ به الألم الجسمانى مايبلغ ، وهو

---

[١] رواه البخارى .

راض مطمئن ، لأنه فى سبيل راحة قلبه واطمئنان نفسه ، ولا عجب فهو ألم موقت فى سبيل نعيم دائم، وهو كما يتلقى الرجل العمليات الجراحية وفيها شق بطن أو بتر عضو من أعضائه برباطة جأش. وقلب راض فى سبيل أن يعيش بعد ذلك عيشة مريحة ويحيا حياة هادئة مطمئنة .

وقد حدثنا التاريخ عن سلفنا الصالح أن الرجل كان ينتهى من ميدان القتال وفيه من أثر الطعن والنزال مايودى بحياته ، ويمر عليه صاحبه وهو يلفظ النفس الأخير ، فيأخذ فى تسليته فيلقاه مغتبطا بحاله ، مسرورا بما آل اليه ، لأنه مات فى سبيل الواجب ، وقتل لأعلاء كلمة الله ، وسيموت شهيدا يشهد له دمه وعمله ، وسيكون قدوة صالحة لمن يأتى بعده .

كل ذلك فى سبيل راحة النفس وسعادتها ، وكل ذلك فى سبيل حياة طيبة تتبع هذه الحياة ، وكل ذلك فى سبيل الذكرى الطيبة والسيرة الحسنة .

فنبى الله يوسف يضرب لنا ذلك المثل وهو رضاه بالسجن حتى تظهر براءته ليرينا أن شظف العيش ، وخشونة الحياة ، وحرمان الرجل من ذلك النعيم الذى نرى : سهل وهين فى سبيل السيرة الطيبة ، وراحة القلب ، وأن تعلم الناس أن السجين برىء مما نسب إليه ، بعيد مما رمى به . وهكذا يجب أن يضحى الناس براحة أجسامهم فى سبيل راحة قلوبهم ، وأن يفضلوا الحياة الخشنة التى فيها كرامتهم على الحياة الناعمة إذا كان فيها مساس بخلقهم .

وقد نلمح من خلق يوسف المتين ، وإرادته الحديدية ، وصبره على المكاره ، واحتماله فى سبيل الكرامة وحفظ الخلق — قد نلمح من ذلك سلوة الزعماء وهم فى غيابة السجون ورضاهم وهم مكبلون بالسلاسل والأغلال ، وطمأنينة نفوسهم وان كانت أجسامهم فى شقاء ، وثبات أفئدتهم وان كانت أجسادهم فى عناء .

نعم قد يكون ذلك فى الزعماء ماداموا مؤمنين بصحة مبادئهم ، موقنين بأن حقهم سينتصر على باطل غيرهم ، واثقين بأن الله ناصرهم ومؤيدهم ، فاذا جاءهم رسول وهم فى السجن يساومهم على بلادهم فى سبيل راحة أجسامهم رفضوا ذلك بإباء وشمم ، وقالوا للرسول كما قال يوسف ارجع الى ربك وقل له (رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) ولا سبيل الى المساومة فى مصالح البلاد ، ونكون خائنين للأمانة التى وضعت فى أعناقنا ، والعهد الذى أخذناه على أنفسنا ، إذا نحن أثرنا راحة أجسامنا على راحة قلوبنا وضمائرنا ، ونكون مثلا سيئا وقدوة غير صالحة إذا نحن أجبناه الى ماطلب ، وقديما عذب الناس فى سبيل مبادئهم ، فكان عذابهم نصرا لها ، وتأييدا ، وكان سجنهم إطلاقا للبلاد من أغلالها ، وفكا لها من قيودها وسلاسلها .

وليقولوا للرسول الغاصب : ان لنا قدوة حسنة فى نبى الله يوسف ، وضعته الشهوة الجامحة فى السجن ، فلما طلبه الملك لعلمه وفضله ، قال له لا أخرج من السجن إلا حيث أجيب طلبى ، وهو أن تسأل النسوة عن أمرى ، ليخبرنك أبرىء أنا أم مجرم ؟ وهل سجنى كان ظلما أم حقا ؟ فلتكن إجابتنا لك كاجابة يوسف لرسول الملك : لانخرج من السجن إلا إذا نظر الذى أرسلك فى مطلبنا ، واعترف بأننا محقون لامبطلون ، وأننا بريئون لامتهمون ، و إذا لم نستطع أن نكون كنبى الله فى إيثار السجن الى أن نجاب الى مانطلب فلنكن كنبى الله فى أن لا يكون خروجنا

من السجن فى سبيل عمل هو ضارّ ببلادنا ، وله مساس بخلقنا وكرامتنا ، فلا أقلّ من أن نخرج كرماء كما دخلنا ، لم نتسبب لأمتنا فى ضرر ، ولم نخلف لها عارا ، وذلك أقلّ ماتتطلبه الزعامة من حق ، وماتوجبه من تضحية ـ اما أن ندخل السجن لأننا نطالب بحق ، ونخرج منه لأننا اعترفنا بأننا مخطئون فيما نطالب به فذلك مالايليق بزعيم ، ولاينبغى لمن يعرف لنفسه كرامة .

(٧) (فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ان ربى بكيدهنّ عليم) طالب رسول الملك أن يرجع الى ربه وهو الملك الذى طلب يوسف ، وأن يسأله عن النسوة اللاتى كنّ مع امرأة العزيز وقطعن أيديهنّ ماشأنهم ؟ والمراد تهييج الملك ليقف على حقيقة الواقعة التى تتعلق بيوسف فى ذلك الوقت الذى يحتاج اليه فيه ،وقوله (ان ربى بكيدهنّ عليم) أراد به مولاه وخالقه ، فهو عليم بكيدهنّ ، وسيجازيهنّ على ذلك الكيد ، أو أراد به العزيز ، علم كيدهنّ عند وقوع الحادثة ، وشهادة الشاهد أمامه ، وقال بعد شهادة الشاهد (انه من كيدكنّ ان كيدكنّ عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) ولك أن تقول : انه أراد بالربّ الملك ، وأنه عليم بكيد النساء .

ومن أدب يوسف مع امرأة العزيز أنه لم يذكرها بسوء أمام الرسول ، ولم يعرض لها فى القصة وكأنها أجنبية عنها ، بل طلب من الملك أن يسأل النسوة .

(قال ماخطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه) أى فأحضر الملك النسوة ومعهنّ امرأة العزيز وسألهنّ ذلك السؤال .

وقد أضاف المراودة الى النسوة جيعهنّ لأنهنّ راودنه لأجل امرأة العزيز ، لا لأنفسهنّ ، وقلن له أطع مولاتك وسيدتك ، متعاونات معها على الاثم ، مشتركات فى الحرمة ، لذلك نسب المراودة اليهنّ .

أما القول بأن كلّ واحدة من النسوة راودت يوسف عند الوليمة التى أقامتها امرأة العزيز فهو بعيد ، لأنهنّ فى ضيافتها . أوّلا فلا يشاركنها فى معشوقها ، ولأنهنّ رأينه لأوّل مرّة يمرّ عليهنّ . ثانيا ولم تجر العادة بأن امرأة تراود رجلا أو فتى لأوّل مقابلة ، فالظاهر أن المراودة كانت منهنّ لأجل امرأة العزيز ، أولم يكن منهنّ مراودة مّا وانما كان منهنّ رضا واقرار لما فعلته امرأة العزيز فى قولها (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) وقد عهد اضافة الفعل الى الراضى به ، وعقوبته عليه لجريمة الرضا .

وقد نسب الله تعالى الى قوم صالح أنهم عقروا الناقة ، وما عقرها إلا واحد منهم ، ولكنهم لما رضوا بذلك العمل المنكر وأقرّوه ، وكان فى استطاعتهم انكاره نسب العقر إليهم جيعا ، ليرينا أن الأمة متضامنة متكافلة فى خيرها وشرّها ، وأن على الناس إذا رأوا منكرا أن يضربوا على يد صاحبه ، وإلا عمهم الله بعذاب من عنده .

وأولئك النسوة لم يبلغنا الله تعالى عنهنّ الانكار على امرأة العزيز عند ماقالت (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكونا من الصاغرين) بل حدّثنا القرآن أنهنّ أخذتهنّ نشوة الجمال ،

وزهلن عن أنفسهنّ عند مرور يوسف عليهنّ ، وأن امرأة العزيز استطاعت أن تعذر الى نفسها أمامهنّ حيث نملن بيوسف الى ذلك الحدّ الذى أنساهنّ أنفسهنّ حتى قطعن أيديهنّ ، واستطاعت أن تقطع ألسنتهنّ عن الكلام فى شأنها ، والتحدّث فى قصتها ، وكأنها تقول لهنّ لم تستطعن أن تثبتن أمام جمال ذلك الفتى لأوّل مرّة مرّ عليكنّ فيها ، فلتعذرننى وقد عاشرته المدّة الطويلة وصبرت عليه ذلك الزمن ، فهنّ راضيات عن عمل امرأة العزيز مع يوسف ، وتهديدها له ، بل وفوق الراضيات ، ولو كنّ فى مركز امرأة العزيز لفعلن كما فعلت ، وأكثر مما فعلت .

فلا عجب أن ينسب الملك المراودة إليهنّ جميعا مع أن الذى راود يوسف هو امرأة العزيز وحدها.

(قلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء) وحاش لله: كلمة تنزيه ، والمراد تنزه الله أن ينسب سوءا ليوسف ، كأن نسبة السوء إليه ضرب من المحال ينبغى تنزيه الله منه ، والمراد منها مع التنزيه التعجب من عفته ونزاهته (ماعلمنا عليه من سوء) أى من أىّ نوع من أنواع السوء كما يعطيه لفظ «من» الدال على النفى المستغرق (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) حصحص : أى ظهر الحقّ أجرد أمرد لاتستره شبهة ولاتهمة : كما يحصّ ويسقط الشعر أو ريش الطائر. أوثبت واستقرّ، من قولهم حصحص البعير إذا ألقى مباركه للاناخة فالكلمة بمعنيها أبلغ مايعبر به عن المعنى المراد فى هذا المقام ، وكانت حصحصة الحق وظهوره بما ظهر من وقائع القصة ، وهى فرار يوسف منها [أوّلا] ومن ايثاره عيشة السجن البائسة فى خشونتها ومهانتها على عيشة القصور العالية فى نعمتها وزينتها [ثانيا] ومن شهادة النسوة اللائى تصبنه [ثالثا] (أنا راودته عن نفسه) مغلوبة على نفسى ، فاقدة لعقلى وشرفى وحسى (وانه لمن الصادقين) فى قوله (هى راودتنى عن نفسى) .

قال المفسرون : لما راعى يوسف حرمة سيدته فى قوله (مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهنّ) دون أن يقول مابال زليخا أرادت أن تكافئه على ذلك الفعل الحسن ، فأزالت الغطاء واعترفت بأن الذنب منها .

ونظيره مايحكى أن امرأة جاءت بزوجها الى القاضى وادّعت عليه المهر ، فأمر القاضى بأن يكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود من أداء الشهادة ، فقال الزوج : لاحاجة الى ذلك فانى مقرّ بصدقها فى دعواها ، فقالت المرأة لما أكرمنى الى هذا الحدّ فاشهدوا أنى أبرأت ذمّته من كلّ حق لى عليه اهـ .

يريدون أن امرأة العزيز لما رأت أدبا جما من يوسف قابلت ذلك الأدب بتلك الشهادة (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان «٦٠، [١]») ولم يكن ذلك أوّل أدب رأته من يوسف فان الفتى الذى يؤدّبه ربه ليصطفيه لرسالته ، ويهذبه ليختاره وسيطا بينه وبين خلقه ، لاينتظر منه إلا أن يكون مؤدّبا ، وهل أوقعه فى هذه المحنة مع امرأة العزيز إلا أدبه مع مولاه الذى قال لامرأته (أكرمى مثواه) .

ولو أن امرأة العزيز أرادت أن تقابل يوسف بمثل ما فعل ، وتجزيه على أدبه جزاءا وفاقا ،

---

[١] الرحمن .

ما وقفت منه هـذه المواقف ، ولـكن سلطان الجمال ، وضعف الخلق ، وسوء التربية ، هو جعلها تسقط هذه السقطة ، وتـكبو تلك الـكبوة ، وقد لا يكون فى حسبانها أن تسئ إليه ، ولـكنها الشهوة الجاهلة ، والمحبة العمياء ، وغرورها بنفسها وسلطنة زوجها ، أوقعتها فيما أوقعتها ، ووصلت بها الى ما وصلت ، فلما عاد إليها رشـدها ، ويئست من الحصول على غايتها ، ووصلت المسألة الى الملك وطلب النسوة ، وسألهن عما يعلمن فى يوسف ، وظهر للناس من أمر يوسف ما يثبت براءته رأت أن تعترف بالحق وتبرئ ساحة ذلك الفتى المتهم فقالت (الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه) ولم تقف فى تزكيتها ليوسف عند ذلك الحد ، بل جعلته فى عداد الصادقين فى كل ما يقول ويفعل ، وهى شهادة لها قيمتها من امرأة العزيز أمام الملك ، بعد شهادتها ببراءته أمام النسوة ، وقولها لهن (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى امتنع بقوة وشدة ، فوق براءة يوسف أمام العزيز عقب حادث المراودة ، فالنسـوة سمعن من امرأة العزيز براءته ، وشهدن أمام الملك ببراءته ، وامرأة العزيز اعترفت أمام الملك بالبراءة ، والعزيز علم من تحقيق تهمة المراودة ، وشهادة الشاهد أن يوسف برىء ، والله شهد له بعد هـذا وذاك [وطوبى لمن شهد الله له] ,أنه صرف عنه السوء والفحشاء وأنه من عباده المخلصين ، فماذا بقى بعد هذا من شبهة توجه الى يوسف ؟ أو مماحكة يتعلق بها الـكاذبون والمؤلفون ؟ .

(ذلك ليعـلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم) من كلام امرأة العزيز ، لأن ذلك وقع وهو فى السجن ينتظر جواب الرسول ، والضمير فى (يعلم) ليوسف : أى أنها أقرت بنزاهته وعفته وهو فى السجن ليعلم أنها لم تتـكلم فيه وهو غائب بباطل حتى تـكون خائنة له ، لأن الله لا يهدى كيد خائن ، وكأنها تلوم نفسها على الخيانة التى خانتها لخادمها الأمين ، وفتاها المطيع ، إذ ألصقت به تهمة هو برىء منها ، كما تعنف نفسها على خيانة بعلها وزوجها العزيز إذ راودت فتاها عن نفسه ، وذلك خيانة له ، وتغبط يوسف على أمانته وعفته فى بيت سيده الذى أمرها أن تـكرم مثواه ، كما تغبطه على أمانته مع ربه وخالقه فى قولها (وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) وكأنها تقول: ان الله تعالى لم يوفقها فى كيدها ليوسف ، لأنه كيد أساسه الخيانة ، وكيد ذلك حاله لا يهدى الله صاحبـه ولا يوفقه للنجاح ، أما الـكيد الذى أساسه الاصلاح ، وتثبيت الفضيلة فى الأرض ومحاربة الفساد ، فانه كيد محمود ومكر حسن .

وجدير بذلك الـكيد أن يؤيده الله وينصره ، كما يمكر الرجـل المربى بولده ليصرفه عن الفاحشة ، ويحوله إلى الطاعة ، وكما يمكر الله بأعداء الرسـل ويدبر لهم ، لينصر الحق ، ويخذل الباطل (ومكروا ومكر الله والله خير المـاكرين « ٥٤ » [1]) لأن مكره للاصـلاح ، أما مكرهم فهو للافساد ومحاربة الرسل .

ثم ترينا الآية الـكريمة [وفيها الشهادة ليوسف من امرأة العزيز بالصـدق والعفة] أن الله تعالى وضع فى نفوس الفسقة إجلال الأتقياء وإكبارهم ، وان لم يضع فى قلوبهم محبتهم ، فامرأة

---

[١] آل عمران .

العزيز على حرمانها من طلبها ، وتعفف يوسف عن تمكنها من شهوتها ، وذلك من شأنه أن أن يوغر الصدور ، و يملأها حقدا وحنقا ، وهو مادعاها الى أن تلصق به من التهم ماهو منه برىء شهدت له فى النهاية بالصدق والعفة ، واعترفت له بالكرامة ، وهى تحله من سويداء القلب المحل الأول فى الاحترام والاجلال .

وتلك آية من آيات الله فى الفرق بين أهل الاستقامة وأهل الفسوق والفجور ، أودع الله فى قلوب الناس اجلال المطيعين ، واحترامهم ، حتى من الفسقة والفجرة .

وانك لترى ذلك ظاهرا جليا فى طبقات الفراشين والبوابين فترى المستقيم منهم يهابه سيده ، ويخشاه رب البيت ، و يعمل لغضبه حسابا أى حساب ، و إن كان سيده فاسقا ، وترى سيده الفاسق على العكس من ذلك ، تراه صغيرا فى نظر بوابه ، مهينا عند فراشه وسائر خدمه ، حتى ولو كانوا فسقه يشتركون معه فى الفسق والفجور ، (وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم) من تتمة كلام امرأة العزيز تقول فيه : انها لم تبرئ نفسها من الاثم ، ولم تنزهها من الفاحشة ، لأن النفس أمارة بالسوء ، فهى لم تخرج عن أنها امرأة غير معصومة ، عرضة للعصيان ، فاذا نسبت الى يوسف تهمة هو برىء منها فذلك من نفسها الأمارة بالسوء (إلا مارحم ربى) بالعصمة من المحرمات (إن ربى غفور رحيم) رجوع منها الى الله تعالى فى أن يغفر لها ماسلف و يرحمها فى جملة من يرحمهم .

(٨) (وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين).

بعد أن ظهرت براءة يوسف مما نسب إليه ، وخرج من الفتنة مرفوع الرأس وضاء الجبين ، و بعد أن طلبه الملك ليخرج من السجن فأبى ألا تظهر براءته مما نسب إليه ، بعد ذلك كله طلبه الملك ليستخلصه لنفسه : أى يجعله خالصا له من شائبة الاشتراك ، وقد كان يوسف قبل ذلك خالصا للعزيز (فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى فلما حضر يوسف من السجن وكلمه الملك ، وعرف مواهبه وكفايته ، قال إنك اليوم عندنا (مكين) صاحب مكانة ومنزلة (أمين) على كل شىء يسند إليك ، لأن الذى ائتمن على امرأة سيده عند طلبها الفاحشة ، و بعد أن غلقت الأبواب وقالت له (هيت لك) ولم يكن له فيه مانع من الفاحشة سوى نفسه التى بين جنبيه وضميره الذى يتوعده بالتأنيب والتوبيخ — ان الذى يؤتمن فى مثل ذلك الوقت الذى مهدت له فيه وسائل المعصية ، وأزيل من طريقها كل عقبة ، وقد طلبته إليها سيدته ومولاته فيقابلها بالنفور والاشمئزاز ، و يستعصم من المعصية فى قوة وشدة ، الذى يصنع ذلك كله ، و يؤثر حياة السجن على المعصية ، وشظف العيش فى سبيل مرضاة الله على نعيمه فى سبيل مرضاة الشيطان :

جدير بالملك أن يطلب أن يكون بطانة له خالصة من دون الناس ، يأتمنه على أسراره ، و يأتمنه على شئون دولته ، و يأتمنه على خاصته وآل بيته ، ولذلك أطلق فى قوله (أمين) ومعناه أمين على كل شىء يؤتمن عليه ، فانه لاشىء أصدق من التجربة ، ولا أدل من الفتنة ، والأعاصير تمر بالانسان ، فيخرج منها إما مزعزع العقيدة ضعيف الارادة ، واما ثابت القلب رابط الجأش ، قد صهرته الشدة ، وصقلته الحوادث ، ومحصت نفسه الشدائد ، وأصبح رجلا عظيما مستعدا للطوارئ ، مهيئا للأحداث .

وقوله (فلما كلمه) يشير الى أن الملوك من شأنها اذا سمعت برجل نابه وشاب مثقف ، خبير بالشئون العامّة ، يستطيع أن يستفيد منه الملك فى مهامّ دولته ، وأن يستعين به على المشاكل التى تعرض له — من شأن الملوك الذين يحرصون على مستقبل دولتهم ، و يعملون على أن يبقى الملك فيهم ، أن يتخيروا لملكتهم أصلح الناس ، وأعلمهم بشئون الحياة ، وأدراهم بتسيير الأمور .

ومن الملوك من يحقد على الرجل النابه، و يتألم من ذائع الصيت، و يتأفف من حسن المسلك وكأن الرجل الكفء فى أمته عدوّ من ألدّ أعدائه ، وخصم من خصومه ، وما درى أنه قوة من قواه وعدّة ينفعه وقتا مّا ، وأن العلم فى كلّ زمان لا غنى للناس عنه ، والكفاءة فى الرجال ممن تنتفع بها الدولة ، وتسود بها البلاد ، وأن الفقر المدقع ، والشقاء الذى لا يدانيه شقاء ، فى خلوّ الدولة من رجال ذوى كفاءة ومقدرة فى شتى الشئون ، ومختلف العلوم ، وأنه لا تستوى أمّة غنية برجالها وعلمها ، وأمّة فقيرة فى العلم والرجال ، وما سبقنا الغربيون إلا بغناهم برجالاتهم ، وعلومهم النافعة المفيدة ، وما تأخر المسلمون إلا بفقرهم من هذه النواحى .

ولو أن ملوك المسلمين تأسوا بذلك الملك الذى طلب يوسف ليستخلصه لنفسه ، و يدّخره للملمات ، لو أنهم تأسوا بذلك الملك ، فاحتضنوا النابه من أممهم ، والكفء من رجالاتهم لسعدوا وأسعدوا شعوبهم بذلك العمل ، ولكنهم مع الأسف الشديد يستخلصون من يوافقونهم على شهواتهم ، و يطاوعونهم على أهوائهم ، و يسارعون الى إشباع نهمهم ، وسدّ مطامعهم ، يستخلصون من القوم أدناهم نفسا ، وألأمهم طبعا وأكثرهم نفاقا ، وأبعدهم عن الأمانة ، وعزّة النفس ، وهم الذين إذا استشارهم الملوك ضللوهم، واذا استنصحوهم خانوهم، و يصوّرون لهم النابه من الأمّة بصورة بشعة ، و يعملون على أن يجعلوا بينه و بين الملك سدّا كما يصوّرون نهضة الأمّة التى فيها حياتها وحياة ملكها بصورة تتقزّز منها النفوس، وتأنف لها الطباع، و يجتهدون فى أن يضعوا الأشواك والعقبات فى سبيل هذه النهضة لدى الملك ، و يفهمونه أنها حركة يراد بها الشرّ ولا يراد بها الخير فيحوّلون وجهه عنها ، و يصرفونه عن العناية بها .

وكأن هذه البطانة فهمت أن النصح لا يستسيغه الملك ولا يتقبله ، فآثروا عليه الغشّ ، وعلمت أنها إن أظهرته على أمور الدولة على حقيقتها سوف يضلله شخص آخر ، فيعود على البطانة باللائمة ، و يعتقد فيها الغشّ والتدليس .

لذلك رأت أن تؤثر عليه من الناحية التى يميل إليها ، وتصل إلى محبته لها من الطريق الذى ترى أنه أدنى لوصولها ، ولو أن تلك البطانة انتقلت الى ملك مصلح لسارعت الى الاصلاح والدعوة إليه ، وحببته فى ذلك العمل . لأنها تعرف من نفسه ميلا إلى الاصلاح .

وجملة القول أن بطانة الملوك اليوم إلا القليل منها تأخذ من نفسية الملك وتشير عليه ، ومن ميوله فتنصح له ، فما تأمر به البطانة هو مايهواه الملك و يحبه ، وماتنهى عنه البطانة هو مايبغضه الملك و يكرهه ، فهى تردّد صداه فى أمرها ونهيها ، وتنطق باسمه فى ترغيبها وترهيبها ، فليس لها كلمة مع الملك ، ولا تستطيع أن تقول له ان ما تشير به قد خفى عليك وجه المصلحة فيه ، وأن

الخير فى تركه ، وما تنهى عنه الخير للناس فى العمل به ، لأنها قبلت ذلك العمل على هذا الأساس وهى أنها لا رأى لها مستقلا ، ولا كلمة لها اذا كانت تغضب صاحب الأمر والنهى ، ومن دخل عملا على أساس أنه لا رأى له فيه ولا إرادة ، بل إرادته تبع لارادة الغير ، وتفكيره كذلك ، لاغنى له عن التزام ما دخل على أساسه .

وما الذى ينتظر من رجل يريد أن يعيش من ذلك الطريق ، وأن يجرى على أساس مثل هذه الوظائف ، لاينتظر من ذلك الصنف إلا أنه ينسى نفسه واستقلاله فى سبيل حصوله على الحطام وأنه يرى الحق مهيض الجناح ضعيف الجانب فلا يستطيع أن ينصره بكلمة ، وأنه يرى الباطل قد طغى على الحق ، فلا يجد من نفسه شجاعة على كلمة حق ، لأنه يتوهم أن فى كلمته إغضابا للملك ، وهو حريص على رضاه .

أما البطانة التى تتصل بالملوك من غير طريق الوظائف فقد يرجى فيها ما لا يرجى من بطانة الموظفين ، فانهم اذا نصحوا لا يخشون ضياع رزق أو فوات مال ، واذا غضب الملك لنصيحتهم اليوم فسيرضى عنها وقتا ما ، وكذلك البطانة التى يختارها الملك بعد الاختبار ، و يصطفيها لنفسه بعد التجربة الصحيحة كيوسف فانها تستطيع أن تصل الى ما لا تستطيعه البطانة الأولى ، وأن الملك الذى يوفق الى بطانة من ذلك الصنف لهو الملك الذى أراد الله بملكه خيرا .

يحدثنا أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق : إن نسى ذكره ، وان ذكر أعانه ، وان أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء : إن نسى لم يذكره ، وان ذكر لم يعنه » .

وروى البخارى عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما بعث الله من نبىّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، و بطانة تأمره بالشرّ وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله) .

(٩) (قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) من حقّ يوسف بعد ذلك البلاء الطويل ، و بعد مرور فتن كقطع الليل المظلم ، و بعد هذه التجارب التى عرّفته كيف يكيد الاخوة لأخيهم ، وكيف يفعل الحسد بالنفوس ، وكيف يفعل مكر النساء بالرجال الأبرياء ، والنفوس الطاهرة — من حق يوسف بعد ذلك كله ، و بعد أن قال له الملك (إنك اليوم لدينا مكين أمين) أن يطلب منه ذلك الطلب ، وهو أن يجعله وزيرا على خزائن أرض مصر ، يتولى تدبير شئونها ، و يحفظ خيراتها ، و يستعدّ للخطر الداهم الذى سيهاجم المصريين فى سنيهم المقبلة وأخبر به الملك فى تأويل رؤياه .

(إنى حفيظ عليم) تعليل لجعله على خزائن الأرض بأنه يحفظ ما استحفظه عليه من شئون الدولة ، عليم بتصريف الأمور و إدارتها على وجه مرضى لا اتكال فيه ولا تعقيد ، ومنهم من يفهم من قوله (على خزائن الأرض) اجعلنى وزيرا لمالية مصر ، لأن الخزائن جمع خزانة ، والشأن فى الخزائن أن يودع فيها المال ، وقوله حفيظ : أى أمين على المال ، لا أبعثره فى الشهوات و (عليم) عندى علم بجمع المال وتصريفه ، ولاشىء يحتاجه الوزير أهمّ من أمانته وعلمه ، ولاغنى

لأحدهما عن الآخر ، فقد يكون أمينا ولكنه جاهل ، فيضيع مال الدولة بجهله ، وقد يكون عالما ولكنه خبيث النفس خائن ، فيبعثر المال فى شهوته ومصالحه ، وقدّم الصفة الأولى وهى قوله (حفيظ) ليرينا أنها أهمّ شىء فى الوالى أو الوزير ، وأن الفاقد للأمانة خطر داهم على الدولة ومرافق البلاد ، و إذا كان عالما مع فقده لذلك الوصف كان خطره أشدّ ، فيستطيع أن يلعب بمال الدولة ، و يستخدم علمه ومواهبه فى تضليل الناس وتلبيس الأمور عليهم ، أما الأمين إذا كان جاهلا وغلط كان غلطه عن حسن نية وقصد حسن ، وقد يتنبه الى غلطه فلا يعود إليه بعد ، وكم جربت الأمم على الوالى أو وزير المالية الخائن من خيانات ، ووقفت له على فضائح ومخازى ، كلّ ذلك لأن أمر الدولة لم يسند الى وزير صالح فى خلقه وأمانته ، بل أسند الى لصّ من اللصوص غير أنه لصّ لم يتعوّد أن يدخل السجون ، لأن عنده من الحصانات والوظائف مايفرق بينه و بين لصوص السجون ومجرميها .

وكان من حق الناس أن تعتبر بقول يوسف للملك (إنى حفيظ عليم) ليريه أن من فيه ذلك الخلق ، وذلك العلم ، فهو أولى بأن يلى أمور الناس ، ولا سيما ما يتعلق بحياتهم ومعايشهم : وهو المال ، وان من فقد ذلك الخلق لايليق لذلك المنصب ولا ينبغى له ، بل يجب أن يطرد عن تلك الساحة طردا ، وأن يحال بينه و بينها بشتى الوسائل ، وبمختلف الطرق ، فيوسف الصدّيق يبين للملك كيف يختار الوزراء ، و يعلمه كيف يرشح لهذه الوظيفة ، و يريه أن الأساس الأوّل لذلك هو الحفظ والأمانة ، والأساس الثانى هو العلم والدراية ، ولا غضاضة على الملك فى أن يسمع من يوسف ، و ينتفع بنصح يوسف ، و يأخذ بمشورة يوسف ، فانه ملهم من الله ، ومؤيد منه ، ومن كان كذلك أخذت عنه الحكمة والعلم النافع المفيد .

وفى مطالبة يوسف للملك أن يجعله على خزائن الأرض لأنه حفيظ عليم دليل على أن المستعدّ لعمل مّا له أن يعرض نفسه على صاحب الشأن فيه لاختياره ، وليس فى ذلك غضاضة عليه ، فالذى يحسن علما من العلوم ، أوصنعة من الصنائع له أن يعرض نفسه ليفيد و يثمر فيما علم وأتقن ، والذى يجد من نفسه استعدادا للنيابة عن الأمة يعرض نفسه عليها و يبين لها مايمتاز به على غيره من علم أو صناعة أو فنّ من الفنون التى تحتاجها الأمة وتحتاج من يحذقها و يتقنها ، والذى يجد من نفسه استعدادا لأن يقضى بين الناس ويحكم بينهم له أن يطلب القضاء ، ويبين مواهبه ، وما حصل عليه من شهادات .

وماورد من النهى عن طلب الامارة والحرص عليه وكذلك القضاء فمحمول على الرجل الذى ليس مستعدّا ولا يستطيع أن يقوم بأعبائها ، و يدلّ لذلك أن أبا ذرّ الغفارى طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله عاملا وأميرا ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكبه ، وقال : يا أبا ذرّ انك ضعيف ، وانها إمارة ، وانها يوم القيامة خزى وندامة ، إلامن أخذها بحقها ، وأدّى الذى عليه فيها . رواه مسلم .

فما دام الانسان يأنس من نفسه الضعف ، و يعلم أنه لايستطيع الاضطلاع بالعمل الذى يطلب فمن الانصاف أن لايطلبه ، لأنه ان أجيب اليه والحالة هذه كان وجوده فى ذلك العمل الذى طلب

ضارا بمرافق البلاد ومصالحها ، وفوق ذلك كان قبوله لذلك العمل تعطيلا لمواهب الرجل الكفء ، وحرمانا للبلاد منه ، ولو أن الناس فطنوا لذلك وتوجه كلّ واحد لما يحسن من الأعمال ، ومايتقن من الفنون لاستراحوا وأراحوا .

فيوسف عليه السلام يضرب لنا هذا المثل ، ويطلب من الملك فى شجاعة وجرءة أن يجعله على خزائن الأرض ، ويعلل طلبه بأنه حفيظ عليم ، لنتأسى به فى ذلك ، ونطلب من ولاة الأمور أن يضعوا كلّ واحد فيما يحسن .

أما أن يطلب الرجل العمل ليعيش منه وان كان يجهله [وهناك من يعلمه من القوم] فذلك مالا ينبغى ولايليق . وكما لايليق بالرجل أن يطلب ما لاحق له فيه كذلك لاينبغى أن يجاب الى ذلك الطلب ، ولكن الناس غفلوا عن كلّ هذا ، فأخذ كلّ واحد يطلب مايحسن وما لايحسن ، وقد يجد ذلك المسىء من ولاة الأمور من يشجعهم على عبثهم ، ويجيبهم الى طلبهم .

ومن غريب مارأيت فيما يشبه ذلك ويقرب منه أن رجلا من المطر بشين قابلنى يوما مّا ، وطلب أن يعرف بيتى ليعمل موعدا نجتمع فيه ، فسألته عن سبب طلب الموعد ، فقال : ان له مؤلفا يريدعرضه علىّ . فسألته فى أىّ فنّ ذلك المؤلف ؟ فعرفنى أنه فى علم العقائد ، فدهشت ، وسكت طويلا ، لأنى أعلم أنه كاتب عادى فى احدى الوزارات ، وترقى تربية عامّة كما يربى طلبة المدارس الابتدائية ، فقلت له وضرورى أن تنشر ذلك المؤلف ؟ فقال نعم . وبعد أخذ موعد منى لم يحضر فيه ، وكأنه فهم من لهجة الكلام معه استنكارى عليه أن يدخل نفسه فى عداد المؤلفين .

وبعد أيام حضر عندى بالمنزل وقدّم لى نسخة من الكتاب ، وليس فى الكتاب جديد ، وانما هو قطع من جملة كتب ، قد ضمّ بعضها الى بعض فاعتقد أن مثل ذلك يسمى تأليفا .

والقرآن الكريم يلفتنا دائما الى الرجوع الى الرجال المختصين فى العلوم والفنون ، وأن نسأل أهل الذكر ، وأن نأتى البيوت من أبوابها ، ويهانا أن نأتيها من ظهورها ، ومتى يمنّ الله على الأمّة بالوقوف عند تعاليم القرآن ، والانتفاع بحكمه وأحكامه .

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى مثل تمكيننا له بانجائه من الجب وتخليصه من السجن وتزيينه فى عين الملك ، (مكنا له فى الأرض) وثبتنا قدمه بها ، أو المعنى وعلى ذلك الأسلوب الذى سمعت من التدرج بيوسف ، والتلطف فى مسألته ، إذ ألهمنا واحدا من اخوته أن يقترح عليهم أن يجعلوه فى غيابة الجبّ ، وسخرنا له من التقطه منه ، وباعه لعزيز مصر ، ثم حبيناه فيه ، ثم أنجيناه من كيد امرأته ، وأعناه على أن يصير فى السجن بعد أن طلبه الملك حتى وضح أمره ، وذاع صيته ، وطلبه الملك ليكون صفيا له من دون الناس .

بهذا الأسلوب اللطيف والتدبير الخفى الذى لايعرف مافيه من عبر سوى الخاصة من الناس ، مكنا ليوسف فى الأرض ، ومهدنا له طريق الملك والسيادة ، وهو الذى تدلّ عليه الآية فى آخر القصة (ان ربى لطيف لما يشاء) يريد أنه إذا شاء أمرا دبر أسبابه ، ووضع مقدّماته ووسائله ، وهو لطيف فى صنعه ذلك ، ينفذ بلطفه فى بواطن الأمور بدقة وخفاء ، ولذلك ختم الآية بقوله (إنه هو العليم الحكيم) .

ولاشك أن من يحيط علمه بالأشياء جليلها وحقيرها ، خفيها وظاهرها ، وهو مع ذلك حكيم فى صنعه ، لايعمل إلا وفق المصلحة ، هو لطيف لما يشاء ، وهو يقرب من قوله فى آية أخرى (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون) غير أن اللطف يمتاز بأن معه رفيقا بخلقه فى تدبيره ، ورجعه بهم فى الوصول الى مايريد ، فلطفه تدبيره الخفى فى رفق ولين .

ويؤيد ذلك المعانى الواردة فى اللطيف ، فمن معانيه الشفاف الذى لايحجب ماوراءه كالزجاج والماء النقى والماء الذى له هذه الصفة لايرى له لون ، ومن معانيه الصغير الذى بلغ فى صغره الى حد لايمكن الرائى من رؤيته ، أولا يمكنه من الاحساس به ، ومن معانيه أنه مقابل للشىء المادى كالروح وكل ماوراء المادة ، وهى معان يجمعها معنى الخفاء والدقة — ذلك هو المتبادر من كلمة (وكذلك) وإلا فمن الذى كان يشعر أن حسد إخوة يوسف له على محبة أبيه له كانت سببا فى وصوله الى بيت من بيوت مصر الكبيرة ، ومن الذى كان يشعر أن تهمة امرأة العزيز له كانت سببا فى إعلاء شأنه وذيوع صيته ، ومن الذى كان يحس أن وجوده فى السجن كان مدعاة لتعرف الملك به ، واصطفائه لنفسه، كل ذلك من المقدمات التى لاصلة بينها وبين نتائجها فى بادئ الرأى ، وهى تتلخص فى أن يوسف حسده إخوته ، فكان بذلك الحسد وزيرا لمصر ، له الأمر والنهى .

(١٠) (يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولانضيع أجر المحسنين) .

يرينا الله تعالى أنه مكن ليوسف فى الأرض يتبوأ منها من الأمكنة ماشاء ، ومعنى يتبوأ يتخذها مباءة ومسكنا له ، والمراد أنه مسلط على أرض مصر جميعها لافرق بين مكان ومكان (نصيب برحمتنا من نشاء) أى نصيب بعطائنا فى الدنيا من الملك والغنى من نشاء من الأفراد والجماعات مما اقتضت الحكمة أن نعطيه إياها كما قال (وكل شىء عنده بمقدار«٨»[١]) أى بنظام وسنن لايتخطاها ، ولذلك عقبه بقوله (ولا نضيع أجر المحسنين) أى ان عدل الله وحكمته يقضيان بأن لايضيعا أجر محسن ، فمن عمل للغنى باحسان واتقان حصل عليه ، ومن عمل للعلم بالتعلم تعلم ، ومن أحسن الى ربه وخالقه فى غيبته وحضوره حببه الى النفوس ، وسهل له الأمور ، وتولى أمور الناس وحكمهم ، وفى هذا تحريض على العمل الصالح ، وأنه ينفع فى الدنيا قبل أن ينفع فى الآخرة ، ولذلك يقول الله فيه (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهومؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون «٩٧»[٢]) فالحياة الطيبة جزاؤه فى الدنيا ، والجزاء بأحسن ماعملوا فى الآخرة .

(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) أى ان الذى أعده الله تعالى للمؤمنين الأتقياء خير مما كافأهم به فى هذه الحياة ، وأن ما يكافئون به فى الآخرة فوق ما يكافئون به فى الدنيا ، بل لايشترك نعيم الآخرة مع نعيم فى الدنيا إلا بالاسم .

وقد بلغنى عن الأستاذ الامام وهو يتكلم على الفرق الكبير بين ثواب الدنيا وثواب الآخرة أنه قال مامثاله :

---

[١] الرعد . [٢] النحل .

ان الذى يذهب الى الشام و يرى مافيه من فاكهة ينكر أن تكون من جنس مانعرف فى مصر ، ولابدّ أن يتقذذ من فاكهة مصر ، فقد تفضل الحبة الواحدة من الفاكهة فى الشام الحبة فى مصر أضعافا مضاعفة فى حجمها وطعمها ولذتها .

فاذا كان هذا الفرق الكبير بين نوعين من فاكهة واحدة فى قطرين متجاورين ، فما بالك بفاكهة الدنيا وفاكهة الآخرة ؟ وفى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى [أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر] واقرءوا ان شئتم : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين) . رواه الشيخان : أى ان نفسا من النفوس كائنة من كانت لاتعلم ما أعدّه الله للمؤمنين مما تقرّ به عيونهم من النعيم ، حسيا كان أو معنويا .

ونظير الآية التى نحن بصدد شرحها قول الله تعالى (زين للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ، «١٤» قل أؤنبئكم بخير من ذلكم . للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد «١٥» [1]) .

يوسف عليه السلام

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ «٥٨» وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ [2] بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ «٥٩» فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ «٦٠» قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ «٦١» وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ «٦٢» فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ [3] وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ «٦٣» قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ «٦٤» وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا

---

[١] آل عمران . [٢] هيأ لهم عدّة السفر وأمتعته .

[٣] أى من الطعام ما نحتاج إليه .

رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ (١) أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ «٦٥» قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ «٦٦» وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ «٦٧» وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٦٨» وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ (٢) إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ (٣) بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٦٩» فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ (٤) فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ «٧٠» قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ «٧١» قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ «٧٢» قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ «٧٣» قَالُوا فَمَا جَزَٰؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَٰذِبِينَ «٧٤» قَالُوا جَزَٰؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَٰؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ «٧٥» فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا (٥) لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ «٧٦» قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا (٦) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ «٧٧» يوسف

---

[١] نطعم ، من الميرة : وهى الطعام . [٢] ضم . [٣] تحزن .

[٤] مشربة ، كان يسقى بها الملك ، وهى الصواع .

[٥] علمناه الكيد (ودين الملك) شريعته . [٦] منزلة .

شرح وعـــبرة

(١) (وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) أى بعد أن مكن الله ليوسف فى الأرض ، وأعطاه سلطة ونفوذا ، وحلّ بمصر ما حلّ من القحط والمجاعة ، جاء إخوته يطلبون طعاما فدخلوا عليه فعرفهم هو ، لأنه تركهم وهم كبار فلم يتغير فيهم شىء ، أماهم فأنكروه ولم يعرفوه لأنهم فارقوه وهو صغير ، ومن شأن الصغير أن يتغير بالكبر ، ولأن لباس الملك وعظمته من شأنها أن تلبس عليهم الأمور ، ومن شأنها أن تحول بين طالبى الحاجة كاخوة يوسف و بين الوالى كيوسف .

(ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) أى ولما أصلح أمر أولئك الاخوة بجهازهم وهو عدّة سفرهم من الزاد وما يحتاجون إليه ، وأصل الجهاز: ما يعدّ من الأمتعة للانتقال كعدد المسافر ، وما يحمل من بلد لآخر ، و يطلق أيضا على ما تزفّ به المرأة الى زوجها .

لما جهزهم بجهازهم وأعدّ لهم ما يلزمهم (قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) ولما لم يفهم المفسرون وجها لذلك الطلب قالوا لابدّ أن يكون قد جرى بينهم و بين يوسف ما يوجب هذا الطلب

قال الفخر فى التفسير الكبير : واعلم أنه لا بدّ من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سببا لسؤال يوسف عن حال أخيهم ، وذكروا فيه وجوها .

[الأوّل] وهو أحسنها أن عادة يوسف عليه السلام إذا سأله انسان أن يعطيه حمل بعير لا يزيد عليه ولا ينقص ، و إخوة يوسف الذين ذهبوا إليه كانوا عشرة فأعطاهم عشرة أحمال، فقالوا إن لنا أبا شيخا كبيرا وأخا آخر بقى معه ، وذكروا أن أباهم لأجل سنه وشدّة حزنه لم يحضر ، وأن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ، ولا بدّ لهما أيضا من شىء من الطعام ، فجهز لهما أيضا بعيرين آخرين من الطعام ، فلما ذكروا ذلك ، قال يوسف : فهذا يدلّ على أن حبّ أبيكم له أزيد من حبه لكم ، وهـذا شىء عجيب ، لأنكم مع جمالكم وعقلكم وأدبكم إذا كانت محبة أبيكم لذلك الأخ أكثر من محبته لكم ـ دلّ هـذا على أن ذلك [الأخ] أعجوبة فى العقل وفى الفضل والأدب ، فجيئونى به حتى أراه اه .

وذكر المفسرون فى بيان [الوجه الثانى] أن إخوة يوسف لما دخلوا عليه سألهم من أنتم ؟ قالوا نحن قوم رعاة من أهل الشام ، أصابنا الجهد فجئنا نمتار : أى نطلب الطعام ، فقال لعلكم جئتم عيونا . فقالوا معاذ الله ، نحن إخوة بنو أب واحد ، شيخ صديق نبىّ ، اسمه يعقوب ، قال كم أنتم ؟ قالوا كنا اثنى عشر هلك منا واحد و بقى واحد مع الأب يتسلى به عن ذلك الذى هلك ، ونحن عشرة وقد جئناك ، قال فدعوا بعضكم عندى رهينة وائتونى بأخ لكم من أبيكم ليبلغ الىّ رسالة أبيكم ، فعند هـذا أقرعوا بينهم ، فأصابت القرعة شمعون وكان أحسنهم رأيا فى يوسف ، فخلفوه عنده ، ثم ذكر الفخر الرازى [وجها ثالثا] يقرب من الأوّل .

وقد اختار الفخر الوجـه الأوّل وقال انه أحسنها ، على أنه لم يجزم به ، بل قال انه محتمل مناسب : أى فى توجيه الآية و بيان السبب فى أن يوسف طلب من إخوته أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، والغرض أنه تحدّث إليهم حتى أوجد سببا يقتضى أن يطلب أخاهم من أبيهم ، وهو شقيقه الذى كان يحسده إخوته على محبة أبيهم له مع يوسف ، ولا يستطيع الرازى أن يجزم بسبب معين

من هـذه الأسباب أو غيرها ، ولذلك قال انه محتمل مناسب ، وكذلك المفسرون لا يستطيعون الجزم بسبب معين لأنه لاطريق الى الجزم ، انما الذى يجزمون به أن يكون هناك حديث مطوى جرى بين يوسف و بين إخوته انتهى بيوسف إلى طلب أخيهم من أبيهم .

(ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين) .

لما طلب منهم إحضار أخيهم جمع لهم بين الترغيب والترهيب [فالأوّل] قوله (ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين) أى المضيفين وكان قد أحسن ضيافتهم . [والثانى] قوله (فان لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون) أى حرمتكم من الطعام الذى سافرتم من أجله وحضرتم للحصول عليه ، وكذلك أحرمكم من قربانى وأنا صاحب الطعام وصاحب الأمر والنهى .

(قالوا سنراود عنه أباه و إنا لفاعلون) أى سنخادعه عنه ونجتهد حتى ننزعه من يده (و إنا لفاعلون) كلّ ما فى وسعنا فى ذلك ، أو لقادرون على المراودة .

وقد عبروا بالمراودة الدّالة على الجهد والمشقة ، لأنهم يعلمون أن أباهم يعقوب سوف لا يكون سهلا فى إجابتهم الى ما طلبوا ، وأنهم سيلقون فى ذلك العمل عناء ومشقة ، ولذلك لم يجزموا للعزيز بأنهم سيوفون له بما طلب ، وكلّ ما فى الأمر أنهم وعدوه بالعمل للحصول على أخيهم ، وقد لا ينجحون فى ذلك ، وذلك عقل وحزم من الاخوة ، و بعد عن المخاطرة فى الوعد .

وهكذا ينبغى للرجل أن يكون محتاطا فى وعوده ، ولاسيما اذا كان الموعود به ليس فى قبضة الواعد ، بل هو شركة بينه و بين غيره .

وكثير من الناس يتورط فى مواعيده ، ولا يستطيع أن يفى بها ، و يعرّض نفسه للكذب . والسبب الغالب على الناس فى تورّطهم أنهم وهم يعطون المواعيد لا يعملون حسابا للوفاء قبل أن أن يفتوا بالموعد ، والواجب على من يعطى موعدا لك بأن يوفيك دينك فى يوم كذا أن يكون مطمئنا لحصوله على الدين قبل ذلك اليوم ، وكذلك من يعدك بأنه يتمّ لك العمل فى وقت مّا ، لابدّ أن يكون واثقا من نفسه فى إتمام ذلك العمل فى الموعد الذى حدّده .

أما الذى يعد وهو غير واثق من الوفاء ، أو لم يفكر فيه فهو مخطئ آثم ، قد عرّض نفسه لأن تتهمه الناس بالكذب والغدر ، وحسب الصانع أو التاجر أن يكون كاذبا فى وعده لتضيع ثقة الناس به ، وحسب المؤمن الحازم أن يكون صادقا وفيا لتثق الناس به .

(٢) (وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون)

أمر يوسف فتيانه أن يدسوا ما كان معهم من بضاعة ليأخذوا بها الطعام فى رحال إخوته ، ورحل الرجل : ما يستصحبه من الأثاث (لعلهم يعرفونها) الخ بيان لسرّ ذلك العمل وهو أنهم متى وجدوا بضاعتهم التى سافروا بها لتكون ثمنا للطعام ، وعرفوا أن العزيز جمع لهم بين ثمنهم وطعامهم — متى رأوا ذلك عرفوا حق العزيز عليهم فى ردّها له ، وحقه عليهم فى وفائهم بما وعدوا

فهو أسلوب من أساليب التوريط ، لجأ إليه العزيز وهو يوسف الصدّيق ليكون وسيلة لحسن ظنهم فيه ، و يسهل عليهم مهمتهم عند أبيهم يعقوب ، و بذلك يرجعون إليه ومعهم أخوهم من أبيهم

(فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل و إنا له لحافظون)

بعد رجوعهم إلى أبيهم يعقوب قالوا له : يا أبانا منع منا الكيل : أى فى المستقبل فأرسل معنا أخانا من أبينا (نكتل) أى نرفع المانع من الكيل .

ثم لما كان لهم سابقة مع يوسف بادروا أباهم بقولهم (و إنا له لحافظون) من أن يناله مكروه ولم يفصل لنا القرآن ما قالوه لأبيهم فى تعليل طلب يوسف لأخيهم ، بل أجله كما أجله عند قوله (فلما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) فيجوز أن يكونوا قد شرحوا له ما دار بينهم و بين العزيز ، ويجوز أن يكون أبوهم قد سئم مناقشتهم والجدل معهم ، وا كتفى بقوله لهم (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) يريد أنى قد جرّبت أمانتكم ومواثيقكم ، فان كنتم قد وفيتم بوعدكم لى عند أخذ يوسف فلتوفوا بوعدكم فى حق أخيه .

و يظهر أن الضرورة الى الطعام كانت ملحة وشديدة ، ولذلك تساهل يعقوب عليه السلام فى شأن ابنه الثانى ، وقال وهو ممتلئ حزنا (فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين) وهو لجوء إلى الله تعالى فى أن يتولى حفظ ابنه الثانى ، فانه نعم الحافظ (وهو أرحم الراحمين) وأرجو أن ينعم علىّ بحفظه ، ولا يجمع علىّ مصيبتين : مصيبته به ، ومصيبته بأخيه .

فاذا كان نبىّ الله يعقوب قد ضعف أمله فى أولاده العشر من جهة ابنه فان أمله فى الله قوىّ ورجاءه فيه لم ينقطع ، لذلك رجع إليه ، واستحفظه ابنه ، فانه خير من يحفظ له ابنه ، وهو أرحم الراحمين ، فتوجه إليه النفوس عند الشدّة ، و يقصد عند الاضطرار .

(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم قالوا يا أبانا مانبغى هذه بضاعتنا ردّت إلينا)

قد بدأ الاخوة بتبليغ أبيهم أنهم قد منعهم العزيز الكيل ، وأن يرسل معهم أخاهم ليعطيهم الطعام الذى يحتاجون إليه ، لأن ذلك أهمّ شىء عندهم ، يريدون أن يعملوا لتذليل هذه العقبة التى وضعها العزيز فى طريق أخذهم ما يحتاجون من الطعام ، وكان ذلك قبل أن يفتحوا أمتعتهم فلما فتحوها وجدوا بضاعتهم التى سافروا بها ردّت إليهم فى متاعهم مع الطعام .

و يقول المفسرون : ان البضاعة كانت أدما [جلدا] ونعالا و ورقا ولم يكن معهم نقود فى ذلك الظرف ، فلجأوا الى طريق المقايضة ، وهى أوّل شىء بدئ به تبادل الناس فى بيعهم وشرائهم ، ولا مانع أن تكون بضاعتهم كذلك متى صحت الأخبار .

وفهم الآية لايتوقف على معرفة بضاعتهم ، ويكفى أنها شىء بضع : أى قطع ليتجر به ، وقولهم (ما نبغى) يحتمل أن يكون للنفى ، والمعنى : ما نبغى فى ذلك القول ، و إنما نقول الحق ، وهو من البغى وهو العدوان والتعدّى ، أو مانطلب شيئا وراء ما فعله العزيز ، و يجوز أن تكون للاستفهام أى ما الذى نبغيه ونطلبه مع ذلك الفعل ومع هذه المكارم ؟ وقوله (هذه بضاعتنا ردّت إلينا) أى إن ذلك هو منتهى الكرم فى المعاملة (ونمير أهلنا) إذا رجعنا إلى العزيز : أى نجلب لهم ميرة وهى طعام يحمل من غير بلدك (ونحفظ أخانا) من المخاوف (ونزداد كيل بعير) أى حمله باستصحاب أخينا (ذلك كيل يسير) سهل عليه متيسر لا يتعاظمه .

(قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل) أى قال لهم أبوهم : لا أعطيكم أخا يوسف حتى تعطون عهدا من الله

تأتونى به ، والمراد عهد مؤكد بذكر الله تعالى أو الحلف به على أن تأتونى به إلا إذا غلبتم فلم تطيقوا حفظه ، أو إلا أن تهلكوا جميعا .

فلما أعطوه العهد والميثاق قال يعقوب : الله شاهد على ما نقول وحفيظ عليه ، وهو الذى سيحاسبكم ويجازيكم إذا كنتم تريدون الوفاء أو الغدر .

(٣) (وقال يا بنىّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة وما أغنى عنكم من الله من شىء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) .

قيل إن يعقوب عليه السلام نصح لبنيه ذلك النصح خوفا عليهم من العين ، لأن الشأن فى الأولاد الذين بلغوا ذلك العدد وكانوا على شىء من الجمال ، ومشوا مجتمعين أن ينظرهم الناس نظرة حسد ، فيعانوا : أى يصابوا بالعين .

وقد ورد فى الاصابة بالعين أحاديث ، ولم يهتد الناس إلى اليوم إلى كيفية تأثير عين الحاسد على المحسود ، وكلّ ما قالوه : انها خاصة فى بعض النفوس تنبعث منها بواسطة العين وغيرها الى الخارج ، كما أودع الله فى بعض المعادن خاصة الجاذبية .

وقيل إن نصح يعقوب لبنيه لم يكن خوفا عليهم من العين ، بل لأنهم اشتهروا بمصر وتحدّث الناس بهم وبكمالهم ، فقال لهم يعقوب : لاتدخلوا المدينة من باب واحد حتى لا يخافهم الملك الأعظم على ملكه فيحبسهم ، والآية محتملة للأمرين .

(وما أغنى عنكم من الله من شىء) استدراك من نبىّ الله يعقوب على قوله المذكور ، يرينا به نبىّ الله أن تدبير العبد لا يرفع قضاء الله تعالى فقد يكون ناقصا لا يفى بالغرض ، لأنه تدبير مخلوق محدود فى علمه واستعداده .

أما تدبير الله تعالى فأساسه العلم المحيط ، والحكمة العالية ، فاذا دبر الله شيئا لم يكن إلا مادبر ، أما العبد فقد يدبر ، ويأخذ فى الأسباب والمقدّمات ثم لا تحصل النتائج لأنه ترك أسبابا يجهلها ، أو أن السبب الذى أتى به ناقص غير تامّ ، وليس المراد أننا ندع الحذر ونترك الأسباب ، لأن الله تعالى يقول (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة « ١٩٥ » [1]) وقال (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم « ٧١ » [2]) بل المراد الرجوع إلى الله تعالى مع الأخذ فى الأسباب لأنه الذى يلهم الانسان كيف يحتاط ، ويعلمه كيف يرقى فى احتياطه شيئا فشيئا ، ويتعلم من التجاريب والأحداث ما لم يكن يعلم .

فنبىّ الله يعقوب يرينا أنه يجب على الانسان أن يحتاط ، ويأخذ فى الأسباب ، ومع احتياطه يعلم أن احتياطه لا يبطل قضاء الله وقدره ، فقد يكون احتياطه من العين مثلا ناقصا ، فتأتى العين لنقصان المانع منها ، وقد يكون احتياط السليم من عدوى المريض كذلك ، لأنه لم يكن على الطريق الذى رسمه أهل الفنّ وهم الأطباء ، ولذلك تأتى العدوى مع الاحتياط لأنه ناقص ، وقد يكون آخذا فى أسباب الرزق ولكنه جاهل بتلك الأسباب : كرجل يتجر مع جهله بطرق التجارة فيكون السبب الذى باشره ناقصا ، ومن أجل ذلك لم ترتب عليه نتائجه ، وقد يعمل الطبيب أو

---

[١] البقرة . [٢] النساء .

الرجل السكيماوى تجاريب ولكنها ، لم تثمر ولم توصل الى غايتها ، لأنها تجاريب ناقصة ، وهكذا وهكذا.

وجملة القول أن يعقوب عليه السلام يطالب بالأخذ فى الأسباب ، وأن ذلك لاينافى التوكل على الله تعالى ، ويرينا أن هناك ربا هو ربّ الأسباب والمسببات ، وأن علمه هو العلم المحيط ، وحكمته هى الحكمة العالية ، وأنه إذا دبر شيئا ، وسبق به علمه ، وجرى به قضاؤه ، فانما يدبره على ذلك الأساس ، فلايستطيع أن يردّه أحد ، أما المخلوق فهو محدود فى علمه محدود فى استعداده محدود فى تفكيره ، فقد يظنّ السبب مانعا ، والمانع سببا ، ويرى السبب الناقص كاملا ، والضعيف قويا ، لذلك يجب أن يستفيد الانسان دائما من التجاريب ، ويطلب المزيد من العلم (وقل ربّ زدنى علما «١١٤» [1]) وليعترف دائما أنه ما أوتى من العلم إلا القليل ، وأن ما علمه الانسان فى جانب ماجهله ليس بشىء .

(إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) نعم إن الحكم لله فهو المنفذ لأمره متى أراد (عليه توكلت) أسندت أمورى إليه ، وفوّضتها له (وعليه فليتوكل المتوكلون) وعلى كلّ مؤمن به أن يفوّض أموره إليه ، فهو الذى يعلم من الأسباب مالا نعلم فيعلمها لنا ، ويعلم من المواقع والعقبات ماخفى عنا فيرشدنا إليها ، وذلك هو معنى التوكل ، وهو أن نأخذ فى الأسباب بقدر استطاعتك ثم ترجع إليه وتفوّض أمورك إليه فيما وراء الأسباب التى تعلمها ، وليس التوكل كما يفهمه العامّة هو التواكل ، وهو أن ندع الأسباب ثم ترجع الى الله تعالى ليوصلك الى المسببات فان ذلك حمق وسفه، فالذى يدع العمل للرزق ثم يطلبه من الله ويزعم أنه متوكل عليه: كاذب فى دعواه ، والذى لايطلب العلم من طريقه المألوف وهو التعلم ثم يطلبه من الله لأنه متوكل عليه كاذب كذلك فى توكله ، لأن طريق العلم هو التعلم ، والذى يطلب الشفاء من مرضه ثم لايداوى نفسه بالطريقة المألوفة للناس ويزعم أنه فى ذلك متوكل عليه كاذب ، والذى يرمى بنفسه فى أحضان المرضى بدون أن يأخذ لنفسه الحيطة والوقاية من العدوى زاعما أنه متوكل على الله هو جاهل معنى التوكل ، والمرأة التى تدع طعامها مكشوفا معرضا للأفاعى والحشرات ثم تدّعى أنها متوكلة على الله كاذبة فى دعواها .

والأمثلة فى ذلك كثيرة ، وهى كلها ترجع الى الطمع فى النتائج بدون مقدّمات ، والغايات بدون وسائل ، وهو طمع مذموم ، وتصلح كاذب ، وإنما الصلاح الصحيح هو الذى يتفق وسنة الله فى ربط الأسباب بمسبباتها ، ولذلك يقول عمر [لايجلس أحدكم عن طلب الرزق ثم يمدّ يديه الى السماء ويقول : اللهم ارزقنى ، فان السماء لاتمطر ذهبا ولا فضة] .

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء) أى أن اخوة يوسف أطاعوا والدهم ، ودخلوا المدينة متفرقين لامجتمعين ، ولكن ذلك الاحتياط الذى أمرهم به أبوهم لم يدفع عنهم السوء المدّخر لهم وهو اتهامهم بالسرقة وأخذ أخيهم بسبب أن صواع الملك وجد فى رحله ، فيعقوب كان تفكيره متجها الى ناحية وقضاء الله كان متجها الى ناحية أخرى ، لنعلم كما قدّمنا أن تفكير العبد محدود ، وتدبيره لايمكن أن يصل الى تدبير الاله .

---

[١] طه .

وتأمل نصيحة يعقوب لأولاده وقوله لهم (يابنيّ لاتدخلوا من باب واحد) وقد صنعوا بأخيهم يوسف ما صنعوا ، لتعلم مقدار شفقة الآباء على الأبناء ، وأن إساءة الأبناء للآباء لا تنزع الشفقة منهم ، ولاسيما إذا كان مصدرها حسد البعض للبعض ، وحرص الحاسد على أن يخلو له وجه المحسود ، كما يحب الزوج الضرتين وهما يتناحران للاستئثار بمحبته ، ويتقاتلان للوصول الى مرضاته فيعقوب عليه السلام لم تهاوده نفسه على التفريط فى أبنائه ، وقد حصل منهم ماحصل لأنه عاقل يعلم أن الحسد قد يبلغ بالنفوس الى مثل مابلغ بالاخوة والى أكثر من ذلك ، ويرينا أنه ينبغى للآباء أن تكون من سعة الصدر وتغليب الرحمة على الغلظة كما كان يعقوب مع بنيه ، ينصح لهم بأن لايدخلوا المدينة من باب واحد .

(إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) أى إن يعقوب ما كان ليردّ عن أولاده ما ادّخرلهم من حادث السرقة ، ولكن حاجة فى نفس يعقوب أظهرها ووصى بها ، وهى دعوة بنيه الى الأخذ فى الأسباب ، والاحتياط ، لأن ذلك هو الذى يجب على المؤمن أن يأخذ حذره جهد الطاقة ، ثم يفوّض الأمر بعد ذلك الى الله تعالى (وإنه لذو علم لما علمناه) أى ان يعقوب عليه السلام لصاحب علم بسبب تعليم الله له ، ومن علمه الذى علمه له أن يأخذ فى الأسباب ، ويعتقد بعد ذلك أن احتياط العبد لايغير شيئا من قضاء الله تعالى ، إذا كان قد سبق فى علمه شىء وراء ماقدّر العبد ودبر ، وذلك هو التوكل الصحيح (ولكنّ أكثر الناس لايعلمون) هذه الحكمة العالية والعلم الصحيح ، فمنهم الأبله الذى يدع الأسباب جانبا ويعيش بجهله وحمقه ويزعم أنه متوكل على الله ، ومنهم الملحد الذى ينكر أن هناك إلها قدرته فوق القدر ، ومشيئته فوق كلّ مشيئة ، ويرى أن الأسباب التى وصلنا إليها هى كلّ شىء ، وأن النتائج منوطة بها وجودا وعدما ، ولو فكروا قليلا فيما حولهم من حوادث ، ومايحيط بهم من عوالم ، لعرفوا أن الانسان قد يريد الخير ويعمل له فيكون الشرّ ، وقد يريد الشرّ بأحد من الناس ويدبر له فيكون الخير ، كما حصل ليوسف واخوته ، وقد يريد نفع صديق فيضره ، أوانقاذ مظلوم فيزيده ظلما الى ظلمه ، كلّ ذلك أدلة واضحة على أن هناك إرادة وراء إرادة الانسان ، وتدبيرا فوق تدبيره ، وأن الركون الى الأسباب الظاهرة ، واعتقاد أنها الكلّ فى الكلّ من الخطأ الفاحش .

(٤) (ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال انى أنا أخوك فلاتبتئس بما كانوا يعملون) أى بعد وصية أبيهم لهم ذهبوا الى العزيز ، فلما دخلوا على يوسف ضمّ أخاه إليه وهو الذى طلبه منهم ومنع الكيل من أجله ، وقال له فيما بينه وبينه (إنى أنا أخوك) يوسف (فلا تبتئس بما كانوا يعملون) لاتكن شديد الحزن بمعاملتهم لى ولك ، وهى بشارة ما أبردها على قلب أخيه ، فتى فقده أبوه منذ سنين ، ولم يوقف له على خبر ، فيتلقى بشارته به ، وهى بشارة مع معاينة وحضور ، ولايستطيع الكاتب أن يصوّر مقدار مايحسّ به أخو يوسف من السرور فى ذلك الوقت ومن لطف الله به أنه لم يكن سرورا قاتلا لأنه سرور مفاجئ ، ولوكان سرورا بوجود الأخ الغائب لكان محدودا ، ولكنه سرور بوجود أخ غائب ، وان ذلك الأخ أصبح عزيزا لمصر ، وصاحب الأمر والنهى .

ولعلّ قوله (فلاتبتئس بما كانوا يعملون) تذكير له بما فعله الاخوة ليعلم أنه يوسف حقا ، فقد يخفى عليه يوسف كما خفى على اخوته ، لأنه فارقه صغيرا فتغير بالكبر ، ولأن ملابس الملك من شأنها أن تلبس على الرائى ، فأراد يوسف أن يطلعه على قصته على وجه مجمل ليطمئن الى هذه البشارة ، ذلك من ناحية ، ومن ناحية أخرى ليكون ذلك تمهيدا لما يصنع به يوسف من جعل السقاية فى رحله ، ونسبته الى السرقة فى بادئ الرأى ، ولوأنه جعل السقاية فى رحله قبل أن يخبره أنه أخوه لفزع من ذلك العمل ، واعتقد أنه تدبير يراد به سوء ، ولكن تقديم هذه البشارة ، وتذكيره بما فعله إخوته ، وتطمينه من هذه الجهة جعله فى مأمن من إرادة السوء به .

(فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه) السقاية هى المشربة التى كان يشرب بها الملك ، وهى الصواع يقال انها كانت لسقاية الملك ، ثم جعلت صاعا يكال به ، فان صحّ ذلك كان هذا دليلا على عزة الطعام ، وانه لعزته يكال بكيل حقير (ثم أذن مؤذن) نادى مناد وأعلم معلم (أيتها العير إنكم لسارقون) العير القافلة ، وهى اسم الابل التى يحمل عليها الأحمال فسمى بها أصحابها

قيل ان ذلك التأذين لم يكن باذن يوسف ، و إنما الذى صنعه هو أنه جعل السقاية فى رحل أخيه، فلما طلبها الفتيان ليكيلوا بها لم يجدوها ، ولم يكن هناك أجنبيّ سوى الاخوة ، فظنوا أنهم هم الذين سرقوها فى متاعهم ، وقيل ان ذلك التأذين كان بأمر يوسف ، وقول المؤذن (إنكم لسارقون) تعريض بسرقتهم يوسف من أبيه و إلقائه فى الجبّ ، وتضليله بأن الذئب أكله، ووضع الدم الكذب على قميصه ، والتعريض لايعدّ كذبا كما فى قول ابراهيم للنمروذ [هذه أختى] والمراد أنها أخته فى الدين والملة وان كانت زوجا له .

وقيل ان هذه الصيغة ليست صيغة خبر ، و إنما هى صيغة استفهام على حذف الهمزة : أى هل سرقتم الصواع ؟ فهى جملة انشائية ، والانشاء لايقال فيه صدق ولا كذب .

وسواء كانت الجملة استفهاما أو خبرا أريد به التعريض بما فعلوا مع يوسف أو من عمل الفتيان فقد فهم الاخوة منها أنها نسبت إليهم أمرا لايليق بهم ، لذلك قالوا بعد أن أقبلوا على الفتيان اقبال دهشة واستغراب (ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم) أى قالوا لهم نفقد مشربة الملك ، أو الكيل الذى نكيل به الطعام ، ولمن جاء به حمل بعير من الطعام ، لأنه كان أهمّ شيء عندهم ، وأنا به زعيم : أى كفيل بأن أؤديه الى من ردّه .

(قالوا تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) يقول المفسرون: ان قولهم (تالله) قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم ، و إنما قالوا (لقد علمتم) ليستشهدوا بعلمهم ، لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأماتهم فى مجيئهم الأوّل والثانى ومداخلتهم للعزيز .

(قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟) أى فما جزاء السارق ان كنتم كاذبين فى دعوى البراءة (قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين) .

وقد جعلوا جزاء السارق أن يؤخذ فى سرقته ، لأنهم واثقون من براءتهم ، معتقدون أن صعوبة الجزاء لا ينالهم شيء منها (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) حتى لا يفهموا الحيلة (ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف) أى كدنا لمصلحته ودبرنا له وعلمناه الحيلة والمكر

بوضع الصواع فى رحل أخيه، ثم سؤالهم عن جزاء السارق ، و إفتاء الاخوة بأن جزاءه من وجد فى رحله ، ثم بدءه أوعيتهم فى التفتيش قبل وعاء أخيه ، واخبار أخيه قبل هذه الواقعة بأنه أخوه حتى لا ينزعج من حادث السرقة (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله) أى ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه منهم فى شريعة الملك وحكمه إلا أن يشاء الله سببا آخر للأخذ ، فألهمه ذلك كله ليتمّ له أخذ الأخ بهذه الحيلة (نرفع درجات من نشاء) أى فى العلم والفضل (وفوق كلّ ذى علم عليم) أى من هو أعلم منه ، وفى ذلك تنوبة بشأن العلم والذكاء .

(قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شرّ مكانا والله أعلم بما تصفون) .

قيل : إن يوسف دخل كنيسة فأخذ تمثالا من ذهب فدفنه ، وقيل أعطى دجاجة كانت فى المنزل لسائل فنسبه إخوته إلى السرقة لمثل هذه الحوادث ، وهى عند التأمّل ليست بسرقة .

وقيل : إن ذلك كذب من الاخوة و بهت ليوسف ، وقد أسرّ يوسف هذه المساءة فى نفسه ولم يبدها لهم وقال فى نفسه (أنتم شرّ مكانا) لأنكم سرقتم يوسف : أى أنتم شرّ منزلة فى السرقة (والله أعلم بما تصفون) تقولون أو تكذبون .

يوسف عليه السلام

قَالُوا يَٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ «٧٨» قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَٰلِمُونَ «٧٩» فَلَمَّا اسْتَيْـَٔسُوا [١] مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ «٨٠» ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَٰأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ «٨١» وَسْـَٔلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ [٢] الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ «٨٢» قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ «٨٣» وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ [٣] «٨٤» قَالُوا تَاللَّهِ

---

[١] يئسوا ، والسين والتاء للمبالغة ، كاستعصم ، و (خلصوا منه نجيا) انفردوا عن الناس يتناجون .

[٢] القوم الذين معهم أحمال الميرة . [٣] مكظوم ومملوء بالغيظ على أولاده .

تَفْتَؤُا[1] تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ «٨٥» قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي[2] وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ «٨٦» يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا[3] مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ «٨٧» فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ[4] فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ «٨٨» قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ «٨٩» قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ «٩٠» قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ «٩١» قَالَ لَا تَثْرِيبَ[5] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ «٩٢» اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ «٩٣» وَلَمَّا فَصَلَتِ[6] الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ «٩٤» قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ «٩٥» فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ «٩٦» قَالُوا يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ «٩٧» قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «٩٨» فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ «٩٩» وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا[7] وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ

---

[١] لاتزال « حرضاً » مشرفاً على الهلاك . [٢] أصل البثّ التفريق وإثارة الشيء ، والمراد ما انطوت عليه النفس من الغمّ لايريد أن يبثه لأحد إلا لله تعالى . [٣] تعرّفوا خبرهما ، و (روح الله) فرجه . [٤] تدفعها التجار لرداءتها . [٥] لا تأنيب ولا عتب . [٦] خرجت من عريش مصر « تفندون » تخرّفون . [٧] حيوه بتحية تليق به ، وهى سجود لله .

قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ [١] مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ [٢] الشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ «١٠٠» رَبِّ قَدْ ءاتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِىِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّٰلِحِينَ «١٠١» يوسف

شرح وعـــبرة

(١) (قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين) .

لما وقع ذلك الحادث وهو وجود الصواع فى رحل أخى يوسف ، وقد أفتى الاخوة بأن جزاء من وجد الصواع فى رحله أن يؤخذ فيه ـ اضطربوا وتذكروا ما كان من وصية أبيهم وأخذه الميثاق عليهم ، فأخذوا يستعطفون العزيز مرّة من جهة أبيهم وأنه شيخ كبير ، وقد أعدّ هـذا الولد لخدمته ، ومرّة من جهة أخلاقه وشمائله ، وقولهم له (إنا نراك من المحسنين) وقد طلبوا من العزيز أن يأخذ واحدا منهم رهينة بدله فلم يسمح يوسف بشىء من ذلك ، وقال لهم (معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) أى نعوذ بالله معاذا من أن نأخذ رجلا بريئا مكان رجل وجدنا المتاع عنده .

(إنا إذا لظالمون) إذا نحن أخذنا البرىء وتركنا المتهم ، وكان ذلك ظلما بمقتضى فتواهم أن الذى يوجد الصواع فى رحله فجزاؤه أخذه فيه ، فهو ظلم حسب مذهبهم الذى أفتوا به يوسف .

(فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) أى فلما يئسوا من العزيز ومن قبوله شفاعتهم ، والسين والتاء للمبالغة : أى فلما يئسوا من العزيز إلى حدّ بعيد من اليأس ، فقد ييأس الانسان ويكون عنده شىء من الأمل ، أما هؤلاء فلم يكن فى يأسهم شىء من الرجاء (خلصوا نجيا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لايخالطهم أحد (نجيا) أى ذوى نجوى ، أو فوجا نجيا مناجيا للمناجاة بعضهم بعضا ، أو تمحضوا كأنهم التناجى نفسه ، لاستجماع قواهم و إفاضتهم فيـه بجدّ واهتمام ، كأنهم فى أنفسهم صورة التناجى وحقيقته ، كما تقول : رجل جور ، ورجال عدل .

وكان تناجيهم فى تدبير أمورهم على أىّ صفة يذهبون ؟ وماذا يقولون لأبيهم فى شأن أخيهم ؟ والآية تمثل لنا صـورة ارتباك الاخوة لذلك الحادث ، حادث حجز أخيهم فى الصواع ، ورجوعهم إلى أبيهم فاقدين له بعد أن فقدوا يوسف ، وترينا أن ذلك العمل قد شغل أذهانهم وشتت أفكارهم وآية ذلك أنهم توسلوا الى العزيز بكلّ أسـباب التأثير عليه ، فلما لم ينجحوا فى مهمتهم اعتزلوا

---

[١] البادية . [٢] أفسد وأغرى .

الناس جانبا ، وأخذوا يتناجون ، وكأنهم لفرط إقبالهم على ذلك التناجى ، واهتمامهم به ، وحرصهم عليه انقلبوا نجوى .

(قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرّطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين) .

يذكرهم كبيرهم فى السنّ أو فى العقل أو فيهما معا بذلك الموثق الذى أخذه عليهم أبوهم وهو يشير إلى قوله (لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم) .

وقوله (ومن قبل ما فرّطتم فى يوسف) ما فيه مصدرية ، وهى وما بعدها فى تأويل مصدر محله الرفع بالابتداء ، وخبره الظرف قبله : أى وقع قبل تفريطكم فى يوسف ، أو محله النصب عطفا على مفعول ألم تعلموا ، وهو قوله (أنّ أباكم) كأنه قيل : ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا ، وتفريطكم من قبل فى يوسف ، ولك أن تجعل ما موصولا اسميا : أى ومن قبل هذا ما فرطتموه أى قدمتموه فى يوسف من الجناية العظيمة ، من الفرط وهو السلف والمقدم ، أما على ماقبله فهو من التفريط ، وهو التقصير والاهمال .

والمعنى أن كبيرهم يذكرهم بذلك الميثاق الذى أخذه عليهم أبوهم ، ويذكرهم بسابقتهم مع يوسف وجنايتهم عليه ، يريد أن المسألة قد بلغت من الصعوبة مبلغا عظيما ، ولذلك عقبه بقوله (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى) فى الانصراف إليه (أو يحكم الله لى) بالانتصاف ممن أخذ أخى ، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب (وهو خير الحاكمين) لأنه لا يحكم إلا بالعدل

(ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إنّ ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها و إنا لصادقون) أى ان ذلك الكبير أنفذ رأيه و بقى بمصر فلم يرجع إلى أبيه ، وقال لهم ارجعو إلى أبيكم فقولوا له يا أبانا ان ابنك سرق ، وقد نسب إليه السرقة بناء على ما شاهد من استخراج الصواع من وعائه ، أو سرق فى قول الملك وأصحابه ، أو ظهر عليه ما يشبه السرقة ، و إطلاق اسم أحد الشبيهين على الآخر جائز .

وعن ابن عباس أنه قرأ « سرق » بضم السين وتشديد الراء على البناء للمفعول . أى نسب إلى السرقة .

(وما شهدنا إلا بما علمنا) أى بقدر ما تيقنا من رؤية الصواع فى وعائه (وما كنا للغيب حافظين) أى ما كنا حافظين للأمر الخفىّ ، فان الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولعلّ الصواع دسّ فى رحله من حيث لا يشعر ، أو ماعلمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق ، ثم بالغوا لأبيكم فى إزالة التهمة وقولوا له (واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها و إنا لصادقون) .

قيل : القرية هى مصر ، وقيل : قرية على باب مصر ، وقع فيها التفتيش ، والعير : القافلة ، والمراد سل هؤلاء جميعهم وهم يخبرونك بكنه القصة .

(٢) (قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا انه هو العليم الحكيم) أى زينت لكم أنفسكم أمرا أردتموه ، وصوّرت لكم القبيح حسنا (فصبر جميل) أي فأمرى صبر جميل ، أوفصبر جميل أمثل شىء يصنع فى مثل ذلك الوقت العصيب . والصبر الجميل

هو الذى لاشكوى فيه لمخلوق كما قال (انما أشكو بثى وحزنى الى الله) (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) أى بيوسف وأخيه والكبير الذى تخلف بمصر حياء من أبيه وخجلا منه (إنه هو العليم) بحالى فى الحزن والأسف (الحكيم) الذى لم يبتلنى بذلك إلا لحكمة ومصلحة .

(وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) أى أعرض عن بنيه يعقوب كراهة لما جاءوا به ، أو انحاز فى ناحية عنهم حتى لايظهر أمامهم بمظهر الجذع ، وكثيرا مايختار الرجل البعد عن الناس فى مثل ذلك الوقت لينفس عن نفسه ، قرئ يا أسفى بياء المتكلم ، وقرئ بالألف المنقلبة عن الياء ، ينادى أسفه وكأنه يقول له احضر فهذا وقتك وأوانك . والأسف هو أشد الحزن ، وقد تأسف على يوسف دون أخويه مع أن الرزء الجديد أشد على النفس وأظهر أثرا ، ليرينا أن رزء يوسف لم يزل جديدا مع تقادم عهده ، وأنه أكبر رزء رآه ، ولأن الرزء فى يوسف كان أصل الرزايا الأخرى ، فكان أسفه عليه أسفا على الكل ، ولأنه كان عالما بحياة أخويه دون حياة يوسف .

(وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) أى أنه لما أكثر البكاء محق سواد عينيه فجعله بياضا فضعف بصره ، و (كظيم) مملوء من الغيظ على أولاده ، ولايظهر مايسوؤهم ، فعيل بمعنى مفعول ، من كظم السقاء إذا شده وهو مملوء ، أو (كظيم) بمعنى كاظم : أى ممسك لحزنه غير مظهر اياه .

ولاضير فى أن يتألم نبى الله يعقوب لهذه الشدائد ، ويحزن الحزن العميق لتلك الأحداث ، لأن هذه طبع الانسان واستعداده ، ويمتاز الصالحون بأنهم لايغضبون ربهم فى حزنهم ، ولايخرجون به الى مالا يحسن ، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم ، وقال ان القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول إلا مايرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون ، والأنبياء بشر يجرى عليهم مايجرى على سائر الناس من الحزن والفرح ، والتألم للمصائب ، والاستبشار بالنعم .

(قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) .

يقول بعض المفسرين : الأظهر أن الذين قالوا ذلك ليسوا أولاده الذين تولى عنهم ، وإنما هم جماعة كانوا فى الدار من خدمه وأولاد أولاده ، وهو الظاهر من توليه عن أولاده وبكائه بعيدا عنهم ، والآية تحتمل أن أولاده هم الذين قالوا ذلك بعد أن عرفوا أنه تركهم ليندب حظه مع يوسف واخوته ، وينادى أسفه ، وحزنه (تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) هو قسم فيه معنى التعجب من مكث يعقوب على ذكر يوسف ، والحرض فساد فى الجسم والعقل للحزن والحب ، حتى يكون لا كالأحياء ولا كالأموات ، أرادوا أنك تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه ، حتى تشرف على الهلاك ، أو تهلك ، وهى كلمات اشفاق على نبى الله يعقوب ، كأنهم يقولون له هون على نفسك الأمر ، واقتصد فى ذلك الحزن ، وارحم نفسك فانها مشفية على الهلاك .

(قال إنما أشكو بثى وحزنى الى الله وأعلم من الله ما لاتعلمون) .

قال العلماء إذا أسر الانسان حزنه كان هما وإذا لم يقدر على إسراره لعظمه فذكره لغيره كان

بثا ، فالبثّ أصعب الهمّ الذى لا يصبر عليه صاحبه فيبثه على الناس ليفرج عن نفسه ، من البثّ وهو التفريق ، فمعنى الآية أنى لا أذكر الحزن الشديد ولا القليل الى أحد من الخلق ، و إنما أذكره لله تعالى ، فخلونى وشكايتى ، ودعونى وما أصنع (وأعلم من الله مالا تعلمون) أى أعلم من رحمته و إحسانه مالا تعلمون ، فأرجو أن يأتينى الفرج من حيث لا أحتسب .

(يابنىّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) .

ناداهم بقوله (يابنىّ) يستحثهم على تعرّف أخبار يوسف وأخيه بذلك الأسلوب (فتحسسوا من يوسف وأخيه) اطلبوهما من طريق الحاسة كالتسمع طلب المعرفة بالسمع، والتبصر : طلب المعرفة بالبصر ، والمراد أجهدوا حواسكم ومواهبكم فى معرفة أخبار يوسف وأخيه وهو فى معنى التجسس بالجيم ، وان كان الثانى كثر فى الشرّ (ولا تيأسوا من روح الله) فرجه وتنفيسه ، وقرئ من روح الله بضمّ الراء : أى رحمته (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وكان اليأس من رحمة الله عنوان الكفر ، لأن اليائس سيء الظنّ بربه ، يعتقد فيه أن قدرته تعجز عن بعض المقدورات ، ومثله يأس العاصى من قبول الله تعالى له ، وتعاظم ذنبه عليه ، قد نهى الله عنه فى قوله تعالى (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم «٥٣» [1]) (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا إن الله يجزى المتصدّقين) هنا كلام مطوى : أى فقبلوا وصية أبيهم ، وعادوا الى مصر ، فلما دخلوا عليه ، قالوا ذلك القول .

ومرادهم بالضرّ : الفقر والحاجة الى الطعام ، والمراد بأهلهم من خلفهم (وجئنا ببضاعة مزجاة) يدفعها كلّ تاجر و يردّها رغبة عنها ، من أزجيته إذا دفعته . قال تعالى (ألم تر أن الله يزجى سحابا «٤٣» [2]) أى يسوقه و يدفعه بواسطة الريح ، وقيل (مزجاة) قليلة ، يريد أننا قوم فقراء ، جئناك بثمن قليل ، وربما يؤيده قوله (وتصدّق علينا) فان ذلك لا يكون إلا حيث كان الثمن الذى معهم قليلا لا يفى بطلبهم، وقوله (فأوف لنا الكيل) أى الذى هو حقنا ، وتصدّق علينا بالاغماض عن رداءة البضاعة أو قلتها ، والمراد أعطنا حقنا وزدنا عليه صدقة منك علينا (إن الله يجزى المتصدّقين) بما هم أهل له .

(٣) (قال هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) أتاهم من جهة الدين ، وصاغ الجملة بصيغة الاستفهام ليخفف عليهم وقع القول : أى هل علمتم قبح ذلك العمل الذى عملتموه مع يوسف وأخيه ؟ وقبل أن يتم الجملة ختمها بكلمة اعتذار عنهم وهى قوله (إذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه ، فلذلك قدمتم عليه : أى هل علمتم قبحه فتبتم الى الله منه ؟ لأن الاستقباح يجرّ الى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم فى الدين ، لامعاتبة ، ايثارا لحق الله تعالى على حق نفسه فى ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب ، ويتشفى المغيظ المحنق ، ويدرك ثاره الموتور ، فلله أخلاق الأنبياء ما أسهلها ، ولله عقولهم ما أوزنها وأرجحها !

---

[١] الزمر . [٢] النور .

(قالوا أءنك لأنت يوسف) عرفوه من الخطاب ، أو لعله رفع شيئا من ملابسه فعرفوه (قال أنا يوسف) صرّح باسمه تعظيما لما جرى عليه من ظلم اخوته كأنه قال : أنا الذى ظلمتمونى على أشنع الوجوه ، والله أوصلنى الى أعظم المناصب ، أنا ذلك الأخ الذى قصدتم قتله ثم صرت الى ماترون ، ولهذا قال (وهذا أخى) مع أنهم كانوا يعرفونه لأن مقصوده أن يقول : وهذا أيضا كان مظلوما كما كنت ، فصار منعما عليه من الله تعالى (قد منّ الله علينا) بكلّ خير دنيوى وأخروىّ أو بالجمع بعد التفريق .

ثم علل ذلك بقوله (انه من يتق و يصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين) من يتق محارم الله كما اتقيتها ، و يصبر عن معاصيه ، وعلى التعذيب فى سبيل التقوى ، فان الله لايضيع أجره ، بل يكافئه فى الدنيا و يثيبه فى الآخرة .

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا و إن كنا لخاطئين) اعتراف منهم بتفضيله عليهم بالتقوى والصبر ، وسيرة المحسنين ، وان شأننا أن كنا خاطئين . قال الأموى : المخطىء من أراد الصواب فصار إلى غيره ، ومنه قولهم : المجتهد يخطىء و يصيب . والخاطئ : من تعمد مالا ينبغى . و يؤيده قول العزيز لامرأته (واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) أى المتعمدين للاثم .

(قال لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) لا تأنيب ولاتو بيخ ، وقيل المراد لا أذكر لكم ذنبكم ، واشتقاقه من الثرب بسكون الراء، وهو الشحم الذى هو غاشية الكرش، ومعناه ازالة الثرب كالتجليد لازالة الجلد ، والتمريض لازالة المرض ، لأنه إذا زال الثرب وهو الشحم كان ذلك غاية الهزال والعجف، فضرب مثلا للتقريع المدنف المضنى الذى يمزق الأعراض و يذهب بماء الوجوه ، و (اليوم) ظرف للتثريب : أى لا أثربكم اليوم الذى هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره ؟ (يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) وذلك منتهى الكرم من نبى الله يوسف ، يعفو عنهم ثم يدعو الله لهم ، ولاغرابة فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادتى باب الكعبة يوم فتح مكة وقال لقريش ماتظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا نظنّ خيرا أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت ، فقال أقول ماقال أخى يوسف : لاتثريب عليكم اليوم .

(اذهبو بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين) يذكرون فى القميص روايات وخصائص ، وكلّ ماتعطيه الآية أنه قميص كان معروفا لنبى الله يعقوب ، فهو أمارة أن صاحبه حىّ (يأت بصيرا) أى يصر بصيرا كقولهم : جاء البناء محكما : أى صار محكما ، و يشهد له قوله (فارتدّ بصيرا) وقيل يأت الىّ بصيرا ، لأن القميص ايذان بأن زمن المحنة قد انتهى ، ومدّة الحزن قد مضت ، وضعف بصر أبيه ماجاء إلا من الحزن ، فنى زال السبب زال المسبب (وائتونى بأهلكم أجمعين) أى يأتنى أبى و يأتنى آله جيعا .

(ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) أى لما خرجت العير التى تحمل إخوة يوسف وتحمل القميص المبشر بحياته من عريش مصر ذاهبة الى الشام (قال

أبوهم إنى لأجد ريح يوسف) أى أشم رائحته ، وذلك من خوارق العادة لنبىّ الله يعقوب أن يدرك بحاسة الشمّ من مسافات ليس من شأنها أن يبلغ الشمّ اليها (لولا أن تفندون) تنسبونني الى الفند : وهو الخرف و إنكار العقل من الهرم (قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم) أى قال الحاضرون عنده لاتزال فى ضلالك الأوّل بما تكابد على يوسف من الأحزان .

(فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيرا) فرجع بصيرا كما كان ، والظاهر أن رجوعه بصيرا كان لمجرد إلقاء القميص على وجهه ، ولم تمض مدّة تبرأ فيها عينا يعقوب من آثار الحزن (قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون) فأعلم أنه رحيم بخلقه ، لطيف بعباده ، وأن لا يأس من روحه ورحمته (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) اعترفوا لأبيهم بالذنب ، وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم ، فوعدهم ذلك .

(٤) (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) أى فلما دخل آل يعقوب على يوسف ضمّ إليه أبويه ، وعانقهما قيل إنه حين استقبالهم نزل لهم هو فى ضيعة أو بيت بعيد ، فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويه (آمنين) على أنفسكم وما يلزمكم من طعام أو غيره من وسائل الحياة ، وقيل ان قوله ذلك إذن لهم بالدخول فى مصر لأنهم كانوا لايدخلونها إلا بجواز ، ولعلّ ذلك إذا صح سببه القحط الذى حلّ بمصر فرأى ولاة الأمور بها أن لايدخلها الغرباء ، لئلا يضاعفوا عليها المجاعة .

(ورفع أبويه على العرش) أى السرير الرفيع الذى كان يجلس عليه ، أو المكان العالى الذى أعدّ له ، وليس بلازم أن يكون سريرا أو كرسيا (وخروا له سجدا) قال ابن عباس : خرّوا لأجل وجدانه سجدا لله تعالى وكانت سجدة شكر . وقيل : جعلوا يوسف كالقبلة وسجدوا لله شكرا على لقائه ، أو يراد بالسجدة التواضع التامّ على ما كانت عادتهم فى ذلك الزمان من التحية ، ولعلها ما كانت إلا انحناء ، لأن هذا هو اللائق بمركز نبىّ الله يعقوب و يوسف عليهما السلام ، ولايعارض ذلك قوله (وخروا) لأنه يأتى بمعنى المرور كقوله (لم يخروا عليها صما وعميانا «٧٣»[1]) أى لم يمرّوا عليها صما وعميانا (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) اشارة الى رؤية الكواكب الأحد عشر وسجودها له ، فذلك تأويلها وتعبيرها ، قد جعلها الله رؤيا صادقة (وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن) لم يعرض لمسألة الاخوة ورميهم له فى الجبّ لأنه قال لهم (لاتثريب عليكم اليوم) (وجاء بكم من البدو) أى من البادية ، وهى نعمة عظيمة نقل الله فيها آل يعقوب من البادية الى مصر صاحبة العظمة القديمة (من بعد أن نزغ الشيطان بينى و بين إخوتى) تلطف من يوسف إذ نسب نزغ الشيطان ووسوسته إليه و إليهم ولم يجعلها لهم وحدهم ، لما قلنا من أنه لم يرد تأنيبهم (إن ربى لطيف لما يشاء) لطيف التدبير لأجل الأمر الذى يشاؤه و يريده ، رفيق حتى يجىء على وفق الحكمة والصواب ، ثم علل ذلك بقوله (إنه هو العليم الحكيم) .

(ربّ قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث) يذكر فضل الله عليه بأنه أعطاه

---

[١] الفرقان .

شيئا من الملك وهوملك مصر، ولايخفى مافى كلة من من الأدب وهضم النفس، وفضله عليه بأن علمه شيئا من تأويل الأحاديث (فاطر السموات والأرض) مبدعهما لا على مثال سبق (أنت وليي فى الدنيا والآخرة) ناصرى ومتولى شئونى، ولولا أنك وليي وناصرى ما وصلت إلى ما وصلت وما خلصت من هذه الفتن المظلمة، والحوادث الجة (توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) أى أمتنى منقادا لأمرك ونهيك، واقفا عند حدودك، وألحقنى بالصالحين من آبائى، أو الصالحين من الأمم، وذلك آخرقصة يوسف عليه السلام، يعترف فيه أن الله وليه فى الدارين، وناصره فى الدنيا والآخرة ويطلب منه أن يميته على الطاعة والانقياد، وأن يلحقه بالصالحين فى منازلهم التى أعدّها لهم وفى أعمالهم التى وفقهم لها.

ثم ختم قصة يوسف كعادته بقوله (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) يخاطب بذلك نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، ويريه أن قصة يوسف مع إخوته ومع امرأة العزيز، ومع ملك مصر من الأنباء التى غابت عنك وعن قومك، وهى دليل من دلائل صدقك، وبرهان من براهين رسالتك، لأنك لم تكن معهم وهم يمكرون بيوسف، ولكنه تعليم من الله ووحى صادق منه، علمكه إياه وجعله تسلية لك، وحجة على صدقك، فليعتبر بذلك المعتبرون.

دعـــوة شعيب
إلى الله تعـالى

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا [1] النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «٨٥» وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا [2] عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ «٨٦» وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي

[١] تنقصوا. [٢] تطلبون الطريق إلى الله ذات عوج بالطعن والتشكيك فيها.

أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ «٨٧» قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ «٨٨» قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ (١) بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ «٨٩» وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ «٩٠» فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ «٩١» الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا (٢) فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ «٩٢» فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى (٣) عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ «٩٣» الأعراف

شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى أنه أرسل إلى مدين أخاهم فى النسب أوالدار شعيبا . ومدين قبيلة سميت باسم أحد ذرية ابراهيم عليه السلام ، وأنه حينما بعثه الله الى مدين (قال) لهم (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) شأن جميع الرسل فى بدء دعوتهم بالتوحيد (قد جاءتكم بينة من ربكم) حجة وبرهان على صدق دعوى شعيب .

ومن المفسرين من يرى أن هذه المعجزة لشعيب عليه السلام لم تذكر فى القرآن كما ذكرت معجزة صالح وهى الناقة ، ومعجزة موسى عليهم السلام ، والأصل أن كلّ رسول يؤتيه الله من الآيات ما من شأنه أن يؤمن بمثله البشر .

روى الشيخان من حديث أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال « ما من الأنبياء نبىّ إلا وقد أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله الىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة .

---

[١] افصل واحكم . [٢] من غنى بالمكان : طال مقامه فيه مستغنيا به عن غيره.
[٣] أحزن الحزن الشديد .

ومنهم من قال : ان البينة كلّ ما تبين به الحق فهى تشمل المعجزات الكونية ، والبراهين العقلية ، ويرجح الوجه الأوّل قوله (فأوفوا الكيل والميزان الخ) فان عطف الأمر بالفاء لا يصح إلا إذا كان مبنيا على ما هو سبب له وهو البينة على صدقه ، ووجوب طاعته ، ولو كان معطوفا على قوله (اعبدوا الله) لعطف بالواو .

(٢) بدأ الدعوة بالتوحيد لأنه أساس العقيدة ، وركن الدين الأعظم ، وقفى عليه بالأمر بإيفاء الكيل والميزان إذا باعوا ، والنهى عن بخس الناس أشياءهم اذا اشتروا ، لأن ذلك كان فاشيا فيهم أكثر من سائر المعاصى ، فكان شأنه كشأن لوط عليه السلام إذ بدأ بنهى قومه عن الفاحشة التى كانت فاشية فيهم .

وكذلك ينبغى للدّاعى إلى الله أن يتفقد القوم ليعرف مواطن الضعف منهم ، والجرائم المتفشية فيهم ، ليعمل على نهيهم عنها ، وتنفيرهم منها .

ومن الجهل الفاضح أن ينهى القوم عن منكرات لا يعرفونها وليست مألوفة لديهم ، وقد يكون كلام الدّاعى فى هذه المنكرات مدعاة لسؤالهم عنها وتعرّفهم لها ، فيكون الواعظ أشبه بداعية الى المنكرات بدل أن يكون داعية الى الفضائل ، وجملة القول أن مركز الواعظ من الأمّة مركز الطبيب الذى يعرف الداء فيصف الدواء ، وقد يكون هناك أدواء كثيرة ولكن بعضها أخطر من بعض ، فمثلا مرض الحميات والأوبئة أخطر على الناس من الأمراض الجلدية ، فهل من العقل أن يعنى الطبيب بمرض جلدىّ يستطيع المريض أن يعيش معه أياما وشهورا ، ثم يغفل عن مرض من أمراض الحمى الفتاكة ، أو يتغاضى عن نوع من أنوع الوباء حتى ينتشر ، ويقضى على الأخضر واليابس !!.

فاذا كان المتفشى فى قرى الريف تقليع الزرع ، وتسميم البهائم ، وحرق الغلال ، وقتل النفس التى حرّم الله قتلها ، وتأريث العداوة والبغضاء بين البيوت والأسر ، وكتمان الشهادة ، ومداهنة عصابات السوء ، وعدم التعاون على تأديبهم بواسطة الحكومة ، وممالأة الحكام على أخذ الرشا —

اذا كان ذلك هو المتفشى فى قرى الريف ، فعلى الدّاعى إلى الله تعالى أن يحصر همه فى علاج هذه الأمراض ، وتطهير النفوس من أولئك الجرائم .

واذ كان التفشى فى المدن : مرض الزنا ، واللواطة ، وشرب الخمر ، والادمان على المخدّرات ، واتخاذ أخدان بدل الزوجات ، والكذب والنفاق ، وضعف العزائم ، وما إلى ذلك من فساد ، فعلى الواعظ أن يكثر من الكلام على ذلك النوع من الجرائم .

ومن المضحك أن تسمع من واعظ فى القاهرة مطالبة الناس بتنقية الزرع من الدودة فى أكبر مسجد من مساجدها ، وهو يعلم أنه لا يضمّ بين جوانبه سوى الموظفين فى مصالح الحكومة على اختلاف درجاتهم .

من المضحك أن تسمع من الواعظ أمثال ذلك اللغو فى مكان لا صلة له بالمزارع ، ولا لأهله بذلك الواجب ، ولو أن الواعظ كان بقرى الريف ، وأخذ يعاون الحكام على القيام بذلك الواجب إزاء الزراعة التى هى العماد الأوّل لثروة البلاد لاستحقّ من الله على عمله هذا الأجر ، ومن

الناس الشكر ، ولكنه مع الأسف الشديد لم يعرف قيمة نفسه ، ولم يحدّد مركزه ممن يعظهم ، وهل هو طبيب يعالج أمراض الناس، أو مهرج ، وهل هو قائم بعمل جدّى سيحاسبه الله عليه ، أو هو مجرّد رسوم ومظاهر ؟ .

الحق أن الأمّة سئمت ذلك النوع من الوعظ الذى لا يتصل بحياة الأمّة فى أخلاقها ، وعلومها وصناعاتها ، لا فى قليل ولا كثير ، والحق أن للأمّة بعض العذر إذا هى نفرت من ذلك الوعظ نفور الشاة من الذئب .

واذا كان السواد الأعظم من خطباء المساجد لا يزالون عاكفين على دواوين فات زمانها ، وانتهى وقتها ، وعملت لجيل غير الجيل ، وزمان غير الزمان ، فكيف ننهض بأولئك الخطباء ، وكيف نسعد بقوم لا يحسون ما نحس ، ولا يشعرون بما نشعر من آلام ، و ياليتهم يأخذون من الديوان الفكرة ، ثم يصوغونها فى أسلوب جذّاب ، وقول طلىّ ، أوليتهم حفظوا ما فى الديوان من عبارات ثم أخذوا يؤدّونها للناس ، ولكنهم مع الأسف يصعد الرجل منهم إلى المنبر ، وور يقات الديوان فى جيبه ، فاذا جاء أوان الخطبة وضع عينه فى الور يقات ، لا يرفعها إلا حيث انتهت الخطبة .

فقل لى بر بك : أىّ صلاح للأمّة يرجى من ذلك الواعظ البالى فى موضوعه وشكله ، وأىّ حياة للناس يطلبونها من هذه الطائفة التى لم تستطع أن تفهم ما تر يد أداءه ، فتؤدّيه بعبارة طلية جذّابة .

وانك لو حاولت أن تصلح من شأن أولئك الضعفاء لرجعت يائسا خائب الأمل .

فهذا كتاب [مفتاح الخطابة والوعظ] الذى طبعته منذ ثمان سنين ، وقد فتحت فيه للواعظ باب الارتجال فى الوعظ والخطابة ، ومهدت له الطريق ، وسهلت له ذلك العمل الى أقصى حدود التسهيل ، فجمعت فى الكتاب كلّ ما يحتاجه الواعظ من أبواب العبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، والمنكرات الظاهرة ، ثم جمعت فى كلّ باب ما يناسبه من آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلقت عليه بعض تعليقات تشرح غريبه ، وتبين مجمله ، وتلفت إلى حكم الشريعة فى أبوابها المختلفة ، طبعت ذلك الكتاب بعد أن عرض على لجنة من كبار العلماء ، وقرّرت أن الكتاب صالح لأن يكون مادّة يستعين بها الوعاظ فى دروسهم ومواعظهم ثم عرضته على وزارة الأوقاف فأخذت منه ألف نسخة وزعتها على مساجدها وزواياها ، ليكون مرجعا للواعظ يحضر منه خطبته ، و يستعين به على درسه .

ولو أن الواعظ أراد أن يخطب فى موضوع من مواضع الكتاب ، ثم لم يكن منه إلا أن يتلو آيات القرآن الكريم ، وما معها من أحاديث ، لكان ذلك العمل اليسير خطبة ملمة بالموضوع الذى يخطب فيه ، فكيف إذا أضاف الى الآيات شيئا من التعليق والتفسير .

طبعت ذلك الكتاب وقدمته لوزارة الأوقاف مقتنعة بأن الكتاب سيعمل نهضة واسعة فى الوعظ والخطابة ، ولكن مع الأسف ، الوعظ هو الوعظ ، والجمود على القديم هو الجمود ، والتعويل على دواوين الخطباء بالغ أشدّه ، والكتاب ملقى عند أئمة المساجد كعهدة من عهد الأوقاف ، أو قطعة من الحصير البالى ، تركت فى زاوية من زوايا المسجد .

والعلة فى ذلك كله هم أولئك الأئمة الذين قعد بهم الضعف عن أن يجاروا الزمن ، فيعدّوا له

ما يناسبه من أساليب ، وانك لو فعلت معهم مافعلت لكى تغير من أساليبهم ما وجدت لذلك سبيلا

هذا رأينا فى جمهرة أئمة المساجد وان كان القليل منهم على ما نحب من قوة ونشاط ، وفهم لما يحيط بهم من ظروف ، وما يلم بهم من علل وأمراض ، ونرجو أن تتغلب تلك القلة ، فيصبح الجميع أو الأكثر مؤديا لعمله ، مضطلعا بما كلفه الله به من مهام وواجبات .

أما أملنا فى وعاظ المراكز والأقاليم فهو فى جملته فوق أملنا فى أئمة المساجد، ورجاؤنا أن يكونوا ممن يدعون الى الله على بصيرة بدينهم ودنياهم وشئون أمتهم ، وأن يكونوا منها بمنزلة الروح من الجسد ، وأن يسدد الله خطاهم و يوفق ولاة الأمور لمساعدتهم فى مهمتهم ، والأخذ بناصرهم .

(٣) يطالب نبى الله شعيب عليه السلام قومه بإيفاء الكيل والميزان لأن التطفيف كان شائعا فيهم ، وقد توعد الله المطففين بالويل ، فقال (ويل للمطففين (١) الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون (٢) وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (٣) ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون (٤) ليوم عظيم (٥) يوم يقوم الناس لرب العالمين (٦)[1]) وفى الآيات بيان التطفيف ، وهو أن الرجل إذا أخذ من الناس مكيلا أوموزونا استوفى حقه ، و إذا كال الناس أو وزنهم أخسر الكيل والميزان ، وهو خلق ردىء، يوجد الآن فى المسلمين ولاسيما التجار منهم، فتجدهم يعملون نوعين من الكيل: نوعا للشراء ونوعا للبيع ، و إذا لم يستطيعوا الوصول لذلك العمل خوفا من سلطة الحاكم فانهم يستبقون عندهم المكاييل القديمة .

والشأن فيها أن يتآكلها القدم ، فتنقص عن المكاييل الجديدة ـ يستبقون ذلك النوع من المكاييل ليكيلوا الناس به إذا هم باعوهم ، أما فى شرائهم فيعمدون الى الجديد منها ليكتالوا بها ، وهو ضرب من الغش والخديعة ، يلجأ إليه التجار وأصحاب الحبوب والمزارع ، ولذلك نزع الله البركة من التجارة : كما نزعها من الزروع فسلط عليها الآفات .

ومما نهاهم عنه نبى الله شعيب أن لايبخسوا الناس أشياءهم . والبخس: هو النقص ، والأشياء أعم من المكيل والموزون ، كالمواشى والمعدودات ، و يشمل البخس فى المساومة ، والغش والحيل التى تنتقص بها الحقوق ، و يشمل بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل ، وكل ذلك فاش فى هذا الزمان فأكثر التجار باخسون مطففون ، مخسرون فيما يبيعون و يشترون ، وأكثر أهل العلم والأدب وكتاب السياسة بخاسون لحقوق صنفهم ، و ينكرون على غيرهم ما أعطاه الله بباعث البغى والحسد والغرور .

وأكبر أنواع البخس ، مانراه من رجال السياسة ودعاة الاستعمار ، إذا نبغ فيهم رجل شادوا بذكراه ، ووضعوا له التماثيل ، وأحلوه من المكانة العلمية أو السياسية حيث يستحق، أما إذا نبغ فى البلاد التى احتلوها فرد أو جماعة ، فانهم لايعترفون لهم بنبوغه ، ولاينزلونهم حيث أنزلتهم مكانتهم فى العلم أوالثقافة ، بل يتغاضون عنهم ، و يتناسون ما أعطاهم الله من مواهب ، ومامنحهم من مزايا وخصائص ، حتى يموت فيهم ذلك النبوغ ، وحتى لايتأسى أحد بهم فى الطريق الذى سلكوه ، والتضحيات التى قاموا بها ، وكثيرا مايلجأ المستعمر الى قتل النبوغ من ناحية أخرى

---

[1] المطففين .

سوى تثبيط النابغ ، والحط من شأنه .

تلك الناحية هى أن يصرفه عن الجهة التى نبغ فيها ، و يشغله بعمل لايمت الىمواهبه بصلة ، فمثلا إذا نبغ فى البلاد رجل مهندس ، فانه يشغله بعمل إدارى ليميت فيه تلك الناحية الهندسية التى ترجو البلاد من ورائها نفعا كبيرا ، وخيرا واسعا ، و إذا نبغ رجل فى علم الكيمياء شغله المستعمر بعمل كتابى أو مايشبه ذلك العمل ، و بمرور الأيام على ذلك النابه تتأكسد معلوماته ، وتنتهى تجاربه ، و يصبح أثرا بعد عين ، لم تجن البلاد من نبوغه شيئا ، ولم تستفد من عبقريته فائدة ، ألا قاتل الله السياسة وأغراضها ، فانها هى العلة الأولى فى حرمان البلاد من نبوغ أبنائها ، والحيلولة بينها و بين ثمرات رجالها ، قاتل الله السياسة فانها هى التى تحمل المستعمر على أن يبخس أهل البلاد حقهم ، و ينقصهم قيمتهم ، فان المستعمر إذا اعترف لأهل البلاد بالنبوغ ، واستئهالهم أن يديروا دفتها ، و يقوموا بما عليهم لبلادهم من أعمال وتكاليف — فقد أقام على نفسه الحجة بوجوب الجلاء ، وترك البلاد لذويها وأصحابها .

بقى من بخس رجال الاستعمار الناس أشياءهم نوع خفىّ من أنواع البخس ، لايفطن له سوى الخاصة من الناس ، ذلك النوع هو شراء ذلك النبوغ بثمن زهيد ، لاتستفيد منه البلاد ، بل هو شرّ مستطير عليها ، شراء ذلك النبوغ بالمناصب الكبيرة ، وشغل أصحابه عن التفكير الجدّى فيما يعود على الأمّة بالخير بتلك المناصب التى تشغل جميع أوقات الرجل ، وان الرجل متى أحسّ بأنه فى منصب كبير يدرّ عليه مالا جما ، وشعر بأنه ذوسلطان ونفوذ — متىأحس الرجل ذلك الاحساس ، ضعف احساسه بالواجب عليه نحو أمّته ، وأصبح يفكر فى بقاء ذلك المنصب ، و يعمل له حسابا وألف حساب ، وحين ذاك يأخذ فى استعمال نبوغه فيما يسمونه الحكمة والتؤدة فى الأمور ، و إتيان البيوت من أبوابها ، وما الى ذلك من الكلمات المعسولة التى تحمل فى طياتها الجبن ، والخور ، والهزيمة والتردّد ، كلّ ذلك بفضل سلطان المنصب الكبير ، والمال الجمّ والنفوذ الواسع.

ولو نظر الانسان نظرة فيها شيء من الامعان لعرف أن المستعمرين دائما يعمدون الى الأزكياء فيكبلونهم بالمناصب ، كيما يضمنوا كمّ أفواههم ، وصمم آذانهم . و بذلك يكون نبوغهم لهم لا عليهم ، وذكاؤهم مستخدما فى تثبيت أقدامهم وشرعية بقائهم .

(٤) (ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، والبغى والعدوان على الأنفس والأعراض ، وافساد الأخلاق والآداب بالاثم والفواحش الظاهرة والباطنة وافساد العمران بالجهل وعدم النظام ، فقد أصلح الله تعالى حال البشر بنظام الفطرة ، وكمال الخلقة ومكنهم من اصلاح الأرض بما آتاهم من القوى العقلية والجوارح ، و بما أودع فى خلق الأرض من السنن الحكيمة ، و بما بعث به الرسل من مكملات الفطرة .

يلفتنا إلى أن الاعراض عن دعوة الرسل ، ومناصبتهم العداوة هو إفساد فى الأرض ، لأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إنما جاءوا بسعادة الناس فى دينهم ودنياهم ، جاءوا بالأخلاق المرضية والأعمال الصالحة ، جاءوا ليحلوا للناس الطيب ، و يحرّموا عليهم الخبيث ، ومادامت دعوة الرسل هى دعوة إلى الاصلاح فى الأرض ، فالخروج عليها فتنة فى الأرض وفساد كبير (ذلكم خير لكم)

الاشارة الى كلّ ماتقدّم من أمر ونهى : أى هو خير لكم فى دينكم ودنياكم ، لم يكن تكليف إعنات ، فالله تعالى لايأمركم إلا بما هو نافع لكم ، ولاينهاكم الا عما هو ضارّ بكم ، وهو غنىّ عنكم ، ولو شاء لأعنتكم ، وقوله (ان كنتم مؤمنين) يريد أن مقتضى ايمانكم بالله ، وأنه المشرع الذى لايعدو حدّ الحكمة والمصلحة ، ولايحلّ للناس إلا الطيب ، ولايحرّم عليهم إلا الخبيث .

مقتضى ذلك الايمان اتباع رسوله والعمل بجميع ماجاء به من عند الله ، وان خالف الهوى ، أولم تظهر له منفعة بادئ الرأى ، بل مقتضى الايمان اتباع الرسول حتى فيما يظنّ المؤمن أنه مناف لمصلحته ، فتحصل له فوائده ومنافعه ، وإن لم يعلم أنه علة لها بحسب حكمة الله وسننه ، فكيف إذا علم ذلك بالتفقه فى الدين ، والوقوف على حكمه وأسراره .

وقد عهد فى القرآن الكريم التقيد بهذا الشرط فى مواطن كثيرة فتراه فى سورة البقرة يؤنب المفرّقين بين رسول ورسول فى أصل الايمان ، ويقول (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهوالحق مصدّقالما معهم . قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين «٩١») ليريهم أن مقتضى ايمانهم بما أنزل عليهم من الكتب أن لايقتلوا رسولا من الرسل ، ومثله فى سورة آل عمران (قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين «١٨٣») .

وترى نبىّ الله عيسى عليه السلام وهو يعظ قومه وقد اقترحوا عليه انزال مائدة من السماء — يقول لهم (اتقوا الله ان كنتم مؤمنين «١١٢» [1]) يريد أن مقتضى إيمانكم أن لاتحرجونى ، وترى القرآن الكريم فى سورة الأنفال يقول (فاتقواالله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين) .

وتراه وهو يحرض على قتال قوم نكثوا الأيمان ، وهموا باخراج الرسول من بلده وبدءوا المؤمنين بالعداوة ، يقول لهم فى سورة التوبة (أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين «١٣»)

وتراه فى سورة النور بعد أن وعظ الذين جاءوا بالافك ، وأخذ يذكرهم بما يجب عليهم نحو اخوانهم المؤمنين من ظنّ الخير ، والاحتياط فى الرمى بالزنا ، وبعد أن بين الله أنه لولا فضل الله عليهم لمسهم فيما أفاضوا فيه عذاب عظيم — بعد ذلك كله يقول لهم (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين «١٧») .

من ذلك كله تعرف أن الغرض من هذا الشرط حفز النفوس الى العمل ، وسوقها الى الامتثال مادامت قد آمنت بأن الله تعالى لايشرع للناس إلامافيه الخير ، ولايريد بتشريعه إعناتها ، ومادام أساس تشريعه العلم المحيط ، والحكمة العادلة ، وأن الرجل منا إذا وثق بطبيب من الأطباء أسلم له نفسه ليعطيه من الأدوية ماشاء ، ويدخل على نظام معيشته من الأساليب مايريد ، وقد يكون فى دوائه القضاء العاجل على ذلك المريض ، بل يسلم الرجل نفسه للطبيب ليبتر عضوا من أعضائه لاغنى له عن بتره — يقبل المريض على الطبيب راضيا مطمئنا ، ثم يكلف نفسه استساغة دوائه المرّ ، وعلاجه الممض ، ويصبر على عملية البتر أو بقر البطن أو اخراج عضو من أعضائه الباطنة ، كلّ ذلك لأنه وثق بذلك الطبيب المحدود العلم ، القليل البضاعة فى صناعة الطب ، أفلا يسلم نفسه

---

[1] سورة المائدة .

لا إله قادر حكيم ، له من العلم المحيط ، والقدرة الشاملة ، والحكمة الواسعة ، مالا يعرفه غيره ، ولا يحيط به سواه . إذا كان الإيمان بالطبيب — وهو عرضة للخطأ ولم يؤت من العلم إلا القليل — قد يصل بالرجل الى حد أن يسلمه نفسه ، فيحرم على نفسه من أنواع المأكولات والمشروبات ماحرمه عليه الطبيب ، ويبيح لنفسه ما أباح ، وقد يمكث الشهر أو الشهور وهو محمى من بعض الأطعمة أشوق ماتكون إليه ، ومن بعض الأشربة ألذ ماتكون عنده ، أفلا تكون الثقة بالله تعالى أعلى وأغلى من هذه الثقة ؟ والاطمئنان الى تحليله وتحريمه فوق الاطمئنان الى أوامر الطبيب ونواهيه ؟ .

نعم ان الإيمان بالله تعالى أعظم من إيمان الناس بعضهم ببعض ، والثقة بتشريع الله الذى لا يأتيه الباطل ، ولا يتعرض للخطأ أقوى وأشد ، وعلى المؤمن أن يثق بأمر الله تعالى ونهيه ، ووعده ووعيده ، فان فقه حكمة الله فى تشريعه فذلك فضله ، وان جهل حكمته فليعمل على فقهها ، ولا يجرمنه جهله بالحكمة أن يدع العمل بما جهل ، فان ثقته العامة بحكمة الشارع تغنيه عن فهم الحكمة الخاصة للباب الذى جهل حكمته .

وقد ضرب الامام الغزالى مثلا لذلك الطبيب يصف لك دواء قد ركب من عدة عقاقير ، على نسب خاصة ، فهل من العقل أن تقول للطبيب لا أتعاطى دواءك إلا بعد أن أعرف ماحواه من عقاقير ، وما اشتمل عليه من نسب ، أو العقل والحكمة أن تدع ذلك التفصيل للرجل الذى درس العقاقير ، وعرف خصائصها ، ودرس الأمراض فعرف علاجها وركب لها من الأدوية مايناسبها ، وشرط فيها من النسب والأوضاع ما يمكن من القضاء عليها ، فالدين فى جملته معقول واضح ، وفى أوامره ونواهيه على وفق الحكمة والمصلحة وقد يعرض لبعض الناس شبهة فى حكمة عمل خاص فتقف به تلك الشبهة عن الاطمئنان لذلك العمل ، كالحج شرعه الله ليكون وسيلة من وسائل التعارف واتصال الشعوب بعضها ببعض .

وقد أشار الله تعالى الى تلك الحكمة بقوله (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس [1]) وقال (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق «٢٧» ليشهدوا منافع لهم [2]) فاذا جهل الانسان حكمة السعى بين الصفا والمروة ، أو حكمة رمى الجمار فحسبه أن يعرف الحكمة العامة ، وكالصلاة شرعها الله تعالى لأنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر كما قال (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر [3]) فاذا جهلنا حكمته فى أن جعلها خمسا فى كل يوم وليلة ، وجعل الظهر أربعا والمغرب ثلاثا ، والصبح اثنين ، فلنكل حكمة ذلك التفصيل الى المشرع الحكيم ، كما وكلنا حكمة نسب الدواء الى الطبيب الذى يعرف جملته وتفصيله ، وكالصوم شرعه الله تعالى ليعدنا به للتقوى ، كما قال (لعلكم تتقون «١٨٣» [4]) فاذا جهلنا حكمته فى جعله شهرا فى كل عام ، فلا يقف بنا جهل حكمة العدد عن أداء الصوم ، وهكذا .

وحسبنا أن نعرف أن العبادات معقولة فى جملتها ، وإن كانت تعبدية فى تفصيلها ، ولعلنا بعد زمن نفقه هذه الحكم ، ونقف على أسرار التشريع ، (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله

---

[١] المائدة . [٢] الحج . [٣] العنكبوت . [٤] البقرة .

واسع عليم «٥٤»[1]) (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر إلا أولوا الألباب «٢٦٩»[2]) .

(٥) (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا) روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كانوا يجلسون فى الطريق فيقولون لمن أتى عليهم : ان شعيبا كذاب فلا يفتننكم عن دينكم . وفى رواية عنه . بكل صراط : طريق — توعدون قال : تخوفون الناس أن يأتوا شعيبا .

وروى عن مجاهد تفسيره بالسبيل المجازى : أى بكل سبيل حق . ويصح إرادتهما معا فهو ينهاهم أن يقعدوا بكل طريق يتوعدون المؤمنين ويتهددونهم إذاهم آمنوا ويصدون عن سبيل الله ودينه الحق المؤمنين بالقوة أو بضروب الفتنة والتعذيب كما حصل من قريش فى بدء الاسلام كانوا يعذبون ضعفاء المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ، ويصرفوهم عن الحق كبلال بن رباح كان مملوكا لأمية بن خلف الجمحى ، فكان يجعل فى عنقه حبلا ويدفعه الى الصبيان يلعبون به وهو يقول : أحد أحد ، وكان أمية يخرج به فى وقت الظهيرة فى الرمل الشديد الحرارة لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت ، ثم يؤمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فيقول : أحد أحد . ومثله عمار بن ياسر وأخوه وأبوه وأمه ، كانوا يعذبون بالنار ، فمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صبرا آل ياسر فموعدكم الجنة . وخباب بن الارت سبى فى الجاهلية فاشترته أم أنمار ، وكان حدادا ، فلما أسلم كانت مولاته تأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره ليكفر ، فلا يزيده ذلك إلا إيمانا ، هذه مثل ممن فعلته قريش مع المؤمنين ليصدوهم عن سبيل الله ، وهو يرينا مقدار حنق أعداء الحق على المؤمنين ، وتألمهم من إيمانهم فى كل زمان .

أما قوله (وتبغونها عوجا) فالمراد أنهم أضافوا الى قعودهم بكل طريق يتوعدون المؤمنين فيه ، ويصدونهم عن سبيل الله .

أضافوا الى ذلك أنهم يبغون طريقة الرسل معوجة أوذات عوج : أى غيرمستوية ولامستقيمة

فأصحاب الظلم العظيم — وهو الشرك — يشوبون التوحيد بشوائب كثيرة من الوثنية ، أعمها الشرك فى العبادة ، فلا يتوجهون فيه الى الله وحده ، بل يشركون معه فى الدعاء والتوجه غيره (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء[3]) وإذا أنكر عليهم منكر يتأولون فيقول العامى : المحسوب منسوب ، الواسطة لاتنكر ، ويقول دعى العلم : هذا توسل واستشفاع ، لاعبادة ولادعاء ، والأولياء أحياء فى قبورهم كالشهداء ، والظالمون بالابتداع يبغونها عوجا بما يزيدونه فى الدين من البدع والمحدثات ، ومستندهم فى هذه البدع النظريات الفكرية ، والتأويلات الجدلية ، واستحسانات ينكرون أصولها ، ويأخذون بفروعها ، وعوامهم يقولون قال فلان من المؤلفين ، وفعل فلان من الصوفية الصالحين ، ونحن لانفهم كلام الله ولا كلام الرسول ، وإنما نفهم كلام هؤلاء الفحول .

---

[١] المائدة . [٢] البقرة . [٣] البينة .

والظالمون بالزندقة والنفاق يبغونها عوجا بالتشكيك فيها بضروب من التأويل يقصد بها بطلان الثقة بها والصدّ عنها .

والظالمون فى الأحكام يبغونها عوجا بترك تحرّى ما أمر الله تعالى به من التزام الحق ، واقامة ميزان العدل ، والمساواة فيها بين الناس بالقسط ، بأن لايحابى أحدا لغناه أو قوّته،ولايهضم حقّ أحد لضعفه أو فقره ، ولا لفسقه أوكفره (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى «٨» [1]) والظالمون بالغلوّ فيها جعلوا يسرها عسرا ، وسعتها ضيقا وحرجا ، وزادوا على ما شرعه الله من أحكام العبادات ، والمحظورات والمباحات أضعاف ما أنزله الله فى كتابه ، وما صحّ من سنة رسوله ، بما ضاقت به مطوّلات الأسفار ، التى تنقضى دون تحصيلها الأعمار ، ومنهم من جعل غاية الاهتداء بها الفقر والمهانة ، والذلة والاستكانة ، خلافا لما نطق به الكتاب من عزة المؤمنين ، وكونهم أولى بزينة الدنيا وطيباتها من الكافرين .

فهذه أمثلة لمن يبغونها عوجا من المنتمين إليها ، والمدّعين لهدايتها ، وأما أعداؤها الصرحاء فهم يطعنون فى كتاب الله وفى خاتم رسله جهرا بما يخلقون من الافك ، ومايحرّفون من الكلم ، ومايخترعون من الشبهات ، ومايمقون من المشككات .

ثم أخذ نبيّ الله شعيب عليه السلام يذكرهم بنعم الله عليهم ، إذ كانوا قليلى العدد فكثرهم الله تعالى بما بارك فى نسلهم ، فعليهم أن يقابلوا أمثال هذه النعمة بشكره ، والعمل بوصاياه ، ثم أمرهم أن ينظروا كيف كان عاقبة المفسدين من الشعوب المجاورة لهم ، كقوم لوط وقوم صالح ، وكيف أهلكهم الله بفسادهم ، فيجب أن يكونوا عبرة لهم فى ذلك .

ثم أخذ يقول لهم إذا كان بعضكم قد آمن بما أرسلنى الله به إليكم من التوحيد والعبادة والأحكام المقرّرة للاصلاح ، و بعضكم لم يؤمن بها ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا و بينكم بالفعل ، وهو خير الحاكمين ، لأنه يحكم بينكم بالحقّ والعدل ، فان لم يعتبر كفاركم بعاقبة من قبلهم ، فسيرون مايحلّ بهم .

(٦) (قال الملا الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنّ فى ملتنا) كان هذا ردّهم على دعوة نبيّ الله شعيب لهم أن يعبدوا الله وحده ، وأن يوفوا الكيل والميزان ، ولايبخسوا الناس أشياءهم ، ولايفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ، ولايصدّوا الناس عن سبيل الله ودينه ، ولايشككوهم فى عقائدهم ، وأن يذكروا نعم الله عليهم وفضله معهم .

كان ردّهم عليه الوعيد والتهديد ، بدل أن ينظروا فى هذه الدعوة أهى حق أم باطل ، وهل هى دعوة الى مكارم الأخلاق أم الى الفاسد منها ، فأقسموا ليكوننّ من الملأ المستكبر اخراج شعيب والذين آمنو معه من بلدهم ، أو ليعودنّ فى ملتهم ، وعلى شعيب ومن معه أن يختاروا لأنفسهم .

قيل التعبير بالعود يقتضى أن شعيبا ومن معه كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها ، وهو صحيح بالنسبة للمجموع فجاز أن يخاطبوا بذلك [وفيهم نبيّ الله شعيب] من باب التغليب ، لأن شعيبا

---

[١] المائدة .

وجميع الأنبياء معصومون من الكفر حتى قبل النبوّة ، أو لأن شعيبا لم يعرف عند قومه قبل النبوّة بملة تخالف ملتهم ، لأنه وقف من عقائدهم وأعمالهم موقفا سلبيا ، لم يشاركهم فيها ، ولم ينههم عنها فحسبوه واحدا منهم ، كما قالوا لصالح عليه السلام (ياصالح قد كنت فينا مرجوّا قبل هذا) وكان رجاؤهم فيه لوقوفه منهم ذلك الموقف ، ومنهم من قال : العود الرجوع الى الشيء بعد الانصراف عنه بالذات أو بالقول والعزيمة ، ومنه ذمّه والدعوة الى غيره ، ولايقتضي هذا المعنى سبق الكون فيه ولا عدمه .

يقول نبيّ الله لهم بعد ذلك التهديد (أولو كنا كارهين) يريد أنعود فى ملتكم على كلّ حال حتى حال الكراهة لها الناشئة عن اعتقاد بطلانها وقبحها ، وما يترتب عليها من الفساد فى الدنيا والآخرة، أو ولو كنا كارهين لأحد الأمرين، وهو استفهام تعجب من صنيعهم واستنكار لطلبهم ، ووجه التعجب والانكار جهل هؤلاء بكنه الدين والملة ، وكونه عقيدة يدان الله بها ، وأعمالا يتقرّب إليه بأدائها ، وجهلهم بكون حبّ الوطن وألف السكن لا يبلغ هذه المنزلة ، وبجهلهم هذا ظنوا أن شعيبا عليه السلام قد يؤثر هو ومن معه التمتع بالاقامة فى وطنه ، ومجاراة أهله فى كفرهم ورذائلهم على مرضاة الله تعالى بالتوحيد والفضائل ، ذلك بأن الملة عند أولئك الملأ رابطة تقليدية . وعصبية قومية .

وملة الرسل عليهم السلام ليست كذلك ، بل هى دين مالك للنفس ، حاكم على الوجدان والعقل ، يقصد به الكمال البشرى الأعلى بمعرفة الله تعالى والقرب منه ، وما يتبع ذلك من صلاح الدنيا وسعادة الآخرة ، فان تمكن صاحبه من إقامته فى وطنه و إصلاح أهله به فهم أحق به بدءا ودواما ، وان متع فيه حرّيته ففتن فى دينه كان تركه واجبا .

(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا «٩٧» إلاالمستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا «٩٨» فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوّا غفورا «٩٩» ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما [١] كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما «١٠٠» [٢]) .

هذا وان طريق نفى المصلح ، والحيلولة بينه و بين وطنه، ومسقط رأسه : هوطريق المفسدين وأعداء الاصلاح منذ زمن بعيد ، فهؤلاء قوم لوط يدعوهم نبيّ الله لوط عليه السلام الى عبادة الله والى ترك الفاحشة ، فيكون جوابهم له (أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون «٨٢» [٣]) يتعاونون على اخراج لوط وشيعته من بلده ، ثم يعللون ذلك الاخراج بأن لوطا ومن معه أناس يتطهرون من الفاحشة الذين تلوّثوا بها ، فأصبحت الطهارة من الفواحش جريمة عند أولئك القوم ، يستحقّ ذووها أن يحال بينهم و بين وطنهم ، كما أصبحت هذه الفاحشة عادة مألوفة

[١] مذهباً يذهب إليه . [٢] النساء . [٣] الأعراف .

لا تمجها الطباع ، ولا تنفر منها النفوس ، و بذلك صار المعروف عنـدهم منكرا ، والمنكر معروفا ، وذلك أحطّ دركات النفوس ، وأدون منزلة تصل إليها الفطر .

وهؤلاء الملأ المستكبر من قوم شعيب يتوعدونه باخراجه من بلده ، أو يرجع الى باطلهم ، فيسفه عقله ، و يدنس فطرته ، و يهمل مواهبه ، و يلغى ما نصبه الله له من أدلة و براهين على حقية دعوته ، ووضوح طريقه ، يهدّدونه ذلك التهديد ، ويهدّدون من معه من المؤمنين المخلصين ، الذين عرفوا أن طريقه حقّ فاتبعوه ، وأن ما عند القوم باطل فتركوه ، وكأنهم يقولون لشيعة نبيّ الله شعيب : يجب أن تلغوا عقولكم وتهملوا مواهبكم ، وتنكروا إنسانيتكم ، فلا يكن لكم الحقّ فى أن تختاروا من الطرق أبينها ، ومن الخطط أوضحها ، ومن الأدلة أقواها ، والذى يختار لكم غيركم ، و يرسم لكم الطريق سواكم ، وسواء عليكم بعد ذلك رضيتم أم سخطتم ، اطمأننتم الى ذلك العمل أو اضطربتم .

وهؤلاء الذين كفروا بالرسل جميعهم يقولون لهم (لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنّ فى ملتنا «١٣» [1]) وهؤلاء المستعمرون وصنائع المستعمرين يقولون لطلاب الاستقلال وزعماء الأمم قالة الكفار للرسل (لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنّ فى ملتنا) وملة المستعمرين أن تبقى البلاد ملكا لهم، يتمتعون بخيراتها ، و يستأثرون بالحكم فيها ، يوظفون فيها رجالهم ، و يصرفون تجارتهم ومصانعهم ، و يوجهونها لخيرهم وخير بلادهم .

ملتهم أن لا يسمحوا لأحد أن يصيح فى وجه الظالم ليطالبه بالعدل ، أو يرفع رأسا للمطالبة بحقّ ، ملتهم أن تبقى الناس عبيدا لهم مسخرين ، وأداة طيع ، يعملون وهم يتمتعون ، ويكدّون وهم مترفهون ، إذا ظلموهم شكروهم على ظلمهم ، و إذا استعبدوهم حمدوهم على أحكامهم .

تلك هى ملة المستعمرين وصنائع المستعمرين ، يزعمون أن الله بعثهم لخير الانسانية ، وخلقهم ليكونوا أوصياء على الشعوب والأمم ، يعملون لهم الصالح ، و يتجنبون لهم الضارّ ، لا يبلغ شعب من الشعوب سنّ الرشد إلا حيث شهدوا له بذلك ، ولا يصل الى المكانة اللائقة به من الثقافة إلا حيث اعترفوا له بالوصول، وهم لم يبعثوا إلا لشرّ الانسانية ، والحيلولة بينها و بين المكان اللائق بها.

ألا ترى كيف يحولون بين الأمم و بين العلم النافع ، والتعليم المثمر المفيد ، وكيف يسلطون عليها من جيوش الشهوات ما يفسد أخلاقها ، و يذهب بكرامتها ، وكيف يحولون بين النبوغ والأمة حتى لا تستطيع أن تنتفع بالنابهين من أبنائها ، والاخصائيين من علمائها .

ينشرون العلم النافع فى بلادهم ويحرّمونه على غيرهم ، يهتمون بالعدل والانصاف فى ممالكهم ، و يقوّضون أركانه فى مستعمراتهم ، يملأون العالم بأساطيلهم فى البرّ والبحر ، ومعدّاتهم الحربية فى السلم والحرب ، ثم لا يسمحون لما معهم من البلاد أن يكون له جيش يذكر ، أو معدّات تنفع وتفيد ، أهـذه هى الوصاية التى انتدبهم الله لها على جميع الشعوب والأمم ، أهذا هو الرقىّ الذى يدّعون أنهم خدّامه المخلصون ، ورجاله العاملون ، أم ذلك هو الخداع والتغرير ؟

ان الشعوب والأمم قد عرفت كيف تأخذ لها مكانا تحت السماء ، وتختطّ لها طريقا للبقاء ، وعرفت أن الذى وهبكم من أسباب القوّة وسائل البطش ما وهبكم لم تنفد خزائنه .

---

[١] ابراهيم .

وفى الحقّ أنه لم يعد الناس يفتحون آذانهم لأولئك الكلمات المعسولة ، بعد أن جرّبوا من دول الاستعمار كلّ بلاء ، وذاقوا منهم الحلو والمرّ ، وعرفوا أنهم قوم لايرهبهم سوى القوّة ، ولايخضعهم إلا السلطان والنفوذ ، ومقياس الطفولة عندهم و بلوغ سنّ الرشد : القوّة والضعف .

فالشعب الذى لايزال ضعيفا فى حر بيته ، محدودا فى علمه ومؤهلاته ، فقيرا فى رجاله وأبنائه ، هو ذلك الشعب الذى يستحقّ عند القوم الوصاية .

أما شعب استطاع أن يكشر لهم عن نابه ، و يقلب لهم ظهر المجنّ ، و يبدل راحتهم تعبا ، وصفاءهم كدرا ، و يوقعهم فى مشاكل لاقبل لهم بها - شعب هذا حاله يستحقّ منهم العناية والنظر ، وأن يدخل فى مصاف البشر ، يستحقّ أن يستضىء بالشمس ، و يستظلّ بالسماء ، يستحقّ أن ينتفع بخيراته ، و يتمتع بثمرات بلاده .

وترى أولئك الدول مع اعترافهم بنبوغ الشعب وقوّته يراوغون معه و يداورن ، فاذا طالبهم بالغاء الحماية التى وضعوها ظلما ألغوا اسمها ، وأبقوا حقيقتها ، تحت عنوان لذيذ ، واسم جذاب ، و إذا طالبهم بالاستقلال أجابوه الى اسمه ، وكبلوه بقيود تذهب بثمرته ، وتضيع الفائدة منه كلّ ذلك ليكون مظهرهم أمام العالم المتمدين مظهر المنصف المساير للزمن .

هذه هى وصايتهم على الأمم ، ورقابتهم على الشعوب ، و إذا قام نفر من القوم يواجهون هذه الحقائق ، و يصرخون فى وجه الاستعمار ، قابلوهم مقابلة منكرة ، وقالوا لهم ماقاله الكفار للرسل (لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنّ فى ملتنا) وقد نسوا أن الله أوحى إليهم (لنهلكنّ الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم) وهو وعد من الله لايختلف ولايتخلف ، وانا آمنا بوعد الله ووعيده ، وأنه لايرضى ظلما فى الأرض ، ولا أن يتعبد الناس بعضهم بعضا ، وانما يرضى للناس العزة والكرامة ، والعدل والاستقامة ، فليجرب الظالمون من أنواع الاستبداد بالمصلحين ماشاءت لهم التجارب ، فان النصر حليف المتقين (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين «١٧١» انهم لهم المنصورون «١٧٢» وان جندنا لهم الغالبون «١٧٣» [1]) .

(٧) (قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) بيان من نبىّ الله شعيب عليه السلام لأهمّ الأمرين وأولاها بالرفض والكراهة ، وهو انشاء فى لفظ الخبر - فاما أن يكون قسما مؤكدا لرفض دعوة الملأ إياهم الى العود فى ملتهم ، كما يقول القائل : برئت من الذمّة أو من رحمة الله تعالى ان فعلت كذا . فيكون مقابلة لقسمهم بقسم أعرق منه فى التوكيد واما أن يكون تعجبا خرّج على غير مقتضى الظاهر ، وأكد بقد والفعل الماضى .

والمعنى ما أعظم افتراءنا على الله تعالى ان عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، و إذا كان من يتبع ملتكم يعدّ مفتريا على الله تعالى بقوله عليه مالايعلم ، لابهداية من الوحى ولا برهان من العقل ، فكيف يكون حال من افترى عليه وضل عن صراطه على علم (بعد إذ نجانا الله منها) .

قد علمت أن شعيبا عليه السلام مستثنى من ذلك لأنه معصوم ، والكلام على التغليب ، والمراد بعد أن نجانا الله من الانتماء إليها ، ومشايعة أنصارها .

(وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) رفض آخر للعود فى ملتهم مؤكد أبلغ

---

[١] الصافات .

التأكيد معطوف على مناسبه ، والتعبير يدل على نفى الشأن وهو أبلغ من نفى الفعل ، لأنه نفى له بالدليل ، وهو كونه غير مستطاع ، ولا جار على سنن الله فى الاجتماع .

والمعنى : ليس من شأننا أن نعود فيها إلا حال مشيئة الله المتصرف فى جميع الشئون ، فهو وحده القادر على ذلك لايقدر عليه غيره ، لا أنتم ولا نحن ، لأنا موقنون بأن ملتكم باطلة ، وملتنا هى الحق ، والموقن لا يستطيع إزالة يقينه ولاتغييره ، وإنما ذلك بيد مقلب القلوب سبحانه ، ورهن مشيئته ، وقوله (وسع ربنا كل شىء علما) يرينا أن مشيئته تجرى بحسب علمه ، وحكمته فى خلقه.

ومن حكمته وسنته فى خلقه أن يقيم حجته بأهل الحق على أهل الباطل ، وينصرهم عليهم بالقول والفعل ، وكأنه يقول لهم : إذا كان الأمر كذلك فلا تطمعوا إذا أن يشاء ربنا الحق بنا عودتنا فى ملتكم بعد إذ نجانا بفضله منها ، وأقام الحجة عليكم بنا ، وما كان تعالى ليدحض حجته ، ويبطل سنته ، فيبدل الهدى ضلالا ، والنور ظلمة ، والبصر عمى ، حتى يحولنا من إيمان الى كفر ، ومن سعادة الى شقاء ، فقوله (إلا أن يشاء الله ربنا) استثناء مؤيس للملأ من قوم شعيب من عودته عليه السلام مع من آمن معه فى ملتهم فهو لتأكيد النفى ، ونظيره قول الله تعالى (سنقرئك فلا تنسى « ٦ » إلا ماشاء الله [١]) إذ ليس المراد أن الله تعالى يشاء نسيانه وقتاما ، وإنما المراد أنه لا ينسى ما قرأه عليه مطلقا ، والايثار بالمشيئة للتنبيه على أن عدم النسيان بفضل الله وكرمه ، لابالايجاب عليه ، فلو شاء أن يجعله كذلك لفعل ، وعلى ذلك جاء الاستثناء فى قوله تعالى فى سورة هود (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ « ١٠٨ » [٢]) أى غير مقطوع ، فالاستثناء فى مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد بكرم الله تعالى وسعة جوده ، لابتحتيم عليه وايجاب ، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع .

(٨) ان من يقابل الملأ المستكبر العاتى بتلك المقابلة لا غنى له عن ركن شديد يأوى إليه ، وحصن حصين يعتمد عليه ، فليس غريبا أن يقول شعيب بعد أن هدده قومه بالاخراج من بلده إلا أن يعود فى ملتهم و بعد أن أيأسهم من ذلك العود ، وأقام لهم الأدلة على أنه غير مستطاع .

ليس غريبا أن يقول نبى الله شعيب (على الله توكلنا) أى إليه وحده وكلنا أمرنا ، مع قيامنا بكل ما أوجبه علينا ، فهو يكفينا أمر تهديدكم ، وكل مالم يجعله فى استطاعتنا من جهادكم (ومن يتوكل على الله فهو حسبه « ٣ » [٣]) وهكذا يجب أن يتوكل على الله كل داع إليه ، ويتأسى بنبى الله شعيب إذا جد به الجد ، فتألب عليه أعداء الحق وأنصار الباطل ، وأخذوا يهددونه بألوان من العذاب لا قبل له بها ، فيقوم بما أوجبه الله عليه وما اقتضته حكمته من أسباب النصر الكونية التى تدخل تحت استطاعته ، ثم يرجع إلى الله تعالى فيما لا يقدر عليه من الأسباب ، فاذا كان واعظا استوفى الموضوع الذى يعظ الناس به بحثا ، وأحاط به من جميع نواحيه وكون له رأيا فى ذلك الموضوع خالصا من الشبه ، بعيدا عن الشكوك ، وبذلك يكون داعيا إلى الله على بصيرة .

---

[١] الأعلى . [٢] هود . [٣] الطلاق .

ثم بعد ذلك كله ، و بعد أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، يكل أمره إلى الله تعالى فى أن يصرف عنه أذى القوم ، ويحول بينهم و بين أن ينالوه بسوء ، ثم يرجع إليه فيما يجد من المشاكل مما لم يعمل له حسابا .

وكثيرا ما رأينا شكوكا وشبها توجه إلى الدّاعى ثم يلهمه الله عليها الجواب النافع والردّ الحسن، كلّ ذلك بفضل توكله على ربه ، ورجوعه إلى خالقه و بارئه ، بعد أن يعدّ لموضوعه العدّة ، ويهيئ له الأسباب والمقدّمات ، فمن يترك العمل بالأسباب فهو جاهل مغرور ، لامتوكل منصور ولا مأجور ، فقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لمن سأله : أيترك ناقته سائبة ويتوكل على الله تعالى « اعقلها وتوكل » رواه الترمذى . وقال تعالى لرسوله بعد أن أمره بمشاورة أصحابه فى غزوة أحد (فاذا عزمت فتوكل على الله إنّ الله يحبّ المتوكلين « ١٥٩ » [1]) وانما يكون العزم بعد الأخذ فى الأسباب . ومن أراد أن يكون تاجرا لا يكفيه أن يكون عنده مال يشترى به مايريد ، بل عليه أن يدرس الموضوع الذى يريد أن يعمل فيه ، وقد أصبحت التجارة فنا من الفنون العظيمة التى ألفت فيها الأسفار ، وأنشئت لها المدارس المختلفة .

ومن السفه والحمق أن يأتى الرجل الذى لايتصل بالتجارة لا فى قليل ولا كثير ، لم يتصل بها علما ولا عملا ، ثم يعمد إلى طائفة من المال ليشترى بها بقالة أو أقمشة أو ما يشبه ذلك .

إنّ تاجرا هذا حاله لابدّ أن يكون حظه الفشل ، ولا يغنيه أن يقول : إنه متوكل على ربه ، لأنه كاذب فى ذلك التوكل ، ولا يغنيه أن يكون مسلما طيب السيرة والسمعة ، فان ذلك كله شىء والاستعداد للتجارة شىء آخر ، فان الله تعالى جرت سنته بأن يمدّ من يعمل للدنيا من طريقها المعتاد ، وأسبابها الصحيحة أيا كانت نحلته ، وأن يخذل من لايأتى البيوت من أبوابها، وان كان على دين صحيح ، وأخلاق طيبة ، ويخطئ بعض الناس حينما يعجبون من صنع الله معهم إذا زوى عنهم الدنيا وأعطاها لغيرهم ، الذين هم على دين باطل ووثنية منكرة .

وسبب خطئهم أنهم حسبوا أن الدنيا يعطيها الله تعالى لمن يحبّ وان خالفوا سنته ، ويحرمها من لايحبّ وان حذقوا طريق جمع المال وتثميره بطرق الاقتصاد (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا « ١٨ » ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا « ١٩ » كلا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا « ٢٠ » انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا « ٢١ » [2]) .

هذه أمثلة ضربناها للقارئ حتى لا يفهم أن التوكل هو التواكل ، بل التوكل الصحيح القيام بما أوجبه الله عليه من الأحكام الشرعية ، ومراعاة ما اقتضته حكمته من الأسباب والسنن الكونية والاجتماعية .

ثم قال نبيّ الله شعيب (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) .

يطلب من الله تعالى بعد أن أدّى ماعليه من بلاغ و بعد أن صبر على إيذاء قومه حتى بلغتهم

---

[١] آل عمران . [٢] الاسراء .

الدّعوة كاملة غير منقوصة ، وقامت عليهم الحجة أن يفصل بينه و بين قومه بالحق الذى مضت به سنته فى التنازع بين المرسلين والكافرين ، و بين سائر المحقين المصلحين والمبطلين المفسدين فى الأرض ، وأنت خير الحاكمين لاحاطة علمك بما يقع به التخاصم ، وتنزهك عن الظلم ، واتباع الهوى فى الحكم .

(٩) لما يئس الملأ من عودة شعيب ومن معه أخذوا يقولون لمن معهم (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) لشرفكم ومجدكم ، بإيثار ملته على ملة آبائكم وأجدادكم ، وخاسرون لثروتكم وربحكم ، بما حذقتموه من تطفيف الكيل والميزان و بخس الناس أشياءهم ، وقد أكدوا قولهم هذا فى قولهم (لئن) الدّالة على القسم وتوسيط (إذا) بين طرفى الجلة ، ومجىء الجلة اسمية ، كلّ ذلك من المؤكدات لمضمونها ، الخادعة لسامعيها (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) وفى سورة هود (وأخذت الذين ظلموا الصيحة) .

وقد علمت من قصة نبىّ الله صالح أن الذى حلّ بثمود صاعقة يصحبها صوت شديد هو الصيحة ترجف منها القلوب ، فالعذاب قد اشتمل على ذلك كله : كذلك عذاب قوم شعيب هو رجفة وصيحة ، فأصبحوا فى دارهم التى أرادوا إخراج شعيب منها ، والحيلولة بينه و بينها جاثمين على ركبهم من هول ما أصابهم .

ثم أراد أن يصوّر لنا ما أصاب القوم من هلاك ، وما حلّ بهم من تدمير ، فقال (الذين كذّبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذّبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) ليرينا أنهم أصبحوا أثرا بعد عين ، فانتهت عظمتهم ، وزال كبرياؤهم ، وجعلهم الله أحاديث .

وانظر كيف يكرّر الله علينا كلمة (الذين كذّبوا شعيبا) بأسلوب الخطابة المؤثرة فى الوعظ والتوبيخ كما تقول ، كما تقول : أنت الذى جنيت علينا ، أنت الذى سلطت علينا أعداءنا ، أنت الذى فرّقت كلمتنا ، ثم يختم ذلك الأسلوب بقوله (الذين كذّبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين) وهو ردّ على قولهم (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) ليريهم أن الذى خسر دينه ودنياه هم الذين كذّبوا شعيبا ، أما المؤمنون بشعيب فقد أنجاهم الله فى الدّنيا وسينجيهم فى الآخرة .

ثم كان من نبىّ الله شعيب أن تولى عن قومه بعد أن حلّ بهم من عذاب الله ما حلّ ، وأخذ يخاطبهم بأنه أبلغهم رسالات ربه ، ومحضهم النصح ، ولكنهم لايحبون الناصحين ، فالعيب عليهم لا عليه ، فكيف يحزن عليهم ، وقد أعذر إليهم ، و بذل جهده فى سبيل هدايتهم ونجاتهم وإنما يأسى من قصر فيما يجب عليه من النصح والارشاد .

شعيب عليه السلام

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّى أَرَىٰكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

مُحِيطٍ [١] «٨٤» وَيٰقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ «٨٥» بَقِيَّتُ [٢] اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ [٣] «٨٦» قَالُوا يٰشُعَيْبُ أَصَلٰوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوٰلِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ «٨٧» قَالَ يٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلٰى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلٰى مَا أَنْهٰيكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الْإِصْلٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ «٨٨» وَيٰقَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ [٤] شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ «٨٩» وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ [٥] «٩٠» قَالُوا يٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرٰيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنٰكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ «٩١» قَالَ يٰقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا [٦] إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ «٩٢» وَيٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلٰى مَكَانَتِكُمْ [٧] إِنِّي عٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كٰذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ «٩٣» وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ [٨] فَأَصْبَحُوا فِي دِيٰرِهِمْ جٰثِمِينَ [٩] «٩٤» كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ «٩٥» هود

---

[١] مهلك : أو مستأصل . [٢] ما يبقى لكم من الحلال ، أو طاعته . [٣] أحفظكم من القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها أو مستبق عليكم نعم الله تعالى مع سوء صنيعكم . [٤] يكسبنكم معاداتى . [٥] عظيم الاحسان بالتائبين . [٦] منسوب إلى الظهر ، والكسر من تغييرات النسب .

[٧] مصدر مكن مكانة فهو مكين : أى اعملوا على قدرة منكم على عداوتى . [٨] صوت العذاب .

[٩] ميتين لازمين لأماكنهم « يغنوا » يقيموا .

شرح وعـــــبرة

(١) بعـد أن دعاهم شعيب الى عبادة الله وحده ، وعدم نقص المكيال والميزان ، قال لهم (انى أراكم بخير) يريد أنكم فى ثروة واسعة تغنيكم عن التطفيف ، أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ماتفعلون ، ثم خوفهم من عذاب الله تعالى إذاهم خالفوه وخرجوا عن حدوده ، فقال (وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) توعدهم بعذاب يحيط بهم بحيث لايخرج منه أحد ، والمحيط من صـفة اليوم فى الظاهر ، وفى المعنى من صفة العـذاب ، وذلك مجاز مشهور ، كقوله (هذا يوم عصيب) قيل انه تخويف من عذاب الاستئصال فى الدنيا الذى يحيط بهم كاحاطة الدائرة بما فى داخلها ، فينالهم من كل وجه ، وذلك مبالغة فى الوعيد ، كقوله (وأحيط بثمره «٤٢» [١]) وقيل انه تخويف من عذاب الآخرة لأنه اليوم الذى نصب لاحاطة العذاب بالمعذبين فلا يشذ منهم أحد ، وهو صالح للأمرين جيعا .

و بعد أن أمرهم ثانيا بايفاء الكيل والميزان بالقسط والعدل ، وأن لايبخسوا الناس أشياءهم ، قال (بقيت الله خير لكم ان كنتم مؤمنين) وهو كقوله فى سورة الأعراف (ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين) والمراد أن ثواب الله خير لهم من التطفيف والاخسار والبخس ، وانما أطلق على الثواب بقيت لأنه الذى يبقى لصاحبه ، أو المراد أن مايبقى لهم من الحلال بعد ايفاء الكيل والوزن خير من التطفيف ، لأن الناس إذا عرفوا إنسانا بالصدق والأمانة ، والبعد عن الخيانة ، وثقوا به ورجعوا إليه فى معاملاتهم ، فيفتح عليـه باب الرزق ، و إذا عرفوه بالخيانة والمكر انصرفوا عنه ، ولم يخالطوه فتضيق عليه أبواب الرزق .

ومن ذلك نعرف أن طاعة الله تعالى تفيد صاحبها فى دنياه وأخراه ، وتكسبه من سعة الرزق وثقة الناس به ما لا يكسب غيرها ، و يستطيع التاجر الصـدوق أن يعيش ورأس ماله تلك الثقة الغالية ، يستطيع أن يعيش على حساب ما لغيره من المال موفور الكرامة محترما .

أما التاجر الكذوب فلا يلبث أن ينكشف أمره ، وتفضح أعماله ، و إذا عاش سـنة فلا يستطيع أن يعيش سنين ، لذلك كانت (بقيت الله) خيرا للناس فى دنياهم ، وخيرا لهم فى أخراهم ، ولعلّ فى ذلك عبرة لتجارنا الذين مرّنوا على الكذب ، وتعوّدوا الغشّ والخديعة .

أما قوله (إن كنتم مؤمنين) فهو مطالبة بمقتضى الايمان ، وقد استوفينا الكلام على هذه الجلة فى قصة شعيب من سورة الأعراف .

(وما أنا عليكم بحفيظ) مابعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها ، وانما بعثت مبلغا ، ومنبها على الخير وناصحا ، وقد أعذرت حين أنذرت ، أو لاأستطيع أن أحفظ عليكم نعم الله إذا أنتم كفرتموها ، فهو تهديد لقومه بزوال نعم الله عليهم اذا هم استمرّوا على عصيانه ، والخروج على حدوده وتعاليمه .

(٢) (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء)

---

[١] الكهف .

قابلوا دعوة نبيّ الله شعيب الجادّة بكلمات التهكم الساخر ، وأراد أن هذا الذى يأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل ، وأن مثله لايدعوك إليه داعى عقل ، ولايأمرك به أمر فطنة ، فلم يبق إلا أن يأمرك به أمر هذيان ووسوسة شيطان ، وهو صلاتك التى تداوم عليها فى ليلك ونهارك ، وهى عندهم من باب الجنون الذى يتولع به المجانين والموسوسون ، فقد سخروا [أولا] من نبيّ الله شعيب عليه السلام فى عبادته ، ثم سخروا منه [ثانيا] فى أمره ونهيه ، وقد أضافوا الأمر الى الصلاة فى تهكمهم ، لأنهم ينكرون أن يكون طريقه الوحى السماوى .

وما أقرب الشبه بين [الملأ المستكبر] من قوم شعيب و بين طائفة من شبابنا اليوم ، الذين لا يقفون من المصلين موقفا سلبيا فحسب ، بل يسخرون من صلاتهم ، و يتهكمون بهم فى ركوعهم وسجودهم ، و يستقبحون من الرجل أن يضع جبهته على الأرض ، وأن يعفر وجهه بالتراب ، خضوعا لله واعترافا له بالجميل ، وفى الوقت نفسه يسمحون لأنفسهم أن يخرّوا ساجدين لأرباب النفوذ وأصحاب السلطان ، رغبة فيما بأيديهم من حطام ، أو رهبة مما عندهم من بطش وقوّة ، يستقبحون أن يخضعوا للخالق صاحب السلطان الأعظم ، ومالك السموات والأرض ، و يبيحون لأنفسهم أن يذلوا لعبد لايملك لنفسه ضرّا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، بل يستبيح فريق منهم أن يذلّ أمام قبر من قبور الصالحين متوسلا بصاحب القبر أن يدفع عنه شرا ، أو يجلب له خيرا .

فنحن أمام تيارين متناقضين: تيار الالحاد واللادينيين ، الذى ينكر أن هناك إلها يستحقّ أن تخضع له الرقاب ، وتذلّ له النفوس ، وتيار الشرك الذى دخل على المسلمين كما دخل على غيرهم من الأمم ، فخلطوا إيمانهم بظلم ، وهم القبوريون الذين يبالغون فى تعظيم الصالحين ، حتى طلبوا منهم مالايطلب إلا من الله تعالى ، ووضعوهم موضعا غير لائق بهم ، وسيتبرءون منهم ومن شركهم وكلا الطريقين : طريق الالحاد ، وطريق الشرك : ظلم بين ، وخروج عما ينبغى .

أما الالحاد فانه إنكار لما لله من آيات ودلائل فى النفوس والآفاق ، وهى أوضح من أن تذكر ، وأكثر من أن تعدّ ، وأما الشرك فلأنه تسوية للمخلوق بالخالق ، والعبد بالربّ ، والفقير بالغنيّ ، والمملوك بالمالك .

فهاتان نزعتان متناقضتان : إحداها تبالغ فى العزة حتى تنكر الخضوع لاله ، وأخرى تمتهن إنسانيتها حتى تخضع لعبد من عباد الله ، وقد تمعن فى امتهانها لنفسها حتى تخضع لحجر تنحته يدها ، أوخشب من صنعها وعملها . نعوذ بالله من الافراط والتفريط ، ونعوذبالله من جهل الرجل نفسه ، ونسيانه خالقه ورازقه ، كمانعوذ به من خضوع الانسان للانسان ، وعبادة المخلوق للمخلوق .

(يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون «٦٤» [1]) .

وقوله (أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) عطف على قوله (مايعبد آباؤنا) فالمراد أن نترك أن نفعل فى أموالنا ما نشاء : من تطفيف وإخسار وغير ذلك . ينكرون على نبيّ الله شعيب أن

---

[١] آل عمران .

يأمرهم بترك عبادة الأوثان ، وترك أن يفعلوا فى أموالهم عند البيع والشراء ماشاءت لهم الشهوات وزينت لهم المصالح .

(إنك لأنت الحليم الرشيد) أرادوا نسبته الى غاية السفه والغىّ ، فعكسوا ليتهكموا به ، كما يقال للشحيح الخسيس : لورآك حاتم لسجد لك ، أوأرادوا إنك معروف عند قومك بالحلم والرشد فلماذا تأمرهم بترك دين ألفوه عن آبائهم وأسلافهم وترك عمل يعود عليهم بالثراء والمال الجمّ ؟

وفاتهم أن الرشد فى أن يعرف الانسان ربه ويشكره على ماوهبه من النعم ، ويضع نفسه حيث وضعها الله من إجلال وإكرام ، وأن ماهم عليه من عبادة الأوثان ، وأكل مال الناس بالباطل لايتصل بالرشد فى قليل أو كثير .

وانما الرشد فيما دعاهم إليه ، وحضهم على الوصول له من سعادة فى الدنيا والدين .

(٣) (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

يطالب قومه أن يخبروه ان كان على بينة من ربه بالعلم والهداية ، والدين والنبوّة ، ورزقه رزقا حسنا استغنى به عن أن يسأل الناس أجرا على هدايتهم وتبليغهم الدين ، ولايريد أن يخالف قومه إلى مانهاهم عنه فيستأثر به دونهم ، وانما يريد أن يصلح مااستطاع إصلاحه ، ولا يعتمد فى إصلاحه إلاعلى ربه ، فهو الذى يوفقه ، ويزيل من بين يديه عقبات الاصلاح ، وهو الذى يرجع إليه ويعتمد عليه — يطالب قومه أن يخبروه ان كان على هذه الصفات أيليق بهم أن يقولوا فى شأنه ماقالوا وأن يتهكموا به ذلك التهكم الشائن ؟ وقد خاطبهم بأسلوب غير القاطع فأتى بإن ترفقا بهم ، وكأنه يريد أن أولئك الصفات لاتتفق والسفه بحال من الأحوال فان الرجل الذى آتاه الله علما وهداية ، فكان على بينة من ربه ، ورزقه الرزق الحسن فكان يعيش من كسبه وكدّه ، ولم يطلب من قومه أجرا على دعوته ، ولايريد أن يسبقهم الى شهواتهم التى نهاهم عنها ، من تطفيف الكيل وإخسار الميزان ، وما الى ذلك ، وإنما هو مؤمن بما يدعو إليه ، قدوة صالحة فى تمسكه بالفضيلة وبعده عن الرذيلة ، وهذه الصفة من أخصّ صفات الدّعاة الصادقين ، ولذلك يلفتنا الله إليها فى قوله (اتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون « ٢١ » [١]) وما دام لم يرد بدعوته أجرا من المدعوين ، وهو مؤمن بما يدعو إليه ، مقتنع بأحقيته ، فهو لايريد سوى إصلاح قومه جهد استطاعته . ورسول ذلك حاله ، وتلك دعوته لايصح أن يقابل بالتهكم والهزء ، وإنما يقابل بالاجلال .

(وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) .

يحذّرهم نبىّ الله شعيب أن لاتحملهم مشاقتهم له أن يعصوا الله ويخرجوا عن حدوده فيصيبهم من العذاب ما أصاب من قبلهم من المكذّبين ، وكثيرا ما يجرّ التمادى فى العداوة إلى ما لاتحمد عقباه ، وكأنه يقول لهم : كونوا قوما عقلاء مفكرين وزنوا الأمور بميزان الحكمة والانصاف ،

---

[١] يس .

انظروا فى دعوتى لكم ، لتروا أهى دعوة أساسها الشهوة والهوى ، أم أساسها المصلحة وطلب مرضاة الله تعالى ، ولا تسايروا الهوى وداعية الانتقام ، فان ذلك يجركم الى مآثم لاقبل لكم بها .
هؤلاء قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقهم الله وجعلهم آية للناس، وهؤلاء قوم هود لما عتوا عن أمر الله وخرجوا عن حدوده أرسل الله عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات ليذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، وهؤلاء ثمود هداهم الله فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ، ثم قال لهم (وماقوم لوط منكم ببعيد) يريد أنهم أقرب الهالكين منكم فكان عليكم أن تعتبروا بهم ، وتذكروا بما حصل لهم ، ثم أمرهم أن يستغفروا ربهم وأن يتوبوا إليه فانه رحيم بمن استغفره ، ودود لمن إليه أناب .
(٤) (قالوا ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول) كان جواب قومه بعد ذلك الترفق البالغ ، والأدب الجم ، وبعد أن أقام عليهم الدليل على حقية دعوته ، وبعد أن خوفهم من عذاب ربه — كان ردّهم بعد ذلك كله أن يقولوا له (مانفقه كثيرا مما تقول) وهو كقول قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون «٥» [1]) قالوه على وجه الاستهانة به ، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه : لا أدرى ماتقول . أو جعلوا كلامه هذيانا وتخليطا لاينفعهم كثير منه ، أو قالوا ذلك اخبارا بالواقع لأنهم كانوا لايلقون إليه أذهانهم رغبة عنه وكراهية له ، فعاقبهم الله تعالى على ذلك الاعراض بعدم فقهه والوقوف عليه (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ماقدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا «٥١» [2]) (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا [3] مستورا «٤٥» وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا «٤٦» [4]) .
لم يقفوا من نبى الله شعيب عند ذلك الحد بل قالوا له (وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) ربت فيهم نعرة الجاهلية ، وتغلب عليهم بطش الجبابرة ، فأخذوا يهددونه بالضعف ، ويعيبونه بأنه لايقدر على الامتناع منهم إذا أرادوا به مكروها ، ثم أروه أنهم لولا رهطه لم يختاروه عليهم ، ولم يتابعوه فى الدين — لقتلوه شر قتلة (وما أنت علينا بعزيز) وإنما يعز علينا رهطك ، لأنهم من أهل ديننا ، وعلى ملة آبائنا .
وانظر كيف يرد عليهم ردا مؤثرا فيقول (ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله) فتعملون لهم حسابا دونه ، وتخشونهم وهو أحق بالخشية ، وكيف يليق بكم أن تتخذوه كالشىء المنبوذ وراء الظهر لايعبأ به ، وذلك جهل فاضح ، وضلال بعيد .
نعم من أسوإ ضروب الجهل ، وأبشع أنواع الضلال : أن يعمل الناس حسابا للمخلوق وينسون بطش الخالق ، وأن يهون عليهم رسل الله فيكذبونهم ويهددونهم بالنفى والقتل وما إلى ذلك ، ويعز عليهم أن يغضبوا رهطا من الناس، وطائفة من البشر ، لأنهم مالئوهم فى الشهوة ، وشاركوهم

[١] فصلت . [٢] الكهف . [٣] هو حجاب الختم على القلوب . [٤] الاسراء .

فى الاثم ، و إذا كان المخلوق يعمل لغضبه حساب فأولى بذلك الخالق ، لأن غضبه سبب فى الشقاء الأبدى ، والعذاب المقيم .

وقد عقب ذلك الأسلوب المؤثر بقوله (إن ربى بما تعملون محيط) قدأحاط بأعمالكم علما ، فلا يخفى عليه شيء منها ، وسيحاسبكم عليها الحساب العادل ، ويجزيكم الجزاء الأوفى ، ثم قال لهم ياقوم اعملوا ماشاء لكم الهوى على تمكنكم من العمل ، وقدرتكم على الكيد ،معتزين بمالكم من قوة وعدة ، ناسين ربكم وخالقكم ، إنى عامل على مبدئى وعقيدتى سوف لا أحيد عنه ، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخجله أمام الناس ، ويحقره عند الجماهير ، وسوف تعلمون الكاذب من الصادق ، وانتظروا انى معكم منتظر ، وأنا واثق من وعد ربى بالنصر ، وعنايته بجنده وحزبه ولما جاء أمر الله بالهلاك أنجى شعيبا والذين آمنوا معه بفضل من الله استحقوه بالطاعة ، وأخذ الذين ظلموا صيحة العذاب ، فأصبحوا فى ديارهم باركين على ركبهم ، من شدة ما أصابهم ، كأن لم يقيموا فى البلاد ، ولم ينعموا بخيراتها .

ثم ختم القصة بالدعاء على مدين بالهلاك كما هلكت ثمود ، والغرض من ذلك الدعاء أنهم استأهلوا عذاب الله تعالى بعصيانهم ، وتكذيبهم لرسلهم ، وهى عبرة ما أشدها من عبرة ، ونكال ما أعظمه من نكال .

شعيب عليه السلام

كَذَّبَ أَصْحٰبُ الْأَيْكَةِ [١] الْمُرْسَلِينَ «١٧٦» إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ «١٧٧» إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ «١٧٨» فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ «١٧٩» وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلٰى رَبِّ الْعٰلَمِينَ «١٨٠» أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ «١٨١» وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ «١٨٢» وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ «١٨٣» وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ [٢] الْأَوَّلِينَ «١٨٤» قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ «١٨٥» وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكٰذِبِينَ «١٨٦» فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا [٣] مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ «١٨٧» قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ «١٨٨» فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ [٤] إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ

---

[١] شجر ملتف . [٢] الخلق . [٣] قطعا جمع كسفة ، والسماء السحاب .
[٤] سحاب يظل، وأكثر ما يستعمل فيما يستوضح ويكره .

يَوْمٍ عَظِيمٍ «١٨٩» إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ «١٩٠» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ «١٩١» الشعراء

شرح وعـــبرة

(١) الجديد فى هذه السورة أن الله أرسل نبيه شعيبا إلى أصحاب الأيكة ، وهى غيضة تنبت ناعم الشجر كانت بقرب مدين ، وكان شعيب أجنبيا منهم ، أما شعب مدين فلم يكن شعيب أجنبيا منهم ، ولذلك جعله أخا لهم دون أصحاب الأيكة ، ومكانهم كان بالحجاز مما يلى الشام [١] على خطّ عرض يوافق خطّ عرض قفط فى البرّ الافريقى ، فهى إلى الجنوب من القصير فى الجهة المقابلة .

وقد نسب لهم تكذيب المرسلين جميعهم مع أن الذى أرسل إليهم شعيب لما قلنا من أن دعوة الرسل واحدة فى صدقها وقيامها على الحجة والبرهان ، فالذى يكذّب رسولا من الرسل مع قيام الأدلة عنده على صدقه مكذب للرسل جميعهم .

وترى فى هذه السورة أن شعيبا عليه السلام قال لأصحاب الأيكة ماقاله لشعب مدين ، ومنه تعرف أن أخلاق الشعبين كانت واحدة ، وزاد فى هذه السورة مطالبتهم بتقوى الله الذى خلقهم وخلق من سبقهم من الأجيال .

بعد هذه الدعوة الوادعة الرشيدة قابلوه بقولهم (إنما أنت من المسحرين) الذين غلب على عقولهم ، فأصبحوا لايعون مايقولون (وما أنت إلا بشر مثلنا) ومن كان بشرا لايصلح أن يكون رسولا .

وقد سبق فى قصة نبىّ الله نوح عليه السلام الردّ على هذه الكلمة ، ونعيد منها الحكمة البالغة التى وردت على لسان بعض المفسرين .

[عجبا لأهل الضلال لم يرضوا للرسالة ببشر ورضوا للألوهية بحجر] وهى حكمة يصفع بها كلّ من قال (وما أنت إلا بشر مثلنا) ثم هو مع ذلك يعبد من خلق الله ما يعبد ، ثم قالوا (وان نظنك لمن الكاذبين) فى دعوى الرسالة عن الله تعالى .

والعجب لأولئك القوم يعرفون أن شعيبا لم يكذبهم فيما يخبرهم به من أمور الدنيا ثم يزعمون أنه يكذب على ربه فى أمور الدين ، فاذا كان لايستحلّ الكذب على الناس فكيف يستحلّ الكذب على الله تعالى ؟ ثم كيف يلفتهم إلى أنه لم يسألهم أجرا على تبليغهم الدين ، وإنما يطلب الأجر من الله تعالى ، وذلك شأن الصادق الذى يعمل عن اقتناع ، ويدعو وهومؤمن بما يدعو إليه ، وهذه أمارة الصدق ، ودليل الثقة بصاحب الدعوة ، ومع ذلك يقولون له (إنما أنت من المسحرين) وهل المسحر يدعو الناس على ذلك الأساس ، ويرشدهم بذلك الأسلوب ؟ وإذا كان شعيب يدعوهم الى أن يعطوا كلّ ذى حقّ حقه ، فلا يطففوا كيلا ، ولايخسروا ميزانا ، ولايبخسوا أحدا شيئا من حقه .

---

[١] انظر قصص الأنبياء للشيخ النجار .

إذا كانت هـذه الدعوة دعوة مسحر ، فكيف تكون دعوة العقلاء ؟ و إذا كان ذلك الأسلوب أسلوب كاذب ، فكيف يكون أسلوب الصادق المصدوق ؟ و إذا كان شعيب مسحرا فى عقله ، فلماذا خافه اخوانهم شعب مدين ؟ ولماذا كانوا يقعدون بكلّ طريق يوعدون المؤمنين به ويصدّونهم عنـه ؟ ولماذا توعدوه بالنفى هو والمؤمنون من القوم إذا لم يعد فى ملتهم ؟ وما قيمة رجل مغلوب على عقله ؟ ولماذا لايستوى عندهم رجوعه فى ملتهم وعدم رجوعه ؟ و بقاؤه فى البلد وعدم بقائه ؟ أليس للناس عقول تعرف بها الدعوة المبنية على العقل والحزم ، وتفرق بينها و بين الدعوة التى يقوم بها مجنون ، ويدعو إليها كاذب ؟ إذا كان مغلوبا على عقله فدعوه لجنونه يقضى عليه ، و إذا كان كاذبا فى دعوته فكذبه سيفضحه يوما مّا .

الحقّ أن القوم كانوا مضطربين ، فلا تستطيع أن توفق بين قولهم وعملهم ، ولا تستطيع أن تبنى عملهم على المنطق ، فكان طبيعيا أن يكون موقفهم مع نبىّ الله شعيب موقف جاحدين لدعوته ، مكذبين لرسالته ، لذلك كان موقفهم منه أن يقولوا .

(٢) (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) وهو نظير قول عاد لهود : (فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين « ٧٠ » [١]) وقول ثمود لنبىّ الله صالح (ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين « ٧٧ » [٢]) و يشبه قول كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم (اللهمّ إن كان هـذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم « ٣٢ » [٣] وهو أسلوب من الجحود بليغ يطلبون فيه ان كان القرآن هو الحق من عنده أن يعاقبهم على إنكاره كما فعل بأصحاب الفيل أو بعذاب آخر، يريدون نفى كونه حقا واذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذابا كما تقول : ان كان الباطل حقا فأمطر علينا حجارة وتسمية القرآن حقا على سبيل التهكم ، وكان فى وسعهم أن يقولوا [إن كان هـذا هو الحقّ من عندك فاهدنا إليه] ولكنّ القوم جاحدون ، و بآيات الله مكذّبون ، وعلى حدود الله خارجون ، ولشهواتهم يعملون ، فيقابلهم نبىّ الله شعيب بقوله (ربى أعلم بما تعملون) محيط بما تستوجبون عليها من العقاب ، فان أراد أن يعاقبكم عليها باسقاط كسف من السماء فعل ، و إن أراد عقابا آخر عاقبكم به وان أراد أن يؤخر عذابكم إلى أجل فهو صاحب الشأن فى ذلك كله ، كما قال نبىّ الله نوح عليه السلام حين قال له قومه (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين « ٣٢ » قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين « ٣٣ » [٤]) .

(فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) .

يرينا الله تعالى أن سبب عذابهم هو تكذيبهم لنبىّ الله شعيب ، وأنه لم يكن هناك فاصل بين التكذيب والعذاب ، وهو تهديد لكلّ من يكون منه مثل ذلك التكذيب .

يروى أن الله سلط عليهم الحرّ أياما ، فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظلّ ولا ماء ولا سرب ، فاضطروا إلى الخروج للبرّية ، فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما ، فاجتمعوا تحتها ، فأمطرت عليهم نارا ، فاحترقوا جميعا ، والله أعلم .

[١ـ٢] الأعراف . [٣] الأنفال . [٤] هود .

و يظهر أن عذاب ذلك اليوم كان معروفا ، وقد عقبه بقوله (إنه كان عذاب يوم عظيم) .
وقد ختم القصة بقوله (إنّ فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين و إن ربك لهو العزيز الرحيم) ليرينا أن فيما صنعه الله مع قوم شعيب عبرة لمن أراد أن يعتبر ، وذكرى لمن كان له قلب، وفيه مع ذلك تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم إذا لم يطعه قومه ، حتى لا يتحسر على عدم إسلامهم ، ولا يأسى على قوم لم يحرصوا على سعادتهم ، وتذكير بعزّة الله وغلبته ، وأنه القاهر فوق عباده ، ولولا رحمته بالناس لعجل لهم العذاب كما عجل لقوم شعيب ومن تقدّمهم من الأمم .

دعـــوة موسى
إلى الله تعـالى

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَيٰكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ «٢٠» يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَٰسِرِينَ «٢١» قَالُوا يَٰمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ «٢٢» قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «٢٣» قَالُوا يَٰمُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَادَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ «٢٤» قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ «٢٥» قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ «٢٦» المائدة

شرح وعـــبرة

(١) لقد كانت مهمة نبيّ الله موسى عليه السلام من أشقّ المهمات .

[أوّلا] لأن بنى إسرائيل مرّنوا على الذلّ ، وألفوا الاستعباد ، فكان نقلهم من ذلك الحال من أشقّ الأعمال .

[ثانيا] مالاقاه من جبروت فرعون وطغيانه .

وقد كان من علاجه لعلة بنى إسرائيل أن يذكرهم بنعم الله تعالى عليهم ، وهو أسلوب حكيم فى الوعظ يبدأه الدّاعى إلى الله باحياء إحساس الشرف وشعور الكرامة فى نفوس الموعوظين ، لتستعدّ بذلك لقبول الموعظة ، ولفظ [نعمة] يفيد العموم باضافته إلى اسم الله تعالى .

ثم بين مراده بذلك العموم بذكر ثلاثة أشياء ، وهى أعظم أركان النعم ومجامعها .

[الأوّل] وهو أشرفها جعل كثير من الأنبياء فيهم، وهو يصدق بوجود المبلغ نبيّ الله موسى وأخيه هارون ومن كان قبلهما عليهم السلام .

[الثانى] جعلهم ملوكا وقد غاير فى الأسلوب فقال (وجعلكم ملوكا) ولم يقل وجعل فيكم ملوكا للاشارة الى أن معظم رجال الشعب صاروا ملوكا ، بعد أن كانوا كلهم عبيدا للقبط ، ومعنى الملك هنا: الحرّ المالك لأمر نفسه ، وتدبير أمر أهله ، فهو تعظيم لنعمة الحرية والاستقلال ، بعد ذلك الرقّ والاستعباد .

ففى التفسير المأثور من حديث أبى سعيد الخدرىّ مرفوعا عند أبى حاتم «كانت بنو اسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا» وهو مجاز تستعمله العرب ، يقولون لمن كان مهنئا فى معيشته ، مالكا لمسكنه ، مخدوما مع أهله : فلان ملك ، أو ملك زمانه : أى يعيش عيشة الملوك .

[الثالث] ايتاؤهم ما لم يؤت أحد من عالمى زمانهم وشعوبه التى كانت مستعبدة للملوك العتاة كالقبط والبابليين . وقيل : المنّ والسلوى . وقيل : الغمام الذى ظللهم فى التيه ، وهو يشمل كل هذا وغيره من نعم الله التى اختصهم بها .

(٢) (ياقوم ادخلوا الأرض المقدّسة التى كتب الله لكم) وسماها الله مقدّسة لطهارتها من الوثنية بما بعث الله فيها من الأنبياء دعاة التوحيد .

ومنهم من فسرها بالمباركة ، وهو يصدق بالبركة الحسية والمعنوية .

روى ابن عساكر عن معاذ بن جبل أن الأرض المقدّسة ما بين العريش الى الفرات ، وعن قتادة أنها الشام ، والمعنى واحد ، وهى القطر السورىّ فى عرفنا اليوم . وقيل : هى بيت المقدس ، والأوّل هو الصحيح ، فان بنى اسرائيل ملكوا الشام وفيه فلسطين (كتب الله لكم) كتب لهم الحقّ فى سكناها إذا أنتم أطعتم الله تعالى ، فهى كتابة مشروطة بشرط هو الطاعة والاصلاح فى الأرض، ويؤيد ذلك ماورد فى سورة الاسراء التى تسمى أيضا سورة بنى اسرائيل .

(وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدنّ فى الأرض مرتين ولتعلنّ علوّا كبيرا «٤» فاذاجاء وعدأولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدامفعولا «٥» ثم رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال و بنين وجعلناكم أكثر نفيرا «٦» ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما

دخلوه أوّل مرّة وليتبروا ماعلوا تتبيرا «٧» عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا «٨») وهي تفيد أن الله قضى على بنى اسرائيل أن يفسدوا فى أرض الشام مرتين قبل الاسلام ، فيسلط عليهم كلّ مرة من يذلهم و يستولى على مدينتهم ومسجدهم ، و يهلك ما استولا عليه اهلاكا ، وقد كان ذلك .

ثم ختم القصة بقوله (عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا) .

قال المفسرون : وقد عادوا وعاد انتقام العدل الالهى منهم ، فسلط عليهم الروم قبل المسيحية و بعدها ، ثم المسلمين ، ومزقوا فى الأرض كلّ ممزق .

(ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين) لا ترجعوا عما جئتكم به من التوحيد والعدل ، والهدى إلى الوثنية ، والفساد فى الأرض بالظلم والبغى ، فيكون هذا الرجوع إلى الوراء انقلاب خسران لهذه النعم ، ومنها الأرض المقدّسة ، فتعود الدّولة فيها لأعدائكم ، ووجه آخر فى الارتداد وهو النكوص عن دخولها ، والجبن عن قتال من فيها من الوثنيين ، وقد فرض عليهم قتالهم ، والخسران على هذا خسران ثواب الجهاد ، وخيبة الأمل فى امتلاك البلاد ، وعقابهم بالتيه أربعين سنة ينقرض فيها المرتدّون على أعقابهم .

(٣) (قالوا يا موسى إنّ فيها قوما جبارين) .

قلنا : إنّ مهمة نبيّ الله موسى شاقة ، فقد كان استعباد المصريين لبنى إسرائيل قد أذلهم ، وأفسد عليهم بأسهم ، وكان بنو عناق الذين يسكنون أمامهم فى الأرض المقدّسة أولى قوّة وأولى بأس شديد ، وكانوا كبار الأجسام طوال القامات ، وهو المراد من كلمة [جبارين] من قولهم : نخلة جبارة : أى طويلة لا ينال ثمارها بالأيدى ، والجبار من أسماء الله تعالى ، فيه معنى العظمة والقوّة ، والعلوّ على خلقه ، وكونه لا يمكن أن يناله أحد بتأثير مّا .

فنبيّ الله موسى لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدّسة العامرة الآهلة ، أمرهم بدخولها مستعدّين لقتال من يقاتلهم من أهلها ، وأنهم لما غلب عليهم من الضعف والذلّ باضطهاد المصريين لهم أبوا واعتذروا بضعفهم ، وقوّة أهل تلك البلاد ، وحاولوا الرجوع إلى مصر [كما كان بعض العبيد يرجعون باختيارهم إلى خدمة سادتهم فى أمريكا بعد تحريرهم ومنع الاسترقاق بقوّة الحكومة لأنهم ألفوا تلك الخدمة والعبودية ، وصارت العيشة الاستقلالية شاقة عليهم] وقالوا لموسى إنا لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء الجبارون فيها ، كأنهم يريدون أن يخرجهم منها بقوّة الخوارق لتكون غنيمة باردة لهم ، وجهلوا أن هذا يستلزم أن يبقوا على ضعفهم وجبنهم ، وأن يعيشوا بالخوارق ماداموا فى الدنيا ، لايستعملون قواهم فى دفع الشرّ عن أنفسهم ، ولا فى جلب الخير لها وحينئذ يكونون أكفر الخلق بنعم الله ، فكيف يؤيدهم بآياته طول الحياة ؟ .

(قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب) .

من رحمة الله بالشعوب أنها إذا فسدت لم يكن الفساد عامّا شاملا ، بل تبقى أقلية محتفظة بصلاح فطرتها ، معتزّة بكرامتها ، فالشعب الاسرائيلى على إمعانه فى الذلّ ، و إخلاده إلى الجبن

لم يخل من رجلين قد أنعم الله عليهما بالطاعة والتوفيق، حتى فى حال الخوف من الجبابرة، يقولان للشعب (ادخلوا عليهم الباب) و يعدانهم بالغلب إذا هم دخلوه، و يأمرون الشعب أن يتوكل على الله إن كان مؤمنا به، فلا يعمل حسابا للجبابرة، ولا يخشى بأسا للأقوياء، بعد بذل الوسع فيما يصل إليه كسبهم من وسائل القوة، وأسباب القهر، وقد وعدوا الشعب بالغلب لما يعلمون من سنة الله مع الرسل وعادته مع المصلحين.

وما أحسن قول الرجلين (إن كنتم مؤمنين) لنعرف منه أن الايمان لايجامع الجبن والخور وإنما المؤمن كله شجاعة و إباء، لا يرضى بالضيم، ولا يخنع للذلّ، والشأن فيه أن يعيش كريما أو يموت كريما.

ولولا شجاعة سلفنا الصالح وسخاؤه بأعزّ شيء لديه وهى نفسه التى بين جنبيه، فى سبيل إعلاء كلمة الدين — لولا ذلك ما انتصر حقّ على باطل، وما بقى للمسلمين عزّ، وللمؤمنين شوكة.

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع [1] و بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىّ عزيز «٤٠» [2]).

(٤) لم تنفع موعظة الرجلين للشعب الاسرائيلى، لأن المرض أقوى من الدواء فلا بدّ أن يتغلب عليه كما هى سنة الله تعالى فى تنازع القوىّ والضعيف فأكدوا له أنهم لايدخلون الأرض المقدّسة مادام فيها الجبابرة، لأن دخولها يستلزم القتال وهم ليسوا أهلا له (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) إذا كنت قد أخرجتنا من أرض مصر بأمر ربك لنسكن هذه الأرض فاذهب أنت وربك الذى أمرك بذلك فقاتلا الجبارين واستأصلا شأفتهم (قال ربّ انى لا أملك إلا نفسى وأخى) يبثّ حزنه وشكواه الى الله تعالى و يتنصل عن فسق قومه عن أمره فهو يقول: لا أملك أمر أحد أحمله على طاعتك إلا أمر نفسى وأمر أخى ولا أثق بغيره أن يطيعك فى العسر واليسر، والمنشط والمكره (فافرق بيننا و بين القوم الفاسقين) بقضاء تقضيه بيننا إذ صرنا خصما لهم وصاروا خصوما لنا، أو افصل بيننا و بينهم إذ أخذتهم بالعقاب على فسوقهم، فلا تعاقبنا معهم فى الدنيا (قال فانها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) قضى الله ولا رادّ لقضائه أن تكون الأرض المقدّسة محرّمة على بنى اسرائيل تحريما فعليا، لا تكليفا شرعيا، مدّة أربعين سنة، يسيرون فى برّية من الأرض تائهين، متحيرين، لايدرون أين ينتهون فى سيرهم، من التيه، وهو الحيرة يقال: تاه يتيه، و يتوه لغة. و يقال: مفازة تيهاء، إذا كان سالكوها يتحيرون فيها، عاقبهم الله بحرمانهم من الأرض أربعين سنة، عقابا عادلا حتى يبيد ذلك الجيل الذى نشأ على الذلّ، وتربى على العبودية لغير الله تعالى، ولذلك يختم القصة بقوله (فلا تأس على القوم الفاسقين).

يسليه حتى لايبالغ فى الحزن على أمثال هؤلاء الذين فسدت فطرهم، وانحطت مداركهم، ونزلوا عما يليق بالانسان. وعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التى بينها الله لنا، ونعلم أن اصلاح الأمم بعد فسادها بالظلم والاستبداد إنما يكون بانشاء جيل جديد، يجمع بين حرية البداوة واستقلالها

---

[١] معابد النصارى «بيع» معابد رهبانهم «صلوات» معابد اليهود. [٢] الحج.

وعزتها ، و بين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها ، وقد قام بهذا فى العصور السالفة الأنبياء ، ويقوم به بعد ختم النبوّة ورثة الأنبياء الجامعون بين العلم بسنن الله فى الاجتماع ، و بين البصيرة والصدق والاخلاص فى حبّ الاصلاح ، وايثاره على جميع الأهواء والشهوات .

و يقول الأستاذ النجار : ان قوله تعالى (أربعين سنة) ليس ظرفا لقوله (محرّمة) فان تحريم هذه الأرض عليهم تحريم أبدىّ لامقيد بأربعين سنة ، فان الرجال الصالحين للحرب الذين عصوا أمر موسى ماتوا فى البرّية أثناء السنين الأربعين ولم يدخل أحد منهم أرض الموعد فكانت محرّمة عليهم باطلاق ، ولذلك يرى الوقف على قوله (محرّمة عليهم) .

وأنا أرى أن لاضرورة الى ذلك ، فان سنة القرآن أن يخاطب الشعب متكافلا متضامنا ، وكثيرا ماتكون النعمة للآباء ، ولكنه يمتنّ بها على الأبناء ، انظر الى قوله (يابنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوّكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المنّ والسلوى) وإنما نجى آباءهم ووعدهم ماوعدهم ولكنه يخاطبهم بما كان لآبائهم ليريهم أنهم متكافلون مع آبائهم فى الخير والشرّ ، والنعمة على الوالد نعمة على الولد .

فاذا كان الله تعالى قد حرّم الأرض على بنى اسرائيل فانما يحرّمها على الشعب نفسه عقوبة له على الجبن ، وان كان ذلك العقاب فى شخص الحاضرين ، فالمعنى يستقيم سواء وقفنا على قوله (محرّمة عليهم) أو وصلناها بما بعدها .

أما الأرض التى تاهوا فيها فهى أرض سيناء ، تاهوا فى برّيتها من عهد خروجهم الى أن مات موسى عليه السلام وعبروا نهر الأردن وملكوا أريحاء وما معها من الأرضين .

والسرّ فى ذلك كما أوضحه ابن خلدون أن نفس بنى اسرائيل كانت حقيرة لأنهم ألفوا الذلّ والهوان فى ملك المصريين ، ومن كان كذلك لايصلح لقتال ولا استقلال ، والعلماء يقرّرون أن حضانة العلم خمس عشرة سنة ، أماحضانة الأخلاق فمدّتها أربعون سنة ، فاذا أخذت أمة تستمسك بالأخلاق فانها لاتجنى الثمرة إلا بعد أربعين سنة ، حتى يفنى الجيل الذى نشأ فى الاستعباد ، وينشأ جيل ألف الحرية .

موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ «١٠٣» وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ «١٠٤» حَقِيقٌ [1] عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ «١٠٥» قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ

---

[١] جدير ، وعلى بمعنى الباء ، أو حريص ، وقرئ علىّ بتشديد الياء ، ومعناه واجب علىّ .

فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ «١٠٦» فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ [١] مُبِينٌ «١٠٧» وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّٰظِرِينَ «١٠٨» قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ «١٠٩» يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ «١١٠» قَالُوا أَرْجِهْ [٢] وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَٰشِرِينَ «١١١» يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ «١١٢» وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَٰلِبِينَ «١١٣» قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ «١١٤» قَالُوا يَٰمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ «١١٥» قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا [٣] أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ «١١٦» وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ [٤] مَا يَأْفِكُونَ «١١٧» فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١١٨» فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَٰغِرِينَ «١١٩» وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ «١٢٠» قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ «١٢١» رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ «١٢٢» قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ «١٢٣» لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ «١٢٤» قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ «١٢٥» وَمَا تَنْقِمُ [٥] مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ «١٢٦» الأعراف

شرح وعبرة

(١) يرينا الله تعالى فى هذه القصة أنه بعد أن أرسل هودا وصالحا ولوطا وشعيبا عليهم السلام بعث موسى بن عمران الى فرعون وملئه ، وقد ذكرت قصة نبيّ الله موسى فى عدّة سور مكية

---

[١] الذكر العظيم من الحيات . [٢] أخر أمره وأمر أخيه . [٣] موّهوا عليهم وأوقعوا فى قلوبهم الرهب والخوف . [٤] تتناوله وتبتلع « ما يأفكون » يصرفون به الناس عن الحقّ من السحر . [٥] تنكر باللسان أو العقوبة .

بين مطوّلة ومختصرة، وتكرر ذكره فى خطاب بنى اسرائيل من سورة البقرة المدنية حتى زاد ذكر اسمه فى القرآن على ١٣٠ مرّة .

وسبب ذلك أن قصته أشبه قصص الرسل عليهم السلام بقصة خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه من حيث انه أوتى شريعة دينية دنيوية ، وكوّن الله تعالى به أمّة عظيمة ذات ملك ومدنية .

أما فرعون فهو لقب ملوك مصر القدماء ، كلقب قيصر لملوك الروم ، وكسرى لملوك الفرس الأوّلين ، والشاه للملوك الايرانيين فى هذا العصر ، وكانوا يطلقون على فرعون لقب الملك أيضا .

وقد اختلف فى اسمه الحقيق وزمنه ، وأحدث الأقوال أن اسمه ريان أبا .

وقد اكتشفت جثته فى أحد النواويس وكتب بشأنه المرحوم أحمد نجيب بك الأثرى الشهير «صاحب الأثر الجليل فى قدماء وادى النيل» مقالا ضافيا فى المؤيد أيام العثور على جثة ذلك الرجل وأكد أنه فرعون موسى ، وأن قوله تعالى (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) تحقق بالعثور على جثته ، ومن علاماته أن ذلك الرجل أرنبة أنفه مأكولة غير موجودة ، فعلل ذلك بأن السمك أكل ذلك المكان من جسمه ، وأنه ألقى الى الساحل ، وأن المصريين أخذوه وحنطوه ودفنوه . قال الأستاذ النجار : وأنا أميل الى رأيه .

وهناك رأى آخر فى فرعون موسى هو أنه منفتاح سليل الأسرة التاسعة عشرة وهو ابن رمسيس الثانى الذى ملك من سنة ١٢٩٢ الى سنة ١٢٢٥ قبل المسيح ، وقد نشر ذلك البحث بأهرام ٧ مايو سنة ١٩٣٢ (١) .

أما ملأ فرعون فهم أشراف قومه ورجال دولته، ولم يقل الى فرعون وقومه بل وجه الدعوة الى فرعون وملائه ، لأن فرعون ورجال دولته هم الذين كانوا مستعبدين لبنى اسرائيل و بيدهم أمرهم ، وليس لسائر المصريين من الأمر شىء .

وقد بعث الله نبيه موسى لانقاذ قومه بنى اسرائيل من فرعون ورجال دولته ، فليس من الحكمة أن توجه الدعوة الى قوم لا يملكون من أمر أنفسهم شيئا، إنما الحكمة أن توجه الدعوة الى من بيدهم الأمر ، وان كان المقصود بالدعوة الشعب الاسرائيلى ، والآيات هى الدلائل التى تدل على صدقه فيما يبلغه عن الله تعالى (فظلموا بها) ظلموا أنفسهم وقومهم بالكفر بها كبرا وجحودا فكان عليهم إثم ذلك و إثم قومهم الذين حرموا من الايمان باتباعهم لهم (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وهو تشويق لتوجيه النظر لما سيقصه الله تعالى من عاقبة أمرهم ، إذ نصر رسوله موسى عليهم وهو فرد من شعب مستعبد لهم ، وهم أعظم أهل الأرض دولة وصولة .

نصره عليهم بابطال سحرهم ، ثم بارسال أنواع العذاب على البلاد ، ثم بانقاذ قومه واغراق فرعون ومن تبعه من ملائه وجنوده ، وهى عبرة ظاهرة وحجة قائمة مدى الدهر على القائلين ان الغلب للقوّة المادّية على الحقّ ، ولا سيما المغرورين بعظمة دول أوروبا الظالمة لمن استضعفتهم من أهل الشرق ، وحجة على أولئك الباغين بالأولى .

(٢) (وقال موسى يافرعون انى رسول من ربّ العالمين) الخ سيدهم ومالكهم ، وأنه

---

[١] انظر كتاب قصص الأنبياء للشيخ النجار .

بمقتضى هذه الرسالة لايقول على الله إلا الحق ، إذ لايمكن أن يبعث رسولا يكذب عليه، وهوالذى بيده ملكوت كلّ شيء ، فهو حقيق بالصدق والتزام الحقّ فى التبليغ عن ربه ، وهو شديد الحرص على ذلك الصدق .

وقد اشتمل كلامه على عقيدة الوحدانية ، وهى أن للعالمين كلهم ربا واحدا ، وعقيدة الرسالة المؤيدة منه تعالى بالعصمة فى التبليغ .

وقد ناقشه فرعون البحث فى وحدانيـة الربوبية العامّة لله تعالى فى سورة الشعراء ، فوصفه موسى بما يليق به تعالى كما سأله هو وهارون عن ربهما فى سياق سورة طه ، وجاء فيما حكاه الله عنهما فيها ذكر البعث والجزاء .

فعلم من هذا أن موسى قد بلغ فرعون وملأه أصول الايمان الثلاثة : التوحيد ، والرسالة ، والبعث والجزاء (قد جئتكم ببينة من ربكم) حجة واضحة عظيمة الشأن ، ثم بنى على هذا قوله (فأرسل معى بنى اسرائيل) باطلاقهم من أسرك ، وعتقهم من رقّ قهرك ، ليذهبوا معى الى دار غير دارك ، ويعبدوا فيها ربى وربك ، فكان جواب فرعون على هذه الدعوة المتواضعة أن (قال ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين) .

شك أوّلا فى مجيئه بآية ، ثم شك ثانيا فى صدقه فيما يخبر به عن الله تعالى (فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) .

لم يلبث موسى أن ألقى عصاه التى كانت بيمينه أمام فرعون ، فاذا هى ثعبان بين لاخفاء فى كونه ثعبانا يسعى وينتقل من مكان الى آخر تراه الأعين — ونزع يده : أخرجها من جيب قميصه بعد أن وضعها فيه فاذا هى بيضاء للناظرين إليه، وهم فرعون وملؤه، أولكلّ من ينظر. والنظارة : هم الذين يجتمعون لرؤية الأمور الغريبة .

وقد وصف الله تعالى بياضها فى سورة طه والنمل والقصص بأنه (من غير سوء) أى من غير علة كالبرص .

(٣) (قال الملأ من قوم فرعون ان هـذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون) لزمتهم الحجة وقام عليهم الدليل وسدّ عليهم أبواب التفكير بذينك الآيتين الواضحتين آية العصا، وآية اليد، فماذا كان منهم ؟ كان منهم أن رموا موسى بالسحر ، وأنه عليم بذلك السحر ماهر فيه ، ومن الذى رماه بذلك ؟ رماه الملأ من قوم فرعون وأعوانه فى الاستبداد والظلم .

ثم حاولوا استفزاز فرعون وإلهابه من ناحية موسى فقالوا : إن موسى يريد بذلك العمل أن يخرج فرعون وشيعة فرعون من أرضهم بسحره ، ولاشك أن وطن فرعون عزيز عليه فضلا عن ملكه وسلطانه ، فاذا قيل لرجل مستبدّ : ان فلانا من الناس يعمل على تقويض ملكك وذهاب دولتك وهو يؤلف الناس حوله على ذلك الحساب — إذا قيل للملك مستبدّ ذلك القول ذهب صوابه وطار لبه — لذلك لجأ الملأ من قوم فرعون حين عرفوا أن موسى عليه السلام سيظهر عليهم ، ويأخذ الشعب منهم الى تلك الدسيسة الدنيئة ، وذلك الأسلوب المنحط ، فأخذوا يؤلبون عليه

فرعون من ناحية ملكه ، ويحرّضونه عليه من جهة سلطانه وعظمته ، وهى ناحية حساسة تفعل بنفوس المستبدّين فوق ماتفعل الخمر .

ولاندرى كيف يتهمون نبيّ الله موسى بتلك التهمة ، وليس لموسى حظّ سوى انقاذ بنى اسرائيل من بطش فرعون ، وتعريفهم باله هو ربّ فرعون ، وشيعة فرعون ، و سواء عليه بعد ذلك بقى فرعون فى أرض مصر أم خرج منها، فذلك شىء لم يكن فى حسبان موسى ، ولم يدخل فى حدود دعوته ، ولا برنامج رسالته ، ولكن العجز عن مقابلة الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، يحمل أصحابه على هذه الفرية وأمثالها . نعوذ بالله من الخذلان بعد التوفيق ، والضلالة بعد الهدى .

السحر وأنواعه

كان السحر فنا من فنون قدماء المصريين يتعلمونه فى مدارسهم العالية مع سائر علوم الكون ، وكان كذلك عند أقرانهم من البابليين ، وكذا الهنود وغيرهم ، ولايزال يؤثر عن الوثنيين منهم أعمال سحرية غريبة اهتدى علماء الافرنج وغيرهم الى تعليل بعضها ، أوكشف حقيقته ، ولايزالون يجهلون تعليل بعضه .

والمعنى الجامع للسحر أنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها، ولذلك كان الأقوام الجاهلون يعدّون آيات الرسل الكونية التى يؤيدهم الله تعالى بها من قبيل السحر ، ويجعلون هذا مانعا من دلالتها على صدقهم ، لأن السحر صنعة تتلقى بالتمرين والتعليم ، والسحر لايروج إلا بين الجاهلين ، ولايكاد يوجد فى البلاد التى ينتشر فيها العلم ، بل يسمى أهله بأسماء أخرى كالمشعوذين والمحتالين والدجالين .

ومن ذلك يخطئ من يقول: ان السحر من خوارق العادات الذى هو الجنس الجامع لمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، لأنه صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص القرآن ، وبالاختبار الذى لم يبق فيه خلاف بين أحد من علماء الكون وهو أنواع :

[أحدها] مايعمل بالأسباب الطبيعية من خواصّ المادّة المعروفة للعامل المجهولة عند من يسحرهم بها ، ومنها الزئبق الذى قيل ان سحرة فرعون وضعوه فى حبالهم وعصيهم ،ولوشاء علماء الطبيعة والكيمياء أن يجعلوا أنفسهم سحرة فى أواسط افريقية الهمجية وأمثالها لأروهم من عجائب الكهرباء وغيرها مايخضعونهم به لعبادتهم لو ادّعوا الألوهية فيهم .

[النوع الثانى] الشعوذة التى مدار البراعة فيها على خفة اليدين فى اخفاء بعض الأشياء واظهار بعض ، و إراءة بعضها بغير صورها ، وغير ذلك مما هو معروف فى هذه البلاد وغيرها .

[النوع الثالث] نوع مداره على تأثير الأنفس ذوات الارادة القوية فى الأنفس الضعيفة ذات الأمزجة العصبية القابلة للأوهام والانفعالات التى تسمى فى عرف هذا العصر بالهيسترية ، وهذا النوع هو الذى قيل ان أصحابه يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين .

ومنهم الذين يكتبون الأوفاق والطلسمات للحبّ والبغض وغير ذلك .

ومن هذا النوع ما استحدث فى هذا العصر من التنويم المغناطيسى ، أما مأخذ السحر من اللغة فهو كلّ مالطف مأخذه ودقّ وخفى ، وقالوا سحره وسحّره[1] بمعنى خدعه وعلله ، وقالوا : عين ساحرة وعيون سواحر ، وفى الحديث الصحيح « إن من البيان لسحرا » والسحر بالفتح والتحريك الرئة ، وهى أصل هذه المادّة ، والرئة فى الباطن ، فما لطف مأخذه ودقّ صنعه حتى لايهتدى إليه غير أهله فهو باطن خفى ، ومنه الخداع ، وهو أن يظهر لك شيئا غير الواقع فى نفس الأمر فالواقع باطن خفىّ ، وتأثير العيون فى عشاق الحسان ، والكلام البليغ فى عشاق البيان مما يخفى مسلكه ويدقّ سببه ، حتى يعسر على أكثر الناس الوقوف على العلة فى تأثيره .

(فماذا تأمرون) من قولهم : مرنى ، بمعنى أشر علىّ . وقولهم : تآمر القوم وائتمروا مثل تشاوروا واشتوروا : أى فما الذى تشيرون به فى أمر ذلك الرجل ؟ (قالوا أرجه وأخاه) .

قال الملأ لفرعون بعد التشاور : أخر أمره وأمر أخيه ، ولا تفصل فيه بادئ الرأى ، وأرسل فى مدائن ملكك (حاشرين) جامعين للسحرة منها (يأتوك بكلّ ساحر عليم) بفنون السحر ماهر فيها ، وهم يكشفون لك كنه ما جاء به موسى .

(٤) رضى فرعون بذلك الرأى فبعث فى طلب السحرة فجاءوا ، وقالوا لفرعون (إنّ لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقرّبين) .

طلبوا من فرعون أجرا إن هم غلبوا موسى ، فأجابهم إلى ما طلبوا ، وزاد عليه أن لهم مع ذلك الأجر المادّى أجرا أدبيا هو أن يكونوا من المقرّبين منه فيجتمع لهم المال والجاه ، وذلك منتهى نعيم الدّنيا ، وقد حكى عدتهم بالقربى بصيغة المؤكد لنفعهم منه أن كان حريصا على الغلب لموسى (قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين) .

خيروه لثقتهم بأنفسهم ، واعتدادهم بسحرهم ، وإرهابا له (قال ألقوا) .

أمرهم أن يتقدّموه فيما جاءوا لأجله ولا بدّ لهم منه وهو السحر ، وأراد التوسل به الى إظهار بطلان السحر ، وإلى بناء ثبوت الحق على بطلانه ، ولم يكن ثم وسيلة لابطاله إلا ذلك ، وقد صرح به فيما حكاه الله عنه فى سورة يونس [قال موسى ماجئتم به السحر إنّ الله سيبطله إنّ الله لايصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون] (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) . وفى سورة طه [فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى] وانما أضاف السحر الى الأعين ليرينا أن ذلك النوع من السحر تمويه وتخييل ، ولذلك شرحه فى آية طه بقوله [يخيل إليه من سحرهم] .

والمراد أنهم أوقعوا فى خيال الناس أن لذلك السحر حقيقة فى الخارج مع أنه لم يكن إلا مجرّد صنعة وخيال .

وقد قيل : انها كانت عصيا مجوّفة قد ملئت زئبقا ، وكذلك الحبال كانت معمولة من أدم :

---

[١] بتشديد الحاء مفتوحة .

أى جلد محشوّة زئبقا ، وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابا وجعلوا فيها آزاجا (١) ملئوها نارا فلما طرحت عليه وحمى الزئبق حركها لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير ، فأخبر الله أن ذلك كان مموّها على غير حقيقته ، ويحتمل أن يكون بحيلة أخرى كاطلاق أبخرة أثرت فى الأعين فجعلتها تبصر ذلك ، أو بجعل العصىّ والحبال على صورة الحيات وتحريكها بحركات خفية سريعة لا تدركها أبصار الناظرين ، وكانت هذه الأعمال من الصناعات وتسمى السيمياء .

(وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك الخ) .

أوحى الله إلى موسى بأن ألق عصاك فقد جاء وقتها فاذا هى تبتلع ما يأفكون من السحر ، وسمى السحر إفكا لأنه يأفك الناس ويصرفهم عن الحق الى الباطل .

والمعنى : أن عصا موسى أزالت ما أحدثه سحرهم فى أعين الناس من تمويه وخداع ، ولذلك عقبه بقوله (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) أى فثبت الحق وفسد ما كانوا يعملون من الحيل والتخييل ، وذهب تأثيره (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) غلب فرعون وملؤه فى ذلك المجتمع العظيم الذى كان فى عيد لهم ، ويوم زينة من مواسمهم ، لتكون الفضيحة ظاهرة لجماهير الناس ، ولم يضف الغلب لموسى لأن ذلك لم يكن بكسبه وصنعه (وانقلبوا) عادوا من ذلك المجمع صاغرين : أذلة بما رزئوا من الخذلان والخيبة (وألقى السحرة ساجدين) خرّوا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشدّة خرورهم .

والمراد أن ظهور بطلان سحرهم ، وإدراكهم فجأة حقيقة آية موسى ، وعلمهم أنها من عند الله تعالى قد ملأت عقولهم يقينا ، وقلوبهم إيمانا ، فكان هذا اليقين فى الايمان البرهانى الكامل والوجدانى الحاكم على الأعضاء والجوارح: هو الذى ألقاهم على وجوههم سجدا لله ربّ العالمين ، ولم يبق فى أنفسهم أدنى مكان لفرعون وعظمته الدّنيوية الزائلة . (قالوا آمنا بربّ العالمين ربّ موسى وهرون) .

فانظر كيف يجمعهم فرعون من المدائن ، ويعدهم ويمنيهم إذا هم غلبوا موسى عليه السلام ، فيأخذهم موسى منه بقوّة الحجة ، ونصوع البرهان فينقلبون حربا عليه وقوّة لموسى عليه السلام ، وفى ذلك عبرة كبرى لمن يحاولون صرف الناس عن الحقّ ، والحيلولة بينهم وبين عقائدهم .

ولو كان لسلطان المادّة على النفوس ما لسلطان العقائد ما تفلت السحرة من فرعون على ماله من سلطان ونفوذ ، وما انضموا إلى نبىّ الله موسى وسخروا بقوّة فرعون وسلطان فرعون ، وانظر ماذا صنع فرعون بعد ذلك الخذلان الفاضح (قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم) .

فهم فرعون أن قلوب الناس بيده ، وإيمانهم تحت سلطانه ، فعاب عليهم أن يؤمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم ، وجهل أن القلوب لاتخضع إلا للحجة ، وأنها متى اتجهت الى الحق ، وتطلعت إليه ثم صادفها البرهان لا تستطيع أن تقاومه ولا غنى لها عن الخضوع له .

جهل فرعون تلك السنة التى جعلها الله تعالى للنفوس ، فزعم أن سلطانه عليها كسلطانه على الأجسام ، فكما لا تستطيع الناس أن تتحرّك حركة فى عهد استبدادى بدون إذن من المستبدّ

---

[١] آزاج مفرده أزج بالتحريك : ضرب من الأبنية يشبه المواسير تحت الأرض.

لا تستطيع القلوب أن تنتقل من باطل إلى حق ، ومن ضـلال إلى هدى إلا باذن منـه ، وذلك منتهى الغباوة .

ثم عقب ذلك بقوله (إنّ هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها) .

رماهم بالتواطئ مع نبىّ الله موسى ، وأن ما فعلوا من إظهار الرغبة فى الغلب عليه كان خديعة لفرعون وملائه ليخرجوا من المدينة أهلها، وجاء فى سورة طه (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر). وجملة القول أن فرعون قد سقط فى يده باسلام السحرة ، فمرّة يعتب عليهم أنهم آمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم ، ومرّة يتهمهم بأن موسى كبيرهم فى السحر ، وأنهم دبروا ذلك العمل مع موسى قبل اجتماعهم به ليخرجوا من المدينة أهلها ، وأخيرا لجأ الى الوعيد والتهديد فقال (فسوف تعلمون) ما يحلّ بكم من العذاب على ذلك المكر والخداع .

ثم فصل ذلك الوعيد بقوله (لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين) وهو وعيد يحاول به فرعون أن يموّه به على قومه المصريين حتى لا يتبعوا السحرة فى الايمان بموسى . وكذلك يفعل كلّ ملك وكلّ رئيس مستبدّ فى شعب يخاف أن ينقضّ عليـه باجتماع كلمته على زعيم آخر ، بدعوة دينية أو سياسية ، وهو وعيد شديد ، وتهديد لهم بالتمثيل بهم، وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، حتى لا يستطيعوا أن ينتفعوا بما بقى لهم من الأيدى والأرجل ، و بعد ذلك التقطيع يصلبهم فى جذوع النخل حتى يكونوا عبرة لغيرهم ممن يفكر فى الايمان بربّ موسى وهارون .

وقد جاء ذلك الوعيد بصيغة التأكيد ليرى القوم أنه فاعل ذلك ولابدّ ، وأنه لم يكن هاذلا فى ذلك الوعيد وانما هو جادّ .

لم يهدّدهم فرعون بحبس أجسامهم ، ولا باخراجهم من أوطانهم ، ولا بمصادرتهم فى أموالهم ، ولا بحرمانهم من وظائفهم ، وانما هدّدهم بما هو أشدّ من ذلك كله: هو التمثيل بهم، وجعلهم عبرة ونكالا لغيرهم .

توعد فرعون السحرة بذلك الوعيد ، وهدّدهم ذلك التهديد ، فماذا كان جوابهم له وردّهم عليه ؟ (قالوا إنا إلى ربنا منقلبون) يريدون أنهم لا يبالون بما يكون من قضائه عليهم وقتله لهم ، لأنهم راجعون إلى ربهم راجون مغفرته ورحمته بهم ، فتعجيل قتلهم سبب لقرب لقائه ، والتمتع بحسن جزائه ، ويجوز أنهم أرادوا إننا وإياك سننقلب إلى ربنا ، فلئن قتلتنا فما أنت بخالد بعدنا ، وسيحكم عزّ وجلّ بيننا وبينك .

وجاء فى سورة طه (قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليـه من السحر والله خير وأبقى) .

(وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا) لا تنكرمنا ولا تعيب علينا إلا أمرا لا يصح أن ينكر: هو أنهم آمنوا بآيات الله ، ودلائل ربوبيته لما جاءتهم ، وهو كقوله (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) فاذا كان هـذا ذنبا نعاقب عليه ونستحقّ عليه ذلك الوعيد

فافعل ما شئت أن تفعل ، واستبدّ ما زين لك الاستبداد ، ولذلك ختموا قولهم بذلك الدعاء (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) .

طلبوا من الله تعالى أن يهبهم صبرا واسعا يفرغه عليهم كما يفرغ الماء من القرب حتى يثبتوا على الايمان ، وأن يتوفاهم إليه مسلمين له ، مذعنين لأمره ونهيه ، مستسلمين لقضائه ، غير مفتونين بتهديد فرعون ، ولا مطيعين له فى قول أو فعل .

والصبر من صفات النفس التى تعينها على احتمال المكاره والآلام بغير تبرّم ولا حرج يحملها على ما لا ينبغى من ترك الحق او اجتراح الباطل ، ولا شىء كالايمان بالله تعالى والخوف منه والرجاء فيه يقوّى هذه الصفة فى النفس .

موسى عليه السلام

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ [١] مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي [٢] نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ «١٢٧» قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ «١٢٨» قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ «١٢٩» وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ [٣] وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ «١٣٠» فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا [٤] بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «١٣١» وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ «١٣٢» فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ «١٣٣» وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ [٥] قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا

---

[١] تترك . [٢] نستبقى . [٣] الجدب وضيق المعيشة . [٤] يتشاءموا .

[٥] كلّ عذاب تضطرب له القلوب أو يضطرب له الناس .

الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ «١٣٤» فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١) «١٣٥» فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ «١٣٦» وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ «١٣٧» وَجَٰوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَٰءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَٰمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ «١٣٨» إِنَّ هَٰٓؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ (٢) مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٣٩» قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ «١٤٠» وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ «١٤١» الأعراف

شرح وعبرة

(١) (وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض الخ).

لما لم ينجح الملأ من قوم فرعون فى دسيستهم الأولى ، وهى أن موسى ساحر عالم بالسحر يريد بسحره أن يخرج فرعون وملأه من أرضه ، وتبين أن ما أتى به ليس سحرا وانما هو مبطل للسحر ، ثم كان من وراء ذلك ايمان السحرة الذين جمعهم فرعون ليهزموا موسى ، ثم تبع السحرة فى الايمان حزب .

لما كان ذلك كله لجأوا إلى أسلوب جديد يألبون به فرعون على موسى وشيعته ، فقالوا لفرعون : أتترك موسى وقومه ؟ وهم الذين تبعوا السحرة فى الايمان ليفسدوا فى الأرض وليتركك وآلهتك كالشىء اللقا (٣) فيظهر للمصريين عجزك ، يستفزون بذلك الأسلوب فرعون المستبد ليحول بين بنى إسرائيل و بين موسى : إما بحبسه ، و إما بقتله .

وانظر الى قولهم (ليفسدوا فى الأرض) وكيف يعدّون دعوة موسى الى التوحيد ، و إنقاذ الناس من ظلم فرعون و بطشه إفسادا فى الأرض ، وبالتالى يعدّون ماهم عليه من باطل إصلاحا

---

[١] ينقضون عهدهم . [٢] مدمر هالك . [٣] اللقا : بفتح اللام الشىء المهمل .

ولا ندرى أقالوا ذلك ممالأة لفرعون وإرضاء لشهوته ، وقضاء للباناتهم هم ، لأن أعوان المستبدّ وبطانات الظالم التى تنتفع من ظلمه واستبداده ، وتعيش على حساب بطشه وسلطانه ، يظهرون جمهرة الشعب أمام ذلك الظالم بمظهر غير مظهره الحقيق ، فيسمون الاصلاح فسادا ، والدّعوة الى الحقّ تهريجا ، أو أن ذلك الملأ بلغ من حمقه وغباوته أن كان الاصلاح الذى يدعو إليه نبىّ الله موسى فى نظره إفسادا فى الأرض .

والذى تميل إليه النفس أن ذلك القول وأمثاله شأن بطانة السوء التى تلتفّ دائما حول الظالمين ، وتعيش فى أحضان الحكام المستبدّين ، لاقتناعها أنها لا تستطيع أن تعيش إلا فى أولئك الأوساط المظلمة ، ولا تستطيع أن تصيد إلا فى الماء العكر ، فليس لها من المؤهلات ماتستطيع أن تعيش به على حساب نفسها ، ولامن الأخلاق مايسمح لها بقول الحقّ والاعتراف بالأمر الواقع .

وقد ساعدهم على ذلك أنهم رأوا من حاكمهم المستبدّ استعدادا لذلك القول ، ولولا علمهم أن ذلك القول وأمثاله يتفق وشهوة صاحبهم ماقالوه ، فهم انما يصارحون الناس بما يجيش فى صدره ومايتناسب مع أطماعه وشهواته ، فهوشريكهم فى الجرم ورئيسهم فى الاثم ، عليه وزره ووزرهم . لذلك صوّر الملأ من قوم فرعون موسى وحزبه بتلك الصورة البشعة ، صورة المفسد فى الأرض .

ويعلم الله أن إفساد موسى فى الأرض هو إنقاذ بنى إسرائيل من استبدادهم ، والحيلولة بين الشعب وبين بطشهم ، فاذا كان فيه إفساد فهو إفساد سياستهم ، وإحباط تدبيرهم ، وتفلت الجمهور من أيديهم ، وذلك مايخشاه فرعون وملأ فرعون الذين يعيشون على حساب غيرهم ، وينعمون بشقاء أمّتهم ، ويثرون بافقار إخوانهم ، ويرقون مناصب الدّولة ووظائفها الكبرى على حساب إذلال بنى جلدتهم . ألا قاتل الله قوما ذلك حالهم ، وبعدا لطائفة تلك أخلاقهم .

بقى أن الملأ يقول لفرعون (ويذرك وآلهتك) وهل كان لفرعون آلهة، وهو يقول (أنا ربكم الأعلى) .

قيل : إن فرعون وضع لقومه أصناما صغارا وأمرهم بعبادتها ، وقال: أنا ربكم الأعلى وربّ هذه الأصنام .

واستظهر بعض المفسرين أن فرعون لم تصل به الغباوة أن يعتقد فى نفسه أنه خالق للسموات والأرض . وليس هناك من العقلاء من يعتقد فيه ذلك ، لأن فساده معلوم بضرورة العقل ، والأقرب أنه كان دهريا ينكر وجود الصانع ، وكان يقول : مدبر هذا العالم السفلى هوالكواكب والمربى لتلك الطائفة طائفة بنى إسرائيل هو نفسه . فقوله (أنا ربكم الأعلى) أى مربيكم ، والمنعم عليكم والمطعم لكم . وقوله (ماعلمت لكم من إله غيرى) أى لا أعلم لكم أحدا يجب عليكم عبادته إلا أنا ، وذا كان مذهبه ذلك لم يبعد أن يكون قد اتخذ أصناما على صورالكواكب يعبدها ويتقرّب إليها على ماهو دين عبدة الكواكب .

والمعهود فى تاريخ قدماء المصريين أنهم كانوا يعبدون الكواكب ومنها الشمس ، واسمها فى لغتهم [رع] وأن مصر هى السليلة الوحيدة للمعبود [رع] منذ وجود الآلهة ، وأن فرعون مصر الملك [منفتاح] سليله أيضا وهو الجالس على سدة المعبود [شو] وأن الاله [رع] التفت الى

مصر فولى [منفتاح] ملك مصر ، وشىء له أن يكون مناضلا عنها فتخنع له الولاة .

وإذا كان فرعون مصر يعتقد أنه سليل الشمس وابنها ، والشمس معبودة لقدماء المصريين. فلا يبعد أن يتطلع إلى عبادة الناس له ، ولا بعد فى أن يقول (أنا ربكم الأعلى) لأنه سليل المعبود [رع] وحالّ فيه .

(قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون) يريد فرعون أنه سيحول بين موسى وبين الشعب من طريق إبادته ، وذلك بأن يقتل أبناء المؤمنين ويستبقى نساءهم كما كان يفعل ذلك من قبل .

ثم أراد أن يبين أن ذلك ميسور له وسهل عليه ، لأنه فوقهم بالسلطان والنفوذ ، مستعل عليهم بالغلبة ، فلا يستطيعون افسادا فى الأرض ، ولا اخراج بنى اسرائيل من تعبيد فرعون ، وفى سورة المؤمن (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال «٢٥» وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد «٢٦») .

وهو يرينا أن التهديد كان لحزب موسى المؤمن كما ترينا آية المؤمن أنه كان من قوم فرعون من يدافع عنه ويحول بين فرعون وبين بطشه بموسى ، ولذلك يقول (ذرونى أقتل موسى) .

(٢) (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) ذلك هو الجواب الطبيعى الذى كان ينتظر من نبىّ الله موسى بعد تهديد فرعون لمن آمن معه بتقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم، يقول لهم استعينوا بالله على هذا الطاغية ، واصبروا على إيذائه ، فان الأرض التى وعدتم دخولها ، وهى فلسطين أو الأرض مطلقا ملك لله يورثها من يشاء من عباده ، وليست ملكا لفرعون ولا للملأ فرعون ، فهى بحسب سنته دول ، والعاقبة الحسنة التى ينتهى إليها التنازع بين الأمم للذين يتقون بمراعاة سنن الله تعالى فى أسباب إرث الأرض ، كالاتحاد وجمع الكلمة ، والاعتصام بالحق ، واقامة العدل ، والصبر على المكاره، والاستعانة بالله تعالى ولاسيما عند الشدائد ، ونحو ذلك مما هدى إليه وحيه ، وأيدته التجارب .

ومراده عليه السلام أن العاقبة ستكون لكم بإرث الأرض بشرط أن تكونوا من المتقين له باقامة شرعه والسير على سنته فى نظام خلقه ، وليس الأمر كما تتوهمون ويتوهم فرعون وقومه من بقاء القوىّ على قوّته والضعيف على ضعفه ، فماذا كان من تأثير وصية موسى عليه السلام لقومه ، وبم أجابوه ؟ (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا) يعنون أنهم لم يستفيدوا من ارساله لانقاذهم من ظلم فرعون شيئا فهو يؤذيهم ويظلمهم بعد ارساله كما كان يؤذيهم من قبله أو أشدّ (قال عسى ربكم أن يهلك عدوّكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) فهو يرجو لهم من فضل الله تعالى أن يهلك عدوّهم الذى سخرهم وآذاهم بظلمه ، وأن يجعلهم خلفاء فى الأرض التى وعدهم إياها ، فينظر سبحانه كيف يعملون بعد استخلافه إياكم فيها ، هل تشكرون النعمة أم تكفرون ، وهل تصلحون فى الأرض أم تفسدون ؟ ليجازيكم فى الدنيا والآخرة بما تعملون ، وقد عبر بعسى ولم يقطع بالوعد لئلا يتكلوا ، ويتركوا مايجب من العمل ، أو لئلا يكذبوه

لضعف أنفسهم بما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه ، واستعظامهم لملكه وقوته. وهو أسلوب آخر من أساليب التسلية والعزاء بعد أن أمرهم بالاستعانة بالله تعالى والصبر ، وأراهم أن الأرض ملك لله يعطيها من يشاء ويحرمها من يشاء ، و إطماع لهم فى تقويض ملك فرعون واستخلافهم فى الأرض مصحوب باحتياط من نبي الله موسى، وتحريض لهم على بقاء الملك والقوة فيهم إذا هم حصلوا عليه .

(٣) (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون) تفصيل لمقدمات الهلاك الموعود به فيما قبل هذه الآية ، وانجاز وعد الله تعالى لبني اسرائيل بالاستخلاف فى الأرض وقد صدرت الجملة بالقسم الدالة عليه لامه لتأكيد مضمونها وتعظيم شأنه ، كيف لاوهو من أظهر آياته على تأييد رسله ، وقدرته على الادانة للظالمين المستضعفين من الأقوياء الظالمين .

وقد كثر استعمال مادة الأخذ فى العذاب كقوله تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد «١٠٢» [1] ـ فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر «٤٢» [2] ـ فأخذناه أخذا وبيلا «١٦» [3]) وآل فرعون قومه أو خاصته وأعوانه فى أمور الدولة وهم الملأ من قومه الذين كثر ذكرهم فى قصته ، ووجهه أنهم هم المذنبون المعاندون لموسى ، وانما وقوع العذاب على غيرهم بالتبع لأنهم كانوا موافقين ومقرين لهم على ظلمهم (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة «٢٥» [4]) وتأمل قوله تعالى (لعلهم يذكرون) لتعلم أن الله تعالى ما أخذهم بالسنين المجدبة وضيق المعيشة الارجاء أن تذكرهم هذه الشدة بضعفهم أمام قوة الله تعالى . وعجز ملكهم الجبار المتغطرس ، وعجز آلهتهم ، ولعلهم إذا تذكروا اعتبروا ، فرجعوا عن ظلمهم لبني اسرائيل ، وأجابوا دعوة موسى ، فان الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب ، وترجع الأنفس الى مرضاة الله (فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) .

يرينا الله تعالى بهذه الآية أن أولئك الشدائد التى أخذ بها بنى اسرائيل رجاء التذكر لم تفدهم شيئا ، فبقوا على عنادهم وأصروا على شركهم ، فاذا جاءتهم الحسنة من خصب ورخاء قالوا : هى لنا دون غيرنا ، ونحن المستحقون لها لمالنا من التفوق على الناس ، وان تصبهم سيئة من جدب أوجائحة أو مصيبة أخرى فى الأبدان أو الأرزاق تشاءموا بموسى ومن معه من الأنصار، و يرون أنهم أصيبوا بشؤمه وشؤمهم ، وغفلوا عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسى ، لأن هذا عندهم من الحقوق كما هو شأن المستبدين فى ظلمهم لمن يستضعفونهم .

وقد رد الله تعالى عليهم بقوله (ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لايعلمون) فالشؤم الذى نسبوه الى موسى عليه السلام وعدوه من آثار وجوده فيهم: هو عند الله لاعند موسى ، فهو تعالى قد جعل لكل شىء قدرا من حسنة وسيئة ، ووضع لنظام الكون سننا تكون فيها المسببات على قدر الأسباب ، و بمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل السلاء عليهم ، وهو امتحان لهم عملا يسوؤهم ليرجعوا عن ظلمهم ، ولكن أكثرهم لايعلمون حكم التصرف الربانى فى الخلق ولا أسباب

---

[١] هود . [٢] القمر . [٣] المزمل ، «وبيلا» يخاف وباله وغدره . [٤] الأنفال .

الخير والشر ، ولو كانوا من أهل العلم والمعرفة مانسبوا الى موسى السيئات والى أنفسهم الحسنات فهم قوم جمعوا بين رذيلتين : رذيلة العناد للرسول صلى الله عليه وسلم ، ورذيلة الجهل .

وتأمل احتياط القرآن الكريم فى قوله (ولكنّ أكثرهم) ولم يقل (ولكنهم) ليرينا أن فيه قلة من أهل العلم والانصاف لم يفتنوا بعلم فرعون ولا بجبروت الملك . وأن هذه القلة هى التى كانت تناصر موسى عليه السلام سرّا ، وفيهم مؤمن آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه و يقول : (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) الى آخر الآيات ، ومن هذه القلة الحزب الذى آمن بموسى بعد ايمان السحرة وهم الذين هدّدهم فرعون بتقتيل أبنائهم واستبقاء نسائهم .

(٤) (وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) فالقوم لم يتربوا بالحسنات ولا بالسيئات ، ولم يذعنوا لما أيد الله تعالى به موسى من الآيات ، بل أصرّوا بعد ايمان كبار السحرة على عدّ آيتى موسى من السحر، وقالوا له: انك ان تجئنا بكلّ نوع من أنواع الآيات التى تستدل بها على حقية دعوتك لأجل أن تصرفنا بها عما نحن فيه من ديننا ومن تسخيرنا لقومك فى خدمتنا فما نحن لك بمصدّقين (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) .

أنزل الله تعالى بهم هذه المصائب والنكبات آيات واضحات على صدق نبىّ الله موسى ، فاستكبروا عن الايمان به استكبارا مع اعتقاد صحة رسالته ، وصدق دعوته باطنا ، وكانوا قوما راسخين فى الاجرام والذنوب مصرّين عليها .

أما الطوفان فمعناه فى اللغة: ماطاف بالشىء وغشيه، وغلب فى طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض . قيل : هو الأمطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار ، وكذلك أرسل الجراد فأكل الزرع واجتاح الثمار .

وأما القمل فعن ابن عباس : هو السوس الذى يخرج من الحنطة ، وعنه أنه الدبس ، وهو الجراد الصغار الذى لا أجنحة له ، و به قال مجاهد وعكرمة وقتادة ، وعن ابن جرير أنها دوابّ تشبه القمل تأكل الابل ، وجزم الراغب أن القمل صغار الذباب ، وسواء قلنا انها السوس الذى يفسد الزرع والحبوب أو الجراد الصغير أو دواب تشبه القمل أو الذباب ، فهى من الضربات التى أصيب بها قوم موسى عليه السلام فى زرعهم أو إبلهم أوفى صحتهم ، لأن الذباب قذر يحمل العدوى وجراثيم الأمراض ، فاذا كثر فى جهة من الجهات نغص على أهلها عيشتهم ، وأفسد عليهم صحتهم وانظر كيف أذلّ الله المستكبرين من فرعون وملائه الذين يدّعون الألوهية ـ أذلهم الله بأضعف المخلوقات ، وكأنه يقول لهم: إذا كنتم ضعفتم عن مقاومتى فى أضعف خلق فكيف يدّعى زعيمكم فرعون أنه ربكم الأعلى ، وكيف تمالئونه فى ذلك الزعم الخاطئ ؟ .

وما أقرب الشبه بين أولئك القوم فى تقريع الله لهم وتعريفهم قيمتهم بذلك الأسلوب و بين المشركين إذ يقول لهم (ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب «٧٣» ماقدروا الله حقّ قدره إن الله لقوىّ عزيز «٧٤» [1]) .

---

[١] الحج .

وأما الضفادع فقيل إنها كثرت عندهم حتى نغصت عليهم عيشتهم بسقوطها فى طعامهم وشرابهم ووجدانها فى فراشهم و بين ملابسهم .

وأما الدم : فقيل هو الرعاف سلطه الله عليهم . وقيل : دم كان فى مياه المصريين (ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك) الخ .

لما حلّ العذاب الذى تضطرب له النفوس بقوم موسى لجأوا إليه وقالوا : ادع لنا ربك بما عهد عندك أن تدعوه به فيعطيك الآيات و يستجيب لك الدعاء - أن يكشف عنا هذا الرجز ، ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا (لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه) فلما كشف الله عنهم العذاب الى حدّ من الزمان هم بالغوه لامحالة فمعذبون فيه لاينفعهم ماتقدّم لهم من الامهال وكشف العذاب الى حلوله (إذاهم ينكثون) فى عهدهم و يحنثون فى قسمهم (فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليمّ) وهو البحر و يطلق على النيل ، وعلل هذا الانتقام كما علل أمثاله (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) .

(ه) (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها) الخ .

بعد أن أرانا الله تعالى مافعله بأعداء الحقّ من الانتقام منهم و إغراقهم فى اليمّ بسبب تكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عنها - بعد ذلك عرفنا أنه قد كافأ أنصاره وعباده المخلصين الذين كانوا مستضعفين بالأمس ، كافأهم بتوريثهم أرض الشام وجعلهم خلفاء الله فيها (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا) والمراد أن كلمة الله ووعده لبنى اسرائيل باهلاك عدوّهم قد نفذ ومضى كاملا ، وذلك بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من فرعون وقومه (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) أحبط الله على فرعون وقومه ما كانوا يصنعون من باطل ، وأفسد عملهم عليهم ، والعرش : رفع المبانى والسقائف للنبات والشجر المتسلق كعرائش العنب ، ومنه عرش الملك ، والمراد أن الله تعالى أدخل الخراب على عمل فرعون جميعه ، ولاسيما مايتعلق ببقاء عرشه ، والاحتفاظ بملكه ، فقد كان حربه لحزب الله احتفاظا بالعرش ، وخوفا على الملك ، فدمر الله عليه عمله وأفسد عليه تدبيره ، لأن الله لايصلح عمل مفسد .

وقد أرانا الله بعمله هذا مع فرعون أن الملك الذى يرعى ملكه بظلم الناس والاستبداد معهم فمصير ملكه مصير فرعون وملائه .

(وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم) الخ .

يرينا الله تعالى أنه تخطى ببنى إسرائيل البحر الذى أغرق فيه فرعون وملأه ، فمرّوا على قوم عاكفين على أصنام يعبدونها فطلب أصحاب موسى أن يجعل لهم إلها مثل آلهة هؤلاء ، لأن الوثنية عالقة بنفوسهم ، وخلق التقليد متمكن منهم ، ونسوا أن مهمة موسى عليه السلام محاربة الوثنية وأنه انما بعث إليهم ليغرس فى نفوسهم حبّ التوحيد ، و يجتثّ منها عروق الشرك .

جهلوا ذلك كله وغفلوا عنه ، ولذلك كان ردّه عليهم أن قال لهم (إنكم قوم تجهلون) .

وصفهم بالجهل المطلق غير متعلق بشىء ، وهو يشمل كلّ مايصلح له من الجهل الذى هو فقد

العلم، والجهل الذى هو وصف النفس، وطيش العقل، وأهمه المناسب للمقام جهل التوحيد، وما يجب من إفراد الرب بالعبادة، وما يتناسب مع مهمة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

ثم قال (إنّ هؤلاء متبّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) أى إنّ هؤلاء القوم الذين يعكفون على هذه الأصنام مقضيّ على ما هم فيه بالتبار والهلاك، وباطل ما كانوا يعملون من الأصنام وعبادة غير الله لا بقاء له.

ثم أراد أن ينكر عليهم ذلك الطلب الذى طلبوه من موسى عليه السلام فـ(قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين) والاستفهام فى الآية للانكار المشرب معنى التعجب.

ثم أيد ذلك الانكار بما يعرفون من آيات الله تعالى فيهم، وهو تفضيلهم على أهل زمانهم برسالة موسى وهارون منهم، وتجديد ملة أبيهم فيهم.

ثم عطف عليه أظهر نعمه عليهم فقال (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم).

موسى عليه السلام

وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ «١٤٢» وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ [١] رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ «١٤٣» قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ «١٤٤» وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ «١٤٥» سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ [٢] فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا

---

[١] انكشف وظهر بعد خفاء، والدكّ: الدقّ، أو ضرب منه، يقال ناقة دكاء لا سنام لها، (وجعله دكا): أى أرضاً مستوية، (وخر): سقط من علو شاهق، (وصعقاً): مغشياً عليه من تأثير الصاعقة. [٢] صيغة تكلف، من الكبر، وهو غمط الحق بعدم الخضوع له واحتقار الناس، (الرشد): الصلاح والاستقامة، وضده الغى، وهو الفساد.

وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِئَايٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غٰفِلِينَ «١٤٦» وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِئَايٰتِنَا وَلِقَاءِ الْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٤٧» وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسٰى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً [١] جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظٰلِمِينَ «١٤٨» وَلَمَّا سُقِطَ [٢] فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ «١٤٩» وَلَمَّا رَجَعَ مُوسٰى إِلٰى قَوْمِهِ غَضْبٰنَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ [٣] وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ «١٥٠» قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرّٰحِمِينَ «١٥١» إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ «١٥٢» وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «١٥٣» وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسٰى الْغَضَبُ [٤] أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ «١٥٤» الأعراف

شرح وعـــبرة

(١) (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) الخ عطف على قوله (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر) . وهذه الآيات نزلت فى بيان بدء وحى الشريعة لموسى عليه السلام ، أما الوحى المطلق فقدبدئ

---

[١] ولد البقرة ، (جسداً) لا يأكل ولا يشرب ، يريد أنه هيكل من الحلىّ وليس بعجل حقيقة ، (خوار) : صوت . [٢] ندموا . [٣] من عجله: سبقه ، والمعنى : أعجلتم عن أمره ، وهو انتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به ، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم .
[٤] كأن الغضب يغريه ويقول له : قل لقومك كذا وهو تمثيل .

فى جانب الطور الأيمن من سيناء منصرفه من مدين إلى مصر ، وإنما المذكور هنا بدء وحى كتاب التوراة .

يرينا الله تعالى بهذه الآيات أنه ضرب لموسى موعدا لمكالمته وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة فقبل ذلك ، وجعل ذلك الموعد ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر ، وأن موسى عليه السلام قال لأخيه هرون لما أراد الذهاب إلى ميقات ربه (اخلفنى فى قومى) وترأس عليهم للحكم بينهم والاصلاح فيهم ، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين ، وهو لا يكون من نبىّ ، لأن الافساد منه ما هو واضح جلىّ ، ومنه ما هو خفىّ ، ومنه الذرائع المشتبهات التى يختلف فيها الاجتهاد ، ويأخذ التقىّ فيها بالاحتياط . واتباع سبيل المفسدين يشمل مشاركتهم فى أعمالهم ، ومعاشرتهم والاقامة معهم ، فى حال اقترافها ولو بعد العجز عن إرجاعهم عنها .

ومن ذلك ما يجوز وقوعه من الأنبياء عليهم السلام فيصحّ نهيهم عنه تحذيرا من وقوعهم فيه بضرب من الاجتهاد كالذى وقع الاختلاف فيه بين موسى وهرون عليهما السلام فى قصة عجل السامرىّ الذى حكاه الله تعالى عنه فى سورة طه (قال ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا « ٩٢ » ألا تتبعن أفعصيت أمرى « ٩٣ » قال يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرّقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى « ٩٤ ») .

(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه الخ) .

لما حضر موسى عليه السلام للميقات الذى وقته الله له للكلام وإعطاء الشريعة وكلمه ربه من وراء حجاب استشرفت نفسه العالية للجمع بين فضيلتى الكلام والرؤية فقال : ربّ أرنى ذاتك المقدّسة بأن تجعل لى من القوّة على حمل تجليك ما أقدر به على النظر إليك ورؤيتك (قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فان استقرّ مكانه فسوف ترانى) أى إنك لا ترانى الآن ولا فيما يستقبل من الزمان ، ثم استدرك بما يدلّ على تعليل النفى ، ويخفف عن موسى وطأة الردّ باعلامه مالم يكن يعلم من سننه ، وهو أنه لا يقوى شىء فى هذا الكون على رؤيته ، ولكن انظر إلى الجبل فاننى سأتجلى له فان ثبت لدى التجلى وبقى مستقرّا فى مكانه فسوف ترانى ، لمشاركتك له فى مادّة هذا العالم الفانى .

واذا كان الجبل فى قوّته ورسوخه لا يثبت لهذا التجلى لعدم استعداد مادّته لقوّة تجلى خالقه فاعلم أنك لن ترانى أيضا وأنت مشارك له فى كونك مخلوقا من هذه المادّة ، وخاضعا للسنن الربانية فى ضعف استعدادها (وخلق الانسان ضعيفا) .(فلما تجلى ربه للجبل) انهدّ وهبط من شدّته وعظمته وصار كالأرض المدكوكة أو الناقة الدكاء ، وسقط موسى على وجهه مغشيا عليه ، كمن أخذته الصاعقة ، والتجلى إنما كان للجبل لا لموسى فكيف لو كان له ؟ (فلما أفاق) موسى من غشيته (قال سبحانك) تنزيها لك وتقديسا عما لا ينبغى فى شأنك مما سألتك أو من لوازمه (تبت إليك) أن أسألك الرؤية وأن أتخطى مارسمته لى (وأنا أوّل المؤمنين) أن لا يراك أحد فى هذه الحياة .

(قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) هنالك قال الله لموسى : إنى استخلصتك من الناس ، واخترتك مفضلا لك على أهل زمنك برسالاتى ، وجمعها باعتبار تعدّد

ما أرسل به من العقائد والعبادات ، والأحكام السياسية والحربية والمدنية والشخصية ، وقرئ برسالتي بالافراد ، واصطفيتك بكلامي بتكليمي لك بعد وحي الالهام من غير توسط ملك وان كان من وراء حجاب ، وهو ما طلب موسى رفعه ليحصل على الرؤية مع الكلام فأعلمه الله تعالى أنه غير مستعد له (فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين) خذ ما آتيتك من الشريعة والتوراة وكن من الشاكرين لنعمتي بها عليك وعلى قومك . يشير بذلك إلى أنه لا ينبغي لموسى أن يتخطى ما أعطاه الله تعالى ولا يطلب من ربه ما لا ينبغي لمثله أن يطلبه لأنه رسول ، والشأن في الرسول أن يأخذ ما آتاه الله ، ويدع ما لم يكلفه به ، ويشكر ربه على ما آتاه وهداه .

(وكتبنا له في الألواح من كلّ شيء موعظة وتفصيلا لكلّ شيء) أعطيناه ألواحا كتبنا له فيها من كلّ نوع من أنواع الهداية موعظة من شأنها أن تؤثر في القلوب ترغيبا وترهيبا وتفصيلا لكلّ نوع من أصول التشريع ، وهي أصول العقائد والآداب ، وأحكام الحلال والحرام (فخذها بقوّة) تقبلها بجدّ وعزيمة وحزم ، لأن المراد بها تكوين شعب جديد بتربية جديدة ، تخالفه كلّ المخالفة لما نشأ عليه من الذلّ والعبودية لفرعون وقومه ، فاذا لم يكن المتولى تربية هؤلاء القوم ، والمرشد لهم صاحب عزيمة قوية وبأس شديد ، فانه يعجز عن سياستهم ، ويفشل في تنفيذ أمر الله فيهم (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) .

قيل : إن (أحسن) هنا بمعنى ذي الحسن التامّ ، وليس فيه تفضيل شيء على آخر ، وهو ما يعبرون عنه بقولهم : اسم التفضيل على غير بابه . وقيل : ان فيها الحسن والأحسن ، فأصول العقائد من الايمان بالله تعالى وتوحيده أفضل من الأحكام العملية ، والفرض مثلا أحسن من النفل ، والأوامر أفضل من النواهي ، والمراد بأخذهم بأحسنها الشروع والابتداء تقديما للأهمّ على المهمّ (سأريكم دار الفاسقين) أي وقل لهم : سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي ، كيف يصير إلى الهلاك . وقال ابن جرير : هو كما يقول القائل لمن يخاطبه . سأريك غدا ما يصير إليه حال من خالفني . وقيل : معناه سأريكم دار الفاسقين من أهل الشام وأعطيكم إياها . وقيل : منازل فرعون .

(٢) (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق الخ) بيان لسنة من سنن الله تعالى في ضلال البشر بعد مجيء البينات لهم ، وهي تسلية لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم من جهة كفار قريش ، لأن شأنهم شأن جميع الأمم الذين أضلهم الله بعد أن قامت عليهم الحجة بالبيان كما قال في سورة التوبة (وما كان الله ليضلّ قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكلّ شيء عليم «١١٥») .

وقد ذكر هذه السنة عقيب بيان ما أنزله على قوم موسى عليه السلام من التوراة ، وفيها من المواعظ ما يكفي لهدايتهم لو كانوا يريدونها ، ليرينا أن قوم موسى قد حرمهم الله تعالى الهداية ، وحال بينهم وبين فقههم لآيات التوراة ، وشرح صدورهم لما فيها ، لأن هذه سنته في المتكبرين المعاندين . وقد وصف أولئك الذين يصرفهم عن الهداية بصفات :

[أوّلها] أنهم يتعالون في الأرض ويظهرون للناس أنهم من طبقة فوق طبقتهم ، ومن طينة

غير طينتهم ، ومن لوازم ذلك أنهم لا يأبهون لما يأتى على أيديهم من الحق ، وما يصلهم منهم من خير .

وقد وصف ذلك التكبر بقوله (بغير الحق) لأن ذلك هو الشأن فى المتكبرين فهو لبيان الواقع ، ولك أن تفهم أن الآية تشير إلى أن هناك تكبرا بالحق ، وهو التكبر على المتكبرين ، وأنصار الباطل ، وأصحاب الشهوات ، فهؤلاء وأمثالهم إذا تكبر الرجل عليهم ورأى أنه أعظم منهم ، واستهان بما هم عليه من باطل ، فلا يدخل فيمن يصرفهم الله تعالى عن آياته لأن تكبره بالحق لا بالباطل .

وقد ورد تفسير الكبر بغمط الحق وعدم الخضوع له ، واحتقار الناس بحيث يرى المتكبر أنه أكبر من أن يخضع لحق ، أو يساوى نفسه بشخص آخر ، وكثيرا مايفهم الناس من الرجل الذى لايخالط الناس ولا يتصل بهم أنه متكبر ، وكذلك يفهمون من رجل متأنق فى ملبسه أنه متكبر وهو فهم خطأ ، ولذلك ورد « الكبر غمط الحق و بطر الخلق » .

[ثانيها] عنادهم و إسرافهم فى ذلك العناد المشار إليه بقوله (و إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) فان كثرة الآيات وتعددها انما تفيد طالب الحق الذى عنده جهل أو شك أو سوء فهم ، فاذا خفيت دلالة بعضها فقد تظهر له دلالة غيره ، أما الذى لايطلب الحق فلا يجديه كثرة الآيات ولا وضوحها .

[ثالثها] أنهم (إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا) لأنهم مرنوا على الضلال واستمرءوا مرعى الغى والفساد ، فاذا رأى أحدهم سبيل الرشاد واضحة جلية لايختار لنفسه جعلها سبيلا له بايثارها وتفضيلها على ما هو عليه ، وما كل أحد يصل الى هذه الدرجة من الغى ، لأن من الناس من يسلك سبيل الغى على جهل ، فاذا علم بما تنتهى به إليه من الفساد ، ورأى لنفسه مخرجا منها تركها ، واختار سبيل الرشد عليها .

[رابعها] أنهم (ان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا) وهذه الصفة شر مما قبلها ، فان هذه صفة إيجابية وتلك سلبية ، و بينهما حال أخرى هى حال من ليس فيه من نور البصيرة مايحمله على سلوك سبيل الرشد إذا رآه لضعف همته ، ولكنه يكره الغى والفساد ، إذ لم يصل من اعتلال الفطرة وظلمة البصيرة الى تفضيله على الرشد ، فمن اجتمعت له هذه الصفات فهو الذى أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلم تبق له سبيل من أسباب الحق يسلكها .

وقد علل الله تعالى ذلك الجزاء العادل بقوله (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) ليرينا أن الله تعالى لم يخلقهم مطبوعين على الضلال ، ولم يكرههم عليه إكراها ، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الدالة على الحق والصدود عن سبيله الموصلة للرشد (وكانوا عنها غافلين) لايعطونها حقها من النظر والتدبر ، لاشتغالهم عنها بأهوائهم ، و بذلك قطعوا على أنفسهم طريق الهدى ، فالغفلة ههنا : هى الغفلة المانعة لهم من أسباب العلم والفطنة الناشئة من اهمال العقول وتعطيل الآذان والأسماع ، وهى المبينة فى قوله تعالى من سورة الأعراف (ولقد

ذرأنا لجهنم كثيرا من الجنّ والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون «١٧٩») وهى الغفلة التى يقولون عنها وهم فى جهنم (وقالوا لوكنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير «١٠» فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير «١١» [١]) .

وقد وضعت بابا لسنة الله تعالى فى الهداية والاضلال فى كتاب [آيات الله فى الآفاق] واستوفيت فيه كل الآيات التى لها تعلق بذلك الموضوع ، وهى مشكله القضاء والقدر التى ضلّ فيها كثير من الناس وشرحتها شرحا يوفق بين بعضها و بعض ، و يزيل مافيها من شبه ومشاكل .

(والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلاما كانوا يعملون)

الظاهر أن الآيات فى الآية السابقة هى المعجزات والبينات : من براهين عقلية وعلمية وكونية ، والآيات هنا المنزلة من حيث اشتمالها على الهداية والاصلاح ، وتزكية النفس من خرافات الشرك ، وفساد الأخلاق ومنكرات الأعمال ، ولقاء الآخرة هى ملاقاة الله عزّ وجلّ والمصير إليه (واعلموا أنكم ملاقوه «٢٢٣» [٢]) .

والمراد أن الذين كذبوا بآيات الله المنزلة بالحقّ والهدى وكذبوا بلقاء الآخرة وما يكون فيها من الجزاء على الأعمال لايجزون هنالك إلا ما كان من تأثير أعمالهم النفسية والبدنية فى أرواحهم وأنفسهم من خير زكاها وأصلحها ، أو من باطل وشرّ دساها وأفسدها ، فالجزاء فى الآخرة أثر للعمل مرتب عليه ترتب المسبب عن السبب كأنه هو نفسه ، ولذلك ختم الآية بقوله (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) وقال فى سورة الأنعام (سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم «١٣٩»)

(٣) (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار) الخ فى الوقت الذى توجه فيه موسى لميقات ربه اتخذ قومه من الذهب والفضة عجلا جسدا له صوت يشبه صوت العجل ، وذلك لالفهم الوثنية وتمكن الشرك من نفوسهم ، وفى سورة طه إن الذى اتخذ لهم ذلك الحلىّ عجلا يعبد هو السامرى ، إذ يقول (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم و إله موسى فنسى «٨٨») .

وقد نسب الاتخاذ هنا الى قوم موسى لأنهم رضوا عمل السامرى وأقرّوه وكانوا مستعدين له ولذلك نسب إليهم الاتخاذ كما نسب عقر الناقة الى قوم صالح ، مع أن الذى عقرها واحد منهم ، وكذلك تنسب المعاصى والمنكرات الى القوم جميعهم إذا كانوا بها راضين ، ثم أراد أن يوبخ أولئك القوم على اتخاذهم صورة عجل من الحلىّ ليعبدوه فقال (ألم يروا أنه لايكلمهم ولايهديهم سبيلا) وفى سورة طه (أفلا يرون أن لايرجع إليهم قولا ولايملك لهم ضرا ولانفعا «٨٩») .

والمراد أن أولئك القوم جماعة بلغوا من السفه والحمق إلى أقصى حدود الحماقة والسفه إذ يستعيرون الحلىّ من الذهب والفضة من نساء المصريين ثم يعطونها للسامرى ليصنع لهم عجلا ويزعم أن ذلك العجل الذى صنعه بيده هو الاله الذى يستحقّ العبادة ، أو أنه إله موسى الذى كان يطلبه فنسى وأخذ يطلبه فى طورسيناء ، ولوكان عند هؤلاء شىء من العقل لعرفوا أنه عجل مصنوع

---

[١] الملك . [٢] البقرة .

لايستطيع أن يكلمهم ولا يستطيع أن يهديهم سبيلا ضلوه ولايجيبهم إذاهم خاطبوه ولايملك ضرّهم إذا خالفوه ولا نفعهم إذا أطاعوه ، ومعبود ذلك حاله لايستحقّ أن يعبد بحال .

و بعد أن بين أن اتخاذ ذلك العجل معبودا سفه وحمق لأنه صنع أيديهم أعاد انكار الاتخاذ وقال (اتخذوه وكانوا ظالمين) فأضاف الاتخاذ إليهم مرة ثانية ، وأرانا أنهم كانوا ظالمين لأنفسهم بذلك الاتخاذ لأنهم يرون أنه لايكلمهم بمافيه صلاحهم ، ولايهديهم لمافيه رشادهم ، فهم لم يتخذوه عن دليل ولاشبه دليل ، بل عن تقليد لما رأوا عليه المصريين من عبادة العجل (أبيس) من قبل ، ولما رأوه من العاكفين على أصنام لهم من بعد (ولما سقط فى أيديهم) وندموا على عملهم هذا (ورأوا أنهم قدضلوا) بعبادة العجل (قالوا) وأكدوا القول (لئن لم يرحمنا ربنا و يغفر لنا لنكوننّ من الخاسرين) لسعادة الدنيا ، وهى الحرّية والاستقلال فى الأرض التى وعدنا بها الله تعالى ، ولسعادة الآخرة ، وهى دار الكرامة والرضوان .

(ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) الخ .

يرينا الله تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع من الميقات غاضبا على أخيه هارون ، وذلك أنه ضعف فى سياسته لهم ، ولم يكن ذا عزيمة فى خلافته فيهم ، حزينا على ماوقع منهم من الشرك و إغضاب الله عزّ وجلّ (قال بئسما خلفتمونى من بعدى) أى بئس خلافة خلفتمونيها بعد ذهابى عنكم الى مناجاة الربّ تعالى ، وكان الواجب عليكم أن تخلفونى باقتفاء سيرتى ، ولكنكم خلفتمونى بضدّها، إذ صنعتم لكم صنما كأصنام أولئك القوم، فعبدتموه بعدى، ولم يردعكم عن ذلك سائركم ، فالتوبيخ عام، وفيه تعريض بهارون عليه السلام ، وفيه من العبرة أن المصلح إذا رأى تيار الفساد قد غلب على مابذله من مجهود ، وقضى على ماخلفه هو أو غيره من أثر صالح مرضىّ فانه يحزن لذلك حزنا عميقا و يعمل على استرجاع ذلك الأثر ، و يحنق على من كان سببا فى ذلك الفساد من قريب أو بعيد .

فهذا نبىّ الله موسى يمضى الأيام فى دعوة القوم الى توحيد الله تعالى ، و يدأب على محاربة الشرك والوثنية أياما وليالى ، ثم يترك أخاه هارون عليه السلام فيطمع القوم فى حلمه ولين جانبه ، فيفترص السامرى تلك الفرصة ، و يضلّ القوم بعمل عجل من حلىّ الذهب والفضة على نحوخاص بحيث إذا مرّ الهواء منه صوّت كصوت العجل ، و يستغلّ سذاجة بنى اسرائيل وجهلهم بحقيقة تلك الصنعة ، و يريهم أن ذلك هو الذى ينبغى أن يعبد ، فيعود نبىّ الله موسى فيحزن على ذلك العمل الحزن العميق ، و يأسف غاية الأسف على إضاعة مجهوده بسبب ضعف قومه ، واستعدادهم لكلّ أنواع التخريف، ثم يصنع بأخيه هارون من أنواع التعنيف والشدّة مايصنع — كلّ ذلك ليرينا أنه ينبغى للمؤمن أن يطمئن للاصلاح ، وأن ينزعج من الوثنية والشرك كما انزعج لذلك نبىّ الله موسى ، وغضب على أخيه ذلك الغضب الشديد الذى جعله ينسى ألواح التوراة و يلقيها من يده ، و يأخذ برأس أخيه هارون يجرّه إليه فيتألم لذلك أخوه هارون ، و يعتذر عن عمله هذا وموقفه من قومه ذلك الموقف السلبي — بأن القوم استضعفوه واستلانوا جانبه وقاربوا أن يقتلوه ، فلو وقف منهم موقفا إيجابيا فى إنكار الشرك وعبادة العجل لكان منهم ما كان مما لايقف عند حدّ .

وقد توسل إليه نبيّ الله هارون بأسلوب من شأنه أن يرق القلوب ، ويكسر من حدّة الغضب، فـ(قال) يا (ابن أمّ ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين) يريد يا من تجمعنى بك أمّ واحدة لا تعجل بتعنيفى ومؤاخذتى ، فانى لم آل جهدا فى الانكار على القوم والنصح لهم ، ولكنهم استضعفونى فلم يرعووا لنصحى ، ولم يمتثلوا أمرى وكادوا يقتلوننى ، فلا تفعل بى من الاهانة والمعاتبة ما يشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين لأنفسهم بعبادة العجل فى درجة واحدة من الغضب والمؤاخذة فلست منهم فى شىء .

هنالك (قال) موسى (ربّ اغفر لى ولأخى) طلب من الله أن يغفر له ما أغلظ به على أخيه من قول وفعل ، وأن يغفر لأخيه ما عساه قصر فيه من مؤاخذة القوم لما توقعه من إيذائهم له (وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) وهو ثناء على الله تعالى يدلّ على مزيد الثقة فى الرجاء ثم قفى على ذلك ببيان عاقبة عبدة العجل من غضب الله عليهم وذلتهم فى الحياة الدنيا . وقيل : ان هذه الذلة هى للسامرىّ الذى أضلّ القوم واتخذ لهم العجل ، حيث قال له (اذهب فان لك فى الحياة أن تقول لامساس « ٩٧ » [1]) أى لا يمسك أحد ولا تمسّ أحدا ، ثم قال (وكذلك نجزى المفترين) أى هذه سنة الله فى جزاء المفترين على الرسل فى كلّ زمان .

ثم أراد أن يرينا أن هذه عاقبة من عمل السيئة وعكف عليها و بقى على ذلك حتى الموت ، أما من عمل السيئة ثم تاب منها وآمن فان الله يغفر له ما قدّم من سيئات (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إنّ ربك من بعدها لغفور رحيم) وهو حكم عامّ يدخل فيه متخذو العجل وغيرهم، ليرينا أن الذنوب وان عظمت وجلت فان عفوه وكرمه أعظم وأجلّ ، ولكن لابدّ من حفظ الشريطة ، وهى وجوب التوبة والانابة، وما وراء طمع فارغ ، وأشعبية باردة، لا يلتفت إليها حازم .

ثم يرينا الله أن الغضب لما سكت عن نبيه موسى (أخذ الألواح وفى نسختها) أى ما نسخ منها وكتب هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ويخشون عقابه وغضبه .

موسى عليه السلام

وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ [2] تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ «١٥٥» وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا [3] إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ

---

[١] طه . [٢] ابتلاؤك واختبارك . [٣] رجعنا ، من هاد يهود هوداً : إذا رجع .

فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِئَايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ «١٥٦» الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ [١] وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ [٢] وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «١٥٧» قُلْ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ «١٥٨» الأعراف

شرح وعبرة

(١) (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) .

يرينا الله أن موسى عليه السلام انتخب من قومه سبعين رجلا يصحبونه للميقات الذى ضربه له ربه ، فلما أخذتهم رجفة الجبل الذى تجلى الله عليه عند سؤال موسى الرؤية حزن موسى ، وتمنى أن لو أهلكهم الله قبل خروجهم مع موسى لذلك الموعد حتى لا يقول بنو اسرائيل : قد ذهبت بخيارنا لاهلاكهم فيقع فى حرج شديد معهم (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) وهم الذين طلبوا رؤية الله جهرة ، أو الذين عبدوا العجل، أوكلاهما (إن هى إلا فتنتك) بلاؤك واختبارك بالأمور الشاقة تبتلى بها الناس ليظهر استعدادهم وما انطووا عليه من ضلال وهداية ، تضلّ بهذه الفتنة من تشاء من عبادك ، ولست بظالم فى تقديرك ، وتهدى من تشاء ، ولست بمحاب لهم فى توفيقك ، بل أمر مشيئتك دائر بين العدل والفضل (أنت ولينا) متولى أمورنا والقائم علينا بما تكسب نفوسنا (فاغفر لنا) مايترتب عليه المؤاخذة ، والعقاب من مخالفة سنتك ، أوالتقصير فيما يجب من ذكرك وشكرك (وارحمنا) برحمتك الخاصة فوق ما شملت به الخلق من رحمتك العامّة (وأنت خير الغافرين) حلما وكرما وجودا ، فلا يتعاظمك ذنب ، ولا يعارض غفرانك ما يعارض غفران سواك من عجز أو ضعف أو هوى نفس (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة)

---

[١] ثقلهم الذى يأخذ صاحبه ويحبسه من الحراك لثقله ، وهو مثل لثقل التكليف ، والأغلال : مثل لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة .

[٢] منعوه حتى لايقوى عليه عدوّ من العزر والمنع ، ومنه التعزير لأنه منع من معاودة القبيح .

من العافية ، و بسط الرزق ، وعز الاستقلال والملك ، والتوفيق للطاعة (وفى الآخرة) بدخول جنتك ، ونيل رضوانك ، وهو كقوله (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار «٢٠١» [1]) (إنا هدنا إليك) تبنا إليك ، ورجعنا مما فرط من سفهائنا .

(قال عذابى أصيب به من أشاء) الخ : أى قد كان من سبق رحمتى غضبى أن أجعل عذابى خاصا أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة المجرمين ، وأما رحمتى فقد وسعت كل شىء فى العالمين ، فهى من صفاتى القديمة الأزلية الذى قام بها أمر العالم ، والعذاب ليس من صفات الله تعالى ، بل من أفعاله المرتبة على صفة العدل .

ولهذا عبر عن التعذيب بالفعل المضارع ، وعن تعلق الرحمة بالفعل الماضى ، وهذه الرحمة هى العامة المبذولة لكل مخلوق ، ولولاها لهلك كل كافر وعاص عقب كفره وفجوره (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة «٤٥» [2]) . وهناك رحمة خاصة يوجبها الله تعالى ويكتبها لبعض المؤمنين المحسنين ، وماكتابته الأفضل منه ورحمة ، أما العذاب فلم يرد فى الكتاب ولافى خبر المعصوم أن الله تعالى كتبه على نفسه ، ولكن أثبته وتوعد به ، فكان لابد من وقوعه بمقتضى ذلك الوعد (فسأكتبها للذين يتقون) الخ ، سأكتب رحمتى كتبة خاصة وأثبتها بمشيئتى اثباتا لايحول دونه شىء لقوم جمعوا بين أولئك الصفات الآتية .

[أولاها] (للذين يتقون) وقد حذف متعلق التقوى ليفيدنا أنهم يتقون كل مايغضب الله تعالى من الكفر والمعاصى والتمرد على الرسل وما إلى ذلك ، وليرينا أن التقوى أصبحت عادة لهم وخلقا من أخلاقهم ، وصاروا جديرين بذلك الوصف وهو أنهم (يتقون) وإذا وقعوا فى محرم من المحرمات فانما يكون ذلك على وجه الشذوذ والندرة لأسباب وقتية تزول المعصية بزوالها ، وذلك لايخرجهم عن كونهم من أهل التقوى .

[ثانيها] أنهم (يؤتون الزكاة) فلم يكن فى نفوسهم شح بالمال ، وخص الزكاة بالذكر لأن فتنة حب المال تقضى بنظر العقل والاختبار أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين لغيرها من الفرائض ، وفيه إشارة الى حب اليهود للدنيا وافتتانهم بالمال وجمعه ومنع بذله فى سبيل الله تعالى .

[ثالثها] ما أشار له بقوله (والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى يصدقون بجميع آياتنا التى تدل على توحيدنا وصدق رسلنا تصديق إذعان مبنى على العلم والايقان دون التقليد للآباء وعصبية الأقوام .

[رابعها] (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) والأمى نسبة إلى الأم ، والمراد به الذى لايقرأ ولايكتب ، وكان أهل الكتاب يسمون العرب بالأميين (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل «٧٥» [3]) (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم «٢» [4]) ولم ينقل أن الله تعالى بعث نبيا أميا غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهو وصف خاص لايشارك محمدا صلى الله عليه وسلم فيه أحد من النبيين ، والأمية آية من آيات نبوته فانه جاء بعد النبوة بأعلى العلوم النافعة ، وهو مايصلح مافسد من عقائد البشر ، وأخلاقهم

---

[١] البقرة . [٢] فاطر . [٣] آل عمران . [٤] الجمعة .

وآدابهم وأعمالهم وأحكامهم ، وعمل بها ، فكان لها من التأثير فى العالم مالم يكن ولن يكون من خلق الله .

وقوله (الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) معناه الذى يجدون صفته ونعته مكتوبة عندهم فى التوراة والانجيل بحيث لايشكون أنه هو ، وقوله (عندهم) لزيادة التقرير و بيان أن شأنه عليه السلام حاضر عندهم لايغيب عنهم ، وقوله (يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر) استئناف لبيان أهمّ مايحتاجون إليه عند بعثه . والمعروف ماتعرف العقول السليمة حسنه ، وترتاح القلوب الطاهرة له لنفعه وموافقته للفطرة والمصلحة ، بحيث لا يستطيع العاقل المنصف أن يردّه أو يعترض عليه ، والمنكر ماتنكره العقول السليمة وتنفر منه القلوب وتأباه .

قال الحافظ ابن كثير هذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الكتب المتقدّمة ، وهكذا كانت حاله لا يأمر إلا بخير ولاينهى إلاعن شرّ كما قال عبد الله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فارعها سمعك فانه خير تؤمر به أو شرّ تنهى عنه .

ومن أهمّ ذلك وأعظمه مابعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لاشريك له، والنهى عن عبادة ماسواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كماقال (ولقد بعثنا فى كلّ أمّة رسولا ان أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت «٣٦» [1]) .

وروى الامام أحمد بسنده إلى أبى حميد وأبى أسيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، و إذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه) رواه أحمد باسناد جيد، وقوله (ويحلّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث) بيان لصفة أخرى من صفات ذلك النبيّ. والطيب ماتستطيبه الأذواق من الأطعمة وتستفيد منه التغذية النافعة ، ومن الأموال ماأخذ بحق وتراض فى المعاملة . والخبيث من الأطعمة تمجه الطباع السليمة وتستقذره ذوقا كالميتة والدم المسفوح ، أو تصدّ عنه العقول الراجحة لضرره فى البدن كالخنزير الذى تتولد منه الدودة الوحيدة — أولضرره فى الدين كالذى يذبح للتقرّب به الى غير الله تعالى على سبيل العبادة ، أى لاما يذبح لتكريم الضيفان ، والذى يحرم ذبحه أو أكله لتشريع باطل لم يأذن به الله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى . والخبيث من الأموال مايؤخذ بغير حق كالربا والرشوة والسرقة والخيانة والغصب والسحت ، وقوله (و يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) تمثيل لثقل تكليف بنى اسرائيل وصعوبته كاشتراط قتل الأنفس فى صحة توبتهم ، وهو يشير الى أنهم كانوا فيما أخذوا به من الشدّة فى أحكام التوراة من العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات كالذى يحمل أثقالا يئط منها ، وهو مع ذلك موثق بالسلاسل ، والأغلال فى عنقه و يديه ورجليه ، فجاءت الشريعة المحمدية بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال صلى الله عليه وسلم لأميريه : معاذ ، وأبى موسى الأشعرى لما بعثهما الى اليمن « بشروا ولاتنفروا

---

[١] النحل .

و يسروا ولا تعسروا وتطاوعا ولا تختلفا) رواه الشيخان وغيرهما ثم ختم الآية بقوله (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) .

والمعنى أن الذين يؤمنون بالرسول النبيّ الأميّ عند مبعثه من قوم موسى ومن كلّ قوم ، و يعزرونه ، بأن يمنعوه و يحموه من كلّ من يعاديه مع التعظيم والاجلال ، لا كما يحمون بعض ملوكهم مع الكره والاشمئزاز ، ونصروه باللسان والسنان ، واتبعوا النور الأعظم الذى أنزل مع رسالته وهو القرآن ، أولئك هم المفلحون الفائزون بالرحمة العظمى والرضوان .

ولعلّ فى الآيات السابقة عبرة لقوم اعتمدوا على سعة رحمة الله تعالى ، وغفلوا عن عدله وحكمته اعتمدوا على قوله (ورحمتى وسعت كلّ شىء) وما دروا أن تلك الرحمة هى الرحمة التى تشمل المؤمن والكافر ، والبرّ والفاجر ، كما تشمل الانسان والحيوان الأعجم ، وتشمل الهوامّ والحشرات فهى جميعها فى رحمة الله تعيش ، فمن رحمته بهم أن سخر لهم الرزق ، ومتعهم بالصحة ، وأمدّهم بالعافية وصوّرهم فأحسن صورهم ، وهداهم كيف يعيشون فى هذه الحياة ، وكيف يتعلمون ، كلّ ذلك رحمة من الله ببنى الانسان .

أما الرحمة الخاصة التى يمتاز بها المؤمن فقد كتبها على نفسه تفضلا منه و إحسانا (للذين يتقون و يؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) الى آخر الآيات ، وما كتبها لفاجر أو فاسق ولا لبخيل شحيح ، كتبها لقوم يتبعون الرسول النبىّ الأمىّ الذى بشرت به التوراة ، وأخبر به الانجيل ، الذى يأمرهم بما تعرفه نفوسهم ، و ينهاهم عما تنكره فطرهم ، و يحلّ لهم الطيب و يحرّم عليهم الخبيث ، و يضع عنهم أثقالهم من التكاليف الشاقة .

ثم ختم الآية بذلك الحصر المخيف وقال (فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون) ولا فلاح لغير هؤلاء ممن مرنوا على العصيان ، وتعوّدوا الفسوق والفجور ، وهى آية ما أشدّها على نفوس أرباب الشهوات ، وما أقساها على قلوب المتهاونين بأوامر الله تعالى ونواهيه ، وكان على الذين يمنون أنفسهم بقوله (ورحمتى وسعت كلّ شىء) أن لا يغفلوا عن الآية التى تليها ليعلموا أن أصحاب أولئك الصفات هم الذين كتب الله على نفسه لهم الرحمة ، وقضى لهم بالفوز والفلاح .

ولعلّ وعاظنا اليوم يفطنون لذلك النوع من الاغراء على المعاصى ، وتهوين المنكرات على الناس — لعلهم يفطنون لذلك ، ولا يقفون من الناس موقف المبشر برضوان الله ورحمته فحسب ، و إنما يقفون مبشرين ومنذرين ، مبشرين برحمته ، مخوّفين من بطشه وعذابه ، مذكرين بقوله سبحانه وتعالى (نبئْ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم «٤٩» وأن عذابى هو العذاب الأليم «٥٠» [١])

فهو واسع الرحمة ، ولكنه لا يضعها إلا فى الموضع الذى يستحق ، والمكان الذى ينبغى أن تكون فيه ، فانه حكيم والشأن فى الحكيم أن يكون كذلك ، وقد بين الله ذلك الموضع بقوله (فسأكتبها للذين يتقون) الى آخر الآيات .

(٢) (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) .

---

[١] الحجر .

هذا خطاب عامّ لجميع البشر من العرب والعجم ، وجهه إليهم محمد بن عبد الله النبيّ العربى بأمر الله تعالى ، ينبئهم به أنه رسول الله تعالى اليهم كافة ، لا إلى قومه العرب خاصة ، كما زعمت العيسوية من اليهود فهو كقوله (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون « ٢٨ » [1]) وقوله (وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ «١٩» [2]) أى وأنذر به كلّ من بلغه من الثقلين ، فمن قال انه يؤمن برسالته الى العرب خاصة لا يعتدّ بإيمانه لأنه مكذب لهذه النصوص العامّة القطعية ، وما فى معناها كقوله تعالى (تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا « ١ » [3]) وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين « ١٠٧ » [4]) .

ثم وصف الله عزّ وجلّ نفسه فى هذا المقام بتوحيد الربوبية وتوحيد الالوهية ، وبالاحياء والاماتة فقال (الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت) و بنى على ذلك الدعوة الى الايمان على طريق التفريع (فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأميّ) ليلفت النظر الى تلك المعجزة الظاهرة معجزة الأمّية (الذى يؤمن بالله وكلماته) أى يؤمن بما يدعوكم إليه من توحيد الله تعالى ، وكلماته التشريعية التى أنزلها لهداية خلقه ، وهى مظهر علمه وحكمته ورحمته ، وكلماته التكوينية التى هى مظهر إرادته وقدرته .

و بعد أمرهم بالايمان أمرهم بالاسلام فقال (واتبعوه لعلكم تهتدون) أى رجاء اهتدائكم بالايمان و باتباعه لما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة .

وهنا نكتة لطيفة : هى أنه قال فى صفة الرسول صلى الله عليه وسلم (واتبعوا النور الذى أنزل معه) وهنا قال (واتبعوه لعلكم تهتدون) فان تلك فى اتباع القرآن خاصة ، وهذه تشمل اتباعه صلى الله عليه وسلم فى العمل بالقرآن ، كاتباعه فى صفة الصلاة وكيفيتها ، وعدد أوقاتها ، وسرّها وجهرها وطولها وقصرها وما الى ذلك ، وكاتباعه فى صفة الحج ، وصفة بقية العبادات التى أجملها القرآن و بينها الرسول صلى الله عليه وسلم من طريق العمل كما يشمل اتباعه فى اجتهاده واستنباطه من القرآن الذى أقرّه الله عليه إذا كان تشريعا – كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها قياسا على الجمع بين الأختين المنصوص فى القرآن .

والتشريع : إما عبادة أمرنا بالتقرب الى الله تعالى بها وجوبا أو ندبا ، و إما مفسدة نهينا عنها اتقاء لضررها فى الدين كدعاء غير الله فيما ليس من الأسباب التى يتعاون عليها الناس ، وكأكل المذبوح لغير الله ، أو لضررها فى العقل أو الجسم أو المال أو العرض أو المصلحة العامّة ، و إما حقوق مادّية أو معنوية أمرنا بأدائها الى أهلها ، كالمواريث والنفقات ، ومعاشرة الأزواج بالمعروف ، أو أمرنا بالتزامها لضبط المعاملات كالوفاء بالعقود .

وليس من التشريع الذى يجب فيه امتثال الأمر ما لا يتعلق به حق لله تعالى ولا لخلقه ، لا جلب مصلحة ولا دفع مفسدة ، كالعادات والصناعات ، والزراعة والعلوم والفنون المبنية على التجارب والبحث ، وما يرد فيها من أمر ونهى يسميه العلماء إرشادا لا تشريعا إلا ما ترتب عليه وعيد كلبس الحرير .

---

[١] سبأ . [٢] الأنعام . [٣] الفرقان . [٤] الأنبياء .

وقد ظن بعض الصحابة أن إنكار النبيّ صلى الله عليه وسلم لبعض الأمور الدنيوية المبنية على التجارب للتشريع كتلقيح النخل ، فامتنعوا عنه فخرج ثمره رديئا يابسا ، فراجعوه فى ذلك فأخبرهم أنه قال ماقال عن ظنّ ورأى لا عن تشريع ، وقال لهم « أنتم أعلم بأمر دنياكم » كما ورد فى صحيح مسلم ، وحكمته تنبيه الناس الى أن مثل هذه الأمور الدنيوية والمعاشية لايتعلق بها لذاتها تشريع خاص ، بل هى متروكة الى معارف الناس وتجاربهم .

وكانت الصحابة يراجعون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يشتبه عليهم أهو من رأيه صلى الله عليه وسلم واجتهاده الدنيوىّ ، أو بأمر من الله تعالى ؟ وان لم يكن تشريعا كسؤاله عن الموضع الذى اختاره للنزول فيه يوم بدر ، قال له الحباب بن المنذر رضى الله عنه : أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا متقدّم عنه ولا متأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فلما أجابه بأنه رأى لا وحى وأن المعوّل فيه على المصلحة ومكايد الحرب أشار بغيره فوافقه صلى الله عليه وسلم .

ومنه يعلم أنه لا يدخل فى باب التشريع مثل حديث « كلوا الزيت وادّهنوا به فانه طيب مبارك [١] » بل هو من أمور العادات ، بخلاف حديث « كلوا لحوم الأضاحى وادّخروا [٢] » فان الأضاحى من النسك ، والأكل منها سنة ، فأمر المضحى به للندب ، وادّخارها جائز له ، ولولا الأمر به لظنّ تحريمه أوكراهته لعلاقة الأضاحى بالعيد ، فهى ضيافة الله تعالى للمؤمنين فى أيام العيد ، وكذلك ليس من باب التشريع ما ورد فى الشيب من صبغه بالسواد ، بل هو من الأمور العادية المتعلقة بالزينة المباحة ، إذ لا تعبد فيه ولا حقوق لله ولا للناس .

موسى عليه السلام

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ «١٥٩» وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا [٣] أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ [٤] مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ [٥] وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ «١٦٠» وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ [٦] وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ «١٦١» فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ

---

[١] رواه أحمد . [٢] رواه أحمد والحاكم . [٣] فرقاً وجماعات .

[٤] انفجرت . [٥] مادّة بيضاء تنزل من السماء كالطلّ ، حلوة الطعم تشبه العسل ، وإذا جفت تكون كالصمغ ، وهو الترنجبين ، والسلوى : طير السمان المعروف . [٦] الدعاء بأن يحط عنهم خطاياهم .

ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ «١٦٢» وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ [١] ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ «١٦٣» وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ «١٦٤» فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ [٢] بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ «١٦٥» فَلَمَّا عَتَوْا [٣] عَن مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ «١٦٦» وَإِذْ تَأَذَّنَ [٤] رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «١٦٧» وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم [٥] بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ «١٦٨» فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ [٦] هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَا يَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ «١٦٩» وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ [٧] بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ «١٧٠» وَإِذْ نَتَقْنَا [٨] ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ «١٧١» الأعراف

---

[١] قريبة منه « يعدون » يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرّم عليهم فيه « سبتهم » تعظيمهم السبت « شرعا » ظاهرة على وجه الماء . [٢] شديد، من البأس ، وهو الشدّة ، أو البؤس ، وهو المكروه .

[٣] تكبروا « خاسئين » : صاغرين أذلاء . [٤] أعلم صيغة تفعل ، من الإيذان وهو الاعلام .

[٥] اختبرناهم : [٦] عرض هذا الحطام الحقير من متاع الدنيا كالسحت والرشا .

[٧] يتمسكون به في جميع أحوالهم وأوقاتهم . [٨] رفعناه أو زلزلناه، وهو مرفوع فوقهم مظلل لهم، من نتق السقاء : هزه ونفضه ليخرج منه الزبدة .

شرح وعـــبرة

(١) (ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون) .

لما بين فى الاستطراد السابق كتابه رحمته الخاصة للذين يتبعون محمدا صلى الله عليه وسلم من قوم موسى وعيسى عليهما السلام وقال فيهم (أولئك هم المفلحون) قفى على ذلك ببيان أن من قوم موسى طائفة تهدى الناس بالحقّ الذى جاءهم به من عند الله ، ويعدلون به إذا حكموا بين الناس لا يتبعون فيه الهوى ، ولا يأكلون السحت والرشا .

والظاهر أن هؤلاء ممن كانوا فى عصره وبعد عصره ، فان الأمم العظيمة لاتخلو من أهل الحق والعدل ، وهـذا من بيان القرآن للحقائق ، وعدله فى الحكم على الأمم ، كقوله (ومن أهـل الكتاب منْ إن تأمنه بقنطار يؤدّه إليك ومنهم من إن تأمنـه بدينار لا يؤدّه إليك إلا ما دمت عليه قائما « ٧٥ » [١]) ولا ينافى ذلك قوله (يهدون ــ ويعدلون) المفيدة للحال ، لأن أمثاله مما حكى فيه حال الغابرين وحدهم بصيغة المضارع كثير ، فهو لتصوير الماضى فى صورة الحاضر .

وقال بعض المفسرين : المراد بهؤلاء من آمن بالنبىّ صلى الله عليه وسلم من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سـلام وأضرابه ، ولكنّ الآية ليست صريحة فى هذا ، بل السياق ينافيه لأنها جاءت بعد بيان حال الذين يؤمنون به صلى الله عليه وسلم ، والصريح فى ذلك النوع مثـل آية آل عمران (وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم «١٩٩» .

فالآيات فى خيار أهل الكتاب أنواع :

[الأوّل] ماهو صريح فى الذين أدركوا النبىّ صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ، وقد أثنت عليهم قبل الايمان به وبعده ، كقوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته أولئك يؤمنون به « ١٢١ » [٢]) وقوله (الذين آتيناهم الكتاب من قبـله هم به يؤمنون « ٥٢ » واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحقّ من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين « ٥٣ » أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا [٣]) .

[الثانى] ما كان صريحا فى الذين كانوا فى عهد موسى عليه السلام واستقاموا معه ، ثم فى عهد من بعده من أنبيائهم إلى عهد البعثة العامّة قبل بلوغ دعوتها كالآية التى نحن بصدد تفسيرها .

[الثالث] المحتمل للقسمين كقوله تعالى (من أهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون «١١٣» يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين « ١١٤ » وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين « ١١٥ » [٤]) .

والعبرة فى الآية التأسى بالقرآن الكريم فى بيان الحقائق وعدله فى الحكم ، فالرجل الذى اتخذ القرآن إماما له ، ونورا يهتدى به يتأسى به فى حكمه على الأفراد والشعوب ، فلا يسرف فى المدح

---

[١] آل عمران . [٢] البقرة . [٣] القصص . [٤] آل عمران .

أو الذمّ ، ولا يتغالى فى بيان التاريخ .

ألا ترى القرآن يقول فى أهل الكتاب (ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحبّ المحسنين « ١٣ » (١)) .

وإذا سمعت هذه القصة من رجل لم يتهذّب بتهذيب القرآن ، ولم يتأدّب بأدبه ، تجد منه الأساليب الخطابية ، والمؤثرات الشعرية ، وتجده يبالغ فى تحريف أولئك لدينهم ، وإهمالهم لتعاليمهم حتى ليخيل إليك أن ما بقى من دينهم بدون تحريف لايبلغ عشر معشار ما أضاعوه ، ثم تراه يقول (إلا قليلا منهم) ليريك أن الفساد لم يكن عامّا فيهم بل كان فيهم فريق قليل على صلاحه ورشده .

فالقرآن يرينا أنه لايصح أن تحملنا العصبية للدين أو الكتاب على أن نغمط أهل الكتاب حقهم أو نبخسهم أشياءهم ، وإنما الواجب على المؤرخ أن يذكر مالهم وما عليهم ، ولا أدلّ على اهتمام القرآن بالعدل فى الأحكام من قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون « ٨ » (٢)) .

(٢) (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما) .

يمتنّ الله تعالى على بنى اسرائيل أن جعلهم الله أسباطا وجماعات يمتاز كلّ منها بنظام خاصّ فى معيشته وبعض شئونه ، والمشهور فى معنى السبط أنه ولد الولد ، وقد يخصّ بولد البنت ، وأسباط بنى اسرائيل : سلائل أولاده العشرة ، فالأسباط بيان للفرق والقطع التى هى أقسام بنى اسرائيل كما سميت الفرق فى العرب بالقبائل ، والأمم بيان للمراد من معنى الأسباط الاصطلاحى ، والأمّة : الجماعة التى تؤلف بين أفرادها رابطة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد .

والمراد أن الله تعالى يمتنّ عليهم بأن كثرهم وجعلهم أمما وشعوبا ، فكان عليهم أن لا يقابلوا هذه النعم بالكفران ، بل يقابلوها بالشكر .

ثم يمتنّ عليهم بأنه أوحى إلى نبيه موسى عليه السلام حين طلب قومه منه السقيا أن يضرب بعصاه الحجر فتفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وقد عرف أناس كلّ سبط المكان الذى يشربون منه ، إذ خص كلا منهم بعين لايأخذ الماء إلا منها ، لما فى ذلك من النظام واتقاء ضرر الزحام ، وهى نعمة أخرى فوق نعمة الماء .

ثم سخر عليهم الغمام يلقى عليهم ظله فيقيهم لفح حرارة الشمس من حيث لا يحرمون فائدة نورها ، وحرها المعتدل .

ثم أنزل عليهم المنّ والسلوى ، وقال لهم (كلوا من طيبات مارزقناكم) ولكنهم ظلموا بالكفر بهذه النعم ، وبجحود آيات الله تعالى وشؤم ظلمهم عائد إليهم ، ولايعود على ربهم وخالقهم منه شىء ، ولذلك يقول (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

ثم يذكرهم الله تعالى حين أمرهم بسكنى قرية معروفة لهم وأن يأكلوا منها حيث شاءوا من أنواع النعيم ، وأن يدخلوها خاشعين خاضعين داعين أن يحطّ عنهم خطاياهم ، ووعدهم أن سيزيد

[١و٢] المائدة .

المحسنين نعيا الى نعيمهم ، فخالفوا أمر الله تعالى خلافا لا يقبل التأويل حتى كأنه قيل لهم غير الذى قيل ، فأرسل الله عليهم عذابا من السماء (بما كانوا يظلمون) .

وقال فى سورة البقرة (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون «٥٩») وهو يرينا أن العذاب كان خاصا بالذين ظلموا، لاعاما ، ومجموع الآيتين يريا أنهم كانوا جامعين بين الظلم الذى هو نقص للحق أو إيذاء للنفس أو الغير ، وبين الفسق الذى هو الخروج عن الطاعة ولو فى غير الظلم للنفس أو للناس .

والعبرة فى ذلك أن نتقى الظلم والفسق ، ونعلم أن الله تعالى يعاقب الأمم على ذنوبها قبل الآخرة ، وأنه عاقب بنى اسرائيل على ذنوبهم ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من المزايا والفضائل وكثرة وجود الأنبياء فيهم .

(٣) (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) الخ ، وهو تفصيل لقوله فى سورة البقرة (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت) يخاطب بها علماءهم ، والخطاب فى قوله (واسألهم) لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والسؤال فيه للتقرير المتضمن للتقريع ، والادلاء بعلم ماضيهم ، يريد واسأل بنى إسرائيل عن أهل المدينة التى كانت حاضرة البحر قريبة منه راكبة لشاطئه ، إذ يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرّم عليهم فيه (إذ تأتيهم حيتانهم) يوم تعظيمهم للسبت ظاهرة على وجه الماء (ويوم لايسبتون لاتأتيهم) .

قيل : إنها اعتادت أن لايتعرّض لها أحد لصيدها يوم السبت فأمنت وصارت تظهر فيه ، وتخفى فى الأيام التى لايسبتون فيها لما اعتادت من اصطيادها فيها ، فلما رأوا ظهورها وكثرتها فى يوم السبت أغراهم ذلك بالاحتيال على صيدها ففعلوا (كذلك نبلوهم) مثل ذلك البلاء بظهور السمك لهم نبلوهم ونختبرهم (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم عن أمر ربهم واعتدائهم حدود شرعه .

(٤) (وإذ قالت أمّة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذّبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون) أى واسألهم عن حال أهل القرية فى الوقت الذى قالت أمّة وجماعة منهم (لم تعظون قوما) الخ والآية تدلّ على أن الذين كانوا يعدون فى السبت بعض أهل القرية لا كلهم وأن أهلها كانوا ثلاث فرق : فرقة العادين التى أشير إليها فى الآية الأولى ، وفرقة الواعظين الذين نهوا العادين عن العدوان ووعظوهم ليكفوا عنه ، وفرقة اللائمين للواعظين التى قالت لهم : لم تعظون قوما قضى الله عليهم بالهلكة أو العذاب الشديد ، فهو إما مهلكهم بالاستئصال أو بعذاب شديد دونه ، أو مهلكهم فى الدنيا ومعذبهم فى الآخرة .

والآية ترينا أن الأمّة قد تسرف فى العدوان ، وتمادى فى الباطل ، وتملك عليها الشهوات جميع حواسها ومشاعرها ، فيقلّ أمل الواعظ فيها ، وتتغلب عليه روح اليأس ، وكثيرا مايحسّ المصلح ذلك الاحساس ، ويشعر ذلك الشعور ، ولا سيما إذا رأى الفساد قد شمل الخاصة والعامّة ، ولم يدع فريقا من الأمّة بدون أن يتسرّب إليه ، وخاصة العلماء الذين هم من الأمّة بمنزلة الرأس من الجسم .

إذا رأى المصلح أن أولئك القوم جرفهم تيار الفساد ، فاندمجوا مع العامّة في الشهوات والملاهي وشايعوا الجماهير من الناس في الممالأة والنفاق ، وأصبحوا يداجون و يداورون ، رجاء عرض من أعراض هذه الحياة ، ومتاع زائل .

إذا رأى المصلح ذلك فانه يحزن الحزن كله ، و ييأس اليأس كله ، و يغتمّ لذلك الغمّ كله ، وحين ذاك يقول في نفسه : ماذا أصنع وماذا يصنع المصلح ؟ أيصلح العامّة أو الخاصة ؟ يصلح الرأس أو الجسم ؟ وماسبيل ذلك الاصلاح ؟ وكيف يستطيع اصلاح العامّة، والخاصة قد ضربوا لهم الأمثال السيئة في الرذيلة ، وعبدوا لهم طريق الشهوات ، وهوّنوا عليهم المنكرات ، وجرءوهم على ما لا ينبغي من المحرّمات ؟ وكذلك يحزن المصلح حينما يرى ولاة الأمور وأصحاب الحول والطول ، وذوى النفوذ والسلطان من الأمّة ، قد فسدوا الى حدّ بعيد ، وتجاهروا بذلك الفساد ، فلايبالون بأن يعصى الرجل منهم على رءوس الأشهاد ، ولا يستنكف أن يغاضب الله تعالى على مرءى من الجماهير .

والشأن في الناس أن تكون على دين رؤسائهم وأصحاب السلطان فيهم ، يفسدون بفسادهم و يصلحون بصلاحهم ، يتأسون بهم في الخير والشرّ ، و يقتدون بهم في كلّ عمل .

إذا رأى المصلح الفساد قد تغلغل في جميع طبقات الأمّة ولم يدع فريقا منها بدون أن يصل إليه ضعفت عند ذلك نفسه ، وتسرب إليه اليأس . فيأخذ في التحدّث الى نفسه ، مافائدة الوعظ ، وماغاية الارشاد ؟ وماهو الأمل في ذلك العمل الذي لايجدى ولايفيد .

يريد الله تعالى بهذه الآية الكريمة أن طائفة من أهل القرية قد استولى عليها اليأس ، وانقطع فيها الأمل في صلاح من معهم من الذين يعدون في السبت ، فأخذت تنكر على الواعظين وعظهم وعلى المصلحين اصلاحهم وتقول لهم (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) ومافائدة الوعظ وماقيمة الارشاد ؟ فكان جواب الواعظين (معذرة الى ربكم) نعظهم وعظ عذر نعتذر به الى ربكم عن السكوت عن المنكر وقد أمرنا بالتناهي عنه (ولعلهم يتقون) رجاء في انتفاعهم بالموعظة ، وحملا لهم على اتقاء الاعتداء الذي اقترفوه ، أي فنحن لم نيأس من رجوعهم الى الحق .

وفي هذا بيان لما ينبغي أن يكون عليه الواعظ ، ينبغي له أن لاييأس من الاصلاح ، وأن يعلم أن للوعظ أثره وغايته في النفوس ، وان كانت الغاية تتفاوت بمقدار استعداد النفوس للوعظ وتأهبها للتأثر به .

فمن النفوس ماهو مستعدّ للاصلاح استعدادا قريبا ، فاذا وصل وعظ المصلح الى ذلك الصنف ، فان النفوس تستفيد من الوعظ في الحال ، ومنها ماهو مستعدّ له استعدادا بعيدا ، ولا غنى للواعظ عن الصبر على ذلك النوع من النفوس ، و إذا لم يجن هو ثمرة ذلك الوعظ فسيجنيه من بعده من المصلحين .

ومن الجهل أن يعتقد الواعظ أن ثمرة وعظه لابدّ أن يجدها في الحال ، وما مثل الواعظ إلا كفلاح يصلح الأرض و يعدّها للزراعة والانبات ، والأرض معادن ، فنها الصالح الذي يجني ثمرته بمجرد وضع البذر فيه ، ومنها غير الصالح الذي يحتاج الى زمن طويل ، فاذا لم يجد الزارع ثمرة

ذلك النوع الآن فسيجده من بعده ، وكلّ مجهود يقوم به الزارع فى الأرض لايضيع ، وكذلك الوعاظ والمصلحون ، فكثيرا ما انتفع الواعظ باصلاح من سبقه ومجهود من تقدمه ، وكثيرا ما اصطدم الواعظ بافساد من سبقه ، وكتمان من تقدّمه ، ولا أدلّ على ذلك من احتجاج العامّة بسكوت العلماء السابقين ، وغفلة فريق منهم عما أوجبه الله عليه من بيان الدين للناس ، فكم سمعنا منهم : قد كان فينا الشيخ فلان والشيخ فلان ولم نسمع منهم ذلك ، ولم ينكروا علينا ماتنكرون ، وهل لذلك من معنى سوى تأييد ماقلنا من أن ترك الناس بدون اصلاح مدعاة لموت نفوسهم ، وقسوة قلوبهم ، وتسلط الشهوات عليهم ، وأن تعهدهم بالوعظ يخفف من وطأة الفساد ، ويقلل من قيمة الشهوات ، ويضعف من سلطان الباطل ، وأن تجاوب الأصوات بالوعظ والارشاد ضرورة من ضرورات الأمّة ، وحاجة من حاجات البشر (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما «١٦٥» [١]) .

إذا لاحظ الواعظ ذلك كله ، فان اليأس لايجد الى نفسه سبيلا ، وأقلّ فائدة للوعظ أن يكون حجة على أنصار الباطل وأصحاب الشهوات ، وأن يكون قد قام بما أوجبه الله عليه من انكار المنكر وتقبيح شأنه للناس وأن يكون وعظه عدّة لغيره من المصلحين فيما يستقبل من الزمان وتكأة يعتمد عليه من يجيء بعده ممن يريد الاصلاح . ويعجبني ماحكى عن بعض الزراع أنه مرّ به رجل فوجده يزرع نوعا من الأشجار لايثمر إلا بعد مائة سنة فقال له لماذا تزرع وأنت واثق من أنك لاتجنى ثمرته ؟ فقال له الزارع : قد زرعه آباؤنا فجنينا ونحن نزرعه ليجنى أبناؤنا .

وما أحسن قول الله تعالى حكاية عن أولئك الواعظين (معذرة الى ربكم) وعلى الواعظ أن يكثر من تبرير هذه الكلمة حتى تمتزج بلحمه ودمه ، فيؤدّى واجبه فى الوعظ امتثالا لأمر الله تعالى ، وثقة بأنه أدرى بمصالح الناس ، وما يعود عليهم بالخير ، وأنه أعلم منا بفائدة الوعظ ، والدعوة الى الله تعالى ، وأنها ركن ركين من أركان الدين لايستقيم أمر الناس بدونها ، ولذلك أوجب على الأمّة أن يكون منها طائفة تدعو الناس الى الخير وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ، وأنه إذا فقدت هذه الطائفة صارت الناس فرقا وشيعا ، فينحاز كلّ فريق لشهوته ، ويتعصب لهواه (ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون «١٠٤» ولاتكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم «١٠٥» [٢]) .

وقوله (ولعلهم يتقون) رجاء من الواعظين فى أن أولئك القوم ينتفعون بتلك الموعظة كلهم أو بعضهم ، فقد يكون فى الطائفة الفاسدة أفراد صالحون أو مستعدّون للصلاح ، فحرمانهم من الوعظ خسارة كبرى على المستعدّ .

وما دام هناك احتمال أن طائفة تستفيد من الوعظ فلا بأس ، وهو ظاهر إذا كان الوعظ موجها لأمّة وطائفة ، أما إذا كان الوعظ موجها لشخص معين فان الواعظ متى عرف بالاختبار من ذلك الشخص أنه ليس مستعدّا للوعظ ، ولامتأهبا للتذكر فليس عليه بأس من ترك وعظه .

---

[١] النساء . [٢] آل عمران .

ولعلّ ذلك هو محمل قول الله تعالى (فذكر ان نفعت الذكرى «٩»[1]) فشرط فى التذكير أن تنفع الذكرى ، أما إذا لم تنفع فهى من العبث .

وهنالك من فوائد الوعظ عدا ماتقدّم حماية المؤمنين من الفساد ، ووقايتهم من الشرّ ، فهو بمثابة الحيلولة بين السليم والأجرب حتى لايعديه الجرب فيصبح الكلّ مريضا ، فاذا لم يفد الوعظ فى تكثير سواد الأصحاء فهو مجدى فى وقوف المرض وعدم انتشاره ، فان العدوى الخلقية أسرع من عدوى الأجسام ، والتأثر بأرباب الشهوات والأهواء أضعاف التأثر بالمصابين بالأمراض الجسمية ، وكلّ انسان مستعدّ لأن يتأثر بالخير والشرّ استعدادا قريبا أو بعيدا ، فاذا سمع الصنف الصالح من الأمّة الوعظ ، وتعهده المصلحون بالارشاد فان ذلك يكون وقاية له من التطلع لأرباب الشهوات والانغماس معهم .

ومن أجل ذلك أوجبت الشريعة الاسلامية الوعظ على المنابر فى كلّ أسبوع مرة عدا المواعظ التى يتبرع بها فريق من الأمّة ، وكثيرا مانرى فى البيت الواحد الصالح والطالح ، ونرى صراعا بينهم فى صلاحهم وفسادهم ، فترى الصالح فى البيت يمثل قول الواعظ وعمله ، ويحاول أن يظفر بأخيه الفاسد فينشله من وهدة الفسق ، ويذهب به الى حيث يذهب الصالحون المؤمنون .

وترى صاحب الشهوة مغرما باللهو والخلاعة ، تجرى كلمات اللهو على لسانه ، وتظهر خفة الطيش على جوارحه ، وهو فى طريقه هذا يحاول أن يضمّ إليه أخاه ويكسب صاحبه ، ولا يزال بينهما ذلك الصراع ان ظاهرا وان خفيا حتى يتغلب القوىّ على الضعيف سنة الله فى كلّ صراع فاذا لم يجن الوعاظ من وعظهم سوى حماية المؤمنين والحيلولة بينهم و بين الشهوات ، فتلك فائدة كبرى ، وغاية من أجلّ الغايات ، فكيف إذا كان من وراء ذلك إعداد النفوس للصلاح ، وجعلها مهيأة للرشاد ، واقامة الحجة على أرباب الشهوات والمعاصى ، واظهار هذه الطائفة بمظهر لايليق بالعاقل ولا يتناسب مع الكرامة ، و بيان أن حياة الناس المعنوية والمادّية فى طاعة ربهم ووقوفهم عند مارسم لهم ، وأن الذل كلّ الذلّ فى أن يكون الناس كالبهائم لايعنيهم إلا ملءُ بطونهم وقضاء شهواتهم ، وأن الانسان قد أعدّه الله بما هيأه له لحياة وراء هذه الحياة ومعيشة أرقى من تلك العيشة ، ولايستطيع الوصول الى تلك الحياة العالية الا بتزكية نفسه وطهارة روحه ، و إنما يكون ذلك كله بالدين الصحيح والعلم النافع .

وجملة القول أن اليأس من الشيطان، فاذا تسلط عليك أيها الواعظ فحاربه بما تستطيع وقاومه بكلّ ما أوتيت من قوّة، وقم بما أوجبه الله عليك من وعظ وارشاد، ودع مالا تستطيع من هداية القلوب لخالقها و بارئها فهو الذى يصرفها كما يريد و يقلبها كما يشاء (و إما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم «٢٠٠»[2]) .

(٥) (فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) فلما نسى العادون فى السبت المذنبون ماذكرهم به ووعظهم به اخوانهم المتقون ، بأن تركوه وأعرضوا عنه حتى صار كالشىء المنسى فى كونه لاتأثير له ، أنجينا الواعظين

---

[1] الأعلى . [2] الأعراف .

من العقاب الذى استحقه فاعلو السوء ، وأخذنا الذين ظلموا وحدهم بعذاب شديد .

وانظر الى قوله (بما كانوا يفسقون) لتعرف أن نزول العذاب بهم سببه فسقهم المستمرّ لاظلمهم فى الاعتداء فى السبت فقط ، ولو كان هذا هو السبب لكفى أن يقول (لأخذنا الذين ظلموا) وكان وصفهم بأنهم ظلموا تعليلا لأخذهم بالعذاب على قاعدة أن تعليق الحكم أو الجزاء على المشتق يدلّ على أن المشتقّ منه علة له ، ولكن الله أراد أن يرينا بذلك التعليل أن سنته فى أخذ الأمم والشعوب فى الدنيا قبل الآخرة بالظلم والذنوب أن يظهر أثر الذنوب فيها بالاصرار والاستمرار عليها ، وهو ما أفاده هنا قوله (بما كانوا يفسقون) وليس من سنته أن يؤاخذ كلّ ظالم فى الدنيا بكلّ ظلم يقع منه قلّ أوكثر لقوله (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة «٤٥» [1]) وقوله (ويعفو عن كثير «١٥» [2]) بل قد يعاقب الظالم وقد يؤخره ، وهو حكيم فى ارجاء العقوبة ، عليم بما تقضى به المصلحة .

والآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين ، ونجاة الصالحين الذين نهوهم عن عمل السوء ، وسكتت عن الفرقة التى أنكرت على الواعظين وعظهم ، فقيل انها كانت مع الهالكين لأنها لم تنه عن المنكر ، بل أنكرت على الذين نهوا عنه . وقيل : بل نجت لأنها كانت منكرة للمنكر ، ولذلك لم تفعله ، وإنما لم تنه عنه ليأسها من فائدة النهى وجزمها بأن القوم قد استحقوا عقاب الله باصرارهم فلا يفيدهم الوعظ .

وتستطيع أن تأخذ من الآية فائدة أخرى للوعظ والواعظين ، والاصلاح والمصلحين ، هى نجاتهم من السوء الذى أنزله الله تعالى بأصحاب الذنب ، ولولا ذلك الانكار الذى كان منهم لهلكوا كما هلك المذنبون (واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب «٢٥» [3]) (فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) أى تعلقت إرادتنا بأن يكونوا قردة خاسئين صاغرين أذلاء ، فكانوا كذلك . قيل : ان هذا تفصيل للعذاب البئيس فى الآية السابقة وقيل : هو عذاب آخر وأن الله تعالى عاقبهم أوّلا بالبؤس والشقاء فى المعيشة ، لأن من الناس من لا يربيه إلا الشدّة ، كما أن منهم من يربيه الرخاء والنعمة ، وبكلّ يبتلى الله عباده (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) ولكنّ هؤلاء القوم لم يزدهم البؤس إلا عتوّا واصرارا على الفسق والظلم ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ، ومسخهم مسخ خلق وبدن ، فكانوا قردة بالفعل ، أومسخ خلق ونفس ، فكانوا كالقردة فى طيشها وشرّها وافسادها لما تصل إليه أيديها ، وهو قول مجاهد قال : مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق ، وهى عاقبة من أوخم العواقب ، وغاية من أشدّ الغايات على النفوس ، ولعلّ فيها عبرة لقوم استهانوا بالمعاصى ، واستمرءوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ، وفسقوا عن أمر الله وضلوا ضلالا بعيدا ، لعلهم يعلمون أن الله تعالى الذى مسخ سلفهم فى الشهوات ، وأئمتهم فى الضلال ، فصاروا قردة وخنازير ، طباعهم طباعهم ، ونفوسهم نفوسهم — لعلهم يعلمون أنه قد مسخ أولئك الأقوام بسبب فسقهم واصرارهم على المعاصى ، وأن فى قدرته أن يمسخ من كان مثلهم ذلك المسخ المعنوى الذى يقضى على كلّ فضيلة فى النفوس ،

---

[١] فاطر . [٢] المائدة . [٣] الأنفال .

و يمحو كلّ خلق من أخلاق الانسانية الفاضلة ، لعلّ لهم مدّكرا فى أولئك الأقوام وماحلّ بهم من عقوبات فيقلعوا عن سيئاتهم ، ويرجعوا إلى ربهم وخالقهم و يثوبوا الى رشدهم ، والله تعالى واسع الفضل يقبل التائب ، ويعفو عمن أساء ، متى أصلح مافسد ، وبدّل سيئاته حسنات ، وعمل عملا صالحا (وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى «٨٢» [1]) .

(٦) (وإذ تأذن ربك ليبعثنّ عليهم الى يوم القيامة) الخ : أى اذكر لهم أيها الرسول إذ أعلم ربك هؤلاء القوم المرّة بعد المرّة أنه قد قضى عليهم فى علمه وكتب على نفسه وفاقا لما أقام عليه نظام الاجتماع البشرى من سننه ليسلطنّ عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب أى يوقعه بهم عقابا على ظلمهم وفسقهم ، وهو هنا سلب الملك واخضاع القهر .

وقد فصله الله تعالى فى سورة الاسراء (وقضينا إلى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدنّ فى الأرض مرّتين ولتعلنّ علوّا كبيرا «٤» فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا [2] خلال الديار وكان وعدا مفعولا «٥» ثم رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال و بنين وجعلناكم أكثر نفيرا «٦» ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا «٧» عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا «٨») وقوله (وان عدتم عدنا) أى ان عدتم بعد عقاب المرّة الأولى الى الافساد عدنا إلى التعذيب والاذلال ، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارى فسلبوا ملكهم الذى أقاموه بعد نجاتهم من السبى البابلى ، وقهروهم واستذلوهم ، ثم جاء الاسلام فعاداه أولئك الأقوام الذين كانوا هربوا من الذلّ والنكال ، ولجئوا الى بلاد العرب فعاشوا فيها أعزاء آمنين .

ثم عاهدهم النبىّ صلى الله عليه وسلم فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم ، فلم يوفوا له بل غدروا به وكادوا له ، ونصروا المشركين عليه ، فسلطه الله عليهم فقاتلهم فنصره عليهم ، فأجلى بعضهم وقتل بعضا ، إلى أن جاء عمر رضى الله عنه فأجلى من بقى منهم .

ثم فتح عمر سورية بعضها بالصلح كبيت المقدس ، و بعضها عنوة ، فانتقل اليهود من سيادة الروم الجائرة الى سلطة الاسلام العادلة ، ولكنهم مع ذلك ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال (إن ربك لسريع العقاب) الأمم التى تفسق عن أمره وتفسد فى الأرض فلا يتخلف عقابه عنها كما يتخلف عن بعض الأفراد (و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا «١٦» [3]) أى أمرناهم بالحقّ والعدل ففسقوا عن أمر الله ، وأفسدوا وظلموا فى الأرض ، فحقّ عليهم القول بمقتضى سنته تعالى فى الخلق فحلّ بهم الهلاك على الفور (وانه لغفور رحيم) لمن تاب بعد الذنب وأصلح ما كان أفسد ، كما قال فى سورة طه (وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى «٨٢») .

وقلما ذكر الله تعالى عذاب الفاسقين المفسدين إلاوقرنه بذكر المغفرة والرحمة للتائبين المحسنين

---

[١] طه . [٢] ترددوا « نفيرا » من ينفر مع الرجل من قومه « يتبروا » يهلكوا .
[٣] الاسراء .

حتى لاييأس صالح مصلح من رحمته بذنب عمله بجهالة ، ولايأمن مفسد من عقابه اغترارا بكرمه وعفوه وهو مصرّ على ذنبه .

ثم بين تعالى كيف بدأ إذلال اليهود بإزالة وحدتهم ، وتمزيق جامعتهم ، فقال (وقطعناهم فى الأرض أمما) فرّقناهم فى الأرض أمما متقطعة ، بعد أن كانوا أمّة متحدة (منهم الصالحون) كالذين نهوا الذين اعتدوا فى السبت عن ظلمهم، والذين كانوا يؤمنون بأنبياء الله تعالى فيهم من بعد موسى الى عهد عيسى عليهم السلام ، والذين آمنوا محمد خاتم النبيين (ومنهم دون ذلك) فلم يبلغوا وصف الصلاح، وهم درجات: منهم الغلاة فى الكفر والفسق كالذين كانوا يقتلون النبيين بغير الحق ، ومنهم السماعون للكذب الأكالون للسحت ، وما إلى ذلك مما هو شأن الأمم الفاسدة (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) .

ابتلى الله سرائرهم واستعدادهم بالنعم التى تحسن ، وتقرّبها الأعين ، وبالنقم التى تسوء صاحبها ، وربما حسنت بالصبر والرضا عواقبها ، رجاء أن يرجعوا عن ذنبهم ، فيعود برحمته وفضله عليهم (فخلف من بعدهم خلف) خلف من بعد أولئك الذين كان فيهم الصالح والطالح والبرّ والفاجر (ورثوا الكتاب) الذى هو التوراة عنهم ، وقامت به الحجة عليهم بوجود الكتاب فى أيديهم بعد سلفهم يقرءونها ويقفون على مافيها من الأوامر والنواهى ، والتحليل والتحريم ، ولا يعملون بها (يأخذون عرض هذا الأدنى) أى يأخذون عرض هذا الشىء الأدنى: أى هذا الحطام الحقير من متاع الدنيا وهوما كانوا يأكلون من السحت والرشا والاتجار بالدين والمحاباة فى الحكم والفتوى (ويقولون سيغفر لنا) فانا شعبه الخاص ، وسلائل أنبيائه ، ونحن أبناؤه وأحباؤه (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) جملة فى موضع الحال : أى يقولون ذلك وهم مصرّون على ذنبهم ان يأتهم عرض آخر مثل الذى أخذوه أوّلا بالباطل لايتعففون عنه .

وانما وعد الله بالمغفرة للتائبين الذين يتركون الذنوب ندما وخوفا من الله تعالى ورجاء فيه ، ويصلحون ما كانوا أفسدوا ، وقيل (يأخذون عرض هذا الأدنى) يأخذون مايعرض لهم من أعمال سلفهم السافلين المنحطين المشار إليهم بقوله (ومنهم دون ذلك) ويتركون أعمال سلفهم الصالحين ، ويقولون سيغفر لنا ، والحال أنهم مصرّون على الاجرام كما يفيده قوله (وان يأتهم عرض مثله يأخذوه) والأوّل أظهر .

وقد ردّ الله عليهم زعمهم أن الله سيغفر لهم أولئك الذنوب مع إصرارهم عليها فى قوله (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لايقولوا على الله إلا الحقّ ودرسوا مافيه) وهو يرينا أن سيئات أولئك الأقوام كانت فى تحريف الكتاب والمحاباة بأحكام الله تعالى فى التحليل والتحريم فى نظير مايحصلون عليه من مال أوجاه لدى الحكام وولاة الأمور كقوله (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدّوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون «٩» [1]) وقوله (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولاتكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس مايشترون «١٨٧» [2]) .

---

[١] التوبة . [٢] آل عمران .

وقد سرى كثير من ذلك الفساد إلى رجال الدين من المسلمين الذين ورثوا الكتاب الكريم والقرآن الحكيم ودرسوا مافيه ، غلب على أكثرهم الطمع فى حطام الدنيا القليل وعرضها الدنىء والغرور بالنسبة إلى الاسلام والتحلى بلقبه ، والتعلل بأمانىّ المغفرة مع الاصرار على الذنب ، والاتكال على المكفرات والشفاعات، وهم يقرءون مافى الكتاب من النهى عن الأمانىّ والأوهام ، ومن نوط الجزاء بالأعمال ، والمغفرة بالتوبة والاصلاح ، وكون الشفاعة لاتقع إلا باذن الله لمن رضى عنه كقوله (ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون «٢٨»[1]) ولن يرضى الله عن فاسق ولاعن منافق (فان ترضوا عنهم فان الله لايرضى عن القوم الفاسقين «٩٦» [2]) .

وما قصّ الله علينا مثل هذه الآيات من أخبار بنى إسرائيل إلا لنعتبر بأحوالهم ، ونتقى الذنوب التى أخذهم بها ، ولكننا مع ذلك كله اتبعنا سننهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، ونحمد الله إن لم يكن ذلك الاتباع فينا عامّا ، ولا يزال فينا طائفة ظاهرة على الحق إلى أن يأتى أمر الله . نسأل الله أن يجعلنا منها ، و يعصمنا من الفتنة فى ديننا ، و يجعل الحق رائدنا ، والاخلاص حليفنا .

ثم قال (والدار الآخرة خير) من ذلك العرض الخسيس (للذين يتقون) الرشا ومحارم الله (أفلا تعقلون) قيمة ذلك الوعظ ؟ .

ثم أراد أن ينبه إلى أن المستمسكين بالكتاب وأقاموا الصلاة التى أوجبها الله عليهم [وخصها للاشارة إلى علوّ مكانها من الدّين] لايضيع الله تعالى أجرهم ، وعلل ذلك بقوله (إنا لا نضيع أجر المصلحين) وهو دليل لما قبله ، ومثله قوله تعالى (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا « ٣٠ » [3]) .

(٧) (و إذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم) أى واذكر أيها الرسول النبىّ الأمىّ إذ نتقنا فوق هؤلاء الجبل: جبل الطور : أى رفعناه كما عبر به فى الآيات الأخرى وهو المروى عن ابن عباس ، أو زلزلناه وهو مرفوع فوقهم مظلّ لهم ، كما يقال نتق السقاء : إذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبدة .

قال الجمهور : إنه اقتلعه وجعله فوقهم [فان قيل] : لو كان كذلك لكان ظلة بالفعل لا كالظلة فان الظلة : كلّ ما أظلك من فوقك ، و يصدق رفع الجبل فوقهم كالظلة بوجودهم فى سفحه ، واستظلالهم به .

قلنا : إنه وان صحّ هذا التأويل فان رفع الجبل على الوجه الأوّل انما كان لاخافتهم لا لاظلالهم ، وأما ظنهم أنه واقع بهم فانما جاء من زلزلته واضطرابه ، على أن الله تعالى قادر على قلعه وجعله فوقهم .

وكم رأوا من آياته ماهو أدلّ على قدرته تعالى من ذلك (خذوا ما آتيناكم بقوة) أى قلنا لهم فى تلك الحالة : خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بقوّة عزيمة ، وعزم على احتمال مشاقه (واذكروا مافيه لعلكم تتقون) اذكروا مافيه من الأحكام أوامرها ونواهيها ، أو اعملوا به لئلا تنسوه ، فان ذلك يعدّكم للتقوى ، و يجعلها مرجوّة لكم ، فان الجدّ وقوّة العزم فى إقامة الدّين

---

[١] الأنبياء . [٢] التوبة . [٣] الكهف .

يهذّب النفس و يزكيها ، والتهاون والانغماص فيـه يدسيها و يغويها (قد أفلح من زكاها « ٩ » وقد خاب من دساها « ١٠ » [1]) .

وقد اعترض بعضهم رفع الجبل بأنه إكراه على الايمان و إلجاء اليه ، وذلك ينافى التكليف قال الأستاذ الامام فى ردّه على ذلك القائل : لاحاجة لنا فى فهم كتاب الله إلى غير ما يدلّ عليـه بأسلوبه الفصيح ، فهو لا يحتاج فى فهمه إلى إضافات ولا ملحقات .

وقد ذكرنا مسألة رفع الطور فوق بنى إسرائيل ، ولم يقل : إنه أراد بذلك الاكراه على الايمان ، وانما حكى عنهم فى آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم ، فقد قال تعالى فى سورة الأعراف (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوّة واذكروا مافيه لعلكم تتقون) والنتق : الزعزعة والهزّ والجذب والنفض ، ونتق الشيء ينتقه و ينتقه ، من بابى ضرب ونصر ، نتقا : جذبه واقتلعه ، وقد يكون ذلك فى الآية بضرب من الزلزال كما يدلّ عليـه التعبير بالنتق ، وهو فى الأصل بمعنى الزعزعة والنفض .

والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الايمان وعاهدوا موسى عليـه ، فرفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التى رأوها بعد أخذ الميثاق كان لأجل أخذ ما أوتوه من الكتاب بقوّة واجتهاد لأن رؤية الآيات تقوّى الايمان ، وتحرّك الشعور والوجدان ، ولذلك خاطبهم عند رؤية هذه الآية بقوله (خذوا ما آتيناكم بقوّة) أى تمسكوا به ، واعملوا بجدّ ونشاط لا يلابس نفوسكم فيـه ضعف ، ولا يصحبها وهن ولا وهم .

ثم قال (واذكروا ما فيه) بالمحافظة على العمل به ، فان العمل هو الذى يجعل العلم راسخا فى النفس مستقرّا عنـدها ، و يؤثر عن أمير المؤمنين علىّ كرّم الله وجهه أنه قال « يهتف العلم بالعمل فان أجابه و إلا ارتحل » : انظر تفسير آية « ٦٤ » من سورة البقرة .

موسى عليـــه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ «٧٥» فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ «٧٦» قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّٰحِرُونَ «٧٧» قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا [2] عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِى الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ «٧٨» وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ «٧٩» فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ

---

[١] الشمس . [٢] تصرفنا ، واللفت والفتل أخوان .

مُلْقُونَ «٨٠» فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ «٨١» وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ «٨٢» فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ [1] فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ «٨٣» وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ «٨٤» فَقَالُوا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً [2] لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ «٨٥» وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ «٨٦» وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا [3] لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً [4] وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ «٨٧» وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ [5] عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ [6] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ «٨٨» قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ «٨٩» وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا [7] وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ «٩٠» ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ «٩١» فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ «٩٢» يونس

---

[١] غالب قاهر . [٢] موضع فتنة : أي عذاب لهم يفتنوننا به عن ديننا ، أو فاتنين لهم، يقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصيبوا . [٣] من تبوأ المكان : اتخذه مباءة كتوطنه : اتخذه وطنا .

[٤] مسجداً . [٥] أزل أثرها ، والانتفاع بها . [٦] استوثق منها حتى لايدخلها الإيمان .

[٧] طلب الاستعلاء من غير حق ، وعدواً : ظلماً .

شرح وعـــبرة

(١) (ثم بعثنا من بعدهم موسى) إلى آخر الآيات .

يرينا الله تعالى أنه بعث بعد رسله السابقين فى الآيات السالفة الذكر (موسى وهرون إلى فرعون وملائه) مؤيدين بآيات الله تعالى ودلائل قدرته (فاستكبروا) عن قبولها ، وتعاظموا على الاذعان لها (وكانوا قوما) دأبهم الاجرام ، وعادتهم الافساد فى الأرض ، وأنهم لما جاءهم الحق من عند الله تعالى (قالوا إن هذا لسحرمبين) وقد سبق الكلام على شرح السحر وأقسامه فى سورة الأعراف عند الكلام على قصة موسى عليه السلام .

والعجيب من أولئك الأقوام أن يقطعوا بأن ما جاء به موسى سحر ، وأنه سحر واضح بين لا يشك فيه أحد ، فيقول لهم نبىّ الله موسى قول المتعجب (أتقولون للحقّ لما جاءكم) وحذف المقول لأنه معلوم ، وكأنه استعظم أن ينطق به ولو على وجه الحكاية لقولهم ، فهو ينكر عليهم أن يقولوا فى شأن الحق الذى جاء به ما قالوا ثم قال (أسحر هذا) أى هذا الذى جئت به عن الله تعالى سحر ؟ (ولا يفلح الساحرون) من كلام نبىّ الله موسى أيضا : أى أيمكن أن يكون ماجئت به عن الله سحرا مع أن الساحر لايفلح كما قال موسى للسحرة (ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين) فاذا كان منهم بعد إنكار نبىّ الله موسى عليهم أن ما جاء به سحر ؟ كان منهم أن رجعوا الى الآباء فتمسحوا بتقاليدهم ، واعتصموا بسلفهم الطالح فى التمسك بآثارهم (قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) يريدون أن عملك هـذا من العبث ، ومحاولة باطلة ، فان ديننا هذا قد وجدنا عليه الآباء ، وورثناه عن السلف ، فلا يمكن أن نحيد عنه وهى حجة لا نسمعها إلا من قوم قد أعوزتهم الحجة ، فرجعوا إلى الآباء يتمسحون بهـم ، والى من تقدمهم فى ذلك العمل يعوّلون على قيادتهم ، ولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون .

ثم أضافوا إلى ذلك قولهم (وتكون لكما الكبرياء فى الأرض) يخشون من نبىّ الله موسى وأخيه هرون عليهما السلام أن تكون دعوتهما دعوة إلى الملك لا دعوة إلى الرسالة ، فيضيع الملك على فرعون وملائه ممن يدرّ عليهم الملك المال الجمّ والخير الكثير .

وهـذه الكلمة من ملأ فرعون هى إذكاء لشعور الملك وأبهة السلطان ، وتأريث للعداوة والبغضاء لموسى وصاحبه ، لأنه يحاول بعمله هـذا أن يسلب فرعون ملكه ، ويقضى على نفوذه وعظمته ، وهى دسيسة خبيثة دنيئة ألفناها من بطانات الملوك والأمراء ، وتعوّدناها من حواشى السوء ، إذا كرهوا رجلا دسوا عليه تلك الدسيسة ، واتهموه بتلك التهمة ، لأنهم يعلمون أن الملوك لا تتأثر بشىء تأثرها بما يمس ملكها ، ويتعلق بسلطانها ، فاذا لقنوهم تلك الكلمة فانهم لايناقشونهم فيها ، ولا يطلبون عليها دليلا ولا شبه دليل من ذلك المبلغ الدساس ، وهى طبيعة من طبائع الملك ، وخلق من أخلاقه ، لا تخصّ رجلا دون آخر ، ولا تتعلق بجيل دون جيل .

وقد يعلم ملأ فرعون أن موسى عليه السلام وأخاه هرون لايريدان ملكا ، وإنما يريدان إصلاحا فى الأرض وإنقاذا لبنى إسرائيل من بطش فرعون وظلمه ، ولكن بطانات السوء تأبى إلا أن تظهر المصلح بتلك الصورة التى من شأنها أن يطير لها لبّ فرعون ومن على شاكلته من

الظالمة والمستبدين ، ولذلك لجئوا إلى تلك الدسيسة : دسيسة أنهما يريدان ملكا ، ولا يريدان رسالة .

ويحتمل أن يكون ذلك القول من ملأ فرعون شعورا منهم بأن موسى وهرون إذا نجحا فى دعوتهما انتهت إليهما العظمة ، وذهب فرعون وسلطان فرعون ، لأن عظمته أساسها الباطل ، أما عظمة موسى وأخيه هرون فأساسها الحق و بقاء الصالح ، فالعاقبة لعظمة موسى وأخيه ، و بذلك يصبح فرعون وملأ فرعون أفرادا عاديين لايؤبه لهم ، ولا يقام لهم وزن ، بل ينظر لهم نظر الانسان للشىء البغيض الممقوت .

إذا كان ذلك هو ما يخفيه بطانة فرعون كان ذلك اعترافا منهم من قرارة نفوسهم بأن موسى وأخاه على حق ، وأن فرعون وملأه على باطل ، وأن العاقبة ستكون لموسى وأخيه ، والهلاك لفرعون ومن معه ، ثم الأسلوب مع ذلك أسلوب تحريض على موسى وأخيه ، و إيهام الناس أنهم طلاب شهرة وكبرياء ، لاطلاب حق ورسالة ، ومهما يكن من شىء فانها أساليب شيطانية أساسها الشهوة والوقيعة، فان فرعون متى وقر فى نفسه أن موسى وهرون ستنتهى دعوتهما للناس بالقضاء على ملكه ، أوصرف الناس عنه وتركه كالشىء اللقا المنبوذ، متى وقر فى قلبه ذلك فانه لا يألوجهدا فى محاربة موسى ودعوته والتنكيل به فى سبيل اعتزازه بملكه وحرصه على سلطانه وأبهته ، ثم عقبا على ذلك بقولهم (وما نحن لكما بمؤمنين) مصدقين فيما جئتمابه .

(٢) (وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم) الخ .

يرينا أن فرعون لما اضطرب أمره وخاف على نفسه من موسى وهرون، قال لملائه: ائتونى بكل ساحر عليم بالسحر ، ليتغلب بهم على موسى ، وأنهم لما جاءوا (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ، فلما ألقوا قال) لهم (موسى) إن (ما جئتم به السحر إن الله سيبطله) بالمعجزة والدليل الواضح (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) .

وقد فصل الله ذلك فى سورة الأعراف وطه ، والجديد فى القصة قول موسى عليه السلام (إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين) وهو وعد من نبى الله قد بناه على الثقة بخبر الله تعالى ، ثم علل ذلك بقوله (إن الله لايصلح عمل المفسدين) وهى قاعدة من قواعد الاجتماع وسنة من سنن الله فى الخلق ، إنه لايصلح عمل مفسد ، لا يثبته ولا يديمه ، بل يسلط عليه الدمار والهلاك ، وهوكقوله (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض «١٧» [1])

ومن آيات الله تعالى فى المفسدين أن لا يوفقهم لخير ، ولا يعينهم على حق ، واذا دبروا أمرا فى سبيل الشيطان والهوى لابد أن يغفلوا عن مواطن ضعف فى ذلك التدبير ، تقضى على تدبيرهم وتذهب بباطلهم من حيث لايشعرون .

واضرب لهم مثلا المزوّر الذى يلجأ الى وثيقة فيزوّرها على رجل من الناس ، أو إلى شهادة فيلفقها على برىء ليلصق به جريمة من الجرائم ، تكفل الله ووعد بأن ذلك المزوّر لا يصلح الله عمله ، ولايتم له تدبيره ، ولابد أن يغفل عن ناحية من النواحى يكون فيها هلاكه والقضاء عليه ، واذا شئت أن تعرف كيف لا يصلح الله عمل مفسد ، فارجع الى الخبراء الذين لهم دين وذمة كيف يكشفون ما يعمله المزوّرون ، و يفضحون ما يدبر المفسدون .

---

[١] الرعد .

ثم ارجع إلى القضايا الجنائية التى تقام على حساب شهود مسترزقين ، وأفراد فاسدين ، يحاولون أن يوقعوا بشهاداتهم الأبرياء ، ارجع إلى هذه القضايا وما أكثرها فى أيام المحن والشدائد واضطراب السياسة العامة لتعرف كيف يكشف رجال المحاماة المؤامرات التى تدبر للأبرياء ، وكيف يحبطون ما يحاك خيوطه للمساكين .

ولو فرض أن مفسدا نجح فى عمله ، أو أن مزوّرا قضى له بتزويره ، فليس ذلك لأن الله أصلح عمله ، بل لأنه لم يجد من المهرة ما يكشف تدبيره ، ويفضح عمله فغلب باطله على حق غيره ، لأن الحق لم يجد ناصرا ، والباطل لم يجد خاذلا ، كلّ ذلك مصداق لتلك الآية الكريمة ، وتحقيق لذلك الوعد الالهى (إن الله لا يصلح عمل المفسدين) وهى آية عجيبة من آيات الله تعالى فى الفرق بين المصلح والمفسد .

نرى المصلح دائما موفقا للخير ، واذا عرض له مانع لم يكن فى حسبانه أعانه الله على تذليله ، وأزال من طريقه العقبات ، وألهمه كيف يسير ، وإذا أخطأ مرّة استفاد من خطئه كما يستفيد من صوابه .

أما المفسد فان الله تعالى لايدعه ليتمّ عمله ، ولا ليؤدّيه على الوجه الكامل ، بل لابدّ أن يترك فيه من النقص مايقضى على ذلك العمل ، ويوجد فى سبيله من العقبات والعراقيل ما لاقبل له به ، ولا يترك ذلك الباطل ليبقى ويثمر لأنه غير صالح للبقاء .

والعبرة فى الآية الكريمة التأسى بالله تعالى والتخلق بخلقه ، فى أنه لم يترك السحر ليفتن به الناس ، بل أبطله بالمعجزة ليرينا إذا نحن رأينا باطلا كيف لا نتركه ليبقى ويفتن الناس به ، بل نقضى عليه بالحق ونكشف أمره للجماهير .

فاذا رأينا رجلا مشعوذا يؤثر على بسطاء العقول بما يريهم من أساليب الشعوذة ، ويحاول أن يريهم أنه يملك لهم من أمر الله مالا يملك أحد من خلقه كعلمه بالغيب ، أو تحويله قلوب العباد من محبة إلى بغض ومن بغض إلى محبة ، إذا رأينا رجلا ذلك حاله فلا ينبغى أن نسكت عليه ، بل يجب أن نكشف باطله للناس حتى لايخدعوا به ولا بباطله .

ثم قال نبىّ الله موسى (ويحقّ الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) أى يثبت الله الحق بأوامره تعالى وقضاياه التى قضى فيها بذلك ، أو بكلماته التى أنزلها على رسله (ولو كره المجرمون) ذلك ، فهو لايبالى بكراهتهم ، ولا يهتمّ لأمرهم ، وانما يعنى بأمره هو وإمضاء سنته .

والعبرة فى ذلك أن نعمل على إحقاق الحق وإبطال الباطل ، ولا نرعى عاطفة أحد ولا أهواء فريق من الناس ، فاذا كره فريق من الناس أن نجهر بالحق أو نذيعه بين الجماهير فلا نعمل حسابا لكراهته ولا نقيم وزنا لارادته ، لأنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

(٣) (فما آمن لموسى إلا ذرّية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم) أى فلم يؤمن بموسى بعد ذلك الجهد إلا طائفة من أولاد قومه ، وهو يرينا أن الشأن فى الآباء أن تكون متعاصية على الدّعوة ، حريصة على التقاليد ، قد شاخت منها العقول ، وألفت طريقة خاصة فى تدينها ، فمن الصعب عليها الرجوع عن ذلك الالف وتلك التقاليد .

وإذا شئت أن تعرف كيف يكون خروج الشيوخ عن مألوفها صعبا فانظر الى رجل ألف كيفا من الكيوف من صغره ، وامتزج بلحمه ودمه ، ومضى على ذلك الحال زمنا طويلا ، ثم حاولت أن تحول بينه وبين ذلك الكيف ، فانك تجد من أعصابه وعادته المستحكمة ما يحول بينك وبين محاربة ما ألف ، ويندر من الشيوخ من يقلعون عن عادة ألفوها من الصغر ، وتعوّدوها منذ زمن بعيد ، وكذلك الحال فى كلّ مألوف ، فاذا ألف الناس دينا تقليديا ورثوه عن الآباء ، وأخذوه بمقتضى العادة بدون بحث ولا تمحيص ، ثم حاولت أن تزحزحهم عن ذلك الدين ، وتحملهم على البحث كنت قد كلفتهم غير مألوفهم ، وغير عادتهم ، وقليل من هؤلاء من يستمع لدليل أو ينصاع لحجة أو برهان ، ولابدّ أن يكون ذلك الصنف من الشيوخ الذين ينتقصون على عاداتهم ، ويثورون على إلفهم وعادتهم ، ويأخذون فى تمحيص آرائهم ومذاهبهم ، ووضعها تحت مشرط النقد ، وجعلها خاضعة لكل ما تخضع له الآراء من حقّ أو باطل — لابدّ أن يكون ذلك الصنف من الشيوخ قد ظهرت نفسه ، وقويت ارادته ، وعلت همته حتى لاتحتكم فيه العادة ، ولايتأثر بما ألفه سنين عدّة ، كأبى بكر رضى الله عنه الذى كان أوّل شيخ قبل دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان صدّيقه الأكبر ، ولعلنا نلمح من ذلك السرّ فى أن مشيخة قريش كانت تحارب رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب العوان ، وتدبر له المكائد ، كأبى جهل عمرو ابن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى ، وأبى لهب بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان أشدّ عليه من الأباعد ، وعقبة بن أبى معيط الجار الثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكعب بن الأشرف وغيرهم ممن قتل فى غزوة بدر وأحد والخندق ، وغيرهم من صناديد قريش .

أما الشباب الذى لم يتأثر بأولئك العادات ولم تألف نفسه طريقا خاصة فى التدين والتمذهب ، فانه مستعدّ لمناصرة الجديد من الآراء أكثر من مناصرة الشيوخ ، وقلّ أن نجد جمودا فى شاب ، كما يقلّ أن نجد مرونة فى شيخ ، ونجد ذلك واضحا جليا فى الجمعيات الخيرية ، والنزعات الوطنية والقومية ، تجد الجمعيات لاتقوم إلا على الشباب ، والأعمال الحرّة لا تسير إلا بالشباب ، وحرارة الوطنية تجدها أظهر ما تكون فى الشباب .

وتجد الشابّ مستعدّا للتأثر بروح الجماعة فوق استعداد الشيخ ، بل قد يكون ضعفه فى ذلك التأثر ، فاذا رأى جماعة فى مظاهرة من المظاهرات رأيته يندفع إليها بدون شعور ولا تفكير ، وتجده أسرع ما يكون الى أولئك القوم وان لم يفهم دعوتهم أو يتدبر غايتهم ، ذلك أن حرارة الشباب فيه تدفعه الى أمثال ذلك العمل ، ولو حاول أن يمنع نفسه منه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وسببه استعداده وطبيعته ، وما كان طريقه طبيع الانسان ، واستعداده لا يمكن أن يقاوم بحال من الأحوال ، ولذلك تجد المحاكمات فى القضايا السياسية قائمة على الشبان دون الشيوخ ، وعناصر المظاهرات والاجتماعات الشبان ، والناصرين لأرباب المبادئ المدافعين عنهم الشبان .

لذلك كان المؤمن من بنى اسرائيل إذعانا لمبادى موسى عليه السلام (ذرية من قومه) لاشيوخ معمرون ، لأن الشأن فى الشيوخ أن يكون إيمانها بعد إيمان الشبان ، وأكثر ما يكون فيها الايمان نفاقا وتقية .

وانظر الى قوله (على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) لتعلم أن أولئك الذرية التى آمنت بموسى قد آمنت به وسيف فرعون مسلول على من يؤمن ، وأحكامه العرفية مشهورة ، وايمان فى ذلك الظرف العصيب هو إيمان لايعبأ صاحبه بتهديد ، ولايعمل حسابا لوعيد ، هو إيمان الواثق بالله المطمئن لوعده ووعيده . وما أشبه ذلك الايمان الذى وقع من الذرية بايمان السحرة الذين دعاهم فرعون لمناصرته فخذلوه ، وطالبهم بأن يكون فى صفه فعادوه ، فهددهم بالحديد والنار ، وقال لهم (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى «٧١» قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا «٧٢» [1]) ايمان وصل إلى القلب فلم تؤثر عليه المؤثرات ، وتمكن من النفس فلم ينفع معه وعيد ولاتهديد ، وهكذا العقائد متى تمكنت لايقف شيء أمامها ، والعزائم متى صحت تغلبت على كل قوة فى هذه الحياة . لأنها من قوة الحق ، وقوة الحق لايقوى عليها شيء .

ثم أراد أن يصور لنا جبروت فرعون ، وفضل المؤمنين بموسى فى ظل هذه الأحكام فقال (وان فرعون لعال فى الأرض وانه لمن المسرفين) ليرينا أن فرعون كان متغلبا على بنى اسرائيل قاهرا لهم فى الأرض لايستطيعون مقاومته ، وانه من المسرفين فى الظلم المتجاوزين للحدود فى الاستبداد بالناس .

(٤) (وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) .

قال موسى حين رأى خوف قومه من فرعون و بطشه بهم : يا قوم ان كنتم آمنتم بالله وصدقتم بوعده ووعيده فكلوا أموركم إليه وحده وأسندوها فى العصمة من فرعون إليه لا الى غيره ، فهو الذى يحميكم من كيده و ينقذكم من بطشه ، وقوله (ان كنتم مسلمين) أى مستسلمين لقضاء الله منقادين له فافعلوا ذلك ، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين ، فان المعلق بالايمان وجوب التوكل عليه تعالى فانه المقتضى له . والمعلق بالاسلام وجوده . فان التوكل لايتحقق بدونه .

ونظيره ان أحسن إليك زيد فأحسن إليه ان قدرت عليه ، فان الاحسان شرط فى وجوب الاحسان ، أما القدرة فهى شرط فى الوجود ، ولاغنى لموسى عليه السلام عن أن يربط قلوب قومه بربه ، و يصل بينها و بينه فى مثل هذه الظروف العصيبة ، لأن صلتها بخالقها تكسبها قوة وتثبتها على الحق ، وتجعلها تستهين بكل ماينالها من أنواع الايذاء ، وتشق لها طريقا للخلاص من كيد فرعون . وكذلك يجب على المؤمنين إذا نابهم أمر فى سبيل الحق وحل بهم مكروه ، أن يرجعوا الى ربهم و ينيبوا الى خالقهم و بارئهم ، فيطلبون منه المعونة على خصمهم وتوفيقهم للخلاص منه (فقالوا على الله توكلنا) لأن القوم كانوا مخلصين (ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) دعاء منهم أن لايفتن بهم فرعون وقومه ، لأنك لو سلطتهم علينا لوقع فى قلوبهم أنا لوكنا على الحق لما سلطتهم علينا ، فيصير ذلك شبهة فى اصرارهم على

---

[1] طه .

الكفر ، أولاتجعلنا مفتونين بهم فننصرف عن الدين الحق الذى قبلناه ، كما قال (على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) .

ثم طلبوا من الله تعالى أن ينجيهم برحمته منهم ، وقدأجاب الله دعاءهم ، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه ، وجعلهم خلفاء فى أرضه (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوّآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة و بشر المؤمنين) .

أوحى الله إلى موسى وأخيه أن يتخذوا بمصر بيوتالهم مباءة ومرجعا لقومهم يرجعون إليها فى العبادة والسكنى، و يستوطنونها ، وأن يجعلوا بيوتهم مساجد متوجهة نحو القبلة ، قيل انهم أمروا بجعل بيوتهم مساجد خيفة من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم و يفتنوهم عن دينهم كما كان المسلمون على ذلك الحال فى أوّل أمرهم ، وقيل أمروا بذلك لما أمر فرعون بتخريب مساجد بنى اسرائيل ومنعهم من الصلاة ، وقيل ان المراد من قوله (قبلة) أن تكون متقابلة فى مكان واحد حتى يعتضد المؤمنون بعضهم ببعض، و يتعاونوا على الحق الذى أمرهم الله تعالى به، و يسلى بعضهم بعضا على الشدائد التى تنوبهم (وأقيموا الصلاة) لتذكروا بها سلطان ربكم عليكم ورحمته بكم ، و ثبتوا باقامة ذلك الركن على يقينكم و إيمانكم ، (إن الانسان خلق هلوعا «١٩» إذا مسه الشرّ جزوعا «٢٠» و إذا مسه الخير منوعا «٢١» إلا المصلين «٢٢» الذين هم على صلاتهم دائمون «٢٣» [1]) .

ثم قال (و بشر المؤمنين) وترك المبشر به لتذهب نفسهم كلّ مذهب فيما يبشرون به، والمراد بشرهم بأن العاقبة لهم و برضوان الله ورحمته بهم .

(ه) (وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا) الخ، ذلك مظهر آخر من مظاهر جبروت فرعون يتجلى فى دعاء نبىّ الله موسى عليه السلام بعد دعاء قومه ، ليرينا كيف يرجع المكروب إلى ربه، و ينيب المضطر إلى خالقه ، فيقول موسى مخاطبا لربه : ربنا انك أعطيت فرعون وملأه فرعون زينة ، وهى مايتحلى به من لباس أوحلىّ أو فرش أو أثاث أوغير ذلك من زينة الحياة ، وأعطيته أموالا يتمتع بها فى هذه الحياة ، وقوله (ربنا ليضلوا عن سبيلك) .

قيل هو دعاء بلفظ الأمر كقوله (ربنا اطمس ، واشدد) وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله عرضا مكررا ، وردّد عليهم النصائح زمنا طويلا ، وحذرهم عذاب الله وانتقامه ، ورآهم لايزيدون على عرض الآيات إلا كفرا ، وعلى النصيحة إلا نبوّا ، ولم يبق فيهم مطمع له ، وعلم بالتجربة أنه لايجىء منهم الا الغىّ والضلال ، وأن إيمانهم كالمحال الذى لايدخل تحت الصحة ـ أوعلم ذلك بوحى من الله تعالى ـ اشتدّ غضبه عليهم ، وأفرط مقته وكراهته لحالهم ، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره ، كما تقول:لعن الله ابليس وأخزى الله الكفرة ، مع علمك بأنه لا يكون غير ذلك وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة ، وأنهم لايستأهلون إلا أن يخذلوا ، كأنه قال ليثبتوا على ماهم عليه من الضلال ، وليكونوا ضلالا ، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا ، وماعلىّ منهم ،

---

[١] المعارج .

هم أحقّ بذلك وأجدر ، وهو يشبه دعاء نبيّ الله نوح على قومه إذ يقول (ولاتزد الظالمين إلا ضلالا « ٢٤ » [1]) وهو دعاء يتفق وسنة الله تعالى فى الخلق ، فكان دعاء موسى عليه السلام على ملأ فرعون من ذلك القبيل .

وقيل اللام فى قوله (ليضلوا) للتعليل والمراد أن الله تعالى أعطاهم الزينة والأموال فى هذه الحياة مع كفرهم ليستدرجهم بها كما قال (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون «١٨٢» وأملى لهم ان كيدى متين «١٨٣» [2]) .

والمراد أن الله تعالى يمهل هؤلاء المكذبين و يمدّ لهم فى أسباب المعيشة كيدا لهم ومكرا بهم لاحبا فيهم ونصرا لهم كما قال (فذرهم فى غمرتهم حتى حين « ٥٤ » أيحسبون أنما نمدهم به من مال و بنين «٥٥» نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون «٥٦» [3]) .

ونظيره ماورد فى حديث الشيخين من حديث أبى موسى « ان الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

وقيل اللام للعاقبة والصيرورة ، والمراد أن الله تعالى أعطاهم تلك الزينة وذلك المال لتكون عاقبة أمرها أن يشكروه بها فكان عاقبة أمرهم أن بدلوا نعمته كفرا ، وشكره جحودا .

ونظيره قول الله تعالى فى شأن موسى وهو صغير (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا «٨» [4]) لم تكن هذه غاية لآل فرعون من التقاطه ، و إنما التقطوه للتبنى ورجاء النفع ، كما قال (وقالت امرأة فرعون قرّة عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون «٩» [5]) ولكن كانت عاقبة التقاطهم أن صار عدوّا لهم ، يبدد ملكهم ، و يقضى على سلطانهم ، وكذلك الحال فى المال الذى متع الله به فرعون وقومه ، أعطاه لهم ليشكروه فجعلوا عاقبة أمره أن كفروه وحاربوه ، وهو تحسر من موسى على أولئك الأقوام الذين صنعوا بنعم الله عليهم ماصنعوا .

(ربنا اطمس على أموالهم) دعاء من موسى عليه السلام أن يطمس على أموال فرعون وملئه ، والطمس : المحو وازالة الأثر .

يطلب موسى من ربه أن يطمس على أموال آل فرعون حتى لاينتفعوا بها فى هذه الحياة ، وحتى لايستعلوا بها على الناس ، لأن المال زينة لهذه الحياة وقوّة لصاحبه يربط الناس به و يجمعهم حوله ، والطمس على الأموال يصدق بإهلاكها : كما يصدق بالحيلولة بينهم و بينها ، فيضلهم عن معادنها ومآخذها ، أو عن طريق تحويلها الى عملة ينتفع الناس بها ، و يصدق على حرمانهم منها كما حرم قدماء المصريين من ثروتهم التى أودعوها جوف الأرض لأمر ما . ثم انتفع بها غيرهم ممن بعدهم .

ونرى كثيرا من أثرياء الناس قد طمس الله على أموالهم ، وحال بينهم و بين الانتفاع بتلك الأموال ، لشحهم بها على المصالح ، و بخلهم بها على الفقراء ، فتراهم فى غناهم فقراء ، وفى عزهم بالمال أذلاء ، وتجدهم بذلك المال معذّبين ، يواصلون الليل بالنهار فى جمعه ، تطير قلوبهم لضياع

---

[١] نوح . [٢] الأعراف . [٣] المؤمنون . [٤و٥] القصص .

شيء منه كما قال (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذّبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون «٨٥» [1]) .

أولئك إذا عاشوا عاشوا عيشة الفقراء ، و إذا ماتوا ماتوا ميتة الأذلاء ، يعيشون حرّاسا على المال ، محرومين من النعيم ، فهل يشك أحد فى أن ذلك الفريق من الناس قد طمس الله على أموالهم ، فلم يكن لها أثر فى الحياة يذكر ، لافى دور العلم ، ولافى دور الصناعة ، ولا فى معاهد الدين ، ولا فى ملاجئ أصحاب العاهات والمعوذين ، وأىّ فرقة بين هؤلاء و بين من سلط على أموالهم الشهوات فبعثرتها ، والأهواء ففرّقتها ، وصرفها أصحابها فى محاربة الله تعالى ونشر الفساد فى الأرض .

نعم هناك فرق بين موقف البخلاء من مالهم وموقف الأشحاء ، ذلك الفرق أن البخلاء كنزوه فلم يصرفوه ، وقد يبذله من بعدهم فى وجوه الخير .

أما أرباب الشهوات فبذلوه فيما يغضب ربهم ، و يهدم صحتهم وكيانهم ، و يعود على نفوسهم بالتدسية والشرّ ، فهم شرّ من البخلاء ، لأن موقفهم من الشرّ إيجابى ، أما البخلاء فموقفهم من المال سلبى ، وكلّ من الفريقين مصداق لدعوة موسى عليه السلام ، قد طمس الله على ماله وحال بينه و بين الانتفاع به ، إما بامساكه واما ببذله فى وجوه الشرّ .

(واشدد على قلوبهم) اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لاتنشرح للايمان (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) جواب للدّعاء الذى هو (اشدد) أودعاء بلفظ النهى (حتى يروا العذاب الأليم) يعاينوه و يوقنوا به بحيث لاينفعهم الايمان إذ ذاك ، لأنه إيمان إلجاء واكراه ، لاإيمان عن رغبة واختيار .

(قال قد أجيبت دعوتكما) دعوة موسى وهارون ، وقد أضاف الدعوة إليهما مع أن الدّاعى موسى عليه السلام ، لأن هارون شريكه فى الرسالة ، ووزيره فى الدعوة الى الله تعالى ، فدعوة أحدهما دعوة من الآخر .

وفيه دليل على اجابة دعوة المضطر والمظلوم ، و بيان عاقبة الظلم والفساد ، ودليل على بطلان قول من يقول: ان الدعاء لاينفع الدّاعى، والآية نص فى اجابة الدعاء عما طلبه موسى عليه السلام، وهو نظير قول الله تعالى لموسى عليه السلام فى سورة طه (قد أوتيت سؤلك يا موسى «٣٦») .

بعد أن طلب من ربه أن يشرح له صدره ، و ييسر له أمره ويحلّ عقدة من لسانه ، و يجعل له أخاه هارون وزيرا له يعاونه فى الدعوة .

ولا أدرى ماذا يقول المنكرون لاجابة الدعاء بنفس ماسأل السائل فى مثل ذلك النصّ القاطع ؟

(فاستقيما) اثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزام الحجة فقد لبث نوح عليه السلام فى قومه ألف عام إلا قليلا (ولا تتبعانّ سبيل الذين لايعلمون) أى طريق الجهلة بعادة الله تعالى فى تعليق الأمور بالمصالح كما قال لنوح عليه السلام (انى أعظك أن تكون من الجاهلين «٤٦» [2]) .

(٦) (وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا) تخطينا ببنى اسرائيل

---

[١] التوبة . [٢] هود .

البحر وقد نسب الله التخطى إلى نفسه ليعلم أنه من عمل الله تعالى لا من عمل موسى عليه السلام ، وقد شرح الله ذلك التخطى فى سورة طه فقال (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولا تخشى «٧٧» فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم «٧٨» وأضل فرعون قومه وماهدى «٧٩») فكانت مجاوزة البحر ببنى اسرائيل بوحى من الله وأمر منه كما كان فرق البحر حتى صار فيه طريق يبس لاماء فيه بتدبيره وارادته ، وهى آية كبرى من آيات الله مع نبيه موسى ، وقوله (فأتبعهم فرعون بجنوده) كأن فرعون لم يرض لبنى إسرائيل أن يتركوا له المكان الذى هو فيه ويفرّوا بدينهم إلى جهة أخرى وقضى عليه جبروته أن يتبعهم هو وجنوده ليحولوا بينهم و بين الهجرة ، ويجازوهم على ذلك الفرار ، وذلك منتهى القسوة ، وامعان فى الظلم ، وكان يكفيهم لوكانوا مقتصدين فى الظلم أن يدعوا بنى اسرائيل ليذهبوا حيث شاءوا و يتركوا لهم وطنهم ، ولكنّ الجبروت قضى عليهم أن يحاربوهم حتى فى طريق الفرار منهم ، ولذلك عقبه بقوله (بغيا وعدوا) أى ان فرعون وجنوده كانوا بغاة عادين فى تبعيتهم لبنى اسرائيل .

ويرينا من جهة أخرى أنهم ماتبعوهم ليصالحوهم على البقاء ، ويضعوا حدّا لهذه الخصومة الجائرة، وإنما تبعوهم للبغى والعدوان ، وما دروا ماخبأه لهم القدر ، وما دبر الله لهم فى تلك الرحلة (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين) هنالك آمن ذلك الجبار العاتى ، وهنالك عرف أن هناك قوّة فوق قوّته ، وجبروتا يتضاءل معه جبروته ، وهنالك وقد أحاطت به أسباب الهلاك ومقدّمات الموت يؤمن بالاله الذى آمنت به بنو اسرائيل ، ويؤكد ذلك الايمان بقوله (وأنا من المسلمين) فيردّ الله عليه بقوله (آلآن) أى أتؤمن الساعة فى وقت الاضطرار حين ألجأك الغرق وأيست من الحياة ؟

ينكر الله تعالى عليه ذلك الايمان القهرى ، ويريه أنه لاقيمة لايمان ذلك حاله ، وتلك أسبابه ، إنما الايمان الذى ينفع صاحبه هو الايمان الذى صدر من صاحبه وهو مختار ، طامع فى الحياة آمل فيها ، أما الايمان عند حضور الموت ، وحلول مقدّماته وأسبابه فلا ينفع صاحبه ، لأنه إيمان اضطرارى لافضل له فيه (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما «١٨» [1]) لذلك ينكر الله تعالى على فرعون إيمانه عند الغرق ويقول له (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) الضالين المضلين عن الايمان والحق (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) وقرئ ننحيك بالحاء: نلقيك بناحية مما يلى البحر ببدنك لاروح فيك أو ببدنك كاملا لم ينقص منه شىء (لتكون لمن خلفك آية) علامة لمن وراءك من الناس وهم بنو اسرائيل ، وكان فى أنفسهم أن فرعون أعظم شأنا من أن يغرق ، وقيل عبرة لمن يأتى بعدك من القرون يظهر بها للناس عبوديتك ومهانتك ، وأن ما كان يدّعيه من الربوبية باطل ، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ماترون لعصيانه ربه عزّ وجلّ ، فما الظنّ بغيره من

---

[١] النساء .

الضعفاء ؟ أو لتكون عبرة لمن بعدك من الملوك فلا يجترئوا على مثل ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وهوانك على الله .

وقد سبق لنا فى قصة موسى من سورة المائدة الكلام على جثة فرعون الموجودة بدار الآثار وهل هى جثة فرعون صاحب موسى أو غيره (وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) أى هذه آيات الله يطلع الناس عليها ويريهم لها ، وكان من حقّ الناس أن تنتفع بهذه الآيات ، وتذكر بهذه العبر ، ولكنّ الكثير منهم غافل عن آيات الله معرض عنها ، لايعيرها التفاتا ، ولاتصل إلى قلبه .

فهذه آية الله فى فرعون الذى ملأ الأرض ظلما و بطشا ، وادّعى أنه الربّ الأعلى ، وقال لبنى اسرائيل : ماعلمت لكم من إله غيرى ، فأغرقه الله فى اليمّ ، وأخرج بدنه جثة هامدة لاتستطيع حراكا ، قد حيل بينه و بين الحياة ، هذه آية الله فى فرعون يجعلها عبرة لمن يأتى بعده من الملوك الظالمين ، والحكام المستبدّين ، الذين نسوا ربهم وخالقهم ، واغترّوا بسلطانهم الكاذب وعظمتهم الزائلة ، و ينجيه ببدنه و يبقيه دهورا وأعواما ليعلم الناس أن هذه جثة فرعون ، وجسد ذلك الطاغية الذى طبق الأرض بغيا وظلما ، هذه جثته استوت مع جثة أقلّ الناس عزما وأضعفهم سلطانا ، وأصبحت خاضعة لكل ماتخضع له الأبدان من صحة وفساد ، وضعف وقوّة ، هذه آية الله فى فرعون يذكرنا بها القرآن ، و يلهمنا بها التاريخ ، ومع ذلك فالظالمون غارقون فى ظلمهم ، منغمسون فى شهواتهم ، لايصدّرون إلا عن أهوائهم ، ناسين أن لهم ربا يرجى ثوابه ، ويخشى بطشه وعذابه ، وأنهم مهما بلغوا من سلطان فلن يبلغوا مابلغه عدوّالله فرعون ، وقد حلّ به ماحلّ .

اللهمّ وفق المسلمين لفهم كتاب ربهم والاعتبار بماضى سلفهم ، والانتفاع بسيرة المتقدّمين منهم ، وألهم الناس رشدهم حتى ينتفعوا بعظات القرآن ، و يسعدوا به كما سعد سلفهم الصالح ، فلا يكون القرآن حجة عليهم بل يكون حجة لهم .

موسى عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ (١) اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ «٥» وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ (٢) سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ

---

[١] وقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم . [٢] يكفونكم ويبغونكم ما يسوءكم ويذلكم من العذاب .

بَلَاءٌ [١] مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ «٦» وَإِذْ تَأَذَّنَ [٢] رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ «٧» وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ «٨» ابراهيم

شرح وعـــبرة

(١) (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور) أى كما أرسل الله تعالى محمدا لاخراج الناس من الظلمات الى النور ، كما قال فى أوّل السورة كذلك يرينا أنه أرسل نبيه موسى وسائرأنبيائه عليهم السلام لاخراج الناس من ظلم الضلال والجهل الى نور الهداية والعلم ، وقوله (أن أخرج) معناه : أى أخرج : أى قلنا له ذلك ، وأيام الله وقائعه التى وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذى [٣] قار ويوم الفجار [٤] ويوم قضة [٥] وغيرها ، وعن ابن عباس أن أيام الله نعماؤه وبلاؤه ، فأما نعماؤه فانه ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المنّ والسلوى وفلق البحر لهم وما الى ذلك ، وأما بلاؤه فاهلاك القرون (إن فى ذلك لآيات لكلّ صبار شكرور) أى ان فى أيام الله عبرا لكلّ رجل صبار على بلاء الله حين يسمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، وصبار : كثير الصبر ، وشكور : كثير الشكر ، وفى تذكيره بأيام الله عبرة له وتثبيت له على ماهو عليه . وقيل : أراد بصبار شكور المؤمن ، لأن الشكر والصبر من سجاياه (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) الخ : أى واذكر الوقت الذى قال فيه موسى لقومه اذكروا نعم الله عليكم .

ثم أخذ يعدّد النعم ليريهم بها ، ويربطهم بمسديها وواهبها ، وقوله (ويذبحون أبناءكم) بعد قوله (يسومونكم سوء العذاب) مع أن تذبيح الأبناء من العذاب إشارة الى أنه نوع ممتاز من العذاب فصار كأنه جنس آخر لذلك عطف عليه بالواو ولم يجعل تفسيرا له ، وفى سورة البقرة (يذبحون أبناءكم) بدون واو لأنه تفسير لما قبله ، والتفسير لايعطف على المفسر ، وكان استبقاء النساء بلاء واختبارا ، لأن بقاءهنّ منفردات عن الرجال ليس عليهنّ من يقوم بأمرهنّ فى النفقة والاعفاف بلاء كبير .

(٢) (واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) من جملة ماقاله موسى لقومه ، كأنه قيل واذكروا إذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، وحين تأذن ربكم ، ومعنى تأذن ربكم : أذن ربكم ، ونظير تأذن وأذن توعد وأوعد وتفضل وأفضل ، ولا بدّ فى تفعل من زيادة معنى ليس فى أفعل ، كأنه قيل واذ أذن ربكم ايذانا

---

[١] امتحان . [٢] أعلمكم إعلاماً بليغاً . [٣] يوم لبنى شيبان انتصرت فيه العرب من العجم .
[٤] بكسر الفاء ، كان بين قريش وقيس غيلان .
[٥] بكسر القاف ، اسم لموضع كان فيه موقعة بين بكر وتغلب .

بليغا تنتفى عنده الشكوك وتنزاح الشبه ، فقال (لئن شكرتم) ماخوّلتكم من النعم (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة ، ولأضاعفنّ لكم ما آتيتكم .

وانظر الى تأكيد الوعد بنون التوكيد فى الفعل ولام القسم ، فهو يعدّ بذلك وعدا مؤكدا (ولئن كفرتم) ما أنعمت به عليكم لأعذبنكم وأسلبنكم هذه النعم ، ثم دلل على ذلك بقوله (إن عذابى لشديد) فهو دليل الجزاء قد سدّ مسدّه ، وذلك من بلاغة القرآن فى الايجاز .

وقد أكد ذلك الوعيد كما أكد الوعد ، أكده باللام فى الخبر ، وتصدير الجملة بأن ، وجعل الجملة اسمية بدل أن تكون فعلية ، ثم أكد تأكيدا معنويا إذ أقام الدليل على مجازاته للكافرين بقوله (إنّ عذابى لشديد) وأن ما تأذّن به موسى قومه ليس خاصا بهم وإنما هو شأن عامّ لله تعالى مع خلقه فى كلّ الأزمان ، سنته معهم أنهم إن شكروه زادهم ، وإن كفروه عاقبهم .

(وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فانّ الله لغنىّ حميد) .

يرى نبىّ الله موسى قومه أن انتقامه من كافرى نعمه لم يكن سببه وصول ضرر إليه من ذلك الكفران ، ومكافأته للشاكرين لم تكن لأن نفعا يصل منهم إلى الله تعالى ، وأراهم أنهم إن كفروا هم وأهل الأرض جميعا فلم يبق على وجهها مسلم فان الله تعالى غنىّ عن إيمانهم (حميد) مستحقّ للحمد بكثرة أنعمه وأياديه ، أو أن قوله (حميد) إشارة إلى أن الله تعالى محمود فى غناه بخلاف غنى المخلوق فان فيه المحمود والمذموم ، فالرجل الذى ينفع الناس بغناه ، ويضعه فى المكان الذى يستحقّ هو محمود الغنى ، والذى لاينفع الناس بماله ، أو يتعالى عليهم بذلك المال ، ويسخره لاذلالهم والتنكيل بهم ، أو يحارب به ربه وخالقه ، كلّ أولئك غناهم ليس بحميد ، وانما هو غنى مذموم .

أما غنى الله تعالى فلا يكون إلا حميدا ، لأنه لا يضعه إلا فى المكان الذى يستحقه ولا يصرفه لخلقه إلا على وفق الحكمة ، وآية ذلك قوله (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزّله إلا بقدر معلوم «٢١» [1]) فخزائن الرزق بيده وتحت سلطانه ، ولكنه لا ينزّلها للناس إلا بقدر ، ولا يسلطهم عليها إلا بحساب ، فمن عمل للدّنيا وأحسن عمله لها حصل عليها أيا كانت نحلته الدّينية ، كما أن من عمل للآخرة كان حظه الحصول عليها (كلا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا «٢٠» [2]) .

وكما أن خزائن الرزق بيده خزائن العلوم والمعارف بيده يعطيها بمقدار ويهبها لمن يعمل ، يعطيها لمن يتعلم ، ويبذل النفس والنفيس فى تثقيف نفسه وترقية روحه ، وكذلك سيادة الناس بعضهم بعضا وربطها بسنن وعلقها بنواميس ، لا يعطيها إلا لمن يستحقها ويأخذ الأسباب الطبيعية لها ، كلّ ذلك من آثار غنى الله تعالى ، وكونه حميدا فى ذلك الغنى يهبه لمن يستحق ويعطيه لمن يستأهله .

موسى عليه السلام

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ «٩» إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي

[١] الحجر . [٢] الإسراء .

ءانَسْتُ نَارًا لَعَلِّى ءاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ [١] أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى «١٠» فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰ «١١» إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى [٢] «١٢» وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ «١٣» إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِى «١٤» إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ «١٥» فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ «١٦» وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ «١٧» قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ [٣] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ «١٨» قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ «١٩» فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ «٢٠» قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ «٢١» وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءايَةً أُخْرَىٰ «٢٢» لِنُرِيَكَ مِنْ ءايَٰتِنَا الْكُبْرَىٰ «٢٣» اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ «٢٤» قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى «٢٥» وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى «٢٦» وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى «٢٧» يَفْقَهُوا قَوْلِى «٢٨» وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى «٢٩» هَٰرُونَ أَخِى «٣٠» اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى «٣١» وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى «٣٢» كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا «٣٣» وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا «٣٤» إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا «٣٥» قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ «٣٦» وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ «٣٧» إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ «٣٨» أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ [٤] فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ [٥] عَلَىٰ عَيْنِى «٣٩» إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ

---

[١] نار مقتبسة فى رأس عمود أو فتيلة أو غيرهما . [٢] اسم مكان .

[٣] أخبط بها ورق الشجر ليسقط فتأكله ، وقرئ أهس بالسين ، وهو زجر الغنم وعدى بعلى لتضمينه معنى الإنحاء ، أى منحياً ومقبلا عليها . [٤] صندوق ، واليم : البحر ، وهو نيل مصر .

[٥] تربى تحت رعايتى .

فَرَجَعْنٰكَ إِلٰى أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنٰكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنّٰكَ (١) فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلٰى قَدَرٍ (٢) يٰمُوسٰى «٤٠» وَاصْطَنَعْتُكَ (٣) لِنَفْسِى «٤١» اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايٰتِى وَلَا تَنِيَا (٤) فِى ذِكْرِى «٤٢» اذْهَبَا إِلٰى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغٰى «٤٣» فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشٰى «٤٤» قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ (٥) عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغٰى «٤٥» قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرٰى «٤٦» فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنٰكَ بِـَٔايَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلٰمُ عَلٰى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدٰى «٤٧» إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلٰى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلّٰى «٤٨» طه

شرح وعــــبرة

(١) (وهل أتاك حديث موسى) الخ .

بعد أن أرى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أنه ما أنزل عليه القرآن ليشقى به ، ويتعب بفرط تأسفه على قومه ، أراد أن يسليه بقصة موسى مع قومه ليتأسى به فى تحمل أعباء الرسالة ، ومؤاساة الشدائد ، حتى ينال عند الله تعالى الفوز والمقام المحمود ، فقال (وهل أتاك حديث موسى) وهو استفهام فى الصورة ولكنه يقصد منه تقرير الجواب فى قلبه .

وهذه الصيغة أبلغ فى ذلك ، كما يقول المرء لصاحبه : هل بلغك خبر كذا ؟ فيتطلع السامع إلى معرفة ما يوحى إليه ، ولأن القصة يراد منها تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ختمها بقوله (كذلك نقصّ عليك من أنباء ماقد سبق) أى كذلك القصّ الذى يثبت فؤادك ويقوّى يقينك بالله وجزائه ، نقصّ عليك من أنباء ماسبقك من الأجيال .

أما حديث موسى الذى يريد أن يقصه عليه فهو أنه رأى نارا بعد أن قضى الأجل الذى اتفق عليه هو وصهره ، كما قال فى سورة القصص (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا «٢٩») والايناس : الرؤية ، ولذلك عبر فى هذه السورة بقوله (رأى) . (فقال لأهله) أقيموا فى مكانكم (إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النارهدى) وكانوا

---

[١] خلصناك من محنة بعد محنة . [٢] مقدار من الزمان يوحى فيه للأنبياء غير متقدّم ولا متأخر .
[٣] استخلصتك واصطفيتك . [٤] تقصرا . [٥] يعاجلنا بالعقاب .

فى حاجة إلى الدفء بالنار ، كما كانوا فى حاجة إلى من يهديهم لأنهم ضلوا الطريق ، ولذلك قال فى القصص (لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون « ٢٩ ») .

(فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك) فهو وحى رحمانى (فاخلع نعليك إنك بالواد المقدّس طوى) ولعلّ سبب أمره بالخلع أن نعليه كانا من نوع قذر لايليق بموسى عليه السلام أن أن يلبسه فى ذلك المكان المقدّس، روى أنهما كانتا من جلد حمار ميت غير مدبوغ ، وهو مروىّ عن علىّ رضى الله عنه ، وقول مقاتل والضحاك وقتادة والسدّى كما روى فى بعض الأحاديث أن جبريل عليه السلام جاء محمدا صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فأخبره أن فى نعله أذى ، فخلعه فى صلاته واستمرّ فيها ، فلما رآه أصحابه خلعوا نعالهم ، فسألهم لماذا خلعتم ؟ قالوا : رأيناك خلعت فخلعنا، فقال ان جبريل عليه السلام أخبره أن فى نعله أذى فخلعه ، فلا حقّ لكم فى الخلع ، ولذلك روى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يصلى فى نعله .

فقصة موسى عليه السلام وأمر الله له بخلع نعله لا تصلح حجة لمن ينكر الصلاة فى النعال ، وهى ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال بعض السلف : انها من الزينة التى أمر الله باتخاذها عند كلّ مسجد ، وما من مذهب من مذاهب الأئمة إلا وفيه قائلون بجواز الصلاة فى النعال ، واعتبرها بعض الفقهاء من السنن .

وكان الصدر الأوّل من الصحابة والتابعين يصلون فى نعالهم إلى أن اتخذ البسط فى المساجد فتعوّد الناس أن يخلعوا نعالهم عند دخول المسجد ، وقد اتخذ الجهلاء تلك العادة دينا ، وأصبحوا ينكرون على من يصلى فى نعله ، ويعدّونه مبتدعا أو متطرّفا ، ويناصرهم على ذلك بعض العلماء الجامدين ، وإنما البدعة فى نسيان هذه السنة التى كان عليها السلف الصالح ، والحيلولة بين الناس وبين يسر الدين وسهولته فى مثل ذلك العمل .

وفى اعتقادى أن الدين لو بلغ للناس على طبيعته التى كان عليها فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهد أصحابه وتابعيه ، ما تبرّم له الناس تبرّمهم له الآن مثقلا بتشديدات الفقهاء ، وتنطعات بعض المؤلفين ، ولله درّ الامام مالك إذ يقول [لن يصلح أمر هذه الأمّة إلا بما صلح به أوّلها] . وقد جربنا على كثير من متمدينى هذا العصر الترحيب بتعاليم الدين حين تبلغه على بساطتها وسهولتها ، وفى الأمثال [عدوّ عاقل خير من صديق جاهل] .

نعم إن أولئك المتشدّدين أصدقاء للدين جاهلون ، لا يعرفون كيف يحببون الناس فيه ، ويزيحون من طريقهم العقبات والعراقيل .

(٢) (وأنا اخترتك) اصطفيتك لرسالتى ، واجتبيتك لتكون سفيرا بينى وبين خلقى ، وما أغلى هذه الكلمة التى خوطب بها نبىّ الله موسى ، ولو كانت من عظيم من عظماء الدنيا أو ملك من ملوكها لكان لها قيمتها فى نفس رجل قيلت له ، فكيف وقد قيلت من ملك الملوك : خالق السموات والأرض (فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى إنّ الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كلّ نفس بما تسعى . فلا يصدّنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) .

بدأ الله بتوحيده ، ثم عقبه بطلب عبادته ، وخصّ الصلاة لأهميتها . وقوله (لذكرى) أى لتذكرنى بها ، ثم عقب ذلك بقوله (إنّ الساعة آتية) وقوله (أكاد أخفيها) . قال أبو مسلم : أكاد بمعنى أريد ، وهو كقوله (كذلك كدنا ليوسف) .

ومن أمثالهم المتداولة : لا أفعل كذا ولا أكاد : أى ولا أريد أن أفعله (لتجزى كلّ نفس بما تسعى) متعلق بقوله (إنّ الساعة آتية) .

بين لنا أن الساعة قد أعدّها الله تعالى للجزاء ، فقد تضمنت الجمل المذكورة [أوّلا] الدعوة إلى توحيد الله تعالى [ثانيا] الدعوة إلى عبادته [ثالثا] الاخبار بالساعة وأنها آتية لا ريب فيها ليجزى كلّ أحد بما قدّم من الأعمال .

(فلا يصدّنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى) أى لايصدّنك عن ذكرها ومراقبتها أو عن تصديقها ، والمراد كن شديد الشكيمة صلب المعجم [1] حتى لا يلوح منك لمن يكفر بالبعث أن يطمع فى صدّك عما أنت عليـه ، لأن من لا يؤمن بالآخرة متبع لهواه ، وأنك إن فعلت ذلك هلكت مع الهالكين .

(٣) (وما تلك بيمينك ياموسى) سأل موسى عما بيمينه وهو يعلم ليجيبه موسى بأنها عصاه فيها من الفوائد كيت وكيت ، حتى إذا تأكد موسى من ذلك كله أمر بالقائها ، وتعقيب الله ذلك الالقاء بجعلها حية ، ولو قلبها حية قبـل أن يسأله عنها ، ويتأكد من حقيقتها قبـل الانقلاب لتشكك موسى عليه السلام فى أن ذلك الذى صار حية هو العصا التى كانت بيده ، أو شىء آخر ؟ كما تقول لصاحبك : ما الذى فى يدك ؟ فيقول لك هو [درهم] فيقول لك سأحوّله الى [دينار] تريد بذلك القول أن يتأكد منـه ومن حقيقته حتى لا يشك فيه بعد التحويل (فاذا هى حية تسعى) والحية : اسم جنس يقع على الذكر والأنثى ، والصـغير والـكبير ، أما الثعبان فهو العظيم من الحيات ، والجانّ الدقيق .

وقد عبر عن الحية مرّة بالثعبان ، ومرّة بالجانّ للاشارة إلى أنها كان لها أطوار مختلفة ، فتبدو أوّل أمرها صغيرة دقيقة ، فصحّ أن يعبر عنها بالجانّ ، ثم تتورّم و يتزايد حجمها حتى تصير ثعبانا ، أو للاشارة الى أنها كانت فى شكل الثعبان من جهة عظمها ، وفى خفة الجانّ وسرعته ، ولذلك قال (فلما رآها تهتزّ كأنها جانّ « ٣١ » [2]) . وقوله (تسعى) تمشى بسرعة وخفة (قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) .

أمر الله نبيه موسى أن يأخذ العصا وقد زعر منها ، لأنه لم يتعوّد ذلك المنظر الذى تنقلب فيه العصا حية ، فأمره الله تعالى بأخذها ، وأن لا يخاف من إيذائها له ، ووعده أن يعيدها عصا كما كانت (واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء) والجناح : الجنب استعير من جناح الطائر ، وهو المراد بادخال اليد فى الجيب كما ورد فى سورة النمل .

ومجموع الآيات يدلّ على أنه أمر بأن يضمّ يده إلى جانبه واضعا عليها ذراعه ، وأن يكون ذلك الضمّ بواسطة إدخال يده فى شقّ قميصـه . وقوله (من غير سوء) أى من غير آفة تقذّذ

---

[1] المعجم كمقعد ، يقال رجل صلب المعجم : عزيز النفس . [2] القصص .

منها النفوس كالبرص أو غيره من الآفات (آية أخرى) علامة أخرى على صدقك بعد آية العصا (لنريك من آياتنا الكبرى) أى خذ هذه الآية بعد آية العصا لنريك من دلائل قدرتنا ما أن تدعو فرعون ، فتكون واثقا من صدقك ، مؤمنا بأن الله معك .

وقد اختص موسى عليه السلام بقلب العصا حية له ، و إخراج يده بيضاء بعد إدخالها تحت إبطه دون غيره من الرسل ، لأنه يعلم من بطش فرعون وجبروته ما ليس لغيره من أقوام الرسل ، فكان من الحكمة أن يثبت الله قلب موسى قبل أن يرسله إلى فرعون ، و يطمئن نفسه إعدادا له لتلك الدعوة الشاقة ، وهى دعوة فرعون وملائه للايمان ، ودعوتهم لأن يسلموا بنى إسرائيل لنبى الله موسى و يعفوهم من بطشهم وعذابهم ، ولذلك قال بعد هذا الاعداد لموسى عليه السلام (اذهب إلى فرعون انه طغى) والطغيان : مجاوزة الحد ، وهل هناك طغيان فوق قوله لبنى إسرائيل (أنا ربكم الأعلى « ٢٤ » [١]) . وقوله (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى و إنى لأظنه من الكاذبين «٣٨» واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون « ٣٩ » [٢])

(قال رب اشرح لى صدرى) الخ .

لما طلب الله تعالى إلى موسى أن يتوجه إلى فرعون يدعوه وقال له فى أسباب الدعوة (إنه طغى) عرف موسى عليه السلام أهمية الأمر وصعوبته . فطلب من ربه استعدادا لذلك العمل أمورا .

[أولها] أن يشرح له صدره ، وشرح الصدر : بسطه بنور إلهى ، وسكينة من جهة الله تعالى . ولا شك أن شرح الصدر قوة معنوية يستعين بها نبى الله موسى على أداء تلك المهمة الكبرى فانه مدعاة للصبر واحتمال المشاق ، والاقبال على الدعوة بهمة ونشاط ، أما ضيق الصدر والسآمة فهو من أسباب الضعف ، وخور العزيمة والملل .

[ثانيها] أن ييسر له أمره بتوفيق الأسباب ورفع الموانع والعقبات .

[ثالثها] أن يحل عقدة من لسانه ليفهموا قوله . ولا شك أن قوة البيان يحتاجها الرسل ، و ينتفعون بها ، وقد اعترف نبى الله موسى وهو يطلب من ربه مؤازرة أخيه هارون بأن أخاه أفصح منه لسانا ، ولعل الآية تشير إلى أن عقدة لسان موسى عليه السلام الاجال الذى كان فى عبارته وقد علل ذلك بقوله (يفقهوا قولى) والفقه : الوصول إلى أعماق القول والتغلغل فيه . ولا شك أن القول البين الواضح أعون على ذلك .

[رابعها] أن يجعل له وزيرا من قرابته هو هارون أخوه ، واشتقاقه من الوزر لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه ، أو من الوزر بفتح الزاى وهو اللجأ ، لأن الملك يعتصم برأيه و يلجأ إليه فى أموره ، أو من المؤازرة ، وهى المعاونة (اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) .

يطلب من الله أن يشد به أزره وقوته ، و يشركه فى أمر الرساله ، وفيه بيان لحكمة اختيار الوزير من قرابته ، لأن الشأن فى القريب أن يكون حريصا على نجاح قريبه ، فلم يطلبه لمحاباة أو

---

[١] النازعات . [٢] القصص .

ايثار بذلك المنصب ، لأنه منصب محفوف بالأخطار ، محاط بالأشواك ، ولعلّ السرّ فى قول بعض الزعماء : وقد ولى الوزارة [أريد أن أجعلها كذا لحا ودما] انه يريد ما أراده نبىّ الله موسى من وزارة أخيه هارون ، فهو حسن القصد طيب النية ، وان كان خصومه السياسيون قد أخذوا عليه تلك الكلمة ، التى سبقه إليها نبىّ معصوم ، ورسول من خيرة الرسل ، والأمور بمقاصدها .

وقوله (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) بيان من نبىّ الله موسى لغايته من تلك المؤازرة ، وهى غاية شريفة ومقصد جليل ، لم يرد بها أن يؤازره على إذلال الناس وظلمهم ،أو يعاونه على التنكيل بهم وتمكين قدم الغاصب فى بلادهم ، وانما طلب أخاه وزيرا له لتكون الغاية من تلك الوزارة أن يسبحوا الله كثيرا ، ويذكروه بما يليق به ذكرا كثيرا فيعبدوه كما ينبغى ، ويوحدوه كما يجب ، ويشكروه على ما وهبهم من نعم ، وما أسداهم من فضائل ، وذلك ماينبغى أن تكون عليه الوزارات فى كل زمان ومكان ، يراد منها التعاون على البرّ والتقوى ، ولا يراد بها التعاون على الاثم والعدوان .

ولكنّ المستعمرين فى زماننا هذا أصبحوا يعمدون فى بعض الظروف الى أحط الأمّة أخلاقا، وأمعنها فى الرذيلة وأبعدها عن الخلق الفاضل والحياء ، يعمدون الى ذلك الصنف من الأمّة فيعطونه الحكم، ويمكنونه من السلطان والنفوذ ، فلا يجمع معه من الوزراء إلا من فسد ضميره ، وغاض منه معين الحياء ، ولا همّ له إلا دراهم يجمعها ، وسلطة يتمتع بها ، وفى سبيل تلك العظمة الكاذبة ، وذلك النفوذ المستعار ، يعطى الغاصب بكلتا يديه ، ويمكن له فى الأرض ، ويذهب بمصالح البلاد ومرافقها الى هاوية الفساد والخراب ، هذه وزارة الغاصب المستبدّ ، وأحكام المستعمرين فى الأرض بواسطة رجال من الأمّة المغصوبة المهضومة ، أساسها التعاون على الاثم والعدوان واضطهاد الأبرياء والتضييق على الأحرار ، وتبديد أموال الدولة فى الشهوات والأهواء وتخريبها من المصانع النافعة والعلوم المفيدة .

أما وزارة الرسل ، أما حكومة خيرة المصلحين فى الأرض ، فهى وزارة أساسها الحقّ ليثبت ويبقى ، وعمادها التعاون على البرّ وكلّ مايعود على الناس بالخير فى دينهم ودنياهم ، وشتان مابين الوزارتين : وزارة الحقّ ، ووزارة الباطل ، أو وزارة حزب الله وجنده، ووزارة المستعمر وذنبه .

(٤) (قال قد أوتيت سؤلك ياموسى) أجاب الله دعاءك فشرح لك صدرك ، ويسر لك أمرك ، وحلّ عقدة من لسانك ، وجعل أخاك هارون وزيرا لك . والسؤل: المسئول ، وفى الآية ان الله تعالى قد أجاب موسى بنفس ماطلبه ، وهى دليل على نفع الدعاء ، ثم أراد أن يريه أن اجابته لما طلب ليست أوّل فضل لله تعالى عليه فقال (ولقد مننا عليك مرّة أخرى إذ أوحينا الى أمّك ما يوحى) ألهمها ما ألهمها .

وقد أبهم فى الموحى به للاشارة الى أهميته ، لأنه كان نجاة لموسى من كيد فرعون ، إذ كان من عادته أن يذبح الأبناء ، فلأجل أن ينجو ذلك المولود الذى علم الله أنه سيكون نبيا ألهم أمّه ما ألهم ، ثم بين ذلك بقوله (أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليمّ) ولم يكن إلهامه لأمّ موسى لأنها من الأنبياء ، لأنهم لايكونون إلا رجالا كما قال (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى اليهم

من أهـل القرى «١٠٩» [١]) بل كان وحيه لها كوحيه الى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ، ألهمها الله أن تجعل له صندوقا فتضعه فيه ، وأن تلقى بذلك الصندوق فى نيل مصر وقال لها (لاتخافى ولا تحزنى) على ولدك ، لأنه سيردّه إليها بتدبيره وحكمته ، وألهمها أنه سيبقى ويكون رسولا من رسل الله (فليلقه اليمّ بالساحل) أى إن الله تعالى قال لليمّ ألقه بساحل النيل ومتى قال للشىء كن فانه يكون ، وقول الله تعالى لليمّ هو قول كونىّ ، لاقول لفظىّ ، ونظيره (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين « ١١ » [٢]) . وقوله (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى « ٤٤ » [٣]) (يأخذه عدوّ لى وعدوّ له) جواب الأمر بالالقاء ، وتكرير العدوّ للمبالغة ، والاشعار بأن عداوته له مع تحققها لاتؤثر فيـه ولا تضرّه ، بل تؤدّى إلى المحبة ، فان الأمر بما هو سبب للهلاك من قذفه فى البحر ، ووقوعه فى يد عدوّ الله تعالى وعدوّ موسى يشعر بأن هناك لطفا خفيا مندرجا تحت قهر صورى (وألقيت عليك محبة منى) أى أحببتك ومن أحبه الله أحبته تلك المحبة ، فقوله (منى) متعلق بقوله (ألقيت) . وقيل معناه : زرعت محبتك وأنت صغير فى قلوب الناس بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ، ولذلك أحبك عدوّ الله فرعون وآله ، ولذلك جاء فى سورة القصص (وقالت امرأة فرعون قرّة عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون «٩» [٤]) (ولتصنع على عينى) متعلق بألقيت : أى ألقيت عليك محبة آل فرعون ليتعطف عليك ، ولتربى بالحنوّ والشفقة بمراقبتى وحفظى ، أو علة لمحذوف أى ولأجل أن تصنع على عينى وتحت إشرافى فعلت ذلك (إذ تمشى أختك) .

بعد أن حرّم الله عليـه المراضع فلم يقبل لهم ثديا ، وحزن لذلك آل فرعون جاءت أخته التى كانت تقصه وتتبع أثره (فتقول) لهم فى صفة الناصح (هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك إلى أمك كى تقرّ عينها ولا تحزن) .

هذه منة يمتنّ الله تعالى بها على نبيه موسى ، ويريه أن الذى حفظه وهو فى البحر ثم حفظه وهو فى أحضان أعداء الله وأعدائه ، وسخر له أخته لترشد آل فرعون إلى كاف له بعد أن امتنع عن الرضاعة ثم ردّه إلى أمه بعد ألمها الشديد ، وحزنها البالغ .

إن الذى صنع به ذلك كله جدير بأن يحفظه من فرعون و بطش فرعون ، وهو رجل راشد كبير ، فهذه القصة هى تأنيس لنبىّ الله موسى ، ثم عقبها بقصة أخرى فقال (وقتلت نفسا فنجيناك من الغمّ وفتناك فتونا) .

وقد بين الله قصة القتل فى سورة القصص وسنشرحها فى مكانها بمشيئة الله تعالى ، والمراد منها ههنا أن الله تعالى يمتنّ عليه بالتنجية من غمّ القتل الذى وقع منه خطأ وتخليصه تخليصا من الفتن (فلبثت سنين فى أهل مدين [٥]) كلها شـدائد وفتن (ثم جئت على قدر ياموسى) على مقدار من الزمن يبعث فى مثله الرسل ليس بالمتأخر ولا بالمتعجل (واصطنعتك لنفسى) أعددتك لرسالاتى وهيأتك لخدمتى .

---

[١] يوسف . [٢] فصلت . [٣] هود . [٤] القصص .

[٥] هى فى بلاد الحجاز مما يلى الشام الى الجنوب من القصير من الجهة المقابلة .

(٥) (اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى) .

بعد أن أجاب موسى إلى ما طلب ، وهيأه للرسالة أمره أن يذهب هو وأخوه هارون عليهما السلام مؤيدين بآيات الله تعالى ودلائل ربوبيته ، ونهاهما أن يقصرا في ذكر الله تعالى ، لأن ذكره يزيدهما قوة إلى قوتهما ، ثم أعاد ذلك الأمر بقوله (اذهبا إلى فرعون انه طغى) والطاغي لاغنى له عن دعوة الى الله تعالى تقيم عليه الحجة ، وتقطع عذره أمام الله تعالى ، وقد كرر نسبة الطغيان إليه لنعلم أن الحاجة الى التذكير تتأكد متى كان هناك طغيان ومجاوزة للحد (فقولا له قولا لينا) بيان لآداب الدعوة وماينبغي أن تكون عليه .

وقد بين الله القول اللين في سورة النازعات (فقل هل لك إلى أن تزكى «١٨» وأهديك الى ربك فتخشى «١٩») لأن ظاهره الاستفهام والمشورة ، وعرض مافيه الفوز العظيم ، وقوله (لعله يتذكر أو يخشى) أي اذهبا إلى فرعون على رجائكما وطمعكما في أن يتذكر أو يخشى ربه ، وباشرا الأمر مباشرة من يرجو ويطمع أن يثمر عمله ، ولايخيب سعيه ، والغاية من ارسالهما إليه مع العلم بأنه لن يؤمن الزام الحجة ، وقطع المعذرة (ولوأنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى «١٣٤» [1]) .

واذا كان الله قد أمر موسى وأخاه أن يذهبا الى فرعون على رجاء منهما فيه ، فذلك لأنه ينبغي لكل واعظ أن يتجه الى من يعظ على ذلك الرجاء ، لأنه اذا يئس لايستطيع أن يعظ ، وقد علم الله أن فرعون سيصر على إبائه ، ويبقى على كفره ، ولكنه مع ذلك أمر رسله بالذهاب إليه ، وإقامة الحجة عليه ، وأمرهما بأن يذهبا إليه راجين لايائسين ، لتكون هذه سنة في الوعاظ والمرشدين ، وقاعدة في الاصلاح والمصلحين ، لاينبغي لواعظ أن ييأس ، ولالمصلح أن يدع الاصلاح .

ومن ناحية أخرى يبين الله لنا أن من آداب الدعوة أن تكون لينة لاغليظة ، ولا سيما مع المتكبرين ، لأن الاغلاظ عليهم لايزيدهم إلا تكبرا وعتوا (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك هوأعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين «١٢٥» [2]

(قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) مع ذلك الاعداد الذي أعد الله له موسى ومع إجابته دعاءه ، وبيان أنه تعالى لطيف به من أول نشأته ، ومنان عليه في تربيته .

مع ذلك كله قال موسى وهارون حينما كلفا بالذهاب إلى فرعون : ربنا اننا نخاف من فرعون أن يحول بيننا وبين الرسالة بالمعاجلة بالعقوبة ، أو أن يتجاوز الحد معنا في الايذاء ، وقد كانت مهمتهما من أشق مهمات الرسل ، فقد كان عدوهما عنيدا ، وهو فرعون وملأ فرعون .

وقد استعبد الشعب الاسرائيلي وطالت عليه مدة الاستعباد حتى ألف الذل والهوان ، فكان انقاذه من مخالب فرعون [والحالة هذه] من أصعب الأمور وأشقها (قال لاتخافا إنني معكما أسمع وأرى) معكما بالمعونة والحفظ أسمع وأرى مايجرى بينكما وبينه من قول وفعل ، لأنكما نوابي وحلفائي في الأرض ، وقد أرسلتكما لانفاذ كلمتي وحفظ ديني ، والاصلاح في الأرض ، فلا أدعكما

---

[١] طه . [٢] النحل .

لجبار كفرعون ، بل أرعا كما وأحافظ عليكما ، وليس ذلك الوعد خاصا بنبى الله موسى وأخيه هارون ، بل هو عامّ لكلّ من يبلغ دعوته ويحفظ عهده (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون «١٢٨» [١] (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين «١٧١» إنهم لهم المنصورون «١٧٢» وان جندنا لهم الغالبون «١٧٣» [٢]) وليس معنى كتابة النصر لرسل الله وجنده أنه لاينالهم من أعدائه أذى ، ولا يصيبهم سوء ، بل النصر لحزب الله اقامته الحجة على حزب الشيطان ، بحيث لايتركون هذه الحياة إلابعد وضوح الحقّ واختفاء الباطل .

وقد يلجأ المبطل الى القوّة المادّية فيقتل بعض أنبياء الله ، ويعذب بعضا آخر ، بعد أن تعوزه الحجة ، وينقصه البرهان والدليل ، فيكون التجاؤه الى التعذيب والقتيل عنوان خذلانه ، وعلامة على نصر أعدائه ، وربّ معذّب أو قتيل كتب الله له النصر ، ولدعوته الظفر والتأييد ، وربّ جبار أو عنيد كتب الله عليه الذلّ وسجل عليه الخذلان ، فكان الأوّل حيا فى موته ، منتصرا فى قبره ، وكان الثانى ميتا فى حياته ، مكبوتا فى جبروته وكبريائه فهو نصرمعنوى ، يظفر فيه الحق بالباطل ، وتظهر فيه الحجة على التقليد ، والبرهان على الشبهة ، وقوّة الروح على قوّة المادّة ، وقديكون مع النصر المعنوى نصرمادّى ، كانجاء الله موسى ومن معه من الغرق ، و إغراق فرعون وجنود فرعون ، وكانجاء الله ابراهيم من النار بعد أن دبروا له ما دبروا ، وصنعوا له ما صنعوا ، و إنجاء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من تدبير قريش قتله ، كلّ ذلك نصر مادّى معه نصرمعنوى .

(فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذّبهم) رسولان من قبل الله تعالى جئنا لانقاذ بنى إسرائيل من بطشك وظلمك ، وهو غرض كبير من أغراض الرسل أن ينقذوا الناس من أن يظلم قويهم ضعيفهم ، أو يستعبد كبيرهم صغيرهم .

من أهمّ أغراضهم أن يوزّعوا العدالة على الناس على السواء ، ويتمتع الجميع بحقه الطبعى فى هذه الحياة ، وقد عنى القرآن الكريم بدعوة الناس إلى العدل ، وتنفيرهم من الظلم ، ولم يقف عند ذلك الحدّ ، بل نهى الناس أن يقتربوا من الظالم (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون « ١١٣ » [٣]) ولولم يكن من آثار التدين سوى الاقلاع عن الظلم ، وإنقاذ الانسان من مخالب الانسان لكفى .

جاءت الرسل لذلك الغرض وأمثاله ولكنّ الناس غفلوا عن ذلك ، فأخذ بعضهم يظلم بعضا ، ولاسيما رجال الحكم ، أخذوا يستعبدون الناس ، ويعيدون لهم عهد فرعون مع الشعب الاسرائيلى فلا يقيمون لحقوق الناس وزنا ، ولا يعملون لربهم وخالقهم حسابا ، فصاروا خلفاء لفرعون وجنودا له ، وسيحلّ بهم من الغضب والمقت ما حلّ بفرعون (قد جئناك بآية من ربك) ببينة وبرهان يدلّ على صدقنا فى دعوى الرسالة (والسلام على من اتبع الهدى) وعد من قبلهما لمن آمن وصدّق بالسلامة له من عقوبة الدنيا والآخرة ، وفيه ترغيب له فى اتباعهما على ألطف وجه

---

[١] النحل . [٢] الصافات . [٣] هود .

وأحسنه (إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذّب وتولى) ولم توجه كلمة العذاب إليه تلطيفا للخطاب لأنهما أمرا أن يقولا له قولا لينا .

هذه جملة الدّعوة التي وجهها نبيّ الله موسى وأخوه هرون إلى فرعون ، وقد تضمن قولهما (إنا رسولا ربك) الدّعوة إلى الرسالة ، وأن هذه الرسالة من قبل إله ربّ للعالم ، ثم توعداه بالعذاب إذا هو كذّب وأعرض ، ووعداه بالسلامة من العقاب إذا هو اتبع الهدى ، وهي كلمة جامعة للايمان والعمل الصالح .

موسى عليه السلام

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ «٤٩» قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ «٥٠» قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ «٥١» قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى «٥٢» ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ «٥٣» كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلنُّهَىٰ «٥٤» مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ «٥٥» وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ «٥٦» قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ «٥٧» فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى[1] «٥٨» قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ[2] وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى «٥٩» فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ «٦٠» قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم[3] بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ «٦١» فَتَنَٰزَعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَىٰ «٦٢» قَالُوٓا إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ «٦٣» فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ «٦٤» قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ

---

[١] مستو في نسبته إلينا . [٢] يوم عيد لهم . [٣] يهلككم .

أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى «٦٥» قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى «٦٦» فَأَوْجَسَ [١] فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى «٦٧» قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى «٦٨» وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى «٦٩» فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى «٧٠» قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى «٧١» قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا «٧٢» إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى «٧٣» إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى «٧٤» وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى «٧٥» جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى «٧٦» وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا [٢] وَلَا تَخْشَى «٧٧» فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ «٧٨» وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى «٧٩» يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ [٣] وَالسَّلْوَى «٨٠» كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى «٨١» وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى «٨٢» طه

---

[١] أضمر الخوف . [٢] إدراكا . [٣] مادة حلوة تشبه عسل النحل ، والسلوى : الطير السمان .

شرح وعـــبرة

(١) (قال فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذى أعطى كلّ شىء خلقه ثم هدى) أى أعطى خليقته كلّ شىء يحتاجون إليه ويرتفقون به ، أو أعطى كلّ شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ، كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الابصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان ، كلّ منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه (ثم هدى) عرّفه كيف يرتفق بما أعطاه ، وكيف يتوصل إليه .

قال الزمخشرى ولله درّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ، ونظر بعين الانصاف ، وكان طالبا للحقّ !

وقد شرحت هذه الآية الكريمة بما يصلح أن يكون رسالة فى كتاب [آيات الله فى الآفاق] .

(قال فما بال القرون الأولى) سأله فرعون عن شئون القرون الأولى ، فأجابه أن علمها لم يكن من شئون الرسل ، وانما هو شأن من شئون الله تعالى ، يقصّ علينا مايرى المصلحة فى تبليغه ، ويخفى عنا مالا نحتاج إليه فـ(ـقال علمها عند ربى فى كتاب لايضلّ ربى) ويبعد عن الصواب فى معرفة شىء منها (ولاينسى) ماعلمه لأن النسيان والضلال من شئون المخلوق .

ثم عقب ذلك بقوله (الذى جعل لكم الأرض مهدا) فراشا صالحة للمشى والضرب فيها لطلب الرزق (وسلك لكم فيها سبلا) فلم يجعلها جميعها جبالا حتى لاتكون صالحة للمشى ، ولم يجعلها جميعها بحارا ، بل جعل فيها الماء واليابس ، وجعل فيها الجبل والسهل (وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) مختلف فى طوله وقصره ، ولونه وطعمه ، ودرجة حلاوته وحموضته (كلوا وارعوا أنعامكم) أى آذنين لكم فى الانتفاع بها ، مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا دوابكم بعضها (ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) فى ذلك كله من الأرض التى مهدها ، وجعل فيها السبل للمعيشة ، وانزال الماء من السماء فأنبت به النبات المختلف - فى ذلك كله دلائل وعبر لأصحاب العقول .

وقد سأل فرعون موسى عن القرون الأولى ، فأجابه أن علمها عند الله فى كتاب ، ثم استطرد لذكر آيات الله تعالى ودلائل قدرته ، ليريه ويرى قومه آثار ربه فى الأرض . وآثاره فى الزرع الذى نعيش منه ، وآثاره فى الماء الذى ينزل من السماء ، وهى فرصة أتاحت لموسى كيف يصف له ربه ، ويقيم عليه الحجة من الآيات التى يقع عليها بصره وسمعه .

وفى قوله (فأخرجنا) انتقال من لفظ الغيبة الى لفظ المتكلم حيث لم يقل (فاخرج) ايذانا بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره ، وتذعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته ، لايمتنع شىء على ارادته ، ومثله قوله تعالى (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء «٩٩» [١]) وقوله (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها «٢٧» [٢]) (أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها «٦٠» [٣])

---

[١] الأنعام . [٢] فاطر . [٣] النمل .

ثم عقب ذلك كله موسى عليه السلام بالتمهيد للبعث فقال (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) ليرى فرعون أن الاله الذى قدر على البدء قادر على الاعادة ، وان نشأتنا من الأرض كما قال فى سورة المؤمنون (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين «١٢») وسنعود الى الأرض فنصير جزءا منها كما كنا ، ثم يخرجنا الله من الأرض عند البعث .

يرينا الله تعالى بذلك البسط الذى واجه به فرعون مع أنه لم يسأل إلا عن القرون الأولى أنه ينبغى للواعظ أن يتحين الفرصة لبث وعظه ، وتبليغ دين الله ، واقامة حجته على الطغاة .

وقد كان من توفيق الله تعالى لى أن طلب منى وأنا مدرس بمعهد طنطا قراءة القصة النبوية فى أيام المولد ، فافترصت [١] هذه الفرصة ، وأخذت أبلغ الناس دين الله ، وأشرح لهم مزاياه ويسره ، وأنه جاء بسعادة الدنيا والآخرة ، ولاغنى لأحد عن تعليم الله تعالى وهديه الذى جاء به الرسل ، وقد قال وكيل من وكلاء مديرية طنطا بعد سماعه أول مرة : هذا درس علم وهكذا يجب أن تكون الحفلات .

وقد كانت هذه الحفلات تجمع المدير ووكيليه ، والأطباء ، ورجال المحاماة ، والأعيان والوجهاء وكانت بفضل الله تعالى موضع سرور جميع الطبقات ماعدا طبقة العلماء الرسميين ! ! وكذلك كنت أطالب باحياء الليالى التى تعودوا إحياءها فى طنطا كليلة القدر وعاشوراء والمعراج والنصف من شعبان . فكنت أحول هذه الحفلات الى عظات ، وتذكير للحكام بما يجب عليهم من العدل ، والتجار بما يجب عليهم من الصدق ، والعلماء بواجبهم من التعليم والارشاد ، وكنت شديد نكير على النفاق والمنافقين ، ومداهنة ولاة الأمور بما لايتفق وكرامة العلم ، ومشايعتهم فى الأهواء والشهوات . وكان يتألم لهذه المحاضرات من يحسون من أنفسهم تلك الأخلاق الذميمة ، من رجال العلم والادارة ، وكانت العاقبة لهذه المحاضرات نقلى الى معهد أسيوط مرتين ليحال بينى و بين ذلك العمل ، ولكننى كنت أقابل ذلك النقل بما ينبغى أن يقابله به كل مصلح واثق بما يقول ، مؤمن بما يدعو الناس إليه ـ كل ذلك استغلالا للفرصة التى أتاحت لى أن أعظ الحكام فى بيوت الله ، وأن أذكر التجار والأعيان الأطباء ، وأدعو كل صنف الى تقوى الله فى عمله ، ومراقبته فيما ائتمن عليه .

(٢) (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) .

يرينا الله تعالى أنه بصره اياها وعرفه محنها فكذب بها لظلمه، وأبى أن يخضع لها و يقبلها، قيل : الآيات تشمل آيات التوحيد وآيات النبوة ، فآيات التوحيد هى التى عرض لها فى الآيات السابقة ، وآيات النبوة هى التسع : من العصا واليد وفلق البحر وانفجار الماء من الحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل ـ وقيل المراد بها آيات النبوة فقط .

(قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى) .

قال بعض المفسرين : يلوح من جنب هذه الكلمة أن فرائصه كانت ترعد خوفا مما جاء به موسى عليه السلام ، لعلمه وإيقانه أنه على الحق ، وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت ، وأن

---

[١] انتهزتها .

مثله لا يخذل ، ولا يقل ناصره ، وأنه غالبه على ملكه لامحالة ، وقوله (بسحرك) تعلل وتحير ، و إلا فكيف يخفى عليه أن ساحرا لايقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه ، و يغلبه على ملكه بالسحر .

وقد شرحنا قصة السحرة وجمع فرعون لهم ووعدهم الأجر إذا هم غلبوا ، وتهديده لهم بعد الايمان وعدم مبالاتهم بالتهديد — شرحنا ذلك كله فى قصة موسى من سورة الاعراف كما بينا غباوة فرعون فى قوله لهم (آمنتم به قبل أن آذن لكم) وأنه لم يدر أنه ان ملك أجسام الناس فلا يستطيع أن يملك قلوبهم .

والجديد فى هذه السورة أن موسى عليه السلام حينما التقى بالسحرة فى الموعد الذى ضربوه أخذ يعظهم و يقول لهم (و يلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى) فلا تدعوا آياته ومعجزاته سحرا ، لأنكم ان فعلتم ذلك أهلككم الله بعذاب ،وخبتم فى حياتكم لأن هذه عاقبة المفترى ، وهو ظرف ينفع فيه الوعظ ، و يفيد فيه التذكير ، ومع أنهم خصومه وعظهم ، ولم ييأس من ضمهم إليه وقد أفاد الوعظ ، ونجحت الذكرى ، فأصبحوا من أنصاره بعد أن كانوا من خصومه . وتجد فى هذه السورة أن سحرة فرعون حين ألقوا حبالهم وعصيهم خيل الى الرائى أنها تسعى ، وأن موسى حين ذلك أضمر خوفا فى نفسه ، فطمأنه الله تعالى وقال له (لاتخف انك أنت الأعلى) لأنك على الحق ، و بالحق تنطق ، ومن كان على الحق فهو الأعلى ، فهو علو منزلة ومكانة ، وهو تطمين آخر لنبى الله موسى بأنه سيغلب فرعون وملأه ، وستكون له العاقبة ، وهى بشارة لكل من يستعين بربه ، و يعتصم بخالقه ، بأنه لايخاف من المبطل ، ولايذعر من حزب الشيطان ، لأن كيده ضعيف ، و باطله لايبقى ولايدوم ، وفى هذا المعنى قول الله تعالى فى سورة آل عمران وهو يحرض المؤمنين على الثبات والصبر على الجهاد (ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين «١٣٩») .

و بعد إيمان السحرة وتهديد فرعون لهم بأشد أنواع العذاب (قالوا) له (لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) وهى عظات بالغة ، وحكم غالية ، صدرت من قوم امتلأت قلوبهم بالحق فازدروا كل شىء فى سبيله ، حتى تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، والتمثيل بهم ، إذ رأوا أن ماجاءهم من الأدلة والبراهين لايقدمون عليها مرضاة فرعون ، وكذلك لايؤثرونه على الاله الذى فطرهم وخلقهم ، لذلك قالوا: أحكم بما شئت ، وانفذ ماتريد ، لأنك انما تحكم هذه الحياة المحدودة ، وسنلقى جزاءنا وتلقى جزاءك فى حياة بعد هذه الحياة ، ولانستطيع أن نؤثر حياة فانية على حياة باقية ، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا و يغفر ما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير منك وأبقى ، فهو الجدير بالايمان به .

ثم ختموا العظة بقولهم (انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لايموت فيها ولايحيى) لايموت فيها فيستريح من العذاب كما يستريح الميت ، ولايحيا حياة يستريح لها ، فهو بين الحياة والموت ، لم يتمتع براحة الموتى ، ولابنعيم الاحياء (ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى) ومن آمن ذلك

الايمان ، ووثق من ربه تلك الثقة ، واقتنع ذلك الاقتناع ، جدير بأن يستخف بهذه الحياة الى حدّ عدم المبالاة بشيء فى سبيل إيمانه . اللهم ثبت إيماننا ، وقوّ يقيننا ، وشدّ عزيمتنا ، كما شددت عزم الذين آمنوا بموسى من سحرة فرعون ، حتى لم يبالوا بتهديد فرعون ، ولابجبروت فرعون ، ولم يحلوا قلبهم سوى الخوف منك ، وجعلوا إجلالك فوق كلّ اجلال ، وتوقيرك فوق كلّ توقير وأصبحوا مثلا عاليا فى التضحية والفضيلة ، فكانوا قدوة حسنة وأسوة صالحة .

(٣) (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى) الخ يجوز أن يكون سبب إيحاء الله تعالى إلى نبيه موسى بالهجرة أن عدوّ الله فرعون أمعن فى الايذاء بعد حادث السحرة ، لأن إيمانهم غاظه ، ولذلك تهدّدهم بتقطيع الأيدى والأرجل وتصليبهم فى جذوع النخل ، ويدلّ لذلك أن السنة العامّة مع كل رسول أن يأذنه الله بالهجرة فرارا من الاضطهاد ، وليخلص بدين المؤمنين من أمّته من الفتنة .

ثم لما تعهم فرعون بجنوده فى الهجرة ليؤذوهم كان مدبرا له ولجنوده أن يغرق ولموسى وقومه أن ينجو ، ويجوز أن يكون السبب الأوّل لهجرة موسى مع قومه هو انجاؤه واغراق فرعون ، أما الطريق اليبس الذى كان فيه العبور فلم يعلم بالضبط ، ويستبعد صاحب كتاب [قصص الأنبياء] أن يكون العبور من المكان الذى يسمى [بركة فرعون] بينها و بين السويس بضع ساعات بسير السفن .

ويرى أن خليج السويس كان يمتدّ فى تلك الأزمان الى البحيرة المرة أو يقرب منها ، وفى هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورهم ، وبعبارة أخرى أنهم عبروا من مكان شمالى المكان المعروف بعيون موسى فى البرّ الأسيوى وهى لاتبعد عن السويس كثيرا اه .

وقولهم (فاضرب لهم طريقا) أى اجعل لهم ، من قولهم : ضرب له فى ماله سهما : جعل له ذلك ، وضرب اللبن: عمله ، وتفسره آيات الشعراء (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلّ فرق كالطود العظيم «٦٣») فضرب الطريق تكوينه وجعله بواسطة ضرب البحر بالعصى وانفلاقه انفلاقا يباعد مابين العرقين حتى صار قاع البحر يابسا يستطيع معه موسى وقومه أن يعبروا البحر (لاتخاف دركا ولاتخشى) فى موضع الحال . أى حال كونك لاتخاف أن يدركك فرعون ، ولاتخشى ذلك، وقرئ (لاتخف) على الأمر ، وقوله (فغشيهم من اليمّ ماغشيهم) أى غطاهم من الماء شىء كثير لايعلم كنهه إلاالله (وأضلّ فرعون قومه وماهدى) أضلهم طريق الهدى ، وأبعدهم عن الرشاد ، ولم يردالله بهذا أن يعتذرعن قوم فرعون، وإنما يريد أن عاقبة طاعتهم لفرعون وممالأته ذلك الضلال البعيد ، وماذا عليهم إذاهم خرجوا على فرعون ، ولم يبالوا بوعيده كما خرج عليه السحرة ؟ وهل أعان فرعون على ضلاله واضلاله سوى ضعف قومه وهوان شعبه عليه ؟ ولو أنه رأى منهم صلابة فى الحقّ ، ونفرة من الظلم ، واستنكارا للباطل ، ما وصل فى طغيانه إلى ذلك الحدّ ، وحسبنا أن الله تعالى يقول فيه وفى قومه (فاستخفّ قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين «٥٤» [1]) وقوله (وماهدى) تهكم بفرعون فى قوله (وما أهديكم إلا سبيل الرشاد «٢٩» [2]) .

---

[١] الزخرف . [٢] غافر .

ثم أخذ يذكر بنى اسرائيل بنعمه ويسرد لهم فضله عليهم علهم يستفيدون من ذلك التذكير ، ثم ختمه بقوله (وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) وهو كقوله تعالى حكاية عن الذين يحملون العرش ومن حوله فى استغفارهم للذين آمنوا (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم «٧» [1]) حتى لا يطمع فى المغفرة من هو مصرّ على المعصية دائب على مغاضبة الله تعالى فان ذلك خلاف سنته ، ولذلك كان دعاء الملائكة بالمغفرة للذين تابوا واتبعوا سبيل الله ، وهو المراد بقوله (وعمل صالحا ثم اهتدى) .

موسى عليه السلام

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ «٨٣» قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ «٨٤» قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ «٨٥» فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى «٨٦» قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا [2] وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا [3] مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِىُّ «٨٧» فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا [4] لَهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ «٨٨» أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا «٨٩» وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِنْ قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى «٩٠» قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ «٩١» قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا «٩٢» أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى «٩٣» قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى «٩٤» قَالَ فَمَا خَطْبُكَ [5] يَٰسَٰمِرِىُّ «٩٥» قَالَ بَصُرْتُ [6] بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ [7]

---

[١] غافر . [٢] بأن ملكنا أمورنا . [٣] جمع وزر ، وهو الثقل والحمل .
[٤] هيكلا قد خلا من الروح ، وخوار : صوت . [٥] قصتك وشأنك .
[٦] علمت ما جهلوا . [٧] تعاليمه .

الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي «٩٦» قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ [١] وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا «٩٧» إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا «٩٨» طه

شرح وعــــبرة

(١) (وما أعجلك عن قومك ياموسى) أىّ شيء عجل بك عنهم ، ينكر عليه ذلك ، وكان قد مضى مع النقباء إلى الطور على الموعد المضروب وقد بين الله ذلك الموعد فى سورة الأعراف بقوله (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين «١٤٢») ثم قال (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا «١٥٥») وهذه الآية التى نحن بصدد شرحها ترينا أن موسى عليه السلام سبق قومه فى لقاء الله تعالى ، فسأله عن السبب منكرا عليه ذلك السبق ، فكان جوابه (هم أولاء على أثرى) ليس بينى و بينهم إلا تقدم يسير لا يعتدّ بمثله فى العادة ، وليس بينى و بين من سبقته إلا مسافة قريبة ، يتقدم بمثلها الوفد — رأسهم ومقدمهم .

ثم عقب ببيان السبب فى ذلك فى قوله (وعجلت إليك ربّ لترضى) فقد سبقت النقباء تشوّقا إلى رضاك ، وتنجزا لموعدك .

(قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى) أخبره الله أنه قد اختبر قومه من بعده ، وابتلاهم بالعجل الذى صنعه السامرى من حلىّ القوم .

وقد نسب الضلال الى السامرىّ ، لأنه هو الذى استغلّ جهلهم ، وألفهم الوثنية وصنع لهم صورة تشبه العجل ، وجعل له صوتا كصوته ، ولولا أن السامرىّ وجد من القوم استعدادا لتلك الخرافة ماصنعها (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) شأن الرجل الذى يحرص على الحقّ أن يذهب ، وعلى مجهوده أن يضيع سدى (قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) إذا أنتم بقيتم على الايمان (أفطال عليكم العهد) مدّة مفارقتى لكم (أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى) .

يريد أم هى شهوة ومحبة للشرك حملتكم على ذلك العمل المغضب لله تعالى فنقضتم موعدى معكم بأنكم لاتعودون إلى الشرك ، ولاترجعون إلى الوثنية (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) باختيارنا وقدرتنا (ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى) حملنا أحمالا من حلىّ القبط التى استعرناها منهم ، فقذفناها فى نار السامرى التى أوقدها (فكذلك ألقى السامرى) أراهم أنه يلقى حليا فى يده مثل ما ألقوا (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) وقوله

---

[١] لا تمس الناس ولا يمسوك .

(جسدا) اشارة إلى أنه هيكل خال عن الروح كقوله (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب «٣٤» [١])

يريد هيكلا قد خلا عن آثار الحياة (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى) أى نسى موسى أن يطلبه ههنا وذهب ليطلبه عند الطور ، أو فنسى السامرى وترك ما كان عليه من الايمان (أفلا يرون أن لايرجع إليهم قولا ولايملك لهم ضرّا ولانفعا) تقريع لعباد العجل وتوبيخ لهم بأنهم بلغوا من الغباوة حدّا كبيرا ، إذ يعبدون هيكلا لايرجع إليهم قولا إذاهم طلبوه ، ولايملك لهم ضرا إذاهم خالفوه ، ولانفعا إذاهم أطاعوه (ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) .

يرينا أن هارون قد نهاهم عن عبادته وحملهم على عبادة الرحمن فعصوه وأصرّوا على شركهم (قال ياهارون مامنعك إذرأيتهم ضلوا أن لاتتبعن أفعصيت أمرى) أى مادعاك وحملك على أن لاتتبعنى فى وصيتى إذقلت لك (اخلفنى فى قومى وأصلح ولاتتبع سبيل المفسدين «١٤٢» [٢]) فلم تركت قتالهم وتأديبهم ؟ (قال يا ابن أم لاتأخذ بلحيتى ولابرأسى انى خشيت أن تقول فرّقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى) يريه أن الحامل له على عدم قتالهم خشية التفريق لوقاتلت بعضهم ببعض فخشيت عتابك على اطراح ماوصيتنى به من ضمّ المتفرّق ، وحفظ الدماء ، ولم يكن لى بدّ من ملاحظة وصيتك ، والعمل على موجبها ، وفى سورة الأعراف يقول (إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولاتجعلنى مع القوم الظالمين «١٥٠» [٣]) .

وعذر نبىّ الله هارون مجموع الأمرين : حرصه على وصية أخيه موسى ، وخوفه أن يتفرقوا إذا حارب بعضهم بعضا ، وضعفه أمامهم وقربانهم من قتله ، فرأى أن يدع المسألة الى حضور أخيه موسى فيأخذ رأيه فيما يجب أن يكون .

ومن العجب أن يكون حرص هارون على وصية موسى مدعاة للوم أخيه عليه ، وعلى كلّ فالمسألة خلاف فى الاجتهاد فى الخطة التى كان ينبغى أن يكون عليها هارون ، فهو يرى رأيا لم يوافقه عليه موسى ، والأمور الاجتهادية يختلف فيها الناس اختلافا كبيرا ، والخطأ فيها مغفور ، ولذلك قال موسى عقب غضبه على هارون (ربّ اغفرلى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين «١٥١» [٤]).

(٢) (قال فما خطبك ياسامرىّ قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سوّلت لى نفسى) .

بعد انتهاء موسى من تعنيف أخيه هارون رجع إلى السامرىّ وسأله قصته ، فقال له السامرى (بصرت بما لم يبصروا به) علمت مالم يعلموا (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أخذت طائفة من تعاليم الرسول وهوموسى (فنبذتها) طرحتها (وكذلك سوّلت لى نفسى) زينت وحسنت ، وهى مسألة انتصر فيها العلم على الجهل ، والقوّة على الضعف ، فالسامرىّ كان أعلم من بنى إسرائيل بشئون المعادن ، وكيف تصاغ وتحوّل من شكل إلى شكل ، وأنها إذا وضعت على هيئة عجل ،

---

[١] ص . [٢ ـ ٤] الأعراف .

وجعل فيه تجويف يمرّ منه الهواء أحدث ذلك التجويف بواسطة مرور الهواء صوتا يشبه صوت العجل ، ثم يرى بنى إسرائيل أن ذلك العجل هو إله موسى الذى كان يطلبه فنسيه فى ذلك المكان حين ذاك (قال) له نبيّ الله موسى (فاذهب فانّ لك فى الحياة أن تقول لامساس) .

وأظهر ماقيل فيه قول مقاتل : أن موسى عليه السلام أخرجه من محلة بنى إسرائيل وقال له اخرج أنت وأهلك، فخرج طريدا إلى البرارى ، والمعنى أنى أجعلك ياسامرىّ فى بعدك عن الناس بحيث لو أردت أن تخبر غيرك من الناس عن حالك لا تجد إلى ذلك سبيلا ، ولاتستطيع إلا أن تقول لامساس ، ومعناه نفى السامرىّ من ديار بنى إسرائيل ، لأنه مفسد مضلّ ، فمن المصلحة أن يحال بينه و بين الشعب الاسرائيلى حتى لايفسده مرّة أخرى ، ذلك حظه فى الحياة ، أما حظه فى الآخرة فقد بينه الله فى قوله (و إنّ لك موعدا لن تخلفه) يعاقبك الله فيه العقوبة الكبرى ، ويجزيك الجزاء الأوفى (وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرّقنه ثم لننسفنه فى اليمّ نسفا) وهو إصلاح آخر من نبيّ الله موسى ، و إهانة واضحة لعباد ذلك العجل الذى اتخذه السامرىّ ، وهو تحريقه ولوكان عباد العجل فيهم ذرّة من العقل لرجعوا إلى أنفسهم فحكموا عليها بالظلم ، إذ عبدوا إلها لايدفع عن نفسه ضرّا ، ولا يجلب لعابديه نفعا ، وما أشبه ذلك بما صنعه نبيّ الله ابراهيم عليه السلام بالأصنام التى عبدها قومه ، فجعلها قطعا صغيرة ، ليذلّ بها من يعبدها ، ويحرّكه للنظر ، ويلهب نفسه للبحث عن الحق ، و بعد تحريق ذلك العجل ينسفه فى البحر ، وعمل موسى عليه السلام هو قطع لجذور الشرك ، وقضاء على ذرائع الوثنية ، وسدّ لذرائع الفساد ، فتنوا بالسامرىّ فنفاه وحال بينهم و بينه ، وعبدوا العجل الذى صنع من الذّهب فحرقه ونسفه فى البحر ، حتى لا يبقى فى نفوسهم ذرّة من الاشتباه فيه والعتة به .

وكذلك فعل عمر حين رأى الناس أخذوا يتبرّكون بالشجرة التى حصلت عندها البيعة وقطعها ليستأصل جذورالشرك ، وذرائع الوثنية . فاللهمّ وفقنا للتأسى بالسابقين الصالحين ، والاهتداء بأعمال الرسل المتقدّمين ، ونسألك أن تبصرنا بدينك ، وتهدينا للعمل بكتابك .

ثم ختم القصة بقوله (إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كلّ شىء علما) .

موسى عليه السلام

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ «٤٥» إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ «٤٦» فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ «٤٧» فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ «٤٨» وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ «٤٩» المؤمنون

شرح وعـــبرة

(١) (ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين) أى إرسالا مصحوبا بالآيات (وسلطان مبين) من السلاطة، وهى التمكن من القهر (ولوشاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم «٩٠» [١]) ومنه سمى السلطان، وهو يقال فى السلاطة نحو (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا «٣٣» [٢]) وقوله (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون « ٩٩ » إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون « ١٠٠ » [٣]) . وقوله (يامعشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان «٣٣» [٤]) و يطلق السلطان على الحجة لما فيها من الهجوم على القلوب والتسلط عليها ، ومنـه قوله تعالى (فأتونا بسلطان مبين «١٠» [٥]) أى بحجة واضحة ، فيحتمل أن يكون السلطان هنا هو الحجة ذات التسلط على الخصم ، و يكون ذكره بعد الآيات لبيان أن هذه الآيات هى دلائل على قدرة الله تعالى وصدق رسوله موسى عليه السـلام ، ومن هذه الناحية كانت آيات ، ومن ناحية أخرى هى ذات سلطان وقهر لمن يطلع عليها معتبرا بها ، و يجوز أن يكون السلطان هنا حجة خاصة هى آية العصا ، وسماها سلطانا مع أنها داخلة فى الآيات إشارة إلى أن قوتها قوة ممتازة حتى كأنها نوع آخر لذلك خصها بالذكر وقيل : إن السلطان هنا هو سلطان الغلب المعنوى ، والقهر الأدبى ، وهو فوق السلطان المادى وهو الذى يدل عليه قوله فى سـورة طه (لا تخف إنك أنت الأعلى « ٦٨ » وألق ما فى يمينك تلقف ماصنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى « ٦٩ ») وكأنه يقول : ولقد أرسلنا موسى مصحوبا بآيات الصدق وسلطانه المعنوى على فرعون وملائه .

وقد وصف السلطان بأنه مبين لأنه ظاهر لكل من قرأ قصـة فرعون مع موسى ، وظاهر لقوم موسى ، وآية ظهوره استعانة فرعون بالسحرة ليبطلوا عمل موسى ، ثم انزعاجه من إيمانهم بموسى بعد أن عرفوا أنه رسول من قبل الله تعالى لا ساحر ، ثم تهديده لهم على الايمان ورميهم بأنهم متواطئون معه على هدم فرعون وملك فرعون (إلى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوما عالين) فاستكبروا عن الانقياد ، وكانوا قوما شأنهم مجاوزة الحدود والتكبر ، والجملة تربنا أن ذلك خلق فيهم لم يكن من الأعراض التى تطرأ وتزول (فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) قالوا ذلك فيما بينهم بطريق المناصحة ، أنؤمن لرجلين من البشر مماثلين لنا فى البشرية والحال أن قومهما وهم بنو إسرائيل خادمون منقادون لنا كالعبيد ، وكأنهم قصـدوا بذلك الحط من شأنهما عليهما السلام ، ونزول مرتبتهما عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية ، وهو أن بنى إسرائيل الذين بعثوا لدعوتهم عبيـد لنا ، ولا فرق بينهما و بينهم ، وكأنهم قالوا على وجه الانكار : أنؤمن لرجلين مساويين لنا فى البشرية ؟ وتلك هى الشبهة التى أوردها أقوام الرسل عليهم وردها الله عليهم فى سورة الفرقان وسورة الأعراف وكثير من السور .

ثم عرضوا بشأن الرسـل وقالوا : إن قومهما عابدون لنا فكيف نؤمن بهم ونسـوى أنفسنا

---

[١] النساء . [٢] الإسراء . [٣] النحل . [٤] الرحمن . [٥] إبراهيم .

بأولئك العبيد فى طاعة موسى وهارون ؟ وهو كقول الملأ من قوم نوح (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) يريدون أنه لا يصح أن نكون قرناء لأولئك الأقوام الذين هم أدنياء فى المهنة ونحن على ما نحن عليه من عظمة وقوة ، كذلك فرعون لا ينبغى أن يكون مع عابديه فى قرن واحد ، تربطهم ملة واحدة ، ودين واحد ، وذلك هو الامعان فى التكبر ، والغلو فى احتقار الناس والاستخفاف بهم (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) من كان هذا حاله فتكذيبه بالرسل أثر طبيعى لحالته النفسية ، فكان عاقبة التكذيب إهلاك الله لهم بالغرق (ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) .

يرينا الله تعالى أن التوراة التى أنزلها الله على نبيه موسى كانت بعد غرق فرعون وأنها كبقية الكتب السماوية أنزلها الله نورا وهداية ، فآمن بها من آمن ، وكفر بها من كفر .

موسى عليه السلام

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ «١٠» قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ «١١» قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ «١٢» وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ «١٣» وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ «١٤» قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ «١٥» فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ «١٦» أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ «١٧» قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ «١٨» وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ [١] «١٩» قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ «٢٠» فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ «٢١» وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ [٢] بَنِي إِسْرَائِيلَ «٢٢» قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ «٢٣» قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ «٢٤» قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ «٢٥» قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ «٢٦» قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ

---

[١] لنعمى عليك . [٢] اتخذتهم عبيداً .

لَمجْنُونٌ «٢٧» قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ «٢٨» قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ «٢٩» قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ «٣٠» قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ «٣١» فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ «٣٢» وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ «٣٣» قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذَا لَسٰحِرٌ عَلِيمٌ «٣٤» يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ[١] «٣٥» قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حٰشِرِينَ «٣٦» يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ «٣٧» فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقٰتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ «٣٨» وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ «٣٩» لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغٰلِبِينَ «٤٠» فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغٰلِبِينَ «٤١» قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ «٤٢» قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ «٤٣» فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغٰلِبُونَ «٤٤» فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ[٢] مَا يَأْفِكُونَ «٤٥» فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سٰجِدِينَ «٤٦» قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعٰلَمِينَ «٤٧» رَبِّ مُوسَىٰ وَهٰرُونَ «٤٨» قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ «٤٩» قَالُوا لَا ضَيْرَ[٣] إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ «٥٠» إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطٰيٰنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ «٥١» وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ «٥٢» فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حٰشِرِينَ «٥٣» إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ «٥٤» وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ «٥٥»

---

[١] من المؤامرة ، وهي المشاورة ، « أرجه » : أخرّ أمره . [٢] تبتلع . [٣] ضرر .

وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ «٥٦» فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ «٥٧» وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ (١) كَرِيمٍ «٥٨» كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ «٥٩» فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٢) «٦٠» فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ «٦١» قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ «٦٢» فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ «٦٣» وَأَزْلَفْنَا (٣) ثَمَّ ٱلْأَخَرِينَ «٦٤» وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ «٦٥» ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ «٦٦» إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ «٦٧» وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ «٦٨» الشعراء

شرح وعـــبرة

(١) بدأ فى هذه القصة بعد قوله فى أوّل السورة (تلك آيات الكتاب المبين «٢» لعلك باخع نفسك أن لايكونوا مؤمنين «٣» إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين «٤») .

بعد أن أراه الله أنه يشفق عليه أن يقتل نفسه حسرة على مافاته من اسلام قومه أمره أن يذكر قصة نبىّ الله موسى مع عدوّ الله وعدوّه فرعون ليتسلى بهذه القصة ، ويتأسى بذلك الصبر الذى كان من نبىّ الله موسى وأخيه هارون ، فقال له (وإذ نادى ربك موسى) الخ ، وقوله (ألا يتقون) تعجيب لموسى عليه السلام من حالهم التى شنعت فى الظلم والعسف ، ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم من أيام الله (قال ربّ انى أخاف أن يكذبون) الخ .

من عادة القرآن فى القصص أن يجمل فى بعض السور مابسطه فى بعض آخر ، وقد بسط الله خوف موسى من بطش فرعون ، وطلبه أن يحلّ عقدة من لسانه ، وأن يشرح صدره ، ويجعل أخاه هارون وزيرا له يساعده فى الأمر ويشدّ به الأزر فى سورة طه ، وقوله (ويضيق صدرى ولاينطلق لسانى) عطف على قوله (انى أخاف أن يكذبون) والمراد أنه يخشى بطش فرعون به ، وعنده من عقدة اللسان مالا يمكنه من بسط الدعوة واقامة الحجة .

لذلك طلب أن يرسل الله إلى هارون ليكون وزيرا معه ، وهارون أفصح لسانا منه كما قال (وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدّقنى إنى أخاف أن يكذبون «٣٤» (٤)) والردء : المعين والناصر ، وهو المراد بالوزير فى سورة طه ، وقوله (ولهم علىّ ذنب فأخاف أن

---

[١] منازل حسنة . [٢] داخلين فى وقت الشروق . [٣] قربنا . [٤] القصص .

يقتلون) قد شرحه الله تعالى فى سورة القصص ، و بين أن رجلين اقتتلا وكان أحد المقتتلين من شيعة موسى ، وأنه استغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوّه فضربه موسى فمات خطأ ، وستراهامفصلة فى سورة القصص (قال كلا فاذهبابآياتنا إنا معكم مستمعون) لاعذر لكما فى التأخر عن دعوة موسى ، وعلل ذلك بقوله (انا معكم مستمعون) وقال فى سورة طه (لاتخافا اننى معكما أسمع وأرى «٤٦») .

ثم طالبهما بأن يقولا لفرعون (إنا رسول ربّ العالمين أن أرسل معنا بنى إسرائيل) وفى سورة طه (ولاتعذبهم) فيقول فرعون لموسى بعد أن بلغه رسالة ربه (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) فردّ عليه موسى بقوله (فعلتها إذا وأنا من الضالين) أى قبل أن يهدينى الله بالرسالة ، لأن الرسول قبل أن يوحى إليه ضالّ (ووجدك ضالا فهدى «٧» [1]) (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان «٥٢» [2]) أوالضالين: المخطئين ، كمن يقتل خطأ من غيرتعمد للقتل، أو الضالين : الذاهبين عن الصواب الناسين من قوله (أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى «٢٨٢» [3]) وقوله (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) ردّ على قول فرعون : ألم نربك فينا وليدا بأن لامانع من أن أتربى عندك ثم يبعثنى الله إليك ، ولامانع من أن يختصّ من شاء بما شاء من الفضل ، فتربيتى عندك فى الصغر لاتطعن فى رسالتى ودعوتى لك إلى الله تعالى ، وهل وجود فضل لك علىّ فى الصغر يمنعنى من تبليغ رسالة الله إليك ؟ وأىّ صلة بين هذه وهذه ؟ وهل دعوتك إلى الله كفران لنعمتك علىّ وأنا صغير ؟

ثم أراد موسى أن يكرّ على امتنان فرعون بالتربية فيبطله من أساسه وأبى عليه أن يسمى هذه النعمة إلا نقمة فقال (وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى اسرائيل) يريد أن حقيقة انعامه عليه تعبيد بنى اسرائيل و إذلال لهم ، لأن سبب تربيته لموسى خوف أمّه من ذبح الأبناء واستحياء النساء ، فكانت نقمة لبنى اسرائيل تسبب عنها نعمة لنبىّ الله موسى ، والشرّ إذا سبب خيرا لايؤجر عليه فاعل الشرّ ، ولايصح له أن يمتنّ به ، وكان موسى يقول أتريد أن تمتنّ علىّ بالتربية وماجاءت إلا تنفيذا لخطة استعباد بنى اسرائيل وتذبيح أبنائهم ؟ دع المنة بهذه الحسنة فانها مغمورة بنقمة أكبر منها .

وقد كان موسى فى هذه المحاجة شديد الذكاء حاضر البديهة ، لم يلبث فرعون أن يذكره بنعمة التربية حتى عقبها موسى بنقمة التعبيد لبنى اسرائيل ، وحين ماقال له أتذكر نعمة التربية ، ردّ عليه بقوله : أتذكر سبب هذه النعمة والظروف المحيط بها ؟ وهل سلمت لك هذه المنة وحسبت لك فضلا ؟ مع أنك لم تقصد إليها و إنما قصدت الىّ الشرّ فكان الخير .

(٢) (قال فرعون وما ربّ العالمين) الخ أخذ فرعون يناظر موسى و يسأله عن ربّ العالمين الذى بعثه الى الناس ، ف(قال) له موسى : هو (ربّ السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين) أى من أهل الايقان .

---

[١] الضحى . [٢] الشورى . [٣] البقرة .

هنا لك عجب فرعون من قول موسى، و (قال لمن حوله) من الملأ (ألا تستمعون) فعقب موسى على ذلك الانكار بقوله (ربكم ورب آبائكم الأولين) فهو الذى خلقكم وخلقهم ، وهو الذى رباكم بفضله ورباهم ، فليس ربكم فرعون ، وانما هوعبد من عبيدالله ، خاضع لسنته ، مستعد لما يقضى به عليه . عند ذلك تحرك فرعون ، لأن موسى حاول أن يأخذ القوم منه فقال (ان رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) وكيف لا يكون مجنونا وقد تجاهل فرعون ، وجبروت فرعون فزادهم موسى بقوله (رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) تفهمون قيمة ذلك القول ، وحقية هذا الكلام .

هنالك عمد فرعون الى البطش ، ولجأ الى الوعيد والتهديد ، لأنه لم يجد حجة يرد بها قول نبى الله موسى فـ(قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) .

لم يقف فرعون عند تحذير قومه من اتباعه ، وتخويفهم من الاستماع له ، بل طمع فى أن يتخذه موسى إلها ، وهو أسلوب خبيث فى تهديد القوم ، وحملهم على بقائهم على ماهم عليه ، وكأنه يقول لهم: ها أنا أهدد ذلك الرسول بالسجن إذا هو اتخذ إلها غيرى ، ولابد له من أن يدع ذلك الاله الذى يدعوكم إليه ، و يتخذنى إلها .

و إذا كان موسى منهيا عن اتخاذ إله غير فرعون فكيف ببنى اسرائيل ؟ فيقول له موسى عليه السلام فى لطف (أولوجئتك بشىء مبين) يريد أتصر على أن تسجنى ولوجئتك ببرهان بين وضح على صدقى ؟ وهو استدراج لفرعون حتى يدع التهديد بالقوة المادية ، و إلجاء له الى رؤية الأدلة ، والاطلاع على الآيات ، هناك (قال) فرعون (فأت به ان كنت من الصادقين) هنالك ألقى العصا فانقلبت ثعبانا واضحا للناس (ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) وهنالك استشار أشراف قومه ماذا يصنع مع موسى ؟ وهنالك استفز أولئك الملأ بقوله (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) وهى كلمة تشف عن ضعف فرعون أمام الحق ، وخذلانه أمام الدليل والبرهان ، فأشار عليه الملأ أن يؤخر أمره وأمر أخيه و يبعث حاشرين فى المدائن يأتونه بكل سحار عليم ، (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين) فـ(قال نعم) لكم الأجر ، ومع ذلك تكونون من المقربين منى ، وهو دليل آخر على ضعف فرعون ومسالكه على الانتصار على موسى ، وهنالك ألقى السحرة الحبال والعصى (وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) يحتمل أن يكون هذا قسما من أيمان الجاهلية ، و يحتمل أنه استعانة بعزة فرعون على الغلب ، وقد خذلهم الله فغلب موسى ، لأن المعتز بغير الله لابد أن يذل ، ثم آمن السحرة بموسى، و إله موسى ، فهددهم فرعون ، فلم يبالوا بذلك التهديد ، و (قالوا لاضير إنا الى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) وقد بسطت شرح قصة السحرة والسحر فى سورة الأعراف .

(٣) (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون) .

علل الاسراء باتباع فرعون وجنوده لهم ليوقعوا بهم الأذى ، وسبب ذلك الاتباع إيمان السحرة وأن صاروا من جند موسى بعد أن كانوا من حزب فرعون ، وكان إيمان السحرة مدعاة

لافتضاح فرعون ، لأنهم كانوا علماء لهم قيمتهم ، فكان لايمانهم ضجة كبرى ، وقد أحدثت فى حاشية فرعون هزّة عنيفة ، وزلزالا كبيرا (فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين إنّ هؤلاء لشرذمة قليلون و إنهم لنا لغائظون و إنا لجميع حاذرون) .

استصرخ فرعون قومه ، واستغاث عشيرته ، و بعث فى مدائن ملكه من يحشرون الناس إليه ، ويجمعونهم حوله ، ليكونوا تحت أمره ، قائلين فى دعوتهم (إنّ هؤلاء لشرذمة قليلون) يريدون حزب موسى الذى آمن به وفيه السحرة ، وأنهم مع قلتهم لغائظون لنا ، وانا جميعنا لحذرون من ظفرهم بنا ، وانتصارهم علينا ، وهى كلمة تمثل سلطان الحق على الباطل ، وما يحسّ به حزب الشيطان من حزب الرحمن .

تر ينا هـذه الكلمة أن أنصار الحق على قلتهم هم قذى فى أعين حزب الشيطان ، وشجى فى حلوقهم لايهدأ لهم بال مع وجودهم ، ولا يستريح لهم ضمير ما داموا فيهم، وهى آية كبرى من آيات الله فى الحق والباطل ستبقى ببقاء السنين .

يعترف فرعون وحز به أن قوم موسى طائفة قليلة ، أما فرعون فمعه الملك وصولجانه ، والحكم وعظمته ، مع الخدم والحشم (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى «٥١» [1]) معه ذلك كله، وليس مع موسى إلا ربه الذى خلقه ، وقلبه الذى بين جنبيه ، و إيمانه الذى يعتصم به ، وعقيدته التى يطمئنّ إليها ، يخاف فرعون موسى ، ويخشى عاقبته ، و يقول فى وصفه ووصف من معه بصيغة المؤكد (و إنهم لنا لغائظون و إنا لجميع حاذرون) فليعتبر بذلك أرباب السلطان ، وأصحاب النفوذ والجاه ، وليعلموا أن سلطانهم لن يصـل إلى سلطان فرعون ، وملكهم لن يبلغ ملكه ، ومع ذلك كان فرعون وجنده خائفين من موسى وجلين ، شأن المبطل مع المحق ، والمتكبر مع المتواضع ، والمعتزّ بنفسه مع المعتزّ بالحق (فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز) الخ .

ير ينا أنه أخرج فرعون وقومه من هـذه الجنات التى كانوا ينعمون فيها ، والعيون المتفجرة فى هـذه الجنات وفى غيرها (وكنوز) فيها المال ، وحال بينهم و بينها ، فلم ينتفعوا بها ، وكان ذلك إجابة لدعوة نبيّ الله موسى (ر بنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ر بنا ليضلوا عن سبيلك ر بنا اطمس على أموالهم «٨٨» [2]) .

ولا شك أن إخراج فرعون وملائه من المال الذى كنزوه طمس له ، وحرمان لفرعون وقومه منه (ومقام كريم) موضع للاقامة حسن وهى المنازل البهجة ، أخرجهم الله من تلك النعم وأورثها بنى إسرائيل (فأتبعوهم مشرقين) عند شروق الشمس ، وهو يدلّ على حرص القوم على إدراك قوم موسى (فلما تراءا الجمعان) جمع موسى وجمع فرعون (قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معى ربى سيهدين) إلى سبيل النجاة منهم ، لأنه هو الذى أمرنى بالهجرة .

وما أحسن هذه الثقة التى يثقها نبيّ الله موسى بر به إذ يقول لقومه حين خافوا (كلا) لاتخافوا (إنّ معى ربى) بالمعونة والتأييـد ، ومن كان الله معه فلن يغلبه أحد (سيهدين) إلى ما فيـه مصلحتى ومصلحتكم .

---

[١] الزخرف . [٢] يونس .

رحين ذلك أوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فضرب به موسى فانفلق البحر فرقين فكان كل فرق كالجبل العظيم فى علوه ، وقرّب الله الآخرين وهم قوم فرعون من بنى إسرائيل ، أو أدنى بعضهم من بعض حتى لا ينجو منهم أحد ، وأنجى الله موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرق الآخرين ، ثم قال (إنّ فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم) فى نجاة موسى ومن معه ، وغرق فرعون وشيعته آية كبرى من آيات الله فى الأرض ، وما نفعه عليها أكثرهم ، ولا انتفع بها غالبهم ، وهو يفيدنا أن الذى غرق مع فرعون هم طائفة من قومه ، ولذلك قال فى بعض الآيات (فأتبعهم فرعون وجنوده) وأن الذى بقى بلا غرق لم ينتفع بهذه الآيات ، وبقى على شركه ووثنيته (وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم) غالب على أمره لايعجزه شىء ، رحيم بخلقه فى عقوبته . .

موسى عليـــه السلام

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ «٧» فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ «٨» يَٰمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٩» وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ «١٠» إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ «١١» وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ «١٢» فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ «١٣» وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ «١٤» النمل

شرح وعـــبرة

(١) الجديد فى هذه القصـة أن موسى عليه السلام حينما وصل المكان الذى فيه النار نودى أن بورك من فى النار ومن حولها ، والمراد بمن فى النار من فى مكانها وهو موسى لقربه منها ، وبمن حول مكانها الملائكة ، والمكان هو البقعة المباركة التى وردت فى سورة القصص (فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله ربّ العالمين « ٣٠ »

ومجموع الآيات يعطينا أن الله تعالى بارك من فى النار ، ومن حول النار ، كما جعل البقعة التى حصل فيها كلام الله لموسى مباركة. والسبب فى أن هذه البقعة بوركت وبورك من فيها وحواليها حدوث هذا الأمر العظيم فيها ، وهو تكليم الله موسى عليه السلام ، وجعله رسولا ، وإظهار المعجزات على يديه ، ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة بالبركات فى قوله (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين « ٨١ » [1]) وحقت أن تكون كذلك ، فهى مبعث الأنبياء ومهبط الوحى ، وكفات[2] الأنبياء أحياء وأمواتا (وسبحان الله ربّ العالمين) تنزيه لله تعالى عما لا يليق به من صفات المخلوقين كحلول أو اتحاد أو غير ذلك .

وذلك التنزيه كالتمهيد لاعلام موسى أن كلام الله له ووحيه إليه لم يكن على نحو كلام المخلوقين بعضهم مع بعض، وقيل : إنه تعجيب لموسى من ذلك الأمر: كأنه يأمره بأن يقول (سبحان الله ربّ العالمين) وايذان بأن ذلك الأمر مريده ومكوّنه ربّ العالمين ، وفى اختيار كلمة (ربّ) إشعار بأن ماسيلقاه موسى عليه السلام من الله تعالى هو من باب تربية العالم تربية روحية ، لأنه شريعة والشرائع مربية للروح ، كما أن النعم الظاهرة تربى الجسم ، ولا غنى للانسان عن تربية روحه مع تربية جسمه . وقوله (ولم يعقب) أى لم يرجع بعد أن ولى .

وقد خاف موسى لأنه لم يألف أن تنقلب العصا ثعبانا يمشى فى الأرض بسرعة وخفة ، ولذلك أطلق عليه جانّ ، فانه الثعبان الصغير الذى يمشى بسرعة ، ومن جهة أخرى قد يظنّ موسى أن انقلاب العصا حية تسعى لأمر أريد به تكفيرا لما حصل منه قبل النبوّة ، ولذلك قال الله له (ياموسى لا تخف إنى لا يخاف لدىّ المرسلون) وهى كلمة عظمة صدرت من إله يرى بها نبىّ الله موسى أنه لاينبغى للرسل أن تخاف بحضرتى ، لأنهم تحت رعايتى ولطفى .

ولما كان موسى قد يعلق بذهنه أن يكون ذلك الحادث له صلة بفعلته مع القبطى طمأنه الله تعالى بقوله (إلا من ظلم ثم بدّل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم) وهو من التعريضات التى يلطف مأخذها ويدق مسلكها ، وقوله (مبصرة) أى واضحة جلية .

وقد نسب الابصار لها مع أنه لمتأمليها ، لأنهم اتصلوا بها وكانوا متعلقين بها بنظرهم وتفكرهم فيها ، فكان إبصارهم مافيها من جلاء كأنه إبصار لنفس الآيات ، أو جعلت كأنها تبصر فتهدى ومنه قولهم: كلمة عيناء، وكلمة عوراء ، لأن الكلمة الحسنة ترشد ، والكلمة السيئة تغوى ، وقرئ مبصرة [بفتح الميم] وهى كقولهم : مجبنة ومبخلة : أى مكان يكثر فيها التبصر (قالوا هذا سحر مبين) أى واضح لاشك فى أنه سحر بعد مجىء الآيات واضحة جلية (وجحدوا بها) أنكروها ، والحال أن أنفسهم قد أيقنت بها ، وعلمت أنها حقّ من عند الله (ظلما وعلوّا) أى ان الحامل لهم على ذلك ظلمهم وترفعهم على نبىّ الله موسى ، وذلك أشدّ أنواع الكفر أن يوقن القلب وينكر اللسان .

وقد عرّفنا الله تعالى بهذه الجملة أن فرعون وملأه كانوا يعلمون من قرارة نفوسهم أن موسى عليه السلام رسول صادق فيما أخبر به عن الله تعالى ، ولكن كبرهم وتعاليهم على الناس قضى عليهم

---

[١] الأنبياء . [٢] جامعة .

أن يكذبوه ويخلقوا له التهم ، وذلك هو كفر الجحود ، وهو الذى يستحق به صاحبه الخلود في جهنم ، ومثله ماحكاه الله عن أعداء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى سورة الأنعام (فانهم لا يكذّبونك ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون «٣٣») أى انهم لا يعتقدون أنك كاذب فى دعوى الرسالة لأنهم لم يجرّبوا عليك كذبا فيما بينك وبينهم ، ولكنهم يجحدون بآيات الله لظلمهم وخروجهم عما ينبغى وتعاليهم على تعاليم الرسل ، ولذلك عقب الآية التى معنا بقوله (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) كان عاقبتهم مافعل الله بهم من الاغراق فى اليمّ .

موسى عليه السـلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ «١» تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ «٢» نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٣» إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ «٤» وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَٰرِثِينَ «٥» وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ «٦» وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ «٧» فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِـِٔينَ «٨» وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ [١] عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ «٩» وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا [٢] إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا [٣] عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «١٠» وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ [٤] فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ [٥] وَهُمْ

---

[١] من قرّت عينه تقرّ : سرّت . [٢] صفراً من العقل .
[٣] شددنا عليه وقويناه بالصبر . [٤] اتبعى أثره . [٥] بعد .

لاَ يَشْعُرُونَ «١١» وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ «١٢» فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ «١٣» وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ «١٤» وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ (١) مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ «١٥» قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «١٦» قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا (٢) لِلْمُجْرِمِينَ «١٧» فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ (٣) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ «١٨» فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ «١٩» وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ (٤) بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ «٢٠» فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٢١» القصص

شرح وعبرة

(١) (نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) نقصّ عليك يا محمد من خبر موسى وفرعون مافيه العبرة ، وقوله (بالحقّ) أى محقين فى ذلك القصص ، وقوله (لقوم يؤمنون)

---

[١] الوكز : هو الطعن ، والدفع والضرب بجمع الكف . [٢] معيناً . [٣] يستغيثه .
[٤] يتشاورون فيك .

بيان لمن يستفيد من ذلك القصص ، وهم الذين استعدّوا للايمان ، وهم الذين قال فيهم (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذين بين يديه وتفصيل كلّ شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون «١١١» [١]) .

(ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم و يستحيي نساءهم انه كان من المفسدين) .

لقد كان فرعون مثلا من أمثلة الاستبداد ، وعنوانا للظلم واستعباد الناس ، وقدوة سيئة فى الشرّ ، ولذلك قال فى آخر قصته يصفه هو وأعوانه (وجعلناهم أئمة يدعون الى النار) .

[فأوّل شيء حدّثنا الله به عن فرعون] أنه علا فى الأرض وتجاوز فيها الحدّ وطغى ، ولم تكن سيرته فى الحياة سيرة عباد لله طائعين ، بل سيرة مردة متكبرين .

[وثانيها] أنه جعل أهلها شيعا وأحزابا يستعين ببعضهم على بعض ، ويذلّ بكلّ حزب ماعداه من الأحزاب ، ويذلهم جميعهم بعضهم ببعض ، و يأمنهم جميعا بواسطة ذلك التحزب الذى غرسه فيهم ، حتى إذا تحرك حزب لمناوأته قام حزب آخر ليدافع عنه ، لامحبة فيه بل إرضاء لشهوة الحزبية ، وكذلك فعل المستعمرون بالبلاد التى احتلوها ، جعلوا أهلها شيعا وأحزابا سياسية فشغلوا الأمم عنهم ببعضهم ، ووجهوا دفة الجهاد الى ناحية غير الناحية التى تريدها الأمّة .

ومن عجيب أمرهم أنهم يخلقون هذه الأحزاب ، و يغذون فيها معنى الحزبية بأساليب شيطانية ثم مع ذلك يطلبون منها الوحدة ، إذا هى طلبت منهم مصلحة من المصالح أو عملا من الأعمال وكأنهم يعلقون اجابتها الى ماتطلب على محال أو قريب من المحال ، إذ الحزبية لايمكن أن تزول مادامت الأمّة الغاصبة باسطة سلطانها على الأمّة المغصوبة ، لأن الغاصب من أهمّ أغراضه فى الاستعمار أن لا يمكن الأمم من الوحدة ، وأن يحول بينهم و بين اتحاد الكلمة ، ولا سيما اذا كان المستعمر قد مكن لجميع الأحزاب من الحكم ، وأذاقها لذّة السلطة ، فأصبحت حريصة على استبدادها بالسلطان ، وذلك ما لا يتفق واتحاد الكلمة ، واجماع الأمر ، وكأن فرعون كان اماما للمستعمرين ، وقدوة للغاصبين ، ينسجون على منواله ، و يترسمون خطواته ، ولم نذهب بعيدا ، ونباعد بين فرعون و بين أولئك الغاصبين حتى نقول انه إمام لهم وقدوة سيئة فى الشرّ ، وفرعون أوّل الغاصبين الملك بنى اسرائيل من أصحابه ، وأوّل الخارجين على دستور الاله العادل الحكيم الذى يقضى بالشورى فى مصالح الناس ومرافقها ، و يقضى بأن يخلق الناس أحرارا فى بلادهم لايتعبدهم أحد ، ولايذلهم أحد ، كما قال عمر بن الخطاب [منذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا] .

فاذا كان الغاصبون خارجين على الدساتير المألوفة للبشر ، ففرعون خارج على الدستور الالهى الذى رضيه لعامّة الناس فى أنحاء الأرض ، فنكون مبعدين إذا قلنا ان فرعون قد فتح الباب للغاصبين ، وسنّ لهم السنن السيئة ، و إنما هو أوّلهم ، وعمودهم الفقرى ، وهو ربهم الأعلى الذى يملى عليهم من وحيه الشيطانى ما يستبيحون به ارهاق الناس و إذلالهم ، ولا غنى لكلّ

---

[١] يوسف .

مستعمر من التفكير فى سيرته والبحث فى عاقبته ، وستكون نهايتهم كنهاية فرعون : خذلان بين ، وذلّ فاضح ، وعبرة مكشوفة ، سيبوءون بما باء به إمامهم وقدوتهم ، و يندمون حيث لا ينفع الندم ، كما ندم فرعون حين ألجه الغرق ، و (قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين) .

فقال الله له منكرا عليه ذلك (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) لم يقبل الله منه إيمانا فى الوقت الذى ذهب فيه سلطانه ، وأحاط به الموت ، لأنه كان عاصيا من قبل وكان من المفسدين فى الأرض ، و إنما ينفع الايمان فى وقت يتمكن فيه فرعون من الايذاء ثم يدعه طاعة لله ، ونزولا على أمره ونهيه .

وكذلك المستعمرون سيحلّ بهم من الموت الأدنى ما حلّ بفرعون ، ثم يقولون لمن ظلموهم [وقد حلّ بهم من أسباب الهلاك ما حلّ] لقد كنا مخلصين لكم ، حريصين على مصالحكم ، فأشفقوا علينا ، ولا تقابلوا الشر بالشرّ ، وهنالك يقول لهم المظلومون [آلآن وقد استبحتم ظلمنا من قبل و إذلالنا فى بلادنا ، والحيلولة بيننا و بين ثمار أعمالنا ، نحن لانقبل منكم فى ذلك الوقت اخلاصا ولا نصدّق لكم كلاما] .

و [الثالث] من أخلاق فرعون أن يستضعف طائفة منهم ، وهى الطائفة التى ليس فيها من المناعة الخلقية مايحول بينها و بين المستبدّ ، ونحمد الله ان لم يقل يستضعفهم ، بل قال (يستضعف طائفة منهم) لعلم أن الضعف الخلقى إذا حلّ بقوم لم يعمهم جميعهم ، بل يحلّ بطائفة منهم ، وكذلك رجال الاستعمار وأذنابهم يستضعفون طائفة من الأمّة [ولاتخلو الأمم من ضعفاء] فيغرونها بالمال تارة ، والمنصب تارة أخرى ، ليضموها إليهم ، حتى إذا أخذت الأمّة تطالب بحقها ، وتذود عن حياضها ، قامت لها تلك الطائفة فوقفت فى سبيلها ، وحالت بينها و بين ماتريد .

وقد كان بلاء المسلمين فى أنحاء الأرض على يد طائفة منهم ، تناصر الغاصب ، وتعاون المستعمر ، وتأخذ على عاتقها إخماد كلّ حركة من شأنها أن تنغص عليه عيشته ، أوتقضّ مضجعه ، حتى يعيش فى بلاد المسلمين آمنا بأيدى المسلمين أنفسهم ، و ينفذ أغراضه الاستعمارية من طريقهم ، و يعطل شعائر الدين ، ويخرب دور العلم ، ومساجد العبادة ، و يعمل كلّ مايريد على حساب تلك الطائفة الضعيفة ، التى قنعت بالسلطان الزائف ، والحكم المستعار ، ورضيت أن تعيش كالأنعام بملء بطنها ، لا إرادة لها ولا اختيار .

وعلى المسلمين أن يفطنوا لتلك الطائفة ، وأن يأخذوا على أيدى الظلمة ويقفوا فى وجه الاستبداد ، ويحولوا بين الأمّة و بين سموم هذه الفئة - حتى لايتسرّب الى فئات أخرى فيصبح الداء عضالا ، والعلاج مستحيلا ، فقد نهى الله عن الظلم كما نهى عن مظاهرة الظالمين ، بل عن قربانهم ، وتوعد الذين يركنون الى الذين ظلموا أن تمسهم النار ، كلّ ذلك ليبقى الظالم وحيدا فى ظلمه ، فريدا فى بغيه ، وقد يفكر فى اقلاعه عن الظلم إذا أحسّ تلك الوحشة ، وشعر بأنه بغيض ممقوت ، ولكنّ الأمّة تغريه بالظلم إذا رأى منها من يصفه بالعدل ، وتحببه فى الايذاء إذا وجد

الناس تقبل عليه فى ثناء و إطراء، فاللهمّ أنقذ الأمة من ظلم الظالمين ، وضعف المستضعفين ، وهبها حياة قوية مثمرة ، وخلقا متينا تستبدل به الضعف قوة ، والهوان عزا (يذبح أبناءهم و يستحيي نساءهم) ذلك من جبروت فرعون و بطشه ، وهو جبروت لم نسمع بمثله فى التاريخ ، وليست الآية تفسيرا لقوله (يستضعف طائفة منهم) بل كلام مستأنف جديد يبين لما علوّه فى الأرض ، ولاعجب أن يصنع فرعون ذلك الصنع (انه كان من المفسدين) ومن كان خلقه الافساد فى الأرض لايستغرب منه ذلك العمل .

(٢) (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض) ذلك من نبأ فرعون عطف على قوله (ان فرعون علا فى الأرض) والتعبير بالمضارع لحكاية الحال الماضية ، وقد وقعت هذه الجملة قصاصا لفرعون ، وانتقاما منه ، وكفأ له على ماقدّم ، فقد أهان فرعون الشعب الاسرائيلى وأذله ، وأخذ يذبح الأبناء ، و يستحيي النساء ، ونسى ربه وخالقه ، وادّعى أنه الربّ الأعلى ، فقال الله له: لقدكان منك ما كان ، وكان منا أن تعلقت ارادتنا أن نمنّ على الشعب الذى استضعفته وأذقته العذاب ألوانا ، ونجعلهم أئمة يقتدى بهم فى الدين والدنيا ، يتأسى بهم الناس ، و يقتدون بهم فى الخير ، أو نجعلهم ولاة فى الأرض وملوكا كما قال (و إذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين « ٢٠ »[١]) وهو خطاب للشعب الاسرائيلى وامتنان عليه عما أعطاه من قوة بعد ضعف ، وعزّ بعد ذلّ ، وملك بعد استعباد ، وأورثه ملك فرعون وعظمة فرعون ، وكذلك الآيات التى معنا يرينا الله فيها أن فرعون علا فى الأرض ، وصنع بأهلها مالا ينبغى ، وظنّ أن عزّه سيبقى ، وأن ملكه لايزول ، ولكنّ الله أراد [ولارادّ لما أراد] أن يمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ، و يجعلهم أئمة وولاة ، و يجعلهم الوارثين لملك فرعون ، وأن يمكن لهم فى الأرض ، و يثبت فيها أقدامهم حتى لايستطيع أحد أن يخرجهم منها ، و يطلق أيديهم فى مصر والشام ، و يهبهم السلطان والنفوذ ، و يرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يخافون من ذهاب ملكهم ، وهلاكهم على يد مولود منهم ، ذلك ما أراده الله تعالى لشعب بنى اسرائيل ، ومتى أراد الله شيئا نفذ .

والعبرة فيما صنعه الله مع الشعب الاسرائيلى أن سلط عليهم فرعون ، فابتلاهم به فوجد فيهم استعدادا للذلّ ، واستهالا للعبودية ، فبسط عليهم سلطانه ، وتغالى فى بطشه ونكاله ، ولذلك يقول الله فى وصفه (فاستخفّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين « ٥٤ »[٢]) .

ولو أن فرعون وجد من قومه مقاومة للباطل ، واستنكارا للظلم ، لغلبوه على أمره ، ووقفوه عند حدّه ، وقد بعث فيهم رسوله موسى لينقذهم من ذلّ فرعون ، ويدعوهم إلى التوحيد ، فكان من بنى إسرائيل من يشايع فرعون على حرب موسى ، وهم ملؤه المستكبرون .

وقد أيد الله موسى بآياته ، وصدّقه بمعجزاته ، فجمع له السحرة رجاء أن يظفروا بموسى ، فكانوا حربا على فرعون وملأ فرعون ، فاشتدّ عليه الأمر ، وقتله الغيظ والحزن ، لأن حزب فرعون سيكبر على الرغم منه ، فضاعف الايذاء فأذن الله لموسى بالهجرة ، فأتبعهم فرعون

---

[١] المائدة . [٢] الزخرف .

بجنوده ، حلّ به من الغرق ماحلّ ، وهنالك ذهب سلطانه ، وتقوّض ملكه ، لأنه تمادى فى الظلم ، وأمعن فى الايذاء ، وأسرف فى استعباد الناس ، فلم يبق إلا انتقام الله للعدل ، وغيرته للحق ، فجاء نصره بنجاة موسى وغرق فرعون آية عظمى ، وعبرة واضحة .

وفى كلّ زمن فراعنة يظلمون الناس و يستعبدونهم ، و يستمرئون الظلم لهم ، ومع أولئك الفراعنة بطانات شرّ ، يشكرونهم على الظلم ، ويطرونهم على استعباد الناس ، ويحببونهم فى الشرّ الذى هم عليه ، لأن لهم من وراء هذا حظا فى الحياة من مال أو نفوذ .

وفى كلّ زمن يسلط الله على فرعونه من ينغص عليه عيشته ، و يقضّ مضجعه ، فاذا كثر حزب فرعون و بطانات السوء ، ورضى الناس بالظلم فان الله يسلطه عليهم ، و يبقى الحال كذلك حتى يشعروا بالذلة ، ويحسوا العبودية ، و يستنكروا ذلك العمل ، و يأخذوا فى الخلاص منه ، وهنالك يحلّ بهم من تأييد الله ونصره ماهم له أهل ، فيجعلهم سادة بعد أن كانوا عبيدا ، وحاكمين بعد أن كانوا محكومين (إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم « ١١ » [١])

ذلك هو الطريق الطبيعىّ للقضاء على الفراعنة فى كلّ زمان ، وقد يسلط الله عليهم من أنواع الهلاك ما سلط على فرعون موسى إذا بالغوا فى الظلم وأغرقوا فى العسف والجور ، فيقلب الله لهم ظهر المجنّ ، و يسلبهم السلطان والملك ، و يثلّ عروشهم ، و يهدم ملكهم ، جزاء لهم على بغيهم ، وانتقاما منهم على سوء عملهم .

وعلى ملوك الأرض أن تعتبر بسيرة فرعون ، وما أنزله الله به من عقوبة ، وأن تذكر بعرشه الذى تقوّض ، وملكه الذى ذهب ، بعد أن كان له من الحول والطول ما كان حتى قال وهو يستخفّ بموسى وهارون (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ! « ٥١ » [٢])

وقد نسى فرعون المستبدّ أنه كم من عروش ثلت ، وممالك قوّضت ، فوق عرش مصر الذى يجلس عليه فرعون (قل اللهمّ مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنك على كلّ شىء قدير «٢٦» [٣]) .

و يرينا الله بهذه الآيات أن الضعيف لا يبقى على ضعفه ، بل قد يتحوّل الضعيف إلى قوىّ ، والقوىّ إلى ضعيف ، والحاكم إلى محكوم ، والمحكوم إلى حاكم ، لأن الأيام دول ، والله يقلب الليل والنهار ، والفلك يدور ، والمسكين هو المغرور .

(٣) (وأوحينا الى أمّ موسى أن أرضعيه) الخ ، شروع فى تربية الله لموسى ، وانقاذه من فرعون حيث ألهم أمّه أن ترضعه ، فاذا خافت عليه من فرعون ألقته فى اليمّ بوضعه فى تابوت وجعله فى النيل ، وقد طمأنها عليه ووعدها أن يردّه اليها وأنه سيجعله نبيا مرسلا ، وقد ألقى محبته فى آل فرعون حينما عثروا عليه وأوصوا بعدم قتله رجاء أن ينفعهم أو يتخذوه ولدا ، فالتقطوه فكان عدوّا لهم وحزنا جزاء لفرعون وجنده على ظلمهم ، ثم تألمت أمّه لفراقه وأصبح فؤادها صفرا من العقل ، خلوّا من الرضا ، لولا أن ربط الله على قلبها بالصبر لكشفت السرّ وأفسدت التدبير .

---

[١] الرعد . [٢] الزخرف . [٣] آل عمران .

وحين ذاك أوصت أخته أن تتبع أثره . فرأته على بعد بدون أن تشعر قوم فرعون ، وقد حرّم الله عليه التقام ثدى المرضعات ، فتقدّمت إليهم أخته فى هيئة الناصح وقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، فنزلوا على رأيها ، ورده الله إلى أمه كى تسر ولاتحزن ، ولتعلم أن وعد الله بارجاعه لها حق لامرية فيه ، وقد شرحنا القصة فى سورة طه .

كلّ ذلك التدبير من نعم الله على موسى يذكره بها ، ليعلم أن الذى حفظه وهو صغير فى كنف عدوّ الله وعدوّه فرعون جدير بأن يحفظه وهو كبير راشد .

(ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) تصديق لوعد الله تعالى لأنه وهو فى المهد أمّه سيجعله رسولا ، فهو يرينا بهذه الآية أنه برّ بوعده لأمّة ، وأعطاه الحكم والعلم ، فالحكم هو النبوّة ، والعلم هو علم التوراة حين بلغ أشدّه واستوى : أى كملت قواه الجسمية العقلية . وقيل الحكم والعلم : هو الحكمة والعلم النافع كما قال (واذكرن مايتلى فى بيوتكنّ من آيات الله والحكمة «٣٤» [1]) وقوله (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا «٢٦٩» [2]) وقوله (وكذلك نجزى المحسنين) أى كما جزينا أمّ موسى بذلك الجزاء وهو حفظ ولدها وتربيته فى بيت الملك الذى خلق للقضاء عليه ، وربطنا على قلبها بالصبر ، وحرّمنا عليه المراضع ، وسخرنا له أخته لترشدهم الى من يكفله ، وألقينا عليه محبة من الله يجذب بها قلب امرأة فرعون إليه ، ووفينا لها بالوعد ، وجعلناه رسولا .

كلّ ذلك لأن أمّ موسى كانت محسنة ، فكافأناها على إحسانها بذلك العمل ، أو وكذلك نجزى المحسنين : أى كما جازينا موسى على احسانه فى الصغر ، واستعداده للخير المطلق بذلك التدبير واللطف ، نجزى كلّ محسن ، والله يعلم ماذا أحسن به موسى ، فهو أدرى بأعماله ، وان كان لم يقصّ علينا كلّ تاريخه ، بل قصّ خبر نشأته فى بيت فرعون ، ولطفه به فى بيت الظلم ومهد الجور والعسف ، كما قصّ علينا خبر قتله للرجل الذى كان يتشاجر مع رجل من أنصاره .

(٤) (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) الخ ، قيل المدينة هى القرية التى كان يسكنها فرعون ، وهى على رأس فرسخين من مصر . وقال الضحاك : هى عين شمس ، وليس فى الآية دليل على أن قتل القبطى كان بعد النبوّة ، لأن الواو لاتفيد ترتيبا ، والقرآن الكريم لايسرد لنا الحوادث . كما يسردها كتب التاريخ على نظام وجودها ، بل هو كتاب عبرة ، وتربية نفسية وخلقية ، فيصح أن يذكر الحوادث مبتدئا بأهمها ، وان كان ترتيبه فى الوجود متأخرا والمناسبة فى قوله (ولما بلغ أشدّه) الخ أنه لما عرض لحديث نشأة موسى فى حجر فرعون وبيته ، وأنه حفظه وهو صغير ـ ناسب أن يتم تاريخه ويقول : ان ذلك الطفل لما بلغ أشدّه واستوى آتاه الله الحكم والعلم كما وعد أمّه .

فقصة اعطائه الرسالة جاءت بين قصة تربيته ، وقصة قتله للقبطى لمثل تلك المناسبة ، لا لأنها وقعت قبلها ، ويدلّ لذلك قول فرعون له فى سورة الشعراء (ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين «١٨» وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين «١٩» قال فعلتها إذا وأنا من

---

[١] الأحزاب . [٢] البقرة .

الضالين «٢٠» ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين «٢١») .

فرعون يذكره بقصة قتل القبطى وأنه كافر بنعمة فرعون ، فيقول له موسى قد فعلتها قبل أن يهدينى ربى الى دينه، كما قال فى محمد صلى الله عليه وسلم ووجدك ضالا فهدى ، وأنه عقب ذلك فرّ منهم لما خافهم ، فوهب الله له الحكم وجعله من المرسلين ، وعطفه بالفاء الدالة على الترتيب ، وهو نصّ صريح فى أن قتل الرجل كان قبل الرسالة ، أما الآية التى معنا فكلّ مافيها أنها عطفت قصة القبطى على ايتائه الحكم بالواو ، والواو لاتقتضى تعقيبا ولاترتيبا ، وذلك على فرض أن الحكم والعلم : هما حكم الرسالة وعلم التوراة ، أما إذا قلنا هو الحكمة والعلم النافع ولايخلو عصر من العصور عنهما ـ إذا قلنا ذلك فالأمر أهون وأهون .

وقوله (قال هذا من عمل الشيطان) الخ لأنه خطأ والخطأ من الشيطان ، وقد جرّ الى ذلك القتل مايحصل كثيرا من الناس أن يتشاجر حزبان فيستعين كلّ حزب بشيعته وتنتهى المشاجرة فى بعض الأوقات بقتل ، والمتشاجران لم يقصدا الى القتل ، ولاخطر لهما على بال ، ولذلك لايعاقب القانون الوضعى على هذه المشاجرات عقوبة القتل ، بل يقولون هى مشاجرة أدّت إلى قتل ، ونسبه الى الشيطان ، لأن الحامل عليه غرض حزبى ، وما كان كذلك فهو من عمل الشيطان ،

وقد طلب موسى أن يغفر الله له ذلك لأنه هو الذى أخذ فى أسبابه ومقدّماته ، وجريا على سنن المقربين فى استعظام مافرط منهم ولو كان من محقرات الصغائر (قال ربّ بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهرا للمجرمين) يحتمل أن يكون قسما : أى أقسم بانعامك علىّ لأتوبنّ فلن أكون بعد هذا عونا للمجرمين . وأن يكون استعطافا : أى بحق انعامك علىّ اعصمنى فلن أكون معينا لمجرم ، وسواء قلنا انه قسم أو استعطاف فهو يبرأ من أن يظاهر رجلا أوطائفة على إجرامها ، وهو خلق دينىّ اتفقت عليه الشرائع السماوية، وحتمته الأديان ، ولذلك يقول الله تعالى (وتعاونوا على البرّ والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان «٢» [1]) . ويقول (ولاتجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لايحبّ من كان خوّانا أثيما «١٠٧» [2]) .

فهو سبحانه ينهانا أن نتعاون على الاثم ، وهو المحرّم ثم العدوان ، لأن أكثر تعاون الناس عليه ، وينهانا أن نجادل عن الذين يختانون أنفسهم بعصيان الله تعالى ، فلاندافع عنهم ، ولانعتذر عن أعمالهم ، أونهوّنها أمام القانون .

وما أحوج رجال المحاماة إلى تدبر هذه الآية ، فان الرجل منهم قد يعلم أن موكله مجرم آثم ثم هو مع ذلك يقبل التوكيل منه ، ويدافع عنه بكلّ ما أوتى من قوّة .

ومن غريب أمر المحامين أنهم يعتذرون عن ذلك العمل بأنه قيام بالمهمة الملقاة عليهم ، ولا ندرى ما الذى أوجب عليهم أن يدافعوا عن مجرم ، ويعلموه كيف يخفى معالم الاجرام ، وكيف لايعترف أمام القضاء بما يكون حجة عليه ، أهو دينهم الذى ينهاهم عن الدفاع عن المجرم ، أم هو القانون الذى خلق هذه المهنة خلقا لتنوير القضاء ، وتسهيل مهمته عليه ، فالقاضى والمحامى شريكان فى نشر العدالة ، ونصيران للحق والعدل ، ولكنه التعيش يلجئ كثيرا من المحامين

---

[١] المائدة . [٢] النساء .

لقبول التوكيل من المجرمين ، كالقتلة واللصوص ، والمهرّبين للمخدرات ، والمتجرين بالأعراض ، حانا الله من ذلك كله .

(فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فاذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه) يطلب منه المعونة فى حادث آخر (قال له موسى إنك لغوىّ مبين) لأنك تسببت فى قتل رجل وتقاتل اليوم رجلا آخر ؟ و (مبين) بين الغواية ظاهرها ، وهو يدلّ على نفرة موسى عليه السلام من معاودة ذلك العمل والرجوع إليه (فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدوّ لهما) الضمير للمستنصر لا لموسى فهو الذى أراد أن يبطش بقبطى آخر هو عدوّ له ولموسى عليه السلام (قال) القبطى (ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) .

وقد وجه القول إلى موسى لأن حادث قتله للقبطى قد أشيع ، وكان سبب هذا القتل استنصار الاسرائيلى بموسى ، وقد أعاد استنصاره له فظنّ القبطى لذلك كله أن موسى سيطاوعه ويقتله كما قتل أخاه ، فخاطبه بذلك الأسلوب منكرا عليه أن ينضمّ إلى صاحبه كما انضمّ إليه بالأمس .

ومن البعيد جدا أن موسى يخطئ مرّة فى تشيعه للذى من شيعته ، ويكون من وراء ذلك قتل رجل بدون ذنب ، ثم يعاود الخطأ مرّة أخرى ، وكذلك من البعيد أن موسى يقابل الرجل الذى يستنصره فى المرّة الثانية بقوله (إنك لغوىّ مبين) ثم ينحاز إليه مرّة أخرى .

ومن البعيد أيضا أن يكون الخائف من موسى على نفسه فى المرّة الثانية هو المستنصر ، أما على التوجيه الذى ذكرناه فالآية متسقة والمعنى مستقيم ، ولا سيما أن موسى تاب وأناب إلى ربه أن يكون ظهيرا لمجرم ، فلا يمكن أن ينقض توبته فى اليوم الثانى ، ولابدّ أن ينتفع بذلك الخطأ الذى وقع فيه فى المرّة الأولى ، وهو الشأن فى المؤمنين فضلا عمن أعدّهم الله للرسالة ، وهيأهم للزعامة فى الدّين ، ثم جاء رجل يبلغه أن القوم يتشاورون فى قتله ليخرج من المدينة ، فخرج وهو يدعو الله أن ينجيه من الظالمين . وقوله (من أقصى المدينة) يفيد أن مسألة القتل أشيعت وعلم أمرها لفرعون وغيره ، فلا مانع أن يوجه القبطى الخطاب إلى موسى على ذلك النحو الذى ترى . وجملة القول أنه يبعد بعد أن قال فى شأن قتله للقبطى (هذا من عمل الشيطان إنه عدوّ مضلّ مبين) .

وبعد أن قال (ربّ إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) وبعد أن قال (ربّ بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين) — يبعد بعد ذلك له أن يكون المريد للبطش هو موسى سواء أكان يريد البطش بالقبطى أو يريد البطش بالاسرائيلى الذى استنصره ، لأن معناه أن موسى لم ينتفع بذلك الخطأ الذى أسف له وندم عليه . وهناك سبب آخر يمنع من أن يكون البطش من موسى بالاسرائيلى: هو أن الاسرائيلى من شيعة موسى فلم يعرف بالعداوة له وإنما هو عدوّ للقبطى فقط ، اللهمّ إلا إذا ادّعى أن العداوة جديدة بسبب أنه أوقع موسى فى قتل القبطى للمرّة الأولى فأصبح بهذا الاعتبار عدوّا لموسى ، ولكن ذلك خلاف الظاهر ، وكلّ ما يؤخذ على الوجه الذى اخترته أن يكون مرجع الضمير فى قوله (أراد) للاسرائيلى ، والضمير فى قوله (قال) الذى هو عدوّ وهو القبطى ، وهو اعتبار لفظى قد عهد مثله فى التراكيب لا يرجح على الاعتبارات المعنوية التى ذكرناها مرجحة للوجه الذى اخترناه .

موسى عليه السلام

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ «٢٢» وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ [١] قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ [٢] وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ «٢٣» فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ «٢٤» فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٢٥» قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ «٢٦» قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ [٣] فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ «٢٧» قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ «٢٨» فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ [٤] مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ «٢٩» فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ «٣٠» وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ [٥] يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ «٣١» اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ [٦] فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ،

---

[١] تدفعان عن الماء لزحام الناس عليه . [٢] ينصرف رعاة الغنم . [٣] سنين .
[٤] بقية . [٥] يرجع . [٦] الفزع .

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ «٣٢» قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ «٣٣» وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا (١) يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ «٣٤» قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا (٢) فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ «٣٥» فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ءَابَائِنَا ٱلْأَوَّلِينَ «٣٦» وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ «٣٧» وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَلْ لِى صَرْحًا (٣) لَعَلِّى أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ «٣٨» وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ «٣٩» فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ «٤٠» وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنْصَرُونَ «٤١» وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُمْ مِنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ (٤) «٤٢» القصص

شرح وعبرة

(١) (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) .

لما فرّ موسى من مصر بسبب قتل القبطى توجه جهة مدين ، وهى بلاد واقعة فى شبه جزيرة سينا فى شمال الحجاز وجنوب فلسطين ، تنسب الى مدين ، وسميت القبيلة باسمه .

وقد طلب موسى من ربه أن يهديه الطريق السوىّ (ولما ورد ماء مدين) الخ بيان لقصته فى الزواج وسببه وهو مروءته ونجدته وأمانته بعد أن رأى من المرأتين ضعفا عن مقاومة الرعاة وبعد أن أخبراه أن أباهما شيخ كبير لايستطيع أن يساهم مع المساهمين فى سقى الغنم ، وان إحدى

---

[١] معينا . [٢] غلبة وقوّة . [٣] بيتاً عالياً ، وأطلع : أصعد .
[٤] المطرودين المبعدين .

المرأتين جاءته تمشى فى أدب وحياء ، وأخبرته أن أباها يدعوه ليجزيه أجر السقى ، وأن ذلك الشيخ حين وصل إليه موسى وقصّ عليه قصصه طمأنه وأزال خوفه ، و (قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين) .

وهنالك طلبت إحدى المرأتين من أبيها أن يستأجره للسقى وشهدت له بالقوّة والأمانة ، وذلك مايحتاجه الأجير ، ولاسيما إذا كان معه فى البيت الذى يعمل فيه بنات ، أما القوّة فقد عرفتها منه حين سقى لهما ، وأما الأمانة فقد عرفتها فيه وهو فى ذلك العمل ، ثم عند عودته معها لاجابة طلب أبيها ، والنساء تعرف أمانة الرجل من غضّ بصره وأدبه فى ملاقاتهنّ ، والمفسرون يذكرون روايات فى أدب موسى مع إحدى المرأتين وهو ذاهب معها ، وهى تدلّ على أدب موسى مع هذه المرأة ، وإذا لم يكن موسى من الأمانة مع النساء إلى حدّ يحببها فى استئجاره ، ويطلق لسانها بالثناء — إذا لم يكن موسى كذلك وأكبر من ذلك فمن الذى يكون ؟

وهنالك اقتنع الشيخ بصدق ابنته ، فخطبه ليكون زوجا لاحدى بناته ، ولم يعين القرآن لنا البنت التى عرضها على موسى ، والظاهر أنها البنت التى شهدت له بالقوّة والأمانة ، وقد جعل مهرها أن يخدمهم ثمان سنين ، فان أتمّ عشرا فمن عنده ، ولايريد أن يشقّ عليه فى ذلك الزواج ، ويظهر أنه وجده معدما فلم يطالبه بمال ، ثم قال له (ستجدنى ان شاء الله من الصالحين) الذين تأنس بهم ، ويأنسون بك ، لأنه لمح فى موسى خلق الصلاح ، ومن الصالحين أيضا للقيام بحقوق النسب ، ومن أدب الشيخ أن يقول (ان شاء الله) فيكل المستقبل الى الله تعالى ، فأجابه موسى الى ذلك ، وقال له (أيما الأجلين قضيت) أجل الثمان أو العشر (فلا عدوان علىّ) لايعتدى علىّ فى طلب الزيادة (والله على مانقول وكيل) شاهد ومهيمن على ذلك العهد الذى قضيناه .

وقد اختلف المفسرون فى ذلك الشيخ أهو شعيب أم ابن أخيه أم غيرهما ؟ والأحسن تفويض علمه الى الله تعالى ، والعبرة لاتتوقف على معرفة اسمه .

(٢) قصة النار والعصا واليد قد شرحت فى سورة طه ، والجديد هنا أن موسى عليه السلام يقول (ربّ انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدّقنى انى أخاف أن يكذبون) فيجيبه الله الى طلبه بقوله (سنشدّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) .

والمراد أن فرعون وملأه لايستطيعان قتلكما ، وسنجعل لكما سلطة وغلبة عليهم ، فلا تعمل حسابا لهم ولالملكهم ، ولالسيئتك القديمة معهم ، وقوله (بآياتنا) اما متعلق بقوله (فلا يصلون إليكما) أى ان آيات الله ودلائل قدرته وسلطانه تحول بينهم وبين وصولهم إليكم بأذى .

ثم عقب ذلك بقوله (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) واما متعلق بقوله (الغالبون) والمراد أنهم سيغلبون فرعون وملأه بسبب الآيات التى أيدهم الله بها .

(فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ماهذا إلاسحر مفترى وماسمعنا بهذا فى آبائنا الأوّلين) فسموا آيات الله ودلائل صدقه سحرا ، ثم وصفوه بأن موسى هو الذى اختلقه ليصرف به الناس عن فرعون .

ثم عقبوا ذلك بأنهم ماسمعوا بدعوة موسى فى آبائهم الأولين، وهنالك (قال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار) يريد نفسه : أى هو الذى يعلم المحق من المبطل ، والرسول المؤيد بآيات، من الساحر ، ويعلم من تكون العاقبة الحسنة له والثواب المقيم ، وهو تعريض بفرعون ورجوعه الى الله تعالى فى حسابه للمحق والمبطل .

ثم عقب ذلك بقوله (انه لايفلح الظالمون) وكأنه يقول : لوكنت ساحرا كما يزعم فرعون ماأفلحت ، لأن الساحر لايفلح ، ولوكنت مفتريا ما أيدنى الله ، لأنه لايؤيد كذابا ، وانما يؤيد الصادقين وبناصرهم ، ومادام الله مؤيدا لى فلست بالظالم ، وإنما الظالم غيرى .

(وقال فرعون يا أيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى) .

لما لم يستطع أن يعارض دلائل موسى توجه الى بطانته (وقال يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) وكلامه هذا قد تضمن نفى إله سواه : كما تضمن إثبات إلهية نفسه ، ولم يرد فرعون أنه خالق للسموات والأرض والبحار والجبال وخالق لذوات الناس ، فان العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول ، وبدهيات المسائل ، بل الاله هوالمعبود، فالرجل كان ينفى الصانع، ويقول لاتكايف على الناس إلا أن يطيعوا ملكهم ، وينقادوا لأمره ، لا ماظنه الجمهور من ادعائه كونه خالقا للسماء والأرض ، ولم يقل ذلك إرضاء لعقيدته ، بل قاله يتغفل به بسطاء العقول ، وصغار الأحلام ، أما هو فكان موقنا بصدق موسى فى دعوته ، وأحقيته فيما يقول ، وآية ذلك قول نبى الله موسى له (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر «١٠٢» [1]) وقوله (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا «١٢» [2]). (فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى) وهو دليل تجبر فرعون وتكبره وتغفله لمن معه من القوم ، يوهمهم أن فى استطاعته أن يعمل قصرا عاليا من الطين المحروق فيصعد عليه ليرى إله موسى الذى يدعيه ، وهو تهكم بموسى عليه السلام ، ولذلك عقبه بقوله (وإنى لأظنه من الكاذبين) فى دعواه .

ولقد كان فرعون مقتصدا حيث ظن كذب موسى ولم يقطع به ، أو استعمل الظن موضع اليقين كقوله (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون «٤٦» [3]) .

(واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) تعالى فرعون وجنده بغير الحق ، وظنوا أنهم لا يرجعون إلينا فنحاسبهم على ذلك التجبر .

(فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) أخذه الله أخذ عزيز قادر ، وأخذ جنده معه فألقاهم فى اليم إلقاء من لا يعتد به ولا يؤبه له ، كقوله (لينبذن فى الحطمة «٤» [4]) . وقوله (فنبذوه وراء ظهورهم «١٨٧» [5]) .

ثم قال (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) جعلهم الله عبرة ونكالا لمن يأتى بعدهم من القرون والأجيال (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) خذلناهم وحرمناهم التوفيق لأنهم ليسو أهلا له بسبب

---

[١] الإسراء . [٢] النمل . [٣] البقرة . [٤] الهمزة . [٥] آل عمران .

عنادهم وتكبرهم على الحق وأهله ، مع إيقان قلوبهم به ، فصاروا بذلك أئمة فى الباطل ، وقدوة فى الشر ، يدعون بسيرتهم التى ساروا عليها ، وتاريخهم الأسود إلى النار ، ذلك حالهم فى الدنيا (ويوم القيامة لا ينصرون) كما ينصر الدعاة إلى الجنـة ، فهم أشقياء فى الدنيا تعساء فى الآخرة (وأتبعناهم فى هـذه الدنيا لعنة) طردا وإبعادا عن رحمة الله (ويوم القيامة هم من المقبوحين) أى موسومين بحالة منكرة من سواد الوجوه ، وزرقة العيون ، وسحبهم بالسلاسل والأغلال ، وغير ذلك .

والعبرة فى هذا أن ذلك جزاء المتكبر على رسل الله ، المستخف بأوامر الله ونواهيه المناهض للرسل فى دعوتهم ، والمصلحين فى إصلاحهم ، سلط الله عليهم من وسائل الهلاك ما سلط ، وحال بينهم وبين التوفيق بما كسبت أيديهم ، وجعلهم أئمة فى الشر ، وقدوة فى الفساد ، وأتبعهم لعنة فى الدنيا وسيخزيهم يوم القيامة ، وهل هناك جزاء فوق ذلك الجزاء ، وخزى فوق ذلك الخزى الذى ناله فرعون وجند فرعون ؟

(ولقد آتينا موسى الكتاب) الخ يرينا أنه بعد أن أهلك فرعون وجنده بالغرق أعطى موسى كتاب التوراة ليبصر به الناس من الضلال ، ويهديهم من الغى ، ويرحمهم من الفوضى ، شأن سائر الكتب السماوية والشرائع الالهية .

موسى عليـــه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ « ٢٣ » إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ «٢٤» فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَٱسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ [1] الْـكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ «٢٥» وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَـكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ «٢٦» وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّـكُم مِّن كُلِّ مُتَـكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ «٢٧» وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّـكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْـكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ «٢٨» يَٰقَوْمِ

[١] تدمير .

لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ «٢٩» وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ [١] «٣٠» مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ «٣١» وَيَٰقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ «٣٢» يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ «٣٣» وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ [٢] «٣٤» الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِي ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ «٣٥» وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ابْنِ لِي صَرْحًا [٣] لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَٰبَ «٣٦» أَسْبَٰبَ السَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ «٣٧» وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ «٣٨» يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ الْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ «٣٩» مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ «٤٠» وَيَٰقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ «٤١» تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّٰرِ «٤٢» لَا جَرَمَ [٤] أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي

---

[١] الجماعات الماضية ، و (دأب) : عادة . [٢] شاكّ .

[٣] بيتاً عالياً ، والأسباب : الطرق والأبواب .

[٤] هي نظير لابدّ ، كقوله : لاجرم أن لهم النار من الجرم وهو القطع : أي لاقطع لاستحقاقهم النار .

الْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ «٤٣» فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ «٤٤» فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ [1] بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ «٤٥» النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ «٤٦» غافر

شرح وعبرة

(١) ليس فى القصة جديد إلا قول الله تعالى (وما كيد الكافرين إلا فى ضلال) يريد أن تدبيرهم مقضىّ عليه بالفشل ، فقد دبر فرعون لبقاء ملكه أن يقتل الأبناء ، ويستحيي النساء ، فسخر الله له من يتولى هو بتربيته ثم يكون حربا عليه وهو نبىّ الله موسى ، ثم عاد فرعون الى مثل كيده السابق وهو فاشل فيه .

(وقال فرعون ذرونى أقتل موسى) يوهم الناس ويريهم أن من حزبه من يمنعه عن قتل موسى وأن فى استطاعته ذلك مع أنه خائف من قتله ويخشى أن يكون قتله سببا فى تعجيل عقوبته لأنه موقن من قلبه أنه رسول صادق وان كان ينكر ذلك بلسانه (وليدع ربه) تجبر من فرعون أنه لايبالى بربّ موسى إذا دعاه لينصره على فرعون (إنى أخاف أن يبدّل دينكم) ماهم عليه من عبادة فرعون أو عبادة آلهته (أو أن يظهر فى الأرض الفساد) وذلك أيضا تماكر من فرعون بقومه ، يريهم أن موسى يفسد عليهم معيشتهم إذاهم تبعوه .

وما علمنا رسولا كانت دعوته مدعاة إلى فساد ، إنما الفساد فى تحزب الناس عليه ومعاداتهم له ، والحقيقة أن الفساد الذى يخشاه فرعون هو فساد قومه عليه وخروجهم من قبضة يده ، وذهاب سلطته وسلطانه ، فالفساد الذى يخشاه هو ذهاب ملكه ، لأنهم إذا رأوا الفرق بين طريق رسول الله ، وبين طريق ألدّ أعدائه رغبوا فى طريق موسى ، وفى ذلك فساد خطة فرعون وضياع ملكه (وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كلّ متكبر لايؤمن بيوم الحساب) .

يرينا الله تعالى أن فرعون فوق تكبره وتجبره ينكر البعث والنشور ويوم الجزاء ، ومن كان كذلك فهو جدير بأن يستعاذ منه ، وسيأتى مايفيد أنه ينكر البعث فى سورة الدخان .

(٢) (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) الخ .

قد رأيت أن أضمّ الى قصة موسى وعظ مؤمن آل فرعون ، لأن فيه من أساليب التذكير بالله وباليوم الآخر ما تطمئن له النفوس ، وتخشع له القلوب ، وفيه من المنطق المستقيم ما تقوم به الحجة وتظهر به المحجة .

---

[١] حلّ .

وما أحوج الواعظ الى مثل ذلك الوعظ الذى يتقدّم به مؤمن آل فرعون إلى قومه وعشيرته ألا ترى إلى قوله (و إن يك كاذبا فعليه كذبه و إن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) يريد إن يك كاذبا فسيرديه كذبه و يوقعه فى المهالك ، و يكفيكم مؤنه قتله ، و إن يك صادقا فى دعواه يصبكم بعض الذى يعدكم من العذاب ، ثم يقول (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) فلكم لايدوم ، ولا تستطيعون أن تدفعوا عنا عذاب الله إذا جاء ، ثم خوّفهم من أيام الأحزاب الذين مضوا وما فعل الله بهم من البطش والكيد . وخوّفهم من يوم الجزاء الذى لا عاصم فيه من أمر الله ، وذكرهم بما فعلوه بنبيّ الله يوسف ، ثم دعاهم الى اتباعه ، وزهدهم فى الدنيا ومتاعها الزائل ، ورغبهم فى الآخرة ومتاعها المقيم ، وقال لهم لماذا أدعوكم الى النجاة وتدعوننى أنتم الى النار ، تدعوننى للكفر بالله ، وأن أشرك به ما لا أعلم من الأصنام والأوثان ، وأراهم أن مايدعونه من الآلهة ليس له دعوة مستجابة فى الدنيا ولافى الآخرة . وأن مردّ الجميع إلى الله (وأن المسرفين هم أصحاب النار) وأراهم أنهم سيذكرون فى وقت ما ما قدمه لهم من النصح (و) قال لهم (أفوّض أمرى) بعد نصحى لكم (إلى الله) انه (بصير بالعباد) .

وأرانا الله تعالى أن ذلك المؤمن الذى تقدّم بالنصح لآل فرعون حفظه الله من سيئات مكرهم وحلّ بآل فرعون سوء العذاب .

وقد أجملنا فى شرح هذه القصة لأن الكلام على قصة موسى وهارون عليهما السلام قد طال ولأنها ذكرت على سبيل الاستطراد .

موسى عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَـٰتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعَـٰلَمِينَ «٤٦» فَلَمَّا جَاءَهُم بِئَايَـٰتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ «٤٧» وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَـٰهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ «٤٨» وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ «٤٩» فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ[١] «٥٠» وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ «٥١» أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ «٥٢» فَلَوْلَا أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَـٰئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ «٥٣» فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا

---

[١] ينقضون العهد .

قَوْمًا فَٰسِقِينَ «٥٤» فَلَمَّا ءَاسَفُونَا(١) ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ «٥٥» فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ «٥٦» الزخرف

شرح وعـــبرة

(١) يرينا الله فى هـذه السورة أن موسى قد أرسله الله الى فرعون وملائه ، وأنه لما جاءهم بالآيات الواضحة قابلوها بالضحك والهزء ، وأنه بعد أن أتاهم بالآيات أخذهم بالعذاب رجاء أن يرجعوا ولما كشف عنهم العذاب نكثوا .

بعد ذلك كله أخذ فرعون يعتزّ بسلطانه ، و يفاخرهم بملكه ، وكان يوهم الناس أن من أعطاه الله ملكا أصبح بملكه غنيا عن رسالة الله ودينه ، ومن وهبه سلطانا فى هـذه الحياة لا يصحّ أن يخضع لرسول لىس له هذا السلطان ، لذلك نادى فى قومه و (قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون) .

نعم: لك ملك، ولله ملك السموات والأرض، لك الملك اليوم، وسيتمحض الملك غدا لله ، فهل ملك مصر يغنيك عن عذاب الله من شىء ؟ وهل ملك مصر يبيح لك نسـيان ربك وخالقك الذى وهبك ذلك الملك ، وسخر لك من نعمه ماسخر ؟ ثم قال (أفلا تبصرون) يريد أفلا ترون الفرق بينى و بين موسى الفقير المعدم ، وهى كلمة ان جازت على البسطاء لاتجوز على العقلاء ، وان جازت على الدهماء ، لا تجوز على المفكرين ، ثم قال (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) .

يريد أن يفهم قومه أنه خير من موسى الذى هو ضعيف فى نظره حقير ، ولايكاد يفصح عن غرضه ، وأراد بالقاء الأسورة من الذهب عليه إلقاء مقاليد الملك ، لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد رجل سوّروه بسوار وطوّقوه بطوق من ذهب .

يريد فرعون أن موسى ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسـة ما يعتضد به ، وهو فى نفسه مخلّ بما ينعت به الرجال من اللسن والفصاحة ، ثم قال (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين) .

يريد أن فرعون لم يكن مستقلا بالاثم ، بل يشاركه قومه وعشيرته ، لأنه وجد فيهم استعدادا للشرّ واستهالا للعبودية ، فاستخف بهم فأطاعوه ، ثم علل ذلك بقوله (انهم كانوا قوما فاسقين) أى ان الفسق عادة لهم وخلق من أخلاقهم ، لذلك وجد فرعون منهم النصير والمعين ، ووجد منهم البطانة التى تعينه على ظلمه ، وتحسن له جبروته وكبرياءه .

ومن ذلك نعرف أن الظلم إذا انتشر فى الأرض كان سـببه ضعف القوم وعدم مكافحتهم له ، وفى الأمثال العامّية [لماذا تفرعنت يافرعون ؟ لأنى لم أجد أحدا يردّنى] وهو فى معنى هذه الآية

---

[١] أغضبونا .

الكريمة (فاستخف قومه فأطاعوه) وعلينا دائما أن لاننسى هذه السنة فى خلق الله ، وهو أن الباغى لايستمر على بغيه إلا إذا وجد من قومه مايحسن له عمله ، ويبرر له بطشه وظلمه .

ومن عجيب أمر الناس أن المستبد يظلمهم فيحمدونه على الظلم ، ويسيء إليهم فيشكرونه على الاساءة ، ويغرى بعضهم ببعض فيفرحون بذلك الاغراء ، ويخرب بيوتهم بأيديهم ، ويفقر بلادهم بمعونتهم ، يعمل ذلك كله فلا يجد من الناس إلا المعين والناصر ، ولبث الناس يقفون منه موقفا سلبيا فلا يقاومونه ولايناصرونه ، ولوكانوا كذلك لهان الخطب ، ولكنهم يقفون منه موقفا إيجابيا ، حتى إذا فكر فى ترك ماهو عليه حملوه على البقاء فيه ، أولئك هم الذين ضروا أنفسهم ، وأصبحوا كالأنعام بل أضل منها ، لايعرفون لأنفسهم قيمة ، ولايحفظون لها كرامة ، يرضون من هذه الحياة كما يرضى الحيوان الأعجم بملء بطنه ، وقضاء شهوته ، ولو كان مع ذلك هدم كرامتهم وضياع كيانهم .

(فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) فلما أغضبوا الله تعالى ذلك الغضب الشديد وحاربوه هذه المحاربة انتقم منهم وأغرقهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا فريقا سالفا وحديثا عجيب الشأن للآخرين الذين يأتون بعدهم يعتبرون به ويتعظون بما فيه .

موسى عليه السلام

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ «١٧» أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ «١٨» وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ «١٩» وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ «٢٠» وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ «٢١» فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ «٢٢» فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ «٢٣» وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[1] إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ «٢٤» كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ «٢٥» وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ «٢٦» وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ «٢٧» كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ «٢٨» فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ[2] «٢٩» وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ «٣٠» مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ «٣١» وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى

---

[١] مفتوحاً منفرجاً . [٢] مأخرين .

عِلْمٍ عَلَى الْعَٰلَمِينَ «٣٢» وَءَاتَيْنَٰهُمْ مِنَ الْأَيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُبِينٌ «٣٣» إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ «٣٤» إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ [1] «٣٥» فَأْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ «٣٦» أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ «٣٧» الدخان

شرح وعــــبرة

(١) يطالب موسى آل فرعون فى رفق ويقول لهم: انى لكم رسول أمين على وحى الله تعالى وأطلب إليكم أن لاتتعالوا على الله فى عدم طاعته ومنابذة رسـله ، انى آتيكم بحجة واضحة ، ثم يستعيذ بربه وربهم أن يرجوه ، والمراد قتله ، فهو يعتصم بالله أن يحفظه من ايذائهم، يقول لهم (وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون) لاتتعرّضوا لى بشرّكم (فدعا ربه) قائلا (أن هؤلاء قوم مجرمون) فقال الله له (فأسر بعبادى ليلا انكم متبعون) من فرعون وجنده (واترك البحر رهوا) .

قيل : لما جاوز موسى البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبق كما كان ، فأمره الله أن يتركه ساكنا على انفلاقه قارا على حاله ليدخله القبط فاذا دخلوا فيه أطبقه الله عليهم ، وقيل : أمر أن يتركه فجوة واسعة لايحاول انطباقه بعد عبوره وعبور قومه .

وقد بين سبب ذلك فى قوله (إنهم جند مغرقون) وقوله (فما بكت عليهم السماء والأرض) يريد ماتألم لهم أحد ، وفيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم على الناس فقده فيقال فيه : بكت عليـه السماء والأرض (وما كانوا منظرين) لما جاء وقت هلاكهم (إن هؤلاء ليقولون) الخ ، اخبار من الله تعالى بأن فرعون وملأه يقولون (ان هى إلا موتتنا الأولى) يريدون أنه لايأتينا شىء إلا الموتة الأولى ثم عقبوه بقولهم (وما نحن بمنشرين) مبعوثين بعد الموت ، ثم أخذوا يتهكمون بقولهم (فأتوا بآبائنا ان كنتم صادقين) ،

وقد ردّ الله عليهـم فى قوله (أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم انهـم كانوا مجرمين) الخ .

موسى عليه الســـلام

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ «١٥» إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى «١٦» اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ «١٧» فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ «١٨»

---

[١] مبعوثين .

وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى «١٩» فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى «٢٠» فَكَذَّبَ وَعَصَى «٢١» ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى «٢٢» فَحَشَرَ فَنَادَى «٢٣» فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى «٢٤» فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى «٢٥» إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى «٢٦» النازعات

شرح وعبرة

(١) عرضنا للقصة من هذه السورة لنلفت النظر الى إعجاز القرآن الواضح ، وأسلوبه القاهر وكيف تؤدّى القصة بأسلوب طويل ، وأسلوب وسط ، ثم بأسلوب فى غاية الاختصار ، ومع ذلك نجد الأسلوب جميعه أخاذا مؤثرا فى النفوس ، ولو تأمّل الانسان القصة فى السور الطوال ثم تأمّلها فى هذه لرأى أنها على اختصارها لم تدع من القصة شيئا ، ألاتراه أشار الى المكان الذى وقع فيه النداء ، ثم دعوة موسى ليذهب الى فرعون لأنه طغى ، ثم قوله له (هل لك إلى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى) .

ثم أشار الى آيات موسى ، ثم تكذيب فرعون وإبائه ، ثم حشره الناس وقوله لهم (أنا ربكم الأعلى) ثم أخذ الله له ، وجعل هذا الأخذ نكال الدنيا والآخرة ، ثم قال (ان فى ذلك) العمل الذى صنعه مع فرعون (لعبرة لمن يخشى) الله من الناس ، فذلك اجمال للقصة وقد فصلها القرآن فى السور التى عرضنا لها ، وهى فى جملتها وتفصيلها فى منتهى البلاغة ، وغاية التأثير .

دعوة داود وسليمان
إلى الله تعالى

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ «٢٤٦» وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ

بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ «٢٤٧» وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ [1] فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «٢٤٨» فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ [2] بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ «٢٤٩» وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ «٢٥٠» فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ «٢٥١» تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ «٢٥٢» البقرة

شرح وعبرة

(١) (ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال أن لاتقاتلوا) الخ .

عرضت هذه القصة من سورة البقرة لأن لها صلة بداود عليه السلام من ناحية استعداده للحرب : كما تبين لنا حال طائفة من بنى اسرائيل طلبوا الحرب ، ثم جبنوا عنه بعد أن كتب عليهم ، وقد وضعنا هذه العظة تحت عنوان [داود وسليمان] وان كانت فى داود وحده ، لأنا رأينا

---

[١] صندوق كانت توضع فيه التوراة . [٢] مختبركم ، وقد فسره بما بعده .

أن نضع داود وسليمان فى عنوان واحد ، وقد تكون القصة فى داود وحده ، أو شاملة لهما معا
وكلمة (ألم تر) إذا خوطب به من سبق له العلم بما يذكر بعدها تكون للتعجب والتقرير
والتذكير ، و إذا خوطب به من لايعرف ذلك تكون لتعريفه به ، وتعجيبه من شأنه ، وقد
أجريت مجرى المثل فى هذا المقام ، فنزل من لم يرماتتعلق به منزلة من رآه ، كأنه لظهوره وتقريره
فى نفسه مما لاينبغى أن يخفى ، أو يغفل عن التعجب منه والاذعان له .

والملأ : القوم يجتمعون للتشاور لاواحد له قاله البيضاوى وغيره ، وقال غيرهم الملأ لأشراف
من الناس ، وهو اسم للجماعة : كالقوم والرهط والجيش ، وجمعه أملاء ، سموا ملأ لأنهم يملؤن
العيون رواء ، والقلوب هيبة ، وكلا المعنيين يرجع الى الخاصة و لأعيان وما نسميهم بعلية القوم .

وقوله (من بنى اسرائيل من بعد موسى) يرينا أن ذلك الملأ من بنى اسرائيل ، وأن ذلك
الحادث الذى يعجبنا الله منه ، وهو حادث طلبهم ملكا يقاتلون تحت رايته ثم جبنهم عن القتال
بعد أن كتبه الله عليهم — وقع لهم لا لغيرهم . كما يرينا أن نبىّ الله داود ، وابنه سليمان عليهما
السلام أرسلهما الله تعالى بعد نبيه موسى .

(إذ قالوا لنبىّ لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله) والقرآن لم يسمّ لنا ذلك النبىّ فهو
من الرسل الذين لم يقصّ علينا القرآن قصصهم ، والظاهر أنه غير داود ، لأن داود لم ينبأ فى ذلك
الوقت ، لأنه قال فى آخر القصة (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء)
والمتبادر من هذا أن القتال وقع قبل النبوّة .

(قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا) أى هل قاربتم أن تحجموا عن القتال
ان كتب عليكم كما أتوقع — أو — أأتوقع منكم الجبن عن القتال ان هو كتب عليكم ، فعسى
للمقاربة أو للتوقع (قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) يريدون
أىّ داع لنا يدعونا الى أن لانقاتل وقد وجد سبب القتال وهو اخراجنا من ديارنا باجلاء العدوّ
إيانا ، وأفردنا عن أولادنا بسبيه اياهم واستعباده لهم .

والقتال فى سبيل الله كما قال الأستاذ الامام هوالقتال لاعلاء كلمته ، وتأمين دينه ونشر دعوته
كى لايغلبوا على حقهم ، ولايصدّوا عن اظهار أمرهم ، فهو أعمّ من القتال لأجل الدين ، لأنه
يشمل مع الدفاع عن الدين وحماية دعوته الدفاع عن الحوزة إذاهمّ الطامع الهاجم باغتصاب
بلادنا ، والتمتع بخيرات أرضنا ، أو أراد العدوّ الباغى إذلالنا والعدوان على استقلالنا ، ولولم يكن
ذلك لأجل فتنتنا فى ديننا ، فاذا قال الله لنا (وقاتلوا فى سبيل الله) فهو أمر مطلق ، كأنه أمر
لنا بأن نتحلى بحلية الشجاعة ، ونتسربل بسرابيل القوّة والعزة ، لتكون حقوقنا محفوظة ،
وحرمتنا مصونة ، لانؤخذ من جانب ديننا ، ولانغتال من جهة دنيانا ، بل نبق أعزاء الجانبين ،
جديرين بسعادة الدارين ، ألاترى أن من ساق الله لنا العبرة بحالهم — أى فى قوله (ألم تر الى
الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) وذكرنا بسنته
فى موتهم وحياتهم لم يذكر أنهم قوتلوا وقتلوا لأجل الدين ، فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية
الحقّ ، كله جهاد فى سبيل الله ، فتفسير [الحلال] سبيل الله باعلاء دينه تقييد لمطلق ، وتخصيص
لقول عام من غير دليل .

ومنه نعلم أن ما يعمله شعوب المسلمين اليوم فى جميع أنحاء الأرض مع المستعمرين من الدفاع عن بلادهم ، والذود عن حقيقتهم وحفظ استقلالهم ، ولغتهم وقوميتهم ، كلّ ذلك جهاد فى سبيل الله وطريقه الذى يحبه و يدعو إليه ، وأن من يقاتل لحماية الحقيقة كالذى يقاتل لحماية الحقّ ، لأنا مطالبون بحمايتهما معا ، لأن الذى يفرط فى الحقيقة لايستطيع أن يدافع عن الحق ، ولأن مسلوب العزّة والكرامة والاستقلال لا يستطيع أن يقيم دين الله فى الأرض ، ولا أن يقيم حدوده ، ولا أن يحفظ أخلاقه وأخلاق أمّته ، انما الذى يستطيع ذلك هو العزيز فى بلاده ، القوىّ فى وطنه ، وهو الذى له من المنعة والقوّة ما يخيف العدوّ ، و يرهب الخصم .

وقد طالبنا الله تعالى بالقوّة ، وصرفنا عن العزّة والمنعة ، إذ يقول (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل) ثم علل ذلك بقوله (ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم « ٦٠ » [1]) فأرانا بذلك أنه ينبغى للمسلمين أن يكونوا من القوّة بحيث يرهبهم أعداؤهم و يرهبهم من ليس بعدوّ . وفى المثل [من لم يتذأب أكلته الذئاب] أليست هذه القوّة هى التى أمرنا الله تعالى باعدادها لحماية الحقيقة والحق ؟ أليست هذه القوّة لارهاب الأعداء و إخافة الخصوم ؟ وهل لذلك من غاية سوى أن الله تعالى يريد للمؤمنين أن يكونوا أعزاء لاأذلاء وأقوياء لا ضعفاء ، وأن تكون بلادهم ملكا لهم ، وخيراتهم لهم لا لخصومهم ، وأن يعيشوا تحت سلطانهم لا تحت سلطان غيرهم ، وأن يحفظوا قوميتهم واستقلالهم ؟ ؟

و يتجلى ذلك فى قول الملأ لنبيهم (وما لنا أن لا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) فانك تفهم منه أن أولئك الملأ بعد أن توقع منهم نبيهم أن يجبنوا عن القتال بعد طلبه ينكرون من أنفسهم الجبن عن القتال فى سبيل الله بعد أن وجدت أسبابه ، وتوفرت دواعيه ، وهو قولهم (وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) فاخراج الرجل من بلده ، ونفيه من موطنه ، والحيلولة بينه و بين بنيه وأهله : سبب من أسباب القتال فى سبيل الله .

قد يفهم ضعفاء العقول أن الاخراج من الديار خاصّ بالنفى والتغريب ، مع أن هناك نوعا من الاخراج هو شرّ من النفى والتغريب . وذلك هو إخراج المسلم من بلده وهو مقيم فيه ، و إبعاده من خيرات بلاده وهى على مرأى منه ، وحرمانه من مجهودات شعبه وأمّته ، وهى أدنى إليه من حبل الوريد .

ذلك النوع الذى ينتاب المسلمين فى بلادهم هو أضرّ عليهم من إخراجهم من وطنهم ، وتغريبهم عن بنيهم وذراريهم ، لأن البعيد من البلاد لا يرى كيف تبعثر أموالها على الشهوات ، وكيف يتمتع بها الأجنبى ، وأذناب الأجنبى ، وصاحب البلد فى فقر مدقع ، وأزمة خانقة ، البعيد من البلاد يتألم لبعده ، ولكنه لا يتألم لذلك المنظر المحزن ، الذى يراه فى أمّته كلّ يوم تطلع فيه الشمس ، يرى أمّته فقيرة وهى الغنية ، مجدبة وهى الخصبة ، شقية وهى السعيدة ، مهينة وهى العزيزة ـ كلّ ذلك لأنها فى يد غيره وتحت سلطان سواه .

ومثل الرجل الوطنى فى ذلك البلد مثل رجل اعتدى عليه لصوص وهو فى بيته ، ووضعوا فى

---

[١] الأنفال .

يديه السلاسل ، وفى رجليه الأصفاد ، ثم أمسكوا لسانه عن الكلام ، وأخذوا يخربون فى بيته ، ويستولون على خزائنه ويهيمنون على كلّ ما عنده من خير - كلّ ذلك وهو لا يستطيع حراكا ، اذا حاول أن ينطق بكلمة استغاثة وجد لسانه مغلولا ، واذا أراد أن يحرّك من يده أو رجله وجدها فى السلاسل والأغلال ، فهل يستوى ذلك الرجل الذى صنع به ذلك ، ورجل آخر أخذته القوّة الغاشمة ، فأبعدته عن بيته وجيرانه ، وحالت بينه و بين ذو يه ؟ أظنّ أن الفرق بينهما كبير .

فاذا لم يكن ذلك النوع من الايذاء إخراجا من البلاد فهو شرّ من الاخراج ، واذا لم يكن نفيا وتغريبا فهو فوق النفى والتغريب ، فكلّ بلد محتلّ من بلاد المسلمين هو بلد قد أخرج منه أهله وحيل بينهم و بين خيرانه ، واستولى فيه الغاصب على كلّ مرافقه ، فاذا عاش فيه أهله فانما يعيشون غرباء ، واذا تمتعوا فيه بشيء من المتاع فانما يتمتعون بما يتساقط من فتات الغاصبين .

فاذا كان الدّين يرى النفى والتغريب من أسباب الجهاد لحماية الحقيقة ، و يعدّ ذلك قتالا فى سبيل الله ، وطريقه الذى يحبه و يرضاه ، فأولى أن يعدّ الجهاد فى هذا السبيل قتالا فى سبيل الله و يثيب الله عليه الثواب الذى أعدّه للمجاهدين ، و يعاقب من يقف فى سبيل ذلك الجهاد موقف المثبط ، فضلا عمن يقف موقف الموالى للغاصب .

(٢) (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) أى فلما أوجب الله القتال عليهم أعرضوا وجبنوا إلا نفرا قليلا منهم ، لأن الأمم إذا قهرها العدوّ ونكل بها يفسد بأسها و يغلب عليها الجبن والمهانة ، فاذا أراد الله إحياءها بعد موتها ينفخ روح الشجاعة والاقدام فى خيارها وهم الأقلون ، فيعملون ما لا يعمل الأكثرون ، ولم يكن هؤلاء القوم قد استعدّ منهم للحياة إلا القليل .

قال الأستاذ الامام : وفى الآية من الفوائد الاجتماعية أن الأمم التى تفسد أخلاقها وتضعف ، قد تفكر فى المدافعة عند الحاجة إليها ، وتعزم على القيام بها إذا توفرت شرائطها التى يتخيلونها ثم اذا توفرت هذه الشروط يضعفون ويجبنون ، و يزعمون أنها غير كافية ليعذروا أنفسهم وما هم بمعذورين (والله عليم بالظالمين) الذين يظلمون أنفسهم وأمّتهم بترك الجهاد دفاعا عنها وحفظا لحقها فهو يجزيهم وصفهم ، فيكونون فى الدنيا إذلاء مستضعفين ، وفى الآخرة أشقياء معذّبين .

وانظر كيف يصف الله التاركين للقتال بالظلم ، و يصم الجبناء بمجاوزة الحدّ ، والخروج عما ينبغى ، و يتوعدهم بأنه عليم بهم ، مطلع على أسرارهم وما سوّلته له نفوسهم ، وهو كقوله فى الآيات السابقة (وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم) يسمع قول الجبناء فى اعتذارهم عن أنفسهم : ماذا نعمل ؟ ما فى اليد حيلة ، ليس لها من دون الله كاشفة ، ليس لنا من الأمر شيء : لو كان لنا من الأمر شيء ما قعدنا ههنا : فهذه الألفاظ هى منفاخ الجبن ، وعلل الخوف والحزن ، فهى عند أهلها علات وأعذار ، وعند الله ذنوب وأوزار ، وما كان منها حقا فى نفسه فهو من الحق الذى أريد به الباطل - وان الله تعالى عليم بما يأتيه مرضى القلوب ، وضعفاء الايمان من الحيل والمراوغة ، والفرار من الاستعداد والمدافعة .

فاذا علمنا هذا وحاسبنا به أنفسنا ، عرفنا أن كلا من المعتذر بلسانه ، والمتعلل بفعاله مخادع لربه ، ولنفسه وقومه .

قال الأستاذ الامام : وكثير من الناس يهزأ بنفسه وهو لا يدرى ، إذ يصدّق مايعتاده من التوهم ، وهذه شنشنة المخذولين الذين ضربت عليهم الذلة ، وخيم عليهم الشقاء ، تعمل فيهم هذه الوساوس مالا تعمل الحقائق ، وقد أنذرنا الله تعالى أن نكون مثلهم ، بتذكيرنا بأنه سميع عليم لايخادع ، ولا يخفى عليه شيء .

يتوعد الله الجبناء فى الآية التى معنا بأنه عليم بهم ، مطلع على سرّهم ونجواهم ، و يصفهم بأنهم ظالمون لأنفسهم ، ولا غرو فقد رضوا لأنفسهم بالمهانة وقد أكرمهم الله ، كما رضوا بالذلة ، وقد كتب الله العزة للمؤمنين ، لم يرعوا لأنفسهم كرامة ، ولم يغاروا على الحقيقة ، و بذلك كانوا ظالمين ، وأن الذى يظلم نفسه بذلك النوع من الظلم ، و يرضى لها هذه المعرّة سيعاقبه الله تعالى على ظلمه ، و يضعه فى الموضع الذى رضيه لنفسه .

(٣) (وقال لهم نبيهم إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) .

أخبرهم نبيهم أن الله قد بعث لهم طالوت ملكا ، وأجابهم إلى ماطلبوا فى قولهم (ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله) فأنكروا أن يكون طالوت ملكا عليهم ، وقالوا فى إنكارهم (أنى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه) ؟

لم يبين لنا القرآن وجه كونهم أحق بالملك منه ، وان كان المفسرون يروون فى ذلك روايات (ولم يؤت سعة من المال) جروا على المألوف من طباع الناس ، يرون أن الملك لابدّ أن يكون وارثا للملك ، أو ذا نسب عظيم ، يسهل على شرفاء الناس وعظمائهم الخضوع له ، أوذا مال عظيم يدبر به الملك ، وسبب هذا أنهم تعوّدوا الخضوع للشرفاء والأغنياء ، وان لم يمتازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم الذاتية .

(قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم) يخطىء الله القوم فى زعمهم أن استحقاق الملك يكون بالنسب وسعة المال ، وقوله (اصطفاه عليكم) اختاره بما أودع فيه من الاستعداد الفطرى للملك ، ولا ينافى هذا كون اختياره كان بوحى من الله ، لأن هذه الأمور هى بيان لأسباب الاختيار ، وهى الاستعداد الفطرى ، والسعة فى العلم الذى يكون به التدبير ، و بسطة الجسم المعبر بها عن صحته وكمال قواه ، المستلزم لصحة الفكر ، على قاعدة [العقل السليم فى الجسم السليم] وللشجاعة والقدرة على المدافعة ، وللهيبة والوقار ، وتوفيق الله تعالى الأسباب ، وهو ماعبر عنه بقوله (والله يؤتى ملكه من يشاء) .

قال صاحب المنار : من الناس من يظنّ أن معنى اسناد الشيء الى مشيئة الله تعالى هو أن الله يفعله بلاسبب ، ولاجريان على سنة من سننه فى نظام خلقه ، وليس كذلك ، فان كلّ شيء بمشيئة الله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) أى بنظام وتقدير ، موافق للحكمة ، ليس فيه جزاف ولاخلل ، فايتاؤه الملك لمن يشاء بمقتضى سنته ، إنما يكون بجعله مستعدّا للملك فى نفسه و بتوفيق الأسباب لسعيه فى ذلك : أى هو بالجمع بين أمرين : أحدهما فى نفس الملك ، والآخر فى حال الأمّة التى يكون فيها ، وفى الأحاديث المشهورة على ألسنة العامة «كما تكونوا يولى عليكم»

[قال فى الدرر المنتثرة : رواه ابن جميع فى معجمه من حديث أبى بكرة والبيهقى عن أبى اسحق السبيعى مرسلا] .

نعم إذا أراد الله إسعاد أمة جعل ملكها مقويا لما فيها من الاستعداد للخير ، حتى يغلب خيرها على شرها ، فتكون سعيدة ، و إذا أراد اهلاك أمة جعل ملكها مقويا لدواعى الشر فيها ، حتى يغلب شرها على خيرها ، فتكون شقية ذليلة ، فتعدو عليها أمة قوية ، فلا تزال تنقصها من أطرافها ، وتفتات عليها فى أمورها ، أو تناوشها الحرب ، حتى تزيل سلطانها من الأرض ، يريد الله تعالى ذلك فيكون بمقتضى سنته فى نظام الاجتماع ، فهو يؤتى الملك من يشاء ، و ينزعه ممن يشاء ، بعدل وحكمة ، لا بظلم ولا عبث ، ولذلك قال (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون «١٠٥» [1]) وقال (ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين «١٢٨» [2]) فالمتقون فى هذا المقام ، مقام استعمار الأرض والسيادة فى الملك — هم الذين يتقون أسباب خراب البلاد ، وضعف الأمم ، وهى الظلم فى الحكام ، والجهل وفساد الأخلاق فى الدولة والأمة ، ومايتبع ذلك من التفرق والتنازع والتخاذل . والصالحون فى هذا المقام هم الذين يصلحون لاستعمار الأرض وسياسة الأمم ، بحسب استعدادها الاجتماعى .

أطلت فى بيان معنى مشيئة الله تعالى فى ايتان الملك ، لأننى أرى عامة المسلمين يفهمون من مثل عبارة الآية فى إيجازها أن الملك يكون للملوك بقوة إلهية هى وراء الأسباب والسنن التى يجرى عليها البشر فى أعمالهم الكسبية ، وهذا الاعتقاد قديم فى الأمم الوثنية ، و به استعبد الملوك الناس الذين يظنون أن سلطتهم شعبة من السلطة الالهية ، وأن محاولة مقاومتهم هى كمحاولة مقاومة البارى سبحانه وتعالى والخروج عن مشيئته ، وكان الأستاذ الامام أوجز فى الدرس بتفسير قوله تعالى (والله يؤتى ملكه من يشاء) إذ جاء فى آخره أن له تعالى سنة فى تهيئة من يشاء للملك ومثل هذا الاجمال لايعقله إلا من جمع بين الآيات الكثيرة فى إرث الأرض ، وفى هلاك الأمم وتكوّنها ، والآيات الواردة فى أن له تعالى سننا فى البشر لاتتبدل ولاتتحول ، وقد ذكرنا بعضها ومنها قوله تعالى (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم «١١» [3]) فحالة الأمم فى صفات أنفسها وهى عقائدها ، ومعارفها ، وأخلاقها ، وعاداتها ، هى الأصل فى تغير مابها من سيادة أو عبودية ، وثروة أو فقر ، وقوة أو ضعف ، وهى هى التى تمكن الظالم من إهلاكها .

والغرض من هذا البيان أن نعلم أنه لايصح لنا الاعتذار بمشيئة الله عن التقصير فى اصلاح شئوننا اتكالا على ملوكنا ، فان مشيئة الله لاتتعلق بابطال سنته تعالى ، وحكمته فى نظام خلقه ، ولادليل فى الكتاب والسنة ولا فى العقل ولا فى الوجود على أن تصرف الملوك فى الأمم هو بقوة إلهية خارقة للعادة . بل شريعة الله تعالى وخليقته شاهدان بضد ذلك ، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

(والله واسع عليم) واسع التصرف والقدرة ، إذا شاء شيئا وقع (عليم) بوجوه الحكمة يضع لهم السنن الحكيمة ، والنظم العادلة فلا يتركهم سدى .

---

[١] الأنبياء . [٢] الأعراف . [٣] الرعد .

(٤) (قال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) .

قد كان انكار الملأ أن يبعث الله لهم طالوت ملكا بمثابة أن يطلبوا آية على صحة ذلك الاصطفاء ودليلا على صدقه ، ويظهر أنهم كانوا مؤمنين بنبيهم ، لأنهم طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه فى سبيل الله ، فلذلك قال لهم نبيهم: ان علامة ملك طالوت عليكم ، واصطفاء الله له :

(أن يأتيكم التابوت) وهو الصندوق الذى كان موسى عليه السلام يضع فيه التوراة ، وكانت تسكن إليه نفوس بنى اسرائيل لأنه فيه كتاب الله ، ولذلك يصفه بقوله (فيه سكينة من ربكم) وقوله (وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون) أى أثر من بيت النبوّة ، ويحتمل أن يكون ذلك الأثر هو التوراة أو بعضها ، ويحتمل أن يكون شيئا آخر (تحمله الملائكة) تسوقه إليكم وقد كانت العمالقة استولت على ذلك التابوت لما حاربوهم وأذلوهم ، وشقّ على بنى اسرائيل أن يضيع عليهم ذلك الأثر ، فجعل الله آية طالوت فى ملكه أن يجيئهم التابوت بعد ضياعه منهم من طريق خارق للعادة ، عبر عنه بقوله (تحمله الملائكة) (ان فى ذلك) العمل الخارق (لآية لكم) علامة على أن طالوت قد اختاره الله ملكا عليكم (ان كنتم مؤمنين) بالآيات ، مصدّقين بالدلائل .

(فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر) الخ ، أوجز القرآن كعادته فى اتيان التابوت الذى هو آية على أن ملك طالوت كان باستحقاق وجدارة ، وأنه أهل لذلك الملك ، وكأنه يقول : فلما ردّ إليهم التابوت قبلوا أن يكون طالوت ملكا عليهم (فلما فصل طالوت) أى انفصل بهم من مقامهم ، وقادهم لقتال أعدائهم .

ولما كانوا من قبل كارهين لملكه عليهم ، ثم أذعنوا من بعد ، وكان اذعان الجميع ورضاهم مما لا يمكن العلم به إلا بالاختبار أراد الله أن يبتلى هذا القائد جنده ليعلم المطيع والعاصى ، فيختار الذى يرجى بلاؤه فى القتال ، وثباته فى معامع النزال ، وينفى من يظهر عصيانه ، فان طاعة الجيش للقائد وثقته به من شروط الظفر ، وأحوج القوّاد الى اختبار الجيش من ولى على قوم وهم له كارهون .

أخبر طالوت جنوده أنهم سيمرون على نهر يمتحنهم به باذن الله ، فمن شرب منه فلا يعدّ من أشياعه المتحدين معه فى أمر القتال ، ومن لم يذقه بالمرة فانه منه ، وهو الذى يركن إليه ويوثق به تمام الثقة ، وأخبرهم أن من اغترف غرفة بيده لا يعدّ عمله مانعا من الاتحاد ، ولكنّ الذى لم يذقه أصلا هو فى المرتبة الأولى .

(فشربوا منه إلا قليلا منهم) لأن القوم كانوا قد فسد بأسهم ، وتزلزل إيمانهم ، واعتادوا العصيان ، وشقّ عليهم مخالفة الشهوة ، وان كان فيها هواهم ، ولم يبق فيهم من أهل الصدق والعزيمة سوى القليل (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) وكان جالوت أشهر أبطال أعدائه الفلسطينيين ، والعبارة تشعر بأن جنود الفلسطينيين كانوا أكثر من الاسرائيليين .

قيل ان الذين آمنوا معه هم القليل ، وهم الذين قالوا (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) وان أولئك المؤمنين (قال) الخلص منهم وهم (الذين يظنون أنهم ملاقوا الله) أى يوقنون بذلك

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) والمؤمنون مختلفون فى قوة اليقين ونصوع البصيرة ، وقيل الضمير فى (قالوا) للكثيرين الذين انخذلوا ، والذين يظنون أنهم ملاقو الله هم القليل الذين ثبتوا معه ، كأنهم تقاولوا بذلك والنهر متوسط بينهما ، يظهر أولئك عذرهم فى الانخذال ، ويرد عليهم هؤلاء فيما يعتذرون به .

والظاهر أن ابتلاء الله لهم بالنهر لم يكن الحد الفاصل بين الايمان والكفر ، بل هو حد فاصل بين قوة الارادة وضعفها ، ويظهر أن الوقت كان وقت قيظ شديد ، وحر بالغ ، فابتلاهم الله بالنهر ليظهر قوى الارادة من ضعيفها ، وسليم العزيمة من مريضها ، فاذا شرب الكثير من النهر فليس ذلك لأنهم كفار ، بل لأنهم ضعفاء العزيمة .

وعليه فالذين جاوزوا النهر مع طالوت فيهم المؤمن الذى لم يشرب والذى شرب وهم كثير .

أما الذين قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، فالضمير فيه للذين يتحدث عنهم القرآن الكريم ، وهم الذين شربوا إلا قليلا منهم . يرينا أن أولئك فى جلتهم قالوا بعد مجاوزة النهر (لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) وسواء أكان ذلك القول من الفريق المؤمن أم الكافر ، والكل قد جاوز النهر ، أوكان من الفريقين مع بقاء الكافرين بدون تجاوز للنهر ، ومجاوزة المؤمنين ، لأن النهر صغير لايمنعهم من محادثة بعضهم بعضا فى ذلك الشأن .

وتأمل الفرق الكبير بين كلمة الجبن وكلمة الشجاعة ، وما تتركه الأولى فى النفس من هلع ، وما تتركه الثانية من سكون وطمأنينة ، فكلمة الجبن كقولهم (لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) يريدون أننا قوم ضعاف لا نستطيع أن نواجه جالوت وجنود جالوت ، لأنه جبار من العمالقة ، وهى تشبه قول بنى إسرائيل أنفسهم لموسى حينما طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم (ياموسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون « ٢٢ » [1]) .

هذه الكلمات وأمثالها تترك أثرا سيئا فى نفس سامعيها ، وتثبطهم عن العمل النافع والجهاد المفيد ، وكم ربى الجبناء بأمثال هذه الكلمات أناسا على الجبن ، ونشئوهم على الضعف ، ولكنهم لا يسمون الجبن باسمه ، وانما يحببونهم فيه باسم الحزم ، والمحافظة على النفس :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك جريرة الطبع السقيم

أما كلمات الايمان الصادق ، والعقيدة القوية ، والارادة الحديدية ، فهى كلمات الآمل الذى لم يجد اليأس إلى نفسه سبيلا ، المطمئن الذى لم يتوصل إليه الشك والتردد ، هى كلمات المؤمنين المخلصين ، والأتقياء المصلحين ، وفرق كبير بينها وبين كلمات الصنف الأول من القوم ، كقولهم (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) أى إن نصر الله لم يكن دائما فى صف الكثرة ، فقد تكون الكثرة على باطل ، وليس عندها من القوة المعنوية ماعند القلة ، وأن القوة المعنوية فى القتال تفعل مالا تفعل القوة الحسية .

---

[1] المائدة .

وقد نبهنا القرآن الكريم إلى أن هـذه القوّة هى قوّة العقيدة فى الله ، والثقة بثوابه وعقابه ، وأن الفاقد لهذه العقيدة لا يستوى هو وصاحبها ، ألا تراه يقول فى التحريض على القتال (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما « ١٠٤ » [١]) .

فتراه يريك أنك إذا حاربت القوم وليس لهم عقيدة فى الله ، وعندك هذه العقيدة ، فانهم يشتركون معك فى آلام الجسم ، ومشقة القتال ، وأنت تمتاز عنهم بأنك ترجو من الله من الثواب مالا يرجونه ، وهى قوّة معنوية أثرها ظاهر محسوس فى جماعة المؤمنين إذا اشتبكوا مع غيرهم فى قتال ، أو وقعوا فى نزال .

(٥) وكم شهد التاريخ بصدق هذه الكلمة ، وهى قولهم (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) وهؤلاء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا فى قلة من جهة عددهم وعددهم ، وفتحوا فى نصف قرن من الممالك ما سجله لهم التاريخ ، ودانت لهم الملوك والأكاسرة بالطاعة ، وخطبوا ودّهم ، و بدّل الله قلتهم كثرة ، وضعفهم قوّة .

وهذه غزوات المسلمين فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عهد خليفته الأوّل والثانى تريك العجب العجاب ، وتحقق لك صدق هـذه الكلمة ، وانظر الى قوله (باذن الله) لتفهم أن النصر الذى يناله المسلمون المؤمنون انما هو بتيسير الله تعالى وتوفيقه ، وهدايتهم إلى وسائل النصر ومقدّمات الغلب ، وأن فى بعض جزئياته ما يشبه المعجز والخارق ، لذلك أضافوه إلى الله تعالى ، وقالوا (باذن الله) ولم يكتفوا بذلك بل عقبوا الكلمة بقولهم (والله مع الصابرين) بنصره ومعونته وتوفيقهم إلى أسباب النصر ، ومن كان الله معه فلا يغلب .

ومن حق كلّ مؤمن أن لايهوّله زخرف الباطل ، ولا كثرة المفسدين ، ولا استعدادهم للحروب ، وتأهبهم للقتال ، عليه أن لاييأس من أن ينقلب القوىّ ضعيفا ، والضعيف قويا ، لأن الأيام دول ، و يوم لك ، و يوم عليك ، وعليه أن يعمل مع ذلك على نشر روح الرجاء فى النفوس وأن ينبه قومه وذويه إلى سنن الله الحكيمة فى قيام الأمم وسقوطها ، وضعفها وقوّتها ، والى عدله تعالى فى أن يولى بعض الظالمين بعضا ، وأن سنته بقاء الأصلح (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض « ١٧ » [٢]) .

وان المستعمرين ما استولوا على بلادنا إلا لضعفنا فى العلم والعمل ، وعدم نهوضنا إلى علوم الحياة ، فكانوا بذلك أصلح منا للبقاء ، وأمثل لطول الحياة ، ولذلك غلبونا على بلادنا ، واستولوا على نواصينا (إنّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال «١١» [٣]) لأنه لا يريده إلا بقوم استحقوه ، و يئس من صلاحهم ، وأخذوا فى أسباب الهلاك والدمار ، وكلّ شعب وصل إلى ذلك الحدّ من المرض لا يرجى له برء ، ولا ينتظر له شفاء .

ونصيحتى لكلّ مصلح أن يجعل هذه الكلمة هجيراه ، و يمرّها كثيرا على لسانه ، وهو قوله

---

[١] « ١ » . [٢ ، ٣] الرعد .

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) حتى لا يجد اليأس إلى نفسه سبيلا ، وحتى يغذى بها إيمانه ، ويقوى بها يقينه ، وأنا زعيم بأن تكون هذه الكلمة أنيسه فى الغربة، وسميره فى الوحشة ، إذا قاطعه الناس وصلته بالله ، وإذا اضطهده الظالمون منته باحسان الله إليه ، وإعانته له ، وإذا تغلب عليه سلطان الباطل ذكر هذه الكلمة فيضعف أمامه كل قوى ، ويصغر فى عينه كل كبير ، وتهون عليه كل صعوبة ، لأنه يستمد قوته من الله ، ويستعين فى دعوته بالله ، ويصبر على مايناله فى سبيل الحق .

(٦) (ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) أى لما ظهرطالوت وجنوده لجالوت وجنوده وهم أعداؤهم الفلسطينيون . واشتبك الجيشان فى القتال (قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا) على مشاق القتال (وثبت أقدامنا) بثبات القلوب ، واطمئنانها بالايمان والثقة به (وانصرنا على القوم الكافرين) عبدة الأوثان (فهزموهم باذن الله) الذى أعطاهم ما سألوا ببركة توجههم إليه . وتذكرما يؤمنون به من قوته التى لاتغالب (وقتل داود جالوت) وكان جالوت عملاقا جبارا فقتله داود ، وهى منقبة لداود لا تنسى .

(وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) فسروا الحكمة هنا بالنبوة ، ويرى صاحب المنار أنها الزبور الذى أوحاه الله إليه ، كما قال فى آية أخرى (وآتينا داود زبورا « ١٦٣ » [1]) وبه كان نبيا . وأما تعليمه مما يشاء فقد فسرها بصنعة الدروع كما قال فى سورة الأنبياء (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون «٨٠» [2]) .

وعندى أن الآية عامة تشمل هذا وتشمل غيره من فقه معانى التوراة ، ومعانى الزبور الذى أوحاه الله إليه ، وغير ذلك مما لايعلمه إلا الله تعالى .

(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) أى لولا أن الله يدفع أهل الباطل بأهل الحق ، وأهل الفساد فى الأرض بأهل الصلاح لغلب أهل الباطل والافساد فى الأرض ، وبغوا على الصالحين ، وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم .

فكان من فضل الله على العالمين أن أذن لأهل دينه الحق ، المصلحين فى الأرض ، بقتال المفسدين فيها من الكافرين ، والبغاة المعتدين ، فأهل الحق حرب لأهل الباطل فى كل زمان ، والله ناصرهم مانصروا الحق ، وأرادوا الاصلاح فى الأرض .

والآية ترينا سنة عامة من سنن الاجتماع ، وهى مايعبر عنه علماء الحكمة فى هذا العصر بتنازع البقاء ، ويقولون ان الحرب طبيعة فى البشر ، لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة ، وهو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس الذى يقتضى المدافعة والمغالبة ، وقوله (لفسدت الأرض) يؤيد السنة التى يعبر عنها علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعى أو بقاء الأمثل ، ووجه ذلك جعل هذا من لوازم ماقبله ، فكأنه تعالى يقول « ان مافطرت عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضا عن الحق والمصلحة هو المانع من فساد الأرض » : أى هو سبب بقاء الحق ، وبقاء الصلاح ، وبعزز

---

[١] النساء . [٢] الأنبياء .

ذلك قوله تعالى فى بيان حكمة الاذن للمسلمين بالقتال فى سورة الحج (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير « ٣٩ » الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز « ٤٠ » الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور « ٤١ » [١]) . وقوله تعالى (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال « ١٧ » [٢]) .

داود وسليمان عليهما السلام

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ [٣] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ «٧٨» فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ «٧٩» وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ [٤] لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ «٨٠» وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ «٨١» وَمِنَ الشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ [٥] لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ «٨٢» الأنبياء

شرح وعبرة

(١) (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) .

أى واذكر لهم يامحمد داود وسليمان (إذ يحكمان فى الحرث) وهو الزرع وقد انتشرت فيه غنم القوم (وكنا لحكمهم شاهدين) أى مطلعين على حكمهم (ففهمناها سليمان وكلا) من الرسولين أعطيناه حكما وعلما ، اذكر لهم هذه القصة لتكون دليلا على صدقك ، وبرهانا على حقية قولك ، لأنك تقص عليهم من أنباء داود وسليمان ما كان غائبا عنك وعنهم ، ولولا أنك رسول صادق مؤيد بالوحى السماوى ما اطلعت على شىء من هذا . وقوله (إذ يحكمان فى الحرث)

---

[١] الحج . [٢] الرعد . [٣] انتشرت . [٤] الدرع فى الحرب .
[٥] يدخلون تحت الماء ليخرجوا منه شيئاً ، أو يستخرجون له الأعمال البديعة .

بصيغة المضارع مع أن القصة قد مضت ومرّ عليها من القرون مالا يعلمه إلا الله تعالى ـ استحضار للصورة العجيبة ، وتصوير للماضى بصورة الشيء الحاضر ، وفرضه كأنه حاصل الآن .

والقصة التي يتلوها القرآن علينا ترينا أن الحادثة حادثة زرع انتشرت فيه غنم ، ومن شأن الغنم إذا أنتشرت في زرع تفسده ، وأن أصحاب الزرع اختصموا مع أصحاب الغنم ، ورفعت القضية إلى داود وسليمان ليحكما فيها .

ويقول المفسرون: ان داود أعطى رقاب الغنم لأصحاب الزرع فخرجا من عنده ومرّا بسليمان ، فقال كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه ، فقال سليمان : لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا ، أو قال غير هذا أرفق بالفريقين ، فبلغ ذلك داود ، فدعاه وقال : كيف تقضى ؟ قال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرّها ونسلها وصوفها ومنافعها ، ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه ، فاذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى صاحبه، وأخذ صاحب الغنم غنمه ، فقال داود : القضاء ماقضيت ، وحكم بذلك .

والآية تحتمل ذلك ، ولامانع منه إذا وردت رواية صحيحة فيه عن المعصوم ، وتحتمل غيره . وكل ماتفيده الآية قطعا أن داود وسليمان حكما حكمين مختلفين ، وسبب الاختلاف أن المسألة اجتهادية وأن الله تعالى أخبرنا أنه فهمها سليمان ، فكان حكمه صوابا ، أما حقيقة ماحكم به كلّ واحد منهما فلا تدلّ عليه الآية ، فان ورد به حديث صحيح فبها ، وإلا فلا ، والعبرة في الآية لاتتوقف على إضافة رواية إليها .

وتأمّل قوله (وكلا آتينا حكما وعلما) بعد قوله (ففهمناها سليمان) لتعرف أن الله تعالى أعطى كلا من الأب الكريم وولده العظيم مقدرة على الحكم بين الناس وعلما يرشده الى طريق الحكم ، غير أن الذى أوتى قوة الحكم قد يخطئ وجه الصواب . لأنه ليس هناك وحى ، والمسألة اجتهادية . وقد يكون الحادث له وجوه مختلفة من جهة قياسه بأشباهه ونظائره ، فيختلط الأمر على المجتهد ، فيخطئ الصواب ، وهو مأجور على كلا الحالين ، ان أخطأ فهو مأجور على اجتهاده ، وان أصاب فهو مأجور على اجتهاده وتوفيقه ، وقد ورد عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، فاذا حكم واجتهد ثم أخطأ فله أجر » رواه الشيخان .

غير أن الفرق بين النبيّ وغيره : أن النبيّ لايقره الله على الخطأ بل يرشده الى الصواب . أما غير المعصوم فلاطريق الى ارشاده الى الصواب .

ثم كيف يحرص الاله على النبيين العظيمين : نبيّ الله داود ، ونبيه سليمان ، ويريك أن قوله (ففهمناها سليمان) لم يكن لنقص في داود وعدم استعداد للحكم والقضاء ، غير أنه قد تتفاوت القضاة والحكام مع استعداد الكلّ للقضاء ، كما كانت تتفاوت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ورد عن بعض الصحابة أنه قال « أقضانا عليّ وأقرؤنا أبيّ » مع أنه كان في الصحابة قضاة كثيرون وقرّاء ، ولكن استعداد عليّ للقضاء كان فوق استعداد غيره ، وإتقان أبيّ للقراءة فوق اتقان كثير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

فلما كان قول الله تعالى (ففهمناها سليمان) قد يسيء السامع فهمه ، ويخطئ فيه وجه الصواب ، عقبه بقوله (وكلا آتينا حكما وعلما) .

(٢) والآية ترينا فقه نبيّ الله سليمان فى القضاء ، وكمال استعداده للحكم ، وقد أخرج الشيخان عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كانت امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك . فتحاكما الى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه ، فقال ائتونى بالسكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : لاتفعل يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصغرى .

وذلك من فقه سليمان عليه السلام ، وكمال استعداده للقضاء ، حكم أبوه داود للكبرى بناء على قرينة من القرائن . أو لأن الولد كان تحت يد الكبرى ، والصغرى لم تستطع أن تقيم بينة على أنه ابنها . أما سليمان فعمد الى أسلوب عجيب اكتشف به وجه الصواب فى ذلك الحادث ، فأرى المرأتين أنه مستعدّ لأن يشقه نصفين . ويعطى كلّ واحدة نصفا ، وهنا تجلت العاطفة ، وظهرت شفقة الأمّ جلية واضحة ، لأن الأمّ لاترضى أن يقتل ابنها على مرءى منها ، وتؤثر أن يعش بعيدا عنها وتحت سلطان غيرها فى سبيل حفظ حياته .

فلما أفتى سليمان بذلك وأراهم أنه منفذ ذلك لامحالة لفضّ النزاع بين المرأتين ، قالت الصغرى [لاتفعل يرحمك الله] ولا نزاع بيننا [هو ابنها] فعرف سليمان أن هذه أمّه ، فقضى به للصغرى .

وذلك من إعمال سليمان للقرائن ، وتحكيمه للشواهد ، وهى مما يتبين به وجه الصواب فى المسائل ، فهى بينة ، لأن البينة مايتبين به وجه الصواب ويظهر به الحقّ ، وقد أطال الحافظ ابن القيم فى ذلك الباب فى كتاب [الطرق الحكمية] وفى كتاب [إعلام الموقعين] ولو رجعت إليه فى ذلك لرأيت مايثلج صدرك ، ويقفك على علمه الواسع ، وفقهه العميق ، ثم ترى كيف تكون الشريعة حكيمة عادلة صالحة لأن تسعد الناس فى دينهم ودنياهم . وكيف لايقف القاضى من الحوادث مكتوف الأيدى ، لأن عنده من القرائن والأدلة مايمكنه من كشف الحقيقة وازالة الغطاء ، ويرى ابن القيم أن العمل بالقرائن هو شأن الناس فى كلّ زمان .

وقد استدلّ بفتوى داود فى مسألة الولد التى رواها الشيخان ، وقال : ان ذلك لم يكن قضاء بشهود ، وانما هو قضاء بنى على قرينة ، هى شفقة الأمّ التى جبلت عليها ، كما استدلّ بقول الشاهد فى قضية امرأة العزيز مع يوسف (ان كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين «٢٦» وان كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين «٢٧» فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيدكنّ ان كيدكنّ عظيم «٢٨») وهو تحكيم للقرائن وعمل بمقتضى المنطق والعقل ، وقد وفينا الآية حقها فى سورة يوسف ، كما استدلّ بحوادث أخر وأفاض فى المسألة ، واستوفى الكلام على معنى البينة واشتقاقها ، واستعمال القرآن الكريم لها ، جزاه الله عن دينه خيرا .

(٣) (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) قال الراغب : التسخير سياقه الى الغرض

المختصّ قهرا . قال تعالى (وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض ـ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ـ وسخر لكم الفلك ـ كقوله سخرناها لكم لعلكم تشكرون ـ سبحان الذى سخر لنا هذا ، وقد شرح ذلك التسخير بقوله (يسبحن) .

واختلف المفسرون فى تسبيح الجبال مع داود ، أهو خارق للعادة ، أو هى تسبح بلسان حالها على حدّ قوله تعالى (و إن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) والمراد أن الجبال تقدّس الله بلسان حالها ، وتشهد له بأنه إله قادر حكيم ، منزه عن النقص والعبث ، وكأنها تقول : إذا كنت فى نظر بعض الناس خلقا لاغناء فيه ولا نفع ، فانى عند أصحاب العقول الراجحة ، والفقه الواسع ، خلقت لحكم ومصالح لاتقف عند حدّ ، فمن حكمها أن الله تعالى ينزل الثلج عليها فيبقى فى قللها حافظا لشراب الناس الى حين نفاده ، وجعل فيها ليذوب بالتدريج ، فتجىء منه السيول. وتسيل منه الأنهار والأودية ، فينبت فى المروج ، والوهاد والربى ضروب النبات والفواكه والأدوية التى لا يكون مثلها فى السهل والرمل ، ولولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض جملة ، فانحلّ بسرعة ، وعدم وقت الحاجة اليه ، وكان فى انحلاله جملة هلاك مامرّ عليه ، وفيها من الأحجار مايصلح للأبنية ، وفيها معادن الذهب والفضة ، والحديد والنحاس ، والزبرجد والزمرّد وغيرها من أنواع المعادن ، وفيها من المنافع أنها تردّ الرياح العاصفة وتكسر حدّتها عما تحتها ، كما تردّ عنهم السيول إذا كانت فى مجاريها .

والظاهر أن تسبيح الجبال مع نبىّ الله داود كان تسبيحا خاصا يفهمه داود عليه السلام ، وهو فضل من الله عليه ، لم يشركه فيه غيره ، و يدلّ لذلك قوله تعالى فى سورة سبأ (ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوّبى معه والطير «١٠») أى رجعى معه التسبيح ، أو رجعى معه فى التسبيح كلما رجع فيه ، ولو كان ذلك التسبيح بلسان الحال لما كان فضلا خاصا بنبىّ الله داود ، وقال فى سورة (صٓ) (واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب «١٧» انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشىّ والاشراق «١٨» والطير محشورة كلّ له أوّاب «١٩») أى كلّ من الجبال والطير لأجل تسبيح داود مسبح لأنها كانت تسبح بتسبيحه .

وقوله (والطير) منصوب على المعية ، والمعنى أن الطير كالجبال فى أن الله تعالى سخرها مع داود لتسبيح الله تعالى وتقديسه ، فجند الطير كان مسخرا لداود كالجبال (وكنا فاعلين) لذلك التسخير ، فليس ببدع منا ولاعجيب ، وهو دليل آخر على أن تسبيح الجبال مع داود كان تسبيحا إيجابيا ، و إلا لما ساغ قوله (وكنا فاعلين) وهى كلمة تدلّ على عظم الفعل وأهميته ، فاذا عجبتم منه فلاحقّ لكم فى ذلك ، لأن الكون جميعه بيد الله تعالى ، وهو الذى يسخره كيف يشاء ، وفى أىّ ناحية شاء ، لايتعاصى عليه شىء ، ومتى قال للشىء كن كان .

(٤) (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) أى علمناه عمل الدروع ، ثم بين لنا الغاية منها فى قوله (لتحصنكم من بأسكم) أى لتحفظكم اللبوس من بأسكم إذا وقعتم فى حرب ، وقد بين ذلك فى آية سبأ إذ يقول (وألنا له الحديد «١٠» أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد واعملوا صالحا انى بما تعملون بصير «١١») وسابغات : دروع واسعة ضافية ،

والسرد نسج الدروع ، وقدّر فيه : اجعله بقدر يتناسب مع المهمة التى عمل لها ، فهل الآية التى معنا شرح لآية سبأ . و إلانة الحديد لداود كناية عن تعليم الله له صنعة الدروع ولبوس الحرب ؟ ومادامت المسألة مسألة تعليم وارشاد فليست من خوارق العادة ، أوهناك إلانة حقيقة ومع الالانة تعليم منه ؟ وموضع التعليم فى آية سبأ هو قوله (أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد) وهو المعنى من قوله (وعلمناه صنعة لبوس) فالله تعالى ألان له الحديد معجزة له ، ثم شفع ذلك بأن علمه صناعة الدروع من ذلك الحديد اللين ، والآية تحتمل الفهمين .

وأنا أميل الى الوجه الأوّل وأن إلانة الحديد لداود عليه السلام هو المراد من قوله (وعلمناه صنعة لبوس) لأن الأصل فى الآية أن تفهم على حسب المعتاد والمألوف ، ولانذهب الى فهمها على وجه خارق للعادة إلا حيث تعذر فهمها على الوجه المعتاد ، والأصل فى الآيات أن يفسر بعضها بعضا .

(فهل أنتم شاكرون) أى فضل الله عليكم بذلك التعليم ، وهو يرينا أن علم فنون الحرب ومعرفة الوقاية منه وحماية الدولة من أيدى الأعداء نعمة عظمى ينبغى الشكر عليها ، وينبغى للقوم أن يهتموا بها ، لأنه لاحياة للعالم إذا لم يكن له قوّة حربية تحميه وتدافع عنه ، ولذلك يدعو القرآن الكريم الى أن نأخذ الحذر من العدوّ ، وأن نعدّ له ماتستطيع من قوّة مادّية ومعنوية ، ونكر القوّة لاختلافها باختلاف العصور والأزمنة ، ففى عهد داود عليه السلام كان القتال بالحراب ولذلك أرشده أن ينسج دروعا للحرب من الحديد ، لتقى لابسها من السهام والحراب .

أما اليوم فتطوّرت العلوم والمعارف ، ودخل العالم فى شأن جديد وأصبحت القوّة الحربية للأمم تقاس بأساطيلها البرية والبحرية ، وطياراتها وغوّاصاتها ، بل وتقاس بصناعتها وفنونها ، وتجارتها ، فكما تحارب الأمم بعضها بعضا بالمقذوفات النارية ، والغازات السامّة الخانقة ، يحارب بعضها بعضا بالمصنوعات والمنسوجات ، وهذه دولة اليابان تحارب العالم كله بصناعتها من جهة جودتها ، وسهولة ثمنها ، وهى حرب عوان يعمل العالم له حسابا وألف حساب ، لأنه يتعلق بمشكلة البطالة التى تهدّد الأمم من وقت لآخر ، ولها اتصال وثيق بثروة الأمّة وما ليتها ، ويتبع ذلك توسعها فى الاستعمار .

فوسائل الحرب فى هذا الوقت كثيرة مختلفة ، وقد تطوّرت بنسبة تطوّر العالم فى علومه ومعارفه ، واتساع مرافقة ومشاكله ، ومن لم يتذأب أكلته الذئاب ، ومن لايظلم الناس تظلمه ، فليتنبه لذلك المسلمون ، وليضربوا بسهم فى هذه الحياة المملوءة بالمشاكل ، وليلبسوا لكلّ وقت لبوسه ، و إلا ذهب ريحهم ، وقضى عليهم القضاء الأخير ، وليعتبروا بغيرهم ، ويذكروا بما حلّ بهم من مصائب ، وما انتابهم من ويلات ، وليذكروا تاريخهم المجيد ، وسلفهم الصالح ، وماخلفه لهم من دولة ، وما تركه من ميراث ، والله معهم يعينهم وينصرهم مانصروا تعاليمه ، وآزروا دينه وشريعته .

(٥) (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره الى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكلّ شىء عالمين) أى وسخرنا لسليمان الريح حال كونها عاصفة ، أى شديدة الهبوب : أى ان الله تعالى سخر له الريح تجرى بأمره كما يريد على قوّتها وشدّتها ، وذلك فضل من الله تعالى على نبيه داود ، فالريح التى

يرسلها الله على الجبال فتنسفها نسفا ، وتذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا . والريح التى يصفها الله بأنها لاتذر من شىء أتت عليه إلاجعلته كالرميم، والريح التى وصفها الله بأنها ريح عاتية تقصف الرءوس من الأجسام كما تقصف النخلة من جذعها - هذه الريح التى لها هذه القوة ، ولها هذه الآثار ، قد سخرها الله تعالى لداود تجرى بأمره رخاء سهلة ، حيث أراد داود ، و يقول بعض المفسرين انها أحيانا تكون عاصفة ، وأخرى تكون رخاء ، لأن الله وصفها بالوصفين جميعا ، مع أن الله تعالى وصفها بأنها عاصفة فى سورة الأنبياء .

ثم عقب الوصف بقوله تجرى بأمره الى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ، فهى تجرى لمصلحة داود عليه السلام ، ولايتفق ذلك مع قوتها وشدتها ، انما اللائق بهذه الريح أن تكون رخاء ، ووصفها فى سورة (ص) بقوله (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) .

فالظاهر أن عصفها بيان لشدتها فى نفسها ، وأن لينها بيان عند أمره لها وانتفاعه بها .

وقوله (تجرى بأمره) أى أنها تحت تصرفه وسلطانه ، وهى معجزة لداود وقوله (الى الأرض التى باركنا فيها) المراد بها بلاد الشام (وكنا بكل شىء عالمين) أى بصحة التدبير فيه ، فنجريه على ماتقتضيه الحكمة ، وانا لنعلم أن سليمان سيعرف نعمتنا و يشكرنا عليها .

(ومن الشياطين من يغوصون له و يعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) أى وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له فى البحار ، و يستخرجون منه الدر والمرجان ومايكون فيها (و يعملون عملا دون ذلك) أى دون الغوص كبناء المحاريب والتماثيل ، والقصور والقدور والجفان (وكنا لهم حافظين) أن يزيغوا عن أمره ، ويخرجوا عن طاعته .

داود وسليمان عليهما السلام

وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمٰنَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ «١٥» وَوَرِثَ سُلَيْمٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ «١٦» وَحُشِرَ [١] لِسُلَيْمٰنَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ [٢] «١٧» حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ «١٨» فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى [٣]

---

[١] جمع . [٢] يساسون ويمنعون ، أو يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا .

[٣] اجعلنى موزعا بالشكر مولعاً به .

أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّٰلِحِينَ «١٩» وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ «٢٠» لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ [١] مُبِينٍ «٢١» فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ «٢٢» إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ «٢٣» وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ «٢٤» أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ [٢] فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ «٢٥» اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ «٢٦» قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ «٢٧» اذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ «٢٨» قَالَتْ يَٰأَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ «٢٩» إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ «٣٠» أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ «٣١» قَالَتْ يَٰأَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ «٣٢» قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ «٣٣» قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ «٣٤» وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ «٣٥» فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا ءَاتَىٰنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ «٣٦» ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ «٣٧» قَالَ يَٰأَيُّهَا

[١] حجة وعذر . [٢] بمعنى المخبوء ، وهو النبات والمطر وغيرهما مما خبأه عزّ وعلا من غيوبه .

الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ «٣٨» قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ «٣٩» قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَٰبِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ «٤٠» قَالَ نَكِّرُوا[١] لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ «٤١» فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ «٤٢» وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ «٤٣» قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ[٢] فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ[٣] مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ «٤٤» النمل

شرح وعــــبرة

(١) (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) يخبرنا الله تعالى أنه أعطى داود وولده سليمان علما ، وهو علم القضاء بين الناس كما قال فى آية الأنبياء (وكلا آتينا حكما وعلما «٧٩») فنفهم من قرنه بالحكم أنه علم متعلق به ، فالحكم الذى آتاه الله اياها حكم أساسه العلم ، فالله تعالى يمتن عليهما بأن آتاهما مقدرة على الحكم بين الناس ، وأن هذه المقدرة أساسها العلم بوجوه الحكم وطرق القضاء ، وان تفاوتا فيه ، وكذلك آتاهما الله علما بسياسة الدولة وتدبير شئونها ، كما علم سليمان منطق الطير ، وفى الآية تنويه بشأن العلم وعلو منزلته ، ولاسيما علم القضاء والسياسة ، إذ لا تستوى أمة عالمة وأمة جاهلة ، وكذلك لا تستوى دولة فيها رجال قضاء وسياسة ، ودولة أقفرت من ذلك النوع من العلم .

وقد أصبح القضاء بين الناس ، وكذلك السياسة فنونا تدرس وتعلم ، وتطور العالم هو الذى قضى بذلك ، ولعل المسلمين يهتمون بالعلم و يعنون به عنايتهم بأهم أمورهم ومصالحهم ، حتى

---

[١] اجعلوه متنكرا متغيرا عن هيئته وشكله . [٢] القصر . [٣] محلى ، وقوارير : زجاج .

لايسبقهم الأجنبي فى هذه العلوم ، وحتى لايقفوا والقافلة تسير ، ولايجمدوا والفلك يتحرّك ويدور لعلّ المسلمين يفهمون أن نبيّ الله داود وولده سليمان لم يكونا ملكا إلا على أساس العلم وقاعدة المعرفة ، فاذا أرادوا أن يكونوا فى عداد الأمم الناهضة والشعوب الحية فليهتموا بالعلم من جميع نواحيه ، فان الأجنبيّ قد سلط عليهم ، لأنه علم وجهلوا ، وتقدّم وتأخروا ، ونشط وناموا .

(وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) .

أى ان نبيّ الله داود وولده سليمان شكرا الله على تفضيله لهم على كثير من عباده المؤمنين وهم الذين لم يؤتوا علما ، أو أوتوا علما ليس كعلمهما ، وتأمّل كيف يعترفان بأنهما وان آتاهما الله علما فقد فضل غيرهما عليهما ، ولم يفضلهما على جميع الناس ، بل فضلهم على الكثير من المؤمنين ، ليعلمانا كيف لايفتن الانسان بما أوتى من العلم ، وما وصل إليه من الفضل ، فان مايعطاه الانسان من العلم فى جانب ماجهله شيء قليل ، كما قال (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا «٨٥» [1])

ومن جهة أخرى فان هناك من هو أعلم منه من المخلوقين ، ومتى عرف الانسان ذلك ، وأيقن أن فضل الله لم يكن حجرا عليه ، وأنه فوق كلّ ذى علم عليم ، وعرف أنه لم يؤت من العلم إلا قليل — متى عرف ذلك بعد عنه الغرور ، وعرف قيمة نفسه ، وطلب المزيد من العلم ، وفهم معنى قول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (وقل ربّ زدنى علما «١١٤» [2]) .

(٢) (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كلّ شيء إنّ هذا لهو الفضل المبين) .

يرينا الله أن سليمان عليه السلام ورث أباه داود نبوّته وعلمه وملكه دون سائر أولاده ، ولم يكن ذلك الميراث كما يرث أولياء العهد آباءهم فى الملك بمقتضى نظام الوراثة ، وانما هو توريث الله لسليمان واصطفاؤه له لذلك المنصب ، لأن الله أعدّه له بما آتاه من الخصائص والمزايا التى نعدّه لذلك المقام .

(وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير) المنطق والنطق كلّ لفظ يعبر عما فى الضمير ، والأصوات الحيوانيـة من حيث انها تابعة للتخيلات منزّلة منزلة العبارة ، سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض ، بحيث يفهمها ماهو من جنسه . قال البيضاوى : ولعلّ سليمان مهما صوّت حيوان علم بقوّته الحدسية التخيل الذى صوّته ، والغرض الذى توخاه به .

ومن ذلك ماحكى أنه مرّ ببلبل يصوّت و يترقص ، فقال : يقول « إذا أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء » وصاحت فاختة فقال : انها تقول « ليت الخلق لم يخلقوا » فلعلّ صوت البلبل كان عن شبع وفراغ بال . وصياح الفاختة كان عن مقاساة شدّة وتألم قلب اه .

ولم يجزم البيضاوى بذلك الرأى ، بل صدّره بكلمة [لعلّ] الدالة على الرجاء ، ولعله يرى أن المتبادر من الآية أن تعليم منطق الطير لسليمان كان معجزة له ، وان كان ذلك الوجه الذى قرّره تحتمله الآية ، فان قوله (علمنا) يحتمل أن يكون معناه أنه منحه الله أسباب العلم ومقدّماته ، فأعطاه من الذكاء والفراسة مايفهم به لغة الطير فى حزنها وفرحها ، وشدّتها ورخائها ، و يسمع

---

[١] الاسراء . [٢] طه .

من الطير فى كلّ حالة من هذه الحالات مايدلّ على غرضها الذى تقصه من التصويت ، وإذا سهل على الذين يراقبون الحيوان والطير أن يجدوا أصواتها تتكيف بكيفيات مختلفة باختلاف حاجاتها ومطالبها ، فعواء الهرّة المحبوسة يغاير مواءها إذا طلبت السقاء ، والطعام أو الماء ، فلكلّ صوت كيفيات ونبرات ليست فى الصوت الآخر ، يفهمه عنها أبناء جنسها — إذا سهل ذلك على أولئك أفلا يسهل على نبيّ قد اختاره الله أن يعطى من قوّة الحدس والذكاء ما به يفهم منطق الطير وماتريده إذا صوّتت .

ان الآية تحتمل هذا ، ويكون قوله (علمنا منطق الطير) المراد به أن الله وهبه من الذكاء وقوة الحدس مايستطيع به فهم أصوات الطير ، وهو فضل عظيم من الله عليه يستحق عليه الشكر ، ويكون ذلك الامتنان كقوله (وكلا آتينا حكما وعلما) والحكم الذى آتاه الله اياه ، وامتنّ عليه به هو القدرة والاستعداد للقضاء بين الناس .

وكما تحتمل الآية ذلك تحتمل وجها آخر ، وهو أن الله اختصه بفهم لغة الطير لامن طريق الحدس ، بل من طريق الالهام ، فهو معجزة لسليمان كتسخير الريح ، وقد يؤيد ذلك قصة الهدهد ، فان ما دار بينه وبين سليمان من حوار وأخذ وردّ لا يمكن تأويله بمثل ما أوّل به البيضاوى ، فانه توعده بالعذاب الشديد إلا أن يأتى بحجة وعذر ، وقوله لسليمان : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، واخباره أنه وجد امرأة تملكهم ، وأوتيت من كلّ شىء ، ولها عرش عظيم ، وعلمه بأنها هى وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم فصدّهم عن السبيل فهم لايهتدون ، وقول سليمان له (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) الخ

كلّ ذلك لايتفق ومافهمه البيضاوى فى الآية ، وكذلك لايتفق وما يتأوّل به بعض الناس قصة الهدهد بالطير الزاجل المعلم ، فانه إذا سهل عليه أن يحمل رسالة من مكان الى مكان لايسهل عليه ذلك الحوار وهذه الأجوبة (وأوتينا من كلّ شىء) المراد به كثرة ما أوتى ، كما تقول فلان يقصده كلّ أحد ، ويعلم كلّ شىء ، تريد كثرة قاصديه ، وغزارة علمه ، والظاهر أن الأشياء التى أوتيها سليمان وأبوه هى حاجات الملك ، ولوازم العظمة ، كقوله فى شأن بلقيس (وأوتيت من كلّ شىء ولها عرش عظيم) .

(ان هذا لهو الفضل المبين) الاشارة الى ما أعطاه الله لداود وسليمان عليهما السلام ، وهو قول يراد به الشكر والمحمدة ، و (المبين) الواضح الجلىّ فذلك اعتراف آخر بفضل الله عليهما بعد اعترافهما الأوّل (وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) لنعرف من ذلك الخلق الذى كان عليه داود وسليمان أنه ينبغى لكلّ أحد أن يعرف فضل الله فى العلم أو المال أو الصحة أو النسل الصالح وغير ذلك مما لايعدّ ، وأن يقابل نعمة الله عليه بشكره والاعتراف بفضله ، لأن ذلك مدعاة للمزيد من ذلك الفضل (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد «٧» [1]) .

---

[١] ابراهيم

وانظر كيف ينسب الفضل فى كلّ هذه المواطن الى الله تعالى ، فيقول داود وسليمان عليهما السلام (الحمد لله الذى فضلنا) ويقول سليمان (يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كلّ شىء) أى ان الله هو الذى علمنا ، وهو الذى آتانا كلّ شىء ، ويقول الأستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى فى كتابه الجواهر : ان تعليم الله لنبيه سليمان كان معجزة ، ولذلك قال علمنا ، ولم يقل تعلمنا ، أما نحن فنعرفه من طريق التعلم .

وقد عرف العلماء كثيرا من لغات الطيور : أى تنوّع أصواتها لأغراضها المختلفة ، وفى هذا معجزة لهذا القرآن لقوله فى آخر السورة (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) وكأنّ الله يقول إنكم لا تعرفون لغات الطيور ، وقد علمتها سليمان ، وسيأتى يوم ينتشر فيه علم الخلق ، ويطلع الناس على عجائبه ، فتعرفونها بالتعليم لا بالقوّة القدسية كالأنبياء ، يريكم الله اياها . ويرشدكم الى مواطنها فتعرفونها ، لأنكم مأمورون أن تعرفوا آيات على قدر طاقتكم .

(٣) (وحشر لسليمان جنوده من الجنّ والانس والطير فهم يوزعون) أى جمع لسليمان جنوده المسخرة له من الجنّ وهو العالم الخفىّ الذى يقابل الانس ، ومن الانس والطير (فهم يوزعون) أى يساسون ويقمعون ، وحكمة ذلك التعقيب أن كثرة الجيش قد تكون مدعاة للفوضى والهمجية ، فأرانا الله أن جيش سليمان مع كثرته وتنوّعه هو سلس القياد سهل الضبط ، أو يحبس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا ، وذلك شأن الجيش عند الاستعراض يجمع أوّله على آخره بحيث يتصل بعضه ببعض ، لأن ذلك أرهب للعدوّ ، وأعظم فى نفس الرائى ، ولامانع من ارادة المعنيين جميعا ، فالجيش على كثرته سهل القياد ، ويتصل بعضه ببعض عند الاستعراض .

(حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون) هو واد بالشام يكثر فيه النمل ، أطلق عليه (وادى النمل) لذلك .

يرينا الله تعالى أنه بعد أن جمع لسليمان جنوده الكثيرة ساروا فى الأرض ، حتى إذا مرّوا على وادى النمل ، قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم . وهل قالت ذلك لأنها لما رأت الجنود قد أتوا على الوادى فرّت منهم ، وصاحت صيحة نبهت بها مايحضرتها من النمل لمرادها ، فتبعها فى الفرار ، فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم ، فأجروا مجراهم حيث جعلت هى قائلة ، وما عداها من النمل مقولا لهم — أو أنّ لامانع أن يخلق الله تعالى فيها النطق ، وفيما عداها العقل والفهم ؟ قيل بكلّ . وبدأ المفسر أبو السعود بالوجه الأوّل ، وكأنه يرجحه ويختاره .

ولسنا فى حاجة الى ادّعاء أن الله تعالى خلق فيها نطقا ، وفيما عداها عقلا وفهما ، مادام سليمان قد علمه الله منطقها وفهمه لغتها ، فاذا صاحت بما حولها ، وفرت الى جهة غير الجهة التى فيها جنود سليمان ، فقد فهم سليمان من صيحتها وفرارها ماتريد بهذه الصيحة ، وهى هى فى استعدادها وخلقتها .

ويظهر أن المفسر قد فهم من قول الله تعالى (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) أنها نطقت بمثل هذه الألفاظ ، لذلك يقول [مع أنه لايمتنع أن يخلق الله فيها النطق وفى غيرها العقل والفهم] مع أن المراد أنها صوّتت بما يفهم منه سليمان ذلك ماتدلّ عليه الآية غير أنه هل فهمها

سليمان بطريق الفراسة والحدس أو فهمها بإلهام من الله تعالى معجزة له .

ذلك هو موضع الكلام فى الآية ، ولم يكن هناك نزاع فى أن يمتنع أن يخلق الله فيها النطق وفى غيرها العقل والفهم أو لايمتنع .

(لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون) جواب الأمر فى قوله (ادخلوا مساكنكم) أمر بدل منـه مبين للغرض ، والمعنى لاتكونوا فى المكان الذى أنتم به فيحطمكم ، وقوله (وهم لايشعرون) اعتذار عن سـليمان وجنوده إذا فرض ان كان منهم تحطيم للنمل ، وكأنها تقول: لاخوتها من النمل كونوا على حذر من تحطيم جنود سـليمان لكم ، وفرّوا الى مساكنكم ، لأنه إذا حطمكم فقد حطمكم بدون شعور ، فأنتم الجانون على أنفسكم .

(٤) (فتبسم ضاحكا من قولها) تعجبا من حذرها وتحذيرها ، وفى الوقت الذى تحذر فيـه قومها تلفت نظر سليمان الى أن فى طريقه عالما هو أقلّ منه جسما ، وأضعف استعدادا ، ولا يليق بسليمان وقد آتاه الله ما آتاه من الملك والسلطان أن يغفل عن ذلك العالم الصغير ، فانه خلق من خلق الله ، لاذنب له فى أن خلقه الله ضعيفا لايستطيع أن يكافح من هو أعظم منه ، ولاحيلة له فى تحويله من الصغر الى كبر ، ومن الضعف الى القوّة .

تلفته الى أنه ينبغى للقوىّ أن يلحظ الضعيف ، وللكبير أن يرحم الصغير ، حتى ولو لم يكن له به كالنمل مع الانسان . فما بالك بالانسان مع أخيـه الانسان ، إذا كان للمخلوق الضعيف حقّ على المخلوق القوىّ أن يرعاه ويحتاطه لحاجته ، وان لم يكن من نوعه ، فحق الانسان على الانسان فى أن يرعى ضعفه ، ويحتاط للابقاء عليـه أولى ثم أولى ، ويحقّ لسليمان أن يبتسم ضاحكا من قول النملة هذا ، وتلطفها فى الاعتذار عن سليمان ، واشعار سليمان بلطف أنه مسئول عن هذه العوالم الصغيرة التى يمرّ بها جيشه بعد أن نبه لذلك .

(وقال ربّ أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) .

طلب من الله بعد حديث النملة أن يلهمه شكر نعمته عليه وعلى والديه فى أن حشر له ذلك الجيش الجرار ، ونعمته عليـه بتعليمه منطق الطير ، وفهمه ما تريده النملة من صوتها وفرارها ، ولم يطلب نبىّ الله منه أن يلهمه ذلك الشكر فحسب ، ولكنه طلب منـه مع ذلك أن يجعله مولعا بذلك الشكر ، معينا به ، لاهمّ له غـيره ، كما تعطيه كلمة (أوزعنى) فانها تدلّ فوق دلالتها على الالهام — على أن يكون ذلك الشكر بوازع يحفزه الى الشكر ، ويحضه عليـه ، بحيث لايدعه وقتا مّا بدون شكر لله تعالى ، ولما كان فضل الله عظيما على كلّ من سليمان وأبيـه وأمّه قال (علىّ وعلى والدىّ) .

(وأن أعمل صالحا ترضاه) أى وأوزعنى أن أعمل صالحا ترضاه ، لأن ذلك هو الغاية من الشكر العملى ، بل هو الشكر فيكون تفسيرا له ، ولذلك يقولون [الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه الى ماخلق لأجله] ويقول الله تعالى (وقليل من عبادى الشكور «١٣» [1]).

---

[١] سبأ .

وقوله (ترضاه) اشارة الى أن العمل قد يكون صالحا فى نظر صاحبه ولا يكون صالحا عند الله تعالى ، لأنه عمل لم يبن على العلم الصحيح والوحى السماوى ، وهو ما أخذ من مشكاة النبوّة ، بل أخذ من طريق التقليد الأعمى ، واتباع الآباء والأجداد ، كما عليه كثير من مسلمى اليوم ، يأخذون عبادتهم عن عجائز البيوت ، وما عليه القوم ، وفيها كثير من البدع والخرافات ، فلا تهذب نفوسهم ، ولا تصل بهم الى الغرض من كل عبادة شرعها الله على لسان نبيه .

أما الذى يأخذ دينه عن الله تعالى ، ويهتدى بهدى رسوله المعصوم ، فيرجع إليه فى أشكال العبادات ، ومعرفة الحلال والحرام ، ويعنى بشأن العبادة العناية اللائقة ، فلا يقلد فيها بدون حجة أو برهان ، وانما يأخذها بأدلتها وبراهينها ويسأل أهل الذكر ان لم يكن فى استطاعته أن يفهم ذلك بنفسه ـ فذلك هو الذى يعمل العمل الصالح الذى يرضاه الله ويحبه ، وإذا أخطأ السبيل بعد ذلك الجهد ، ولم يوفق للصواب ، لأن المسألة التى أخطأ فيها الصواب مسئلة اجتهادية ، فهو معذور فى خطئه ، مأجور على المجهود الذى بذله ، لأنه أدّى ماعليه ، وبذل ماينبغى أن يبذل المؤمن التقى .

(وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) يطلب من الله تعالى أن يدخله فى رحمته فى الدنيا والآخرة فى جملة الصالحين للحياتين ، الجامعين بين الصلاحية لعمارة الأرض والصالحية لارث الجنة ، وهى السعادة الكاملة، والفوز الأكبر .

(٥) (وتفقد الطير فقال مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين) أى تعرف الطيور فلم يجد فيها الهدهد ، (فقال ما لى لا أرى الهدهد) ألأنه حاضر وهو محجوب عنى بساتر ؟ أم كان غائبا ولذلك لم يره ، وكأنه يقول أوّلا : مالى لا أراه ألساتر ستره أو لسبب آخر ؟ ثم بدا له أنه غائب فأضرب عنه ، وقال : أم كان من الغائبين.

(لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين)

يقسم نبى الله سليمان أن لابدّ أن يعذّب الهدهد عذابا شديدا ، كنتف ريشه وجعله مع ضدّه فى قفص ، أو ليذبحنه ليعتبر به غيره ، إلا أن يأتيه بحجة تبين عذره فى تلك الغيبة (فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين) أى فمكث الهدهد مكثا غير طويل فلما رجع سأله عما لقى فى غيبته (فقال أحطت بما لم تحط به) علمت مالم تعلم . ولما كان الذى يعلم الشىء من جميع نواحيه يحيط بذلك الشىء عبر عنه بذلك ، وفى الآية دليل على أن الأنبياء تخفى عليهم أمور يعرفها غيرهم ، وذلك ليعرف الناس أقدارهم ، وليتعلم الانسان من كل أحد ، لأن سليمان لم ير بأسا فى أن يتعلم من طريق الهدهد ، وهو ذلكم الطائر المعروف ألهمه الله فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتى من فضل النبوّة والحكمة والعلوم الجمة ، والاحاطة بالمعلومات الكثيرة لينبهه الله تعالى على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحط به ليتصاغر إليه علمه وتتحاقر إليه نفسه ويكون ذلك لطفا به فى ترك الاعجاب الذى هو فتنة العلماء ، وأعظم بها من فتنة .

فاذا كان سليمان لم يعرف أحوال سبأ وملكها . وقال له الهدهد (أحطت بما لم تحط به) فلماذا

يأنف الانسان أن يتعلم من أخيه الانسان ، وان كان أصغر منه سنا ، أو دونه فى الوجاهة والمكانة وفى الحكم المشهورة [الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها] وذلك اكبار لشأن العلم ، واعلاء لمنزلته ، وأىّ اكبار أعظم من أن نبىّ الله سليمان يأخذه من طير من الطيور ، و يتلقاه من نوع غير نوعه ، ولايرى غضاضة على نفسه فى ذلك ، ولعلّ الناس يفطنون لهذا فيكبرون من شأن العلم كما أكبره سليمان ، و يهتمون به كما اهتمّ به سليمان ، ولاسيما العلم المتعلق بأحوال الممالك والأمم.

(وجئتك من سبأ بنبأ يقين) أى بخبر محقق ، وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان كما يقول المؤرخون نسبت إليه القبيلة .

(انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كلّ شىء ولها عرش عظيم) بيان للنبأ المتعلق بسبأ، والمرأة هى بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب ، والضمير فى تملكهم لسبأ (وأوتيت من كلّ شىء) يحتاجه الملوك (ولها عرش عظيم) سرير كبير (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) فكانوا يعبدونها ، وعبر عن العبادة بالسجود لأنه أظهر أشكالها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) من عبادة الشمس وغيرها من الأفعال والاعتقادات (فصدهم عن السبيل) أى سبيل الحقّ والصواب (فهم لايهتدون) إليه .

(أن لايسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض و يعلم ماتخفون وماتعلنون) بدل من (أعمالهم) يبين المراد بها : أى زين لهم الشيطان أعمالهم ، وهى عدم سجودهم لله تعالى ، أو مفعول لأجله : أى زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا لله ، وقرىء (ألا يسجدوا) بالتخفيف فتكون (ألا) للتنبيه ، و يا حرف نداء ، والمنادى محذوف : أى ياقوم اسجدوا لله الذى يخرج المخبوء والغائب فى السموات والأرض ، من نبات وأمطار وغيرها ، والمراد أنه فعال يخرج للناس ما كان خفيا عليهم ، فالنبات قبل أن يولد كان خبأ فى الأرض فأظهره الله وأخرجه والأجنة فى بطون أمّهاتها كانت كذلك ، فأخرجها الله وأظهرها ، وأتمّ خلقها وصوّرها، والكواكب تخفى فى النهار ثم يخرجها الله تعالى فى الليل ، و يظهر ضوءها للعالم ، والشمس تغيب عن طائفة بالليل وتظهرها بالنهار ، والأمطار يخرجها الله للعالم و ينزلها من جهة العلو فتنتفع بها الناس (و يعلم ماتخفون وما تعلنون) أى مع اخراجه الخبء يعلم مانخفيه فى أنفسنا وما نعلن ، والاله الذى له هذه الآثار ، وله العلم المحيط هو الذى يستحقّ أن يعبد .

أما الشمس التى يعبدها ذلك القوم فهى خلق من خلق الله تعالى ، وآية من آيات قدرته وعظمته ، فاذا كانت عظيمة الفوائد ، كثيرة المنافع ، فذلك لايجعلها أهلا لأن تعبد ، والذى يستحقّ العبادة الاله الذى خلقها ، وأعدّها لما خلقت من حكم ومصالح، وذللها ذلك التذليل (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولاللقمر واسجدوا لله الذى خلقهنّ ان كنتم إياه تعبدون «٣٧» [١]) .

(الله لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم) أى ان الذى يستحقّ السجود ، و يعلم الخبء ،

---

[١] فصلت .

ويعلم مايخفى وما نعلن هو الله ، وهو الذى لايستحق العبادة غيره ، وهو رب العرش العظيم ، وقد نكر عرش بلقيس ، وعرّف عرش الله تعالى ايذانا بالفرق بين العرشين ، وأى مناسبة بين عرش امرأة باليمن ، وعرش إله له مافى السموات ومافى الأرض وما بينهما ؟ ان عرش المخلوق وان عظم هو عرش محدود فى زمانه ومكانه ، وسلطانه ، ومهدد بعروش أخر .

أما عرش الله تعالى فهو فوق العروش ، وسلطانه فوق كل سلطان ، هو عرش من بيده ملكوت كل شىء له الآخرة والأولى ، السموات والأرض على كبرها ، وعظم ما فيهما من أنهار و بحار . ونبات وأشجار ، وحيوان وانسان ، وكواكب سيارة ، وأخرى واقفة ، وعوالم قد ملأت هذه الكواكب - كل أولئك خاضعة لله تعالى ، مسخرة لسلطانه وقدرته .

فأين عرش بلقيس من ذلك العرش ؟ بل أين عروش القياصرة الأكاسرة من ذلك ؟ وأين عرش أكبر مملكة فى الأرض من عرش الله تعالى ؟ أليس صاحب ذلك العرش هو مالك الملك وهو الذى يؤتى الملك من يشاء ، و ينزع الملك ممن يشاء ، و يعز من يشاء ، و يذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ؟ ألىس أصحاب العروش جيعهم خاضعين لسننه ، مسخرين لارادته طائعين أوكارهين ، أليس هو مالك الأرض يورثها من يشاء من عباده وجعل العاقبة للمتقين الذين يقون أنفسهم مما يبيد ملكهم ، و يقوض سلطانهم .

(٦) (قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) يريد سنختبر أمرك ، ونمتحن قولك ، لنعرف صدقك أو كذبك ، لأن ذلك شأن الملوك المدبرين ، لايأخذون القول بالتسليم بدون حجة أو برهان (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) حمله سليمان كتابه ، وأمره أن يلقيه إليهم ، وأن يتولى عنهم بعد الالقاء فينظر ماذا يقول بعضهم لبعض فى شأن ذلك الكتاب ؟

(قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم) هو ايجاز على طريق القرآن ، وهو أن يحذف الجملة لأن فى الكلام مايدل عليها ، وكأنه يقول فذهب الهدهد بكتاب سليمان ، وألقاه إلى بلقيس فتلقته رجعت أشراف القوم وأصحاب الرأى ، وقالت (انى ألقى الى كتاب كريم) الخ .

(إنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم أن لاتعلوا على وائتونى مسلمين) وقدوصفت الكتاب بالكرم لكرامة مضمونه ومرسله ، ولغرابة شأنه ، لأن طريقه الهدهد ، وذلك غيرمألوف للقوم . وقد عرفت أنه من سليمان لأن اسمه كان عليه .

أما نص الكتاب فهو الجمل الثلاث : [الأولى] بسم الله الرحمن الرحيم . الثانية (أن لاتعلوا على) ومعناه لاتتكبروا ولا تتعاظموا على الاجابة . الثالثة (وائتونى مسلمين) بيان للغرض من الكتاب ومعناه منقادين لله طائعين .

(قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) لجأت الى أشراف قومها وأصحاب الرأى ، وقالت لهم : أفتونى فى شأن ذلك الأمر الطارئ ، وأشيروا على فيه ، ما كنت قاطعة أمرا حتى تحضرون ، و يظهر أن ذلك كان رسالة منها إليهم تدعوهم فيها للاجتماع ليتشاوروا فى الأمر ، و يتبينوا وجه الصواب فيه ، شأن الملوك أصحاب العقل الراجح ، والتفكير

المتزن ، لايشتغلون بشئون الدولة ، ولايستبدّون فى تصريف الأمور ، لأن رأى الجماعة فوق رأى الفرد ، وعقول مجتمعة أنفع من عقل واحد .

ومنه نعلم أن مبدأ الشورى فى الحكم مبدأ قديم ، قد اهتدى إليه الناس فى عصورهم الأول ، وعملوا به فى القرون القديمة ، لأن فائدته واضحة ، وثمرته جلية لايختلف فيها اثنان . ولذلك جاءت الشريعة الاسلامية باعتباره أصلا من أصولها فى سياسة الدولة ، وقاعدة من قواعدها فى المصالح العامّة ، فأمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يستشير أصحابه فى الأمر الذى يعرض له ولهم كالحرب والسلم ، وعقد المعاهدات ، وما الى ذلك (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر) ثم قال له بعد هذا (فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحبّ المتوكلين «١٥٩» [1]) أى بعد أن تعدّ العدّة للأمر ، وتبحثه من جميع نواحيه ، وصممت بعد ذلك على الامضاء ، فلا يحولنّ بينك و بينه تثبيط أو تشكيك ، لأن التردّد لايليق بأصحاب العزائم الصادقة والارادة القوية ، وكذلك التسرع والشروع فى العمل قبل استيفاء بحثه ، واستكمال مايلزمه من معدّات . وقد كان ذلك شأن النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فيما يعرض له من حوادث ، وما يقع له من مشاكل ، وهذا أحد الصحابة الحباب بن المنذر فى غزوة بدر وقد نزل المسلمون فى مكان يستعدّون فيه لمنازلة المشركين ، يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أهذا منزل أنزلكه الله حتى لانحيد عنه أم هو الرأى والمكيدة ؟ فيقول له بل هو الرأى والمكيدة ، فيقول الحباب : أنزل بنا منزلا آخر وكان أصلح للمسلمين . فنزلوا هذا المكان وكان فيه النصر والظفر .

لنعلم أن الأمر مادام شأنا من الشئون العامّة التى تختلف فيه الأنظار ، ووجهة النظر ، ينبغى أن يستشار فيه ، أما ما كان من باب العقائد أو العبادات ، أومايشبه ذلك ، كتحليل الحلال وتحريم الحرام ، فالأمر فيه موكول الى الوحى السماوى ، والتلقى عن الله تعالى . ولذلك يقول الله تعالى ليحثّ المسلمين على أن يرجعوا فى أمورهم العامّة لأهل الرأى (و إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه الى الرسول و إلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ثم يعقب ذلك بما يدلّ على فضل الله علينا بذلك الارشاد فيقول (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا «٨٣» [2]) .

وأبلغ من الأمر بالشورى أن الله تعالى جعلها من صفات المؤمنين الذين يستحقون ثواب الله وجزاءه الحسن إذ يقول (فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون «٣٦» والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش و إذا ماغضبوا هم يغفرون «٣٧» والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون «٣٨» والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون «٣٩» [3]) فأخبرنا أن الشورى شأن من شئون المسلمين ، وخلق من أخلاقهم ، كتركهم للاثم والفواحش ، وعفوهم عمن ظلمهم ، واستجابتهم لربهم وخالقهم ، وصلاتهم وزكاتهم ، وانتصارهم إذا اعتدى الناس عليهم .

وكان ذلك الأسلوب أبلغ فى الحث على الشورى لأنه يريك أنه الأمر الواقع فى أمور المسلمين

---

[١] آل عمران . [٢] النساء . [٣] الشورى .

وليس من شأنهم أن يتركوه ، ولافرق عندهم بين طاعة أمر الله تعالى فى الصلاة والزكاة و بين طاعة أمره فى الشورى .

فاذا كانت بلقيس قد عرفت فائدة الشورى بفطرتها وتجاربها ، فان الاسلام قد جعلها مبدأ من مبادئه ، وأصلا من أصوله فى سياسة الدولة ، وتدبير الأمور العامّة . أمر بهارسوله على أنه أكبر أصحابه عقلا ، وجعلها شأنا من شئون المؤمنين ، وخلقا من أخلاقهم كصلاتهم وصومهم

وقد عرف الغربيون قيمة هذه المبادئ فأقاموها فى بلادهم ، وحرّموها على مستعمراتهم ، وان سمحوا بها للشعوب فانما يسمحون بها مبتورة مقصوصة الجناح ، حتى لايستطيع القوم أن ينتفعوا بها ، و يجنوا ثمرتها .

وقد عمل بها المسلمون فى قرونهم الأولى . فانتفعوا بها وسادوا العالم ، عمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على قدر ماتحتمله حال المسلمين فى ذلك الحين ، وكذلك فعل خلفاؤه الراشدون من بعده ، ومن ذلك استشارة أبى بكر فيمن يلى الأمر بعده . وجعل عمر الشورى فى نفر عينهم من الصحابة : عثمان بن عفان ، وعلىّ بن أبى طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص ، والزبير بن العوّام ، وطلحة بن عبد الله ، وكان أولئك النفر هم أهل المكانة الذين تخضع الأمّة لرأيهم .

وجعل اختيار من يخلفه فى الامارة الى هؤلاء النفر .

مضى المسلمون على ذلك المبدأ الى أن أعرضت بنو أمية عن الشورى فى عهد عثمان ، واستأثروا بالاشارة عليه بمايرونه ، فكان ما كان من الفتن . حتى استقرّ الأمر فيهم بقوّة العصبية لابالشورى .

(٧) (قالوا نحن أولوا قوّة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين) كأنهم يشيرون بأن لايخضعوا لسليمان ، لأنهم أصحاب قوّة ، وأصحاب بأس شديد ، ثم تأدّبوا معها ، وقالوا والأمر إليك على عادة المشير إذا كان مرءوسا لمن يستشيره ، ومن الناس من يفهم أن المعنى أنهم قوم حربيون ، ليسوا من أهل الرأى والمشورة ، بل هم جند مطيع ، لم يتعوّدوا أن يعطوا رأيا فى مثل ذلك الحادث ، وهو بعيد ، فانه فضلا عن أنه تسفيه لبلقيس فى توجيه الاستشارة إليهم ، وتعريض بغباوتها ، وعدم علمها بمن تحت سلطانها هل هم أهل حرب أم أهل رأى — لايتفق مع قولها (ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) فانه ظاهر فى أنهم مجلس الشورى ، وأهل الرأى والتفكير ، ولذلك خاطبتهم بقولها (ياأيها الملأ) وهم أشراف القوم وخاصتهم .

و يدلّ لصحة الرأى الأوّل فى الآية قولها لهم بعد أن اعتزوا بقوّتهم (ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) فهى تقول لهم : ان سليمان ان قاتلناه ربما دخل بلادنا فأضرّ بالأنفس والأموال ، والقرى والضياع .

(وكذلك يفعلون) أى ان هذه صفة الملوك الفاتحين ، وهو الحاصل الآن فى بلاد المسلمين على يد من استعمرهم من الفرنجة ، أذلوهم وقهروهم ، وجعلوا أعزة القوم أذلة ، وأدنياء النفوس أصحاب الحول والطول ، وفاسدى الأخلاق المهيمنين على هذه الشعوب .

وكأنها تقول لهم : نحن على مالنا من قوة ، وما عندنا من بأس وشدة ليس من مصلحتنا أن ندخل معه فى حرب ، ويظهر أنها اضطربت لكتاب سليمان على اختصاره ، وفزعت من أسلوبه على سهولته ، إذرأت فى كتاب سليمان أنه يبدؤه باسم الله تعالى ، ثم يعقب بقوله (أن لاتعلوا علىّ وائتونى مسلمين) ففهمت أن سليمان ملك لا كالملوك ، ملك مؤيد من الله الذى يستعينه فى أموره ، ويصدر اسمه فى مكاتباته ، فرأت أن لاتدخل مع ذلك الملك فى حرب . ولاتشتبك معه فى قتال ، وقالت لقومها : إذا وقعنا من ذلك الملك موقفا معاديا فربما فتح بلادنا واستولى على خيراتنا ، وكان معه جيش فاتح ، ومن شأن ذلك الجيش أن يفسد الحرث ويخرب القرى ، ويجعل العزيز من القوم ذليلا ، والكبير صغيرا .

لذلك رأت أن تتقدم لقومها برأى يدلّ على عقلها الراجح ، وتفكيرها المتزن ، هو أن ترسل الى سليمان هدية ، من شأنها أن تستهوى النفوس ، وتملك القلوب ، فان كان سليمان ملكا مؤيدا من الله تعالى ردّ الهدية ، وان كان من ملوك الدنيا ولاهمّ له إلا المال قبلها، وهنالك نقبين قوته المعنوية ، ومقدار ماعنده من عزم وحزم ، ثم يكون لنا شأن آخر بعد تبين حاله ، ووضوح أمره .

وقد وافقها الملأ على ذلك الرأى ، وبعثوا بالهدية الى نبىّ الله سليمان .

(٨) (فلما جاء سليمان قال أتمدّونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) أى فلما جاء رسول بلقيس سليمان بحمل الهدية غضب سليمان ، وقال منكرا لذلك العمل (أتمدّونن بمال؟) وهل أنا من طلاب المال الذين يفتنون به ؟ وذلك هو المنتظر من نبىّ كنبىّ الله سليمان ، لايقبل رشوة فى سبيل سكوته عن مطالبتها بالاسلام ، وتركها بدون أن يدعوها الى الله تعالى .

(فما آتانى الله خير مما آتاكم) لأن الله أعطاه ملكا ونبوة ، أما هم فأعطوا ملكا لم يكن معه نبوة ، أو المعنى فما آتانى الله من فيض رحمته ، وواسع فضله فى العلم والحكمة : خيرمما آتاكم من المال ، لأن المال عرض زائل ، أما ذلك الفضل الوافر ، والرحمة الواسعة ، ورزق الله المعنوى فهو خير من رزقكم الحسى ، وقد فتن الناس بالمال منذ خلقه الله ، وظنت بلقيس أن سليمان ممن فتن كبقية الناس ، ولذلك أرسلت إليه بهدية لتنظر ماذا تتركه فى نفسه من الأثر ، والى أىّ حدّ تؤثر عليه وعلى دعوته ، وهل تلك الهدية تكون مدعاة لسكوته عن الدعوة ، واعراضه عن الفتح الذى أرسل الكتاب تمهيدا له ، أو هو سيقابل المال كما يقابله به أصحاب النفوس العالية . يقابله بالرفض والتعفف ، والاباء والعظمة ، كلّ ذلك من أغراض ملكة سبأ .

فلم تجد من سليمان سوى هذه الكلمة العالية (فما آتانى الله خير مما آتاكم) .

ويحق لكل مصلح أن يقول هذه الكلمة كلما عرض عليه رشوة ، أوتقدّم المبطل إليه بعرض من الأعراض الزائلة ، فاذاعرض الناس عليه منصبا ليتلهى به عن دعوته، ويسكت به عن مبادئه ، ويطيع به داعى الهوى فليقل كما قال سليمان (فما آتانى الله خير مما آتاكم) لأنه أعطى خلقاعظيما ، وعقيدة صالحة ، وأصبح منارا يهتدى به السائرون ، ويستضىء به الضالون ، أعطى علما قد جهله

الناس ، وخلقا قويا متينا ، نعم إذا طولب المصلح أن يسكت عن إصلاحه ، وأن يتغافل عن أخلاقه ومبادئه فى سبيل وظيفة أو مال ، وسواء أكانت تلك الوظيفة متعلقة بشخص أو بأحد أولاده وأسرته - إذا طولب المصلح بشىء من ذلك فلا ينسى ماقاله سليمان لأمراء بلقيس (أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم) .

وكثيرا مايلجأ المستعمرون الى ذلك النوع من الرشوة ، وهذا الأسلوب من تملك قلوب الناس فيتفرسون القوم ، و يتعرفون العنصر المتحرك الذى من شأنه أن يقض مضاجعهم ، ويؤلب عليهم فيساومونه على الوظيفة ، و يبتاعون شرفه وكرامته بدراهم معدودة ، فمن كان همه المال أجابهم الى ماطلبوا ، ومن كانت دعوته خالصة آثر الفقر على الغنى ، وأبى أن يقبل ذلك ، وقدوته الصالحة ، وأسوته الحسنة : نبى الله سليمان ، إذ يقول لملكة سبأ (فما آتانى الله خير مما آتاكم) و إذا كان نبى الله سليمان أنكر على القوم أن يقدموا له رشوة حتى يسكت عن الدعوة ، و يتنازل عن طلبها الى الاسلام ، فان الله تعالى يخبرنا أن كثيرا من الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل و يصدون عن سبيل الله ، وكان ذلك أكلا بالباطل لأنهم يأكلونها باسم أنهم رؤساء دين ، يعلمون الناس مايحتاجون ، و يرشدونهم الى دين الله الصحيح ، وتعاليمه الحقة ، ولكنهم يأكلون هذه الأموال ، ويكتمون عنهم تعاليم الرسول ، ولذلك يقول (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون «٩» [١]) .

وقد أخذ الله المواثيق والعهود على الذين أوتوا الكتاب لبينته للناس ولا يكتمونه ، فكان منهم أن نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا ، هو ذلكم المال الزائل ، والحظوة عند الملوك والأمراء .

وما أشبه مايصنعه أولئك الأحبار والرهبان بما تدعو إليه ملكة سبأ بنبى الله سليمان ، غير أنها كانت لبقة ، فساقت من المال ماساقت باسم الهدية ، وما هى إلا رشوة ، ولافرق بينها و بين هدية تقدم للقاضى من رجل له خصومة عنده ، وهل يشك أحد فى أن الهدية التى تساق على ذلك الوجه هى رشوة مقنعة ، تقدم للقاضى لتوجهه الى الناحية التى يريدها صاحب الهدية .

إذا كان نبى الله سليمان أنكر على ملكة سبأ ما صنعت ، فان الله تعالى قد ذم طائفة من أهل الكتاب بأنهم (سماعون للكذب أكالون للسحت) وهو الذى يجلب على صاحبه عارا يسحت دينه ومروءته ، و يذهب بأخلاقه وكرامته ، وقد أطلقوا على الرشوة سحتا لأنها تجعل صاحبها فى هذه المنزلة ، وكان ينبغى للربانيين والأحبار أن يكفوا الشعب عن أكل السحت وتناول المحرم ، ولكنهم مع الأسف وقع كثير منهم فى ذلك البلاء ، وأصيب بفتنة المال ، فقبلوا الرشوة ، وأكلوا مال الناس بالباطل ، وكتموا شيئا من الدين فى سبيل إرضاء الرؤساء وأصحاب السلطان ، ولا ينتظر من ملوث برذيلة من الرذائل أن ينهى الناس عنها .

ولقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرشوة بعد نهى القرآن عنها فيما قدمناه ، فقال فيما رواه أبو داود والترمذى « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشى والمرتشى » .

---

[١] التوبة .

وقال فيما رواه الطبرانى « الراشى والمرتشى فى النار » .

فاذا كان الراشى والمرتشى طريدين من رحمة الله ، بعيدين عن رضوانه ورحمته ، فكيف يقبلها نبيّ الله سليمان ؟ وكيف يأخذها من ملكة سبأ فى سبيل أن يسكت عن دعوتها إلى الدّين وحملها على الدّخول فيه ؟ ؟ .

لم يقف سليمان عند ذلك الحدّ من الانكار ، بل أرانا أن هناك فرقا بين ملكة سبأ وبين سليمان ، هى أنها تفرح بمثل هذه الهدية إذا قدّمت لها ، وتتأثر بها إذا هى سيقت إليها (بل أنتم بهديتكم تفرحون) أما هو فلا يفرح بالمال وانما يفرح برضا الله عنه وتفضله عليه ، ورعايته بالاحسان تلو الاحسان ، وذلك شأن الرسل الذين اختارهم الله لتبليغ دينه ، وإعزاز كلمته .

وقد أطال المفسرون فى بيان الهدية وما حوته ، وندع هذه الروايات جانبا ، لأنه يصعب إقامة الدّليل على صحتها ، ولأن فهم الآية لا يتوقف عليها ، وكلّ ما تفيده الآية أنها هدية ملوك يراد بها التأثير على سليمان ، وتحويل وجهته ، واختبار مكانته ، وهل هو ملك مؤيد من الله تعالى أو ملك كبقية الملوك ؟ .

ومن شأن الهدية التى لها هذه الصفة ، ويراد بها ما أريد من هذه الهدية ، أو من شأن الرّشوة التى تقدّم من ملكة إلى ملك أن تكون عظيمة . أما نوع العظمة فلسنا فى حاجة إلى بيانه أو تفصيله ، فاذا صحت فيه رواية فبها ، وان لم تصحّ فالآية لسنت فى حاجة إليها ، ولو كان فى بيانها عبرة لفصلها الله لنا .

(٩) (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) .

قد غضب نبيّ الله سليمان من ذلك العمل ، وتأثرت نفسه بما صنعت بلقيس . وكأنها تتهمه فى دينه ، وتخدشه فى كرامته وخلقه ، وفهمت أنه مستعدّ فى الجلة لقبول الرّشوة ولذلك أقدمت عليها ، وكان من آثار غضبه لدينه وكرامته أن قال للرسول (ارجع إليهم) والمراد بلقيس وقومها (فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها) أى لا طاقة لهم بمقاومتها ولاقدرة بهم على مقاتلتها (ولنخرجنهم منها أذلة) أى من سبأ لاعزّ لهم (وهم صاغرون) أسرى مهانون .

(قال يا أيها الملاء أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين) أراد أن يريها آية تدلّ على أن ما أعطاه الله من الملك فوق ما أعطاهم ، وأن ملك الدّنيا فى جانب عجائب الله وبديع قدرته يسير ، والعرش كرسيّ الملك ، عرض على الملأ من جنوده ذلك السؤال ، ووجه إليهم ذلك الطلب ، وهو (أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين) وهل أرسل لهم جيشا كما وعد وهو يعلم أنه سيظفر بهم ويتغلب عليهم فيأتونه مسلمين خاضعين ؟ أوأن القوم لما عرفوا أن سليمان ملك موحى إليه ورفض الرّشوة أذعنوا له وصمموا على أن يجيئوه وقد علم ذلك بوحى من الله تعالى أو من طريق غير الوحى ؟ الآية تحتمل الأمرين .

(قال عفريت من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوىّ أمين) .

العفريت : الخبيث المتمرّد : أى ان ماردا من مردة الجنّ قويا قال لسليمان أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك الذى أنت فيه . والمراد آتيك به بسرعة ، وانى على حمله لقوىّ أمين على

ما فيه من الجواهر فلا أخفى منه شيئا ، والجنّ عالم خفيّ قد يستطيع أن يزاول من الأعمال فوق ما نزاول نحن ، وستكشف الأيام كيف أن العفريت من الجنّ يستطيع نقل عرش بلقيس من اليمن إلى ملك سليمان بفارس : بل قال بعضهم ان علم استحضار الأرواح قرّب لنا هذه المعجزة وأرانا أن من الأرواح ما يستطيع نقل الأمتعة من مكان إلى مكان .

(قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك) .

اختلف المفسرون فى المراد من (الذى عنده علم من الكتاب) قيل : هو آصف بن برخيا كاتب سليمان وكان صديقا عالما ، وقيل : جبريل ، وقيل : ملك آخر أيد الله به سليمان ، وقيل غير ذلك . والظاهر من كلة (الذى) أنه كان معروفا عندهم ومن مقابلته بعفريت من الجنّ أنه لم يكن متمرّدا عاتيا ، بل كان من أهل العلم بالكتاب .

وقد أجمل الله (الكتاب) ولم يبين المراد منه ، أهو الكتاب المنزّل : وهو التوراة ؟ أو جنس الكتاب الشامل للتوراة وغيرها من الكتب ؟ أو المراد بالكتاب الكتابة ؟ الآية تحتمل كلّ ذلك ، فاذا كان المراد به جبريل أو ملك آخر فلا غرابة فى أن يكون عنده من القوّة على نقل عرش بلقيس ما لم يكن عند غيره ، واذا كان رجلا من الانس فتكون مقدرته على نقل ذلك العرش كرامة له ومعجزة لسليمان أظهرها الله تعالى على يد واحد من تابعيه ، وان كان ذلك على غير المعروف فى المعجزات : وهى أن تكون على يد الرّسول نفسه ، ومهما يكن من شىء فانا نؤمن بما جاء به من كتاب الله ، وندع تفسير هذه الخوارق للأيام تكشفها ، ولا نحملها من التأويل فوق طاقتها .

والظاهر من عرض (الذى عنده علم من الكتاب) على سليمان أن يأتيه بعرش بلقيس قبل أن يرتدّ إليه طرفه أنه أقوى وأعلم من عفريت الجنّ بذلك العمل ، ولذلك استطاع أن يعده بالاتيان به فى أقلّ زمن ، وأن سليمان رضى به ناقلا للعرش .

(فلما رآه مستقرّا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى ءأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فانّ ربى غنيّ كريم) .

أى فلما رأى سليمان العرش حاضرا بين يديه قال : هذا من فضل ربى ، ومن حوله وقوّته ، لا من حولى وقوّتى ، ليختبرنى بهذه النعم التى يقدّمها إلىّ ، ءأشكره عليها أم أكفره ، ومن شكر الله أو المنعم فانما يشكرلنفسه ، لأن ثواب الشكر راجع إليه ، ومن كفر النعم فان ربى غنيّ عن شكره ، كريم بالانعام عليه (و إذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنّ عذابى لشديد «٧» وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فانّ الله لغنىّ حيد «٨»[1]) .

(قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون) نكروا لها عرشها بتغييرهيئته وشكله ، لنختبر بذلك العمل ذكاءها وعقلها ، ونمتحن استعدادها ، وهل تفطن لأن ذلك الذى نكرناه عرشها تقدّمها وقد تركته مغلقة عليه الأبواب ، موكلة عليه الحراس ، ومتى عرفت أنه عرشها كان ذلك داعية لايمانها ، لأن المعجزة فى نقله مقرونة بسبقه لها إلى سليمان ،

---

[١] ابراهيم .

فاذا فطنت لذلك عرفت أن سليمان استطاع بجنوده مالم يستطعه ملك من ملوك الأرض فيكون ملكا ونبيا .

(فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو) أى فلما وصلت ملكة سبأ عرض عليها ذلك العرش الذى تركته ، ووجه إليها ذلك السؤال ، ولم يقل (أهذا عرشك) لئلا يكون تلقينا للجواب وقد كانت لبقة فأجابت إجابة مرنة ، وقالت (كأنه هو) لأن هناك احتمال أنه هو ، وأنه لبس هو (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) هو من كلام بلقيس تتحدث عن نفسها بنون العظمة التى تعودها الملوك .

والمراد أنها أوتيت العلم بكمال قدرة الله تعالى ، وصحة نبوة سليمان من قبل هـذه المعجزة ، وكنا خاضعين لأمر الله تعالى ولأمر سليمان (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) أى منعها سليمان ، أو صدها الله تعالى عما كانت تعبد من دون الله ، وحال بينها و بينه (إنها كانت من من قوم كافرين) أى نشأت بين قوم يعبدون الشمس .

(قيل لها ادخلى الصرح) القصر (فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها) أى ظنت أن ذلك القصر لجة من الماء ، وكشفت عن ساقيها لئلا تبتل (قال إنه صرح ممرد من قوارير) أى مانظنيه ماء قصر محلى من زجاج ، وليس بماء ، فسترت ساقيها ، وعجبت من ذلك ، وعرفت أن ملك سليمان فوق ملكها ، وعظمته ليست كعظمتها .

(قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) ظلمت نفسها بالكفر ، وظلمتها بعرض الرشوة على نبى كهذا ، وخضعت مع سليمان لله رب العالمين .

داود وسليمان عليهما السلام

وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَجِبَالُ أَوِّبِي[1] مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ «١٠» أَنِ اعْمَلْ سَبِغَٰتٍ[2] وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١١» وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ[3] وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ «١٢» يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَٰرِيبَ[4] وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ[5] كَالْجَوَابِ

---

[١] رجعى معه التسبيح . [٢] أى دروعاً واسعات « وقدّر فى السرد » أى اجعل نسج الدروع بقدر ونظام . [٣] النحاس المذاب . [٤] قصور حصينة .

[٥] جمع جفنة ، وهى القصعة ، والجوابى : جمع جابية ، وهى الحوض الكبير الذى يجبى ويجمع فيه الماء .

وَقُدُورٍ (١) رَاسِيَٰتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ «١٣» فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ (٢) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ «١٤» سبأ

شرح وعـــبرة

(١) (ولقد آتينا داود منا فضـلا ياجبال أوّبى معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد واعملوا صالحا إنى بمـا تعملون بصير) .

يرينا الله بهذه الآيات أنه أعطى داود من لدنه فضـلا ثم شرح ذلك الفضل بقوله (ياجبال أوّبى معه والطير) أى رجعى معه التسبيح كما قال فى سـورة الأنبياء (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) .

ثم بين فضلا آخر عليه بقوله (وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد) وقد تقدّم الكلام على إلانة الحديدلنبيه داود، وأن ذلك معجزة أو ألانه له من طريق الصنعة كماقال (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم) كما فى سورة الأنبياء ، وأن الآية تحتمل الأمرين . وقوله (أن اعمل سابغات) تفسير لقوله (وألنا له الحديد) . والمراد أنه يعمل دروعا تستر جسم الرجل فى الحرب ، أو تسـتر المكان الذى هو معرّض للاصابة ، فلا تـكون ناقصـة (وقدّر فى السرد) أحكم نسج الدروع واجعله بقدر كما قال (إنا كلّ شىء خلقناه بقدر «٤٩» (٣)) . وقال (وكلّ شىء عنده بمقدار «٨» (٤)) .

(واعملوا صالحا إنى بمـا تعملون بصير) إرشاد الى إصلاح دينهم بعد أن أرشدهم الى إصلاح دنياهم ، يرينابه أن الانسان فى حاجة الى الأمرين جميعا ، فيستعدّ لدنياه حتى لا يكون عرضـة للأحداث والطوارئ ، ويصلح من دينه حتى يقوى بذلك إيمانه ، وتتهذّب نفسه ، ويصـبح خيرا لنفسه ولأمّته ، وللانسانية جميعها .

فالله تعالى يرينا بذلك الارشاد الذى قدّمه لداود ومن معه أنه فى حاجة إلى الأمرين : أمر الدنيا وأمر الآخرة ، وأن من عمل للدّنيا فاستعدّ لطوارئها ، وتوقى شرّها ، واجتهد فى خيراتها ، ثم قصر فى أمر الآخرة أعطاه الله من الدنيا ماعمل له ، ووصـله إلى مايريد ، ثم جعل له جهنم جزاء فى الآخرة (و) كـذلك (من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن) فان الله يعطيه ثواب العاملين (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصـلاها مذموما

---

[١] جمع قدر ، وهو ما يطبخ فيه اللحم ، و « راسيات » ثابتات فى أماكنها لعظمها .
[٢] عصاه و « خرّ » وقع . [٣] القمر . [٤] الرعد .

مدحورا «١٨» ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهومؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا «١٩» كلا نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا «٢٠» [1]) . وقال (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب «٢٠» [2]) .

هذه سنة الله مع خلقه ، يعطى الدّنيا من عمل لها أيا كان دينه ونحلته ، ويعطى الآخرة كذلك من يسعى لها ، وطلب من المؤمن أن يعمل لدنياه وأخراه ، لأن الدّنيا مزرعة للآخرة ، ولذلك يقول الله وهو مبين وصية قوم قارون له (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرةولاتنس نصيبك من الدنيا «٧٧» [3]) .

وأمرنا بالعمل لطلب الرزق ، وأن نمشى فى مناكب الأرض ، وأن ننتشر فى الأرض ونبتغى من فضل الله ، كما أمرنا أن نعدّ لأعدائنا كلّ ما استطعناه من قوّة معنوية أو مادّية ، وأن نأخذ حذرنا ولانتخذ بطانة من دوننا - كلّ ذلك لنعيش فى هذه الحياة عيشة الأعزاء ، لا عيشة الذلّ والهوان .

فاذا كان الله تعالى قد أمر نبيه داود أن يعمل دروع الحرب ، وأن يكون حكيما فى صنع هذه الدروع ، ثم أمره بعد ذلك وأمر قومه أن يعملوا صالحا فذلك لأنه يريد منهم أن يكونوا صالحين لدينهم ودنياهم ، سعداء فى حياتهم الأولى والثانية ، حامين لحقيقتهم وحقهم ، وذلك هو شأن المؤمن ، وكذلك دين عامّة الرسل . كلف الناس به ليعيشوا به عيشة السعادة ، ويجمعوا به بين خيرى الدنيا والآخرة ، فلم يكن بدعا أن يكون دين خاتم الرسل دينا يحثّ الناس على العمل للدّنيا والعمل للآخرة ، وعلى كلّ مسلم أن يحرص على الأمرين : أمر دينه وأمر دنياه ، وأن الذى يفرّط فى أحدهما هو رجل أحمق ليس من العقل فى شىء .

وكذلك الأمة التى تعنى بأمر دنياها وتظنّ أنها ليست فى حاجة الى أمر الدين ، هى أمّة جاهلة فان أقلّ مافى الدين خلق قويم ، لاغنى للأمم عن الخلق ، ومن ناحية أخرى ، فان الأمم التى لم يكن لها وازع نفسى يعصمها من المنكرات والفواحش لا يمكن أن يعصمها قانون ، أو تتأدّب من طريق الحكومات ، وهذه سلسلة الجرائم تزداد كلّ يوم فى أمم العالم المتمدينين ويتفاقم شرّها يوما بعد يوم ، والقوانين تقف أمام هذه الجرائم مكتوفة الأيدى ، وبرهنت الأيام على فشل هذه القوانين ، وضعفها عن القيام بمهمة التهذيب العام .

وان الفرق بين سلطة القانون وسلطة الدين تريك أنه لاغنى للناس عن الدين ، ذلك أن الدين حارس يلزم صاحبه ، وشعور بوازع نفسى يهيمن على الرجل الدين ، ولايستطيع صاحب ذلك الخلق أن يتخلص منه إلا بارضائه والوقوف عند مايريد ، فاذا همت نفسه بفاحشة من الفواحش سمع صوتا خفيا من ضميره يناديه لاتفعل ، ويذكره بما يعقب ذلك الفعل من ضياع خلقه وذهاب كرامته ، وإغضابه لربه وخالقه ، وأن ذلك الوازع لايفارقه فى غيبة الناس ولافى حضورهم ، ولافى سرّ أو علانية .

---

[١] الإسراء . [٢] الشورى . [٣] القصص .

أما الذى يعيش على حساب القانون ، فلا يحس من نفسه ذلك الوازع ، إلا إذا شعر أن وقوعه فى المنكر قد يطلع عليه الناس فيساق الى المحاكمة ، وهنالك يفضح أمره ويهتك ستره ، وإذا استطاع أن يفعل ذلك المنكر حيث يفلت من يد القانون لأنه لم يكن عليه من الرقباء من يشهد عليه ـ فانه له بدعة ، بل يقدم عليه ، دع مايبيحه القانون الوضعى من جرائم ومنكرات كجريمة الزنا التى تحميها الحكومات ، وتعطى رخصا للبغايا الاحتراف بتلك الفاحشة ، وكجريمة شرب الخمر الذى لايعاقب عليه قانون ، ولايساق الشارب فيه الى دار الحكومة إلا إذا عمل عربدة فى الطريق تقلق راحة الناس .

فالقانون عاجز عن تأديب الناس وتهذيبهم على فرض أنه يضع عقوبة لكل الجرائم ، فكيف اذا كان القانون أعرج مبتورا ؟ لذلك كان من مصلحة الناس أن يكون لهم دين يحرصون عليه ، ويبالغون فى العناية به ، وأن يكون لهم دنيا تتناسب مع زمنهم الذى يعيشون فيه ، ومع تطوّرات الحياة [ومن لم يتذأب أكلته الذئاب] [ومن لايظلم الناس يظلم] .

(انى بما تعملون بصير) فأحاسبكم عليه وأجزيكم به ، وهو صالح لأن يكون وعدا بالثواب وتوعدا بالعقاب .

(٢) (ولسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر) أى وسخرنا لسليمان الريح جريها بالغداة مسيرة شهر ، وكذلك جريها بالعشى ، وذلك فضل من الله تعالى على نبيه سليمان ، سخر له الريح تجرى بأمره ، وتقطع فى الغدوة مايقطعه الماشى أو الراكب للبحر مثلا فى شهر كامل ، وكان ذلك معجزة لنبيه سليمان ، وأصبح الآن عاما ، فسخر الريح لأوروبا ، واستطاعت أن تستخدمه فى الأسفار بالطيارات التجارية والحربية ، وان كانت فى السرعة لم تصل الى الحدّ الذى وصل إليه سليمان عليه السلام كما سخر لها الهواء فى الوقت الحاضر ، فانتفعت به بواسطة التموّجات الهوائية فى نقل الأخبار والأصوات والأشكال من طريق العلم ، وأصبحنا ونحن بالشرق نسمع كل مايدور فى الغرب من خطب ومحاضرات وغيرها على بعد الشقة وطول المسافة ، وكذلك هم يسمعون خطبنا ومحاضراتنا وما يدور فى بلادنا ، وهو تسخير من الله طريقه العلم والتفكير ، ولعل الله يقرب لنا أمر هذه المعجزات بهذه الخوارق العلمية ، ويرينا أنها لم تكن من قسم المحال كما فهم بعض الناس ، وانما هى أمر ممكن ، والدليل على امكانها وقوع مايقاربها من طريق العلم ، ولو كانت من قسم المحال ماوقعت ، وقد يؤيد ذلك قوله فى سورة النمل (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها «٩٣») أى يريكم لها من طريق العلم فتعرفونها بالتعلم ، كما أراها للرسل من طريق المعجزة ، لأنها خارقة لعادة القوم ، وجاءت على غير المألوف لهم .

(وأسلنا له عين القطر) أى من فضل الله عليه ، ودلائل صدقه أن أسال له النحاس : أى جعله سائلا من معدنه ينبع منه كما يسيل الماء من ينبوعه ، ولذلك سماه عينا ، وذلك ليسهل عليه أن يحوّله الى مايريد ، وينتفع به فى وجوه شتى .

(ومن الجنّ من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) أى ومن فضل الله عليه أن سخر له من الجنّ من يعمل بين يديه ، وقوله (بين يديه)

يشير الى أن الله تعالى ألقى فى قلوب الجنّ الخوف من سليمان ، و بذلك سخرّها له وجعلها مطيعة لأمره ، ولولا خوفها من سليمان على قوّتها وتمرّدها ماصنعت له شيئا ، فهى تعمل له مايريد بالسلطان الذى جعله الله له عليها ، وقوله (باذن ربه) أى لتسخيره لها ، ولولا أن الله سخرها له ما استطاع أن ينتفع بها : كما قال فى معجزة عيسى عليه السلام (وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله «٤٩» [1]) .

(ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) تهديد من الله تعالى للجنّ ، يرينا به أنه فوق تسخيرها تسخيرا كونيا لسليمان ، وتذليلها لأن تكون تحت سلطته وتصرّفه ، نهاها عن عصيان أمره ، وتوعدها أن يذيقها عذاب جهنم إذا هى زاغت عن أمرالله لها بطاعة سليمان وهو فضل كبير على سليمان أن يجعل عصيان أمره فى شئون الدنيا مدعاة لعذاب العاصى بالسعير

(يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) بيان لعمل الجنّ المسخرة لسليمان ، فهى تعمل له محاريب ، وهى القصور الحصينة ، بما فيها من القوة على حمل الأثقال ونقل لوازم البناء ، وكذلك يعملون له تماثيل وهى مظهر من مظاهر العظمة وهو دليل على مشروعية التماثيل ، وأن الاسلام إذا حرمها فانما يحرّمها إذا كانت ذريعة للشرك والوثنية كالتماثيل التى تعمل للصالحين ، أما مايعمل للعظماء الذين ليس من شأنهم أن يعبدوا بهذه التماثيل فليس هناك وجه لتحريمها ، وما ورد من الأحاديث فى النهى عن اتخاذ صورة أو تمثال فمحمول على ذلك ، ولو كانت التماثيل محرّمة لذاتها ما أباحها الله لسليمان ، لأن الرسل جيعهم متفقون على محاربة الشرك وذرائع الشرك ، لأن التوحيد من الأصول التى لاتختلف فيها الشرائع السماوية ولكن الجنّ كانت تعملها لسليمان ، وأقرّها على ذلك العمل ، وادّعاء أن ذلك النوع من التماثيل كان فى غير الحيوان كالأشجار مثلا خلاف الظاهر ، وكذلك القول بأن ذلك كان شرعا لسليمان ، وأنه مما تختلف فيه الشرائع .

والظاهر أنها لم تكن تماثيل لعبادة أصحابها ، وانما هى تماثيل لأغراض أخر (وجفان كالجواب) أى الحياض الكبيرة التى يجمع فيها الماء ولعلّ نبيّ الله كان يحتاج ذلك النوع ليخزن فيه الماء (وقدور راسيات) أى قدور يطبخ فيها ثابتة لاتنقل من مكان الى مكان لعظمها وكبر حجمها ، وذلك شأن الممالك الكبيرة ، والدول الواسعة ، يحتاج رجالها من آلات الطبخ قدورا واسعة ثابتة لاتنقل لعظمتها .

(اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور) أى اعملوا يا آل داود ما أمرتكم به لتشكرونى على هذه النعم ، وأمر آل داود ، والمراد داود وأهل بيته ، وفيهم سليمان ، أو المراد بآل داود كل من ينتمى إليه و إن لم يكن من أقاربه .

يرينا الله تعالى أنه ينبغى للانسان أن يقابل إحسان الله إليه بالشكر لا بالكفر ، وخاطب آل داود لأن نعمته على سليمان نعمة عليهم (وقليل من عبادى الشكور) أى قليل من عباد الله من خلقه الشكر ، وعادته الاعتراف بجميل الله تعالى عليه واحسانه إليه ، فلا ينسى نعمه ،

---

[١] آل عمران .

ولا يغفل عن فضله ، ومن شأن الذى يذكر ذلك دائما أن لايعصى ربه ، ولذلك يعرّفون الشكر بأنه صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق له .

(فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) .

أى فلما قضى الله الموت على سليمان مادلّ الجنّ على موته إلا دابة الأرض تأكل عصاه ، وقد كانت الجنّ فى أمكنة بعيدة عن سليمان لايفترون عن عملهم خشية أن يعاقبهم ، و بعد مدّة لم يحدّدها القرآن علم أحد الجنّ بموته إذ رأى عصاه ملقاة على الأرض فرفعها فاذا الأرضة قد أكلتها ، فاستدلّ من أكل الأرضة لها أن سليمان قد تركها مدّة طويلة ، وما كان ليتركها إلا لحدث من موت أو مرض ، وقد كانت العصا من شارات الرئيس والرياسة ، وبخاصة من كان ملكا كسليمان لايتركها مادام صحيحا معافى .

وعلى ذلك الوجه فقوله (خرّ) المراد به مات ، وفى القاموس وفى لسان العرب أن خرّ تأتى بمعنى مات ، أو الضمير فى قوله (مادلهم) لأهل سليمان ، والخرور : السقوط ، وقد كان سليمان عليه السلام وجد فى محرابه ، وقد أدركه الموت وهو جالس متكئ على عصاه فجاءت الأرضة وأكلت بعضه فانهار الجزء الذى أكلته ، فاختلّ التوازن فخرّ ، فدلّ ذلك أهله على موته .

يقول الشيخ النجار بعد ذكر الوجهين السابقين : ومن رأى فعل الأرضة فى دنقلة العجوز لايستبعد ذلك ، فقد أخبرنى الشيخ محمد بك الخضرى أنه أهمل وضع أرجل مكتبه فى إناء فيه ماء وهو بدنقلة ، فلم تمض أيام حتى وجد الأرضة قد أثرت فى جزء مهمّ من تلك الأرجل اهـ .

(أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) الغيب هنا : ماغاب عنهم من موت سليمان، وهو يدلنا على أن الجنّ قد أخفى الله عنهم موت سليمان ، وأنهم أسفوا على بقائهم فى عملهم مدّة مات فيها سيدهم ومسخرهم .

دابة الأرض

(٣) قال صاحب كتاب : [الجواهر فى تفسير القرآن] ماملخصه : الأرضة دودة بيضاء تبنى على نفسها بيتا مستطيلا ، ولها شفران تنقر بهما الخشب والآجر والحجارة ، وجمعها أرض ـ بفتح الراء ـ ويقال لها النمل الأعمى ، ويقال انه يوجد ألف وخمسمائة نوع من الأرضة ، والمشهور منها لايتجاوز الأربعين ، وكلّ نوع يمتاز عن سواه بصفات خاصة [فمنه] البناء الذى يقيم هضبا فوق الأرض ، و[منه] مايفتك بالأشجار الحية وينقبها ، وجنده كالكواسر أو الضوارى على جانب عظيم من القساوة ، و[منه] ما تشبه شفتاه قرون التيس فتتمدّد وتقذف به الى مسافة عشرين سنتيمترا .

و بعض هذه الحشرات يعيش فى جذوع الأشجار التى يحتفرها ، و يعدّ منها مسالك وأسرابا تذهب كلّ مذهب ، وتخترقها من كلّ ناحية حتى الجذور ، و بعضها يبنى عشه فى الأغصان ويوطدها حتى يقوى على مقاومة الأعصار ، وحتى يمتنع على الانسان الاستيلاء عليه فيضطر الى

نشره بالمنشار .

وحيث أقامت الأرضة كانت عاملا للهدم والتخريب ، وما أقلت الأرضة فى البلاد الحارة حشرة مثلها فى حرب دائمة مع الانسان ، فتأكل بيوته من أساسها ، وتفنى ماعنده من فراش وكساء وورق ومؤونة وخشب ونعال ونبات ، ولا ينجو شىء من موجوداته من هذا التخريب الفظيع الذى يتمّ فى الخفاء فنعدّه من خوارق الوجود .

وإنك لتجد أشجارا كبيرة سليمة فى الظاهر ، فلا تكاد تمدّ يدك إليها حتى تنهار، لأنهامتأ كلة من الباطن ، تلك أعمال الأرضة فى التخريب المنزلى ، وقد يتسع نطاقها فيشمل مدينة بأسرها .

ففى عام ١٨٧٩ نشب الأرضة بسفينة حربية أسبانية فى ميناء [فرول] فلم يبق ولم يذر ، وزعم الجنرال [لكرك] أن جزر الأنتيبل الفرنسوية لم تقو فى سنة ١٨٠٩ على ردّ الانجليز ، لأن الحشرة الهدّامة كانت قد خربت المنازل ، وتركت المدافع والذخيرة فى حالةلاتصلح معها للعمل .

ثم قال : إن النملة عدوّ الأرضة الألدّ ، ولولاها لكانت الأرضة قد اجتاحت القسم الجنوبى من الكرة الأرضية .

ومن الأرضة ما خلق لنفسه جندا خاصا يمتاز برأس كبير يستعمله لسدّ الفتحة كأنه صمامة من الفلين ، وترود النملة قرية الأرضة دائرة حولها ليل نهار ، باحثة عن صدع أو شقّ تنسل منه إليها ، ولهذا كانت الحيطة لها بالغة أقصى المستطاع ، وكانت مراقبة الشقوق شديدة ، ولا سيما الشقوق المصنوعة لتجديد الهواء ، فان منازل الأرضة تحتاج إلى الهواء المتجدّد ، وقد أقيم لذلك هندسة ونظام ليس من ورائهما لعلماء الصحة اليوم مأخذ لعائب أو معلق لطاعن .

واذا أتيح للعدوّ أن يصيب أحد هذه الشقوق فان أوّل ما يرى هو رأس أحد الجنودالمدافعين وقد أخذ يضرب الأرض بمشفريه إنذارا وتنبيها ، فيسرع الحرس ، ثم الفرقة بأسرها ، وتسدّ بجماجها الفتحة ، وهى تحرّك فى الهواء أحناكها الهائلة كأنها أوغال من الشوك ، أو تهجم على غير هدى هجوم الكلاب الضارية ، حتى تصيب العدوّ فتعض عليه عضا شديدا ، ولا تتخلى عنه إلا حاملة قطعة منه ، وجنود الأرضة تبقى بعدتقهقر العدوّ حينا أمام الثغرة ، ثم تعود إلى قشلاقاتها فترجع العمال المعدّة للخدمة شارعة فى ترميم ماتخرب بسرعة هائلة .

وقد روى [سافاج] أنه دمر منزلا للأرضة فى المساء ، ولما عاد عندالصباح وجده قد أصلحه وأتمّ ترميمه ، وعلا بطبقة جديدة من الطين ، ولاعجب فان السرعة فىالعمل مسألة حياة أوموت وأقلّ إهمال فى ذلك هو دعوة لأعداء كثار ، وخاتمة ذلك الاستعمار .

ثم ختم صاحب كتاب الجواهر بحثه الطويل بقوله : أيها المسلمون هذا اخترته من كتاب [مملكة الظلام] أو [حياة الأرضة] الذى عرّبه الدكتور [نقولا فياض] .

نعم أنا أفضت فى الكلام على [الأرضة] ومعيشتها وسياستها ونظامها ، وانما حرّكنى لذلك قوله تعالى (ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) يا سبحان الله ما لنا وللأرضة ، ومالنا ولمنسأة سليمان ، وما لنا ولأكل الأرض لها ، وما لنا ولكون سليمان لم يعلم اليهود موته إلا بعمل الأرضة .

عجيب والله هذا القرآن ، عجيب والله أن تكون هـذه الكلمات باعثة لى على تعقب أحوال الأرضة ، فماذا عرفنا منها ؟ عرفنا أن لله جنودا وجنودا ، وتلك الجنود لها ملوك ، ولها سياسات ونظم اجتماعية عجيبة ، وعرفنا أن فى أمم أوربا من يدرسون هذه الحشرات ليستخرجوا منها علما عسى أن يرتقى به الانسان فى مستقبل الزمان .

أيها المسلمون : إن الناس تمنوا الطيران فطاروا ، وهاهم أولاء يتمنون عقولا أرقى من هـذه العقول ، ويسعون لكسبها فسيروا مع الناس بل أنتم أولى ، فان إشارات القرآن تبعث المسلم على العمل .

داود وسليمان عليهما السلام

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ[1] إِنَّهُ أَوَّابٌ «١٧» إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ «١٨» وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً[2] كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ «١٩» وَشَدَدْنَا[3] مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ[4] الْخِطَابِ «٢٠» وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا[5] الْمِحْرَابَ «٢١» إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ[6] الصِّرَٰطِ «٢٢» إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي[7] فِي الْخِطَابِ «٢٣» قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ[8] فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ «٢٤» فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ[9] وَحُسْنَ مَـَٔابٍ «٢٥» يَٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ

---

[١] القوة فى الدين . [٢] مجموعة « أواب » مسبح . كانت ترجع التسبيح معه . [٣] قويناه . [٤] الخطاب : الفاصل فى القضاء ، وتدابير الملك والمشورة . [٥] تصعدوا سوره ، والمحراب : غرفة داود . [٦] وسطه ومحجته : ضربه مثلا لعين الحق ومحضه . [٧] غلبنى فى المحاجة والمخاطبة . [٨] ابتليناه وامتحناه . [٩] خطوة « مآب » مرجع .

عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ «٢٦» وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ «٢٧» أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ «٢٨» كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ «٢٩» وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ «٣٠» إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ (١) الْجِيَادُ «٣١» فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ «٣٢» رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ (٢) مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ «٣٣» وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا (٣) ثُمَّ أَنَابَ «٣٤» قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ «٣٥» فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً (٤) حَيْثُ أَصَابَ «٣٦» وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ «٣٧» وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ (٥) فِي الْأَصْفَادِ «٣٨» هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ «٣٩» وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ «٤٠» ص

شرح وعـــبرة

(١) بعد أن أقسم الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن أن الكفار ما كفروا به عن خلل فى دينه، بل لأنهم فى استكبار ومشاقة لله تعالى، و بعد أن هددهم بما أهلك من قبلهم من القرون فاستغاثوا حين حل الهلاك بهم، ولم يكن الوقت وقت فرار من عذاب الله تعالى، و بعد أن أخبره أنهم عجبوا أن يجيئهم رسول من بنى جلدتهم، وقالوا فى شأنه: هو ساحر كذاب،

---

[١] الخيول التى تقف على ثلاثة قوائم، وقد أقامت الرجل الأخرى على طرف حافر، ولا يكاد يكون ذلك إلا فى العراب الخلص. [٢] جعل. [٣] بسبب مرض ألم به فصار جسداً لا قوة فيه، وأناب: رجع إلى قوته. [٤] لينة طيبة لا تزعزع، وقيل طيعة له.

[٥] مسلسلين فى القيود حيث يقرن بعضهم ببعض.

وانطلق أشرافهم وسادتهم يمرون بالقوم أن امشوا على ما أنتم عليه ، واصبروا على آلهتكم ، وأنهم ماسمعوا بما قاله محمد فى الملة التى وجدوا عليها الآباء والأجداد ، وأن ذلك أمر مختلق .

و بعد أن ذكرهم الله بقوم نوح وعاد وثمود ، وفرعون صاحب القوة والبطش ، وأنهم جميعهم لما كذبوا الرسل حق عليهم عقاب الله .

بعد ذلك كله يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب) .

يأمره الله تعالى أن يصبر على أذاهم ، و يحتمل غلظتهم ، وأن يذكر عبد الله داود ليكون له فيه الأسوة الحسنة ، وقد وصفه بقوله (ذا الأيد انه أوّاب) أى صاحب القوة فى الدين ، والقوىّ فى دينه لايهن لشدّة ، ولايضعف لاضطهاد ، بل يقابلهما بالحزم والعزم ، و يتلقاها بقلب لايعرف الضعف سبيلا إليه ، وفؤاد فى غاية الثبات ، لأنه يعلم أن الشدّة التى حلت به مآلها الى رخاء ، والايذاء الذى أوقعه به أعداء الحقّ والدين هو إعلاء لشأنه ، ورفع لمنزلته وتضحية فى سبيل الله وسبيل الاصلاح العامّ ، وأىّ اصلاح أعظم من نشر دين يهدى الناس الى سعادتهم ، و يثبت عقائد ومبادئ ترشد القوم الى صلاح دينهم ودنياهم ، و إذا جهل الناس قيمة هذا الدين اليوم فسيعرفونها بعد ، و يتجلى لهم مافيها من عناصر للحياة الحقة ، وأصول لايسعد العالم بدونها ، ومن يحمل دعوة هذا أساسها ، وتلك غايتها ، لجدير به أن يصبر على ايذاء القوم وجهلهم ، وأن لايقابل السفه بسفه مثله ، وانما يقابله بالأناة والحكمة ، والتأسى برسل الله فى ذلك الباب ، والتخلق بأخلاقهم فى هذا السبيل .

والله تعالى لم يقصّ على رسوله قصص الأنبياء إلا ليقوّى به يقينه ، ويثبت به فؤاده ، لم يقصه عليه ليكون أساو با من أساليب اللهو ، أو ضربا من ضروب التفكه (وكلا نقصّ عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين «١٢٠»[1]) .

يذكر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بعبده داود صاحب القوة فى دين الله ، ليكون كذلك قويا فى دينه كما كان نبىّ الله داود ، مطمئنا لنصر الله له كما نصر عبده داود وأيده ، ثم وصف داود بقوله (انه أوّاب) أى رجاع الى الله تعالى ، رجاع إليه فى شدّته ورخائه ، رجاع إليه فى سرّه وعلانيته ، رجاع إليه كلما حزبه أمر ، أو جدّ به الجدّ ، يستغفره ذنبه ، و يستعين به على شدائده ، و يستنصره على خصومه ، و يطلب منه مالا يقدر عليه غيره ، ولايستطيعه سواه .

ثم عقب ذلك بقوله (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشىّ والاشراق) وذلك من آثار اكثاره من العبادة ، وشغفه بتسبيح الله تعالى وتقديسه ، وولوعه بتنزيه الله عن كلّ مالا يليق ، فكانت الجبال تسبح الله معه على وجه لانعرفه نحن ، وقد لايعلمه داود ، و إنما يعلمه الله تعالى ، ولا عجب فان كلّ شىء يسبح الله تعالى ولا نفقه تسبيحه ، وعدم فقهنا لذلك التسبيح لم يخرجها عن كونها مسبحة لله معنا .

---

[١] هود .

والظاهر من أن الطير كذلك كانت تسبح الله مع داود وأنه علم منطقها ، أنه يفهم كيف تسبح ، وكذلك الجبال .

وعلى الجلة فالله تعالى يصف داود بأنه صاحب قوّة فى دينه ، ويعلل ذلك بقوله (إنه أوّاب) وأنه من أجل ذلك أعطاه ما أعطاه ، ووهبه ماوهبه ، وسخر له ماسخر ، فسخر له الجبال والطير كلّ يسبح الله لأجل تسبيحه ، وقوّى ملكه ، وأعطاه العلم النافع ، وأقدره على فصل الخصومات والقضاء بين الناس، وغفرله ماظنه ذنبا حين تحاكمت إليه الخصوم ، ووهبه سليمان، ونعمت الهبة .

كلّ هذا لأن داود قوىّ فى دينه ، صلب فى عقيدته ، شديد فى ثقته بربه وخالقه ، كثير الرجوع الى مولاه فى حاجاته وعبادته ، فلتكن يامحمد كما كان ، وليكن الناس كداود فى قوّة ايمانهم ، ورجوعهم الى ربهم ، ليكن الناس أقوياء القلوب ، واثقين بنصر الله لهم ، وتأييده حقهم على باطل سواهم ، وأنهم إذا كانوا على هذه العقيدة ألان لهم الحديد ، وسخر لهم الجبال على قوّتها وصلابتها ، وسخر لهم الريح على عصفها وشدّتها .

والمراد أن الله تعالى يذلل لهم كلّ صعب ، لأن قوّة الارادة تعمل مالا تعمله الحراب والمدافع وقوّة الارادة تصهر الحديد ، وتذيب النحاس ، وتنسف الجبال ، وتضطرّ العدوّ الجبار ، والخصم الألدّ أن يلين ويخضع ، ويذلّ ويخشع ، اجلالا لقوّة العزم ، وشدّة الحزم ، ونزولا على الشدّة التى لاتجد هوادة ، والتصميم الذى لايعرف انحلالا ولاتردّدا .

(٢) (وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) .

يذكر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأنه شدّ ملك داود وقوّاه ، وهى نعمة عظمى من الله تعالى يكافئ بها نبيه داود على قوّته فى دينه ، ورجوعه الى ربه وخالقه ، وهو كقوله فى سورة طه (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى «٣٠» اشدد به أزرى «٣١» وأشركه فى أمرى «٣٢») . وقوّة الملك نعمة عظمى ، وذلك انما يكون بتوفيقه الى أسباب البقاء ، وإبعاده عن عوامل الخراب والفساد، فجعل فى دولته من رجال العلم والسياسة ، والفنون والصناعة ماتستطيع به أن تعيش منيعة الجانب، حصينة الأطراف، كماجعل فيها من يقيمون العدل، ويتحرون الصواب والمصلحة ، وجعل فيها من القوّة الحربية مايرهب الأعداء ، ويخيف الغير ، ومن أراد ملكا قويا فى دولة تفشت فيها الرشا ، وفسدت فيها الأخلاق ،وأصبح الناس أسراء شهواتهم وأهوائهم ، من أراد ملكا قويا فى بلد مقفر من العلم النافع ، والصناعة المفيدة ، والحربية القوية — من أراد ملكا قويا فى بلد ذلك حاله ، وتلك أخلاقه ، انما يتطلب محالا ، لأنه طلب مالايتفق وسنة الله فى حياة الأمم وموتها ، وضعفها وقوّتها ، وقيامها وسقوطها ، ولايمكن أن يبدّل الله سنته أو يهدم نظامه .

ولعلّ المسلمين يفطنون الى أن أهمّ شىء فى أسباب شدّ الملك وتقوية السلطان : هو الخلق الطيب الذى يعتمد على الدين ، ويرتكز على الفضيلة ، لعلهم يفطنون لهذا فيستعيدون بدينهم ونشاطهم مجدهم ويستردّون باستقامتهم عزّهم ، لعلهم يفطنون الى أن الملك لم يكن فى وقت مّا طريقا لجمع المال من طريقه المعروف وغير المعروف ، ولم يكن سلما لتمتيع النفس بلذائذ وشهوات من شأنها أن تزرى بصاحبها ، وتضعه فى موضع لايليق ، ولم يكن الملك وسيلة من وسائل ظلم

الضعفاء ، أو الفتك بالأبرياء .

(وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) نعمة أخرى على نبيّ الله داود عليه السلام ، هى نعمة الحكمة ، وهى العلم النافع الذى يحمل صاحبه على العمل ، ويسوقه الى التخلق بأخلاق طيبة وقد بين ذلك فى آية أخرى إذ يقول (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين « ١٥ » [1]) ويصح أن يراد بالحكمة النبوّة ، أو الحكمة التى تقابل العبث ، أو يراد بها كلّ أولئك المعانى ، لأنها غير متنافية (وفصل الخطاب) أى الخطاب الفاصل بين الحق والباطل ، والمراد أن الله تعالى أعطاه مقدرة على ذلك ، سواء كان ذلك فى القضاء بين الناس ، أو فى الجدل والنزاع فى أمور العلم والدين ، أو غير هذا ، وكذلك أعطاه فصل الخطاب فى سياسة الدولة وشئونها العامّة .

كل ذلك لأن داود صاحب الأيد أوّاب ، ومنه تعلم أن التقوى تتفجر بها ينابيع الحكم ، وأن القلب المعمور بطاعة الله وتقواه جدير بذلك الفضل الكبير . وقد ورد «من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم» وكذلك تعلم من الآية أن نبيّ الله تعالى كان قوله الفصل ، لأنه بعيد عن الشهوة ، بعيد عن الهوى ، وكلّ قاض عنده من الاستعداد للقضاء بين الناس مايؤهله لأن يحكم بينهم ، وتجرّد عن الهوى ، فان قوله يكون هو القول الفصل ، وقضاءه هو القضاء الأخير ، وإنما يباعد بين الناس وبين الحقّ الشهوات والأهواء والأغراض والأمراض . حانا الله منها ، وعصمنا بفضله وكرمه .

(٣) (وهل أتاك نبؤا الخصم إذ تسوّروا المحراب) الخ .

يأبى المفسرون إلا أن يتأثروا بالاسرائيليات ومادسه اليهود على الدين من قصص ، ويأبى المفسرون إلا أن يشحنوا سيرة الأنبياء بما يتبرأ منه القرآن الكريم ، ولايتفق وكرامتهم فى هذه الحياة الدنيا ، وما أعدّهم الله له من عمل ، وماهيأهم له من منصب ، فتراهم لأجل فهم قصة الخصمين اللذين تسوّروا المحراب يذهبون مذاهب شتى ، وتراهم فى جلتهم يذهبون الى أن قصة الخصمين لم تكن قصة حقيقية ، بل هى قصة تمثيلية ، قام بها ملكان ليلفتا نظر داود الى ما كان منه ، ثم يذكرون فى بيان سبب هذه القصة ما لايرضاه لنفسه رجل من عامّة المؤمنين فضلا عن خاصتهم ، وتراهم يختلقون على نبيّ الله داود الأكاذيب والأباطيل .

وكذلك نرى المفسرين يأبون إلا أن يفسروا [النعجة] بالمرأة ، ومن لنا باسماع رجال العصر الذين لم يرضوا للمرأة من الحقوق مارضيه الاسلام لها ، بل يريدون أن يجعلوها كالرجل حتى فيما لاتهاودها عليه فطرتها وطبيعتها — من لنا بتبليغ أولئك العصريين أن القرآن الكريم يعبر عن المرأة بالنعجة ، ويسميها باسم حيوان أعجم ، لنرى ماذا يقابلونهم به ، وماذا يصنعون معهم إزاء ذلك الفهم العجيب ، والوصمة المنكرة التى يصمون بها المرأة شريكة الرجل فى الحياة ، والعضو العامل فى تكوين الأسرة ، وهل يتفق ذلك مع قول القرآن فى شأن جماعة النساء (ولهنّ مثل الذى عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درجة [2]) فجعل للمرأة من الحقّ على الرجل مثل ماله عليها بناء على مايقضى به العرف ، وميز الرجل عليها بدرجة الرياسة فى البيت .

---

[١] النمل . [٢] البقرة .

ولا ندرى ماهو الداعى الى تأويل النعجة بالمرأة ، والحط من قيمة المرأة الى ذلك الحد ، ولصق ذلك بالقرآن الكريم ، وما الداعى الى اعتبار القصة من ملكين لامن رجلين ؟ واعتبارها رمزا لحادثة وقعت من نبى الله داود .

لماذا ذلك كله والأصل فى الكلام الحقيقة دون المجاز ، والنعجة هى الأنثى من الضأن لا المرأة ، ولماذا لاتكون القصة حقيقية من خصمين تحاكما الى داود وشرحا له قضيتهما ، فأفتى صاحب النعجة أنه مظلوم ، وأن صاحب النعاج هو الظالم ، ثم عقب ذلك بأن الشأن فى الخلطاء أن يبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقد اضطرب المفسرون فى تأويل قوله (وظنّ داود أنما فتناه) والآية كفيلة ببيان هذه الفتنة ، فانها ترينا أن نبى الله داود أفتى لمجرد سماعه قول صاحب النعجة ، ولم يسمع لقول صاحب النعاج ، والواجب على القاضى أن يسمع الحجتين ، ويوازن بينهما ، وبعد ذلك يقضى .

ولعل صاحب النعاج رأى أن أمر النعجة لايستقيم بوجودها وحدها ، وبقائها منفردة عن أخوتها ، لأنها بذلك تكون عرضة لسطو الذئب عليها ، فمن مصلحته ومصلحة نعجته أن تعيش مع أخوتها ، ولعل ذلك هو الذى جعله يقول (وعزنى فى الخطاب) ولكن مالصاحب النعاج ومصلحة النعجة ؟ وماله ولمصلحة صاحبها ؟ وهل جعله الله قيما عليه حتى يطلب منه أن يدفع إليه ماله ، ليثمره له ويرعاه بما يعود عليه وعلى ماله بالخير ؟ وهل يجبر الرجل على تسليم نعجته لصاحبه مادام بقاؤها وحدها لغير مصلحتها ؟ .

وقد يجوز أن تكون حجة صاحب النعاج أن غنمه فى حاجة إليها ، وأن حياتها متوقفة على حياة غنمه أو حياة طائفة منها ، فطلبها منه لمصلحة تعود على غنمه لا لمصلحة لصاحب النعجة ، كل ذلك محتمل فى توجيه حجة صاحب النعاج ، والفتنة التى ظنها داود هى فتنته فى تلك الفتوى ، وسماعه لحجة واحد دون سماع حجة الآخر ، وفى الأمثال المشهورة [إذا جاءك رجل قد فقئت عينه فلا تقض له حتى ترى خصمه ، فلعله قد فقئت كلتا عينيه] .

ذلك هو احتمال فى بيان الفتنة ، وهو احتمال قريب ، وهناك احتمال آخر هو أن داود عليه السلام وزع وقته ، فجعل وقتا للعبادة ، ووقتا للقضاء بين الناس ، فجاء الخصمان فى وقت كان متفرغا فيه للعبادة فى محرابه ، فتسلق الخصمان جدار المحراب ، وتصعدوا سوره ، وبذلك فزع منهم ، لأنه لم يألف أن يجيئه الناس من ذلك السور .

فكانت فتنته أنه حجب نفسه عن الناس ، والواجب على القاضى أن يعدّ نفسه للقضاء دائما ولايضع بينه وبين المتخاصمين حجابا .

فالفتنة التى ظنها داود أحد أمرين [الأوّل] قضاؤه بين الخصمين بعد أن سمع حجة أحدهما وقبل أن يسمع حجة الآخر . [الثانى] أن حجب نفسه عن الناس مما أدّى الى تسوّر الخصمين المحراب ، ويجوز أن يراد أنه فتن بالأمرين جميعا .

(٤) وفى الآية أن للخصم أن يعظ القاضى ، ويذكره بما أوجبه الله عليه من العدل ، وكذلك كان شأن الناس فى الزمن الأوّل ، يعظ بعضهم بعضا ، ولم يأنف نبى الله داود وهو رسول

الله ومصطفاه أن يعظه الخصمان ، و يقولا له (فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط) والمراد لاتجر ، بل عليك أن تقضى بيننا بالحق (واهدنا إلى سواء الصراط) أى أرشدنا بقضائك العادل الى عين الحق ومحضه .

كان ذلك فى العهد الأول ، يتناصح فيه الناس ، و يطلب الخصوم من القاضى ـ ولو كان رسولا ـ أن يقضى بينهم بالحق ، أما وقد صار القضاء مهنة ، وأصبح وظيفة لطائفة من الأمة ، قد أعدت لذلك العمل تحت رعاية القانون وحمايته ، ـ فلايستطيع الخصم أن يطالب القاضى بمثل ماطولب به نبى الله داود ، ولو صدر ذلك من خصم لأحد القضاة فى العصر الحاضر لقدم الى المحاكمة ، واعتبر ذلك انتهاكا لحرمة القضاء وتعريضا بالقاضى .

و إذا كان المجال لم يتسع للخصم أن يقول للقاضى يجب عليك أن تعدل بين الخصوم ، وأن لاتحابى أحدا ، وعليك أن تطبق القانون على الناس على السواء ـ فان للواعظ الدينى أن ينوب عن الخصوم فى وعظ القاضى وارشاده الى طريق الصواب ، والبعد به عن الهوى والضلال ، وحسبنا أن الله تعالى يقول لنبيه داود وهو ذلكم النبى المعصوم ، وهو الذى وصفه فى الآية السابقة بقوله (واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أوّاب) (ياداود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) .

ذلك خطاب الله لنبيه المعصوم ، ورسوله المختار ، فلماذا لايخاطب به من هم دونه فى المنزلة ؟ لماذا نهاب أن نقول لحكامنا ماقاله الله لنبيه داود ؟ وهل هم أحرص على دينهم منه ؟ وأقرب الى الحق منه ؟ أم ذلك سنة الله فى التعليم ، ونظامه فى نشر العدل ، يرسم لنا فيه الطريق ، ويهدينا الى ماينبغى أن يكون ، فيرينا واجب القاضى ، ويرينا ثقل المهمة الملقاة على عاتقه وعاتقنا ، واجبنا الارشاد ، وواجبه أن يسمع ، لنعلم أن الأمة متضامنة فى أداء واجبها ، متكافلة فى القيام بمهمتها ، وعلى كل طائفة من طوائف الأمة أن تكون صلتها بالأخرى صلة نصح وارشاد ، لاصلة غش وتضليل ، وأن يكون الحق فوق الأشخاص ، والعدل بغية الجميع ، ووصول الناس الى حقوقهم غاية ليس بعدها غاية .

(وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم) يريك الله أن الشأن فى السواد الأعظم من الناس إذا كوّنوا شركة من المواشى أو من الأموال الأخر أن يعتدى بعضهم على بعض (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فلم يكن ذلك شأنهم ، بل شأنهم وقوف كل واحد منهم عند مارسم له ، وأن يرضى بما قسم الله له من رزق ، ومن ذلك نعرف أن الايمان والعمل الصالح من شأنه أن يحول بين الناس و بين ظلم بعضهم بعضا ، وأن يكون حاجزا بينهم و بين الشرور .

أما الايمان فلأنه ايمان بالجزاء ، و إيمان بالثواب على الطاعة ، والعقوبة على المعصية ، وما دام الرجل واثقا بالمسئولية ، مؤمنا بالله وعدله ، فلا يقع فى ظلمه للناس ، وان ظلم كان ظلمه

على غير عادته ، فلا يقع منه إلا نادرا ، كما قال فى شأن المؤمنين (ولم يصرّوا على مافعلوا وهم يعلمون «١٣٥» [1]) .

وأما العمل الصالح فلأن من شأنه أن يهذّب النفوس ، ويطهرها من الخبث ، ويحول بينها وبين المحرّمات ، لأن العبادة تربطه بالله ، وتخيفه منه ، وتجعله يخشاه فى سرّه وعلانيته ، فالعمل الصالح يثبت العقيدة ، وينمى الايمان ، ويعطيه الغذاء الصالح ، فيثمر ثمرته المرجوّة ، ويؤدّى وظيفته كاملة غير منقوصة ، ولا غنى للمؤمن عن الايمان الصحيح ، والعمل الصالح .

ولذلك ترى القرآن الكريم لم يعد المؤمنين بالجنة إلا قرن إيمانهم بعملهم ، واشترط مع العقيدة عملا صالحا (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة «٩٧» [2]) .

وقال (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا «٣٠» [3]) (إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا «١٠٧» [4]) وغير ذلك كثير وكثير ويشير بقوله (وقليل ماهم) إلى أن ذلك الصنف الذى يقرن الايمان بالعمل الصالح قليل فى جانب الأصناف الأخر .

وما أكثر الذين قنعوا من الايمان باسمه ، واكتفوا من الدّين بعنوانه ، وظنوا أن الله يحاسبهم على أسماء ، لا على حقائق ، وما داموا يسمون أنفسهم مؤمنين فليعملوا من المنكرات ما شاءوا ، وليقصروا فى الطاعات ما زينت لهم النفوس ، وما أكثر أن يخدعوا أنفسهم بأنهم من أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهى خير أمّة أخرجت للناس ، وبأن الله واسع الرحمة ، وأن الانسان لا ييأس من رحمة الله ، إلى غير ذلك من الحقّ الذى أريد به الباطل (ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا «١٢٣» ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا «١٢٤» ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا «١٢٥» [5]) .

(وظنّ داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب .

غلب على ظنّ داود أن الله قد ابتلاه واختبره فى أمر الخصمين ، ولمجرّد ذلك الظنّ استغفر ربه ليرينا أن الانسان ينبغى أن تكون معاملته لربه معاملة أساسها الاحتياط والحذر ، وأنه يكفى لأن يستغفر ربه أن يظنّ الخطأ ، فما بالك بمن يتيقن الزلة ، ويعلم أنه قد عصاه وخرج على أمره ونهيه ؟ ويظهر أن هذه حكمة التعبير بالظنّ .

ومن جهة أخرى فان المسألة ليست من الخطأ الواضح الجلىّ ، بل هى خطأ من شأنه أن يقع للخاصة ، فالفتنة إذا مظنونة لا مقطوع بها ، ومع أنها مظنونة لم يرض بها داود ، فاستغفر ربه وخرّ راكعا [6] (وأناب) رجع إلى ربه فغفر الله له ما ظنه ذنبا ، وإنّ له عند الله الحظوة وحسن المرجع فى الآخرة .

---

[١] آل عمران . [٢] النحل . [٣و٤] الكهف . [٥] النساء . [٦] أى ساجداً .

(٥) (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إنّ الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) .

تأديب من الله تعالى لنبيه داود ، وتعليم له كيف يحكم بين الناس ، ويقضى بينهم ، فيناديه أوّلا بقوله (ياداود) ليلفته إلى أن ما يلقيه إليه أمر عظيم ، يجب أن يتنبه له ثم يقول (إناجعلناك خليفة فى الأرض) أى صيرناك خليفة عن الله فى أرضه ، تقيم العدل وتنشر الاصلاح ، أو جعلناك خليفة لمن سبقك من الأنبياء فى ذلك ، وجدير بمن جعله الله خليفة أن يفطن للمهمة الملقاة على عاتقه ، ويعنى بها العناية اللائقة .

نعم إنه جدير بمن يشعر من نفسه أنه نائب عن الله تعالى فى عمارة الأرض ، والقيام على مصالح الناس ، أن يقدّر ذلك المركز الكبير ، وهذا المنصب الجلل ، ولو أن الناس فطنوا إلى مراكزهم ، وإلى مقدار المسئولية الملقاة على عاتقهم ما فرّطوا فى عمل ، ولم تغلب عليهم الشهوات ، وكأنّ الله تعالى يريد أن ينبهنا إلى طريق لفت الحاكم إلى واجبه ، وأنه ينبغى دائما أن يضع ذلك نصب عينيه ليكون ذلك وقاية له من التقصير ، وحماية له من الشطط .

(فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

يأمره أن يحكم بين الناس بالحق ، لأنه خليفة عن الله فى ذلك ، وهو رسوله الأمين وخليفته فى الحكم بين الناس ، وأن داود لو فرض أنه شطّ وحكم بين الناس بغير الحقّ لكان ذلك مدعاة لطعن الناس على دينه وربه ، لأنه خليفته ونائب عنه ، والحقّ الذى يدعو الله إليه مقابل الباطل وقد يكون الحقّ صريحا لا يحتاج إلى بحث أو تمحيص ، وقد يكون الحكم بين الناس فى أمور اجتهادية لم يتضح فيها وجه الحقّ .

والواجب على القاضى أن يحكم بين الناس بما يعتقد أنه الحقّ ، فان كان الحقّ واضحا تبعه ، وإن كان اجتهاديا بذل وسعه فى تعرّف الحقّ ، واجتهد فى الوصول إلى الصواب ، وإذا أخطأ بعد ذلك فهو معذور مأجور ، كما وقع له فى قصة الغنم التى انتشرت فى الحرث فأهلكته .

اجتهد داود عليه السلام فيما يجب لصاحب الزرع على صاحب الغنم ، فحكم بما رأى ، ثم اجتهد سليمان فحكم حكما آخر ، وكان حكم سليمان هو الصواب ، لأن الله تعالى يقول (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) كما تقدّم فى سورة الأنبياء من القصة .

فالله تعالى عذر نبيه داود ، وان كان سليمان هو الموفق فى الحادثة المذكورة ، وشهد لكلّ من داود وسليمان بأنه آتاهما حكما وعلما : أى أعطاهما مقدرة على الحكم ، ومنه نعلم أن المجتهد معذور فى خطئه ، وحسبه أنه بذل طاقته فى الوصول إلى الحقّ ، وذلك ما فى وسعه ، وهو الذى يكلفه الله به .

وكذلك القضاة والحكام يحكمون بالحقّ المنصوص الذى لم يشكّ أحد فى حقيته ، ولا عذر لهم فى الخطأ إذا كانت المسألة بدهية ليس فيها جدل أو نزاع ، ولم تتشعب فيها الأنظار ، أما المسائل الاجتهادية التى تختلف فيها وجهة النظر ، وتحتمل أحكاما مختلفة ، فعليهم أن يبحثوها بحثا بريئا

بعيدا عن الشهوة والهوى ، ثم بعد البحث يصدرون أحكامهم ، وسواء عليهم بعد ذلك أصابوا أم أخطئوا ، لأنهم أدّوا ما عليهم من واجب .

(ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

ينهى الله نبيه داود أن يكون تابعا للهوى فى قضائه وحكمه . والهوى : ما تهواه النفس وتميل إليه بما يخالف الحقّ والصواب ، سواء كان هوى للحاكم أو للمحكوم له أو عليه ، أو كان هوى لهما معا ، ولم يكن ذلك الوعظ خاصا بنبيه داود ، بل وعظ الله به خاتم الرسل ، فقال (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك«٤٩» [١]) .

ويقول (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين الناس بما أراك الله ولاتكن للخائنين خصيما «١٠٥» واستغفر الله إنّ الله كان غفورا رحيما «١٠٦» ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إنّ الله لا يحبّ من كان خوّانا أثيما [٢] «١٠٧» . وقال تعالى (فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحقّ «٤٨» [٣]) .

فتراه قد أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يحكم بين الناس بما أراه الله سواء كانت الاراءة ببيان الحقّ الذى عرّفه له أوكانت من طريق اجتهاده ، فان الأمور الاجتهادية قد أراه الله إياها ، وعرّفه طريقها وأصولها التى تبنى عليها ، فما أراه الله أعمّ من الحقّ الصريح والحق الاجتهادى ، ونهاه الله تعالى أن يخاصم لأجل خائن ، وأن يجادل عن الذين يختانون أنفسهم بالعصيان والفسوق ، كما نهاه أن يتبع فى أحكامه أهواء القوم التى تلويه عما جاءه من الحق .

فاذا قال لنبيّ الله داود (فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) فقد قال مثل ذلك لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

وكذلك يأمر الله المؤمنين أن يحكموا بالعدل إذا كانوا حكاما إذ يقول (إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) ثم يعقب ذلك بقوله (إنّ الله نعما يعظكم به إنّ الله كان سميعا بصيرا «٥٨» [٤]) ليرينا أن ما يأمر به الحكام من العدل هو مصلحة تعود علينا ، وأن أمر الناس لاينتظم بدونه ، فاذا لم يكن للأمّة عاصم من القضاء ، وسياج من العدالة فى أشخاص الحاكمين ، اختلّ أمرها ، واعتلّ نظامها ، وسادت فيها الفوضى ، وكثر فيها الفساد ، وانتشرت الجرائم ، ثم يعقب ذلك الأمر بتهديده لمن يخرج عنه ، ووعيده لمن لايرعاه إذ يقول (إنّ الله كان سميعا بصيرا) .

(٦) (فيضلك عن سبيل الله) يرينا أن من شأن الهوى الذى يقود صاحبه أن يعميه عن الحق ، ويحول بينه و بين الصواب .

وجدير بمن يتبع هواه فى قضائه وحكمه ، ويعرض عن هداية ربه ، ولا يعنيه أن يصل الى الحق ، بل همه أن يصل إلى شهوته ، ويرضى ميوله ، أن يضلّ الطريق ، ويعمى عن الحق .

ثم بين مغبة الضالين بقوله (إنّ الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) أى بنسيانهم اليوم الذى يحاسبهم الله فيه : أى تركه وراءهم ظهريا كالشيء المنسى ، كما

---

[١] المائدة . [٢] النساء . [٣] المائدة . [٤] النساء .

قال (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون « ١٩ » [1]) وكما قال (ومن أعرض عن ذكرى فانّ له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى « ١٢٤ » قال ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا « ١٢٥ » قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى «١٢٦» [2]) .

فالنسيان فى كلّ هذه المواضع هو الاهمال والترك ، وجعل المتروك كالشىء الذى من شأنه أن ينسى فلا يعبأ به ، ولا يهتمّ له .

وتريك الآية من ناحية أخرى أن الذاكر لذلك اليوم الذى يحاسب فيه الناس لا تطغى عليه الشهوة ، ولا يتملكه الهوى ، بل يغلب عليه الخوف من الله والخشية منه ، فاذا قضى بين الناس ذكر أن الله محاسبه على قضائه ، وإذا حدّثته نفسه بظلم تذكر سلطان الله عليه ، وأنه سميع لقوله بصير بعمله ، مطلع على نياته وخطرات قلبه ، ومن لنا بمن يذكر الناس دائما يوم الحساب حتى لا يظلموا إذا حكموا ، ولايخونوا إذا ائتمنوا ، ولايبطشوا إذا قدروا ، ولايغدروا إذا عاهدوا .

من لنا بمن يضع هذه العقيدة فى نفوس قضاتنا وحكامنا ، وينزع من قلوبهم حبّ المال والحرص عليه ، وحبّ الجاه والتزلف لأصحاب السلطان والنفوذ .

من لنا بتربية القضاة على هذه المبادئ ، وإشرابهم حبّ العدالة والانصاف ، وإكبارهم للحق وأهل الحقّ ، واحتقارهم للباطل وأنصار الباطل ، من لنا بذلك كله وقد حيل بين القضاة وبين المواعظ ، فتراهم بعيدين عن الوعظ ، ومجالس التذكير ، إذا دعاهم الله إلى الجمع والجماعات لايجيبون ، وإذا طالبهم بالصلوات لايؤدّون ، وإذا أخذ الوعاظ فى عمل محاضرات للوعظ فى أماكن صالحة لا يحضرون ، وإذا نشروها بالصحف لا يقرءون .

نعم ان الأمر مشكل ، والعلاج صعب ، لايستقيم أمر الناس بلادين يهيمن عليهم ، وعقيدة يصدرون عنها ، ومبدإ ينقادون له ، والقانون الذى أعدّ لحماية القضاة من الهوى لا يكفى لردعهم وتأديبهم ، وها هو القانون الذى يعاقب الراشى والمرتشى قائم فى ممالك العالم ، ومع ذلك لم يؤدّ القاضى كلّ مايجب عليه ، ويوجد فى أسرة القضاء فى العالم من يلوثون سمعته ، وينتهكون قدسيته بما فى نفوسهم من شهوة ، وما فى قلوبهم من مرض .

وتجد القضاة يتفاوتون فى أهوائهم وشهواتهم ، ففيهم المريض بالنساء وجمالهنّ ، وذلك الصنف من القضاة يجد من سماسرة السوء من يرشيه من ذلك الطريق القذر ، ويشبع شهوته من هذه الناحية ، بأساليب تتقذذ لها النفوس الأبية ، وتضج لها الكرامة ومنهم المريض بالخمور والمكيفات ومنهم المريض بجمع المال والحصول عليه ، ومنهم المريض بالقمار ، ومنهم ، ومنهم .

وكلّ هذه الشهوات يتقدّم بها أرباب القضايا أو سماسرة السوء الى ذلك الصنف من الحكام ليكونوا فى صفهم فى القضاء ، ولمصلحتهم فى الحكم .

وأخفّ أمراض القاضى أن يكون جبانا ، يخشى السلطة ، ويتخوّف ممن له عليه سيطرة ذلك النوع إذا بلغه توصية من صاحب سلطان عليه اضطرب أمره ، واختلّ نظامه ، وأخذ

---

[١] الحشر . [٢] طه .

يضرب أخماسا لأسداس ، وقد يكون فيه من خوف الله مايحمله على الشجاعة ، و يجعله لايبالى باشارة الرئيس ، وقد يغلب عليه الضعف فيجيبه الى ماطلب ، و يتلمس لنفسه المعاذير بأنه يدفع بذلك عن نفسه ، و يذود عن مصلحته ، وقد يكون فقيرا فيزين له الشيطان أن الخير له فى أن يسير مع القوم حيث ساروا ، حتى لايضطهدوه بابعاد أوفصل ، والمعصوم بعد ذلك الجهاد الطويل ، والمشادّة بين وازع الخير ووازع الشرّ — من عصمة الله وحفظه .

وهناك نوع من الجبن يلجأ إليه بعض القضاة ، و يرى لنفسه العذر فى اللجوء إليه ، و يظنّ أنه بذلك الأسلوب قد أرضى العدالة ، وأدّى ماعليه من حقّ : هو أن يحسّ القاضى من بعيد أن للسلطة الحاضرة ميلا خاصا فى القضية المنظورة ، واتجاها معينا ، وهو لايريد أن يجاريها فى ذلك الاتجاه ، ولا أن يصدمها ، فيعمد الى التخلص من القضية كى ينظرها غيره .

وهو تخلص حسن لو أنه عرف أن من تسند إليه سوف يقضى فيها بما يتطلبه الحق ، أما وهو يعلم أنها ستسند الى رجل يقضى فيها بما تحبه السلطة ، و يتجه كما أرادت — فذلك شريك للقاضى فى الاثم ، ونصير له فى الظلم ، واعداد للفساد ، فهو آثم بذلك العمل ، وان ظنّ أنه برىء .

والواجب عليه أن لايترك ذلك النوع من القضايا لقضاة عابثين ، بل يتولاه بنفسه ، و يقضى فيه بما يرى ، و يحول بين القضية و بين اللعب جهد المستطاع ، مادام نظره للقضية لايجعله مدينا أمام القانون ، أو مسئولا أمام واجبه .

وعلى الجلة فهمة القضاء مهمة شاقة ، وهى ابتلاء من الله تعالى أىّ ابتلاء ، واختبار للقاضى بكلّ أنواع الاختبار ، ولا سيما فى العهد الحاضر الذى يلوح فيه للقاضى بشهوات شتى ، يلوح له بالنساء ، و يلوح له بالمال ، و يلوح له بالدرجات والترقيات ، ومال الى ذلك ، فلم يكن غريبا أن يهتمّ الله بالقضاء الى ذلك الحدّ ، و يعظ فيه نبيه داود بما ترى ، و يحذّره من اتباع الهوى ، و يعظ نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بأكثر مما وعظ نبيه دواد ، فالأمر جدّ خطير ، والمعصوم فيه مجاهد فى سبيل الله يستحق من الأجر الشىء الكثير .

(٧) وقد رأيت بعد أن أطلعت القارئ على عناية القرآن الكريم بالقضاء بين الناس ووعظه داود فى ذلك أن أختم البحث بكتابى عمر فى القضاء لأبى موسى الأشعرى وشريح القاضى .

كتابه الى أبى موسى

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد : فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى[1] إليك ، فانه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له ، آس[2] بين الناس فى مجلسك ووجهك ، حتى لايطمع شريف فى حيفك[3] ولا يخاف ضعيف من جورك ، والبينة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحا أحلّ حراما أو حرّم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس راجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه ، فان الحقّ قديم ، ومراجعة الحقّ خير من التمادى

---

[١] رفع اليك الأمر . [٢] اعدل وساو . [٣] ظلمك .

فى الباطل ، الفهم الفهم عنـد مايتلجلج [١] فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ، ولافى سنة النبيّ صلى الله عليه وسلم .

اعرف الأمثال أو الأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل للمدّعى حقا غائبا أو بينه أمدا [٢] ينتهى إليه ، فان أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فان ذلك أنفى للشك ، وأجلى للعمى ، وأبلغ فى العذر .

المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلودا فى حدّ ، أو مجرّبا عليـه شهادة زور ، أو ظنينا [٣] فى ولاء أو قرابة ، فان الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم بالشبهات ، ثم إياك القلق والضجر ، والتأذى بالناس ، والتنكر للخصوم فى مواطن الحقّ التى يوجب الله بها الأجر ، ويحسن بها الذخر ، فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله مابينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعـلم الله خلافه منـه هتك الله سـتره ، وأبدى فعله ، والسلام .

كتابه لشريح القاضى

أما بعد فاذا جاءك شيء فى كتاب الله فاقض به ولايلفتنك عنه الرجال ، فان جاءك أمر ليس فى كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها ، فان جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أىّ الأمرين شئت ، ان شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدّم ، وان شئت أن تأخر فتأخر ، ولا أرى التأخير إلا خيرا لك اه [٤].

(٨) (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) .

لما عرض الله لجزاء الضالين عن سـبيله ، وأنهم يحاسبون الحساب الشـديد بنسيانهم يوم الحساب ، عقب ذلك ببيان أنه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما خلقا باطلا بعيـدا عن الحكمة والغرض ، بل أوجدها لحكم ومصالح ، وهو كقوله (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين «٣٨» ماخلقناهما إلا بالحق [٥]) . وقوله (أفحسـبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون «١١٥» فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم «١١٦» [٦]) أى تنزّه أن يخلق الناس عابثا فى ذلك الخلق ، وأن يتركهم سدى يعتدى بعضهم على بعض ، ويظلم القوىّ الضعيف ، ثم لا يكون لهم حياة وراء هـذه الحياة ، يحاسب فيها كلّ أحد على ما قدّم من خير أو شرّ .

ومن ذلك نعرف أن الجزاء فى الآخرة أمر تقضى به الحكمة ، ولا يمكن لاله حكيم أن يخلق الناس ذلك الخلق الواسع من سماء وأرض ، وما بينهما ، وما فيهـما ثم لا يجعل للناس حياة يوضع

---

[١] يتردّد . [٢] وقتاً محدوداً . [٣] متهماً بسبب ولاء أو قرابة .
[٤] انظر أشهر مشاهير الإسلام فى تاريخ عمر . [٥] الدخان . [٦] المؤمنون .

فيها الميزان القسط، ينقلب فيها القوىّ ضعيفا، والضعيف قويا، وترجح فيها كفة العمل الصالح على كفة الفساد .

ذلك ما تقضيه الحكمة، وتتطلبه المصلحة ، ومتى آمن الانسان بأن هناك إلها قادرا حكيما كان من لوازم ذلك أن يكون هناك ثواب وعقاب ، وهناك جنة ونار، وهناك الفرق بين المطيع والعاصى ، والمحسن والمسىء .

(ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) الاشارة الى إنكار الجزاء فى الآخرة ، وعدم الايمان بتلك الحياة ، وبيان أن ذلك الزعم هو ظنّ الذين كفروا ، وسماه ظنا لأنه لم يبن على دليل ، بل هو قول توارثوه عن آبائهم وأجدادهم ، ثم قال (فويل للذين كفروا من النار) أى بسبب إنكارهم البعث والجزاء .

(أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) .

استفهام يراد به الانكار ، والمراد أنه لو بطل الجزاء كما يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد ، واتقى وفجر ، ومن سوّى بينهم كان سفيها ولم يكن حكيما ، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا .

والآية تلفتنا الى أن صفة العدل والحكمة يقضيان بأن يحاسب الناس، ويوضع كلّ أحد حيث وضعه عمله ، فالجزاء الحق مظهر من مظاهر أسماء الله وصفاته ، وأثر من آثار عدل الله وحكمته .

وفى الآية إشارة الى خطأ من يقول : انه يجوز على الله تعالى أن يدخل من أطاعه النار ولو كان رسولا ، ويجوز عليه أن يدخل من عصاه الجنة ولوكان مشركا ، والسبب فى هذا الخطأ الذى وقعوا فيه أنهم يأخذون عقائدهم عن كتب الكلام لاعن كتاب الله تعالى ، ولم تعرض كتب الكلام المشهورة بين الناس الى صفتى الحكمة والعدل . وان كانت عرضت لعموم قدرة الله تعالى وسعة مشيئته ، فكان من آثار الايمان ببعض الصفات دون بعض ذلك القول ، على أنه قد وجد فى المتكلمين من أنكر عليهم ذلك الجواز ، لأنه يؤدّى الى جواز أن ينسى الله تعالى حكمته ، ويدع عدله ، ومحال على الله أن يتجرّد عن حكمته كما يستحيل عليه أن يعرض له نقص فى قدرته أو مشيئته ، ويدلّ لذلك قول الله تعالى (أفنجعل المسلمين كالمجرمين «٣٥» مالكم كيف تحكمون «٣٦» [1]) .

ينكر عليهم أوّلا أن يسوّى المسلم بالمجرم ، ثم يعقب بقوله [مالكم] أىّ شىء جعلكم تنسون حكمة الله وعدله ، وهو فى المعنى اعادة للانكار ، ثم قال (كيف تحكمون) تعجب من حكمهم بأن الله يجعل المسلم كالمجرم ، وإذا كان الله تعالى لم يجعل للناس يوما للجزاء إلا لاقامة العدل بين الناس ولم يرض أن يدعهم بدون جزاء ، لأن تركهم فى معنى التسوية بين المسلم والمجرم ، والمصلح والمفسد ، فكيف نجوّز على الله تعالى أن يحاسب الناس ويقف منهم ذلك الموقف الذى أنكره على نفسه على فرض أنه ليس هناك جزاء ؟

فالله تعالى لم يرض لنفسه أن يقف من خلقه موقفا سلبيا ، فيتركهم بلا جزاء لأن ذلك الموقف

---

[١] القلم .

السلبي مناف للعدل والحكمة ، وفيه تسوية بين المحسن والمسيء ، فكيف يرضى أن يقف الله من خلقه موقفا إيجابيا ويحاسب الناس على أساس غير عادل ، وقاعدة بعيدة عن الحكمة .

وجملة القول أن الآيات تدلنا على أن الله تعالى أقام البرهان والدليل على أنه لم يخلق الناس عبثا ، ولم يتركهم سدى ، وأن ذلك مناف للحكمة ، ولاغنى لهم عن حياة وراء هذه الحياة ، ولو لم يكن هناك جزاء لكان ذلك تسوية بين الخبيث والطيب ، والمصلح والمفسد ، تعالى الله عن ذلك ، وهى تدل بالفحوى على استحالة أن الله تعالى يجوز عليه أن يحاسب الناس ، ثم يقف منهم الموقف الذى لم يرضه لنفسه إذا هو لم يحاسبهم .

ومنه نعرف أن مقتضى الحكمة والعدل أن يحاسب الله الناس ، وأن يكون حسابهم على قاعدة العدل وأساس الانصاف (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين «٤٧ » [١]) .

(٩) (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) .

أى هذا كتاب أنزلناه إليك كثير البركة والخير ، لأنه يحمل فى طياته سعادة الناس وهدايتهم ويرشدهم الى خيرى الدنيا والآخرة (ليدبروا آياته) بيان للغاية من ذلك الكتاب ، وهو التفكر فى آياته والنظر فيما تؤول إليه من وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، ولم ينزله الله تعالى لنجعله تمائم وتعاويذ ، وكذلك لم ينزله لنقرأه على القبور ، وننشره بين الموتى ، وانما أنزله للعظة ، أنزله للذكرى ، والمسلمون ماداموا يقفون من القرآن هذه المواقف ، ولا يتخذونه إماما لهم ، فى أمره ونهيه ، وقائدا لهم فى إرشاده وتعاليمه .

ما دام المسلمون على ذلك الحال فلا تقوم لهم قائمة ، ولا يرجى لهم حياة ، وقد ختم قصة داود بهذه الجملة لأن هذه هى الغاية من ذكر قصة داود ، والذى يقرأ أوّل السورة يعرف ذلك ، وفيها فوق ذلك أن ذلك الكتاب الذى أنزله الله مباركا ليتدبر الناس ما فيه من معان ، وما حواه من حكم وأحكام ، دلّ فى جملته وتفصيله على أن جزاء الله فى الآخرة واقع ولا بدّ ، وأن ذلك الجزاء هو جزاء عادل حكيم . وقوله (وليتذكر أولوا الألباب) أى أصحاب العقول أى ليتعظوا بذلك الكتاب وينتفعوا بما فيه ، وهو يلفتنا إلى أن المعرضين عنه قد ألغوا عقولهم ، كما عطلوا أسماعهم ومواهبهم .

ألا ترى إلى أهل جهنم يقولون وهم يصطرخون فيها (لو كنا نسمع أونعقل ما كنا فى أصحاب السعير «١٠» فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير «١١» [٢]) .

فالذين ينتفعون بالقرآن هم الذين حكموا عقولهم ، وانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم ، والذين عطلوا ما وهبهم الله من حواسّ ، وما منحهم من نعم هم الذين حرموا الانتفاع بالقرآن والاهتداء به .

وقد ورد عن الحسن « قد قرأ القرآن عبيد وصبيان ، لاعلم لهم بتأويله ، وحفظوا حروفه ، وضيعوا حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد والله أسقطه كله ، مايرى للقرآن عليه أثر فى خلق ولا عمل ، والله ماهو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة لا أكثر الله فى الناس مثل هؤلاء » اهـ .

---

[١] الأنبياء . [٢] الملك .

ويظهر أن أكثر المسلمين اليوم هم أولئك العبيد والصبيان ، الذين لا علم لهم بتأويله ، إن حفظوا حروفه فقد ضيعوا حدوده ، وان حافظوا على شكله فقد فرّطوا فى جوهره ، وان حذقوا ألفاظه فقد أغفلوا معانيه ، وان قال أحدهم : والله ما أسقطت منه حرفا واحدا فقد أسقطه كله ، مايرى للقرآن عليه أثر فى خلقه أوعمل ، فان المسألة ليست حفظ حروف مع إضاعة حدود ، وقد أقسم الحسن أن هؤلاء ماهم بحكماء ولاوزعة عن الشر ، ودعا الله أن لا يكثر فى الناس مثل هؤلاء .

وكأن الحسن رحمه الله كان ينظر الى طائفة القراء فى زماننا هذا وهو يقول كلمته :

وان من يطلع على أحوال هذه الطائفة، ولاسيما الذين عرفوا [بالصيتة][1] يرى منهم من الخلق السيئ والسيرة الذميمة مايتبرأ منه القرآن ، تراهم يدعون الناس الى حسن الخلق وهم أسوء الناس خلقا ، والى ترك ماحرّم الله وهم منغمسون فيه ، والى القناعة والرضا وهم أسوأ الناس نفوسا ، يدعون الناس الى الخوف من الله والخشية منه وهم أقسى الناس قلبا ، يتلون كتاب الله لايتجاوز حناجرهم ، ولم يصل الى قلوبهم ، ولا عجب فانهم لم يقرءوه للهداية والعظة ، وإنما يقرءونه للطرب والكسب .

وما نزل القرآن لنطرب به السامعين ، أو نفكه به الحضور ، و إنما نزل ليكون إماما للناس ، يعرفون به كيف يسعدون و يتعامون منه كيف يصلحون دينهم ودنياهم ، وكيف يعتزّون على أعدائهم ، و ينتصرون على خصومهم ، و إن القرآن ما سعد به سلفنا الصالح إلا لأنه عكف على دراسة معانيه قبل دراسة ألفاظه ، وتفهم أغراضه قبل حذق كلماته ، كما ورد عن إحدى أمّهات المؤمنين « كانت الآية تنزل علينا فنعرف حلالها وحرامها قبل أن نحفظ ألفاظها » .

اللهمّ وفق المسلمين لحفظ كتابهم ، وفقه الغرض منه ، وللعمل به فى أنفسهم و بيوتهم ودولهم حتى يتبدّل حالهم من شقاء إلى سعادة ، ومن ضعف إلى قوّة .

(١٠) (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أوّاب) .

بعد أن قصّ الله علينا قصة داود ، عرّفنا أنه وهب لداود سليمان ، ثم عرّفنا قيمة هذه الهبة وأنها هبة عظيمة فقال (نعم العبد) أى سليمان ، ثم عقب ذلك بقوله (إنه أوّاب) أى رجاع إلى الله تعالى كما هو حال أبيه داود ، فهو يشبه أباه فى التقوى ، وهو بيان لسبب مدح الله له .

(إذ عرض عليه بالعشىّ الصافنات الجياد فقال إنى أحببت حبّ الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ردّوها علىّ فطفق مسحا بالسوق والأعناق) .

كلمة (إذ) ظرف لمحذوف أى اذكر الوقت الذى عرض عليه فيه الصافنات الجياد ، والمراد أن يذكر هذه القصة ، وهى قصة عرض الخيل الجياد عليه كما هى عادة الملوك الذين يهتمون بما عندهم من مظاهر القوّة ، و يستعرضونها ليتعرّفوا قيمتها ، ليكون ذلك الاستعراض تفقدا لها ، ومظهرا من مظاهر فضل الله تعالى ، وارهابا للعدوّ . وقوله (بالعشىّ) بيان للوقت الذى عرضت فيه الخيل .

(فقال إنى أحببت حبّ الخير عن ذكر ربى) أى قال سليمان عند عرضها عليه إنى أحببت

---

[١] الذين اتخذوا قراءة القرآن حرفة يتعيشون بها .

حبّ الخير حبا ناشئا عن ذكر ربى ، فكلما ذكرته ذكرت فضله وإحسانه ، فان أحببتها فذلك لأنى أحبّ مصدرها ، وان تعلقت بها فمن هذه الجهة .

أو إنى أحببت حبّ الخير الذى منه هـذه الخيل لأجل أن أذكر بها ربى ، فأنا أحبها لأمر الله وتقوية دينه ، ولا أحبها لأجل الدنيا ونصيب الغنى .

يرينا نبىّ الله داود أن ذلك هو الذى ينبغى للمؤمن كلما أحبّ شيئا فى هذه الحياة ، ينبغى له أن يحبه لأنه يعينه على ذكر الله تعالى وشكره ، ويساعده على إقامة دين الله وإعلاء شأنه ، فاذا أوتى ولدا أحبه طمعا فى أن يكون له من ذلك الولد الذرّية الصالحة ، التى تعبـد الله تعالى وتشكره ، وإذا أحبّ جاها أو نفوذا يحبه لأنه يستعين به على نصر الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، وإذا أحبّ علما أحبه لأنه طريق لنشر الفضيلة ومحاربة الجهالة ، وإذا أحبّ مركزا من مراكز الحياة أحبه لأنه يمكنه من الاصلاح ، ويساعده على ما يحبه الله تعالى ويرضاه .

والمراد أن نبىّ الله سليمان لم يفتن بذلك المال الذى أعطاه الله ، بل كان يشهد فيه دائما مصدره ومنشأه ، ويقرأ فى صفحاته واهبه ومانحه ، فلم يبطره المال يوما مّا ، ولم ينسه أن يشكر ربه عليه ، ويحفظ له فضله وإحسانه ، وذلك مكان العبرة من قصة الخيل (حتى توارت بالحجاب) غاية لقوله (إذ عرض عليه بالعشىّ الصافنات الجياد) .

والغرض أن الخيل لما عرضت عليه أجروها أمامه ليعدّوها للغزو ، ومازالت كذلك حتى غابت عن بصره ، ثم أمر بردّها إليه ، فأخذ يمسح سـوقها وأعناقها تشريفا لها ، لكونها للجهاد ، والجهاد من أعظم أمور الدول ، وليباشر الأمور بنفسه ، ليقتدى به الوزراء ورجال الدولة ، وكذلك كان صلاح الدّين الأيوبى ، كان ينقل الأحجار بنفسه فى بناء الأسوار أيام الحروب الصليبية .

(١١) (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) .

للمفسرين روايات كثيرة فى فتنة سليمان وبيان المراد بها : منها مالا يتفق ومركز سليمان عليه السلام ، ومنها ماهو ضعيف من جهة سنده وروايته ، وان كان صالحا فى جلته أن ينسب الى سليمان .

ومن ذلك ماروى أن سليمان عليه السلام قال « لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة من نسائه تأتى كلّ واحدة بفارس يجاهد فى سـبيل الله ، ولم يقل ان شاء الله ، فطاف عليهنّ فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشقّ رجل ، فو الذى نفس محمد بيده لو قال : ان شاء الله لجاهدوا فرسانا » .

فهذا قوله (ولقد فتنا سليمان) ابتليناه (وألقينا على كرسيه جسدا) هو شقّ الطفل المذكور جىء به على كرسيه (ثم أناب) رجع الى الله مما فعل وهو أنه لم يقل ان شاء الله ، والأنبياء يحاسبون على مالم يحاسب عليه سواهم لشدّة قربهم من ربهم .

وحديث طواف سليمان على نسائه وإغفاله للمشيئة صحيح من جهة سـنده ، وان كان غريبا فى معناه ، ولكن اعتباره تفسيرا للآية لم يصحّ .

وهـذا صاحب [فتح البارى] يقول بعـد أن ساق حديث طواف سليمان على نسائه : [حكى النقاش فى تفسيره أن الشقّ المذكور هو الجسد الذى ألقى على كرسيه ـ والنقاش : صاحب مناكير] اهـ .

وكثير من المفسرين يقع فى ذلك الخطأ الذى وقع فيه النقاش ، فيفسر الآية بحديث قد يصح فى نفسه ، ولكن لم يثبت أنه تفسير للآية ، و بيان لها ، وليس كل ماصح من الأحاديث يصح تفسيرا .

وقد اختار الفخر فى بيان فتنة سليمان وجوها : أمثلها الوجه [الثالث] وهو أن الله فتن سليمان بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه وألقى على كرسيه منه جسدا لشدة المرض، والعرب تقول فى الضعيف : انه لحم على وضم ، وجسم بلا روح (ثم أناب) رجع الى الصحة . و [الرابع] وهو أن الله ابتلاه بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه ، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسى، ثم أزال الله عنه ذلك الخوف ، وأعاده الى ما كان عليه من القوة وطيب القلب .

أما قوله (رب اغفرلى) فوجهه : أن الانسان لاينفك ألبتة عن ترك الأفضل والأولى . وحينئذ يحتاج الى طلب المغفرة ، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين . ولأن الأنبياء أبدا فى مقام هضم النفس واظهار الذلة والخضوع ، كما قال صلى الله عليه وسلم «إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة» ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى . والله أعلم .

وقد عرض الفخر لوجوه أخرى فى الفتنة كما عرض غيره من المفسرين . نضرب عنها صفحا لأنها لاتهم القارئ ، ولا تتفق مع مركز سليمان الذى قال الله فيه (نعم العبد انه أواب) .

أما تفسير الفتنة بالمرض فهو معقول ، لأن المرض الذى يحل بالانسان فى هذه الحياة ابتلاء من الله تعالى ، واختبار للعبد ، وكذلك تسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات ، ولا سيما اذا كان الخوف شديدا فانه يجعل صاحبه جسدا لاروح فيه ولاحراك به . وان كانت كلمة (أناب) قد كثر استعمالها فى الرجوع الى الله من الذنب ، ولكن المعنى الأول للكلمة هو الرجوع . قال الراغب : النوب رجوع الشىء مرة بعد أخرى ، يقال ناب نوبا ونوبة ، وسمى النحل نوبا لرجوعها الى مقارها ، ونابته نائبة : أى حادثة من شأنها أن تنوب دائبا . وفلان ينتاب فلانا: يقصده مرة بعد أخرى اه . فلا مانع أن نفسر (أناب) بمعنى رجع الى صحته ، أو أمنه الذى كان عنده . أما حديث الغفران فقد تكفل الفخر بالاجابة عنه ، وتستطيع أن توجه طلب الغفران بوجه آخر ، وهو أن المرض الذى حل بنبى الله سليمان قد يكون ناشئا عن تقصير كما يقع لبعض الناس الذين يفرطون فى صحتهم ، أو يسرفون فى أعمالهم المجهدة المضنية ، فاذا حل بالانسان مرض ، وكان له دخل فى حلول ذلك المرض تنبه الى الخطأ الذى وقع فيه ، وطلب من الله المغفرة ، لأن الله أوجب عليه أن يحفظ صحته ، ويحول بينها و بين الأمراض ، ولا سيما إذا كانت صحة نبى من الأنبياء ، أو ملك من ملوك الأرض المصلحين . فاذا مرض فقد مرضت المملكة جميعها . واذا سلم سلم الناس عامة .

ومثل ذلك يقال فى ابتلاء الله له بتسليط خوف أو توقع بلاء ، فقد يكون له يد فى تسليط ذلك الخوف أو توقع البلاء ، بسبب تقصير فى حياطة الملك ، أو اغفال لتحصين البلاد. فسلط الله عليه

ذلك الخوف ابتلاء له واختبارا ، وليكون ذلك الابتلاء تعليما له ودرسا نافعا فى الحياة ، حتى لايقع فى ذلك التقصير مرة أخرى .

ومنه تستطيع أن تفهم كلمة [أناب] وهو أنه رجع الى الله وأحسّ ذلك التقصير الذى وقع منه من جهة صحته ، أو من جهة مملكته .

(قال ربّ اغفرلى) أى مافرط منى مما سبب لى ذلك المرض أوذلك الخوف ، أو اغفرلى ماهن شأنه أن يكون من مخالفة الأفضل وترك الأولى .

(١٢) (وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى انك أنت الوهاب) .

قدّم طلب المغفرة على طلب الملك، لأن مهامّ الدين فوق مهامّ الدنيا ، ثم طلب من الله ملكا لايصلح لأحد من بعده لعظمته ، أو لايستطيع أحد أن يسلبه منى بعد هذه الفتنة ، أو لايتسهل لغيرى من البشر : بأن يكون معجزة لى ، ودليلا على صدق ونبوّتى .

(انك أنت الوهاب) تهب الملك والنبوّة لمن تشاء ، وقد أحبّ أن يخصه الله بخاصية ، كما خصّ أباه داود بالانة الحديد ، وعيسى باحياء الموتى .

وقد روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ان عمريتا من الجنّ تفلت علىّ البارحة ليقطع صلاتى ، فأمكننى الله منه ، فأخذته فأردت أن أربطه الى سارية من سوارى المسجد [عمود] حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان - ربّ اغفرلى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى - فرددته خاسئا» .

(فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) أى أجاب الله دعوته ، وأعطاه سلطانا لم يعطه لأحد من بعده من الرسل ، وأوّل شيء من السلطان سلطانه على الريح ، وقدرته عليه . فجعله يجرى بأمره حيث قصد ، وأى أراد ، ووصف الريح بأنها رخاء : أى لينة للاشارة الى أن هذه الريح التى جعلها الله عاصفة شديدة قد ألانها ولطفها لنبيه سليمان ، فصارت رخاء تسير به . وتحت سلطانه الى المكان الذى يقصد ، وقد وصف الله سرعتها فى سورة سبأ بقوله (غدوّها شهر ورواحها شهر) .

(والشياطين كلّ بناء وغوّاص وآخرين مقرنين فى الأصفاد) أى وسخر الله له الشياطين وفيهم البناء ، والغوّاص الذى يستخرج اللؤلؤ من البحر ، وسخر آخرين من مردة الشياطين بقرن بعضهم مع بعض فى القيود والسلاسل للتأديب والكفّ عن الفساد . والصفد : القيد ، وربما كانت الأصفاد تمثيلا لكفّ شرّهم وحبسهم حبسا يناسب أجسامهم النارية .

(هذا عطاؤنا فامنن أوأمسك بغيرحساب) أى هذا الذى أعطيناك من الملك والمال والبسطة عطاؤنا ، فأعط منه ماشئت، من المنة، وهى العطاء (أو أمسك) عن العطاء (بغيرحساب) حال من (عطاؤنا) أى هو عطاء كثير لا يكاد يقدر على عدّه (وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) أى ذلك عطاؤنا اياه فى الدنيا ، وله عندنا فوق ذلك الحظوة وحسن المرجع ، وهو الجنة ، ولعله اكتفى بهذه عن أن يقول قد أجبنا دعوته بطلب المغفرة ، لأن من له عند الله الحظوة وحسن المرجع هومغفور

الذنب . ويلفتنا بالسكوت عن غفران ذنبه الى أنه لم يكن هناك ذنب لسليمان كذنوب عامة الناس ، وإنما هو ظن منه واحتياط كظن داود ، فاستغفر لذلك ربه فغفر الله له .

دعوة عيسى

إلى الله تعالى

إِذْ قَالَتِ الْمَلَٰئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ «٤٥» وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّٰلِحِينَ «٤٦» قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٤٧» وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَىٰةَ وَالْإِنْجِيلَ «٤٨» وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ (١) وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «٤٩» وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ «٥٠» إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُسْتَقِيمٌ «٥١» فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ (٢) نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ «٥٢» رَبَّنَا آمَنَّا

---

[١] الذى يولد مطموس العين . [٢] أصحاب عيسى وخواصه .

بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ «٥٣» وَمَكَرُوا(١) وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ «٥٤» إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ «٥٥» فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ «٥٦» وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ «٥٧» ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ «٥٨» إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٥٩» الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ «٦٠» آل عمران

شرح وعـــبرة

(١) (إذقالت الملائكة يامريم ان الله يبشرك بكلمة منه) يتعلق بقوله (وإذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك) أى ان الله تعالى أرسل الملائكة للسيدة مريم تبشرها بأن الله اصطفاها وطهرها فى الوقت الذى بشرت فيه بالمسيح عليه السلام ، والمراد بلفظ (كلمة) كلمة البشارة لأمه ، والبشارة الاخبار ، ويدلّ له قوله تعالى (وكلمته ألقاها الى مريم) يعنى بشرى الله مريم بعيسى أخبرها بها (وجيها فى الدنيا والآخرة) صاحب وجاهة ومكانة فى الدارين (ومن المقربين) وهو مع وجاهته من المقربين الى الله عزّ وجل (ويكلم الناس فى المهد وكهلا) يكلم الناس فى طفولته وفى شيخوخته ، وفيه بشارة بأنه سيعيش الى أن يكون رجلا سويا كاملا .

(ومن الصالحين) الذين أنعم الله عليهم وأصلح حالهم (قالت ربّ أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر) تعجب من مريم من تلك البشارة (قال كذلك الله يخلق مايشاء) مثل ذلك الخلق البديع يخلق الله مايشاء لايعجزه شىء (إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) تمثيل لكمال قدرة الله تعالى ونفوذ مشيئته ، وتصوير لسرعة حصول مايريد بطاعة المأمور القادر على العمل للآمر المطاع (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) من جملة مابشرت به مريم (ورسولا الى بنى اسرائيل) أى ويرسله رسولا الى بنى اسرائيل (أنى قد جئتكم بآية من ربكم) أى محتجا على رسالته بأنه قد جاء الناس بآية من الله تدلّ على صدقه ، والمراد بالآية الجنس

وهو يصدق بالآيات المتعددة .

ثم سرد الآيات فقال (أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله) وهو اخبار من الله تعالى أن أعطاه ذلك السر ، وهو أن يصوّر من الطين كهيئة الطير فينفخ فى هذه الصورة فيكون طيرا ، ويبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ، وقوله (باذن الله) أى بتيسيره واعانته ، لا بقدرة عيسى ولا بكسبه ، لأن ذلك شأن الآيات التى يؤيد الله تعالى بها رسله .

وقد امتنّ الله تعالى على نبيه عيسى عليه السلام بهذه النعم إذ يقول (إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا و إذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل و إذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى و إذ تخرج الموتى باذنى «١١٠» [١]) والظاهر من ذلك الامتنان وقوع هذه الآيات. وقوله (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) فالمراد أن فى استطاعتى أن أخبركم بخاصة أمركم التى لايعلمها سواكم وهى أقلّ آيات عيسى عليه السلام ، وقد أعطاها الله لمن دون الأنبياء .

ثم عقب ذلك كله بقوله (ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) فيه علامة واضحة على صدق عيسى فيما يخبر به عن الله تعالى ، ان كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآيات واعتبرتم بها ، (ومصدقا لما بين يدىّ من التوراة) أى وسيرسلنى الله مصدقا لما بين يدىّ من كتاب التوراة التى أنزلها على موسى ، فهى تعتبر شريعة له كما كانت شريعة لموسى (ولأحلّ لكم بعض الذى حرّم عليكم) فقد كان حرّم على بنى اسرائيل بعض الطيبات بظلمهم وكفرهم فأحلها عيسى، وهو نسخ لبعض أحكام التوراة الفرعية (فاتقوا الله وأطيعون ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) ذلك من تمام البشارة : أى وسأقول لهم بعد هذه الآيات: اتقوا الله وأطيعون فانه ربى وربكم ، فاعبدوه وحده ، هذا صراط مستقيم لاعوج فيه ولا أمت .

(٢) (فلما أحسّ عيسى منهم الكفر) الخ انتقال من البشارة بعيسى عليه السلام الى ذكر خبره مع قومه ، وطوى القرآن مابينهما من خبر ولادته ونشأته و بعثه مؤيدا بتلك الآيات ، وهو من ايجاز القرآن الذى تفرّد به ، وكأنه يقول : فلما ولد عيسى وتربى و بعث ، وأحسّ من قومه الكفر (قال من أنصارى الى الله) الخ : أى فلما شعر عيسى من قومه بنى اسرائيل الكفر والعناد والمقاومة . والقصد بالايذاء ، توجه بالبحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه فى دعوته منخلعين عما كانوا فيه ، منزوين الى الله ، منصرفين الى تأييد رسوله ونصره على خاذليه .

وجدير بكلّ من يدعو الى الله ويحسّ من قومه ذلك الاحساس أن يبحث عن القوم الذين يشاركونه فى العقيدة . و يعتنقون معه الاسلام حتى ينتصر بهم على من عاداهم ، و يأمن بهم كيد الكائدين و بطش الباطشين ، وحتى يكونوا حزباله يأمنهم و يأمنونه ، و يساررهم و يساررونه ويتشاور معهم فى كلّ خطوة يخطوها وكلّ عمل يقوم به ، وقد يظنّ الانسان عدوّه ناصرا له فى دين الله فيخذله عند حاجته الى النصر ، لذلك كان من الحزم تحسس ذلك النوع من الأنصار .

---

[١] المائدة .

والوقوف على جلية أمره ، حتى إذا جهدتهم الشدائد ولعبت بهم الفتن كانوا كالجبال ثباتا وقوة ، ولله ما أحلى هذه الكلمة ، وما أرطبها على قلوب المؤمنين حينما يوجهها لهم رسول من رسل الله كعيسى عليه السلام (من أنصارى الى الله ؟) انها لتهز القلوب الى الله هزّا ، وتحركها الى مولاها وخالقها ، وترى المستمع لها أن رسل الله لم يكن لهم حظ من الدعوة سوى أن يصدعوا بأمر ربهم ، ويتصاعوا النصرة خالقهم ، ولم يطلبوا الناس ليؤدّوا لهم عملا يعود نفعه على شخصهم فحسب ، وانما يدعون الناس ليجيبوا داعى الله ويصلحوا فى الأرض ، وكان على الناس أن تفطن لمثل ذلك ، ولكن العناد غلب عليهم ، والتقاليد طمست على قلوبهم .

(قال الحواريون نحن أنصار الله) قد انخلعنا من تقاليدنا القديمة ، وأخذنا بتعليم عيسى عليه السلام ، وبذل منتهى الطاعة فى تأييده ، فان نصر الله لا يكون إلا بذلك ، قيل لفظ الحوارى مأخوذ من الحوارى [بضم الحاء وتشديد الواو] وهو لباب الدقيق وخالصه لأنه من خيار القوم وصفوتهم ، وفى حديث الصحيحين « لكل نبىّ حوارى وحوارىّ الزبير » ومن هنا قيل هو خاصّ بأنصار الأنبياء (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) مخلصون له منقادون لأمره ، وفى الآية دليل على أن الاسلام دين الله على لسان كل نبىّ وان اختلفوا فى بعض صوره وأشكاله ، وأحكامه وأعماله (ربنا آمنا بما أنزلت اتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) صدّقنا بما أنزلت من الانجيل بعد تصديقنا بك ، واتبعنا الرسول عيسى ابن مريم عليهما السلام ، وقد أضافوا الى الايمان العمل لأنه أثره ونتيجته ، وبرهانه الذى يدلّ عليه ، كما قال (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم «٣١» [1]) (فاكتبنا مع الشاهدين) للرسول بتبليغ الدعوة ، وعلى قومه بما كان منهم من الكفر والجحود .

(٣) (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) دبروا قتل عيسى عليه السلام خفية ، ودبر الله نجاته من حيث لم يحتسبوا ، فكان مكر الله خيرا من مكرهم ، لأنهم دبروا للشرّ ، والله تعالى دبر للخير ، فانما يدبر لاقامة السنن واتمام الأحكام ، وكلها خير فى نفسها ، أما مكرهم فكان سيئا ، وان كان المكر فى نفسه فيه الحسن والسيئ ، ولذلك يقول (استكبارا فى الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله «٤٣» [2]) (إذ قال الله ياعيسى انى متوفيك ورافعك الىّ ومطهرك من الذين كفروا) أى مكر الله بهم ، إذ قال لنبيه (إنى متوفيك) قيل معناه مستوفى أجلك ، ومعناه أنى عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخرك الى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك ، لا قتلا بأيديهم (ورافعك إلىّ) الى سمائى ومقرّ ملائكتى (ومطهرك من الذين كفروا) من سوء جوارهم وخبث صحبتهم . وقيل متوفيك قابضك من الأرض . وقيل : مميتك فى وقتك بعد النزول من السماء ، ورافعك الآن ، والمراد أن الله تعالى لايسلط الكفار عليه فيقتلوه وسيهدم عليهم مكرهم (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة) هى فوقية روحانية دينية ، وهى كونهم أحسن أخلاقا وأكمل آدابا وأقرب الى الحق والفضل .

ثم بعد ذلك قال ان مرجع الجميع الى الله تعالى وهو الذى سيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه فيعطى

---

[١] آل عمران . [٢] فاطر .

كلُّ فريق جزاءه (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم) الخ .

بعد أن بين خلق عيسى ومجيئه بالآيات وما كان من أمر قومه معه كشف لنا شبهة المفتونين بخلقه على غير السنة المعتادة والمحاجين فيه بغير علم فقال (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم) صفته في خلق الله اياه على غير مثال سابق كصفة آدم في ذلك ، ثم فسر ذلك المثل بقوله (خلقه من تراب) قدّر أوضاعه وكوّن جسمه من تراب حيث أصابه الماء فكان طينا لازبا فيه لزوجة (ثم قال له كن فيكون) كوّنه تكوينا آخر بنفخ الروح فيه : أى ثم قال له كلمة التكوين التى تتألف من (كن فيكون) فهل يعزّ على صاحب هذه المشيئة أن يخلق عيسى من غير أب ؟ (الحق من ربك) أى ذلك هو الحقّ الذى لا شك فيه من ربك (فلا تكن من الممترين) بعد بيان الله تعالى . .

عيسى عليه السلام

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ «٧٢» لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٧٣» أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٧٤» مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ «٧٥» المائدة

شرح وعبرة

(١) (لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم) الخ .

قد كانت عقيدة التثليث شائعة عند براهمة الهند والبوذيين ، وقدماء المصريين ، و بعض الفرس ثم انتقلت من البراهمة والبوذيين ، وقدماء المصريين إلى النصارى ، أما كتب العهد القديم والجديد فلا يوجد فيهما مايصلح أصلا لهذه العقيدة الوثنية ، بل وجد فى الأناجيل مايدلّ على التوحيد الخالص .

وقد اختلف المفسرون فى أنه هل كان يوجد فى النصارى فرق ثلاثة : فرقة تقول: إن الله هو

المسيح ، وأخرى تقول : إن الله ثالث ثلاثة فيها المسيح ، وثالثة تقول : المسيح ابن الله ، أوهى فرقة واحدة تقول : إن هناك أقانيم ثلاثة ، وأن كلّ واحد منها عين الآخر ، فالآب عين الابن ، وعين روح القدس .

ولما كان المسيح هو الابن كان عين الآب وعين روح القدس ، فذهب ابن جرير إلى أن الذي كان عليه جماهير النصارى قبل أن يفترقوا إلى يعقوبية وملكانية ونسطورية أن الاله القديم جوهر واحد يعمّ ثلاثة أقانيم : أبا والدا غير مولود ، وابنا مولودا غير والد ، وزوجا متتبعة لهما ، وأن الذين يقولون : إن آلهتهم ثلاثة هم غير الفرقة التي تقول : إن الله هو المسيح ابن مريم ، وأن فرقة ثالثة تقول : ان المسيح هو ابن الله ، وليس هو الله ولا ثالث ثلاثة .

وكلام ابن جرير يظهر أنه حقّ فى متقدّمى النصارى ، أما متأخروهم فانهم يقولون بالأقانيم الثلاثة ، وأن كلّ واحد منها عين الآخر ، فاذا قال الله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) كان منطبقا عليهم ، لأنهم قائلون باتحاد كلّ أقنوم مع غيره من الأقانيم ، وإذا قال (لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة) كان كذلك ، لأنه ثالث أقانيم ثلاثة ، وإذا قال : إن النصارى قالت (المسيح ابن الله) كان ذلك حقا .

والقرآن يرينا أنهم كفروا بكلّ فرية من هذه المفتريات وأشركوا ، كفروا بادّعائهم اتحاد الله مع عيسى ، وادّعائهم بنوّة عيسى عليه السلام لله تعالى ، وادّعائهم أن الله ثالث ثلاثة فيهم عيسى ولذلك عقب قوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) بقوله (وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) وعقب قوله (لقد كفر الذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة) بقوله (وما من إله إلا إله واحد) .

فكلّ هذه الأقوال ناقضة للتوحيد مقتضية للكفر ، وهو ما عليه مذاهب نصارى اليوم حتى [البروتستانت] الذين أصلحوا النصرانية منذ ثلاثة قرون ، والذين لم يستطيعوا أن يردوا النصرانية إلى أصلها من التوحيد الصحيح ، ولا يزالون يقولون بألوهية المسيح ، وبالتثليث . ويعدّون الموحد غير مسيحى ، كما يقول بذلك الفرقتان الأخريان الكبيرتان من فرق النصارى — وهم : الكاثوليك ، والأرثوذكس ، فجميع فرق النصارى فى هذا العصر تقول : إنّ الله هو المسيح ابن مريم ، وأن المسيح هو الله ، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا .

والتثليث عند النصارى عقيدة يخبط فيها جهلاؤهم ويتحير علماؤهم ، ثم ينتهون إلى الاعتراف بأنهم يعتقدون ولا يفهمون ، ويكلفون بها الناس ولا يستطيعون إقناعهم بها ، وسأذكر لك قصة من كتاب [إظهار الحقّ] لرحمة الله الهندى يقول فيها : تنصر ثلاثة أشخاص ، وعلمهم بعض القسيسين عقيدة التثليث ، وكانوا فى خدمة القسيس ، فجاء محبّ من أحباء هذا القسيس ، وسأله عمن تنصر ، فقال : ثلاثة أشخاص تنصروا . فسأل هذا المحبّ هل تعلموا شيئا من العقائد الضرورية فقال : نعم . وطلب واحدا منهم ليرى صاحبه ، فسأله عن عقيدة التثليث فقال : انك علمتنى أن الآلهة ثلاثة ، أحدهم الذى فى السماء ، والثانى تولد من بطن مريم العذراء ، والثالث الذى نزل فى

صورة الحمام على الاله الثانى بعد ماصار ابن ثلاثين سنة فغضب القسيس وطرده . وقال هذا مجهول ثم طلب الآخر منهم وسأله فقال : انك علمتنى أن الآلهة كانوا ثلاثة ، وصلب واحد منهم ، فالباقى إلهان ، فغضب القسيس عليه أيضا وطرده ، ثم طلب الثالث وكان زكيا بالنسبة للأولين ، وحريصا فى حفظ العقائد ، فسأله ، فقال : يامولاى حفظت ماعلمتنى حفظا جيدا ، وفهمت فهما كاملا بفضل الرب المسيح ، ان الواحد ثلاثة ! ! والثلاثة واحد ! ! وصلب واحد منهم ومات ، فمات الكل لأجل الاتحاد ، ولا اله الآن ، و إلا يلزم نفى الاتحاد اهـ .

قال الشيخ رحمة الله الهندى : لا تقصير للمسئولين ، فان هذه العقيدة يخبط فيها الجهلاء هكذا ويتحير علماؤهم ، ويعترفون بأنا نعتقد ولانفهم ، ويعجزون عن تصويرها وبيانها اهـ وهكذا الباطل لاتسيغه العقول ، ولاتطمئن له النفوس ، ولايستطيع صاحبه أن يقيم عليه برهانا .

(٢) (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) ماهو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله ، يجرى عليه مايجرى عليهم ، قد جاء بآيات من الله كما جاءوا ، فلم يكن إله ولاجزء من الاله ، فأمر عيسى عليه السلام محصور فى الرسالة لايتعداها الى الالهية بحال من الأحوال (وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) وأمه من الأمهات الصديقات المصطفاة ، لأن تكون أما لعيسى كما قال (وإذ قالت الملائكة يامريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين «٤٢» [1]) .

وتأمل الكناية المؤدبة فى قوله (كانا يأكلان الطعام) ومن كان كذلك كان عبدا تجرى عليه نواميس العبيد ، فمن الخطأ اتخاذه إلها ، لأن الاله غنى ، وعيسى وأمه محتاجان الى الطعام والشراب ، ولاتجتمع ألوهية واحتياج ، (انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) تعجيب للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى منه النظر لهؤلاء القوم بين لهم الله آياته واضحة ، دالة على وحدته وقدرته . ثم هم مع ذلك يصرفون عن الحق بعد البيان الواضح .

عيسى عليه السلام

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ

[١] آل عمران .

هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ «١١٠» وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّنَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ «١١١» إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١١٢» قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ «١١٣» قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ «١١٤» قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَٰلَمِينَ «١١٥» وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ «١١٦» مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ «١١٧» إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «١١٨» المائدة

شرح وعـــبرة

(١) يذكر الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام نعمته عليه وعلى والدته مريم إذ أيده بروح القدس ، وهو جبريل عليه السلام لأنه الملك الذى يؤيد الله تعالى به رسله بالتعليم الالهى والتثبيت فى المواطن التى من شأن البشر أن يضعفوا فيها . قال تعالى فى شأن القرآن (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى و بشرى للمسلمين «١٠٢» [١]) وكان كلامه فى المهد والكهولة نعمة على والدته لأنه برأها بذلك القول من كلام الآثمين الذين أنكروا عليها أن يكون

[١] النحل .

لها غلام بدون أب ، أما كونه نعمة عليه فظاهر ، فمن كلامه فى المهد (انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا «٣٠» وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا «٣١» و برّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا «٣٢» [1]) .

أما كلامه كهلا فهو كلامه بعد الرسالة واقامته الحجة على خصومه وأعدائه (و إذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) يذكره بنعمته عليه بتعليمه الكتاب ، والمراد به ما يكتب أى علمتك قراءة الكتاب : أى ما يكتب ، أو علمتك الكتابة بالقلم . ووفقتك لتعلمها (والحكمة) هى العلم الصحيح الذى يبعث الارادة الى العمل النافع ، بما فيه من الاقناع والعبرة ، والبصيرة وفقه الأحكام . والتوراة هى الشريعة الموسوية .

ومنه تعلم أن التوراة كانت شريعة لعيسى عليه السلام ، كما كانت شريعة لموسى قبله . والانجيل : ما أوحاه الله إليه من الحكم والأحكام والبشارة بخاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وجعل هذه النعم قسما مستقلا وفصلها بكلمة (إذ) لأنها نوع آخر من النعم يخالف النوع السابق . إذ كان النوع السابق انعاما على نبىّ الله عيسى وعلى أمّه ببراءتها من الفاحشة التى رماها بها الأفاكون ، أما هذه فهى نعم ترجع الى تعليم الله تعالى له الكتابة والعلم النافع ، وشريعة التوراة وكتاب الانجيل .

(و إذ تخلق من الطين) الخ انتقال الى نوع آخر من النعم وهو نعمته عليه بالخوارق والمعجزات. والخلق فى أصل اللغة التقدير ، وجعل الشىء بمقدار معين ، يقال خلق الاسكافى النعل ثم فراه : أى عين شكله ومقداره ثم قطعه . قال الشاعر :

ولأنت تفرى ماخلقت و بعـ* ض القوم يخلق ثم لايفرى

يريد إذا قدّرت شيئا وأعددته أمضيته ولم تردّد فيه ، و بعض القوم يقدر ثم لاينفذ ما أراد . والمعنى اذكر نعمتى عليك إذ تجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير فى شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك فتكون طيرا باذن الله ومشيئته ، أو بتسهيله وتكوينه ، فأنت تفعل التقدير والنفخ والله هو الذى يكوّن الطير . و (الأكمه) من ولد أعمى ، و يطلق على من عمى بعد الولادة واخراج الموتى احياؤها ، وقد صرح بذلك فى آية آل عمران ، وكرر كلمة (باذنى) عقب كلّ معجزة حتى لاتفسى أن هذه المعجزات ليست من صنع عيسى عليه السلام بل هى من صنع الله تعالى على يد رسوله شأن سائر المعجزات (و إذ كففت بنى اسرائيل عنك) الخ انتقال الى نعمة أخرى وهى حمايته من بنى اسرائيل عند ما أرادوا قتله وصلبه ، وكان ذلك الذى أرادوه فى الوقت الذى جاءهم فيه بالآيات الواضحة الدالة على صدقه فى دعوى الرسالة ، فقال الكافرون منهم ان الذى جاء به من المعجزات هو من جنس السحر ، والتمويه الذى يرى الشىء على خلاف حقيقته .

(٢) (و إذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى و برسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) يذكر نبيه عيسى عليه السلام بنعمة أخرى عليه: هى إلهامه الحواريين الايمان به و برسوله عيسى وتوفيقه لهم لذلك الايمان — فى الوقت الذى كذب فيه جمهور بنى اسرائيل ، فجعل الحواريين

---

[١] مريم

أنصارا له يؤيدون حجته ، وينشرون دعوته ، والحواريون جمع حوارى ، وهو من خلص لك وأخلص سرا وجهرا فى مودتك ، وقيل (أوحيت الى الحواريين) أنزلت على أنبيائهم أطالبهم بالايمان بى وبرسولى ، فأجابوا داعى الله تعالى وقالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون : مذعنون لما يترتب على الايمان من الأمر والنهى ، وقد حكى الله عنهم فى سورتى آل عمران والصف أنهم حين قال لهم المسيح (من أنصارى الى الله) قالوا (نحن أنصار الله) .

(إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزّل علينا مائدة من السماء) أى هل يرضى ربك ويختار أن ينزّل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أو سألته لنا ذلك ؟ والمائدة : الخوان الذى عليه الطعام .

(قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى قال عيسى لهم : اتقوا الله أن تقترحوا أمثال هذه الاقتراحات التى كان سلفكم يقترحها على موسى ، لئلا تكون فتنة لكم ، فان من شأن المؤمن الصادق أن لا يجرب ربه باقتراح الآيات ، وأن يعمل ويكسب ، ولا يطلب من ربه أن يعيش بخوارق العادات ، وعلى غير السنن التى جرت عليها معايش الناس (قالوا نريد أن نأكل منها) الخ : أى نحن نطلبها لأننا فى حاجة إلى الطعام ، أو نريد أن نأكل منها أكل تبرّك ، ونريد أن تطمئن قلوبنا بمشاهدة خرق الله تعالى للعادة ، فنضمّ علم المشاهدة إلى علم النظر والاستدلال ، ونعلم بهذه المشاهدات أن قد صدقتنا فيما وعدتنا من ثمرات الايمان كاستجابة الدعاء ولو بخوارق العادات . وأن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بنى إسرائيل ، فيؤمن المستعدّ للايمان ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا .

ذلك كله على القول بأن الحواريين بقوا على إيمانهم بعيسى عليه السلام ، وأن الطلب كان بحسن نية ، فلم يكن تعنتا منهم ، ولا إحراجا لعيسى باقتراح آية المائدة ، ويكون قول عيسى عليه السلام لهم (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) تذكيرا لهم بآثار الايمان وثمرته . وهى أنهم لا يقترحون على الرسول آيات . وإنما يكتفون بما أيد الله به رسوله .

أما إذا قلنا إنهم آمنوا بادئ الأمر بعيسى إيمانا صوريا وقالوا : نحن أنصار الله ، ثم كفروا بعيسى بعد ذلك باقتراح الآيات كما كان يقترحها كفار قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكاه الله عنهم فى سورة الاسراء (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا «٩٠» أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا «٩١» أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا «٩٢» أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا «٩٣») .

وكما حكاه الله عنهم فى سورة الفرقان (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوّا كبيرا «٢١») .

إذا كان أولئك الحواريون من ذلك الصنف المتعنت تعين أن يكون وحى الله للحواريين بالايمان مطالبتهم به من طريق الرسل ، ويكون قولهم (آمنا) فى أوّل أمرهم ، أو قول نفاق وملق وتعين أن يكون الغرض من القصة تذكيره بنفاق قومه معه . وإحراجهم له حينما سألوه مائدة

من السماء ، والشأن فى الموائد أن تطلب من الأرض لا من السماء ، وأن الله تعالى أجابهم إلى المائدة ليقطع أعذارهم ، ويخلص رسوله من إعناتهم إياه . أو أنه أجابهم إلى ذلك الطلب بشرط ، وهو أن من يكفر بعد نزول المائدة يعذبه الله عذابا لم يعذب به أحدا من الناس . فلما رأوا ذلك الشرط وعرفوا أنهم لا قبل لهم بالعذاب أعرضوا عن طلب المائدة . وقالو لاحاجة لنا بها على ماسيأتى من آراء العلماء فى المائدة التى اقترحها أصحاب عيسى عليه السلام .

(٣) (قال عيسى ابن مريم اللهمّ ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) الخ .

طلب عيسى من الله تعالى إنزال المائدة ، فناداه باسم الذات الجامع لمعنى الألوهية والقدرة ، والحكمة والرحمة وغير ذلك ، فقال (اللهمّ) ثم باسم الربّ الدالّ على معنى الملك والتدبير والتربية والاحسان خاصة ، فقال (ربنا) وقد طلب من الله تعالى أن ينزل عليهم مائدة سماوية يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم ، وتتغذى بها أبدانهم وأرواحهم ، ثم وصفها بقوله (تكون لنا عيدا لأوّلنا وآخرنا) وكلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور ، وبمعنى الموسم الدينى أو المدنى الذى يجتمع له الناس فى يوم معين من أيام السنة للعبادة أو لشىء آخر من أمور الدنيا (وآية منك) علامة منك على حجة نبوّتى ودعوتى (وارزقنا) أى من هذه المائدة أو من غيرها ماتتغذى به أجسامنا أيضا (وأنت خير الرازقين) ترزق من تشاء بحساب وترزق من تشاء بغير حساب ، وقيل وارزقنا الشكر عليها .

(قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) وعد من الله تعالى لعيسى أن ينزلها عليهم ، ولكنه رتب على هذا الوعد شرطا أىّ شرط ، فقال (فمن يكفر بعد منكم) الخ والفاء لترتيب ماقبلها على مابعدها ، والمعنى أن من يكفر منهم بعد هذه الآيات التى اقترحوها فان الله تعالى يعذبه عذابا شديدا لايعذب مثله أحدا من سائر كفار العالمين كلهم ، أو عالمى أمتهم الذين لم يعطوا مثل هذه الآية .

وقد اختلف مفسرو السلف فى المائدة أنزلت بالفعل أولا ؟ فروى عن بعضهم أنها نزلت . واختلف هؤلاء فى الطعام الذى نزل — أى على وجه المعجزة من الله — فأبهمه بعضهم ، وعينه آخرون، ورجح ابن جرير نزولها انجازا للوعد ، وأنه كان عليها مأكول لانعينه ، وقال : ان العلم به لاينفع ، والجهل به لايضرّ . وقال آخرون : انها لم تنزل ألبتة ، فروى ليث بن أبى سليم عن مجاهد فى قوله (أنزل علينا مائدة من السماء) قال هو مثل ضربه الله ولم ينزل شىء . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، وكذلك روى ابن جرير عن الحسن أنها لم تنزل ، وأنه لما قيل (فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذّبه أحدا من العالمين) قالوا لاحاجة لنا فيها ، فلم تنزل . روى ذلك بأسانيد صحيحة الى مجاهد والحسن .

(٤) (واذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) الخ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عطف على قوله تعالى (إذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك) الخ . والمعنى اذكر أيها الرسول للناس يوم يجمع الله الرسل فيسألهم عما أجابتهم به أممهم إذ يقول لعيسى: اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك الخ ، وإذ يقول له بعد ذلك :

«أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ : أى يسأله أقالوا ذلك القول بأمر منك أم افتروه هم وابتدعوه من عند أنفسهم ؟ و يعلم الله أن عيسى عليه السلام لم يقل لأحد اتخذنى إلها أو اتخذ أمى إلها ، ولكن حكمة السؤال فى ذلك الوقت أن تظهر براءة عيسى من الشرك ، واقامة الحجة على المشركين الذين ظلموا عيسى وأمه ذلك الظلم ، لأن رسل الله جميعهم جاءوا بالتوحيد الخالص .

ولايليق بهم وقد آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوّة أن يقولوا للناس: كونوا عبادا لنا من دون الله كما قال (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب و بما كنتم تدرسون « ٧٩ » ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون «٨٠» [١]) .

وسؤاله لعيسى عليه السلام فى الآخرة هو كسؤاله للرسل بعد أن يجمعهم و يقول لهم (ماذا أجبتم ؟) فيقولون (لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) أى إنك أعلم منا بمن أجاب دعوتنا ومن لم يجب ، ونحن لا نعلم من الناس الذين عاصرونا سوى الظاهر منهم ، أما من لم يعاصرنا من الأقوام فلا نعلم من أمرهم شيئا ، أما أنت فتعلم ظاهرهم و باطنهم . وتعلم من كان فى عصرنا ومن جاء بعدنا

وقوله (من دون الله) أى حال كونكم متجاوزين بذلك الاتخاذ توحيد الله و إفراده بالعبادة ، وهو يصدق باتخاذ إله أو أكثر مع الله تعالى ، وهو الشرك ، سواء اعتقد المشرك أن هذا المتخذ ينفع و يضرّ بالاستقلال وهو نادر ، أو اعتقد أنه ينفع و يضرّ باقدار الله تعالى إياه ، وتفويض بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب ، أو بالوساطة عند الله وحمله تعالى بما له من التأثير والكرامة على النفع والضرّ ، وهو الأكثر الذى كان عليه مشركو العرب عند البعثة كما حكى الله عنهم فى فى قوله (و يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله «١٨» [٢]) وقوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى «٣» [٣]) .

وقلما يوجد فى متعلمى الحضر من يتخذ إلها غير الله متجاوزا بعبادته الايمان بخالق الكون ومدبره ، فان الايمان الفطرى المغروس فى غرائز البشر هو أن تدبير الكون كله صادر عن قوّة غيبية لا يدرك أحد كنهها .

أما اتخاذ المسيح إلها فلأنهم قالوا (المسيح ابن الله) أو (إنّ الله هو المسيح ابن مريم) أو (إنّ الله ثالث ثلاثة) فيهم المسيح، ومن كانت له هذه العقيدة فقد اتخذ المسيح إلها من دون الله : أى أنه أشرك به ، ولذلك سمى الله أصحاب هذه العقائد مشركين بالله تعالى فى الألوهية التى لا تنبغى إلا لله تعالى .

أما أمه فعبادتها كانت متفقا عليها فى الكنائس الشرقية والغربية بعد قسطنطين ، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانت التى حدثت بعد الاسلام بقرون ، وهذه العبادة التى توجهها النصارى إلى مريم والدة المسيح عليهما السلام : منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء ، واستغاثة واستشفاع ، ومنها صيام ينسب إليها و يسمى باسمها ، وكلّ ذلك يقرن بالخضوع والخشوع لذكرها ولصورها

---

[١] آل عمران . [٢] يونس . [٣] الزمر .

وتماثيلها ، واعتقاد السلطة الغيبية لها التى يمكنها بها فى زعمهم أن تنفع وتضر فى الدنيا والآخرة بنفسها أو بواسطة ابنها .

وقد صرحوا بوجوب العبادة لها وان لم يطلقوا عليها كلمة [إله] بل يسمونها [والدة الاله] ويصرح بعض فرقهم بأن ذلك حقيقة لامجاز ، والقرآن يقول هنا : إنهم اتخذوها وابنها إلهين ؛ والاتخاذ غير التسمية .

ومن النصوص الدالة على عبادة النصارى لمريم قول [الأب لويس] فى مقالة له عن الكنائس الشرقية [أن تعبد الكنيسة الأرمنية للبتول الطاهرة أم الله لأمر مشهور] . وقوله [قد امتازت الكنيسة القبطية بعبادتها للبتول المغبوطة أم الله] .

(ه) (قال سبحانك) بدأ عليه السلام جوابه بتنزيه إلهه وربه عز وجل عن أن يكون معه إله ، ثم انتقل من هذا الى تبرئة نفسه العالمة بالحق عن قول لاينبغى لمثله أن يقوله ، فقال (ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق) لأنك أيدتنى بالعصمة من مثل هذا الباطل ، وهو أبلغ فى البراءة من نفى ذلك القول وانكاره انكارا مجردا ، لأن نفى الشأن يستلزم نفى الفعل نفيا مؤيدا بالدليل ، ثم أكد هذه النتيجة بحجة أخرى قاطعة فقال (ان كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) أى ان كان ذلك القول وقع منى فرضا فقد علمته ، لأن علمك محيط بكل شىء ، تعلم ما أسره وأخفيه فى نفسى . فكيف لاتعلم ما أظهرته ودعوت إليه فعلمه منى غيرى ؟ ولا أعلم ماتخفيه من علومك الذاتية التى لاتهدينى إليها بنظر واستدلال كسبى إلا ماتظهرنى عليه بوحى وهبى (انك أنت علام الغيوب) أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك . لأن علمك المحيط بكل ما كان ومايكون علم ذاتى غير منتزع من صور المعلومات ، ولامستفاد بتلقين ونظر واستدلال (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم) وهو التوحيد الخالص ، وهو أمرهم بعبادتك وحدك ، واعلامهم بأنك ربى وربهم وأننى عبد من عبادك مثلهم ، لامزيد لى عليهم إلا أنك خصصتنى بالرسالة إليهم (وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم) كنت قائما عليهم أراقبهم وأشهد على مايقولون ويفعلون ، فأقر الحق ، وأنكر الباطل مدة وجودى بينهم (فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) فلما توفيتنى إليك كنت أنت المراقب لهم وحدك إذ انتهت مدة رسالتى فيهم ، فلا أشهد عليهم ، وأنا لست معهم ، وأنت شهيد عليهم ، وشهيد بينى وبينهم .

ولما كان المراد من السؤال الذى أجيب عنه بذلك الجواب هو اقامة الحجة التى يظهر بها عدل الله تعالى يوم القيامة — فوض عليه السلام أمر الجزاء إليه تعالى بحسب ماتقتضيه شهادته تعالى وصفاته ، فقال (ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم) أى ان تعذب أولئك الناس الذين أرسلتنى إليهم ، فبلغتهم ما أمرتنى به من توحيدك وعبادتك وحدك ، فضل من ضل منهم ، وقالوا مالم أقل لهم ، واهتدى من اهتدى منهم ، فلم يعبدوا معك أحدا من دونك فانهم عبادك وأنت ربهم ، ولست أنا ولا غيرى من الخلق بأرحم بهم ، ولا بأعلم بحالهم ، وإنما تجزيهم بحسب علمك بظواهرهم وبواطنهم ، فأنت أعلم بالمؤمن الموحد ، والمشرك المثلث ، والطائع

الصالح ، والعاصى الفاسق ، والمقرّ للكفر والفسق والمنكر لهما ، ولا تظلم أحداً مثقال ذرة .

فالمراد إذا ان تعذّب فانما تعذّب من يستحق التعذيب منهم ، ولا يمنع إرادة هذا المعنى إطلاق الضمير الراجع الى جملتهم ، فانه ضمير الجنس الذى يصدق ببعض الأفراد ، وهو لم يرد بصيغة العموم ، ولذلك أطلقه فى المقابل وهو قوله (وان تغفر لهم) الخ : أى إن تغفر فانما تغفر لمن يستحق المغفرة منهم (فانك أنت العزيز) القوىّ الغالب على أمره (الحكيم) فى جميع تصرّفه وصنعه فيضع كلّ حكم وجزاء فى موضعه ، وهو أعلم بموضع العدل ، وموضع الرحمة والفضل ، وفى تعقيب الآية بقوله (فانك أنت العزيز الحكيم) إشارة الى أن الله تعالى إذا منحهم مغفرة فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله وقوّته ، لأنك أنت العزيز الذى يغلب ولا يغلب ، ويمنع من شاء ما شاء ولا يمنع ، ولا يتحوّل عن إرادتك ، فانك أنت الحكيم الذى تضع كلّ شيء موضعه ، فلا يمكن لأحد غيرك أن يرجعك عنه بناء على أن غيره أولى منه ، فمن ذا الذى يستطيع الاستدراك أو الافتيات عليك ؟ والمقام مقام تفويض مطلق الى الله تعالى وحده ، لا مقام شفاعة ، ولذلك ختم الآية بصفتى العزّة والحكمة ، ولم يختمها بصفتى الغفران والرحمة .

وفى جزاء الشرط الأوّل إشارة إلى أن تعذيب من يظنّ المخلوقون أنهم يستحقون المغفرة ان وقع من الله فلا يكون إلا عدلا ، وفى جزاء الشرط الثانى إشارة إلى أن المغفرة إن أصابت من يظنّ الناس أنه يستحقّ العذاب فلا تكون من الله إلا لغاية اقتضتها عزّة الألوهية ، وحكمة الربوبية فلا عبرة بالظواهر التى تبدو للمخلوقين بالنسبة إلى علم علام الغيوب وحكمته ، ولاسيما فى ذلك اليوم فالواجب أن يفوّض إليه الأمر كله : يعذّب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء .

ومن ذلك كله نعرف أن الضمير فى قوله (إن تعذّبهم) وقوله (وإن تغفر لهم) ليس للمشركين حتى يعترض بأنه كيف يغفر الله لمشرك وهو يقول (إنّ الله لا يغفر أن يشرك به «٤٨»[1])

ويقول فيما حكى عن عيسى عليه السلام (إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار «٧٢»[2]) بل المراد جنس القوم الذين فيهم المشرك والموحد ، والصالح والطالح كما تقدم .

عيسى عليه السلام

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ[3] مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا «١٦» فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا «١٧» قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا «١٨» قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا «١٩» قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ

---

[١] النساء . [٢] المائدة .

[٣] تنحت عن أهلها إلى مكان شرق ، « سويا » . حسن الصورة مستوى الخلق .

أَكُ بَغِيًّا «٢٠» قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا «٢١» فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا [1] «٢٢» فَأَجَاءَهَا [2] الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا «٢٣» فَنَادَىٰهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا «٢٤» وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا [3] «٢٥» فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا «٢٦» فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا [4] «٢٧» يَٰأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا «٢٨» فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا «٢٩» قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا «٣٠» وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَٰنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا «٣١» وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا «٣٢» وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا «٣٣» ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ [5] «٣٤» مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٣٥» وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُسْتَقِيمٌ «٣٦» فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ «٣٧» مريم

شرح وعـبرة

(١) يأمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكر لهم فى الكتاب مريم وقصتها

---

[١] بعيداً . [٢] ألجأها واضطرها ، « سريا » : جدولا ، لأن الماء يسرى فيه .
[٣] الغصن الطرى . [٤] عجيباً على غير العادة وقيل منكراً . [٥] يشكون .

العجيبة فى حملها بعيسى عليه السلام (إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا) أى فى الوقت الذى تباعدت فيه عن أهلها فى مكان شرقى ، وقداختارت مكانا بعيدا عن الناس لتتعبد فيه ، والعبادة فى حاجة الى مكان منعزل عن الناس ولاسيما من المرأة ، أو أن الله تعالى ألهمها أن تتنحى عن القوم وتتخذ حجابا من دونهم تمهيدا لارسال جبريل عليه السلام إليها ، ولذلك عطف على الجملة قوله (فأرسلنا إليها روحنا) بالفاء (فتمثل لها) جبريل بشرا كامل الخلقة ، سوىّ الصورة ، فانزعجت من رؤيته ، وقالت (إنى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا) وهو دليل على عفافها وورعها ، ونفرتها من الرجال ، وقولها (ان كنت تقيا) أرادت ان كان يرجى منك أن تتق الله فانى عائذة به منك ، لعلمها أن الاستعاذة لاتؤثر إلا فى التقىّ ، وهو كقوله (وذروا مابقى من الربا ان كنتم مؤمنين «٢٧٨» [١]) أى ان شرط الايمان يوجب هذا ، وليس الغرض أن الله تعالى يخشى فى حال دون حال .

(قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا) تطمين من جبريل لها ، وايناسها بأنه لم يكن من جنس البشر ، بل هو من جنس الملائكة ، أرسله الله تعالى إليها ليهب لها الغلام بواسطة نفخ جبريل عليه السلام ، وقوله (لأهب لك) قرأ نافع وابن عامر [ليهب] بياء مفتوحة والضمير يرجع الى الله تعالى : أى ليهب الله تعالى لك غلاما طاهرا من الذنوب ناميا ، أما على قراءة [لأهب] فيكون الضمير لجبريل .

وقد أضاف الهبة إليه على سبيل المجاز ، لأن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذى نفخ فيها كان جبريل كأنه الذى وهبها ، واضافة الفعل الى سببه سائغ وكثير ، كقوله (ربّ انهنّ أضللن كثيرا من الناس «٣٦» [٢]) أو لأن جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة (قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا) .

استغربت أن يولد لها غلام والحال أنها لم تتزوّج ببشر ، وتتصل به اتصال الأزواج ، لأن ذلك هو الطريق المألوف ، فالمسّ كناية عن الزواج الحلال ، كقوله تعالى (من قبل أن تمسوهنّ «٢٣٧» [٣]) وقوله (أو لمستم النساء «٦» [٤]) والزنا ليس كذلك وانما يقال فيه : فجر بها ، وخبث بها وما أشبه ذلك ، وهو لايستحق أن تراعى فيه الكنايات والآداب (ولم أك بغيا) أى فاجرة ، تتحدّث عن نفسها بالعفة ، وقد تحدّث الله عنها بذلك قبل أن تتحدّث هى فقال (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين «٤٢» [٥]) .

واذا كانت السيدة مريم عليها السلام لم تتزوّج ببشر ، وليس من شأنها الفجور بل شأنها الطهارة والعفة ، فكيف يكون لها غلام ؟ (قال كذلك) أى الأمر كما قلت لك ، لاشك فيه ولا ارتياب (قال ربك هو علىّ هين) ومتى قال الله تعالى للشىء كن يكون ، فلا تستغربى أن يولد لك انسان بدون أن يمسك بشر ، مع عفتك واحصانك ، وهو كقوله فى سورة آل عمران (كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون «٤٧») وقوله (ولنجعله آية للناس) علة لمحذوف : أى فعلنا مافعلنا لنجعل عيسى آية للناس على قدرتنا (ورحمة منا) أى ولنجعل

---

[١] البقرة . [٢] إبرهيم . [٣] البقرة . [٤] المائدة . [٥] آل عمران .

عيسى عليه السلام رحمة للناس صادرة منا ، علهم يهتدون بهديه ، ويقتدون به (وكان أمرا مقضيا) أى وكان اتيانك بعيسى عليه السلام بدون أن يمسك بشر أمرا مقدرا فى علم الله تعالى لاغنى لك عن رؤيته .

(٢) (فحملته فانتبذت به مكانا قصيا) طوى عملية النفخ ، وانتقل الى الاخبار بالحمل ، وقد بينها فى سورة أخرى ، إذ يقول فى سورة التحريم .

(ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين «١٢») .

طوى القرآن ذلك ، لأن المعنى واضح جلى ، ومن شأن القرآن أن يوجز حيث وضح المعنى ، وكأنه يقول : فاطمأنت مريم عليها السلام الى قول جبريل ، فدنا منها ، فنفخ فيها ، فوصلت النفخة الى بطنها فحملت ، وقوله (فانتبذت به مكانا قصيا) فيه ايجاز آخر ، وهو فمضت عليها مدة الحمل ، وكبرت بطنها كما تكبر بطون النساء عند قرب الوضع ، فتنحت عن أهلها ، واختارت مكانا بعيدا عن الناس ، لأنها لاتزال مهمومة من ذلك الحادث من جهة قومها .

(فأجاءها المخاض الى جذع النخلة) ألجأها الطلق ومقدمات الوضع الى جذع النخلة لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة شأن النساء عند الوضع ، وهنالك قالت (ياليتنى مت قبل هذا) الخ لا كراهة منها لحكم الله تعالى ، بل لما لحقها من فرط الحياء من الناس على حكم العادة البشرية (فناداها من تحتها أن لاتحزنى) الضمير لجبريل عليه السلام : أى ناداها من مكان هو أسفل من مكانها مطمئنا لها بقوله لها (لاتحزنى) من ذلك الحادث ، لأن الله تعالى لم ينساك بفضله واحسانه فجعل تحتك نهرا تتطهرين منه وتشربين ، وما أحوج النساء الى الماء ولاسيما فى الأماكن المقفرة ثم قال لها (وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) تسلية أخرى بتسخير الله لها طعاما بعد تسليتها بالشراب ، لتعرف مريم عليها السلام من هاتين البشارتين أن الله تعالى الذى تولاها بذلك العطف هو الذى سيدفع عنها افك القوم وتعييرهم لها ، وسيقيم الدليل واضحا على براءتها من الزنا ، وعفتها واحصان فرجها .

ثم أمرها بالأكل من الرطب والشرب من النهر وزاد على ذلك قوله (وقرى عينا) والمراد أبعدى عن نفسك الرعب والخوف ، واطمئنى لفعل الله تعالى ، ولاتكلمى أحدا من الخلق أيام نفاسك ، وإذا رأيت أحدا من البشر فاعتذرى له عن الكلام بقولك (انى نذرت للرحمن صوما) امساكا عن الكلام (فلن أكلم اليوم انسيا . فأتت به قومها تحمله) أى فمضت مدة فأتت بعيسى عليه السلام قومها وهى حاملة له (قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا) عجيبا منكرا (ياأخت هارون) قيل كان أخا لها من أبيها من أمثل بنى اسرائيل ، وهو غير هارون أخى موسى عليهما السلام ، وقيل انهم عنوا هارون النبى ، وأرادوا بأخته شبيهته فى الخلال والتقوى ، وكثيرا مايسمى الشبيه أخا ، والمعنى يامن أشبهت أنبياء الله فى التقوى والصلاح (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) يريدون أن عمران أباها لم يكن رجل سوء ، وكذلك أمك لم تكن فاجرة فلماذا جئت بذلك المنكر وخالفت سنة أبويك ؟ .

ومن عادة الناس إذا رأوا أحدا جاء على غير طريقة أبويه أن يستغربوا منه ذلك (فأشارت إليه) أى هو الذى يجيبكم إذا أتتم ناطقتموه ،فقالوا (كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) ، ونكلم حكاية حال ماضية : أى كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبيا فى المهد فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا .

(٣) (قال انى عبد الله آتانى الكتاب) الخ ، وقوله (آتانى الكتاب) الخ : أى إن ذلك سبق فى قضائه ، أو جعل الآتى لامحالة كأنه قد وجد ، وكثيرا مايعبر عن المستقبل بصيغة الماضى كقوله (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله «١١٦» [1]) وإنما يكون ذلك القول فى الآخرة يوم يجمع الله الرسل ويسألهم عن أقوامهم (وجعلنى مباركا أينما كنت) أى نفاعا حينما حللت أو معلما للخير ، وهى نعمة على نبىّ الله عيسى أن جعله مباركا حينما حلّ تحلّ البركة ويكثر الخير .

وبدأ قوله بعبوديته لله تعالى ليعلم الناس أنهم جدّ خاطئين فى اخراجه عن هذه العبودية ، وزعم بنوّته لله تعالى ، و (الكتاب) يحتمل أنه صنعة الكتابة كما قال فى سورة آل عمران (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل «٤٨») فجمع الكتاب مع التوراة والانجيل فهو غيرهما ، ويحتمل وهو الظاهر أنه التوراة والانجيل ، والمراد بالنبىّ هنا الرسول الجامع لصفة النبوّة والرسالة كما قال فى سورة آل عمران (ورسولا إلى بنى اسرائيل) وفى قوله (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا) اشارة إلى أن الصلاة والزكاة من الشرائع القديمة ، وهما من أهم أنواع العبادات البدنية والمالية (وبرّا بوالدتى) عطف على قوله (بالصلاة) أى وأوصانى أن أكون برّا بوالدتى ، والبرّ كلمة جامعة لأنواع الخير (ولم يجعلنى جبارا شقيا) أى من فضل الله عليه أنه لم يجعله جبارا غليظ القلب ، بل جعل فى قلبه رأفة ورحمة ، ولم يجعله شقيا بعصيان ربه ، بل جعله سعيدا باصطفائه له ، واجتبائه اياه (والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) .

قال صاحب الكشاف : الصحيح أن يكون هذا التعريف : أى تعريف السلام بلام الاستغراق - تعريضا باللعن على من اتهم مريم بالزنا ، وتحقيقه أن اللام للاستغراق فاذا قال : والسلام على . فكأنه قال : وكلّ السلام علىّ وعلى أتباعى ، فلم يبق للأعداء إلا اللعن .

ونظيره قول موسى عليه السلام (والسلام على من اتبع الهدى «٤٧» [2]) ذلك هو ماتكلم به عيسى عليه السلام وهو فى المهد ، وهو خارق للعادة من ناحيتين .

[الأولى] أن مثله لا يكون إلا من رجل كبير مفكر ، فصدوره من صغير يجعله خارقا .

[الثانية] اخباره عن أمور غيبية مستقبلة كاخباره عن اعطائه الكتاب ، وجعله نبيا وإيصائه بالصلاة والزكاة ، وهما من العبادات التى لايأمر بها إلا الأنبياء ، أو الآخذون عنهم ، فدلّ ذلك على براءة مريم مما رميت به من الفاحشة ، لأن ابنها رسول من رسل الله ، وكيف يكون رسول الله الذى أيده بمعجزاته من أولاد الزنا ؟ .

(٤) (ذلك عيسى ابن مريم) أى صاحب هذه القصة فى ولادته العجيبة ، وكلامه فى المهد ،

---

[١] المائدة . [٢] طه .

هو عيسى ابن مريم ، وهو عبد الله ورسوله (قول الحق الذى فيه يمترون) خبر بعد خبر ، أو خبر مبتدإ محذوف : أى القول فيه هو قول الحق لاقول الباطل ، وقرئ (قول الحق) بالنصب على المفعولية : أى يقول الله تعالى فى شأنه قول الحق ، أو على المدح ان فسر بكلمة الله ، وانما أطلق على عيسى (كلمة الله) ، و (قول الحق) لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها ، وهى قوله (كن) من غير واسطة أب ، تسمية للمسبب باسم السبب ، كما سمى العشب بالسماء (الذى فيه يمترون) من المرية ، وهى الشك ، أو يتمارون و يتلاحون فيه ، قالت اليهود : انه ساحر كذاب ، وقالت النصارى : ابن الله وثالث ثلاثة .

(ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه) أى ليس من شأن الله ولا مما يليق به أن يتخذ من ولد حتى يتخذ عيسى ولدا له ، لأن الله خالق وعيسى مخلوق ، والصلة بين عيسى و بين ر به كصلة سائر الخلق ، وهو نفى للولد بطريق أبلغ ، لأنه نفى معه دليل ، وهو مخالفة ذلك لشأن الله تعالى وصفته ، وقوله (سبحانه) تنزيه له عن ذلك الاتخاذ (إذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) اذا أراد أمرا كخلق عيسى بدون أب ، وحمل أمه به بدون أن يمسها بشر ، لايتعاصى شىء على ارادته ، ولا يكون إلا الطاعة والامتثال (وان الله ربى وربكم فاعبدوه) .

قيل : هذا من كلام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : أى وقل لهم يامحمد (وان الله ربى وربكم) الخ . وقيل : من كلام عيسى عليه السلام عطف على قوله (انى عبد الله) أى وقال لهم عيسى (ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) لا اعوجاج فيه ولا أمت ، ويكون قوله (ذلك عيسى) الخ جملا معترضة بين كلام عيسى عليه السلام .

(فاختلف الأحزاب من بينهم) أى مع ذلك البيان اختلف الأحزاب فى شأن عيسى عليه السلام ولم يقفوا عند قول الله : إنه عبد الله ورسوله ، فمن مسرف فى الطعن والبذاءة ينسبه إلى الزنا كبعض اليهود ، ومن متغال فى تعظيمه وتوقيره ، حتى جعله ابنا لله ، وثالث ثلاثة فيهم الله ، ولكن القرآن يحدثنا أنه عبد أنعم الله عليه بالرسالة والاصطفاء ، كما أنعم على أمه الصديقة بالطهارة والاجتباء ، وجعله وأمه آية للناس ، ودليلا على كمال القدرة ، وسعة السلطان .

ثم توعد الذين كفروا برسالته بما ينالهم عند شهود يوم الجزاء وقال (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) .

عيسى عليه السلام

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ «٥٧» وَقَالُوا ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ [1] «٥٨» إِنْ هُوَ إِلَّا

[١] عادتهم الخصومة واللجاج .

عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلاً [1] لِبَنِي إِسْرَٰءِيلَ «٥٩» وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَٰئِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ «٦٠» وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ [2] لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُسْتَقِيمٌ «٦١» وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ «٦٢» وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ «٦٣» إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُسْتَقِيمٌ «٦٤» فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ «٦٥» الزخرف

شرح وعبرة

(١) (ولما ضرب ابن مريم مثلا) الخ . روى أنه لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون «٩٨» [3]) امتعضوا من ذلك امتعاضا شديدا ، فقال عبد الله بن الزبعرى : يا محمد أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، فقال : خصمتك [4] ورب الكعبة ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيرا وعلى أمه ؟ .

وقد علمت أن النصارى يعبدونهما ؟ وعزير يعبد ؟ والملائكة يعبدون ؟ فان كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرحوا وضحكوا ، فرد عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ما أجهلك بلغة قومك ، أما فهمت أن ما لما لا يعقل ؟ فلم يدخل فيها عيسى ولا عزير ولا الملائكة ، كما روى أنه رد عليه بقوله : بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك .

و يستدل المفسرون لذلك بقول الله تعالى فى سورة سبأ (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون « ٤٠ » قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون « ٤١ ») وذلك انما ينفى عبادتهم للملائكة ، أما عبادتهم لعزير وللمسيح فلم يقيموا دليلا على نفيهما .

واذا قلنا : إن عبادتهم للمسيح عليه السلام ولعزير ترجع فى الحقيقة لعبادة الشياطين لأنهم هم الذين أمروهم بها فأطاعوهم . قلنا مثل ذلك فى عبادة الأصنام : إن الشياطين هى التى أمرتهم بعبادتها ، وعليه فهم لم يعبدوا الأصنام .

وقد أخبر الله عنهم بأنهم عبدوها ، وانما لم يخص النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحكم

---

[١] عبرة . [٢] علامة ودليل عليها . [٣] الأنبياء . [٤] غلبتك .

بآلهتهم حين سأله ابن الزبعرى عن الخصوص والعموم مادامت كلمة (ما) خاصة بغير العاقل ، لأن إخراج بعض المعبودين عن هذا الحكم عند المحاجة موهم للترخيص فى عبادته فى الجملة فعممه عليه السلام للكل .

ثم بين بقوله [بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك] أن الملائكة والمسيح بمعزل من أن يكونوا معبوديهم ، ومنهم من يذهب إلى أن الله تعالى أجاب عنه حينما وجه إليه ذلك السؤال فأنزل (إنّ الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون « ١٠١ » [١]) وأولئك سبقت لهم من الله الحسنى فهم خارجون من عموم الآية الأولى على فرض شمولها لهم .

ومعنى الآية : ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة النصارى إياه (إذا قومك) قريش من هذا المثل (يصدّون) ترتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وجذلا ، وضحكا بما سمعوا منه كما يرتفع لجب القوم وجدلهم إذا أعوزتهم الحجة ثم عثروا عليها ، وقرئ يصدّون) بضمّ الصاد من الصدود : أى من أجل هذا المثل و بسببه يصدّون الناس عن الحق و يعرضون عنه (وقالوا أ آلهتنا خير أم هو) يريدون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ، و إذا كان عيسى من حصب النار والرمى به فيها كان أمر آلهتنا هينا .

وقيل : لما سمعوا قوله تعالى (إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون « ٥٩ » [٢]) قالوا نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ، ونحن نعبد الملائكة فنزلت . وقوله (أ آلهتنا خير أم هو) على ذلك القول تفضيل لآلهتهم على عيسى ، لأن المراد بهم الملائكة .

(٢) (ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) يريد أن محاجة ابن الزبعرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقصد منها سوى الجدل والمغالبة ، ولم يرد بها إحقاق حقّ أو إبطال باطل ، لأن ابن الزبعرى لا يجهل أن آية (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) خاصة بالأصنام ولا يجهل أن كلمة (ما) لما لا يعقل ، وأن العموم الذى دلّ عليه ظاهر كلام الرسول صلى الله عليه وسلم عند الحاجة لم يرد به عموم اللفظ لعيسى والملائكة عليهم السلام ، وانما هو عموم لما يتناوله لفظ (ما) من الأصنام فى جميع الأمم لا فى قريش وحدها .

يعلم ابن الزبعرى ذلك كله ولا يجهله ، ولكن الرجل الذى شغف بالجدل يتحكك فى كلمة فيبنى عليها من القصور ما شاء له الهوى وما زينه له الشيطان .

والله تعالى يرينا أن أولئك القوم ماضربوا لك هذا المثل إلا ابتغاء الجدل ، وقد أباح الله الجدل ليكون وسيلة لكشف الحقائق اما أن يصير الجدل غاية لاوسيلة ، ومقصدا لامقدّمة ، فذلك مايذمّه القرآن الكريم ، ويستقبحه العقل السليم .

والقرآن يرينا أن الجدل بالطريق التى هى أحسن لامانع منه ، وقد طالبنا به مع أهل الكتاب إذ يقول (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم و إلهنا و إلهكم واحد ونحن له مسلمون «٤٦» [٣]) .

---

[١] الأنبياء . [٢] آل عمران . [٣] العنكبوت .

ينهانا القرآن الكريم أن نجادل من خالفنا فى الدّين من أهل الكتاب إلا بالطريق التى هى أحسن للخلق والفضيلة ، والوصول إلى الحق ، وأن من ظلم منهم وتخطى الحدود ، ولم يرد الحق ، ندعه ولا نجادله ، لأن الجدل لا يجدى معه ولا يفيد ، وقد يكون ضرره أكبر من نفعه .

وقال تعالى وهو يبين لنا آداب الدّعوة إلى الله تعالى (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إنّ ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين «١٢٥» [1])

ومن ذلك نعلم أن الجدل فيه المحمود والمذموم ، وأنه وسيلة لا مقصد ، وطريق لتعرّف الحقّ ومعرفة ما عند المتخاصمين من شبهة أو حجة ، فاذا صار غاية للرجل وكلف به ، وأصبح خلقا من أخلاقه يتلمسه أنى وجد ، ويخلقه حيث حلّ كان مذموما تمجه النفوس كما تمجّ صاحبه ، لأنه يصبح لا همّ له إلا الكلام والغلب ، وسواء عليه أكان محقا فى ذلك الجدل أو مبطلا .

ولعلّ فى ذلك عبرة لطائفة المحامين الذين تعوّدوا الدّفاع عمن يوكلونهم وان كان الموكل مجرما سفاكا ، ويجادلون خصومهم بالحقّ والباطل ، ولاهمّ لهم إلا إنقاذ موكليهم وان كانوا يعلمون أنهم مجرمون . وقد نهى الله أن نخاصم من أجل خائن ، أو ندافع عن مجرم ، إذ قال (ولا تكن للخائنين خصيما واستغفر الله إنّ الله كان غفورا رحيما « ١٠٦ » ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إنّ الله لا يحبّ من كان خوّانا أثيما «١٠٧» [2]) .

وإذا علم المجرم أن من ورائه من رجال المحاماة من يستطيع إنقاذه من جريمته ، فانه لا يبالى بأعراض الناس ولا بدمائهم أوأموالهم ، يتجرأ على الأعراض فينتهك حرمتها ، وعلى الدّماء فيريقها ، وعلى الأموال فيسلبها أصحابها ، ولو علم أن لا يوجد فى رجال المحاماة من يرضى بالدفاع عن مجرم ، أو الجدل عن خائن ما أقدم على مخالفة القانون إلا وهو خائف وجل ، ولكانت الأمّة أسعد منها اليوم .

وما أحوج رجال المحاماة إلى أن يكتبوا هذه الآية الكريمة على صفحات قلوبهم (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إنّ الله لا يحبّ من كان خوّانا أثيما) .

ولكن ماذا نصنع وقد أصبح المال مشكلة المشاكل ، وعقدة العقد ، وأصبح طلب العيش عذرا لدى الناس يستبيحون فى سبيله ما حلّ وما حرم : رزقنا الله العفة ، وحبينا فيما عنده من ثواب ، وزهدنا فيما يغضبه من مأثم . وقوله (بل هم قوم خصمون) أى لدّ ، شداد الخصومة ، وأبهم اللجاج ، وهو معنى لم يعرف مما سبقه من الآيات ، فقد يكون الرجل مجادلا فى حادثة من الحوادث ، ولكن الجدل لم يصر خلقا من أخلاقه ، فالله يرينا أن هؤلاء أصبحت المخاصمة خلقا من أخلاقهم ، وصار الجدل غرضا من أغراضهم .

(٣) (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) الخ : أى بالنبوّة (وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل) أى مثلا فى الصلاح والتقوى ، أو أمرا عجيبا يسير ذكره كالأمثال السائرة ، والغرض من ذلك تنزيهه عليه السلام من أن ينسب إليه ما نسب إلى الأصنام ، وأن يضرب به ابن الزبعرى مثلا ويقول فيه (ءآلهتنا خير أم هو) وفيه كذلك تنبيه على بطلان رأى من رفعه عن رتبة العبودية ، فكلا

---

[١] النحل . [٢] النساء .

الرأيين خطأ وباطل النزول به الى مرتبة الأصنام ، والصعود به إلى رتبة المعبود ، وما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوّة ، فلم يتخطّ ذلك الحدّ حتى يكون إلها ، ولم ينزل عن عبد أنعم الله عليه حتى يكون فى منزلة الأصنام ، وفيه تعريض أيضا بفساد رأى من يرى رأيهم فى شأن الملائكة صلوات الله عليهم وسلامه .

وعلى التفسير الثانى لقوله (ولما ضرب ابن مريم مثلا) وأنهم لما سمعوا قوله تعالى (إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميا ونحن عبدنا الملائكة — على ذلك التفسير يكون لبيان أنه قياس باطل بباطل ، فعبادتهم للملائكة باطلة كعبادة النصارى لعيسى ، ولافرق بين الملائكة وبين عيسى فى بطلان عبادتهم ، لأن الكلّ عبيد لله تعالى ، فقوله (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) الخ : أى شأنه كسائر العبيد قصارى أمره أنه ممن أنعم الله عليه بالنبوّة ، وخصه ببعض الخواصّ بأن خلقه بوجه بديع ، وقد خلق آدم بوجه أبدع منه ، فأين هومن رتبة الربوبية ؟ ومن أين يتوهم الناس صحة مذهب من يعبده حتى يفتخر عبدة الملائكة بأنهم أهدى منهم ؟ أو يعتذروا بأن حالهم أخفّ من حالهم . وجملة القول أنه تسفيه لأصحاب ذلك القول ، وتخطئة لهم فى ذلك القياس ، وأنه قياس باطل بباطل ، وأن بطلان عبادة المسيح لم يجئ من ناحية أنه أقلّ من الملائكة ، وإنما جاء من ناحية أنه عبد خاضع لله تعالى ، فكلّ من شاركه فى العبودية لايستأهل أن يعبد ، إنما الذى يستحقّ العبادة هو الخالق ، وتخطئة لهم فى قولهم : انهم أهدى من عبدة المسيح ، لأن الهداية قد حرمها الله عابدى المسيح وعابدى الملائكة ، فلم يكن فيهم أصل الهداية ، بل فيهم الضلال البعيد (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون) أى لو شئنا أن نريكم أن عيسى عليه السلام ليس ببدعة من قدرة الله ، وأنه تعالى قادر على أبدع من ذلك وأبرع (لجعلنا) خلقنا بطريق التوالد (منكم) وأنتم رجال (ملائكة) كما خلقناهم بطريق الابداع (فى الأرض) مستقرّين فيها كما جعلناهم مستقرّين فى السماء (يخلفون) أى يخلفونكم فيما تأتون وتذرون ، ويباشرون الأفاعيل المنوطة بكم ، مع أن شأنهم التسبيح والتقديس فى السماء ، فمن كانت له هذه القدرة على الخوارق إلى ذلك الحدّ كيف تنسونه وتعبدون عبدا من عبيده ، وخلقا من خلقه ، لأنه جاء على خلاف المألوف من سنة البشر ؟ وما كان من حقكم أن تفتنوا بعيسى هذه الفتنة ، وتتركوا خالقه ومنشئه ، وما مثلهم فى ذلك إلا مثل من فتن بالكواكب السيارة ، وما أودعه الله فيها من خصائص ومزايا ، فعبدها ونسى خالقها ومسخرها .

ويقول القرآن الكريم فى ذلك (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهنّ إن كنتم إياه تعبدون «٣٧» [١]) .

فعيسى لم يعد أن يكون آية على قدرة الله ونفوذ سلطانه ، وذلك لا يقتضى أن يعبد ، إنما الذى يستحقّ العبادة خالق عيسى وغيره كآدم وخالق الشمس والقمر وغيرهما من الآيات .

(٤) (وإنه لعلم للساعة) أى شرط بفتح الراء ، من أشراطها ، وقرئ علم بفتح اللام : أى علامة ، وكان علما للساعة لحصول علم الساعة به ، أو أنه باعتبار خلقه بغير أب وإحيائه الموتى

---

[١] فصلت .

باذن الله كان دليلا على صحة البعث الذى ينكره الكفرة ، وكأنّ الله تعالى يرينا أنه إذا قدر على بدء الخليقة وفيهم عيسى على ذلك الوجه العجيب فكيف لايقدر على الاعادة ؟ أو إذا أعطى عبدا من عبيده قوّة على إحياء الموتى باذنه فكيف لايقدر هو على إعادتها بعد الموت ؟ (فلا تمترنّ بها) لاتشكنّ فى وقوعها مادام الدليل على صحة البعث قائما ، والحجة ناهضة (واتبعون) اتبعوا هداى (هذا صراط مستقيم) موصل الى الحقّ بعيد عن الضلال (ولا يصدّنكم الشيطان) عن اتباعى (إنه لكم عدوّ مبين) ظاهر العداوة .

(ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة) .

بعد أن تكلم على نشأة عيسى العجيبة ، وتنبيه القوم إلى عدم الافتتان بها ، وتخطئتهم فى تغاليهم فى عيسى عليه السلام قال : ان عيسى لما جاءهم بالمعجزات الواضحة أخبرهم أنه جاءهم بالحكمة والعلم النافع الذى يسعدون به فى دينهم ودنياهم ، والحكمة التى جاء بها عيسى هى مافى التوراة من تشريع ، وما فى الانجيل من مواعظ وأحكام (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) عطف على محذوف : أى لأعلمكم إياها (ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه) من أمور الدين ، لأن شأن الرسل أن يرسلهم الله ليبينوا للناس ما اختلفوا فيه ، و يعرّفونهم الحقّ ليأخذوه و يعملوا به .

ثم أمرهم بتقوى الله وطاعته ، ثم ختم القصة بقوله (إنّ الله هو ربى وربكم فاعبدوه) ولست ربا لكم ولا معبودا ، وانما أنا عبد من عبيد الله خاضع لنظام العبودية العامّة إلا ما اختصنى به من أمر الحمل والولادة ، و إذا ظهر على يدىّ خارق للعادة فانما هو باذنه وتيسيره ، ولاطاقة لى به بدون معاونته (هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى دعوتكم إليه من أنه ربى وربكم ، وأنه هو الذى يعبد منى ومنكم ، وأننى عبد لله خاضع لنظامه ، وقانون عباده هو الطريق المستقيم لايضلّ سالكه ، ومع ذلك البيان الواضح اختلف الأحزاب فى شأن عيسى من اليهود والنصارى ، وقد توعد الله الظالم منهم عذابه وسخطه فى يوم الجزاء .

عيسى عليه السلام

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ «٢٧» . الحديد

شرح وعبرة

(١) (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم) الخ .

يريدنا الله تعالى بهذه الآيات أنه أتبع نوحا وابراهيم ومن كان من الرسل فى ذريتهم رسلا آخرين ، وقفى بعيسى ابن مريم ، وأعطاه الانجيل (وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة) أى وفقهم للتراحم فيما بينهم فلم يجعلهم جبارين ولاغلاظ القلوب ، لتأسيهم برسولهم عيسى عليه السلام الذى قال الله فيه (ولم يجعلنى جبارا شقيا «٣٢» [1]) وهو كقول الله تعالى فى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم «٢٩» [2]) وقوله (ورهبانية ابتدعوها) مفعول لفعل محذوف : أى واختلقوا من عند أنفسهم رهبانية ، ولايصح عطفه على قوله (رأفة ورحمة) لأنه يقتضى أن الله جعل الرهبانية فيهم ووفقهم لها ، وهو لايتفق وقوله (ابتدعوها) .

ومنه نعلم أن دين المسيح لم يكن فيه رهبانية ، وإنما هى مبتدعة فيه كسائر البدع التى يحدثها أهل الأديان ، ويدل لذلك قوله (ما كتبناها عليهم) بل هم الذين فرضوها على أنفسهم فرضا وقوله (إلا ابتغاء رضوان الله) استثناء منقطع : أى انهم ما ابتدعوها واختلقوها إلا طلبا لرضوان الله وزيادة ثوابه لهم ، شأن سائر البدع ، فان أصحابها ينشئونها ويزيدونها فى الدين لابقصد الزيادة والاستدراك على المشرع ، بل بقصد التقرب الى الله تعالى ، كصلاة الرغائب التى ابتدعوها فى أول أسبوع من رجب ، وصلاة الظهر بعد الجمعة ، وكزيادة الصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم بعد ألفاظ الأذان ، إلى غير ذلك من البدع التى أحدثت بعد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد خلفائه الراشدين ، لم يقصد بها أصحابها إلا زيادة الثواب والزلفى إلى الله تعالى ، فالنية حسنة ، ولكن حسن النية لا يكفى عذرا للابتداع فى دين الله تعالى ، ولاغنى للمسلم عن الوقوف عند حد الوارد ، وأخذ العبادة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى أخبرنا قبل انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى أنه أكمل لنا الدين ، وأتم نعمته علينا ، وقد روى عن مالك رضى الله عنه أنه قال : من ابتدع فى الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، لأن الله تعالى يقول (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) ومالم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا .

وان أكثر البدع التى نشأت فى الأديان كانت بحسن نية ، وبقصد التقرب الى الله تعالى ، وجاءت من المبالغة فى التعظيم والافراط فى الثناء ، ألا ترى إلى بعض المؤذنين الجهلة وهو يزيد فى ألفاظ الأذان والاقامة عند قوله (وأشهد أن محمدا رسول الله) كلمة [سيد] والذى حمله على ذلك محبته فى رسول الله صلى الله عليه وسلم واكباره له ، وفاته أن الله تعالى أحرص على توقير الرسول وتعظيمه من حرصه هو ، ولذلك قرن اسمه باسمه فى ألفاظ الأذان والاقامة ، ولم يقبل من أحد الشهادة بالاسلام إلاحيث شهد له بالوحدة ، ولمحمد بالرسالة ، وأن المسألة مسألة عبادة وتقرب إلى الله تعالى ، فينبغى الوقوف عند ماورد ، ولاتصح الزيادة عليه بحال ، ولو أبحنا لكل مخلص فى نيته أن يزيد فى أنواع العبادات ماشاء لفتحنا على الدين بابا من الابتداع لا يمكن أن يغلق ، ولقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبونه فوق محبتنا ، ويجلونه فوق إجلالنا حتى

---

[١] مريم . [٢] الفتح .

ليقف الواحد منهم فى الحروب درأة له يتلقى دونه الحراب ، ومع هذه المحبة الصادقة لم يستبيحوا لأنفسهم أن يبتدعوا فى دينه ، وأن يختلقوا أمورا و يستدركوا على الشرّع ، كيف وقد نهانا رسول الله عن الابتداع ، وأمرنا أن نتبع سنته وسنة خلفائه الراشدين ونعض عليها بالنواجذ .

ولعلّ فى ذلك عبرة لقوم يعتذرون عن بدعهم بأنهم لا يريدون بها سوى مرضات الله تعالى ، والتكثر من ثوابه ، و بأنهم حسنوا النية فى ذلك العمل ، لأن الله لم يعف أصحاب عيسى من الاثم لأنهم ابتدعوا الرهبانية ابتغاء مرضات الله ، ولم يعف الأمّ الجاهلة التى تقدم لابنها المريض الطعام الغليظ من الاثم ابتغاء انتفاعه بذلك الطعام ، ولم يعف الطبيب الجاهل الذى أودى طبه بحياة رجل من الناس من العقوبة لأنه كان حريصا على شفائه مشغوفا بمصلحته ، ولم يعف القانون من خالفه لأنه كان حسن النية طيب السريرة .

كلّ ذلك دليل على أن حسن النية وحده لا يكفى عذرا فى الابتداع فى دين الله ، والاستدراك على التشريع .

ولعلّ منشأ ابتداع النصارى للرهبانيــة تأثير مواعظ المسيح عليــه السلام عليهم فى الزهــد والاعراض عن لذات الدنيا ، مع العلم بأن كلّ رسول يحرض الناس على الزهد والاعراض عن لذات هذه الحياة والاسراف فيها ، وان كانوا يتفاوتون فى هذه الدعوة على حسب تفاوت أقوامهم فى الأمراض النفسية والخلقية ، فبالغوا فى هذه الأوامر التى صدرت من المسيح عليه السلام ، ولجئوا إلى الجبال وتركوا النساء جانبا ، وقيل الذى حملهم على الرهبانية فرارهم من الفتنة فى الدين مخلصين أنفسهم للعبادة ، لأن الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد عيسى عليه الســلام ، فقاتلوهم حتى لم يبق منهم إلا القليل ، فخافوا أن يفتنوا فى دينهم ، فاختاروا الرهبانية ، ومعناها : الفعلة المنســوبة إلى الرهبان وهو الخائف ، فعلان من رهب كخشيان من خشى ، وقرىء : ورهبانية بالضمّ ، كأنها نسبة إلى الرهبان جمع راهب كراكب وركبان .

(٢) وكما نهى دين المسيح عليه الســلام عن الرهبانية ، واعتبرها القرآن بدعة لهم فى ذلك الدّين : نهى الدّين الاسلامى عن الرهبانية فى الاســلام والانقطاع عن النساء ، وأمر المؤمنين أن يتزوّجوا ما داموا قادرين على الزواج ، وقال : إن الزواج سنته صلى الله عليه وسلم ، ومن رغب عن سنته فليس منه .

روى البخارى فى صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه يقول «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبيّ صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبيّ صلى الله عليه وســلم قد غفر الله له ما تقدم من ذنبــه وما تأخر ؟ فقال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا . وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوّج أبدا . فجاء إليهم رسول الله صلى الله عليه وســلم ، فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوّج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (فما رعوها حقّ رعايتها) أى مع أن أتباع المسيح هم الذين فرضوا الرهبانيــة على أنفسهم فرضا ونذروها ، وأن الله لم يكتبها عليهم — مع

ذلك مارعوها حق رعايتها كما يجب على الناذر رعاية نذره ، فكان فيهم الصادق والكاذب ، ولذلك عقبه بقوله (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) وهم سلفهم المخلصون (وكثير منهم فاسقون) وهم خلفهم المراءون .

(٣) وهناك وجه آخر فى فهم الآية هو أن قوله (ابتدعوها) لم يسق مساق الذم لأولئك الأقوام ، بل لارادة أن أولئك الأقوام كانوا أنفسهم مشاق ، فابتدعوا الرهبانية فى المسيحية ، ولم يكتبها الله عليهم فى أصل الدين ، وانما فرضها عليهم بعد أن استحدثوها ، وأنه ماكتبها عليهم إلا ليبتغوا بها رضوان الله و يستحقوا بها الثواب ، فكتبها عليهم ليتخلصوا بها من الفتن فى دين الله ، فما رعوها حق رعايتها ، وانما الذى رعاها بعضهم ، فآتينا المؤمنين الراعين منهم للرهبانية (أجرهم وكثير منهم فاسقون) وهم الذين لم يرعوها .

والعبرة فى الآية على الوجه الأول وهو الذى أميل إليه وأختاره النهى عن الابتداع فى الأديان والوقوف عند مارسم الشارع لنا ، والامتنان على أتباع المسيح بأن جعل فى قلوبهم (رأفة ورحمة) وكأن غلاة المستعمرين فى وقتنا الحاضر ليسوا من أتباع المسيح ، ولايتصلون به فى قليل أوكثير، و إلا فأين رحمتهم بالناس ورأفتهم بهم ؟ وأين آثار تعاليم المسيح فى نفوسهم ؟ أتباع المسيح جعل الله فى قلوبهم (رأفة ورحمة) ولكن غلاة المستعمرين قدت قلوبهم من حديد ، وأكبادهم من فولاذ ، يستبيحون تيتيم الأطفال وتخريب البيوت ، و إراقة الدماء فى سبيل الاستعمار الجشع ، والاحتلال المقوت ، وأين هم من أسلافهم الذين تأثروا بمواعظ المسيح حتى انقطعوا عن ملاذ الحياة ، وحرموا على أنفسهم ماكان مباحا ؟ أين هم من تلاميذ المسيح الذين فروا بدينهم إلى قمم الجبال ، وغليظ العيش ، حتى لايظلمهم أحد ولا يظلمون أحدا ؟ ان المسيح عليه السلام ليبرأ إلى الله من ذلك العمل الوحشى ، ويقول لربه وخالقه حين يسأله عن قومه (ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به) ودعوتهم إليه من الرحمة بالناس و إقامة العدل ، والاصلاح فى الأرض ، والبعد عن الفساد والظلم، ولكن المستعمرين الذين يدعون فى كنائسهم أنهم أشياعى ينسون كل تعاليمى إذاهم وضعوا أقدامهم فى بلد أجنبى منهم ، فتتبدل رأفتهم قسوة ، ورحمتهم غلظة ، وعدلهم ظلما ، وصلاحهم فسادا ، وتأليفهم بين الأفراد والجماعات تفريقا ، يحرصون على أن ينشروا فساد الأخلاق فى البلد الذى أخذوه ، و يمكنوا لأهله وسائل الشهوة ، ليشغلوا الناس بشهواتهم عنهم ، وحتى لايفكروا فى عمل جدى يعود على البلد بالخير ، كما يحرصون على تأليب الناس بعضهم على بعض وجعلهم شيعا وأحزابا ، ليذوق بعضهم بأس بعض ، فيصبح المستعمر هادئ النفس قار الضمير ، لاتقف أمام أغراضه الاستعمارية عقبة من العقبات ، و ياليتهم يعاملون الناس معاملة الانسان لأخيه الانسان ، و إنما يعاملونهم كقطع من الغنم ، لايقيمون لارادتهم وزنا ، ولايعملون لغضبهم حسابا، وكأنهم وكلاء الله فى الأرض وأوصياؤه على الشعوب ، لايخرج شعب من الوصاية إلاحيث اعترفوا له بالرشد ، وأقروا له بالثقافة ، وهيهات أن يعترفوا لشعب من الشعوب ذلك الاعتراف ، وكأن الناس ليسو من أولاد آدم ، فيهم عقل وارادة ، وفيهم رشاد وحزم ، وكأن العلم الذى يزكى النفوس و يثقف العقول وقف عليهم وعلى أبناء جلدتهم ، أهؤلاء أبناء الذين جعل الله فى قلوبهم

(رأفة ورحمة) أهؤلاء سلالة ذلك السلف الطيب القلب الذي لم يقنع بتكاليف الشريعة فأضاف إليها الرهبانية ؟ أم هم سلالة الفاسقين الجاحدين ، وأبناء الظالمين المعتدين ؟ وسوف يحاسبهم الله على ذلك العدوان الصارخ، والظلم البين ، واضطهاد الشعوب بلا ذنب لها في ذلك الظلم إلا أن الله وهب المستعمر القوة ، وسلبها تلك الشعوب الضعيفة ، ومتى يمن الله على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة إصلاح وتهذيب ، ويرى أولئك الظالمين جزاء سوء تصرفهم ، ومغبة استبدادهم ، ان رحمت الله قريب من المحسنين .

عيسى عليه السلام

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِي إِسْرَٰءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ «٦» وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَـٰمِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّـٰلِمِينَ «٧» يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَـٰفِرُونَ «٨» هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ «٩» يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ «١٠» تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَـٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «١١» يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «١٢» وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ «١٣» يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَـَٔامَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَـٰهِرِينَ «١٤» الصف

شرح وعــــبرة

(١) (وإذ قال عيسى ابن مريم) الخ: أى اذكر لهم يامحمد الوقت الذى قال فيــه عيسى ابن مريم (يابنى اسرائيل إنى رسول الله إليكم) .

ثم بين ماجاء به عيسى عليه السلام فى قوله (مصدقا لما بين يدىّ من التوراة) فهو معترف بشريعة موسى وكتابه الذى أنزله الله عليه وهو التوراة ، فكان شريعة له كما كان شريعة لموسى (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

وقد ثبت ذلك فى الانجيل فى عدّة مواضع [١] (فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحرمبين) أى فلما جاءهم عيسى بالمعجزات الظاهرة الواضحة أنكروا عليه الرسالة ، وقالوا ان ماجئت به ســحر واضح ، وليس من المعجزة فى شىء ، فالله يأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكر الوقت الذى دعا فيه عيسى قومه إلى الله وقابلوا دعوته بالانكار ، وآياته بجعلها سحرا وتخييلا لاحقيقة له اذكر يامحمد ذلك لتتسلى بعيسى كما تسليت بمن سبقه من الرسل ، وتصبر على ايذاء قومك كما صبر عيسى على ايذاء بنى اسرائيل و بهتهم له ، وتكــذيبهم اياه ، فلم يقل لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك .

(ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام) أى لا أحد أظلم من رجل يختلق الكذب على الله تعالى و يدّعى أنه أوحى إليــه وهو لم يوح إليه شيئا ، والحال أنه يدعى الى الاســلام ، و ينسب الى الانقياد لله تعالى ، ولايعقل أن يكون عيسى أو غيره من الرســل من أولئك الطائفة التى أفرطت و بالغت فى الخروج عن الحدود ، وادّعت على الله أنه أرســلها وهو لم يرسلها ، أو أنه أوحى اليها ولم يوح اليها شيئا .

ثم عقب ذلك بقوله (والله لايهدى القوم الظالمين) وكأنه يقول : ولو كانت الرسل من ذلك الصــنف ماهداها الله لحقّ ، ولا وفقها لاقامة حجة أو برهان ، مع أن التوفيق رائد الرســل ، والهداية حظهم فى كلّ زمان ومكان ، فدلّ ذلك على أنهم ليسو قوما ظالمين بدعوى الرسالة ، وانما هم مؤيدون من الله تعالى .

(يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولوكره الكافرون) .

رجوع الى خصوم محمد صلى الله عليه وسلم وأعدائه الذين يحاولون بعدائهم للرسول صلى الله عليه وسلم أن يقضوا على مابعث الله به من حق ، وما جعل على يده من هداية بكلمات تصدر من أفواههم ، كقولهم : ان الرسول ساحر أو كذاب ، وهيهات أن تؤثر هذه الكلمات على ذلك النور الساطع ، وهذا الهدى الذى طبق الأرض ، وقوله (بأفواههم) تهكم بهم وتعريض بغباوتهم ، وأن مثلهم فى ذلك مثــل من ينفخ فى نور الشمس بغية ليطفئه ، فاذا كان هــذا النافخ يأمل النجاح فى اطفاء نور الشمس فكذلك هؤلاء (والله متمّ نوره) أى ان الله تعالى أخــذ على

---

[١] انظر كتاب إظهار الحقّ لرحمة الله الهندى .

نفسه أن يؤيد دينه وينصر رسله ، ويعلى كلمة الحقّ (ولو كره الكافرون) ذلك الاتمام فخير لهم أن لايعادوا ذلك الدين ، ولايحاربوا الحقّ ، لأنهم يحاولون عبثا ، ويجهدون أنفسهم فى غير جدوى .

ثم أكد ذلك بقوله (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وهى بشارة من الله تعالى باظهار هـذا الدين على ما سبقه من الأديان جميعها ، لأنه ملائم للفطر ، متفق وحاجات العصر ، وستضطر الناس الى العمل به اضطرارا (ولو كره المشركون) ذلك الظهور ، وهذه الغلبة ، فان الله تعالى لايبالى كراهتهم ، ولا يعمل حسابا لتألمهم ، ثم طالب الناس بتجارة نافعة وعمل نافع مفيد ، هى أن يؤمنوا بالله ورسوله ، ويجاهدوا فى سبيل الله واعلاء دينه بأموالهم ، فيبذلوها عن طيب نفس ، وأنفسهم فلا يشحوا بها فى سبيل الدعوة والرجل الذى يجود بنفسه وماله وهما أعزّ عزيز لديه هو المؤمن حقا ، ولذلك قال (ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم) وأىّ فوز أعظم من هذا ؟ ثم قال (وأخرى تحبونها) ومزية أخرى تحبونها من قرارة نفوسكم (نصر من الله) على الأعداء (وفتح قريب وبشر المؤمنين.) الذين يجودون بنفوسهم وأموالهم فى سبيل مرضات ربهم .

(٢) (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) الخ .

يحث الله تعالى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بأن يكونوا أنصار الله كما كان أصحاب عيسى من الحواريين حين قال لهم من أنصارى إلى الله ، فقال الحواريون : نحن أنصار الله : أى انصروا دين الله مثل نصرة الحواريين عند ماقال لهم ذلك ومناصرة الله تعالى تكون فى العمل بدينه ، والدفاع عن بيضته ، والوقوف عند مارسم من الحدود ، وفى دعوة أصحاب محمد ومن بلغتهم دعوته الى مناصرة الله كما كان الحواريون يناصرون عيسى عليه السلام ــ فى ذلك مايدلّ على أن الحواريين أصحاب عيسى كانوا مؤمنين حقيقة ، ولم يكونوا منافقين ، وكان طلبهم مائدة من السماء عن اخلاص وحسن نيـة ، ولم يكن الغرض احراج عيسى أو اعناته ، وهو أحد الرأيين فى من طلبوا من عيسى مائدة من السماء ، ولو كانوا متعنتين فى طلب المائدة ماطالب الله أصحاب محمد أن يكونوا مثلهم فى مناصرة الله تعالى ، وما جعلهم مثـلا صالحا يتأسى بهم ويقتدى بعملهم ، وقوله (فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة) بيان لسنة الله مع كلّ رسول ، وهى أن يؤمن به فريق ويكفر به فريق (فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين) ترغيب فى الايمان وبيان لعاقبة المؤمنين ، وهى تأييد الله لهم ، وتمكينهم فى الأرض كماقال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين «١٧١» انهم لهم المنصورون «١٧٢» وان جندنا لهم الغالبون «١٧٣» [1]) .

وهذه سنة الله مع أنصار رسـله فى كلّ زمان ومكان ، وهى لاتختلف ولاتتخلف ، جعلنا الله تعالى من أنصار دينه ، المؤيدين لرسله .

---

[١] الصافات .

دعــــوة خاتم الرســــل

محمد

صلى الله عليه وسلم

إلى الله تعـالى

(١) أرانى وأنا قادم على ذلك القسم مقبلا على عمل من أشقّ الأعمال ، إذ أن غايتى من ذلك القسم أن أصوّر للقارئ كيف كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى ، وقد كان لهذه الدعوة عدوّان لدودان : عدوّ بمكة ، وهم مشركو العرب وصناديد قريش ، وعدوّ بالمدينة ، وهم اليهود ، وكيف انتصر محمد صـلى الله عليه وسـلم عليهما جميعا ، ومكن الله لدينه فى الأرض بفضل اعتصامه بالحقّ ، وصبره على الأذى ، وتأديب الله تعالى له .

نعم هى مهمة شاقة أن يتناول مثلى الدعوة المحمدية فيحيط بأطرافها ، ويجليها للناس نقيـة خالصة ، ولـكن الذى هوّن علىّ المهمة أننى لم أرد أن أعرض للدّعوة من الناحية التى عرض لها علماء السـير ، وانمـا أريد أن أعرض لها من طريق القرآن نفسه ، كما عرضت لدعوة من سـبقه من الرسل من هذا الطريق .

أما الأحداث التاريخية التى وقعت له صـلى الله عليه وسـلم ولأصحابه بمكة والمدينة فقد كفانى مؤنة الـكتابة فيها أولئك العلماء ، وبذلك تهون المهمة نوعا مّا ، وتسهل على مثلى ، فقد نقلنا من تاريخ الرسل الذى حدّثنا به القرآن الـكريم قسما كـبيرا ، وشرحناه للقراء شرحا يجلى غامضه ، ويقف بالقارئ له على شىء كثير من العبر فيه ، ويطلعه على سـنن الله فى المصلحين ، وكيف يؤيدهم الله وينصرهم على الرغم من وضع العقبات فى سبيلهم ، ويطلعه على سننه فى المفسدين ، وكيف يخذلهم ويخزيهم ، ويجعلهم عبرة ومثلا لمن يأتى بعدهم .

وكذلك حالنا فى دعوة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى نبين لهم فيها مالاقاه من قومه من عنت وما صادفه من عقبات ، وكيف اخترق ذلك كله بما آتاه الله من صبر وحكمة وما هداه الله اليه من آداب وتعاليم شأن بقية الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

وسأجعل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الدعوة الى الله تعالى قسمين : قسما منها قبل هجرته الى مكة ، وقسما بعد الهجرة ، ثم أبين كيف كانت طريقة الرسول فى مكة ، ثم فى المدينة ثم أبين ماذا دعا اليه فى مكة وماذا دعا إليه فى المدينة ، وما الذى لاقاه فى حياته الأولى وحياته الثانية ، مستشهدا بآيات من القرآن الكريم على كل ذلك .

محمد صلى الله عليه وسلم

دعوته فى مكة

(٢) بعث النبىّ صلى الله عليه وسلم وهو بمكة على رأس الأربعين ، ومدّة اقامته بمكة بعد البعثة اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما من ١٧ رمضان سنة ٤١ من ميلاده إلى أوّل ربيع الأوّل سنة ٥٤ ، وما نزل من القرآن فى هذه المدّة يقال له المكى .

ومكث بالمدينة المنوّرة بعد الهجرة تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، من أوّل ربيع الأوّل سنة ٥٤ إلى تاسع ذى الحجة سنة ٦٣ ومانزل من القرآن بعد الهجرة يقال له المدنى .

المكى والمدنى من القرآن

مجموع القرآن الكريم أربع عشرة سورة ومائة : أوّلها الفاتحة، وآخرها الناس، والسور المدنية هى : البقرة ـ آل عمران ـ النساء ـ المائدة ـ الانفال ـ التوبة ـ الحج ـ النور ـ الأحزاب القتال ـ الفتح ـ الحجرات ـ الحديد ـ المجادله ـ الحشر ـ الممتحنة ـ الصف ـ الجمعة المنافقون ـ التغابن ـ الطلاق ـ التحريم ـ إذا جاء نصر الله .

فجملة أولئك السور المدنية ثلاث وعشرون ، وماعداها وهو مائة و إحدى وتسعون مكية ، والمختار عند العلماء أن المدنى مانزل بعد الهجرة ، وان كان فى غير المدينة ، كالذى نزل فى فتح مكة ، والمكى من السور مانزل قبل الهجرة وان لم يكن فى نفس مكة .

والغالب فى السور المكية أن تكون آياتها قصارا ، ولعلّ حكمة ذلك أن المخاطبين بها مشركو العرب وهم أبلغ العرب وأفصحهم ، وعلى الايجاز مدار البلاغة عندهم ، ومعظم السور المكية زواجر و بيان لأصول الدين بالاجمال .

أما السور المدنية فنى أسلوبها شىء من الاسهاب ، ولاسيما فى مخاطبة أهل الكتاب . لأنهم أقلّ بلاغة وفهما من العرب الخلص ولا سيما قريش ، وفيها بيان مالابدّ منه من الأحكام العملية فى العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية ، والسياسية والحربية ، ولأصول الحكومة الاسلامية والتشريع فيها كما تراه فى طوال المفصل منها كالبقرة والنساء والمائدة .

المكى من القرآن

(٣) أما المكى من السور فهو يدور حول أصول الدين من الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتوحيده فى الألوهية والربوبية ، والايمان بالبعث والجزاء ، والعمل الصالح والدعوة الى الأخلاق .

وقد أفاض القرآن الكريم فى الكلام على أولئك الأمهات ، لأنها أصل الدين وعماده ، فهى جديرة بالعناية ، ولأن من فقد هذه العقيدة ، وهى العقيدة فى الله تعالى ووحدته وجزائه فقد فقد الخير كله ، وليس من دين الله فى شىء ، وفى اعتقادى أن الذى يجرئ الناس على التهاون فى العبادات ، و يوقعهم فى المعاصى ضعف عقيدتهم فى الله من جهة وعده ووعيده ، واعتمادهم على الشفعاء والوسطاء .

ولو أن الناس فهموا عقائد الدين فهما صحيحا ، وتمكنت هذه الأصول من نفوسهم نقية خالصة لكان لهم حال أحسن من ذلك الحال الذى نراه اليوم .

والعبرة للقارئ فى ذلك أن يتأسى بالقرآن الكريم فى عنايته بالعقائد والأمهات ، وجعلها فى المحل الأول ، والعمل على تطهيرها من كل شىء يخالطها ، فانها متى كانت كذلك أتت أكلها كل حين باذن ربها ، و بسطت أشعتها على جوارحه ، فتنهض للخير راضية مطمئنة ، وتبعد عن الشر كذلك ، وكيف لاتكون العقيدة فى تلك المكانة وهى فى القلب الذى جعله الله مهيمنا على الجسد كله ، ورئيسا عليه يصرفه كما يريد ، و يستخدمه كيف شاء .

أليس القلب رئيس الجوارح تصلح بصلاحه وتفسد بفساده ، نعم هو رئيسها وقائدها ، وهو هو الذى يوحى إليها الخير والشر بعد أن يمتلئ بنور الخير أو ظلمة الشر ، فكان من الخير للناس أن يعنى القرآن الكريم بتثبيت عقائدهم ، وتخليصها من الشبه والشكوك ، وجعلها بحيث تقود صاحبها الى سعادته فى دينه ودنياه .

وحدة الله تعالى

(٤) قد أفاض القرآن الكريم فى الكلام على وحدة الله تعالى فى خلقه ورزقه واحيائه واماتته كما أفاض فى الكلام على وحدته فى العبادة ، وأن لايصح أن نعبد غيره أو نلجأ الى سواه .

ولما كانت العرب يعترفون بأنه تعالى هو الذى خلق السموات والأرض ، لم يشأ أن يذكر ذلك النوع من التوحيد إلا على سبيل التذكير بتلك الوحدة ، وحمل القوم على الاعتراف بها . لينقلهم من ذلك الاعتراف الى توحيد الله تعالى فى العبادة ، و إفراده باسلام الوجه له فى هداية قلوبنا ، واغاثة الملهوف منا ، واجابة المضطر ، ومادام الناس موحدين لله تعالى فى خلقه ورزقه . واحيائه واماتته فلماذا لايوحدونه فى عبادته والتوجه إليه ؟ وانى ذاكر نموذجا من دعوة القرآن الى التوحيد وتقبيح الشرك وتسفيه أصحابه .

الآيات

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ «١٤» قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «١٥» مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ «١٦» وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «١٧» الأنعام

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا[1] لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ «١٠٠» بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «١٠١» ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ «١٠٢» الأنعام

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ «١٩١» وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ «١٩٢» وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ «١٩٣» إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «١٩٤» أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ «١٩٥» إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ «١٩٦» وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ

---

[١] اختلقوا .

دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ «١٩٧» وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لاَ يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ «١٩٨» الأعراف

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ «٣١» فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ[١] «٣٢» كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ «٣٣» قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ «٣٤» قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ «٣٥» وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ «٣٦» يونس

وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ «١٠٦» وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ «١٠٧» يونس

يَٰصَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ «٣٩» مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

[١] فأنى تصرفون : أى عن الحق ، وهو المراد بقوله : «تؤفكون» .

سُلْطَٰنٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٤٠» يوسف

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ «١٤» وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ «١٥» قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَٰتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَٰبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَٰحِدُ الْقَهَّٰرُ «١٦» الرعد

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «١٧» وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ «١٨» وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ «١٩» وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ «٢٠» أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ «٢١» إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ «٢٢» النحل

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَارْهَبُونِ «٥١» وَلَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ [١] وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ «٥٢» وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ «٥٣» ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ «٥٤» النحل

---

[١] الدين : الطاعة ، (واصباً) : دائماً ، (تجأرون) : ترفعون أصواتكم .

أَفَأَصْفَيكُمْ (١) رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَـٰئِكَةِ إِنَـٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا «٤٠» وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا «٤١» قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً «٤٢» سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا «٤٣» الاسراء

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً «٥٦» أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا «٥٧» الاسراء

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا «٤١» إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا «٤٢» مريم

أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢) «٢١» لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَـٰنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ «٢٢» لاَ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ «٢٣» أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ «٢٤» وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ «٢٥» وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ «٢٦» لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ «٢٧» يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ «٢٨» وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّـٰلِمِينَ «٢٩» الأنبياء

---

[١] اختصكم . [٢] أي الموتى من قبورهم من نشر الثوب بسطه .

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ (١) بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ «٤٢» أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ «٤٣» بَلْ مَتَّعْنَا هٰؤُلاَءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغٰلِبُونَ «٤٤» الأنبياء

يٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ «٧٣» مَا قَدَرُوا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ «٧٤» الحج

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٨٤» سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ «٨٥» قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ «٨٦» سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ «٨٧» قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ (٢) وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٨٨» سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٣) «٨٩» بَلْ أَتَيْنٰهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكٰذِبُونَ «٩٠» مَا اتَّخَذَ اللّٰهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحٰنَ اللّٰهِ عَمَّا يَصِفُونَ «٩١» عٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهٰدَةِ فَتَعٰلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ «٩٢» المؤمنون

قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلٰمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَاللّٰهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ «٥٩» أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلٰهٌ مَعَ اللّٰهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ «٦٠»

---

[١] يحفظكم . [٢] يجير : يغيث . [٣] تسحرون : تخدعون .

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَا أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ «٦١» أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ «٦٢» أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَٰلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ «٦٣» أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ «٦٤» النمل

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ «٤١» إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٤٢» العنكبوت

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ [1] «٢٢» سبأ

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ «٢» يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ «٣» فاطر

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

[١] معين .

مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ [1] «١٣» إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ «١٤» فاطر

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذٰلِكَ رَبُّ الْعٰلَمِينَ «٩» وَجَعَلَ فِيهَا رَوٰسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوٰتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ «١٠» ثُمَّ اسْتَوٰى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ «١١» فَقَضٰهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحٰى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصٰبِيحَ وَحِفْظًا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ «١٢» فصلت

قُلْ أَرَءَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوٰتِ ائْتُونِى بِكِتٰبٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثٰرَةٍ [2] مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ «٤» وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غٰفِلُونَ «٥» وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كٰفِرِينَ «٦» الأحقاف

الرسالة والجدل فيها

(٥) ان من يتبع نصوص القرآن الكريم يرى أن الجدل فى الرسالة بدأ منذ عهد نبيّ الله نوح عليه السلام ، ثم انتقل من بعده الى قوم هود وثمود ، ومازال كذلك حتى وصل الى عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان جدلهم فيها مبنيا على شبهة توارثها بعضهم عن بعض ، هى أن الرسول لايصحّ أن يكون بشرا يأكل الطعام كما يأكل الناس ، ويمشى فى الأسواق كما يمشون، ويجب أن يكون من صفّ الملائكة ، وإذا لم يكن منهم فليكن معه ملك ليدلنا على صدق ذلك الرسول من البشر .

---

[١] قطمير : لفافة النواة الرقيقة الملتفة عليها . [٢] أثارة : بقية من علم الأوّلين .

وقد تكفل القرآن الكريم بالردّ على هذه الشبهة الواهية ، وبيان أن سنة الله فى جميع الأزمنة أن يرسل الى الناس واحدا منهم ، يختاره لذلك المنصب ، ويصطفيه لهذا العمل .

أما الملائكة فليس من سنته أن تكون رسالة الله للناس على أيديهم من طريق علنى واضح ، لأن الله تعالى لو جعل الرسول من الملائكة لجعله على شكل الرجل ليتناسب مع القوم الذين أرسل إليهم ، وحين ذاك يرجعون الى جدلهم فيه ويلتبس الأمر عليهم .

على أن من سنة الله تعالى أن ينزل الملائكة عند إرادة العذاب بالقوم ، لذلك كله عنى القرآن الكريم بذكر هذه الشبهة والردّ عليها فى سور كثيرة منه .

على أن المسألة مسألة جدل وعناد ، لامسألة شبهة استولت على نفوس القوم فلم يستطيعوا الخلاص منها ولكنّ الله تعالى لم يرد أن يتركهم وشأنهم ، بل عرض لها ولما يدحضها ، وبين أنهم جدّ متعنتين ، ليس من همهم الوصول الى حقّ ، أو الفرار من باطل ، وهذه طائفة من آى الذكر الحكيم تريك مقدار تشبثهم بتلك الشبهة ، كما تريك قيمة الشبهة فى ذاتها .

الآيات

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ «٧» وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ «٨» وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ «٩» الأنعام

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ [1] تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ «٩١» وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ «٩٢» وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ

---

[١] قراطيس : ورقات .

الظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ «٩٣» الأنعام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ «١» أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ [1] عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ «٢» يونس

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ «٢٥» أَن لَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ «٢٦» فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا [2] بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ «٢٧» هود

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ «٩» قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ [3] مُّبِينٍ «١٠» قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ

---

[١] قدم صدق : منزلة رفيعة . [٢] أراذلنا : فقراؤنا ، بادى الرأى : بلا بحث .

[٣] سلطان : برهان .

إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَٰنٍ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ «١١» ابراهيم

وَقَالُوا يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ «٦» لَوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ «٧» مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰئِكَةَ إِلاَّ بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ «٨» إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَٰفِظُونَ «٩» وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى شِيَعِ (١) ٱلْأَوَّلِينَ «١٠» وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ «١١» كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ (٢) فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ «١٢» لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ «١٣» وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (٣) «١٤» لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ (٤) أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ «١٥» الحجر

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً «٩٤» قُلْ لَوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً «٩٥» قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا «٩٦» الاسراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ «١» مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ «٢» لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا

---

[١] شيع : فرق . [٢] نسلكه : ندخله . [٣] يعرجون : يصعدون .
[٤] سكرت : منعت عن الابصار بالسحر .

النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ «٣» الأنبياء

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ «٢٣» فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَٰئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ «٢٤» إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا [١] بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ «٢٥» قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ «٢٦» المؤمنون

وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا «٧» أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا «٨» انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً «٩» تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا «١٠» الفرقان

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا «٢٠» الفرقان

وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ «٤» أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ «٥» وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ

---

[١] تربصوا به : انتظروا .

أَمْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ «٦» مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ «٧» أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ «٨» ص

البعث والجـــــزاء

(٦) وكذلك من أصول العقائد التي أجمعت عليها الشرائع السماوية بعث الناس وجزاؤهم على ماقدموا فى هذه الحياة .

وقد كان النزاع فى ذلك الأصل كبيرا ، ولايزال فريق من الناس ينكرون أن يكون لهم حياة وراء هذه الحياة ، وقد أكثر القرآن الكريم من الرد على هذه الطائفة التى تنكر البعث ، وأقام عليهم الحجة تلو الحجة ، وأراهم أنهم يشاهدون عملية البعث تتكرر على مرأى منهم كل يوم ، إذ يرينا أن من آيات الله أن ترى الأرض خاشعة يابسة ، فاذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت وأن ذلك حياة لها بعد الموت ،وأن الذى أحياها هو الذى يحيي الموتى .

ثم أضاف الى هذه حجة أخرى ، هى أن الحكمة تقضى أن يكون للناس حياة ينتصف فيها المظلوم من الظالم ، والضعيف الذى استغل ضعفه فى هذه الحياة الدنيا ، من القوى الذى ناله شيء من آذاه ، والله تعالى يرينا أن ترك الناس بلا بعث ولانشور هو ضرب من السفه الذى يتنزه الله تعالى عنه ، فكان من الواجب بمقتضى حكمة الله وعدله أن ينشر أجسام الناس من قبورهم ، ويعيد إليهم حياتهم ، ليحصدوا فى تلك الحياة ما زرعوا فى الدنيا ، ويجنوا ثمار ما قدموا (أيحسب الانسان أن يترك سدى «٣٦» ألم يك نطفة من منى يمنى «٣٧» ثم كان علقة فخلق فسوى «٣٨» فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى «٣٩» أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى «٤٠») . من سورة القيامة .

الآيات

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ «٣» وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ[1] وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

[١] صنوان : النخلات يجمعها أصل واحد .

لَآيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ «٤» وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَٰلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ «٥» الرعد

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ [١] لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٣٨» لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ «٣٩» إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَٰهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ «٤٠» النحل

وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا [٢] أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا «٤٩» قُلْ كُونُوا حِجَارَةً [٣] أَوْ حَدِيدًا «٥٠» أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ [٤] إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا «٥١» يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا «٥٢» الاسراء

يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ [٥] وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ

---

[١] جهد أيمانهم : مجتهدين فيها . [٢] رفاتا : فتاتا .

[٣] كونوا حجارة الخ : أى فلا تعاصون على الحياة فكيف إذا كنتم عظاما .

[٤] ينغضون : يحركونها تعجبا واستهزاء . [٥] مخلقة : ملساء من العيب ، (أرذل العمر) : الهرم والخرف ، (هامدة) : ميتة يابسة ، (بهيج) : حسن سارّ .

كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ «٥» ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٦» وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ «٧» الحج

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ «٨١» قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ «٨٢» لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَٰطِيرُ[1] ٱلْأَوَّلِينَ «٨٣» قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ «٨٤» سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٨٥» قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ «٨٦» سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ «٨٧» قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ[2] وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ «٨٨» سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ[3] «٨٩» بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ «٩٠» المؤمنون

وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ «٢٧» الروم

ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا[4] فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ «٤٨» وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ[5] «٤٩» فَٱنظُرْ إِلَىٰ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٥٠» الروم

---

[١] أساطير : أكاذيب . [٢] يجير : يغيث ، ولا يجار عليه : لايغيث أحد منه أحداً .

[٣] تسحرون : تخدعون عن توحيده وطاعته . [٤] كسفاً : قطعاً ، الودق : المطر .

[٥] مبلسين : من الابلاس ، وهو الحزن المعترض من شدة اليأس .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ «٧» أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِۦ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ «٨» أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا[1] مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ «٩» سبأ

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَٰهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ[2] «١١» بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ «١٢» وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ «١٣» وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ[3] «١٤» وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ «١٥» أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ «١٦» أَوَءَابَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ «١٧» قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَٰخِرُونَ[4] «١٤» فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ[5] وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ «١٩» الصافات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ «١» بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ «٢» أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ[6] بَعِيدٌ «٣» قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ «٤» بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ[7] «٥» أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ[8] «٦» وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ «٧» تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ «٨» وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُبَٰرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ[9] «٩» وَٱلنَّخْلَ

---

[١] كسفا : قطعاً «منيب» راجع إلى الله . [٢] لازب : لزج .
[٣] يستسخرون : يبالغون فى السخرية . [٤] داخرون : صاغرون . [٥] زجرة : صيحة .
[٦] رجع : العودة الى الحياة : [٧] مريج : مضطرب .
[٨] فروج : فتائس . [٩] الحصيد : الزرع الذى يحصد .

بَاسِقَٰتٍ[١] لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ[٢] «١٠» رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ «١١» ق

العـــمل الصالح

(٧) من مقاصد القرآن الكريم دعوة الناس الى العمل الصالح ، وهى من آثار الايمان بالله تعالى وجزائه ، والعمل الصالح من دلائل العقيدة الصحيحة ، فان من يقتنع بوعد الله ووعيده ، ولا يخالجه شك فى ذلك الاعتقاد لا يقع فى معصية ، وان وقع فيها كان ذلك على ندور ثم يتوب من قريب ، والقرآن يحدثنا أن الشأن فى المؤمنين أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم بشيء يغضب الله تعالى ذكروا الله تعالى فى وعده ووعيده ، وما أعده للعصاة من عذاب ، فاستغفروا لذنوبهم ولم يصروا على فاحشتهم ، وهم يعلمون أنها تغضب الله تعالى وتستوجب مقته ، فاذا رأينا رجلا مدمنا لمعصية من المعاصى ، وهو مطمئن الى عمله هذا راض به ، كان ذلك الادمان أمارة أنه ليست له عقيدة فى الله صادقة ، وإذا رأينا آخر خلقه الاستقامة ، و إذا وقعت منه سيئة لسبب من الأسباب تاب من قريب ، دل ذلك على أنه صحيح الايمان سليم الاعتقاد .

وجلة القول أن العمل الصالح برهان على صحة العقيدة ، وثمرة من ثمارها فهى تمده وتستمد منه قوتها وثباتها ، فكلما أكثر المؤمن من العمل الصالح قوى اعتقاده فى الله ، وكلما كان اعتقاده فى الله قويا حمله ذلك على العمل الصالح .

وحسبنا أن الله تعالى جعل سعادة المؤمن فى الايمان والعمل الصالح ، ولم يجعلها لصاحب العقيدة ، وهذه آيات القرآن الكريم تدلك على ذلك ، وترشدك الى أن العمل ضرورى للمؤمن ، وأن الجنة لاتنال بغير العمل وأن من يدعى الايمان بالله ثم يعصيه ، ويدمن على ذلك العصيان ، لايبالى الله تعالى بايمانه ولا يقيم لعقيدته وزنا ، لأنها من الوهن والضعف بمكان .

الآيات

وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ «١٣٣» الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١٣٤» وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ

[١] باسقات : طوالا فى السماء . [٢] نضيد : منضود بعضه فوق بعض .

مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ «١٣٥» أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ «١٣٦» آل عمران

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ النَّعِيمِ «٩» دَعْوَٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَٰهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ «١٠» يونس

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٩٧» النحل

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا[1] «١٠٧» خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا «١٠٨» الكهف

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ «٥٥» النور

يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ «١٠» تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «١١» يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «١٢» وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ «١٣» الصف

---

[١] نزلا : ما أعدّ للضيف لينزل فيه .

فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ «٨» يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ (١) وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ «٩» التغابن

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (٢) «١٩» إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا «٢٠» وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا «٢١» إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ «٢٢» ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ «٢٣» وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ «٢٤» لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ «٢٥» وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ «٢٦» وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ «٢٧» إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ «٢٨» وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ «٢٩» إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ «٣٠» فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ «٣١» وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ «٣٢» وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ «٣٣» وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ «٣٤» أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ «٣٥» المعارج

مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ «٤٢» قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ «٤٣» وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ «٤٤» وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ «٤٥» وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ «٤٦» حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ «٤٧» فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ «٤٨» المدثر

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ «٤» ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ «٥» إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٣) «٦» التين

وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ (٤) وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

---

[١] التغابن : يغبن فيه المؤمنون الكافرين لأخذهم منازلهم فى الجنة . [٢] هلوعا : يفسره ما بعده .
[٣] ممنون : منقطع . [٤] حنفاء : مستقيمين على دين ابراهيم .

وَيُؤْتُوا الزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (١) «٥» إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا أُوْلَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ «٦» إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ «٧» جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ «٨» البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ «١» إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ «٢» إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ «٣» العصر

الأخلاق

(٨) من أهمّ مقاصد القرآن نشر الأخلاق والدعوة الى الفضيلة ، وهو يشمل الدعوة الى العمل الصالح والنهى عن المنكرات الظاهرة والباطنة ، كما يتناول آداب الدعوة الى الله تعالى ، وآداب البيوت والمنازل ، وآداب الخدم مع مخدوميهم .

وانك لترى من عناية القرآن الكريم بذلك القسم مايحقر أمامك ماعليه المتمدينون من أدب قل لى بربك أىّ أدب يقارب ذلك الأدب الدينى الذى يلفتنا إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولاعليهم جناح بعدهنّ) .

يطلب الى المخدومين أن يعلموا مماليكهم والذين لم يبلغوا الحلم من أولادهم وخدمهم الاستئذان عليهم فى أولئك الأزمنة الثلاثة ، من قبل صلاة الفجر ، وحين يخلعون ثيابهم للراحة عند الظهر ، ومن بعد صلاة العشاء ، لأن الشأن فيهم فى هذه الأوقات أن يكونوا على هيئة لاتسمح برؤيتهم وقد يقع نظر الخادم أو المملوك على عورة لهم ، ومن أجل ذلك أمروا بالاستئذان عليهم ، لأنها أوقات عورة ، و بعد هذه الأوقات يدخلون عليهم بلا حرج لأنهم مستعدّون لمرورهم بهم .

قل لى بربك أتستطيع المدنية الحاضرة أن تلد لنا مثل ذلك الأدب أو مايقاربه ؟ ولذلك يعقب الله عليه بقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) نعم هى آيات انه أدب الهى وضعه عليم لايجهل ، وحكيم لايعبث .

---

[١] القيمة : الملة المستقيمة .

الآيات

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ [1] نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «١٥١» وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ «١٥٢» الأنعام

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ «٢٤» تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ «٢٥» وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ [2] مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ «٢٦» يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ «٢٧» ابراهيم

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ [3] فِيهِ الْأَبْصَارُ «٤٢» مُهْطِعِينَ [4] مُقْنِعِي [5] رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ [6] «٤٣» وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ «٤٤» وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا

---

[١] إملاق : فقر . [٢] اجتثت : استؤصلت ، وأخذت بجثتها كاملة .
[٣] تشخص : لا تقر فى أماكنها . [٤] مهطعين : مسرعين الى الداع .
[٥] مقنعى : رافعى . [٦] هواء : خلاء من الفهم لفرط الدهشة .

أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ «٤٥» وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ «٤٦» فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ «٤٧» يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوٰتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الْوٰحِدِ الْقَهَّارِ «٤٨» وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ [١] فِي الْأَصْفَادِ [٢] «٤٩» سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشٰى وُجُوهَهُمُ النَّارُ «٥٠» لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ «٥١» هٰذَا بَلٰغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبٰبِ «٥٢» الحجر

إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسٰنِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبٰى وَيَنْهٰى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ «٩٠» وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عٰهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ «٩١» وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكٰثًا [٣] تَتَّخِذُونَ أَيْمٰنَكُمْ دَخَلًا [٤] بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ [٥] أُمَّةٌ هِيَ أَرْبٰى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ [٦] اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ «٩٢» وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وٰحِدَةً وَلٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «٩٣» وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ «٩٤» وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ

[١] مقرنين : قرن بعضهم ببعض . [٢] الأصفاد : القيود .
[٣] أنكاثا : جمع نكث ، وهو حلّ طاقات فتلها . [٤] دخلا : مفسدة .
[٥] أن تكون الخ : أى بسبب أن كانت أمة ، أوفر عددا من أمة أخرى تغدرون فى عهدكم .
[٦] يبلوكم : يختبركم .

خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٩٥» مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٩٦» النحل

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ «١٢٥» وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ «١٢٦» وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ «١٢٧» إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ «١٢٨» النحل

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا «٢٣» وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ[1] مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا «٢٤» رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا[2] صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا «٢٥» وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا «٢٦» إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا «٢٧» وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا «٢٨» وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا[3] «٢٩» إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ[4] إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا «٣٠» وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ[5] نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا «٣١» وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ

---

[١] جناح الذل : جناحك الذليل . [٢] إن تكونوا الخ : كلام جديد لاصلة له بما قبله ، الأوابين : الرجاعين إليه . [٣] محسوراً : نادماً . [٤] يقدر : يضيق . [٥] إملاق : فقر .

فٰحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً «٣٢» وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّٰهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطٰنًا [١] فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا «٣٣» وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً «٣٤» وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً [٢] «٣٥» وَلاَ تَقْفُ [٣] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً «٣٦» وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا [٤] إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً «٣٧» كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً «٣٨» الاسراء

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ «١» الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خٰشِعُونَ «٢» وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ [٥] مُعْرِضُونَ «٣» وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكٰوةِ فٰعِلُونَ «٤» وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰفِظُونَ «٥» إِلاَّ عَلٰى أَزْوٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ «٦» فَمَنِ ابْتَغٰى وَرَاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْعٰادُونَ [٦] «٧» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمٰنٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رٰعُونَ «٨» وَالَّذِينَ هُمْ عَلٰى صَلَوٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ «٩» أُولٰئِكَ هُمُ الْوٰرِثُونَ «١٠» الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ «١١» المؤمنون

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّٰى تَسْتَأْنِسُوا [٧] وَتُسَلِّمُوا عَلٰى أَهْلِهَا ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ «٢٧» فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا

---

[١] سلطاناً : تسلطاً . [٢] تأويلا : عاقبة . [٣] تقف : تتبع .

[٤] مرحا : اختيالا ، إنك لن تخرق الأرض الخ : تهكم به وإشعاره بأنه ضعيف .

[٥] اللغو : ما لا يعني من قول وعمل . [٦] العادون : الكاملون في العدوان .

[٧] تستأنسوا : تستأذنوا .

فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ[1] لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ «٢٨» لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ «٢٩» قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ «٣٠» وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ[2] وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ[3] مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «٣١» النور

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ[4] لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٥٨» وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

---

[١] أزكي : أطهر . [٢] جيوبهنّ : فتحة الثوب التى تدخل فيها الرأس .

[٣] الاربة : الحاجة إلى النساء ، لم يظهروا : يستطلعوا لها لضعف أو صغر .

[٤] ثلاث عورات : من شأن الإنسان أن لا يحتشم فيها ، وذلك أعظم تأديب من الله لنا حق مع الأطفال والمماليك .

حَكِيمٌ «٥٩» وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «٦٠» النور

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ [١] أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ [٢] إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ «٧٦» وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ «٧٧» قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي [٣] أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ [٤] عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ «٧٨» فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ «٧٩» وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ «٨٠» فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ «٨١» وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ [٥] اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ «٨٢» تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ «٨٣» القصص

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَٰبُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ [٦]

---

[١] لتنوء بالعصبة الخ : أى تثقل على الجماعة الأقوياء فكيف بغيرهم . [٢] تفرح : تبطر وتزهو .

[٣] على علم عندى : أى علم بطريق جمع المال ينكر فضل الله عليه فيه .

[٤] ولا يسأل الخ : بل يأتيهم العذاب بغتة . [٥] وى : كلمة تعجب ، كأن : حرف تشبيه .

[٦] ظلم : مجاوزة الحدّ ، وهو تسوية بين خالق ومخلوق .

عَظِيمٌ «١٣» وَوَصَّيْنَا الْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ [١] وَفِصَٰلُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ «١٤» وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ «١٥» يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ «١٦» يَٰبُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [٢] «١٧» وَلَا تُصَعِّرْ [٣] خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا [٤] إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ «١٨» وَاقْصِدْ [٥] فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ [٦] مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ «١٩» لقمان

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٣٣» وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ [٧] فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ «٣٤» وَمَا يُلَقَّىٰهَآ [٨] إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ «٣٥» وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ [٩] مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٣٦» فصلت

يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا

---

[١] وهنا على وهن : تضعف ضعفا فوق ضعف ، فصاله : فطامه .

[٢] عزم الأمور : معزوماتها التى يعزم عليها لوجوبها. [٣] تصعر : تمل تكبراً. [٤] مرحا : اختيالا.

[٥] اقصد : توسط بين الدبيب والإسراع . [٦] اغضض : انقص .

[٧] بالتى هى أحسن : أى بالطريق التى هى أحسن فى الدفع . [٨] يلقاها : يعمل بتلك الخصلة .

[٩] ينزغنك : من نزغه نخسه ، شبه الوسوسة بالنخس .

نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا [١] أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ «١١» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا [٢] وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ «١٢» يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ «١٣» الحجرات

محمد صلى الله عليه وسلم

وظيفتـــــــه

(٩) بعث الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كما بعث غيره من الرسل ليقيم حجة الله على الناس بتبليغ دينه ، وتخويف الناس من عذاب الله تعالى ، وتبشيرهم ، وتعريفهم أنه مابعث ليحوّل قلوبهم من ضلال الى هدى ، فان ذلك الى الله وحده ، وكما بعث صلى الله عليه وسلم للانذار والتبشير بعث ليكون قدوة صالحة فى الخير والفضيلة ، تتأسى به الناس فى عبادة الله تعالى ، وتتأثر طريقه فى حسن الخلق ، لأن الناس من شأنها أن تنظر فى أعمال من يدعونها إلى الخير ، فان رأت منهم وقوفهم عند حدود مايدعون إليه اتبعتهم ، وان رأت عملهم يخالف قولهم نبذتهم ولذلك يقولون ان تأثير العمل على الناس فوق تأثير القول .

فوظيفة الرسول جمعت الى القول العمل الصالح ، والسيرة الطيبة المرضية ، ومن ذلك نعلم أنه من الحق أن يطلب من الرسول أن يكون له كنز أو ملك من ملائكة الله تعالى ، فان ذلك خارج عن حدود وظيفته ، وهى الدعوة الى الله تعالى والصبر عليها ، والصلابة فى الحق ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينه .

الآيات

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ

---

[١] تلمزوا : تعيبوا ، تنابزوا بالألقاب : يتنادى بعضكم بعضاً بما يكره ، بعد الايمان : أى مع الايمان .

[٢] تجسسوا : تبحثوا عن عوراتكم ، أيحب أحدكم الخ : تمثيل لما يناله المغتاب من أخيه على أفحش وجه وأقبحه .

لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «١٨٨» الأعراف

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ «١٢» هود

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «٢١٤» وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «٢١٥» فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ «٢١٦» وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ «٢١٧» الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ «٢١٨» وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ «٢١٩» إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٢٢٠» الشعراء

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ «٩١» وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ «٩٢» النمل

يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا «٤٥» وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا «٤٦» وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا «٤٧» وَلاَ تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ وَالْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً «٤٨» الأحزاب

قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ «٣٩» مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ «٤٠» إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ «٤١» الزمر

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ «١٣» وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ «١٤» فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ «١٥» الشورى

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ «١٨» إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ «١٩» هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ «٢٠» الجاثية

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا «٢٠» قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا «٢١» قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا «٢٢» إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا «٢٣» حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا «٢٤» الجن

محمد صلى الله عليه وسلم
وتربيـــــة الله له

(١٠) ان من يتصدى لذلك المنصب الجليل ، منصب الرسالة ، ودعوة الناس الى الحق ، فى حاجة كبرى الى أن يربى أحسن تربية ، ويهذب بأفضل أنواع التهذيب .

وقد ربى الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فأحسن تربيته ، فقص عليه من سيرة الرسل السابقين مافيه العبرة ، وأراه من سلوكهم مع أقوامهم ما يكفى لتهذيب نفس المصلح ، وترويضها على الخير .

ثم أمره أن يقتدى بهم فى الهدى ويتأسى بهم فى الصبر والاحتمال ، وأن يقول لقومه كما قال أولئك الرسل ، وهو أنه لايسألهم على تبليغ رسالات الله أجرا ، وانما يطلب المثوبة من الله تعالى ، ورسول ذلك شأنه من حق الناس أن تصغى إليه .

وحسبه أن يقول الله له (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين «١٩٩» واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم «٢٠٠» الأعراف) .

ومن وسائل تربية الله تعالى له تزهيده فى زخارف هذه الحياة ، فلا يمد عينيه الى مامتع الله به أصنافا من الخلق ، فان رزق الله له من الحكمة العالية ، والقناعة والرضى ، والآداب ، هو خير له وأبقى من أولئك الزخارف .

وما أحوج الواعظ الى تدبر ذلك النوع من التربية ، وترويض نفسه على الزهد فى هذه الحياة حتى لا يكون همه محصورا فيها ، وحتى لاتفرق عليه شمله ، وتضيع عليه غايته ، وهى الدعوة الى الله تعالى .

وقد تضمن ذلك الباب آداب الدعوة ، وهى أن تكون بالحكمة والمواعظ الحسنة ، وأن يكون الجدال بالتى هى أحسن ، وأن يعتصم صاحبها بالصبر على مايناله من القوم من أذى ، ويعلم أن الله تعالى معينه وناصره ، وأنه بمرأى منه ومسمع ، متأسيا بأصحاب العزم من الرسل .

ولعل فى ذلك العبرة لدعاة اليوم وورثة الرسل ، فلا ييأسون ، ولايتضجرون إذا حل بهم مكروه أو نالهم شىء من جراء الدعوة .

الآيات

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ «٩٠» الأنعام

خُذِ الْعَفْوَ (١) وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَٰهِلِينَ «١٩٩» وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ (٢) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «٢٠٠» إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰئِفٌ (٣) مِنَ الشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ «٢٠١» وَإِخْوَٰنُهُمْ (٤) يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ «٢٠٢» وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا (٥) قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ (٦) مِن رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٢٠٣» الأعراف

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي (٧) وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ «٨٧» لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ «٨٨» وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ «٨٩» كَمَا أَنزَلْنَا (٨) عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ «٩٠» الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ (٩) «٩١» فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «٩٢» عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٩٣» فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ «٩٤» إِنَّا كَفَيْنَٰكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ «٩٥» الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ «٩٦» وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ «٩٧» فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِنَ السَّٰجِدِينَ «٩٨» وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (١٠) «٩٩» الحجر

ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ «١٢٥» وَإِنْ

---

[١] العفو : اليسر من أخلاق الناس ولا تبحث عنها ، العرف : المستحسن . [٢] نزغ : وسوسة .
[٣] طائف : شيء ألمّ بهم . [٤] إخوانهم : إخوانه الشياطين الذين لم يتقوا .
[٥] اجتبيتها : طلبتها من الله تعالى . [٦] بصائر : يبصر بها الحق .
[٧] المثاني : الفاتحة لأنها تكرر في كل صلاة . [٨] كما أنزلنا الخ : أي خصصناك بانزال القرآن كما خصصنا أولئك بانزال العذاب بهم . [٩] عضين : جمع عضه كعده الفرقة ، أي جعلوه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض . [١٠] اليقين : الموت .

عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّٰبِرِينَ «١٢٦» وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ «١٢٧» إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ «١٢٨» النحل

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا [1] «٢٨» الكهف

فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَاءِ [2] الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ «١٣٠» وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَٰجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ [3] فِيهِ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ «١٣١» وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ «١٣٢» طه

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَٰنُ فِي أُمْنِيَّتِهِ، [4] فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَٰتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٥٢» لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً [5] لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ «٥٣» وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخْبِتَ [6] لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُسْتَقِيمٍ «٥٤» وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ [7] مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ «٥٥» الحج

---

[١] فرطا : تقدما على الحقّ ونبذاً له . [٢] آناء : ساعات ، جمع انا بالكسر والقصر ، أو أناء بالفتح والمدّ . [٣] لنفتنهم : لنختبرهم . [٤] أمنيته : ما يتمناه من نصر الحق ، ينسخ : يزيل . [٥] فتنة : ابتلاء . [٦] فتخبت : تخشع . [٧] مرية : شكّ .

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ «٢١٤» وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «٢١٥» فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ «٢١٦» وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ «٢١٧» الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ «٢١٨» وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ «٢١٩» إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٢٢٠» الشعراء

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ «٤٦» العنكبوت

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ «٥٨» كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ (١) اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ «٥٩» فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ (٢) الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ «٦٠» الروم

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ «٥٥» إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ (٣) أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «٥٦» غافر

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ «٣٥» الأحقاف

كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ «٥٢»

---

[١] يطبع : يحول بينها وبين الحق جزاء تعاميها عنه . [٢] يستخفنك : يحملونك على الخفة والطيش بعدم الصبر . [٣] سلطان : حجه .

أَتَوَاصَوْا بِهِ[١] بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ «٥٣» فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ «٥٤» وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ «٥٥» الذاريات

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا[٢] وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ «٤٨» وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ «٤٩» الطور

محمد صلى الله عليه وسلم
وتعنت المشركين معه

(١١) لقد كان تعنت المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واحراجهم له بالغا أشدّه غرّة يقولون له ائت لنا بقرآن غير هـذا القرآن أو بدّله ، فيعتذر لهم أن ليس فى استطاعته أن يبدّله من تلقاء نفسه، لأنه متبع لامبتدع، ويريهم أنه لولا مشيئة الله أن يكون رسولا ماتلاه عليهم ويستشهد على ذلك بأنه مكث فيهم دهرا طويلا قبل النبوّة لم يحدّثهم فيه بشىء ، وذلك برهان أن ذلك الكتاب من عند الله لامن عنده .

وأحيانا يقترحون عليه أن يأتيهم بملائكة تشهد له بالصدق ، وتدلّ الناس على أنه رسول من عند الله ، فيريهم أنه ليس من سنة الله تعالى أن يبعث مع الرسل ملائكة يمشون مطمئنين على الأرض ليكونوا دلائل صدق الرسل .

ومرّة ينكرون أن يكون الرسول من جنس البشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، فيريهم أن ذلك هو سنة الله تعالى فى الرسل الماضين .

وآونة يقولون له لن نؤمن لك حتى تفجر لنا ينبوعا من الأرض، أوتكون لك جنة من نخيل وعنب ، أو تسقط السماء قطعا على أعدائك ، أو تأتى بالله والملائكة ليقابلوا الناس ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أوتصعد الى السماء ، ثم بعد صعودك تنزل علينا كتابا نقرؤه ، ويكون مؤيدا لدعواك ، فيجيبهم الرسول بقوله (سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا) وهذه الآيات لايعملها الا إله ، فليست من عملى .

دع مايرمونه به من السحر والجنون ، وأنه نقل كتابه من خرافات الأوّلين وأساطيرهم .

وقد أخبر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن أولئك المعاندين ميؤوس من إيمانهم فلا تطمع فى هدايتهم ، وأنه تعالى لو أنزل عليهم كتابا فى قرطاس كما طلبوا فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا إلاسحر مبين ، وكذلك لوأجابهم الى ماطلبوا من تنزيل الملائكة ، بل

[١] أتواصوابه : أى أوصى أولئك المفسدون بعضهم بعضاً بالاستهزاء بالرسل والطعن عليهم بالسحر والجنون .
[٢] بأعيننا : تحت رعايتنا فلا ننساك ولا نسلطهم عليك .

لوأحيي الله الموتى وشهدت بصدق محمد ، وجمع لهم من الأدلة والبراهين كلّ شيء طلبوه ، ما كانوا ليؤمنوا ، لأنهم معاندون ، والمعاندلايقنع بشيء ، لأنهلايطلب حقا ، و إنما يبغي الاعنات والاحراج ولوكان يطلب الحقّ لكفاه مانصبه الله من الأدلة ، وما أيد الله به رسوله من البراهين ، وحسبه أنه أميّ نشأ بين الأميين ، ومكث أربعين سنة على ذلك الحال ، ثم أنطقه الله بالحكمة العالية ، وذلك الكتاب المعجز الذى تحدّى الله به العرب ، وسجل عليهم العجز عن الاتيان بمثله ، بل بعشر سور منه ، ثم تحدّاهم بسورة واحدة .

كان يكفيهم ذلك لوكانوا يطلبون الحقّ ، ولكنهم قوم خصمون كما وصفهم الله تعالى ، والمجادل الذى يحب الجدل للجدل لاللحقّ ليس فى طاقتك اقناعه .

وهذه طائفة من القرآن الكريم تريك مقدار تعنت القوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتريك أن أولئك لاسبيل الى هدايتهم بحال .

الآيات

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ [١] فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ «٧» وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِىَ الْأَمْرُ [٢] ثُمَّ لَايُنْظَرُونَ «٨» وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا [٣] وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ «٩» وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ «١٠» الأنعام

وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَٰئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا [٤] مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ «١١١» الأنعام

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِىَ [٥] رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ [٦] عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ «١٢٤» الأنعام

---

[١] قرطاس : ورق ، فلمسوه : حتى لا يقولوا انه مزوّر .
[٢] لقضى الأمر : أى لحقّ إهلاكهم . لأن ذلك سنة الله إذا أجاب قوما فى اقتراحهم فلم يهتدوا .
[٣] لجعلناه رجلا : على شكل الرجل ، وعند ذلك يختلط عليهم الأمر فيعودوا الاقتراح كما بدؤا .
[٤] قبلا جمع قبيل : كفلاء بما بشروا به أو جماعات . [٥] مثل ما أوتى : من الوحى .
[٦] صغار : ذلة .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ «١٥» قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ «١٦» فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ «١٧» يونس

وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ «٦» لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ «٧» مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا إِذًا مُّنظَرِينَ «٨» إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ «٩» وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ [1] ٱلْأَوَّلِينَ «١٠» وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ «١١» كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ [2] فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ «١٢» لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ «١٣» وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ «١٤» لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ [3] أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ «١٥» الحجر

وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا «٩٠» أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا «٩١» أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا [4] أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا «٩٢» أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ [5] أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا

---

[١] شيع : فرق ، جمع شيعة . [٢] كذلك نسلكه : على هذا النحو ، ندخله ، وفسره بقوله : لا يؤمنون به . [٣] سكرت : سدّت عن الابصار من أجل السحر .

[٤] كسفاً : قطعاً ، قبيلا : جماعات . [٥] زخرف : ذهب .

كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولاً «٩٣» وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً «٩٤» قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ [1] لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً «٩٥» قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا «٩٦» الاسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ «١» مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ [2] إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ «٢» لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ «٣» قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٤» بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ [3] بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ «٥» مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ «٦» وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ «٧» وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ «٨» ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ «٩» الأنبياء

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا «٤» وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً «٥» قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا «٦» وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ

[١] مطمئنين : ساكنين كالبشر . [٢] محدث : جديد لم يألفوه .
[٣] أضغاث أحلام : تخاليطها جمع ضغث ، وهو ماجمع من أخلاط النبات .

لَوْلَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا «٧» أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا «٨» انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا [١] فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا «٩» تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا «١٠» الفرقان

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً [٢] أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا «٢٠» وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا «٢١» يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ [٣] يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا [٤] «٢٢» الفرقان

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا «٤١» إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا «٤٢» الفرقان

وَقَالُوا لَوْلَآ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْأَيَٰتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ «٥٠» أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «٥١» قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ «٥٢» العنكبوت

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ

---

[١] فضلوا : بضرب هذه الأمثال ، ومنها أنه مسحور العقل ، وفيه ردّ لحديث السحر ، ودليل على عدم صحته لأنه يخالف الآية . [٢] فتنة : ابتلاء . [٣] لا بشرى : لحلول العذاب بهم .

[٤] حجراً محجوراً : كلمة استعاذة تقال عند لقاء عدو أو مكروه يطلبون بها من الله أن يمنع لقاءهم منعا .

عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ (١) مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ «٤٣» وَمَا ءَاتَيْنٰهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا (٢) وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ «٤٤» وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا (٣) مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنٰهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤) «٤٥» قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوٰحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنٰى وَفُرٰدٰى (٥) ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ «٤٦» قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ «٤٧» قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ (٦) عَلّٰمُ الْغُيُوبِ «٤٨» قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ «٤٩» قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلٰى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ «٥٠» سبأ

كِتٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايٰتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «٣» بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ «٤» وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ (٧) مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ (٨) وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عٰمِلُونَ «٥» فصلت

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْءَانُ عَلٰى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٩) «٣١» أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ

---

[١] إفك : كذب . [٢] من كتب يدرسونها : أى تدلهم على شبهة فى كفرهم .

[٣] وما بلغوا : الضمير لكفار مكة . [٤] نكير : إنكارى .

[٥] مثنى وفرادى : جماعات ووحداناً . [٦] يقذف بالحق : يرمى به الباطل فيدمغه .

[٧] أكنة : أغطية ، جمع كنان . [٨] وقر : صمم . [٩] عظيم : بالجاه والمال .

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا [1] وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ «٣٢» وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً [2] لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ «٣٣» وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ «٣٤» وَزُخْرُفًا [3] وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ «٣٥» الزخرف

محمد صلى الله عليه وسلم
وتسلية الله تعالى له

(١٢) بعد ذلك العنت الذى لقيه من قومه ، واقتراح الآيات ، كان فى حاجة الى تسلية الله تعالى له ، و بيان أن ذلك سنة الله مع كلّ رسول ، ومتى عرف أن ذلك لم يكن خاصا به ، و إنما هو عادة الناس مع كلّ رسول ، فانه يصبر و يتسلى .

ثم أراه أنه ان كان قد عزّ عليه اعراض المشركين عن دعوته ، وانكارهم لنبوّته ، فلاغنى له عن الصبر والاحتمال ، ولواستطاع أن يطلب سربا فى الأرض يخلص به من أولئك القوم ، أو سلما فى السماء فيأتيهم بآية تخضع لها أعناقهم فليفعل ، نخيرله أن يرضى ، وأن لاتذهب نفسه عليهم حسرات .

ولو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لفعل ، ولكنّ حكمة الله قضت بأن يضلّ أمثال أولئك المتعنتين ، لأنهم لايريدون الحقّ ، ولايعملون للوصول إليه ، وعطلوا مواهب الله فيهم ، وأهملوا سمعهم وأبصارهم وعقولهم ، فكانوا أحقّ بذلك العقاب فى الدنيا من حرمانهم من الهدى ، والشقاء فى الآخرة بفقدهم السعادة .

وما أحوج المصلح الى تدبر ذلك النوع من الكتاب الكريم ، ليتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، و يصبر على ايذاء القوم و بلائهم ، لأن ما يصيب الرسل من جرّاء الدعوة الى الله يصيب أتباعهم ، فلذا كان من حقهم أن يتبعوا طريقهم ، ويتسلوا تسليتهم ، و يوقنوا بأن هذه سنة الله فيمن سبقهم .

الآيات

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ

---

[١] سخرياً : يسخره فى مصالحه . [٢] أمة واحدة : على ملة واحدة ، وهى الكفر .
[٣] زخرفاً : ذهباً .

بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ «٣٣» وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِي الْمُرْسَلِينَ «٣٤» وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا [١] فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ «٣٥» إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ «٣٦» الأنعام

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ [٢] وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ [٣] «٩» قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ [٤] مُبِينٍ «١٠» قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ «١١» وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ «١٢» وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ «١٣» وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ «١٤» إبراهيم

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى [٥] أَلْقَى الشَّيْطَانُ [٦]

---

[١] نفقاً : منفذاً . [٢] فى أفواههم : الضمير للرسل ، أى أسكتوهم عن الكلام .
[٣] مريب : موقع فى الريبة . [٤] سلطان : حجة . [٥] تمنى : أى نصر الحق .
[٦] الشيطان : شيطان الإنس ، أمنيته : ما يتمناه .

فِي أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ [1] ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٥٢» لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً [2] لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ «٥٣» وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِۦ فَتُخْبِتَ [3] لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ «٥٤» الحج .

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا «٣٠» وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا «٣١» الفرقان

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ «٣٤» وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ «٣٥» قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ «٣٦» وَمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَلَا أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ «٣٧» وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ «٣٨» سبأ

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ «٤» فاطر

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ «٤١» لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ «٤٢» مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ «٤٣» فصلت

---

[1] ينسخ : يزيل . [2] فتنة : اختبارا ، مرض : شك . [3] تخبت : تطمئن .

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ «٦» وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ «٧» فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ [١] «٨» الزخرف

وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا [٢] إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ [٣] وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِمْ مُقْتَدُونَ «٢٣» قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَٰفِرُونَ «٢٤» فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ «٢٥» الزخرف

كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ «٥٢» أَتَوَاصَوْا بِهِ [٤] بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ «٥٣» فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ «٥٤» وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ «٥٥» الذاريات

الصـــــــلاة

(١٣) فرضت الصلاة المعروفة قبل الهجرة بقليل فى مكة ، وقد اهتم القرآن بها فوق اهتمامه بسائر المأمورات ، و بين افتراضها بأساليب شتى ، فتارة بالأمر الصريح ، وتارة بالثناء على فاعليها والذم لتاركيها ، ولم يبين القرآن صريحا أعداد الصلوات ولا أعداد الركعات ، و إنما ذكر أوقاتها اجمالا ، وقد بينت السنة الكيفية عملا ، فكان عليه الصلاة والسلام يصلى بالمسلمين الصلوات الخمس والمسلمون وراءه جماعات ، وقال لهم «صلوا كما رأيتمونى أصلى» .

ولأن الصلاة لها أهميتها لم يسقطها الله عن المسلمين لافى أمن ولافى خوف ، فأوجبها فى ساحة القتال ، ليذكروا بها ربهم ، وتقوى بها عزيمتهم ، وأباح للمسافر أن يقصرها ، وللمحارب أن يصلى كيف أمكنه (و إذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ان الكفرين كانوا لكم عدوّا مبينا «١٠١» و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم — فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا «١٠٣» [٥]) .

---

[١] مثل الأولين : صفتهم فى إهلاك الله لهم ، فقومك كذلك . [٢] مترفوها : متنعموها .
[٣] أمة : ملة . [٤] أتواصوا به : كأن الأوّلين والآخرين أوصى بعضهم بعضاً بذلك القول حتى قالوه جميعا ، بل هم الخ : إضراب نظراً لبعد الزمنين . [٥] النساء .

ولعلّ فيه عبرة لقوم يتكاسلون عن الصلاة ، لأنهم لايعرفون لها من الأهمية ماجعله الله لها ، فلم يسقطها حتى فى حالة الحرب .

ثم أوجب لها الطهارة من الحدث والخبث ، وأمرنا أن نأخذ الزينة عند كلّ مسجد ، وقد اهتمّ القرآن بذكر صلاة الجمعة لأنها شعيرة كبرى ، ورابطة من أكبر الروابط بين المسلمين ، وقد شرط لها الجماعة ، لتكون مظهرا من مظاهر الوحدة ، وأمر الناس أن يسعوا إليها إذا نودى لها من يوم الجمعة ويتركوا مابأيديهم من عمل (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون «٩» [1]) .

وكانت فرضية الجمعة بالمدينة بعد استقرار أمر المسلمين واستتباب الأمر لهم ، وقد بين النبيّ صلى الله عليه وسلم ركعاتها وخطبتها بالعمل ، وكان يوم الجمعة فى ذلك العهد يوما عظيما للمسلمين تستعرض فيه أعمالهم ومصالحهم الدينية والدنيوية ، وشئونهم فى الحرب والسلم ، فكانت المساجد مجمعا عاما يحضر فيه الناس ، ويسمعون ماينفعهم ويفيدهم .

فكان الرجل من المسلمين يقصد الى المسجد فى ذلك اليوم ، فيخرج منه وقد تزوّد بنصائح غالية وشهد مجمعا من مجامع المسلمين الحافلة بالعظات والعبر ، فيشعر وهو خارج من المسجد أنه قد ازداد بذلك الجمع إيمانه ، وقوى يقينه ، وعلت همته ، لأنه يرى قومه على أحسن مايتتظر لهم ، من تأسيهم بامام واحد يصلون الى قبلة واحدة ، ويعبدون الها واحدا ، على ملة رسول واحد ، وذلك العمل بتكرره كلّ أسبوع من شأنه أن يوحد القلوب ، ويربط بين الأشخاص المختلفة ، وبذلك يصبحون عبادا لله اخوانا ، لايتباغضون ، ولايتحاسدون .

محمد صلى الله عليه وسلم

هجـــــرته

(١) لقد أفاض علماء السير فى الكلام على هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة المكرّمة الى المدينة المنوّرة وأسبابها ، وهى على كثرتها ترجع الى تتابع أذى قريش عليه وعلى أصحابه من جرّاء دينهم وعقيدتهم ، ودعوة الناس الى ذلك الدين ، حتى اضطروهم الى أن يهاجروا الى الحبشة بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين .

ولما اشتدّ بهم الأذى ، وضيقت قريش عليه وعلى أصحابه الخناق ، حتى أصبحوا يحاربونهم فى أرزاقهم ، ويحملون قريشا على مقاطعتهم فى وسائل الحياة ، ودبروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤامرة ليقتلوه ، وان كان تدبير الله فوق تدبيرهم (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين «٣٠» [2]) .

حين ذاك أذن الله له بالهجرة ومعه صديقه الأكبر أبو بكر رضى الله عنه فأنجاه الله من مكرهم ،

---

[١] الجمعة . [٢] الأنفال .

وكان له من الهجرة خير نصير على اعلاء دين الله ، وحماية الحق (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما [١] كثيرا وسعة «١٠٠» [٢]) .

محمد صلى الله عليه وسلم

دعوته بالمدينة ، لليهود والنصارى

(٢) لقد أفاض القرآن فى القسم المكى منه فى محاجة المشركين من العرب وتسفيه أحلامهم فى عقائدهم الوثنية ، وأقام الأدلة على وجوب توحيد الاله فى العبادة كما هو واحد فى الخلق والرزق وكذلك أفاض فى الكلام على الشبه التى لاكتها ألسنتهم فى الرسالة ، والكلام على البعث والجزاء ، وقد أريناك مقدار عناية القرآن بأولئك الأقسام فى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة ، أما فى المدينة فكان أكبر همه التشريع الدينى والمدنى والسياسى ، و بيان نظام المعاملات ونظام الأسر والبيوت وما الى ذلك .

غير أنه لما كان فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى فريق دخل عليه الشرك فى العقيدة كما دخل على مشركى مكة ، وكان فيهم من يتغالى فى رسول الله عيسى حتى أخرجه من صف البشر ، وكان يتخذ من الآيات التى أيده الله بها فى صغره وفى نشأته تكأة يعوّل عليها فى ذلك الشرك ، وكان من اليهود أيضا من تغالى فى بعض البشر كالعزير حتى قال انه ابن الله (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) .

لما كان فريق من اليهود والنصارى دخل عليهم الشرك ولم يبق لهم توحيد صحيح ، اهتم القرآن الكريم ببيان أمر أولئك ، فمرة يبلغهم العقيدة بأسلوب بين واضح على طريقته فى بيان العقائد ، ومرة يحاججهم و يناقشهم فيما هم عليه علهم يفقهون أمر التوحيد ، و يقيمونه كما أمره الله ، ومرة يوجه أسئلة لنبى الله عيسى فى الآخرة يسأله فيها — وهو أعلم بما عند نبى الله عيسى — أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ؟ فيجيبه بكلمات التنزيه والتقديس ، و يقول له ما أمرتهم إلا بعبادتك وحدك ، وأنا برئ من كل شرك يقع من أحد توابعى .

وهاك طائفة من القرآن الكريم يخاطب الله بها أهل الكتاب ، و يصحح بها أخطاءهم ، و يرشدهم بها الى التوحيد الصحيح .

الآيات

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ «٥٩» ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ «٦٠» آل عمران

---

[١] طريقاً يرغم به قومه على نصر مبادئه . [٢] النساء .

قُلْ يٰأَهْلَ الْكِتٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ «٦٤» آل عمران

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلٰكِنْ كُونُوا رَبَّٰنِيِّينَ [١] بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتٰبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ «٧٩» وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلٰئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ «٨٠» آل عمران

يٰأَهْلَ الْكِتٰبِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ [٢] أَلْقٰهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلٰثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلٰهٌ وٰحِدٌ سُبْحٰنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً «١٧١» لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلٰئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا «١٧٢» فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا «١٧٣» النساء

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ

---

[١] متخلقين بأخلاق الربّ . [٢] كلمة البشارة من جبريل لأمه ، أطلق عليه كلمة ، لأنه ليس له أب فنسب إلى كلمة البشارة ، وروح : رحمة من الله .

شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «١٧» وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصٰرٰى نَحْنُ أَبْنٰؤُا اللَّهِ وَأَحِبّٰؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ «١٨» المائدة

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يٰبَنِي إِسْرٰءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوٰهُ النَّارُ وَمَا لِلظّٰلِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ «٧٢» لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلاَّ إِلٰهٌ وٰحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٧٣» أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٧٤» مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيٰتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنّٰى يُؤْفَكُونَ «٧٥» قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٧٦» قُلْ يٰأَهْلَ الْكِتٰبِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ «٧٧» المائدة

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلّٰمُ الْغُيُوبِ «١١٦»

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ «١١٧» المائدة

محمد صلى الله عليه وسلم ، والقتال

(٢) مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث عشرة سنة قائماً بالدعوة الى دينه، وهو يصبر على صنوف الأذى ، والفتنة له ولأصحابه ، مما اضطر المسلمين الى أن يهجروا مكة فرارا بدينهم الى بلاد الحبشة ، الى أن أذن الله له بالهجرة الى المدينة المنورة ، ثم أذن الله له بالقتال بعد أن مضى الشطر الأول من حياته الدينية ولاسلاح له سوى اعتصامه بالصبر ، وتسليته بمن سبقه من الرسل ، والسور المكية حافلة بضروب السلوى ، وقد عرضنا لها فى الكلام على الدعوة فى مكة .

وانك لو تأملت مايقصه الله عليه من أسباب القتال لعلمت أنه لم يشرع له القتال محبة فى اراقة الدماء ، أو تخريب البيوت ، أو تيتيم الأطفال ، و إنما شرعه على علمه تعالى بما فيه من اضرار لدفع ضرر أشد .

شرعه الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليدفع عن نفسه و عن أصحابه أنواع التعذيب التى كان يلقاها المسلم من جراء عقيدته ، ليرجع عن دينه الذى اعتنقه واختاره لنفسه ، كما وقع لعمار بن ياسر و بلال ، وكثير من الصحابة الذين أسلموا أيام قلة المسلمين ، فكانوا يذيقونهم ألوانا من العذاب ، و يقولون لهم لاتزالون هكذا حتى تكفروا بمحمد ودين محمد ، فشرع الله القتال ليكون الناس أحرارا فيما يختارون لأنفسهم من العقائد ، لا لاكراههم على الدين كما يظن فريق من الناس ، لأن الله تعالى يقول (لا اكراه فى الدين «٢٥٦» [1]) .

ولولا أن الله تعالى أباح للناس أن يدفعوا الشر بالشر ، والعدوان بالعدوان ، ماثبت حق فى الأرض ، وماعبد الله بنوع من أنواع العبادة .

أذن الله لنبيه أن يقاتل قوما أخرجوه من بلده ، وحالوا بينه و بين وطنه ظلما وعدوانا ، ولاذنب له إلا إيمانه بربه ، واعتصامه بالحق الذى بعث به (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير «٣٩» الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز «٤٠» [2]) .

أذن الله لرسوله بالقتال حتى تكون الدعوة الى الله حرة ، لايقف أحد فى سبيلها ، وحتى

---

[١] البقرة . [٢] الحج .

يكون الناس آمنين على أنفسهم وعقائدهم من سلطان الباطل ، وزلزلة الطغيان ، ولذلك جعل الله للقتال غاية ، وهى أن لا تكون فتنة للناس فى عقائدهم ويكون الناس أحرارا فيما يختارون (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله «٣٩» [1]) فلا يقف شىء فى سبيل الدعوة إليه .

وآية أن القتال لم يرد منه اكراه الناس على الدين أن الله تعالى خصه بالمعتدين إذ يقول (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين «١٩٠») .

ثم يختم الآية بقوله (فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين «١٩١» فان انتهوا فان الله غفور رحيم «١٩٢» [2] الخ الآيات ، ويقول (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم «٦١» [3])وقال(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين «٨» انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون «٩» [4]).

وجملة القول أن القتال لم يشرع لحمل الناس على الاسلام بسلطان القوة ، فان العقيدة ليس من شأنها أن تعتمد الاكراه ، وإنما تعتمد الاقناع ، ولو كان طريق الدعوة الى الاسلام هو السيف كما يزعم خصوم الاسلام فليحدثونا أين كان ذلك السيف أيام اقامة الرسول بمكة وسيف التعذيب مصلت على رقاب أصحابه من قريش ، والناس تدخل فى دينه على الرغم من ذلك البطش القاهر ، وأين كان ذلك السيف وهو يمر بأصحابه وهم يعذبون فلا يستطيع أن ينقذهم من العذاب ، ويأمرهم بالصبر ، ويعدهم الجنة ، كما وقع لعمار بن ياسر ، مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش تعذبه فقال «صبرا آل ياسر صبرا آل ياسر ان موعدكم الجنة» .

نعم كان مع محمد صلى الله عليه وسلم فى ذلك الحين قوة فوق قوة السيف ، وسلطان لا يعلوه سلطان ، ألا وهو قوة الحق الذى أتى به ، وسلطان الحجة والبرهان الذى تملك القلوب ، فاستخف بكل شىء ينالها فى ذلك السبيل ، فان كان هناك اكراه على الدين فهو ذلكم الاكراه ، وان كان فى يد محمد سيف فهو ذلكم السيف الصارم الذى لا تستطيع قوة فى الأرض أن تقف فى سبيله ، والى القارئ طائفة من آى القرآن الكريم فى القتال والغاية منه .

الآيات

وَقَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ «١٩٠» وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ [5] وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ [6] أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ «١٩١» فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ

---

[١] الأنفال . [٢] البقرة . [٣] الأنفال . [٤] الممتحنة .

[٥] ثقفتموهم : وجدتموهم . [٦] الفتنة : صرف الناس عن عقائدهم بأنواع العذاب .

غَفُورٌ رَحِيمٌ «١٩٢» وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى الظَّٰلِمِينَ «١٩٣» الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَٰتُ [١] قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ «١٩٤» البقرة

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَٰنِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا «٧٥» الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ [٢] فَقَٰتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا «٧٦» النساء

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «٣٩» الأنفال

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «٥٥» الَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ «٥٦» فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ [٣] لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ «٥٧» وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ [٤] إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ «٥٨» وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ «٥٩» وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ [٥] وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ

---

[١] الحرمات : ما يجب احترامه ، قصاص : يقتصّ بمثلها إذا انتهكت . [٢] الطاغوت : الباطل .

[٣] فشرّد بهم من خلفهم : اهزمهم هزيمة منكرة ليكونوا عبرة لمن وراءهم من العدو .

[٤] على سواء : مستوياً أنت وهم فى العلم بنقض العهد . [٥] قوّة : نكر القوّة لأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان ، أما الخيل فهى عظمة فى كلّ وقت تعتزّ بها الأمم ، ولذلك ذكرها بالنص .

لاَ تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ «٦٠» وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ «٦١» الأنفال

وَإِن نَكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ «١٢» أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ «١٣» التوبة

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ «٣٩» ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ [١] وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ «٤٠» الحج

لاَ يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ «٨» إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا [٢] عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ «٩» الممتحنة

التحريض على القتال

(٣) علم الله أن القتال ضرورة من ضرورات حماية الدين لصدّ عدوان الباطل، وكبح جماح الشهوة ، فأذن به وأوجبه ، وعلم أنه شاقّ على النفوس ، فدعا إليه ، وحبب الناس فيه .

---

[١] صوامع : معابد الرهبان ، بيع : كنائس النصارى ، صلوات : كنائس اليهود بالعبرية .

[٢] ظاهروا : عاونوا .

وقد سلك القرآن الكريم فى سبيل الدعوة إليه أساليب شتى ، ووسائل مختلفة ، فمرّة يلجأ الى العواطف فيحركها ، والى النفوس فيلهب فيها الغيرة ، والحمية ، ويريها أن ليس من الكرامة أن يقف الناس من أولئك الاهانات التى تقع على المستضعفين من الرجال والنساء والولدان موقف الخور والجبن ، بل عليهم أن يدفعوا عنهم كلّ ماينالهم من أذى ، و يعترضهم من ضرر ، إذ يقول (وما لكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا «٧٥»).

ومرة يضرب لهم الأمثال بقوم تركوا ديارهم على كثرتهم خوفا من الموت . فضرب الله عليهم الذلة ، وأماتهم موتا أدبيا ، ولما تنبهوا لما يجب عليهم ، وأخذوا فى وسائل الحياة ، وحماية الحقّ والحقيقة أحياهم حياة طيبة (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون «٢٤٣») .

وأحيانا يعمد الى مثبطات النفوس والمعوقات عن الجهاد ، من آباء وأبناء ، واخوان وأزواج ومال مكتسب ، وتجارة يخشى عليها الكساد إذا تركها صاحبها ، فيرينا أن أولئك المثبطات لاينبغى أن تكون أحبّ إلينا من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، و يهددنا إذا نحن تأثرنا هذه المثبطات أن ننتظر عذاب الله و بطشه (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين «٢٤») .

ومرة يعدنا بالنصر و يرينا أن الأيام دول ، وأن الضعيف قد يصبح قويا ، والقوىّ يصبح ضعيفا ، وأن لايصحّ لنا ونحن الأعلون أن نضعف أمام الباطل ، أونحزن لعمل أولئك المفسدين ، وأنه ان مسنا ألم من القتال فخصومنا كذلك .

ومرّة ينهانا أن نصغى لوساوس الشيطان ، وأن نقول لمن قتل من أصحابنا أو أبنائنا فى سبيل الله (لوكانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا) ليكون ذلك القول حسرة فى النفوس .

ومرّة يرينا أن الذين قتلوا فى سبيل الله لم يموتوا ، وإنما هم أحياء عند ربهم ، يرزقون رزقا معنويا يليق بعملهم وجهادهم .

ومرّة يرينا أن عدّة النصر — بعد أن نعد للقوم ما استطعنا من قوّة مادّية — أن نثبت أمام العدو ، ونذكر الله لتقوى فينا العقيدة ، وأن نطيع الله ورسوله ، ولانتنازع فنفشل وتذهب قوّتنا ، وأن نصبر على ماينالنا من أذى .

وتلك هى القوّة المعنوية التى يحتاجها المسلم بعد القوّة المادّية ، وهى قوّة العقيدة ، والايمان بالله تعالى ، وبجزائه العادل ، واثابته للمجاهدين المؤمنين .

ومرّة يرينا أن هناك فرقا كبيرا بين المؤمن الذى يجاهد فى سبيل الله ، والكافر الذى يقاتل فى سبيل الطاغوت ، على اشتراكهما فى الآلام الحسية — هى أن لنا عقيدة فى الله ، وليست لهم هذه العقيدة ، ولنا رجاء فى ثواب الله تعالى ، أما هم فليس لهم ذلك الرجاء ، وذلك الفرق هو الذى يجعل المؤمن أقوى ما يكون فى الحرب ، وكلما قوى فى نفسه ذلك الرجاء قويت روحه ، وآتى

بخوارق العادات فى الحروب (ولاتهنوا فى ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما «١٠٤») .

ولعلّ فى ماضى المسلمين مايرشدك الى ذلك كله .

الآيات

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ [١] اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ «٢٤٣» وَقَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «٢٤٤» البقرة

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١٣٩» إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ [٢] فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا [٣] بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ «١٤٠» وَلِيُمَحِّصَ [٤] اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَٰفِرِينَ «١٤١» أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ [٥] اللَّهُ الَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّٰبِرِينَ «١٤٢» وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ «١٤٣» وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ [٦] عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ «١٤٤» وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُؤَجَّلًا [٧] وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي

---

[١] فقال لهم الخ : أى ضرب عليهم الذلة ، وهو موت أدبىّ جزاء جبنهم وخوفهم من الموت .

[٢] قرح : جرح . [٣] نداولها : نصرفها ونجعلها دولا يوماً لفرقة ، ويوماً لأخرى ليعتبروا .

[٤] يمحص : يطهر قلوبهم من الضعف . [٥] ولما يعلم : أى علم ظهور .

[٦] انقلبتم : رجعتم الى الكفر . [٧] كتاباً مؤجلا : أى كتب ذلك كتاباً موقتاً لايتقدّم ولايتأخر .

الشَّاكِرِينَ «١٤٥» وَكَأَيِّنْ [١] مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ [٢] كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا [٣] لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ «١٤٦» وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ «١٤٧» فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١٤٨» آل عمران

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى [٤] لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ [٥] ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١٥٦» وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ «١٥٧» وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ «١٥٨» آل عمران

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ «١٦٩» فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ «١٧٠» يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ «١٧١» الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ «١٧٢» الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ «١٧٣» فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ «١٧٤» إِنَّمَا

---

[١] كأين : كم . [٢] ربيون : جمع ربى ، وهو الربانى المتخلق بأخلاق الربّ .

[٣] وهنوا : فتروا . [٤] غزّى : جمع غاز ، كعاف وعفى .

[٥] ليجعل الله الخ : علة لقالوا ، أى السبب فى ذلك القول أن يجعل الله ذلك القتل حسرة فى قلوبهم .

ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١٧٥» آل عمران

فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ وَمَنْ يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا «٧٤» وَمَالَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا «٧٥» ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَٰنِ [١] إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا «٧٦» النساء

وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا «١٠٤» النساء

يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا [٢] فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ [٣] «١٥» وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ [٤] أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ [٥] فَقَدْ بَاءَ [٦] بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ «١٦» فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ [٧] إِذْ رَمَيْتَ [٨] وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «١٧» ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ [٩] كَيْدِ الْكَٰفِرِينَ «١٨» الأنفال

---

[١] أولياء الشيطن : حزبه وأنصاره . [٢] زحفاً : زاحفين عليكم .

[٣] فلا تولوهم الأدبار : لا تفرّوا من القتال . [٤] متحرّفاً لقتال : أى لمصلحة حرب .

[٥] أو متحيزاً إلى فئة : جماعة من المسلمين يستنجد بها . [٦] باء : رجع .

[٧] وما رميت : أصبت مقاتل القوم . [٨] إذ رميت : أتيت بصورة الرمى .

[٩] موهن : مضعف .

يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «٤٥» وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ [1] وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ «٤٦» الأنفال

يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ «٦٥» الْـَٰٔنَ [2] خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّٰبِرِينَ «٦٦» الأنفال

قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا [3] حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ «٢٤» التوبة

يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ «٣٨» إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ [4] وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٣٩» إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ

---

[١] ريحكم : قوتكم ، سماها ريحاً لأن الريح قوة عظيمة تدمر كل شيء بأمر ربها ، وهي التي سلطها على الماضين ، وكذلك الاتحاد قوة عظمى . [٢] الآن : أي وقت ضعفكم ، والآية بشارة من الله بأن المؤمنين تقوى نفوسهم حتى يكون الواحد مقاوماً للعشرة بما أعطاه الله من قوة العقيدة ، وقد يؤيد ذلك بعض الغزوات . [٣] فتربصوا : انتظروا .

[٤] يستبدل قوماً غيركم : كما هي سنة الله في أن يرث القوي الضعيف .

أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٤٠» انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا (١) وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٤١» التوبة

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا (٢) عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «١١١» التوبة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ «١٢٣» التوبة

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ (٣) حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ (٤) فَشُدُّوا الْوَثَاقَ (٥) فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا (٦) ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ (٧) بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ «٤» سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ «٥» وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ «٦» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ «٧» وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ (٨) وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ «٨» ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ

---

[١] خفافاً وثقالا : لقلة عيالكم وكثرتها . [٢] وعداً : أى وعد بذلك الجزاء وعداً .

[٣] فضرب الرقاب : فاضربوا الرقاب ضرباً . [٤] أثخنتموهم : أكثرتم قتلهم .

[٥] فشدّوا الوثاق : فأسروهم . [٦] تضع الحرب أوزارها : آلاتها وأثقالها كالسلاح ، والمراد حتى تنتهى . [٧] ليبلو : ليختبر . [٨] فتعساً لهم : فعثوراً وانحطاطاً .

ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ «٩» أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ [١] وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا «١٠» ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ «١١» إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ «١٢» وَكَأَيِّن [٢] مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ «١٣» محمد

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ «٢» كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ «٣» إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ «٤» الصف

الإيمان ، والكفر ، والنفاق

(٤) سنة الله فى الخلق أن يصير الناس أحزابا وشيعا إذا دعاهم داعى الاصلاح ، ففريق يناصر الداعى سرّا وعلانية ، وذلك هو الفريق الذى آمن بالدعوة ، واطمأنت نفسه الى صدق حاملها ، ولم يوجد فى نفسه من الأمراض ، مايحول دون قبولها ، ورأى عنده من الشجاعة مايحمله على مناصرة الداعى ، والتعاون معه ، وأولئك الذين يسميهم القرآن المؤمنين .

وفريق آخر شبّ على حبّ الأنفة ، والتأبى على الاصلاح ، ومرضت نفسه بالعظمة الكاذبة واستولت عليه التقاليد الموروثة ، فيقاوم الدعوة وحامل الدعوة ، على الرغم من قيام الأدلة الكثيرة على خطئه فى هذه المقاومة ، وذلك هو الصنف الكافر .

وهناك فريق لم يجد عنده من الجرأة مايجعله مع فريق الكفار ، ولم يجد عنده من سلامة الصدر وطهارة النفس مايجعله مع طائفة المؤمنين ، فأخذ يوارب ويداجى الفريقين : فريق المؤمنين وفريق الكفار ، فاذا شئت أن تحكم عليه بالعداوة للمؤمنين خدعك ظاهره ، وان أردت أن تضمه الى المؤمنين حال دون ذلك فساد قلبه .

وقد عرّفنا الله تعالى أوصاف المؤمنين وأعمالهم ، ثم أوصاف الكفار ، وأوصاف المنافقين ، وعلى المؤمن أن يعنى بنفسه فيعرضها على أولئك الأوصاف التى ذكرها الله فى كتابه لكلّ من

[١] دمر الله عليهم : أهلك عليهم ما اختصّهم به من أهل ومال . [٢] كأين : كم .

هذه الفرق ، فقد يكون مخدوعا فى نفسه ، ويرى نفسه مؤمنا وهو عند الله كافر أو منافق ، وقد يكون عنده شعبة من النفاق ، وهو لايعلمها ، فيعالج نفسه حتى يصير مؤمنا حقا .

الآيات فى المؤمنين

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ [١] وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ «٣» وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ «٤» أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «٥» البقرة

لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ [٢] بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَالْمَلَٰئِكَةِ وَالْكِتَٰبِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ [٣] وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا وَالصَّٰبِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ [٤] وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ «١٧٧» البقرة

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ «٢٨٥» البقرة

وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ «١٣٣» الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١٣٤» وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا

---

[١] الغيب : ما غاب عنهم كالايمان بالله وملائكته واليوم الآخر . [٢] من آمن : فعل من آمن .

[٣] وفى الرقاب : فكها من الأسر . [٤] البأساء : الفقر ، الضراء : المرض ، البأس : الشدة فى القتال.

أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ «١٣٥» أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَٰمِلِينَ «١٣٦» آل عمران

وَكَأَيِّنْ [١] مِنْ نَبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ [٢] كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا [٣] لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّٰبِرِينَ «١٤٦» وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ «١٤٧» فَآتَٰهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١٤٨» آل عمران

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ «١٧١» الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ [٤] لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ «١٧٢» الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ «١٧٣» فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ «١٧٤» آل عمران

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِأُولِي الْأَلْبَٰبِ [٥] «١٩٠» الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ «١٩١» رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ

---

[١] كأين : كم . [٢] ربيون : جمع ربى ، وهو الربانى . [٣] وهنوا : جبنوا عن القتال .
[٤] القرح : الجرح . [٥] الألباب : العقول .

أَنْصَارٍ «١٩٢» رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ «١٩٣» رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ «١٩٤» فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ [١] فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ «١٩٥» آل عمران

الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّٰغُوتِ [٢] فَقَٰتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا «٧٦» النساء

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ «٢» الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنْفِقُونَ «٣» أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ «٤» الأنفال

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا [٣] وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [٤] وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَٰيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَٰقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «٧٢» وَالَّذِينَ

---

[١] بعضكم من بعض : هم سواء فى المجازاة على الأعمال . [٢] الطاغوت : الباطل .

[٣] آووا : ضموا إليهم المهاجرين ، ومنه : آوى إليه أخاه : ضمه اليه .

[٤] أولياء بعض : نصراء بعض .

كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ [١] تَكُنْ فِتْنَةٌ [٢] فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ «٧٣» وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ «٧٤» وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «٧٥» الأنفال

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٧١» وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «٧٢» التوبة

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ «١١١» التَّٰئِبُونَ الْعَٰبِدُونَ الْحَٰمِدُونَ السَّٰئِحُونَ [٣] الرَّٰكِعُونَ السَّٰجِدُونَ الْءَامِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ «١١٢» التوبة

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ

---

[١] إلا تفعلوه : من تواصي المؤمنين ومقاطعة الكافرين . [٢] فتنة : بلاء ومحنة .

[٣] السائحون : أي في الأرض فيعتبروا بمن سبقهم كما قال : (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) الخ .

أُولُوا الأَلْبٰبِ «١٩» اَلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثٰقَ [١] «٢٠» وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ «٢١» وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلٰوةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنٰهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ [٢] بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ «٢٢» جَنّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ [٣] مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوٰجِهِمْ وَذُرِّيّٰتِهِمْ وَالْمَلٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ «٢٣» سَلٰمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ «٢٤» الرعد

وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ [٤] «٣٤» اَلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصّٰبِرِينَ عَلٰى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلٰوةِ وَمِمَّا رَزَقْنٰهُمْ يُنفِقُونَ «٣٥» الحج

وَلَيَنصُرَنَّ اللّٰهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ «٤٠» اَلَّذِينَ إِنْ مَكَّنّٰهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلٰوةَ وَءَاتَوُا الزَّكٰوةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلّٰهِ عٰقِبَةُ الْأُمُورِ «٤١» الحج

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ «١» اَلَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خٰشِعُونَ «٢» وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ «٣» وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكٰوةِ فٰعِلُونَ «٤» وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰفِظُونَ «٥» إِلاَّ عَلٰى أَزْوٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمٰنُهُمْ [٥] فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ «٦» فَمَنِ ابْتَغٰى وَرَاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ [٦] «٧» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمٰنٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رٰعُونَ «٨» وَالَّذِينَ هُمْ عَلٰى صَلَوٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ «٩» أُولٰئِكَ هُمُ الْوٰرِثُونَ «١٠» اَلَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ «١١» المؤمنون

---

[١] الميثاق . العهد . [٢] يدرءون : يزيلون .
[٣] ومن صلح : أى دون من فسد فلايدخلها لأنها دار استحقت بالعمل . [٤] المخبتين : المتواضعين .
[٥] ما ملكت أيمانهم : النساء المملوكات . [٦] العادون : المتجاوزون الحد .

وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا [١] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجٰهِلُونَ قَالُوا سَلٰمًا [٢] «٦٣» وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيٰمًا [٣] «٦٤» وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا [٤] «٦٥» إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا «٦٦» وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا [٥] وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَامًا [٦] «٦٧» وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّٰهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا [٧] «٦٨» يُضٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا «٦٩» إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صٰلِحًا فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللّٰهُ [٨] سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنٰتٍ وَكَانَ اللّٰهُ غَفُورًا رَحِيمًا «٧٠» وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صٰلِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللّٰهِ مَتَابًا [٩] «٧١» وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا [١٠] «٧٢» وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِـَٔايٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا [١١] «٧٣» وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوٰجِنَا وَذُرِّيّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ [١٢] وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا [١٣] «٧٤» أُولٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلٰمًا «٧٥» خٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا «٧٦» قُلْ مَا يَعْبَؤُا [١٤] بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ [١٥] فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا [١٦] «٧٧» الفرقان

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايٰتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

---

[١] هونا : هينين . [٢] سلاما : سداداً من القول يسلمون به من الأذى .

[٣] سجداً وقياما : خاضعين قائمين له بحق ربوبيته . [٤] غراما : شدة ومصيبة .

[٥] يقتروا : يضيقوا . [٦] قواما : وسطا . [٧] أثاما : جزاء إثم .

[٨] يبدل الله الخ : يبدل ملكة المعصية في النفس بملكة الطاعة .

[٩] يتوب إلى الله متابا : يرجع بذلك إلى الله متابا مرضيا . [١٠] كراما : معرضين مكرمين أنفسهم .

[١١] صما وعميانا : غير واعين ولا متبصرين بما فيها .

[١٢] قرة أعين : ما تسر به العين لتوفيقهم للطاعة . [١٣] إماما : قدوة صالحة للأتقياء .

[١٤] يعبأ : يعتد . [١٥] دعاؤكم : عبادتكم . [١٦] لزاما : لازما يحيق بكم ولا بد .

وَهُم لا يَسْتَكْبِرُونَ «١٥» تَتَجافَى [1] جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً [2] وَمِمَّا رَزَقْنٰهُمْ يُنْفِقُونَ «١٦» فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «١٧» السجدة

وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمٰناً وَتَسْلِيماً «٢٢» مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا [3] مَا عٰهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ [4] وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً «٢٣» لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنٰفِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً «٢٤» الأحزاب

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرٰىهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ [5] فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرٰىةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَئَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوٰى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً «٢٩» الفتح

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجٰهَدُوا بِأَمْوٰلِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ «١٥» الحجرات

---

[١] تتجافى : ترتفع وتتنحى عن الفرش . [٢] خوفا : من العقاب ، وطمعاً : فى الثواب .

[٣] صدقوا : وفوا . [٤] قضى نحبه : مات .

[٥] سيماهم : علامتهم ، مثلهم : صفتهم ، شطأه : فرخه ، وهو ما خرج منه وتفرع إلى جانبيه ، والمراد أنه برز إلى وجه الأرض وصار له جوانب . فآزره : قوّاه . فاستغلظ : غلظ . فاستوى على سوقه : استقام عليها ، ليغيظ : علة لتشبيههم بالزرع فى زكائه واستحكامه .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ «١٥» ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ «١٦» كَانُوا قَلِيلاً مِنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[١] «١٧» وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ «١٨» وَفِي أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ «١٩» الداريات

إِنَّ الْإِنْسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا[٢] «١٩» إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا «٢٠» وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا «٢١» إِلَّا الْمُصَلِّينَ «٢٢» الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ «٢٣» وَالَّذِينَ فِي أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ «٢٤» لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ[٣] «٢٥» وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ «٢٦» وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ «٢٧» إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ «٢٨» وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ «٢٩» إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ «٣٠» فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ «٣١» وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ «٣٢» وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَائِمُونَ «٣٣» وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ «٣٤» أُولَٰئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُكْرَمُونَ «٣٥» المعارج

إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا[٤] كَافُوراً «٥» عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا «٦» يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا[٥] «٧» وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ[٦] مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا[٧] «٨» إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً «٩» إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوساً[٨] قَمْطَرِيرًا «١٠» فَوَقَٰهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ[٩]

---

[١] يهجعون : ينامون . [٢] هلوعا : شديد الحرص قليل الصبر .
[٣] المحروم : الذى لا يسأل لتعففه . [٤] مزاجها : ماتمزج به . [٥] مستطيراً : فاشيا منتشرا .
[٦] على حبه : أى الله أو الطعام . [٧] أسيرا : مملوكا . [٨] عبوساً : يشبه الأسد العبوس ، قمطريرا : شديد العبوس . [٩] لقاهم : أعطاهم .

نَضْرَةً (١) وَسُرُوراً «١١» وَجَزٰهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً «١٢» مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيراً (٢) «١٣» وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلٰلُهَا وَذُلِّلَتْ (٣) قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً «١٤» الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ «١» إِنَّ الْإِنْسٰنَ لَفِي خُسْرٍ «٢» إِلَّا الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ «٣» العصر

تعليق وعبرة

(٥) ان قلب الانسان ليضطرب حينما يقرأ الآيات السابقة فى بيان أوصاف المؤمنين ثم يسائل نفسه هل أنا مؤمن ذلك الايمان الذى بينه الله فى كتابه أو أن الذى عندى إيمان يغاير ذلك الايمان؟ ولاسيما عند مايقرأ قول الله تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) وهو لم يجاهد ولم تحدثه نفسه بالجهاد ، وكيف يتخلص من قول الله تعالى (أولئك هم الصادقون) ومعناه أن إيمانا لم يكن على ذلك النحو هو إيمان كاذب ، لأنه هو الذى يقابل الصادق .

وكذلك يقف الانسان مبهوتا حينما يقرأ قول الله تعالى (قد أفلح المؤمنون) ـ الى قوله (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) ليسائل نفسه هل أنا من أولئك المؤمنين الذين كتب الله لهم الفلاح وجعلهم من ورثة الجنة ، وهل أنا خاشع فى صلاتى ، معرض عن اللغو ، مؤدّ للزكاة ، حافظ لفرجى ، راع لأمانتى وعهدى ؟ .

وهل أنا قدمت لربى ثمن الجنة الذى فرضه علىّ وهو الجود بالنفس والمال ، أو أنا بخيل بمالى وشحيح بنفسى ؟ وهل الرجل الذى لم يدفع ثمن الجنة وقد طلبه الله منه يحصل عليها ؟

نعم ان الذى يؤمن بالقرآن إذا تدبر هذه الآيات التى يصف الله بها المؤمنين و يرينا بها كيف يكون المؤمن مؤمنا حتى يدخله ايمانه الجنة ـ لاغنى له عن أن يفكر من جديد فى ايمانه ، ليزنه بذلك الميزان العادل ، وهو القرآن الكريم ، فان رآه مؤمنا كما وصف القرآن الكريم فليحمد الله على ذلك ، وليزدد ايمانا الى ايمانه .

وان رأى نفسه فى ناحية ، وأولئك المؤمنين الذين أراناهم إياهم القرآن الكريم فى ناحية أخرى

---

[١] نضرة : حسنا فى الوجوه . [٢] زمهريرا : بردا . [٣] ذللت : أدنيت .

فليرجع الى الله تعالى ، ويستعنه فى أن يتخلق بأولئك الأخلاق ، ويأخذ نفسه بذلك العمل ليدخل فى عداد المؤمنين عند الله تعالى .

ومن عجيب أمر بعض علمائنا اليوم أن يسلخوا الايمان عن العمل ، والخلق الطيب الكريم فيرضون للمؤمن أن يكون خائر العزيمة جبانا ، كما يرضون له أن يكون شحيح النفس مقترا ، وأن يكون قاسى القلب ، لايلين لموعظة ، ولا تدمع عينه لتذكير .

رضوا للمؤمن بذلك كله ، وقالوا ان الايمان الذى وصفه الله تعالى فى كتابه بمثل هذه الآيات هو الايمان الكامل ، وكأنهم لما عرضوا أولئك الأوصاف التى ذكرها الله تعالى للمؤمنين وفيها الجهاد بالنفس والمال والتخلق بمكارم الأخلاق - ورأوا أنهم لم يكونوا مؤمنين على ذلك النحو ، لأنهم أشحاء جبناء ، يكذبون ، وينافقون ، ويزوّرون - لما رأوا أنفسهم كذلك ، تلمسوا لنفسهم ذلك المخرج ، حتى لاتأخذ الناس عليهم ذلك النقص ، ولا ندرى ماقيمة ذلك الايمان الناقص إذا لم يدخل صاحبه الجنة ، وماقيمة ذلك الايمان الناقص إذا كان إيمانا كاذبا ؟ ولماذا يرضون لأنفسهم بايمان غير حقّ ؟ اللهمّ انا آمنا بكتابك الذى أنزلته على رسولك المعصوم ، وآمنا بأن من شهد له بأنه المؤمن حقا فهو المؤمن ، ومن لم يشهد له كتابك بالايمان فلا قيمة لايمانه وان سمى نفسه مؤمنا ومؤمنا ، وان سماه أهل الأرض جيعهم مؤمنا ، أو إماما للمؤمنين .

الآيات فى الكافرين

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ «٦» خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ [١] وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ [٢] وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ «٧» البقرة

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا [٣] كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ [٤] بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً [٥] وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ «١٧١» البقرة

الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ [٦] فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ [٧] إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً «٧٦» النساء

---

[١] ختم الله على قلوبهم الخ : حال بينها وبين الحق بسبب تعاميهم عنه باختيارهم .

[٢] غشاوة : غطاء . [٣] مثل الذين كفروا الخ : صفتهم ومن يدعوهم الى الهدى .

[٤] ينعق : يصوّت . [٥] إلا دعاء . بدون فهم . [٦] الطاغوت : الباطل .

[٧] أولياء الشيطان : حزبه وأنصاره .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً «١٥٠» أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا «١٥١» النساء

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ «٣٣» الأنعام

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا [١] كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ [٢] فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ [٣] عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ «١٢٥» الأنعام

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَٰفِلُونَ «١٧٩» الأعراف

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ «٢٢» وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا [٤] لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ [٥] لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ «٢٣» الأنفال

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «٥٥» الَّذِينَ عَٰهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ «٥٦» الأنفال

---

[١] حرجا : شديد الضيق . [٢] يصعد : يحاول الصعود .

[٣] الرجس : العذاب . [٤] خيرا : انتفاعا ، لأسمعهم : سماع تفهم .

[٥] ولو أسمعهم : مع علمه عدم الخير فيهم لتولوا عن الحق .

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ «٩٦» وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ «٩٧» يونس

أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ [١] صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٥» هود

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا [٢] وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ «١٩» أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ «٢٠» أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ «٢١» لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ «٢٢» هود

إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ «٢٢» لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ «٢٣» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَا ذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَٰطِيرُ [٣] ٱلْأَوَّلِينَ «٢٤» لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ «٢٥» قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُمْ [٤] مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ «٢٦» ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَٰقُّونَ [٥] فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى

---

[١] يثنون صدورهم : يلوونها عن الحق وينحرفون عنه .

[٢] يبغونها عوجا : يطلبونها معوجة تتفق وهواهم . [٣] أساطير : أباطيل .

[٤] فأتى الله بنيانهم الخ : تصوير لهدم تدبيرهم من أساسه . [٥] تشاقون : تعادون المؤمنين بسببهم .

الْـكَٰفِرِينَ «٢٧» ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ [1] مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ «٢٨» فَٱدْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ «٢٩» النحل

إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ «١٠٥» مَن كَفَرَ [2] بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ «١٠٦» ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ «١٠٧» أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ «١٠٨» لَا جَرَمَ [3] أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ «١٠٩» النحل

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا [4] بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا هُزُوًا [5] «٥٦» وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً [6] أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا [7] وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا إِذًا أَبَدًا «٥٧» الكهف

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا «١٠٣» ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا «١٠٤» أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ

---

[١] فألقوا السلم : سالموا حين عاينوا الموت . [٢] من كفر : بدل من الذين وما بينهما معترض .
[٣] لا جرم : لا شكّ . [٤] يدحضوا : يزيلوه عن مقرّه . [٥] هزواً : استهزاء .
[٦] أكنة : أغطية . [٧] وقراً : تصاماً عن الحقّ .

رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، فَحَبِطَتْ (١) أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ (٢) يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا «١٠٥» ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا «١٠٦» الكهف

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ «٣» كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ «٤» الحج

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ «٨» ثَانِيَ عِطْفِهِ (٣) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ «٩» الحج

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ (٤) يَكَادُونَ يَسْطُونَ (٥) بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ «٧٢» الحج

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦) لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ «٦» وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ «٧» لقمان

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ «٢٠» وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ «٢١» لقمان

---

[١] حبطت : بطلت فلا يثابون عليها . [٢] فلا نقيم لهم الخ : أى نزدريهم ولا نعتبرهم .

[٣] ثانى عطفه : متكبراً . [٤] المنكر : الغيظ والحنق .

[٥] يسطون : يبطشون ، والآية تمثل عداوة الباطل للحق .

[٦] لهو الحديث : ما يتلهى به كفضول الكلام والمضاحك .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ [١] أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ [٢] فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ «٥٦» غافر

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ [٣] وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ [٤] وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ «٢٣» وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ [٥] إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ «٢٤» وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ «٢٥» الجاثية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ [٦] «١» وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ [٧] «٢» ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ «٣» محمد

وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ [٨] وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا «٧» نوح

---

[١] سلطان : حجة . [٢] ببالغيه : وواصليه . [٣] على علم : أى من الله بأن استحق الاضلال .

[٤] وختم على سمعه الخ : أى حال بينه وبين مواهبه جزاء طاعته للهوى .

[٥] وما لهم بذلك من علم : أى حجة ودليل ، لأنهم يقولونه تقليدا .

[٦] أضل أعمالهم : عدل بها إلى طريق غير مستقيم لكفرهم وصدهم .

[٧] أصلح بالهم : وفقهم للخير . [٨] فى آذانهم : ليسدوا مسامعهم عن استماع الدعوة ، واستغشوا ثيابهم : تغطوا بها حتى لا أعرفهم .

تعليق وعـــبرة

كما يستفيد العاقل من أوصاف المؤمنين بعرضها على نفسه ليعرف ان كان مؤمنا حقا ، أو كاذبا فى الايمان ـ كذلك يستفيد من بيان الله تعالى أوصاف الكافرين ، فلعل كثيرا من صفاتهم عالق بنفسه وهو لايدرى ، وأن الله تعالى ماعرض لصفات الكافرين إلا ليرينا أن أولئك الصفات هى التى حالت بينهم و بين الايمان ، فاستحقوا الخلود فى جهنم ، وأن الكفار على تباينهم فى أسباب الكفر واختلافهم فى دواعيه ، ففيهم من يكفر بنسبة الشريك الى الله تعالى ، ومنهم من يكفر بانكار البعث ، ومنهم من ينكر الرسالة ، الى غير ذلك ـ انهم على تفاوتهم فى ذلك فان لهم خصائص تكاد تجمعهم وتحيط بهم .

[الأولى] تعطيلهم ماوهبهم الله من عقل وسمع و بصر ، مما أدّى بهم الى غلظة القلوب ، وابطال فائدة السمع والبصر ، حتى وصفهم الله فى كثير من الآيات بأنهم شرّ الدواب ، و بأنهم الصمّ البكم الذين لايعقلون .

وقد أرانا الله تعالى أنه ذرأ لجهنم كثيرا من الجنّ والانس ، وعلامتهم أن لهم قلوبا لايعقلون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ، وأن أولئك الأقوام هم أهل النار الذين خلقوا لها وخلقت لهم ، وأولئك هم الذين يندمون فى الآخرة حيث لاينفعهم الندم ، و يقولون (لوكنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) .

وعلى كلّ أحد حين يسمع هذه الأوصاف أن يختبر نفسه ، و يستفتى استعداده ومواهبه ، أهو ممن يستحقون القول فيتبعون أحسنه ، و يعمل فيه عقله واستعداده ، أم هو ممن ختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فلا يسمع إلا بأذن غيره ، ولايبصر إلا بعين من تقدّمه ، ولايعقل إلا بقلب من سبقه .

[الثانية] حنقهم على الرسل وأتباع الرسل ، وامتلاء نفوسهم غيظا منهم ، حتى وصفهم الله بأنهم إذا تليت عليهم آيات الله بينة واضحة تعرف فى وجوههم الغيظ والحنق ، عداوة و بغضا لأهل الحقّ يكادون يبطشون بهم ، وقد ترى ذلك الوصف فى فريق من أهل العلم الذين نشئوا على البدع والضلالات فى عقائدهم وعباداتهم ، إذا دعاهم داع الى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، وأخذ يتلو عليهم شيئا من آى القرآن الكريم ، فانك ترى حمية الجاهلية سرت فى عروقهم ، وتراهم قد ضاقوا به ذرعا ، وقد ينتهى بهم الغيظ والحنق الى مقابلته بما لايرضاه الله من العنف والشدّة وضروب الايذاء

[الثالثة] فرارهم من الدعوة الى الحق ومن الداعى إليه ، حتى انهم يثنون صدورهم و يلوونها عن الداعى ليستخفوا منه ، وماعلموا أن الله تعالى يعلم سرهم وعلانيتهم ، وذلك لأن الحق يعمل زلزلة فى نفوسهم ، واضطرابا فى أفئدتهم .

وقد مثل الله لنا فرار قوم نوح من دعوته فى قوله (و إنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا «٧») .

[الرابعة] دفاعهم عن الباطل وقتالهم فى سبيل الشيطان ، وأكبر مظهر لذلك الدفاع جدلهم فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير .

وما أحوج أهل العلم الى التخوّف من تلك الصفة فانهم قد أصيبوا كثيرا بالجدل ، وقد يصل الجدل بهم الى الدفاع عن الباطل بدون حجة ولا برهان ، معتمدين على زلاقة لسانهم أو قوة بيانهم ، وقد وصف الله الكفار بأنهم قوم خصمون ، يحبون الجدل للجدل ، لا للحق ، ولا للوصول إليه ، يجادلون أهل الحق لمرض فى نفوسهم ، وكبر يحاولون أن يصلوا إليه ، وهمّ تغلبهم على الداعى وظفرهم به ، ولن يجدوا الى ذلك سبيلا .

تلك هى خصائص الكافرين ، وصفات أعداء الحقّ ، وعلى كلّ مؤمن أن يحاسب نفسه حسابا عسيرا ، فلعلّ فيه صفة من أولئك الصفات أوطائفة منها ، فتكون أخلاقه أخلاق الكافرين وهو يحسب نفسه من عداد المؤمنين .

الآيات فى المنافقين

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ «٨» يُخَٰدِعُونَ [١] ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ «٩» فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ [٢] فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ «١٠» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ «١١» أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ «١٢» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءامِنُوا كَمَا ءامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءامَنَ ٱلسُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ «١٣» وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءامَنُوا قَالُوا ءامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ [٣] قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ «١٤» ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ [٤] «١٥» أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ «١٦» البقرة

---

[١] يخادعون : من خدع الضبّ إذا توارى فى جحره ، يوهم الصائد اقباله عليه ، ثم يخرج من باب آخر .

[٢] مرض : شك ، ونفاق يحول بينها وبين وظيفتها . [٣] شياطينهم : رؤساؤهم .

[٤] يعمهون : من العمه ، وهو الحيرة .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ [١] «٢٠٤» وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ [٢] وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ «٢٠٥» وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ [٣] فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ «٢٠٦» البقرة

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ [٤] فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ «١٦٦» وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا [٥] قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ [٦] قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ «١٦٧» الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا [٧] لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا [٨] عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ «١٦٨» آل عمران

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ [٩] وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا «٦٠» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا «٦١» فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا «٦٢»

---

[١] ألدّ الخصام : شديد الخصومة . [٢] الحرث : الزرع .

[٣] أخذته العزّة بالاثم : حملته الأنفة على الاثم ضرارا ولجاجا . [٤] يوم التقى الجمعان : يوم أحد ، فباذن الله : قضائه . [٥] أو ادفعوا : عن الأنفس والأموال .

[٦] لو نعلم الخ : أى لو نعلم أنكم تقاتلون لقاتلنا معكم لكنكم تلقون بأيديكم إلى التهلكة .

[٧] وقعدوا : أى هم عن القتال . [٨] فادرءوا : ادفعوا .

[٩] الطاغوت : غير الله ، من الطغيان ، وهو التعدّى .

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ (١) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (٢) «٦٣» النساء

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ (٣) فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً «٧٢» وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ (٤) بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا «٧٣» النساء

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٥) «٧٧» النساء

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ (٦) وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا (٧) فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ (٨) وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (٩) وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً (١٠) مُبِيناً «٩١» النساء

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا (١١) ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا

---

[١] ما فى قلوبهم : من مرض ونفاق . [٢] بليغاً : يبلغ منهم ما تريد ويؤثر فيهم .
[٣] ليبطئن : من بطأ بمعنى أبطأ ، أى تثاقل عن الجهاد ، أو ثبط غيره عنه .
[٤] كأن لم تكن الخ : جملة معترضة بين القول ومقوله . [٥] فتيلا : ما يكون فى شق النواة يضرب به المثل فى الشيء الحقير ، أى لاينقصون شيئاً من ثوابهم وإن قل . [٦] أن يأمنوكم : باظهار الإسلام ، ويأمنوا قومهم : بالكفر . [٧] أركسوا : نكسوا وانقلبوا . [٨] السلم : بترك القتال .
[٩] ثقفتموهم : وجدتموهم . [١٠] سلطاناً : حجة على جواز قتلهم .
[١١] آمنوا ثم كفروا : آمنوا بلسانهم اذا لقوا المؤمنين ، ثم كفراً اذا لقوا الكفار .

لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا «١٣٧» بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا «١٣٨» ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ [1] مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا «١٣٩» وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا «١٤٠» ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ [2] فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ [3] قَالُوٓا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ [4] عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم [5] مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا [6] «١٤١» إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ [7] وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا «١٤٢» مُّذَبْذَبِينَ [8] بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا «١٤٣» يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا [9] مُّبِينًا «١٤٤» إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا «١٤٥» إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَٱعْتَصَمُوا بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ

---

[١] أولياء : نصراء فيما يخالف مصلحة المسلمين . [٢] يتربصون بكم : ينتظرون ما يحدث لكم من كسر أو نصر . [٣] نصيب : حظ من الظفر . [٤] نستحوذ : نستول .

[٥] ونمنعكم : نحمكم . [٦] سبيلا : غلبة ما دام المؤمنون قائمين بحقوق الإيمان ، ويتبعون هديه ، ويعاشون سننه فى الخلق . [٧] يخادعون الله : بخداعهم لرسوله وللمؤمنين ، وهو خادعهم : ماكر بهم فيجزيهم على نيتهم وقلوبهم . [٨] مذبذبين : مضطربين بين المؤمنين والكافرين .

[٩] سلطاناً : حجة .

يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا «١٤٦» مَا يَفْعَلُ اللَّهُ [1] بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا «١٤٧» النساء

انْفِرُوا خِفَافًا [2] وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «٤١» لَوْ كَانَ عَرَضًا [3] قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا [4] لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ [5] وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ «٤٢» عَفَا اللَّهُ عَنْكَ [6] لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ «٤٣» لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ «٤٤» إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ [7] قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ «٤٥» التوبة

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ [8] «٥٦» لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً [9] أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا [10] لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ [11] «٥٧» وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ [12] فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ «٥٨» التوبة

---

[١] مايفعل الله الخ : لاحظّ له فى أن يعذّب أحداً ما دام مؤمناً شاكراً .

[٢] خفافاً : لقلة عيالكم ، وثقالا : لكثرتها . [٣] عرضاً : مغنما دنيويا .

[٤] قاصداً : متوسطاً . [٥] الشقة : المسافة تقطع بمشقة .

[٦] عفا الله عنك : كناية عن خطئه فى الاذن لهم بالتخلف . [٧] ارتابت : مرضت بالريب والنفاق .

[٨] يفرقون : يخافونكم فيظهرون الإسلام تقية . [٩] ملجأ : حصناً .

[١٠] مدخلا : نفقاً فى الأرض ، لولوا : أقبلوا . [١١] يجمحون : يسرعون كالفرس الجموح .

[١٢] يلمزك فى الصدقات : يعيبك فى قسمتها .

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ [١] يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ [٢] نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ «٦٧» وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ «٦٨» التوبة

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ «٧٥» فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ «٧٦» فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ «٧٧» أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ «٧٨» الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «٧٩» التوبة

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ [٣] خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ «٨١» فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٨٢» فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ [٤] «٨٣» وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ «٨٤» وَلَا تُعْجِبْكَ

---

[١] بعضهم من بعض : متشابهين فى البعد عن الإيمان كأبعاض الشيء الواحد .

[٢] ويقبضون أيديهم : عن الخير . [٣] بمقعدهم : قعودهم عن الغزو ، خلاف : بعد .

[٤] الخالفين : المتخلفين .

أَمْوٰلُهُمْ وَأَوْلٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كٰفِرُونَ «٨٥» وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَئْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ[1] مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا[2] نَكُنْ مَعَ الْقٰعِدِينَ «٨٦» رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ «٨٧» التوبة

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ «٩٤» سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ[3] إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ[4] وَمَأْوٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «٩٥» يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفٰسِقِينَ «٩٦» التوبة

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ[5] كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعٰلَمِينَ «١٠» وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنٰفِقِينَ «١١» العنكبوت

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ[6] وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ[7] يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ

---

[١] الطول : الغنى والسعة . [٢] ذرنا : دعنا : [٣] انقلبتم : عدتم .

[٤] رجس : قذر بالغ فى تلوث نفوسهم وفسادها حتى جعلها القذارة نفسها .

[٥] فتنة الناس : أذاهم له ، كعذاب الله : بمنزلته، كناية عن ضعف إيمانه وعقيدته .

[٦] محكمة : مبينة لاتشابه فيها . [٧] مرض : ضعف .

عَلَيْهِ (١) مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ «٢٠» طَاعَةٌ (٢) وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ (٣) فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ «٢١» ﴾

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٤) «٢٩» وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ (٥) فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ (٦) وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ «٣٠» وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ «٣١» ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ «١» اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً (٧) فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٢» ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ «٣» وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ (٨) يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ (٩) فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ «٤» وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ (١٠) وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ (١١) وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ «٥»

---

[١] المغشىّ عليه : المغمى عليه جبناً وهلعاً . [٢] طاعة : خبر عن قوله : (فأولى) .

[٣] عزم الأمر : فرض القتال . [٤] أضغانهم : أحقادهم . [٥] لأريناكهم : عرّفنا كهم فعرفتهم بعلاماتهم . [٦] لحن القول : أسلوبه ولعلّ من أساليبهم أنهم لا ينطقون بالحق واضحاً من دأبهم المراوغة والموارية . [٧] جنة : وقاية وستراً لما فى نفوسهم من ضعف ونفاق ، ولأنهم لا يثقون بأنفسهم فيسارعون إلى الايمان . [٨] خشب مسندة : شبههم بالخشب المسندة إلى الحائط بدون نفع لأنهم أشباح خالية عن العلم والنظر ، أو جمع خشباء ، وهى الخشبة التى نخر جوفها ، شبهوا بها فى حسن المنظر وقبح المخبر. يحسبون كل صيحة عليهم : لجبنهم وضعف قلوبهم ، وذلك شأن من ليست له عقيدة .

[٩] هم العدو: جملة معرّفة الطرفين تفيد الحصر : أى لاعدوّ للمسلمين إلا هم فالكفار فى جانبهم ليسوا شيئاً.

[١٠] لووا رؤوسهم : عطفوها إعراضاً وتكبراً . [١١] يصدّون : يعرضون .

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ «٦» هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ (١) حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (٢) وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٣) «٧» يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ (٤) مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ «٨» المنافقون

كبريات العبر فى المنافقين

(٧) أرانى قد أطلت عليك أيها القارئ فى آيات المنافقين بما لم تعهده منى فى أبواب أخر ، ولو علمت أن المنافقين شرّ مستطير فى كلّ زمان على كلّ إصلاح فى الأرض لعذرتنى فى هذه الاطالة ، بل وتطلبت فوقها .

إنك لو تتبعت أىّ إصلاحٍ فى الأرض ، وأردت أن تعرف كيف يقابل ذلك الاصلاح من طبقات الناس ، لرأيت رأى العين أن الناس أمام ذلك الاصلاح أقسام ثلاثة : قسم يرحب به ويناصره ظاهرا وباطنا ، ويضحى فى سبيل مناصرته النفس والنفيس ، وقسم آخر يعاديه ظاهرا وباطنا .

وقسم ثالث يعاديه فى الباطن وينصره فى الظاهر ، وأولئك هم المنافقون المخادعون .

ونظرة واحدة فى نهضات البلاد وثورتها ضدّ أعدائها الغاصبين لها ، تريك كيف تنقسم الناس على المصالح ، وكيف يكونون أحزابا وشيعا ، وكيف تنجلى أخلاقهم ، وتظهر مخبآت نفوسهم ، ترى الفريق الذى صفت نفسه ، وطهرت عن الخبث أخلاقه ، يرحب بذلك الاصلاح ، ويدعو الناس إليه ، ناسيا ماوراء ذلك من آلام ومشاق . وتراه يندفع الى ترويج الدعاية للمبدإ وهو لايشعر ، ويرى سعادته فى أن ينفق ماله وحياته فى ذلك السبيل ، وهو الفريق المؤمن .

وترى فريقا آخر كبر عليه أن يقوم بذلك الاصلاح رجل من القوم ، ويصبح وله ذلك الأثر الخالد ، والصيت الذائع ، فيرجع الى نفسه وقد امتلأت حقدا وحسدا ، وكبرا وغرورا ، فيسائل نفسه ماذا أنت فاعله بذلك الرجل ؟ وماذا أعددت له من عمل ؟ فتجيبه : أعددت له خذلانا لايقوم بعده ، وموتا لا يحيا معه ، أعددت له أنواعا من الاهانة ، وضروبا من الايذاء . وأصنافا من العنت والاحراج ، أعددت له تحقيرا أمام مواطنيه ، وتسفيها لعمله ، تتناقله الأبناء عن الآباء وذلك هو الفريق الكافر بذلك الاصلاح المعادى له سرا وعلانية .

---

[١] من عند رسول الله : المهاجرين . ينفضوا : من حول محمد صلى الله عليه وسلم .
[٢] خزائن السموات والأرض : بيده الأرزاق كلها . [٣] يفقهون : يفهمون ذلك لجهلهم بربهم .
[٤] الأعزّ : يعنون أنفسهم . . الأذلّ : يريدون المؤمنين .

وترى فريقا ثالثا ، وهو شرّ من الفريق الثانى يشترك معه فى خبث النفس ، وفساد الطوية والحنق على ذلك المصلح ، ويمتاز عنه بالجبن والخور ، وضعف القلب ، فلا يستطيع أن يصارح المصلح بأنه عدوّه اللدود ، ولا أن يظهر أمام المؤمنين بذلك المظهر ، فيضطره ضعف عقيدته ، وفقدانه للجرأة أن يدارى ويوارب ، فيكون بين الصديق والعدوّ ، والمناصر والمحارب : إذا رأى المؤمنين أظهر لهم الايمان ، وإذا لقى الكافرين قال لهم : إنى معكم .

المنافق حيوان خبيث

ومثله فى ذلك مثل حيوان خبيث وهو الضبّ ، يعمل له جحرا فى الأرض يسمى النافقاء ، له بابان ، إذا أراد صائده أن يدخل إليه من أحد البابين لوّح له بذنبه أنه مقبل عليه ليطمعه ، ثم يخرج من الباب الآخر ، يخدعه بذلك العمل ، وهكذا المنافق ، واشتقاقه من النافقاء وهو ذلك الجحر الذى يعمله الضبّ ، أو هو إحدى جحرة اليربوع التى يعملها فى الأرض ظاهرة يراها الناس ، حتى إذا ذهبوا إليها ليطلبوه ، إذا به قد أعد جحرا آخر قد أخفاه عن الناس ليكون فيه ذلك هو المنافق الذى يخادع الناس ويخادع المصلحين فى كلّ زمان ، وهذا مثله فى خداعه ونفاقه .

الفتن والشدائد

(١) يتألم كثير من الناس للفتن والشدائد التى تقع على الأمم الناهضة ، ولو عرف الحكمة فى هذه الشدائد ، والغاية من هذه الفتن لعلم أنها تنطوى على حكم ومصالح لا غنى للاصلاح عنها .

وأضرب لهم مثلا الشدائد التى تقع بالمسلمين من خصومهم فى الدين والعقيدة والحروب الطاحنة بين حزب الله وحزب الشيطان ، فانها تمحص من نفوس المؤمنين ، وتطهر قلوبهم حتى يكون إيمانهم قويا خالصا ، فلا يكون للشيطان حظ من أولئك النفوس .

ومن ناحية أخرى ان الشأن فى الدّاعى أو المصلح أن يقبل الناس عليه فى بادئ الأمر ، وفيهم المؤمن والمنافق ، ولولا الشدائد لبقى جيش ذلك المصلح خليطا من أنصاره وأعدائه ، فقضت حكمة الله أن يبتليهم بالشدائد ، ويفتنهم بالمحن والخطوب ، ليمتاز المؤمن من المنافق ، والصادق من الكاذب .

وهذا تاريخ المنافقين فى الاسلام يرينا أنهم دخلوا فى الدين مع من دخل من المسلمين ، وكثروا سواد المسلمين ، وبعد أن فرض الله القتال على المسلمين ظهر ماعندهم من ضعف ، وانكشف ما انطووا عليه من نفاق ، وأخذوا يعتذرون عن الحرب مع المؤمنين ، والكفاح فى سبيل الله ، وقد كانت فرضية القتال فضيحة لهم وخزيا وعارا ، ولاعجب فان بذل النفس لايمكن أن يكون من منافق ، إنما يكون من مؤمن قوى إيمانه ، وازداد فى الله يقينه ، فانه لاشىء أغلى من النفس ، فمن له رجاء فى الله ، وعقيدة خالصة ، لايعتورها شىء من الوهن يسهل عليه أن يضحى بنفسه فى سبيل دينه ، ولذلك كان أكبر دليل على الايمان الجهاد فى سبيل الله ، وقد

تلونا عليك من آيات الذكر الحكيم ما يريك مقدار فرار المنافقين من القتال ، واعتذارهم عنه وقد أنزل الله تعالى فيهم آيات لاتحصى فضحهم بها ، وأبان جبنهم وخورهم ، وأكثر سورة التوبة فى ذلك النوع ، ولذلك سماها بعض السلف الفاضحة والمخزية ، لأنها خزى ووبال على أولئك القوم

والعبرة فى ذلك أن ماينال الصالحين من أذى وما يعترض حزبهم من عقبات ، سواء فى ذلك ما يتعلق بمالهم أو نفوسهم — كلّ ذلك من شأنه أن يمحص المصلحين ، ويخلصهم من الدخيل ، ويبعدهم من الضعف ، حتى يكونوا جسما قويا على الشدائد ، فيه مناعة تحول بينه وبين المؤثرات (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب «١٧٩» [1]) (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون «٢» ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين «٣» [2]) .

ولولم يكن من آثار الشدائد سوى أن يميز الله بها الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض لكفى .

وقديما قالوا [جزى الله الشدائد كلّ خير] فاذا أخرجت الشدائد فريقا من الذين كانوا مع المصلح فى بادئ أمرهم ، فانما أخرجت مرضا كمينا ، وداء دفينا فى سواد المؤمنين أصبح الجسم بعده سليما قويا ، يستطيع أن يكافح وينافح ، ويستطيع أن يأمن على أسراره أن تذاع بين الأعداء والخصوم ، فرض ثم مرض لهذه الشدائد .

أخلاق المنافقين

(٢) يرينا الله تعالى فى كتابه الكريم — وهو العالم بخفايا النفوس وما تكنه الضمائر — أن المنافقين خصائص وأخلاقا بها يمتازون عن غيرهم ، ثم أرانا أن العلة فى أولئك الأخلاق هى مرض القلب ، واضطراب العقيدة ، ولو كان قلبهم سليما من المرض ما كانوا على ذلك الخلق .

[الأولى] من صفاتهم أنهم يعاملون الله معاملة المخادع ، لامعاملة المخلص ، ومادروا أنهم بذلك العمل يخدعون أنفسهم ، وأن وبال خداعهم راجع إليهم ، ولو قدروا الله حق قدره ماعاملوه ، تلك المعاملة ، (يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون) ولوكان عندهم شيء من العقل لاستحوا من ذلك العمل ، فان الرجل العاقل يستنكف أن يخادع مخلوقا مثله إذا كان يعلم أن عنده من اليقظة والعلم مابه ينكشف خداع صاحبه ، فكيف إذا كان ذلك الذى نعامله إلها له العلم الشامل ، والهيمنة على النفوس .

ومن آثارخداعهم لله أنهم يصلون بأجسامهم لابقلوبهم ، فهم يصلون صلاة رياء لاصلاة إخلاص (وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلاقليلا) وكأنه يشير بكلمة (إذا) الدالة على التعليق الى أن الشأن فيهم أن لايصلوا ، ولو فرض أنهم قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، فلم يأخذوا التكاليف بقوة ، كما هو الشأن فيمن يعمل العمل وهو مقتنع بأنه نافع

---

[١] آل عمران . [٢] العنكبوت .

مفيد ، بل يؤدّونها كارهين متثاقلين ، لأنهم يراءون الناس بصلاتهم ، ولا يبتغون بها وجه الله ، ومن كان كذلك لايقوم الى صلاته بجدّ ونشاط ، وهم الذين قال الله فيهم (فويل للمصلين «٥» الذين هم عن صلاتهم ساهون «٦» الذين هم يراءون «٧» ويمنعون الماعون «٨» [١]) .

وقل مثل ذلك فى كلّ عبادة يقومون بها ، يؤدّونها غافلين عن سرّها ، فاقدين لروحها ، وما أحوجنا الى تدبير ذلك الخلق الذى وصف الله تعالى به المنافقين ، وعرضه على نفوسنا ، فكثير ممن يعدّون أنفسهم مؤمنين إذا قاموا الى صلاتهم قاموا متباطئين متكاسلين ، ساهين عن حكمتها غافلين ، لايبالى الواحد منهم أن يترك وقتا من صلاته أو أوقاتا ، وإذا صلى أدّى صلاته ناقصة مبتورة ونقرها كما تنقر الديكة ، وتراه وهو يصلى لم يأنس فى صلاته بربه ، ولم يطمئن الى مناجاة خالقه وبارئه ، وكأن الصلاة عنده حركات جسمية كتمرين من تمارين رياضة الجسم لا أكثر ولا أقل ولو درى أن روح الصلاة إخلاص ذلك العمل لله تعالى وأنها صلة بين العبد وربه ، وطهرة للمصلى من الأوزار والأرجاس ، وتهذيب للنفس من كلّ فاحشة ومنكر ـ لودرى المصلى أن ذلك هو حكمة الصلاة وسرّها لأدّاها كاملة فى شكلها وحقيقتها ، وقام إليها وهو مطمئن الى أن الوقت الذى يقضيه فى أدائها هو أسعد وقت عنده ، وأفضل زمن يقضيه بين يدى ربه وخالقه ، وحسبه أن يناجيه بأنه عبده الخاضع ، وهو ربه الرحيم به ، ويثنى عليه بما هو له أهل ، ويخصه بالعبادة والاستعانة على شئون دينه ودنياه ، ويطلب منه الهداية الى صراطه المستقيم ، ويقيم البرهان العملىّ على أنه عبده المطيع الذى لايبخل على مولاه بوضع أشرف أعضائه على الأرض .

ولكن من لنا باقناع طائفة المنافقين بذلك وأمثال ذلك ، وهم قوم لم يذوقوا للايمان طعما ، ولا للأعمال الدينية حلاوة ، هم قوم تجار فى تدينهم ، مخادعون موار بون ، لم تسلم قلوبهم من المرض ، ولاعقائدهم من الشك ، ومن أجل ذلك مرضت أعمالهم .

وعلى كلّ مؤمن أن يتهم نفسه ويحاسبها ذلك الحساب الدقيق ، فقد يكون فيه خلق النفاق وهو لايدرى ، ومن السهل عليه أن يعرف وهو يؤدّى صلاته أهو نشط أم كسلان ، وهل هو يرائى الناس بصلاته أم هو مخلص لربه وخالقه ، وهل هو يفرّ من الصلاة إذا دخل فيها فرار الكاره ، أم يطمئن إليها ويتمنى أن تطول ، عليه أن يستفتى نفسه فى ذلك كله ، فاذا وجد نفسه مريضة عالجها ، وان وجدها سليمة من ذلك المرض حمد الله وطلب منه أن يزيده إيمانا الى إيمانه ويقينا الى يقينه ، ذلك هو شأن المؤمنين ، أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا ويراقبوا أعمالهم قبل أن يراقبوا .

بقى أن الله وصف المنافقين بعد ذلك بقوله (ولايذكرون الله إلاقليلا) لايذكرونه إلا جهرا حتى تسمعهم الناس فيقولوا: هم مؤمنون ، أما فيما بينهم وبين أنفسهم فلا يذكرون ربهم ، لأن الصلة بينهم وبينه منقطعة ، ولو رضوه لهم ربا مانسوه فى قيام ولاقعود ، ولاليل ولانهار ، كما هو الشأن فى المؤمنين ، يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، أو المعنى أنهم لايذكرون الله بقلوبهم

---

[١] الماعون .

إلا على ندور ، كأن يقعوا فى مصيبة أوتحلّ بهم كارثة ، فتلجئهم المصائب أن يرجعوا الى ربهم ، ويتذكروا خالقهم .

ولله ما أدق تحليل القرآن الكريم لنفوس البشر ، واتيانه على مميزاتها وخصائصها ، لتكون موضع العبرة ومكان الادّكار ، فقد نرى بعض الناس لايحلو له ذكر الله إلا أمام الناس ، فاذا مرّ على قبر أكثر من ذكر الموت ومابعد الموت بصوت يسمعه من معه ، وإذا جاءت مناسبة رأيته يتحرق أسفا على تقصير الناس فى دينهم وحقوق خالقهم ، وتراه يكثر من هذه النغمة ليرى صاحبه أنه جدّ حريص على أن يكون الناس صالحين مصلحين ، وعلى ربهم مقبلين ، وإذا خلى ونفسه لم يحفل بشىء من ذلك ، ورأيته على أبشع الأخلاق وأسفل الرذائل .

[الثانية] من صفات المنافقين الذبذبة والاضطراب بين حزب المؤمنين وحزب الكافرين ، فلا يستطيعون أن يكونوا مع أحد الفريقين ظاهرا وباطنا ، فاذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا الى شياطينهم ورءوس الكفر منهم قالوا لهم إنا معكم ، وما أظهرنا الايمان مع الحزب الأوّل إلاتهكما بهم ، وقد بين الله علة ذلك النفاق وهذه الذبذبة بقوله (فى قلوبهم مرض) ومن مرض قلبه مرض كلّ شىء فيه ، فان القلب هو رئيس الجوارح ، والمهيمن على الانسان كله ، وبفساد الرئيس يفسد المرءوس ، وذلك المرض لايشركهم فيه الكافر وان كان قلبه مريضا بحبّ الجاه ، وكراهة الحق ، والحقد على المصلح ، لأن قلبه لم يمرض بالضعف والخور والشرور ، فكان حربًا فى معاداة الحقّ ، وخذلان الاصلاح .

أما المنافق فكان خبيثا فى عداوته ، محتالا فى إفساده ، شأن الضعيف الذى لايستطيع أن يشق غيظه ، يمكر ويخادع ، ويداجى ويوارب ، مرض قلب ذلك المنافق فلم يثق بالله فى وعده ووعيده ، ولم يؤمن به فى ثوابه وعقابه ، فمرض بذلك المرض صاحبه ، ولم يفض على الجسم نورا يسير به فى الظلمات ، ويهتدى به فى الملمات ، وكان مثل ذلك الجسم كجيش اعتلّ قائده ، فهو يسير بلا قيادة ، وهيهات أن يهتدى أو يصل الى غاية .

[الثالثة] من أخلاق المنافق أن يعجبك قوله ، ويسوؤك عمله ، قوله قول الصوفية ، وعمله عمل الجبابرة ، إذا تكلمت معه فى الاصلاح والمصلحين ، والافساد والمفسدين ، أفاض معك فى القول ، وأراك أن قلبه يتفطر حسرة لذلك الفساد ، الذى نراه كلّ يوم ، وأنه يتمنى أن لو صلح أمر الناس ، وقد يصف لك طريق الخلاص من ذلك الفساد ، كطبيب ماهر ، وعالم خبير ، وإذا ولى عملا من أعمال المسلمين رأيته شيطانا من الشياطين ، رأيته ظلم العباد والبلاد ، وعاث فى الأرض الفساد (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألدّ الخصام «٢٠٤» وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحبّ الفساد «٢٠٥» وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد «٢٠٦» [1])

ولاعجب ، فان قوله لم ينشأ عن عقيدة ، ولم يصدر عن إيمان صحيح ، وهو يريد أن يعيش مع الكافر والمؤمن ، والبرّ والفاجر ، فاذا كان لسانه لسان مصلح فلأنه يريد أن يكون بظاهره مع

---

[١] البقرة .

المؤمنين ، و إذا كان عمله عمل مفسد فلأن قلبه فاسد ، وطويته خبيثة ، فعمله عنوان قلبه ، ولسانه عنوان خداعه ومواربته .

[الرابع] أنهم نفعيون ، لايريدون إلا مصلحتهم الدنيوية ، وغايتهم المادّية ، وهم من أجلها يواربون ويخادعون ، وللحصول عليها يداورون . يحاولون أن يرضوا الفريقين ، ويصادقوا الخصمين ، لأنهم يخشون إذاهم سايروا الداعى الى الاصلاح ، وأصبحوا من حزبه سرا وعلانية أن يكون حظه الفشل والاخفاق ، و إذا انضموا الى أعدائه فقد تكون له الغلبة فيهلكون مع الهالكين .

نظروا فى مستقبلهم على ذلك الأساس ، وفكروا فى عاقبتهم ذلك التفكير ، لايريدون أن ينضموا الى حزب يتحملون غرمه وغنمه ، شأن الأحزاب فى هذه الحياة ، بل أرادوا أن يكونوا مع الأحزاب كلها فى الغنم ، و بعيدين عن الأحزاب كلها فى الغرم . وفريق ذلك حاله ، وتلك غايته ، هو فريق غريب عجيب ، يريد أن يربح دائما وان خسر الناس ، وأن لايضحى بشىء وان ضحى الناس مخطئين أو مصيبين ، ولا أدلّ على تمكن ذلك الخلق فى نفوسهم من وصف الله لهم فى محكم كتابه إذ يقول (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومهم) يريدون أن يأمنوكم فيتظاهروا أمامكم بالايمان ، حتى لاتعاملوهم معاملة الكفار المحاربين ، وحتى لاتفتكوا بهم إذا كانت لكم الدولة ، و يأمنوا قومهم بقولهم لهم (إنا معكم إنما نحن مستهزئون) إذا قدّر لهم الغلب ، وقوله جلّ شأنه (الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وان كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) .

فترى أن أولئك الأقوام ينتظرون بالمؤمنين مايحدث لهم من كسر أو نصر ، أو خير أوشرّ ، فان نصرهم الله قالوا لهم : ألم نكن معكم فنستحقّ أن نشارككم فى نعمتكم ، ونساهم معكم فى غنمكم ، وان كان للكافرين نصيب من الظفر لأن الحرب سجال مشوا إليهم ، ومنوا عليهم بأنهم كانوا عونا لهم على المؤمنين بتخذيلهم ، والتوانى فى الحرب معهم ، يقولون لهم : إنا قد استحوذنا عليكم ، وتمكنا من الايقاع بكم ولم نفعل ، بل منعناكم وحفظناكم من المؤمنين .

ذلك هو الفريق النفعى الذى لايعنى إلا بمصلحته ، ولايهتمّ إلا بحصوله على شهوته ، و إنك لونظرت مليا فيما حولك ومايحيط بك لرأيت فريقا كبيرا من الناس على ذلك الخلق الردىء ، ترى ذلك الفريق مع كلّ الأحزاب السياسية وسواء عليه المحقّ فى نظره والمبطل ، لأن مصلحته فى هذه الحياة تتطلب أن يكون مع الجميع . فهو يريد أن يغنم ولا يغرم ، ويحاول من أجل ذلك أن يرضى كلّ الأحزاب ، ويربح فى كل زمن ، ان كان من أصحاب الأموال حفظ ماله وثروته ، ونماها واستثمرها ، وان كان من طلاب الوظائف له أو لبنيه حصل عليها أيا كان لون الحكومة ، وأيا كان القائم على الأمور والمهيمن عليها ، وقد صدق فيهم قول زعيم سياسى كبير [يديرون القلاع لكلّ ريح] .

و بمقدار افساد المنافقين أمر الدين على المؤمنين ، يكون افساد المنافقين فى كلّ العصور على الناس أمر دنياهم ، فان الغاصب يتمنى لوتصبح الأمّة كلها منافقة مخادعة ، لايهمها إلا أن تملأ

بطونها ، وتشبع شهواتها وأطماعها ، وان أكبر خاذل للمصلح السياسى ذلك الصنف الخبيث ، الذى يراوغ روغان الثعلب ، فلا تعرف له لونا، ولاتستطيع أن تجد له حزبا ، ظاهره معك ، وباطنه حرب عليك ، إذا أردت أن تحارب به تظاهر بأنه من حزبك ، وإذا شئت أن تصادقه لم يخلص لك المودّة ، وإذا كان الله تعالى قد توعد المنافقين بشرّ مما توعد به الكافرين إذ يقول :

(إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) فلأنهم شرّ مستطير على الاصلاح ، ومرض وبيل فى جسم الأمّة فى كلّ زمان ومكان ، وإذا قال فيهم (هم العدوّ فاحذرهم قاتلهم الله) فعلينا أن نتخذهم أعداء لنا فى أمور ديننا ودنيانا ، لأنهم هم العدوّ فيهما كما قال الله ، وعلينا أن نتقيهم ونقول فيهم كما قال الله (قاتلهم الله) .

وإذا كان الله تعالى قد كشف أمر المنافقين فى صدر الاسلام بفرضية القتال ، وفضح أمرهم بذلك التكليف الشاقّ ، فان الحوادث والفتن التى تحلّ بحزب الاصلاح فى كلّ زمان كفيلة بأن تميز الخبيث من الطيب ، والصادق من الكاذب .

[الخامس] من أخلاق المنافقين جبنهم وخورهم ، فلا تجد لهم شجاعة أدبية . يتجلى ذلك الجبن الخالع فى تخلفهم عن القتال ، وتلمسهم المعاذير ، حتى لا يكونوا مع المؤمنين فى شدائدهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولاتظلمون فتيلا «٧٧» [1]) .

ومع كونهم جبناء لم يقف ضررهم عند حدّ أن منعوا أنفسهم عن القتال ، بل يعوقون غيرهم عنه ، ويخذلونهم عن قيامهم بالواجب ، ودفاعهم فى سبيل الحقّ والحقيقة (قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لاخوانهم هلمّ إلينا ولايأتون البأس إلا قليلا «١٩» أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا «٢٠» [2]) .

فأنت ترى من هذه الآية كيف تملكهم الجبن ، واستولى عليهم الضعف ، فاذا جاء الخوف وطولبوا بالقتال رأيتهم وقد دارت أعينهم ، واضطربت أبصارهم ، ينظرون إليك نظر من حلت به غشية الموت ، فاذا ذهب الخوف وتوجه المسلمون للقتال وتركوهم سلقوا المؤمنين بألسنة حداد ، ذلك هو حالهم فى أنفسهم إذا جدّ الجدّ ، وطولبوا بالاندماج مع المؤمنين فى حروبهم ، وهم فوق ذلك يعوّقون المؤمنين ويثبطونهم عن القتال ، ويقولون لاخوانهم هلمّ إلينا ودعوا اشتراككم مع المقاتلين ، يشحون بأنفسهم عن المساعدة ، ويبخلون عن القتال فى سبيل الله ، ثم علل الله ذلك الشحّ والتثبيط بقوله (أولئك لم يؤمنوا) وماداموا غير مؤمنين فلا تستبعد ذلك منهم .

[السادس] من أوصاف المنافقين أنهم لم يرضوا الله ورسوله حكما فيما يعرض لهم من خلاف ، فحكومتهم غير حكومة المؤمنين ، ومرجعهم غير مرجعهم ، فان الله تعالى بر بنا أن حكومة

---

[١] النساء . [٢] الأحزاب .

المؤمنين عنـد النزاع هى كتاب الله تعالى وسـنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفيها يقول (فان تنازعتم فى شيء فردّوه إلى الله والرسـول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا « ٥٩ » [١]) .

أما هؤلاء فيتحاكمون الى غير كتاب الله المعصوم . وسـنة رسوله الصحيحة ، يتحاكمون إلى طواغيتهم وأوليائهم . ويحلونهم محلّ المعصوم . وإذا طالبتهم بالمحاكمة الى الله ورسوله صـدّوا عنك صـدودا (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضـلالا بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدودا) .

وقد بين الله علة إعراضهم عن المحاكمة إليه فى قوله (أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم) أى من مرض ونفاق ، وهو علة ذلك الاعراض ، وهو يريننا بذلك أن المؤمن الذى سلم قلبه من الشك والنفاق لا يمكن أن يعرض عن حكومة المؤمنين

وما أشدّ هذه الآية على أنصار التقليد الذين يدافعون عنه بكلّ ما أوتوا من قوّة ، ويعتقدون أنهم يدافعون عن دين الله . نعم ما أشدّها على المقلدين الذين اذا طالبتهم بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله لوّوا رءووسهم ، وهزّوا أكتافهم ، وقالوا لك : أين نحنُ من كتاب الله وسنة رسوله ومن لنا بمن يفهمنا هذه الآيات وأولئك السنن كما فهمها أئمتنا وشيوخنا .

ولو عرفوا أن الاعراض عن حكومة المؤمنين شأن من شئون المنافقين ، وأن هذه الحكومة قد نصبها الله لتقوم بين الناس بالقسط إلى قيام الساعة — لو عرفوا ذلك لفكروا فى الأمر ، وتدبروا العاقبة ، ولـكن من لنا بوصلهم بالقرآن وفقههم لمعانيه وأسراره . حتى يعرفوا أنه حجة عليهم فيما ادّعوا . وشاهد عليهم عنـد الله ، وهم لا يقرءون القرآن إلا غافلين ، ولا يتلونه حقّ تلاوته : اللهمّ اهد قومى فانهم لايعلمون .

[السابع] من صفات المنافقين : انتصارهم بأعداء المؤمنين . وموالاتهم إياهم ، وابتغاؤهم العزّة منهم . ولو كانوا مؤمنين حقا لعلموا أن أعداء الحقّ لا يملكون العزّة لأنفسهم ، فكيف يملكونها لغيرهم ؟

نعم لو كانوا مؤمنين لعلموا أن مصدر العزّة الحق وحزبه ، لا الباطل وجنده (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزّة فان العزّة لله جميعا) فاتخاذ الكافر وليا وناصرا فيما يعود على المؤمنين بالأذى هو شأن من شئون المنافقين .

ثم يتساءل القرآن الكريم عن أسباب ذلك الاتخاذ ، أهو ابتغاء العزّة عندهم ؟ أم هو شيء آخر ؟ فان كان اتخاذهم لطلب العزّة منهم فان العزّة جميعها لله وحده . فلاتنال إلامن طريق طاعته ولا يحصل عليها الرجل إلا بوقوفه عند حدود الله وسنته .

وكما خطأهم القرآن فى ابتغائهم العزّة من أعداء الحقّ وأنصار الباطل — خطأهم فى ادّعائهم

---

[١] النساء .

العزّة لأنفسهم ، والذلّ للمؤمنين (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لايعلمون « ٩ » [١]) .

والعبرة فى ذلك أن فريقا ممن يدّعون الايمان فى زماننا هذا يوالون الغاصبين للبلاد ، ويصافونهم لا ليستعينوا بهم على تثبيت حقّ أو إبطال باطل ، بل يوالونهم ليكونوا عظماء أعزّاء ، أصحاب مكانة ومنزلة ، ويفخر الرجل بأنه صديق فلان أوحسو به ، وقد تجرّه هذه الصداقة إلى أن يصوّر أمّته لذلك الغاصب بصورة حقيرة ممتهنة ، بل قد يصل به إخلاصه لذلك الصديق أن يصبح حربا على أمّته ، معوانا للغاصب عليها ، وحظه من ذلك دراهم معدودة يصل إليها ، أو رتبة يحصل عليها وذلك عنده هو العزّ الدائم ، والعظمة الخالدة ، ولو درى أن ذلك المستعمر مخلص لأمّته ووطنه قبل أن يكون مخلصا له ، وأنه لا يعطيه شيئا إلا حيث أخذ منه الثمن أضعافا مضاعفة — لو عرف ذلك هذا المسكين لعلم أن العزّة فى احترام نفسه ، وامتهان العظمة الكاذبة التى لم يكن مصدرها الخلق والكرامة ، وأن العزة لا تنال من عدوّ يتربص به الدوائر ، ويفترص به الفرص ، وأن الخير له فى أن لا يصافى عدوّا له ولبلاده ، بل يصافى من يناصره على الحقّ ، ويتعاون معه على البرّ والخير .

ولو شئت أن تجعل موالاة الغاصب هى موالاة المنافق للكافر المحارب لسهل عليك الأمر ، ووضح أمامك السبيل .

وآية ذلك أن أولئك الغاصبين لبلاد المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها لاتطيب لهم الاقامة ببلاد المسلمين إلا حيث عطلت حدود الله فى الأرض ، وانتهكت الحرمات ، وأبيح منها ما كان حراما ، وحرّم ما كان حلالا ، ولولا ذلك ماطابت لهم إقامة ، وما استطاعوا أن يعيشوا مع المسلمين .

وإلا فقل لى بربك أىّ بلد من بلاد المسلمين محتل بأجنبى تقطع فيه يد سارق ؟ أو يقتل فيه زان محصن ؟ أو تحرّم فيه الخمر ؟ بل أىّ بلد من بلاد المسلمين لايباح فيه الزنا العانى ؟ ويحلّ فيه التشريع الوضعى محلّ التشريع السماوى ، ويجد فيه الفاسق والمجرم مباءة صالحة للاجرام والفساد ، وعونا له على كلّ الموبقات والمحرّمات ، ولو شئت أن تطالب باقامة الحدود ، وتحريم المحرّمات ، والرجوع الى دين الله فى التشريع لقامت لذلك الدنيا وقعدت ، لامن الغاصب وحده ، بل من الغاصب وأذناب الغاصب ، وعرّضت نفسك لحرب شعواء لاقبل لك بها .

وحظّ الغاصب من ذلك معروف جلىّ ، وهو شغل الناس بشهواتهم وأهوائهم ، وصرفهم عن العمل الجدى المفيد ، ولو أن الناس صلحوا فى دينهم ، وتهذّبوا فى أخلاقهم ، ما استطاع الغاصب أن يعيش بينهم يوما واحدا ، ومن أجل ذلك يعمل وسعه على إفساد الأخلاق ، وتفريق الجمع وإضرام نار الحسد بين الأفراد والجماعات ، فهو يغزو المسلمين بجيوش من المفاسد والمحرّمات فوق غزوه لهم بجيوش من الاحتلال ، وآلاف من المدمّرات والمهلكات ، وهى جيوش محببة للنفوس يتقدّم بها الغاصب للأمّة التى يحتلها باسم المدنية والرقىّ ، لأن قطع يد السارق وحشية لا تليق

[١] المنافقون .

فى القرن العشرين ، وتحريم الزنا العلنىّ لايتفق والحرّية التى كفلها القانون ، وتحريم المسكرات جمود وتأخر ، تلك هى سمومهم القتالة ، وآلاتهم الفتاكة ، التى بها يعيشون ، وعليها يعتمدون .

لو عرف الموالى لهم أنهم يعيشون على ذلك الحساب ، و يعتمدون على أولئك المعاول الهدّامة للدّين والخلق والفضيلة ، ان لم يكن من طريق مباشر فمن طريق غير مباشر — لو عرف ذلك المسلم لعلم أن موالاته لهم هى شرّ مستطير على المسلمين ، وحرب فتاكة بأمّته وشعبه ، وتمكين لهم فى الأرض ، وتعاون على الاثم والعدوان .

قد يواليهم بعض الناس ليأخذ منهم لا ليعطيهم ، و ينفع بهم لا ليضرّ ، و يستغلّ نفوذهم لمصالح الناس — نعم قد يواليهم بعض الناس لذلك ، وقد تكون نيته صالحة فى هذه الموالاة ، ولكن الذين خبروهم وسبروا غورهم عرفوا أنهم لايرعون لصديقهم عهدا ، ولا يرقبون له أخوة ففى الوقت الذى يحسون منه أنه خصم لاستعمارهم وسياستهم يقلبون له ظهر المجنّ ، و يضحون به و بصداقته ، ومن ناحية أخرى لايمكن أن يعطوا صديقهم شيئا إلاحيث تقاضوه الثمن غاليا ، فهم يساومون فى كلّ شىء ، و يتجرون حتى على حساب الصداقات الشخصية ، فلا يعطون إلا وقد أخذوا ، ولاينفعون إلا وقد أضروا ، ولو أن ضررهم وقف عند حدّ الموالى لهم لهان الأمر ، ولكنهم يضرونه فى أمّته ، و يأخذون منه الثمن على حساب شعبه ، فانتهت المسألة بمصلحة شخص واضرار أمّة ، و يالها من صفقة خاسرة . وتجارة بائرة ، ومن لم يعرف خبث الغاصبين والمستعمرين فليسل من خبرهم ، ووقف على نواياهم ، و بعد ذلك يختار لنفسه مايحلو .

[الثامن] من صفاتهم إكثارهم من الحلف ، فتراهم كثيرى الأيمان ، وكثيرى الكذب والقرآن الكريم يحدثنا عنهم وعن أيمانهم فيقول (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون [1]) وتراه يقول (يحلفون بالله ماقالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ومانقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله «٧٦» [2]) وتراه يقول (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس [3] ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون «٩٧» يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لايرضى عن القوم الفاسقين «٩٨» [4]) .

وسبب إكثارهم من الأيمان أنهم لا يثقون بأنفسهم ، ولا يعتقدون أنهم صادقون ، والشأن فيمن فقد الثقة فى نفسه أن يشعر بفقد ثقة الناس فيه ، فيجد نفسه فى حاجة الى أيمان عله يعوض شيئا من هذه الثقة ، أما الرجل الذى يصدق ، و يعتقد فى نفسه أنه صادق فما أغناه عن تأكيد أحاديثه بالأيمان ، وتقويتها بالحلف .

ولو أنك تأمّلت ذلك الخلق الردىء الذى يحديه الله عن المنافقين لتكشف لك عن خلقين كامنين فى نفوسهم .

[أولهما] : الكذب . [وثانيهما] : محاوله تغطية الكذب ، والتلبيس على الناس بـ

---

[١] يخافونكم . [٢] التوبة . [٣] نجس . [٤] التوبة .

حتى لا يظنوا أنهم كذبة ، ولو كانوا كذبة غير مدلسين لهان الأمر ، ولـكنهم كذبة يريدون أن يروا الناس أنهم صادقون .

ولا ندرى كيف يستطيع الكاذب أن يلبس على الناس ويريهم أنه صادق ، وأن الكاذب الذى يحس من نفسه الكذب ، وضاعت ثقته بنفسه ، لا يستطيع أن يحمل الناس على تصديقه ، وان اتخذ لذلك ما اتخذ من فنون وأساليب ، وكلما بالغ فى ستر ما عنده من خلق كلما افتضح أمره ، وهتك ستره ، فأولئك المنافقون الذين يكثرون من الأيمان ليستروا ما انطوت عليه نفوسهم من نفاق ، يتقدمون إلى الناس ببرهان جلى على كذبهم ، وإضاعة الثقة بهم ، ذلك البرهان هو إكثارهم من الحلف ، ولو أنهم كانوا صادقين أمام ضمائرهم ما احتاجوا إلى أولئك الأيمان ، وحسبنا أن الله تعالى يقول فيهم (اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون) .

والمراد أنهم ما اتخذوا الأيمان تعظيما لاسم الله ، وتقديسا له ، كما هو وضع الأيمان ، من قطع النزاع بين المتخاصمين بالرجوع إلى اسم الله المعظم ، بل ان هؤلاء اتخذوا الأيمان وقاية لهم من كشف حالهم ، وفضيحة أمرهم ، فدنسوا اسم الله بذلك التصرف ، وامتهنوه بوضعه فى غير وضعه اللائق ، كما اتخذوا نطقهم بكلمة الشهادة جنة لهم من حرب المؤمنين إياهم ، واتخذوا صورة الصلاة وقاية لهم من عذاب التاركين للصلاة فى الدنيا ، وما كانت كلمة الشهادة لتقى صاحبها من العذاب فى الدنيا ثم يحل به العذاب فى الآخرة ، وكذلك الصلاة ، ما شرعها الله لتكون وقاية للناس من اللوم فى الدنيا ، وانما شرع الله ما شرع من كلمة الشهادة والصلاة وغيرها من أعمال الانسان ليسعد بها الانسان فى الدنيا والآخرة ، ولـكن المنافقين مرضت قلوبهم فمرض فيهم كل شىء ، وصرفوا الأشياء عن حقيقتها ، وحولوها إلى غير وجهها الصحيح

وجلة القول أن الشأن فى المنافق أن يكون كاذبا ، وأن يستر كذبه بالحلف ، ويقى نفسه من الفضيحة بالأيمان الباطلة ، لأنه يحس بأنه كاذب ، ولولا إحساسه ذلك أمام نفسه ما احتاج الى هذه الأيمان ، والشأن فى المؤمن أن يكون صادقا .

ومن أجل ذلك لم يكن فى حاجة الى تأييد قوله باليمين ، واذا حلف فانما يحلف لقطع النزاع معظما لله تعالى واسمه ، ومقدسا له حق التقديس . وقوله (فصدوا عن سبيل الله) أى ان المنافقين يمنعون الناس عن دين الله بتلك السيرة السيئة ، لأنهم معدودون من المؤمنين ومحسوبون عليهم ، فكل عمل يصدر عنهم من شأنه أن يشوه سمعة المسلمين ويؤذيهم ، ولذلك يقول الله بعد ذلك (إنهم ساء ما كانوا يعملون) فاللهم باعد بيننا وبينهم ، وطهرنا من أخلاقهم وأوزارهم .

[التاسع] من أخلاقهم : كذبهم وتهاونهم بالصدق ، وامتهانهم لأنفسهم وكرامتهم ، وجدير بقوم فقدوا الشجاعة الأدبية ، ولم يكن لهم مذهب معين فى الحياة أن يكونوا كذبة ، لا يعنون بحق ، ولا يحفلون بصدق ، وهذا الخلق وهو الكذب كالأصل للخلق السابع ، وهو إكثارهم من الحلف ، واتخاذهم الأيمان جنة ووقاية .

وقد كشف الله عن كذبهم فى دعوى الاسلام ، فعرف نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن المنافقين اذا جاءوك وقالوا لك نشهد انك رسول الله فلا تصدقهم ، لأنهم لم يقولوا ذلك عن يقين

واقتناع ، كما هو الشأن فى الشهادة ، وإنما يقولون ذلك تقية منك ومن أصحابك ، وإن الله تعالى يشهد بكذبهم ، ومن شهد الله بكذبه لاأحد يصدقه (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) .

ولم يكن كذب المنافقين قاصرا على المؤمنين أعدائهم فى الدين والعقيدة ، بل هو خلق متأصل فيهم لأنه أثر من آثار مرض القلب ، ولذلك تراهم يكذبون حتى على الكافرين الذين يقولون لهم إذا خلوا إليهم إنا معكم ومن أنصاركم .

ألا ترى إلى قول الله تعالى وهو يحكى عن المنافقين تحريضهم الكافرين على قتال المؤمنين (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون «١١» لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار ثم لا ينصرون «١٢» لأنتم أشدّ رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لايفقهون «١٣» [1]) .

فأنت ترى أنهم كذبة حتى مع حزبهم ، وجبناء حتى مع أنصارهم ، ومن صار الكذب خلقا له يكذب مع نفسه ، فكيف يصدق مع غيره ؟ وتأمّل قول الله تعالى حكاية عنهم (لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، كيف يؤكدون الوعد ، ويوثقون القول ، وكيف يفجأهم الله بقوله (والله يشهد إنهم لكاذبون) ثم يقول (لئن أخرجوا لايخرجون معهم) لأنهم كذبة (ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولنّ الأدبار) فلا يثبتون على القتال ، لأنهم لا يقاتلون بقلوبهم وعقائدهم ، بل بأجسامهم ، ثم قال الله (ثم لا ينصرون) أى أنه كتب عليهم الخذلان فى النهاية .

[العاشر] من أخلاقهم : نقضهم العهد ، وإخلافهم الوعد ، وهو من فروع الكذب ، غير أنه نوع خاص منه يتعلق بالعهود والمواثيق ، وهو من أضرّ أنواع الكذب ، وأفتكها بمصالح الناس ، ولذلك لا يتفق والإيمان فى شىء ، وقد جعل الله من أخلاق المؤمنين أنهم يراعون العهود والمواثيق ، كما جعل من صفات المنافقين نقضهم لها .

ومن عجيب أمر ذلك الخلق أنه علامة من علامات النفاق ، وهو فى الوقت نفسه يزيده فى النفس ويثبته ، فهو أثر من آثاره ، وسبب من أسبابه .

ألا ترى إلى قول الله تعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقنّ ولنكوننّ من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون) فتراه يعدّ هذه الطائفة التى عاهدت ربها ثم أخلفت من المنافقين ، ثم يقول (فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه) ثم يعلل ذلك بقوله (بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) فالكذب والاخلاف أثر من آثار النفاق ، وكلما دأب عليه صاحبه تمكن نفاقه من النفس واستحكم .

---

[١] الحشر .

وما أقرب ذلك الخلق خلق الكذب والاخلاف الى رجال السياسة ودعاة الاستعمار ، فتراهم يعدون ويخلفون ، و يعاهدون و يغدرون ، وقد تعدّ لهم العشرات من الوعود ثم لاتكاد ترى لهم شيئا من الوفاء ، لأن المرجع عندهم مصلحتهم الذاتية ، وأغراضهم الاستعمارية ، ولاسيما مع الشعوب الضعيفة التي لاتستطيع أن تحاسبهم على ذلك الغدرحساب الندّ للندّ ، والنظير للنظير ، فتجد المعاهدات عندهم قصاصات من الورق ، تلعب بها القوة ، وتراهم ان صدقوا معك فى أصل العهد كذبوا فى فهمه وتطبيقه ، فتراهم يفسرونه كما شاءت لهم القوة وحسن لهم الاستعمار ، وعندهم فى ذلك التأويل الذى يمسخ العهد مسخا ماعندهم من قوة ، وماعليه معاهدوهم من ضعف وما أحوج الأمم الى خلق يحفظ الضعيف من القوىّ ، ودين يضع حدّا لأولئك الغلاة الذين لاهمّ لهم سوى ملء بطونهم ، و إشباع شهواتهم ، حتى يعيش الناس آمنين مطمئنين .

ولو أن أولئك الناقضين للعهود ، الناكثين للأيمان ، عرفوا أنهم يخسرون بكذبهم فوق ما يكسبون ، و يضيعون على أنفسهم من ثقة الشعوب بهم أكثر مما يربحون — لو أنهم علموا ذلك لآثروا الصدق على الكذب ، والوفاء على الغدر ، و بنوا سياستهم على الحزم والعزم ، والعلم والعمل ، وهنالك يكون لهم شأن غير ذلك الشأن ، وهنالك يستريحون ويريحون ، وهل احتاج المسلمون فى سياستهم الناس فى الصدر الأوّل الى الكذب والخداع ؟ أم لجأوا الى ما يلجأ إليه المستعمرون من نقض وخيانة ، حتى استطاعوا أن ينشروا راية الاسلام على نصف المعمورة فى نصف قرن؟ لم يحتاجوا الى شيء من ذلك ، بل رأوا أنفسهم فى حاجة الى العدل والصدق والوفاء حتى أصبحوا مضرب الأمثال عند خصومهم من رجال الغرب ، وشهدوا أن الأرض مارأت فاتحا كالاسلام فى عدله ورحمته ، ومارأت منصفين كسلفنا الصالح أيام قوتهم وحكمهم .

[الحادى عشر] من أخلاقهم أن بعضهم من بعض ، والمراد أنهم متشابهون فى الباطل كما قال فى آية أخرى (ذرّية بعضها من بعض) وقال فى المؤمنين (بعضهم أولياء بعض) فترى أن الله جعل من صفات المؤمنين أن ينصر بعضهم بعضا ، أما المنافقون فقد فقدوا تلك الصلة القلبية التى بها يتناصرون ، فهم متباغضون متخاذلون (بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون «١٤» [1]) .

وجدير بمن كان همهم مصالحهم الذاتيـة أن يكونوا على ذلك الحال من التفرّق والتخاذل ، نعم من كان همه فى هذه الحياة أن يعيش مع كلّ الأحزاب ، وأن يغنم من كلّ الظروف أن لايتصل قلبه بقلب غيره على أساس الدين والخلق ، بل يكون قلبه دائما مع شهواته ، وماتهواه نفسه ، أما المؤمنون فقد وحد الدين بينهم ، وجعلهم حزب الله ، يهتمون لما يهتمّ به ، ويتألمون لما يغضبه ، فاذا انتهكت حرمة من حرمات الدين رأيتهم غلاظا شدادا على من يقع منه ذلك العمل ، فالدّين والعقيدة الفضل الأوّل فى ترابط المسلمين وتآزرهم ، وأخذ بعضهم بساعد بعض .

وقد وصف الله المنافقين بقوله (يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف و يقبضون أيديهم) كما وصف المؤمنين بضدّ ماعليه المنافقون فقال (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر و يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و يطيعون الله ورسوله) .

---

[١] الحشر .

أما ان المؤمنين من أخلاقهم ما وصفهم الله به فظاهر ، واما ان المنافقين يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف فلأنهم يأمرون بتخذيل المؤمنين وهو منكر ، و ينهون عن معاونتهم وهو معروف ، وقد سبق لك أنهم يعوّقون عن القتال مع المؤمنين ، و يقولون لاخوانهم هلمّ إلينا ، وانهم أشحة على الخير .

وقد حكى الله عنهم أنهم يقولون لاخوانهم من أغنياء المدينة (لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) وهو طريق لاذلال المؤمنين ، يحاولون به أن يصرفوهم عن دين الله .

وقد ردّ الله عليهم بقوله (ولله خزائن السموات والأرض ولكنّ المنافقين لايفقهون) أى لايفقهون أن بيد الله خزائن السموات والأرض ، وهو الذى يعطى من يشاء و يمنع من يشاء ، ومن أراد الله غناه لايستطيع أحد إذلاله بحال .

ولقد ذكرت هذه الآية عند ماحاول بعض الحكام الظالمين الحيلولة بين مال الدولة الذى أعدّ لتنفيس كربات المأذومين و بين رجال لايوافقونه فى لونه السياسى، و يعطيه بسخاء لمن يعاونونه على ظلمه ، و يؤازرونه فى سياسته ، عند ذلك قلت صدق الله وصدق كتابه الكريم ، الذى لا يزال جديدا تفسره الحوادث ، فأولئك المنافقون فى صدر الاسلام كانوا يوصون أغنياء المدينة حتى لايساعدوا المهاجرين الفقراء ، الى أن ينفضوا من حول محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك الوزير الظالم جاء ليوصى بحرمان خصومه فى السياسة من مرافق الدولة ، حتى ينفضوا من حزبهم الذى ينتمون إليه ، وما علم أن لله خزائن السموات والأرض ولكنّ الحكام الظالمين لايعقلون شيئا من ذلك ، وأىّ فرق بين منافقى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم و بين منافقى زماننا وظالميه ، طلاب المادّة ، وأعداء الحقّ والحقيقة ، والمعتدين على الحرمات ، والمستبيحين لكلّ الجرائم صدق الله وصدق كتابه .

(المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) وان تراخى الزمان و بعدت المسافة ، و إذا شئت أن ترى فريقا من الناس يشبه أولئك المنافقين فى أمرهم بالمنكر ، ونهيهم عن المعروف ، فان ذلك يسير عليك ، غير أن ذلك المنكر الذى يأمرون به لايحضون الناس عليه من جهة أنه منكر ، وكذلك المعروف الذى ينهون الناس عنه ، لاينفرونهم منه بصفة أنه معروف ، ولو فعلوا ذلك ماسمع لهم أحد ، ومانجحوا فى مهمتهم ، فلا غنى لهم عن تحسين المنكر للناس حتى يصير عندهم فى لون المعروف ، وتشويه المعروف حتى يصير كالمنكر ، و بذلك يستطيعون أن يصلوا لغايتهم ، و يحصلوا على غرضهم .

ألا ترى الى شباننا اليوم يحسنون الخمر للناس ، ويقولون لهم إنها تفيد الصحة ، وتحدث عند شاربها تفريحا ونشوة ، وتباعد بينه و بين الأحزان ، وهى شراب علية القوم وأصحاب المكانة من الأمّة ، و يحملون اخوانهم بمختلف الأساليب على غشيان أماكن الشرب ، و بيوت القمار والزنا ، باسم أن ذلك مدنية ورقىّ ، والمقتصد منهم فى ذلك التهتك يقول لصاحبه نشرب ونتوب الى الله تعالى بعد و إذا رأوا شابا يذهب الى مسجد من المساجد أو ناد من أندية الوعظ والارشاد ثبطوه عن ذلك العمل ، وحالوا بينه و بينه ، مرّة من ناحية أن هذه أعمال [رجعية] لاتليق

بالمثقفين ، ومرة من جهة أنه يجهد نفسه ويكلف نفسه أعمالا شاقة وهو شابّ فى مقتبل حياته ، والأولى بمثل هذه الأعمال الشيوخ دون الشبان ، كالذى ينهى صاحبه عن بذل المال فى عمل من أعمال البرّ ويحببه فى البخل من جهة أنه حريص على مصلحته ، ويهمه أنه يكون من أغنياء الناس لامن فقرائهم ، فهو يدعوه الى البخل باسم الاقتصاد ، ويحثه على التقتير باسم المصلحة ، ويعده بالفقر إذا هو استمرّ على ذلك الحال .

وقد وصف الله الشيطان بأنه يعد الناس الفقر إذاهم بذلوا أموالهم فى سبيل الخير ، ويأمرهم بالفحشاء من طريق تتبع النفس واطماعها فى عفو الله وغفرانه ، فهو يهوّن على الناس الفاحشة وينفرهم من الصدقة ، فهم شياطين فى ذلك العمل ، وخبثاء بذلك الأسلوب ، وما أكثرهم فى كل زمان ، فأولئك هم المنافقون وأولئك أعمالهم السيئة وآثارهم الخبيثة ، وهذه ذراريهم وذريتهم نسأل الله السلامة منهم ومن شرورهم .

[الثانى عشر] من أخلاقهم لينهم فى القول ، ودهانهم فى الحديث ، وهو مايشير له القرآن الكريم فى قوله (ولتعرفنهم فى لحن القول) فترى لهم لحنا خاصا ، وأسلوبا يمتازون به عن سواهم ، ذلك اللحن هو مانلحظه عليهم من الضعف عند مايطلب الى الرجل منهم أن يقول حقا ، أو يشهد على حادث ، فتراهم مضطربين . لايستطيع الواحد منهم أن يواجه الحقائق ، ويشهد بما يعتقد ، وإنما يتذبذب ويضطرب ، فلا تدرى أهو معك أم عليك ، ولاتعرف فى أىّ ناحية هو ، وفى أىّ صفّ يريد أن يكون .

ولاعجب ، فان ضعف العقيدة ومرض القلب حملهم على ذلك الحال ، ولاننتظر من قلب ضعيف أن يصدر منه كلام فيه قوة ، لأن الضعيف لايلد إلاضعيفا ، ولوصحت قلوبهم لصحت ألسنتهم .

أما المؤمن فقد اختار له خطة يسير عليها ، وأخذ على نفسه أن ينصر الحقّ ، ولايخشى إلا الله ، فتجد فيه شجاعة أدبية تضطره الى أن يجاهر بالحقّ وان تألم له الناس ، لأن غايته إرضاء الله ، فلا يهمه أغضب المخلوق أم رضى ، ومن كان همه إرضاء الله هان عليه كلّ شىء فى ذلك السبيل ، وكثيرا مايضحى المؤمن فى سبيل قول الحقّ ، وشهادة الحقّ ، وقوله للمخطئ أنت مخطئ ، وللمصيب أنت مصيب .

أما المنافق فلأنه يعنى كثيرا بإرضاء الناس ، ويحاول أن لايكون له عدوّ ، تراه يداجى ويوارب ، ويخادع ويخاتل ، ومن أجل ذلك كان حديثه مخنثا ، ليس فيه شىء من القوة ، ولاشبيه من الوضوح ، وما أكثر ذلك الخلق فى كثير ممن ينتسبون للاسلام ، بل وفى كثير من علمائهم وخاصتهم ، تجدهم لايجرءون على قول الحقّ والصدع به ، إما استبقاء على مركزهم أمام العامة ، أو حرصا على مكانتهم لدى الجماهير ، وإما مواربة لأمير أوحاكم ، وقد يكون للأمير أو الحاكم شهوات فيسخر بعض العلماء ليؤيده فيما يريد ، ويعاونه فيما يشتهى ، فيجد منه الخادم المطيع ، وأقلّ مايجده الحاكم الظالم من علمائنا اليوم أن يكون موقفهم منه سلبيا ان لم يكن إيجابيا فيما يبغيه من باطل . ويحرص عليه من ظلم ، ولو أنهم علموا أن الله كلفهم قول الحقّ ولو على أنفسهم ، وطالبهم أن يصدعوا به فى وجه الحاكمين والمحكومين ، وطالبهم أن يتعاونوا على

محاربة الظلم والظالمين - لوعلموا ذلك ، وعلموا أن الله تعالى محاسبهم على هذه المواقف المريبة مارضوا لأنفسهم أن يكونوا قدوة سيئة ، وأسوة غير صالحة ، ولو أنك أخذت تلومهم على ذلك العمل لسمعت فتاوى طويلة عريضة ، ومعاذير واسعة ، وكثيرا ماتسمع منهم « دارهم مادمت فى دارهم » وأمثال هذه الكلمة كقول الشاعر :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ناسين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر » . رواه النسائى ، وقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين «١٣٦» [١]) .

وإذا كان علماء الأمّة ذلك موقفهم من قول الحقّ وشهادة الحقّ فماذا يصنع العامّة . اللهمّ ارزقنا شجاعة على عمل الحقّ وقول الحقّ ، وباعد بيننا وبين الضعف ، واجعل همنا رضاك ، وغايتنا الوصول إليك ، وصغر أمامنا كلّ شىء فى ذلك السبيل ، ولاتفتنا بزخارف هذه الحياة ، وباعد بيننا وبين النفاق كما باعدت بين المشرق والمغرب .

[الثالث عشر] ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كلّ صيحة عليهم هم العدوّ فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) .

والظاهرة العامّة لأولئك الصفات أنهم قوم يهتمون بظاهرهم، فيصلحونه أمام الناس ، ولايحفلون بقلبهم وباطنهم ، فاذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، لاهتمامهم بها ، وعنايتهم باصلاحها ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، لأنهم يلينون القول ولايغلظون فيه ، ويهمهم أن يكونوا فصحاء بلغاء ، ثم أراد الله أن يرينا أن ذلك الاصلاح الظاهر هو غايتهم التى يرمون إليها ، فقال (كأنهم خشب مسندة) فشبههم بالخشب المسندة الى الحائط ، وليس من شأن الخشب أن تسند ، بل الشأن فيها أن توضع للعروش ، فتقام عليها البيوت والمبانى ، ولكن هؤلاء مثلهم فى أنهم أشباح قد خلت من العلم والنظر ، وعطلت من وظيفتها فى هذه الحياة مثل الخشب التى عطلت عن عملها ، وأسندت الى الحائط، أو يريد الله أن يشبههم بالخشب التى نخر جوفها ، وظاهرها سليم أمام الناس فهم كهذه الخشب فى حسن المنظر ، وقبح المخبر ، لأنهم لاقلوب لهم ولاعقائد ، بل هم مذبذبون مضطربون ، لأن من لاعقيدة له لانفع فيه ولاغناء .

وقد وصفهم الله بقوله (يحسبون كلّ صيحة عليهم) ليؤكد لنا الغاية من التشبيه بالخشب المسندة ، ويرينا أنهم جبناء ضعاف القلوب ، ومن أجل ذلك يظنون أن كلّ صيحة تقع هى عليهم وحدهم ، ومن كان كذلك لايستقرّ له حال ، ولاينتظم له شأن ، وإنما حسبوا كلّ صيحة عليهم لأنهم يتوهمون عند كلّ حدث من الأحداث أن سياستهم قد كشفت ، وخداعهم قد فضح ، والرجل الذى يعيش مع الناس عيشة المواربة ، ويعاملهم معاملة المخادع ، لايأمن أن يكشف ستره ويفضح أمره ، فهو دائما مضطرب ، ودائما يتوقع الخزى والنكال .

---

[١] النساء .

وحسبنا أن الله تعالى يقول فيهم (هم العدوّ) فيحصر العداوة فيهم ، وكأنّ الكافرين فى جانبهم ليسوا شيئا يذكر ، لأن الكافر قد ظهر بعداوته للمؤمن ، فيستطيع أن يأخذ منه حذره ، أما المنافق فهو السم فى صورة العسل، والعدوّ فى ثوب الصديق ، والخاذل فى شكل الناصر ، ولو لم يكن من وصف الله لهم سوى هذه الجملة لكفت فى التنفير منهم ، والحضّ على كراهتهم ، وكما كان المنافق فى دين الله عدوّا للمحقّ وأنصار الحقّ ، هو عدوّ للاصلاح فى كلّ شأن من شئون الحياة ، هو عدوّ الاصلاح فى السياسة ، وعدوّ الاصلاح فى الاقتصاد ، وعدوّ الاصلاح فى العلم ، وعدوّ الاصلاح فى الصناعة ، وعلى الناس أن تحذره وتتقى شرّه ، ومن يتتبع تاريخ الاصلاح السياسى فى كلّ أمّة من الأمم يجد فيها المؤمنين والكافرين والمنافقين ، ويجد أن المنافقين هم أضرّ عليها من أعدائها الكافرين .

ومن أجل ذلك أطال القرآن فى صفاتهم ، وأكثر من ذكر فضائحهم ، ليحذرنا من التخلق بخلقهم ، ويباعد بيننا وبين الانتساب إليهم ، ولم يكتف القرآن الكريم بذلك القدر من التحذير بل قال (قاتلهم الله) وهو دعاء عليهم بالهلاك بعد أن حذرنا منهم ، وعرّفنا أنهم هم عدوّ الأمّة الالدود ، وداؤها العضال ، وهم طريق نكبتها ، وسبب استعباد العدوّ لها ، وشقائها فى هذه الحياة .



أشـــــهر الغزوات

غزوة بدر [1] الكبرى

قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ «١٣» آل عمران

وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ [2] أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ «٧» لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ «٨» إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ [3] «٩» وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «١٠» إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ [4] ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ «١١» إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ

---

[١] محلّ بين مكة والمدينة ، وهو الى المدينة أقرب في الجنوب الغربي منها على الطريق السلطاني ، وكان به سوق تعقد كلّ سنة ثمانية أيام ، وكانت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة في رمضان .

[٢] العير ، وهى الإبل تحمل الطعام والنفير القوم ، الشوكة : القوّة . [٣] تابعين .

[٤] وسوسته ، يربط : على قلوبكم : يثبتها .

فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ «١٢» ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا [١] اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ «١٣» ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ النَّارِ «١٤» يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا [٢] فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ [٣] «١٥» وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ [٤] أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ [٥] فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ «١٦» فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ [٦] إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ [٧] الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «١٧» ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ [٨] كَيْدِ الْكَٰفِرِينَ «١٨» إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ «١٩» الأنفال

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ [٩] يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٤١» إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ [١٠] الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَٰدِ وَلَٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ «٤٢» إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ

---

[١] عادوهما . [٢] زاحفين لقتالكم . [٣] لاتفرّوا منهزمين . [٤] لمصلحة قتال .

[٥] جماعة من المؤمنين . [٦] ما سددت رميك حين رميت ، ولكن الله هو الذى سدده وجعله يصيب مقاتل القوم . [٧] يختبر . [٨] مضعف .

[٩] الفرق بين الحقّ والباطل . [١٠] جانب الوادى الأقرب إلى المدينة ، والقصوى : البعيد ، الرّكب : العير فى مكان أسفل منكم وهو ساحل البحر .

فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «٤٣» وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ «٤٤» يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ «٤٥» وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ [١] وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ «٤٦» وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَٰرِهِمْ بَطَرًا [٢] وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ «٤٧» وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ [٣] لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ «٤٨» إِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٤٩» الأنفال

تعليق وعبرة

(١) يرينا الله فى آية آل عمران (قد كان لكم آية فى فئتين التقتا) الخ الآية أن لنا عبرة عظيمة فى جماعتين التقتا للقتال : إحداهما فئة تقاتل فى سبيل الله الذى شرعه ، وهو إعلاء التوحيد وإحقاق الحق ، وفئة أخرى كافرة تقاتل فى سبيل الطاغوت والباطل ، قيل : هو إشارة إلى قتال المؤمنين للمشركين فى غزوة بدر ، وما حصل فيها من النصر المؤزر للمؤمنين على قتهم ، كما قال فى سورة آل عمران (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) .

والعبرة فى هذه الموقعة التى ترشدنا إليها الآية الكريمة هى قوله (يرونهم مثليهم رأى العين) أى أن المؤمنين يرون الكافرين مثلين لهم مع أن الكافرين كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين ، ونظيره قول الله تعالى فى سورة الأنفال (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم

---

[١] قوتكم ، وسماه ريحاً ، لأن الريح أكبر قوة . [٢] فخراً واستعلاء ، رئاء الناس : بقصد الرياء .
[٣] مجير .

فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور « ٤٣ » وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور « ٤٤ ») .

يشرح الله لنا بهذه الآيات الحكمة من إراءة الله لهم قليلا فى أعينهم ، وإراءة الرسول لهم فى منامه قلائل ، تلك الحكمة أنهم يتشجعون على اللقاء ولايجبنون ، كما كان من تشجيع الكفار على قتال المؤمنين أن قلل المؤمنين فى أعينهم كما هو الواقع ، ليدخلوا معهم فى حرب ، فيكون من أمر خذلانهم ما يكبت الله به أعداء الحق ، وينصر به المؤمنين ، وهو ما أشار إليه بقوله (ليقضى الله أمراً كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور) .

أما قوله تعالى (والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) فهو يريك أن ذلك ليس بعجيب أن تكون هذه الآية فى الفئتين المقاتلتين ، يؤيد من تقاتل فى سبيله ، ويخذل من تقاتل فى سبيل الشيطان ، لأنه يؤيد بنصره من يشاء تأييده ، وهو ماقضت الحكمة تأييده لتمشيه مع السنن ، ودفاعه عن الحق والحقيقة ، واعتصامه بالصبر والثبات .

وفريق ذلك حاله جدير بأن يؤيده الله بشتى الوسائل ، فيقلل عدوه فى نظره ، ويربط على قلبه ، ويذهب من نفسه وساوس الشيطان ، وتكون له العاقبة ، وهو يرينا بذلك أن ذلك هو الشأن فى كل حرب تكون بين حزبين ، يؤيد الله فيها حزب الحق ، ويخذل فيها جند الباطل ، ولذلك ختم الآية بقوله (إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

(٢) (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) الخ الآية : أى واذكروا وعد الله لكم أن تحصلوا على إحدى الطائفتين ، العير أو النفير ، وتودون أن الطائفة التى لم تكن لها شوكة وقوة تكون لكم وهى العير ، لأن فيها غنائم وليس فيها إلا فوارس قليلة ، وهو تعريض بكراهتهم للقتال ، وطمعهم فى المال .

يقول الزمخشرى : يعنى انكم تريدون الفائدة العاجلة ، وسفساف الأمور ، وأن لا تلقوا مايرزؤكم فى أبدانكم وأموالكم ، والله عز وجل يريد معالى الأمور وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة ، والفوز فى الدارين ، وشتان مابين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلتكم ، وأعزكم وأذلهم .

وقوله (إذ تستغيثون ربكم) الخ بدل من قوله (وإذ يعدكم الله) أى هو يعدكم إحدى الطائفتين فى الوقت الذى تطلبون فيه الغوث من ربكم ، والمراد بالوقت هنا : الزمن المتسع الذى وقعت فيه هذه الحوادث ، وهو الزمن الذى كانت فيه غزوة بدر ، وليس المراد أن اللحظة التى وقع فيها وعد الله لهم ، هى تلك اللحظة التى طلبوا فيها الغوث من الله تعالى ، يذكرهم بذلك استنصارهم بالله تعالى فى وقت قلتهم وكثرة عدوهم ، ووعد الله لهم بالنصر والامداد بألف من الملائكة .

ثم بين الغاية من ذلك الوعد فقال (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) فتسكن بعد الزلزال والخوف ، فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر .

ثم أرانا الله فى آية أخرى أنه سيلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، وبذلك تعرف مقدار نصر

الله للمؤمنين ، وخذلانه للكافرين ، يثبت الله المؤمنين ، و يبشرهم بأنه معينهم وناصرهم ، ومدهم بالملائكة ، ولاشك أن تثبيت القلوب فى وقت الزلزال نعمة كبرى ، يكرم الله بها أنصاره المؤمنين ، و إلقاء الرعب فى قلوب الكفار نقمة يخذل الله بها الكافرين .

وقوله (وما النصر إلا من عند الله) يرينا أنه تعالى الفاعل للنصر مهما تكن أسبابه المادّية والمعنوية ، إذ هو المسخر لها ، وناهيك بما لاكسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان ، ثم علل ذلك بقوله (إنّ الله عزيز حكيم) ومن كان غالبا على أمره ، ولا يضع شيئا فى غير موضعه لا يكون النصر إلا منه .

(٣) (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) الخ الآية بيان لمنة أخرى على المؤمنين هى إلقاؤه تعالى النعاس عليهم ، حتى غشيهم وغلب عليهم فكان كالغاشية تستر الشىء ، تأمينا لهم من الخوف الذى كان يساورهم من الفرق العظيم بينهم و بين عدوّهم فى العدد والعدد وغير ذلك .

ثم أشار إلى منة ثالثة هى قوله (و ينزّل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) أى من الأحداث التى تعرض لكم والأرجاس (ويذهب عنكم رجز الشيطان) وسوسته كأن يقول لهم : أتزعمون أن فيكم نبيا وتصلون محدثين مجنبين ؟ (وليربط على قلوبكم) يثبتها بما تجدون فى ذلك الماء من نفع (و يثبت به الأقدام) حتى لا تسوخ فى الأرض وقد يقاتل الرجل منكم راجلا لا راكبا ، و بذلك يكون قويا ثابت القدم (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا) متعلق بقوله (و يثبت به الأقدام)

والمعنى أنه تعالى يثبتها فى الوقت الذى يوحى فيه إلى الملائكة آمرا لهم أن يثبتوا به الأنفس بملابستهم لها ، واتصالهم بها ، والمعية فى قوله (أنى معكم) معية إعانة كقوله (إن الله مع الصابرين) واذا كان الله هو الموحى للملائكة بأنه معهم ومعينهم ، وهو الذى أمرهم بتثبيت المؤمنين ، فهو يرينا بذلك مقدار نعمته على المؤمنين وفضله عليهم ، ولم يكن ذلك الفضل تكريما لأشخاصهم ، بل لأنهم يقاتلون فى سبيل الله ، ولأن أعداءهم يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، ومن أجل ذلك نصر المؤمنين ، وخذل الكافرين .

(٤) (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) هو وعد من الله تعالى أن يخيف الكفار من المؤمنين بإلقاء الرعب فى قلوبهم حتى لا يقووا على محاربة المؤمنين بعد أن أمر الملائكة بتثبيت المؤمنين ، وقد علل ذلك فى سورة آل عمران إذ يقول (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزّل به سلطانا « ١٥٢ ») فهى عقوبة للكافرين على شركهم و إهمالهم لعقولهم ومواهبهم ، والمراد أن أولئك لايحاربون عن عقيدة ، ولايصدرون عن قلوب ، ومن كان كذلك كان ضعيف القلب ، مضطرب البال ، فاذا ألقى الله الرعب فى قلبه ، وهزم أمام خصمه كان ذلك متمشيا مع السنن الالهية العادلة ، وجاريا على مقتضى الحكمة .

وقد أرانا الله تعالى أن المؤمنين يقاتلون فى سبيل الله ، والكافرين يقاتلون فى سبيل الباطل وشتان بين من يقاتل فى سبيل الله ، ومن يقاتل فى سبيل الهوى والشهوة ، وأرانا الله أن من يقاتل فى سبيل الباطل لا يعمل له حساب ، ولا يقام له وزن (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله

والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا « ٧٦ » [١]) .

وقوله (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) إرشاد من الله لمقاتل القوم ووسائل تعجيزهم ، ثم علل ذلك بقوله (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) وكأنّ الله يرينا السبب فى إهداره لدمائهم ، وتسليط المؤمنين عليهم ، وكذلك يرينا السبب فى إلقاء الرعب فى قلوبهم ، وتثبيت المؤمنين خصومهم ، ذلك السبب أنهم عادوا الله ورسوله والله لا يريد لهم إلا الخير ، ولا يشرع لهم إلا ما فيه حياتهم وسعادتهم ، فهم حمقى بذلك العداء ، وسفهاء جاهلون بهذه المشاقة .

وجدير بمن وقف من ربه ذلك الموقف أن يعذّبه فى الدّنيا بمثل ذلك العذاب ، ويعذّبه فى الآخرة عذابا أخزى منه وأشقّ ، جدير بطائفة يأتيها الرسول ، ويقيم لها الأدلة والبراهين على صدقه ، فتقابله بالهزء والسخرية ، وتقول (اللهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم « ٣٢ » [٢]) .

جدير بطائفة هذا حالها أن يذلها الله على أيدى نفر قليل من المؤمنين الذين أذاقوهم الأمرّين وعذّبوهم بألوان من العذاب واضطروهم إلى الهجرة فرارا بدينهم وعقيدتهم (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين « ٥ » [٣]) .

(٥) (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار) .

ارشاد من الله تعالى لعباده المؤمنين أن لايفروا إذا زحف عليهم الكفار ، لأنه معرّة وجبن لا يليق بمؤمن ، بل لايليق برجل يحترم نفسه ورجولته ، ويتوعد الله المؤمنين إذا هم فرّوا من وجه العدوّ أن يرجعوا من عملهم هذا بغضب عظيم من الله ، وأن تكون عاقبتهم جهنم ، ومصيرهم شرّ مصير .

(فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى) تذكير آخر بفضله تعالى على المؤمنين فى هذه الموقعة ، يريهم أنهم ماقتلوا الكفار بعددهم ولا بعددهم ، لأنهم كانوا فى قلة ، ولكنّ الذى سخر لهم أسباب القتل الذى نصروا به هو الله تعالى ، فثبت قلوب المؤمنين وألقى الرعب فى نفوس الكافرين ، وغشاهم النعاس ، ليبدل خوفهم الذى كانوا فيه أمنا ، وأنزل عليهم من ماء السماء ماطهر به أبدانهم وأحداثهم ، وأذهب عنهم وساوس الشيطان ، كلّ ذلك ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل ، وليبقى التوحيد فى الأرض عزيزا منيعا هو وأصحابه .

(وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى) روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبض كفا من الحصباء ورمى به فى وجوه قريش ، وقال «شاهت الوجوه» فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه عن القتال ، وانهزموا ، فيكون المعنى (وما رميت) ذلك الرمى المسدّد الذى أصاب أعين القوم (إذ رميت) كفا من الحصباء ، ولكنّ الله هو الذى سدّد رميك ، حتى كان من أثره تعجيز القوم واشتغالهم بأعينهم عن القتال ، وقيل مارميت بالرعب إذ رميت بالحصباء ، ولكنّ الله رمى ،

---

[١] النساء . [٢] الأنفال . [٣] القصص .

ويصح أن يراد من الرمى القتال الذى وقع منه ومن أصحابه فى ذلك اليوم ، والمراد ما مددت فى ذلك اليوم حينما قاتلت القوم ، ولكنّ الله هو الذى جعل عملك وعمل أصحابك مسددا منكلا بصناديد قريش . وأضاف الرمى الى الرسول مع أنه كان منه ومن أصحابه لأنه قائدهم الأعظم ، وقدوتهم فى الحرب والسلم ، ومهما يكن من شىء فهو منة من الله عليه وعلى أصحابه فى ذلك النصر الذى أحرزوه ، والغنم الذى حصلوا عليه .

(وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا) أى ان الله تعالى فعل ماذكر لاقامة حجته ، وتأييد رسوله ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا بالنصر والغنيمة وحسن السمعة . والبلاء : الاختبار بالحسن والسيئ (ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة «٣٦» [1]) (ان الله سميع) لما كان من استغاثة المؤمنين مع رسولهم لربهم (عليم) بصدقهم واخلاصهم .

(ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) أى ذلكم هو الذى سمعتموه ، ويضاف إليه شىء آخر ، هو أن الله مضعف كيد الكافرين ، ومكرهم بالنبىّ ، ومحاولتهم القضاء على دعوته .

(٦) (ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنتهوا فهو خير لكم وان تعودوا نعد) قيل : إن الكافرين أعداء محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه استنصروا الله ، وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين ، فتهكم الله بهم ، وقال لهم إن تطلبوا الفتح والنصر فقد جاءكم الفتح بذلك الخذلان الذى رأيتم ، وهو تهكم لاذع ، وكأنه يقول : لقد طلبتم من الله أن ينصر أعلى الجندين ، وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين ، وقد فعل ، فنصر محمدا وأصحابه ، وهم الأعلون ، والأكرمون والخيرون .

(وإن تنتهوا فهو خير لكم) إن تكفوا عن حرب الحقّ وحزبه فهو خير لكم ، تحفظ به دماؤكم وكرامتكم ، ثم توعدهم إذا هم عادوا الى مثل ذلك العمل الذى قاموا به فى غزوة بدر فقال (وإن تعودوا نعد) ان تعودوا لمحاربة الله ورسوله عدنا لنصر الله المؤمنين عليكم .

ثم أراد أن يريهم أن اعتزازهم بأنفسهم ، واغترارهم بكثرتهم لا يجديهم ، فقال (ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأنّ الله مع المؤمنين) بالنصر والمعونة ، ومن كان الله معه لا يستطيع أحد أن يخذله ، وهى عبرة للكافرين ، وذكرى للمؤمنين ، وسلوى للمصلحين الذين يطمعون دائما فى أن ينصر الله حقهم على باطل غيرهم وان كانوا قليلى العدد ، ويخذل أعداءهم وان كانوا كثيرين .

(٧) (واعلموا أنما غنمتم من شىء) الخ . يرينا الله تعالى بهذه الآية كيف تقسم الغنائم ، وأن هذه الغنائم تكون أربعة أخماسها للقاتلين ، والخمس الباقى يقسم على هذه الأقسام . وقوله (إن كنتم آمنتم بالله) أى فاخضعوا لهذه القسمة التى فرضها الله تعالى على عباده ، لأن الشأن فى المؤمن أن يخضع لحكم الله كما قال فى سورة النساء (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما «٦٥») وكما قال فى سورة الأحزاب (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا «٣٦») .

---

[١] الأنبياء

وقوله (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) عطف على لفظ الجلالة : أى وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا من الآيات والملائكة والفتح ، والمراد بالانزال الايصال : أى إن كنتم آمنتم بالله ، وآمنتم بما أوصله الى نبيه من إمداده بالملائكة لتثبيت قلوب المؤمنين ، ومن نصرهم على عدوّهم على قلتهم ، ومن الآيات القرآنية والكونية ـ فاعلموا أن الذى أنزل ذلك كله هو الذى قسم الغنيمة بينكم على ذلك النحو الذى رأيتم .

وقوله (يوم الفرقان) المراد به يوم بدر الذى فرّق الله به بين الحقّ والباطل ، وقد كان يوما شديدا على المشركين ، أيد الله فيه التوحيد ، وخذل فيه الشرك . والجمعان : هما جمع المؤمنين والكافرين .

وقوله (والله على كلّ شىء قدير) دفع لاستغراب ماحصل من نصر المؤمنين على قلتهم وضعفهم (إذ أنتم بالعدوة الدنيا) الخ ، بدل من قوله (يوم الفرقان) وفائدة ذكر مراكز الفريقين الدلالة على قوّة شأن العدوّ وشوكته ، وضعف شأن المسلمين ، وأن غلبتهم فى ذلك الحال لم تكن إلا صنعا من الله تعالى ، وبحوله وقوّته ، فان العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون كان فيها الماء ، وكانت أرضا لابأس بها ، ولاماء بالعدوة الدنيا ، وأرضها رخوة تسوخ فيها الأرجل ، ولا يتيسر المشى فيها إلا بمشقة وتعب ، وكانت العير وراء ظهور العدوّ مع كثرة عددهم فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم .

(ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد) أى لوتواضعتم مع أهل مكة على مكان تلتقون فيه لخالف بعضكم بعضا ، فثبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وثبطهم تهيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يتفق لكم من التلاقى ماوفقه الله وسبب له (ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا) هو نصر أوليائه وقهر أعدائه .

دبر مادبر (ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حىّ عن بينة) أى دبر مادبر ليهلك من هلك من الكفار عن حجة واضحة بأن النبىّ وأصحابه على حقّ فيما دعوا إليه ، وأن أعداءه كانوا على باطل فيما دافعوا عنه ، ويحيي من حىّ من المؤمنين عن حجة واضحة ، هى أن الله تعالى صدق رسوله فيما وعده اياه من النصر (وإنّ الله لسميع عليم) لا يخفى عليه شىء من أقوال أهل الايمان والكفر وأعمالهم وعقائدهم ، وهو مجازيهم عليها .

(٨) (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) الخ إرشاد من الله تعالى إلى أسباب الظفر ووسائل النصر :

[أوّلها] : الثبات وعدم الفرار ، وقد بين فى أوائل هذه السورة عقوبة الفرار من العدوّ

[ثانيها] : ذكر الله تعالى ليقوى قلب المحارب بما أعدّه الله للمجاهدين من ثواب ، ومن جهة أخرى فان المؤمن متى ذكر الله تعالى فقد ذكر سنته التى يعقبها النصر ، وفيها الاستعداد لملاقاة العدوّ من الناحية المادّية والمعنوية ، وقد بين ذلك فى جملة آيات كقوله (وأعدّوا لهم مااستطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم « ٦٠ » [١]) .

---

[١] الأنفال .

وقد أشار إلى فائدة ذكر الله تعالى والثبات فى قوله (لعلكم تفلحون) ليرينا بذلك أن الاستعداد للفلاح طريقه ذلك .

[الثالث] : طاعة الله ورسوله بالوقوف عند حدود الله تعالى وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو إمام المسلمين وقائدهم الأعظم ، ولا شك أن طاعة القائد لها أثرها فى النصر .

[الرابع] : عدم التنازع لأنه مدعاة التفرق ، وهو مدعاة الفشل ، وذهاب القوة .

[الخامس] : الصبر على مشاق القتال ، وقد بين عاقبة الصبر فى قوله (إن الله مع الصابرين) ثم أشار إلى أدب آخر من آداب القتال وهو أن يخرج الانسان مخلصا فى خروجه ، محتسبا به وجه الله تعالى ، فلا يخرج للقتال بطرا ولا رياء ، لأن الله تعالى يعلم ما تكن النفوس ، وأن الذى يخرج للقتال لا يحمله على خروجه إلا البطر ومراءاة الناس ليس أهلا لأن ينصره الله تعالى .

غزوة أحد [1]

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ [2] الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «١٢١» إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ «١٢٢» وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ [3] فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «١٢٣» إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ «١٢٤» بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ [4] «١٢٥» وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ «١٢٦» لِيَقْطَعَ طَرَفًا [5] مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ [6] فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ «١٢٧» لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ «١٢٨» آل عمران

---

[١] جبل مشهور بينه وبين المدينة ثلاثة أميال ، وهو فى الشمال الشرقى منها ، وكانت الغزوة فى شوال سنة ثلاث من الهجرة . [٢] تنزل . [٣] بقلة العدد والسلاح .

[٤] بكسر الواو من سوم على القوم : أغار عليهم ، وبفتح الواو مكلفين بتثبيت قلوب المؤمنين أو مكلفين فيها يعملون بالنفوس من التثبيت والربط عليها . [٥] طائفة . [٦] يذلهم .

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١٣٩» إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ (١) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا (٢) بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ «١٤٠» وَلِيُمَحِّصَ (٣) اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ «١٤١» أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ «١٤٢» وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ «١٤٣» وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ «١٤٤» وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ (٤) كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ «١٤٥» وَكَأَيِّنْ (٥) مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ «١٤٦» وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ «١٤٧» فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ «١٤٨» يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ «١٤٩» بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ «١٥٠» سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ «١٥١» وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ (٦) بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ

---

[١] جرح . [٢] نصرفها فنديل تارة لهؤلاء ، وتارة لهؤلاء . [٣] يخلصهم من كل عيب .
[٤] مشيئته . كتابا مؤجلا : أى كتب ذلك كتابا مقروناً بأجل معين لا يتخطاه .
[٥] كثير . ربيون جمع ربى ، وهو الربانى . [٦] تقتلونهم قتلا ذريعاً .

وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرٰيكُمْ مَا تحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ «١٥٢» إِذْ تُصْعِدُونَ [١] وَلاَ تَلْوُونَ عَلٰى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرٰيكُمْ فَأَثٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تحزَنُوا عَلٰى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصٰبَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ «١٥٣» ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشٰى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلّٰهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هٰهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلٰى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ [٢] اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ «١٥٤» إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ [٣] الشَّيْطٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ «١٥٥» يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِ وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «١٥٦» وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ «١٥٧» وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تحْشَرُونَ «١٥٨» فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ

---

[١] تبعدون فى الأرض هاربين ولا تعرّجون على أحد . [٢] يختبر .
[٣] تحرى زلتهم واستجرّهم لها .

ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ «١٥٩» إِنْ يَنْصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ «١٦٠» آل عمران

أَوَ لَمَّا أَصَٰبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا [١] قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «١٦٥» وَمَا أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ «١٦٦» وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ «١٦٧» ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَٱدْرَءُوا [٢] عَنْ أَنْفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ «١٦٨» وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ «١٦٩» فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ «١٧٠» يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ «١٧١» ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ [٣] لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ «١٧٢» ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ «١٧٣» فَٱنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ «١٧٤» إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ [٤] فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١٧٥» آل عمران

---

[١] من أين لنا هذا . [٢] ادفعوا . [٣] الجهد والمشقة . [٤] حزبه .

تعليق وعبرة

(١) (و إذ غدوت من أهلك تبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال) أى اذكر يا محمد الوقت الذى غدوت فيه من أهلك بالمدينة تنزل المؤمنين مقاعد للقتال، وتلزمهم أن لا يغادروا مكانهم الذى أنزلتهم به، ولو رأوا الطير تتخطف العسكر (والله سميع عليم) لم يخف عليه شىء مما قيل فى مشاورتك لمن معك فى أمر الخروج إلى لقاء المشركين فى أحد، أو انتظارهم فى المدينة، وعلم فيه كلّ قائل، وان منهم المخلص فى قوله، و إن أخطأ فى رأيه، ومنهم غير المخلص فى قوله و إن كان صوابا كعبد الله بن أبىّ المنافق.

(إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) هما بنوسلمة و بنو حارثة، والهمّ: حديث النفس وتوجهها إلى الشىء، والفشل: ضعف مع جبن، وسبب همهما بالفشل تأثرهما برجوع عبد الله ابن أبىّ المنافق وأصحابه، وقوله: [علام نقتل أنفسنا وأولادنا].

ومنه تعلم كيف أن أعمال المنافقين وهزيمتهم من شأنها أن تترك أثرا فى نفوس المؤمنين. وأن القدوة السيئة فى العمل لها أثرها، والقدوة الصالحة كذلك، وأن الكلمة الخبيثة قد تترك فى نفوس الناس أثرا عظيما من الفشل، والكلمة الطيبة قد تكون من أسباب النصر والغلب.

(والله وليهما) أى متولى أمورهما بصدق إيمانهما، كذلك صرف الفشل عنهما فلم يجيبا داعى الضعف الذى ألمّ بهما عند رجوع ثلث العسكر (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ليثقوا به دون غيره.

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) الخ: يذكرهم بنصره لهم يوم بدر وهم فى قلة من جهة عددهم وسلاحهم (فاتقوا الله لعلكم تشكرون) نعمته عليكم بذلك النصر.

(إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) الخ بدل من قوله (و إذ غدوت من أهلك) أى أنك غدوت من أهلك تنزل كلّ واحد من القوم منزلته من القتال فى الوقت الذى تعد فيه المؤمنين بأن يمدّهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، ولم تكتف بذلك العدد، بل وعدتهم إذا هم صبروا واتقوا وأتوا القوم فى سرعة أمدّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة مكلفين من الله بالنصر، والتثبيت للمؤمنين، والربط على قلوبهم (وما جعله الله إلا بشرى) أى ما جعل هذه العدّة إلا بشرى للمؤمنين (ولتطمئنّ) بذلك الوعد قلوبهم (وما النصر إلا من عند الله العزيز) الغالب الذى لا يضع نصره إلا فى الموضع الذى يستحقه.

(ليقطع طرفا من الذين كفروا) الخ يقضى على طائفة من الكفار أو يذلهم بالهزيمة فينقلبوا خائبين، ولما كسرت رباعية الرسول صلى الله عليه وسلم وشجّ وجهه يوم أحد وقال: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم — نزل قول الله تعالى (ليس لك من الأمر شىء). وقوله (أو يتوب عليهم) الخ عطف على قوله (ليقطع طرفا من الذين كفروا).

(٢) (ولا تهنوا ولا تحزنوا) الخ: يحرّض الله تعالى على القتال بأساليب شتى، فمرّة يريهم أنهم أعلى من الكفار نفسا، وأشرف غاية وقصدا، ولا يليق بهم والحالة هذه أن يهنوا أو يحزنوا ومرّة يقول (إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله) ليريهم أن الشدائد التى يلاقونها من

الحروب هى شـدائد مشتركة ، لا يختصّ بها فريق دون فريق ، وأحيانا يريهم أن الأيام دول ، فيوم لهم ويوم عليهم ، ومرّة يريهم أن هـذه الشدائد هى ابتلاء من الله تعالى واختبار ، يظهر بها المؤمن من المنافق ، ويتخذ بها منهم الشهداء ، ويمحص بها قلوب المؤمنين ، ويطهرها من كلّ ضعف يحلّ بها ، ويمحق الله بها الكافرين .

ثم يريهم أنهم إذا ظنوا أنهم يدخلون الجنة قبل أن يقيموا البرهان على صدقهم فى إيمانهم وإقامة الدليل على يقينهم فى ربهم — إذا ظنوا ذلك فهم مخطئون ، وهو ماأشار له بقوله (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) ونفى العلم هنا بمعنى نفى المعلوم ، كنفى اللازم وإرادة نفى الملزوم ، والمعنى : أظننتم أن تدخلوا الجنة ولم تجاهدوا ولم تصبروا ومرّة يذكرهم بأنهم كانوا يتمنون الموت قبل غزوة أحد ، فلماذا تجبنون عند لقائه ؟ .

(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) الخ : نزلت هذه الآية حينما أشيع يوم أحد أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد مات ، وقد تركت هذه الاشاعة أثرا فى نفوس أكثر المسلمين ، وقال قوم من المنافقين : لوكان محمد نبيا ما قتل ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم . فأراهم الله تعالى بهذه الآية أن محمدا لم يعد أن يكون رسولا قد مضت الرسل من قبله فماتوا ، وقتل بعض النبيين ، ولم يكتب لأحد منهم الخلد ، ولابدّ أن تحكم عليـه سنة الله بالموت ، فيخلو كما خلوا من قبـله ، إذ لابقاء إلا لله وحده .

(أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) ينكر عليهم أن يرجعوا عما كانوا عليـه من أمر الايمان بسبب إشاعة موت أو قتل ، ثم يهدّدهم بقوله (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) .

وفى هذه الآية إرشاد لنا إلى أن لا نجعل المصائب الشخصية دليـلا على كون من تصيبه على باطل أوعلى حقّ ، وتريناأن لا نعتمد فى معرفة الحقّ والخير على وجود المعلم ، بحيث نتركهما بعد ذهابه أوموته ، وإنما نعتمد على معرفتهما ، والسير على منهاجهما فى حال وجود المعلم و بعده .

ولقد كانت الآية المذكورة مقدّمة وإرهاصا بين يدى موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظهر أن توبيخ الذين ارتدّوا على أعقابهم بهذه الآية قد ظهر أثره يوم وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولاينافى هذه الحكمة كون الوقعة قبل وفاته ببضع سنين ، فان توطين نفس الأمّة الكبيرة على الشىء ، وإعدادها له لا يكون قبل وقوعه بيوم أوأيام أوشهور ، بل لابدّ من زمن يكفى لتعميمه فيها ، وأن يصير من الأمور المسلمة المشهورة عندها ، حتى لا يغيب عن الأذهان .

(وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله) الخ : رجوع إلى تطمين المؤمنين ، وتحريضهم على القتال ، إذ يريهم أنه ما ينبغى لنفس كائنة مّا كانت أن تفارق هـذه الحياة إلا بمشيئة الله تعالى ، سواء أكانت نفس رسول ، أونفسا أخرى من نفوس المجاهدين ، فالجهاد لايضيع شيئا من الأجل ، والتخلى عن القتال لايمدّ لصاحبه فى الحياة ، ثم عقب ذلك ببيان أن من يعمل للدنيا يحصل عليها ومن يعمل للآخرة يعطيه الله ثوابها ، وسيجزى الشاكرين على شكرهم .

(٣) ثم عاد وأراناأن كثيرا من النبيين قاتل معهم جموع كثيرة من المؤمنين ، فما ضعفوا

لما أصابهم فى سبيل الله وما استكانوا للذلّ والخنوع (وما كان قولهم) وهم يحاربون أعداء الحق إلا أن طلبوا من الله أن يغفر لهم ذنوبهم ، وإسرافهم فى أمرهم ، وأن يثبت أقدامهم أمام عدوّهم وينصرهم على خصومهم ، وكانت عاقبتهم أن أعطاهم الله ثواب الدنيا بالغنيمة والغلب ، وحسن ثواب الآخرة (والله يحبّ المحسنين) .

يريهم الله أن لهم سلفا فى ذلك الجهاد ، وأن سلفهم كانت عاقبته النصر ، وستكون عاقبتهم كذلك إذا هم صبروا وأخلصوا (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزّل به سلطانا) وعد من الله بالقاء الرعب فى قلوب أعدائه بسبب شركهم بالله مالم ينزل به سلطانا ، فلا تعملوا لهم حسابا (ومأواهم النار) فى الآخرة (وبئس مثوى الظالمين) جهنم (ولقد صدقكم الله وعده) الخ : يريهم أن وعد الله لهم بالنصر قد صدقهم الله فيه ، ولم يتخلف وعده لهم إلا بعد أن فشلوا وتنازعوا ، وخرجوا على وصية رسولهم الأعظم ، وقائدهم الأكبر ، وتطلعوا لعرض هذه الحياة ، وانتظروا الغنيمة .

وقد قال الرسول لهم حينما بوّأهم مقاعد للقتال : لا تتركوا هذه الأماكن وان تخطفكم الطير . ليريهم أن هذه عاقبة الخروج على نصيحة القائد ، ومغبة التطلع لعرض هذه الحياة ، فمنعكم نصره حينما فشلتم وتنازعتم فى الأمر : منكم فريق يطلب الدنيا فترك مركزه الذى وضع فيه للغنيمة ، ومنكم من يطلب الآخرة ، فثبت حتى قتل (ثم صرفكم عنهم) بردكم للهزيمة (ليبتليكم) يمتحنكم فيظهر المخلص من غير المخلص ، ويريكم عاقبة اختلافكم وخروجكم على نصيحة رسولكم (ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين إذ تصعدون) تبعدون فى الأرض هاربين ، ولا تعرجون على أحد (والرسول يدعوكم) من ورائكم (فأثابكم غما) بالهزيمة (بغمّ) المخالفة (لكيلا تحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم) لأنكم الذين تسببتم فى ذلك ، ومن كان سببا فى نكبته لايلومنّ إلا نفسه .

(٤) (ثم أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنة نعاسا) الخ يعرفهم فضله عليهم بعد هزيمتهم وهو ، إرساله النعاس عليهم ، حتى لا يفكروا فيما حلّ بهم ، وقد أنزل هذا النعاس على المؤمنين ، أما المنافقون فلم يفارقهم همهم ، لأنهم لاهمّ لهم إلا نجاة نفوسهم و بعدها من المشاقّ .

وقد وصف الله هذه الطائفة بأنها تظنّ بربها غير الحقّ ظنّ الجاهلية ، ويقولون فى أنفسهم (هل لنا من الأمر من شىء) يريدون أمر النصر الذى وعدوه كما وصفهم أنهم يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد حملهم الجهل أن يقولوا (لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا ههنا) أى لم نخرج فلم نقتل ، لكنا أخرجنا كرها ، ومن أجل ذلك قتلنا ، فيردّ الله عليهم بقوله (لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) مصارعهم فيقتلوا ، ولم ينجهم قعودهم كما قال فى آية أخرى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج[1] مشيدة) .

(وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم) أى فعل ما فعل من أجل هذه الحكم والمصالح (والله عليم بذات الصدور) لا يخفى عليه شى منها .

---

[١] قصور .

(٥) (إنّ الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان) الخ أسلوب آخر من أساليب التحريض ، يريهم فيه أن الذين فرّوا يوم أحد إنما استجرّهم الشيطان للفرار ، وكان ذلك بسبب ما كسبوه من السيئات ، فحرمهم من فضل الشهادة ، ومن فضل الثبات على الجهاد ، بما قدّموه من سيئات (ولقد عفا الله عنهم) ماقدّموه .

(يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا) الخ : ينفر الله المؤمنين أن يقولوا ماقاله الكفار فى اخوانهم ، وهى قولهم (لوكانوا عندنا ماماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعلمون بصير) .

وكثيرا ما يحمل الشيطان المؤمن على مثل ذلك القول الفاحش ، وحظّ الشيطان من هذه الكلمة أن تصير حسرة فى قلوب المؤمنين ، تملؤها بالحزن والأسى ، والله تعالى هو المالك لحياة الناس وموتهم ، لايميتهم إلا بقدر ، ولا يحييهم إلا بقدر ، وهو العليم بأعمال الناس ونواياهم .

(ولئن قتلتم فى سبيل الله أومتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) ترغيب آخر فى القتال بأن عاقبته غفر الذنوب ورحمة الله ، وهى خير مما يجمعون من مال .

(٦) (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا) ينكر عليهم استنكار أن يدال لهم مرّة وعليهم مرّة أخرى ، نصروا يوم بدر ، وهزموا يوم أحد ، وكان غنمهم يوم بدر أكثر من غرمهم بوم أحد . ومع ذلك يستنكرون ذلك ، فيقول الله لهم (قل هو من عند أنفسكم) تسببتم فيه بتطلعكم إلى الدنيا ، ومخالفتكم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجازاكم على هذه المخالفة ، ثم أراهم أن ماأصابهم يوم التقى الجمعان من الهزيمة هو باذن الله ومشيئته .

ومن حكمه أن يعلم المؤمنين الذين يصبرون على السرّاء والضرّاء ويتفحصون بهذه الشدائد، ويعلم المنافقين الذين آمنوا بلسانهم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم الذين قالوا للمؤمنين (لو نعلم قتالا لاتبعناكم) وهم الذين قالوا فى شأن إخوانهم الذين قتلوا (لوأطاعونا ماقتلوا) وقد ردّ الله عليهم فى قوله (فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) .

(ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا) الخ : أسلوب آخر من أساليب التحريض على الجهاد ، يريهم فيه أن الله تعالى قد أعدّ لمن يقتل فى سبيله من الحياة مالم يعدّه لغيره مما لايعلم كنهه غيره ، ولا يقف عليه سواه ، كما أعدّ له من الرزق الغيبيّ عنده كذلك ، ولم يبين الله لنا هذه الحياة ، ولا ذلك الرزق ، فعلينا أن نقف عند ما ورد بدون بيان ولا شرح ، فهى حياة غيبية ، ورزق غيبيّ ، أخبر الله بهما (فرحين بما آتاهم الله من فضله) أى فوق أجورهم التى استحقوها بعملهم .

(ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) أى يتوقعون أن يبشروا بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم بقدومهم عليهم مقتولين فى سبيل الله كما قتلوا ، مستحقين من الرزق والفضل الالهى مثل ما أوتوا . وقوله (من خلفهم) أى الذين هم من ورائهم يقتفون أثرهم ، ويحذون حذوهم قدما بقدم ، وهو أسلوب من أساليب الترغيب فى الشهادة ، وفى الآية دليل على الحياة

البرزخية . وقوله (ألا خوف عليهم) أى بسبب أن لا خوف عليهم من شرّ يتوقع (ولا هم يحزنون) من شرّ واقع .

(يستبشرون بنعمة من الله وفضل) أى أن أولئك الشهداء يستبشرون بما يتجدّد لهم من نعمة وفضل ، و بأن الله لايضيع على المؤمنين أجرهم ، و إنما يجزيهم عليه جزاء أوفى ، ثم وصفهم بقوله (الذين استجابوا لله والرسول) الخ .

• ثم وصفهم وصفا آخر هو الشجاعة والجرأة فقال (الذين قال لهم الناس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

وقوم هـذا حالهم لابدّ أن تـكون عاقبتهم كما قال الله تعالى ، وهى أن يعودوا بنعمة من الله وفضل وهى نعمة السلامة ، ونعمة الغلب والفوز ، واتبعوا مايرضى الله ولايسخطه ، والله ذو فضل عظيم ، يضعه فى المكان اللائق به .

ثم أرانا الله أن التثبيط عن القتال ، و إيقاع الرعب فى نفوس المقاتلين من عمل الشـيطان من الانس أومن الجنّ ، يخوّف به أنصاره وحزبه (فلا تخافوهم) أى لاتخافوا من يحاربونكم ، لأنهم يقاتلونكم بدون قلوب ، وفى سبيل الباطل ، أما أنتم فتقاتلون فى سبيل الله والحق ، فليسوا أهلا لأن يخاف منهم ، و إنما الذى يستحقّ أن يخاف هو الله تعالى ، لأن بيـده ملـكوت كلّ شىء ، ثم ختم الآية بقوله (إن كنتم مؤمنين) أى فقفوا عنـد ما أمرتكم به ، لأن فيه حياتكم وسعادتكم ، وان شقّ على نفوسكم .

غزوة الأحزاب [١]

يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا «٩» إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ [٢] ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ [٣] وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا «١٠» هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا «١١» وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا «١٢» وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يٰأَهْلَ يَثْرِبَ [٤] لَا مُقَامَ

---

[١] وتسمى غزوة الخندق ، وكانت فى شوّال فى السنة الخامسة من الهجرة .

[٢] اضطربت ومالت عن سننها حيرة وشخوصاً . [٣] جمع حنجرة ، منتهى الحلقوم ، وهو مثل فى اضطراب القلوب . [٤] المدينة .

لَـكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ [١] وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا «١٣» وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا [٢] ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا «١٤» وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً «١٥» قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلا «١٦» قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا «١٧» قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ [٣] مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ [٤] إِلاَّ قَلِيلاً «١٨» أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا «١٩» يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ [٥] فِي الْأَعْرَابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً «٢٠» لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا «٢١» وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا «٢٢» مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ [٦] وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً «٢٣» لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا

---

[١] غير حصينة . [٢] نواحيها ، الفتنة : الشرك . [٣] المثبطين .
[٤] القتال . [٥] كائنون فى البادية . [٦] مات .

رَحِيمًا «٢٤» وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا «٢٥» وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ [١] وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا «٢٦» وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا «٢٧» الأحزاب

تعليق وعبرة

(١) (ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) الخ : يذكر الله المؤمنين بنعمته عليهم فى غزوة الخندق التى أثارتها اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المؤمنين يوم أحد ، فخرج أشرافهم الى قريش بمكة يحرّضونهم على غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجابتهم قريش ثم خرجوا إلى غطفان ، وطافوا فى قبائل العرب ، فخرجت قريش فى أربعة آلاف تحت قيادة أبى سفيان ، ووافاهم بنو سليم وأسد وفزارة وأشجع ، ووافى الخندق من الكفار عشرة آلاف فكانت جنود الباطل كثيرة .

(فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها) . قيل هى ريح الصبا أهلك الله بها من الكفار من أهلك ، والجنود التى أرسلها الله على المشركين واليهود يحتمل أن تكون جنودا من الرعب ألقاه الله فى نفوسهم ، وهى جنود ليس من شأنها أن ترى للمؤمنين ، وإنما يحسّ بها الكافر ، كما قال فى قصة بدر وأحد (سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) . ثم علل ذلك بأنهم أشركوا بالله مالم ينزل به عليهم سلطانا ، ويحتمل أن تكون الجنود ملائكة أنزلها الله لتثبيت قلوب المؤمنين كما كان ذلك فى غزوة بدر .

(وكان الله بما تعملون بصيرا) ومنه حفر المؤمنين للخندق الذى أشار به سلمان الفارسى ليتحصنوا به من الكفار .

(إذجاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) تصوير لكثرة الكفار (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) .

يذكرهم الله بنعمته عليهم فى وقت اضطربت فيه الأبصار ، وخرجت عن سننها فى النظر لشدّة الأمر ، وبلوغ الشدّة حدّا عظيما ، حتى ليخيل إلى أحدهم أن قلبه قد وصل إلى منتهى حلقه ، كأنه قارب أن ينخلع منه .

(هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) أى فى ذلك الوقت اختبر المؤمنون بذلك

---

[١] جمع صيصة ، وهى الحصن .

الدرس القاسى ، واضطربت نفوسهم اضطرابا لا يقف عنـد حدّ ، وهنالك يقول المنافقون والذين مرضت نفوسهم (ماوعدنا الله ورسوله) النصر الا تغريرا بنا (و) هنالك (قالت طائفة منهم ياأهل المدينة (لامقام لكم) بذلك المكان الذى تحاربون به ، فدعوه وارجعوا إلى بيوتكم (و)هنالك (يستأذن فريق) من المنافقين النبىّ (يقولون إنّ بيوتنا) غيرمحصنة وعرضة لأن ينالها العدوّ ، فدعنا نذهب إليها (وماهى) كذلك (إن يريدون) بذلك القول (إلا فرارا) من الجهاد .

(ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا) لو دخلت أعداؤهم الذين يخشونهم عليهم بيوتهم من نواحيها المختلفة ، ثم سئلوا فى ذلك الوقت أن يرتدّوا عن الايمان إلى الكفر لفعلوا ، وما انتظروا بعد السؤال إلايسيرا من الزمن .

والمعنى أنهم كاذبون فى تعللهم بعدم تحصين بيوتهم ، لأنهم لو هوجموا فيها من الأعداء ، وطلب منهم أن يكفروا فى ذلك الوقت لفعلوا ، وكانوا على المسلمين لمقتهم الاسلام ، وشدّة بغضهم لأهله ، وحبهم الكفر (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار) .

يذكرهم الله بعهودهم السابقة بعدم الفرارعند لقاء العدوّ ، وأنه محاسبهم على عهدهم ، ثم أراهم أن فرارهم من الموت أو القتل لا يجديهم ، وأنهم إذا عاشوا بعد فانما يعيشون مدّة وجيزة ، ثم ذكرهم بأنه لاأحد يعصمهم من الله إن أراد بهم سوءا أوأراد بهم رحمة ، ولايجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا .

(٢) (قد يعلم الله المعوّقين منكم) الخ : تهديد من الله للمثبطين عن القتال بأنه يعلم تثبيطهم للمؤمنين ، وسيحاسبهم عليه ، وتصوير لحالة المنافق إذا جدّ الجدّ ، تراه فى ذلك الوقت لا يستقرّ له بصر ، فتجد عينه تدور فى القوم من أقصاهم إلى أقصاهم وكأن عليه غشية الموت ، فاذا ذهب الخوف سلق المؤمنين بألسنة حداد ، وتجده شحيحا بنفسه أن يقاتل ، وشحيحا بالخير أن يفعله ثم علل ذلك بقوله (أولئك لم يؤمنوا) ولذلك فعل ما فعل من التثبيط ، وحلّ به ما حلّ من الزلزال والفتنة ، ولو أنهم كانوا مؤمنين ما فعلوا شيئا من ذلك ، وقد كانت عاقبة أمرهم أن أحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك الاحباط يسيرا على الله تعالى .

(يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) أى لم ينهزموا فانصرفوا عن الخندق إلى المدينة راجعين لما حلّ بهم من الخوف (وان يأت الأحزاب) مرّة ثانية (يودّوا لوأنهم بادون فى الأعراب يسألون) كلّ قادم منكم (عن أنبائكم ولوكانوا فيكم) ولم يرجعوا إلى المدينة (ماقاتلوا إلاقليلا) تعلة ورياء .

(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) الخ : يريهم أن الشأن فيمن يرجو الله واليوم الآخر أن يتأسى برسوله صلى الله عليه وسلم ولا يتأخر عما أمره به من الطاعات ، وأن أولئك قد تخلفوا عن القتال ، لأنه لم يكن لهم رجاء فى الله واليوم الآخر .

(ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله) الخ وهو شرح لحال المؤمنين بعد أن بين حال المنافقين والفرق بين الفريقين عظيم ، وقد عقدنا أبوابا خاصة للفرق بين المؤمنين والكافرين والمنافقين فارجع إليها إن شئت المزيد .

الزكاة

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ «١١» التوبة

إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ «٦٠» التوبة

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ «١٠٣» التوبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ «١» الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ «٢» وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ «٣» وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ «٤» المؤمنون

شرح وتعليق

(١) فرض الله الزكاة على المسلمين فى السنة الثانية من الهجرة ، وأرانا فى الآية من سورة التوبة أن الأخوّة فى الدّين لاتكون إلا من قوم أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، بعد توبتهم من الشرك ، فالذى يؤمن بالله ولا يؤدّى ذلك الركن لا يكون أخا للمؤمنين فى دينهم .

ولعلّ فى ذلك عبرة لمانعى الزكاة من المسلمين الذين يظنون أنهم ناجون من عذاب الله لمجرّد صلاتهم ، وان بخلوا بأموالهم ، ناسين أن الله تعالى يبتلى الناس بإيجاب جزء من مالهم ، يؤخذ من أغنيائهم ليردّ على فقرائهم ، وأن المؤمن لا يكون صادقا فى دعوى الايمان إلاحيث أدّى حقّ الله فى ماله ، كما يؤدّيه فى صلاته وصومه وحجه ، وأن اختبار الناس بالمال فوق اختبارهم بالصلاة فمن السهل على الرجل أن يؤدّى أعمالا لاتكلفه سوى حركات يتقدّم بها كلّ يوم ، وليس من السهل أن يبذل نصيبا من ماله للفقراء والمساكين ومصالح المسلمين عن طيب نفس ورضا ،

ولذلك نجد المصلين والصائمين أكثر من المزكين ، على أن الصلاة التى لا تزهد صاحبها فى المال ، ولا ترشده إلى حق الفقراء والمساكين ، ولا تريه أن ذلك المال هو مال الله استخلفه فيه ، لينظر أيقوم بحقه أم يبخل به على المصالح — هى صلاة لا يقيم الله لها وزنا ، ولا يبالى بعمل صاحبها ، لأنها صلاة الغافلين والساهين ، لا صلاة المؤمنين الذاكرين (أرأيت الذى يكذب بالدين « ١ » فذلك الذى يدع اليتيم « ٢ » ولا يحض على طعام المسكين « ٣ » فويل للمصلين « ٤ » الذين هم عن صلاتهم ساهون « ٥ » الذين هم يراءون « ٦ » ويمنعون الماعون « ٧ » .

ومن سنة الله فى القرآن الكريم أن يجمع بين الدعوة إلى الصلاة ، والدعوة إلى الزكاة ، ليرينا أن الصلاة من شأنها أن تحمل على الزكاة ما دامت قد أديت على وجهها الكامل فى صورتها ومعناها ، ولذلك قرن الزكاة بالصلاة فى سورة المؤمنين وأرانا الله أن المؤمنين هم الذين يخشعون فى صلاتهم وهم الذين يؤدون لزكاة أموالهم .

(٢) (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) إرشاد من الله تعالى لحكمة ذلك الركن الذى أضاعه المسلمون ، وهى طهارة نفوسهم من الشح ، والبعد بها عن البخل ، وهو داء دفين فى الناس ، إذا استحكم فى قوم حملهم على منكرات وفظائع لا تقف عند حد . روى أبو داود والحاكم «إياكم والشح ، فإنما هلك من قبلكم بالشح ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا » . وروى البخارى فى تاريخه وأبو داود «شر ما فى الرجل : شح هالع [1] وجبن خالع » .

وأن أمة من الأمم لا تقوم لها قائمة إذا كانت بخيلة على مصالحها ، شحيحة على طرق الخير فيها ، وإلا فكيف تبنى فيها المعاهد ، وتشيد فيها دور الصناعة ، وترقى فيها وسائل العمران مع الشح ، وكيف ينتظم حال الناس ، ويؤدى بعضهم حقوق البعض ، إذا لم يكن لهم نفوس طيبة ، وقلوب ملؤها القناعة والرضا .

ولعل من آثار الشح فى زماننا هذا امتلاء دور الحكومة بقضايا المواريث ، والنزاع على الحقوق المدنية ، ولا سيما بين الأقارب ، ولعل الاحصاء يرينا أن أكثر هذه القضايا بين ذوى الأرحام بعضهم مع بعض .

فكان من حكمة الله أن يمرن المؤمن على بذل شىء من ماله لمصالح المسلمين ، ليجتث الله بذلك البذل عرق الشح من نفسه ، ويصبح رجلا صالحا للحياة ، إذا دعى إلى بذل ماله فى سبيل الخير أجاب داعى المصلحة ، وإذا اشتبك مع بعض قراباته فى تركة خلفها له أبوه أو أحد أقاربه خضع لقسمة الله فى المواريث ، ولم يلجئ أقاربه لمقاضاته ، وتعفف عن الدنايا التى يرتكبها بعض الناس ليصل بها إلى حرمان أخته من ميراث أبيه ، كتزوير عقود للبيع ، أو انتحال دين لبعض الناس على أبيه ، وغير ذلك مما تأباه المروءة ، وقد تنتهى المسألة بصرفه على القضاء أكثر مما كانت تأخذه أخته عن طريق الميراث ، بل قد تنتهى بفقر الطرفين المتقاضيين وحرمانهما من مال أبيهما .

---

[١] شديد .

كلّ ذلك لأن فى النفوس شحا مطاعا ، وعدم رضا بقسمة الله فى المواريث .

وكما أن من آثار الزكاة تطهير النفوس من الشح ، من آثارها أنها تستلّ من نفوس الفقراء والمعوزين حنقهم على أرباب الأموال وحسدهم للأغنياء ، فان الاحسان من شأنه أن يملك القلوب ، ويستعبد النفوس ، فيصبح الغنىّ محبوبا لدى الفقير ، والفقير خادما للغنىّ ، يحرس ماله ، ويدافع عنه ، لأن له نصيبا فيه ، يهمه أن ينمو ويزيد ، وأن الناس يقاسون اليوم من شرور الشيوعية المقوتة مالا يقف عند حدّ ، وسبب ذلك أنهم لم يأخذوا بالاشتراكية التى فرضها الاسلام بالزكاة ، فكان عاقبة بخلهم أن سلط الله عليهم من يقضّ مضاجعهم ، ويزعجهم فى حياتهم ، وتطرف بعض الشعوب فاستولى على رءوس الأموال ، وجعلها حقا شائعا للناس ، وأخذ يحارب الاستئثار بالثروة ، ونسى أن ذلك العمل من شأنه أن يميت الروح المعنوى فى العامل ، ويقضى على غريزة تنازع البقاء ، والتنافس فى الحياة .

وقد فطنوا بعد لشرور ذلك العمل ، وأخذوا ينظمونه ليصلوا به الى ما يزعمون من سعادة ، وهيهات أن يصلوا الى شىء مما أرادوا ، فان السعادة فيما شرعه الله ، وفى أن يبقى لكلّ عامل نتيجة عمله ، وتصير الحياة ومرافقها حقا مشاعا ، يتنافس الناس فيها ويتبارون (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون «٣٢» [1]) .

(٣) (إنما الصدقات للفقراء) الخ ، بيان من الله تعالى لمصارف الزكاة ، فجعل من مصارف الزكاة الفقراء والمساكين ، كأرباب العاهات الذين قعدت بهم عاهاتهم عن الكسب ، وكالصناع الذين لايجدون طريقا للعمل ، ولا يستطيعون أن يعيشوا على حساب عمل آخر ، أما الأقوياء على الكسب فلا معنى لاعطائهم من الزكاة .

(والعاملين عليها) بيان لصنف آخر ممن تعطى لهم الزكاة ، وهم الجباة للزكاة ، والكتاب ، والحراس عليها الذين وكل إليهم أمر الزكاة ، وقد أباح الله تعالى لهؤلاء أن يأخذوا من الزكاة مقابل عملهم فى بيت مال المسلمين لا بصفة أنهم فقراء أو مساكين .

(والمؤلفة قلوبهم) المراد بهم من يكون إعطاؤهم سببا فى قوّة المسلمين ، سواء أكان ذلك الاعطاء لقوم ضعيفى الايمان لأنهم حديثو عهد به ، أو لقوم لم يسلموا ولكنهم يتطلعون الى الاسلام ، أو لغير ذلك .

(وفى الرقاب) أى فكها من الرقّ : أى إن من أغراض الزكاة التعاون على فك الرقاب من الرقّ ، كاعانة الأرقاء الذين اتفقوا هم وملاكهم على أن يدفعوا لهم شيئا من المال فى نظير عتقهم ، وتسمى هذه مكاتبة شرعية ، وتسمى الأقساط التى يدفعها الرقيق لسيده ليعتقه نجوم الكتابة .

ومنه تعلم أن الشريعة ما أباحت الرقّ إلا للضرورة ، ومع أنها أباحته فهى تعمل على تضييق دائرته بشتى الوسائل ، ولا أدلّ على ذلك من أنها أعدّت قسما من بيت مال المسلمين لاعانة

---

[١] الزخرف ، سخريا : مسخرا له فى العمل بالأجر .

الأرقاء الذين يريدون الخلاص من الرقّ باتفاقهم هم وسادتهم على أن يبذلوا لهم شيئا من المال ، ويكون ذلك بمثابة شرائهم أنفسهم منهم ، وندبت الشريعة الى الملاك أن ييسروا على الأرقاء ، ويسهلوا عليهم مهمة العتق ، بتقليل المال الذى يطلبونه منهم ، وحط شيء منه ، حتى لايعجزوا عن الأداء (والغارمين) وهم الذين استدانوا لغير معصية ، سواء أكان ذلك الدين لاصلاح بين طائفتين ، أوكان لعمل من الأعمال العامّة ، كأن استدان الرجل لانشاء مصنع من المصانع التى تعود على الناس بالخير .

ويقول المفسرون : ان من استدان لاصلاح ذات البين يعطى من الزكاة لأداء دينه ولو كان غنيا ، وقد يدلّ لذلك عدّ الغارمين قسما مستقلا عدا قسم الفقراء والمساكين ، والمراد أنهم يعطون لغرامتهم فى عمل شريف ، تشجيعا للناس على عمل الخير ، وأنهم إذا غرموا فى ذلك السبيل لا يصحّ أن يتركوا بدون دفع لغرامتهم .

ويدخل فى ذلك القسم التجار الذين استدانوا فى سبيل تجارتهم ، ثم أصبحوا فقراء فانهم يعطون من الزكاة من ناحية أنهم غارمون فى غير معصية ، ومن جهة أنهم فقراء (وفى سبيل الله) أى طريقه الذى يحبه ويرضاه كالجهاد ، وطلب العلم ، وترقية الصناعات ، والمعارف ، وغير ذلك من كلّ مايرضى الله تعالى ، ويعود على الناس بالخير فى دينهم ودنياهم ، لأن الله تعالى لايريد للناس إلا سعادتهم فى الدارين ، كبناء المستشفيات ، والجمعيات الخيرية التى ترقى الناس فى أخلاقهم ودينهم ، وتحفظ عليهم عزهم وكرامتهم ، كلّ ذلك سبيل الله الذى يرضيه ويحبه .

(وابن السبيل) أى المسافر يعطى من مال الزكاة ليستعين به على سفره ، وان كان له مال فى بلدة المستوطن له ، فيعطى لسفره ، ومنه تعلم كيف أن الدين يحث الناس على الأسفار باعداده جزءا من الزكاة للمسافرين .

وقد عرف الغربيون قيمة الأسفار ، ومقدار تأثيرها عليهم فى علومهم ومعارفهم ، وصناعاتهم فعنوا بها عناية عظيمة ، وقد حثّ القرآن الكريم على السير فى الأرض .

(أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها «٤٦» [1])

وقد أصبح من الأوّليات ارتباط العالم بعضه ببعض فى المصالح والمرافق ، حتى صار كالأسرة الواحدة ، ولاسيما بعد تسهيل أمر المواصلات والمخابرات ، فالأمة التى تجمد على الاقامة فى بلدها ، ولا تتصل بغيرها من الشعوب لتستفيد من معارفها وعلومها ـ لايمكن أن تعيش ، أوتأخذ منزلتها فى الحياة ، والفضل الأوّل فى الحثّ على الأسفار وصلة العالم بعضه ببعض إنما هو للشريعة التى تكافئ المسافر وتنفق عليه مادام مسافرا ، وتجعل له نصيبا من بيت مال المسلمين ـ ومن العلماء من يفسر ابن السبيل باللقيط لأنه لايعرف له أب ، والآية تحتمل القسمين جميعا ، وتشملهما معا .

---

[١] الحج .

الصيام

يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ [١] تَتَّقُونَ «١٨٣» أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ [٢] فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ «١٨٤» شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِنَ ٱلْهُدَىٰ [٣] وَٱلْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ [٤] مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ « ١٨٥ » وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ «١٨٦» أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ [٥] إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ [٦] وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ [٧] فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ [٨] وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ [٩] ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱللَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَٰكِفُونَ [١٠]

---

[١] لعلكم : ليعدكم للتقوى . [٢] يطيقونه : يؤدونه بمشقة . [٣] بينات من الهدى : آيات واضحات من الهدى . الفرقان : الفرق بين الحق والباطل . [٤] شهد : حضر .

[٥] الرفث : كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة . [٦] هنّ لباس لكم الخ : لباس مصدر لابسه بمعنى خالطه ، وعرف دخائله . [٧] تختانون أنفسكم : تنقصونها بعض ما أحل لها ، أو تخونونها بالعمل على خلاف ما تعتقدون . [٨] ما كتب الله لكم من النسل . [٩] حتى يتبين لكم الخ : أى يظهر الفجر الصادق ، وهو ضوء النهار . [١٠] عاكفون : مقيمون .

فِي الْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَٰتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ «١٨٧» البقرة

شرح وتعليق

(١) فرض الله علينا الصوم فى السنة الثانية من الهجرة ، وهى السنة التى فرض علينا فيها الزكاة ، وأرانا الله تعالى أنه كتبه علينا كما كتبه على من سبقنا من الأمم ليرشدنا :

[أولا] إلى أن ذلك الركن من أركان الدين لاغنى عنه فى تهذيب النفس واصلاح الخلق ، ومن أجل ذلك شرعه لمن قبلنا كما شرعه لنا ، فنحرص عليه لأنه علاج ضرورى ، واصلاح لاغنى عنه .

[وثانيا] أنه أسلوب من أساليب إيناس النفوس وترغيبها فى قبول التكاليف ، ولم يبين لنا القرآن الكريم أن الله فرض علينا الصوم كما فرضه على من قبلنا فى كميته وكيفيته ، بل سكت عن ذلك ، واكتفى ببيان أنه فرضه علينا وعلى من سبقنا ، وقد يكون الصومان متفقين ، وقد يكونان مختلفين حسب ماتقضى به الحكمة ، واختلاف الزمن .

(لعلكم تتقون) بيان لحكمة الصوم وسره ، وأن هذه الحكمة ليس من شأنها أن تعود الى المشرع ، وإنما حكمة العبادات إصلاح حال المكلف ، واعداده للحياة الحقة ، كماقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم «٢٥» [١]) .

فالمعنى أنه فرض علينا الصوم ليعدنا بذلك لتقوى الله ، والبعد عن محارمه ، والرغبة فى طاعاته ، وبذلك يسعد المكلف ، ويقوم بنصيبه فى الحياة ، ويعمل لسعادة الدارين .

أما الاعداد لترك مانهى الله عنه فلأن الصوم حبس النفس عن الطعام والشراب الذى أحله الله تعالى فى غير ذلك الوقت الذى فرض فيه الصوم ، وحبسها كذلك عن مباشرة النساء اللائى كن حلالا فى غير نهار رمضان ، والذى يملك نفسه ويصبر عن طعامه وشرابه ، وعن امرأته فى الوقت الذى حدده الله له طائعا مختارا — جدير به أن يترك مانهى الله عنه مما يفسد فطرته ، أو يضر ماله وصحته ، وبعيد أن يعف الرجل عن امرأته وهى حلال له ، لأن الله أمره أن يعف عنها فى نهار رمضان، ثم يتطلع الى امرأة غيره ، وكذلك يبعد أن يعف الانسان عن طعامه الذى هو حلال له لأن الله طالبه بذلك ، ثم يأكل مال غيره بالباطل ، كأكله من طريق الرشوة ، أو من طريق الربا أو السرقة ، أو غير ذلك .

وأما إعداد الصوم النفوس للطاعات فلأنه سر بين العبد وربه ، لايطلع عليه غير الله تعالى وهو من هذه الناحية يكسبه ملكة المراقبة لله تعالى والخوف منه ، فتقوى فيه داعية الخير ، وتضعف منه داعية الشر ، يذكره بحاجة الفقير والمسكين ، وأن هناك أناسا يجوعون راغمين غير

---

[١] الأنفال .

مختارين ، يجوعون لأنهم لايجدون مايسدّ حاجتهم ، وحين ذاك يفكر فى أن يواسيهم بشىء من ماله ، فهو مذكر بالزكاة والصدقة ، كما يذكر الانسان بضعفه أمام دواعى الفطرة الملحة ، سواء أكان ذلك الضعف من جهة حاجته الى الطعام والشراب ، أم من جهة حاجة الى المرأة ، وهنالك يتذكر أن العبد ضعيف أمام هذه الدواعى ، وأن الله تعالى غنىّ عن الطعام والشراب ، وغنىّ عن الصاحبة .

وهناك حكمة كبرى من حكم الصوم ، هى تقوية الارادة فى المسلم ، وشحذ العزيمة . حتى يكون الرجل رجلا كاملا لاتستهويه الشهوات ، ولاتستولى عليه الكيوف ، وأن الناس يتفاوتون فى قوّة الارادة تفاوتا كبيرا ، وقد تضعف إرادة الرجل حتى تذهب بكلّ فضيلة فيه ، فيصبح أسير الشهوات والهوى ، لايخلص من شهوة إلا وقد استولت عليه شهوة أخرى ، ومصيبة المسلمين بضعف الارادة : هى مصيبة كبرى ، فاذا تصوّرت قاضيا ضعيف الارادة ، مكبلا بالشهوات سواء أكانت شهوات نسائية ، أوشهوات خمرية ، أو شهوات مالية — إذا تصوّرت قاضيا على ذلك الحال — وما أكثرهم — فهل تستطيع أن تأمن ذلك القاضى على دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ؟ وهل تطمئنّ الى العدالة فى أيدى أولئك الضعفاء ؟

وهل يستطيع زعيم من الزعماء أن يقف من خصوم البلاد موقفا مشرفا إذا لم يتحصن بقوّة الارادة ، ويتسلح بشدّة العزم والحزم ؟ وهل إذا كان مريضا بالحكم وحبّ السلطة مثلا يستطيع أن يصل بأمّته الى حيث تحبّ ؟

نعم لايستطيع ضعيف الارادة أن يقوم بعمله فى الحياة كاملا غير منقوص ، وإنما الذى يستطيع ذلك سواء أكان رئيسا أم مرءوسا ، حاكما أومحكوما ، هو ذلكم الرجل الذى قوى عزمه وصلبت ارادته ، من أجل ذلك كله قضت حكمة الله أن يفرض على الناس فى كلّ سنة أن يصوموا شهرا ، يمرّنون فيه أنفسهم على الصبر ، ويعوّدونها الحزم والعزم ، حتى يصبروا عن شهواتهم ، ويصبروا على مصائبهم التى تنتابهم فى الحياة ، ويصبروا على طاعاتهم التى كلفهم الله بها ، ويصبروا على أعمالهم التى لاغنى لهم عنها ، وبالجملة يصبرون على كلّ عمل نافع مفيد ، ويصبرون على ترك كلّ خلق ذميم أو عمل ضارّ . وذلك جماع التقوى التى أجلها القرآن الكريم فى قوله (لعلكم تتقون) .

(٢) (أياما معدودات) أى قلائل ، وهو ترغيب فى الصوم من طريق تقليل زمنه (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدّة من أيام أخر) بيان للأسباب التى تبيح للمكلف أن يفطر [أوّلها] المرض ، وقد أطلقه القرآن الكريم ولم يقيده بالمرض الشديد الذى يعسر معه الصوم ، وقد روى هذا عن عطاء ، وابن سيرين ، وعليه البخارى ، والجمهور من العلماء قيدوه بالمرض الذى يعسر معه الصوم ، واستدلوا لذلك بقول الله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر) وهودليل لأصل رخصة الافطار ، وكمالها أن لايكون فيها تضييق ، والمؤمن يحتاط لنفسه مادام حريصا على أداء ذلك الركن ابتغاء مرضاة الله تعالى ، ومادام مرضه لايسقط عنه صومه

الى النهاية ، بل يجب عليه القضاء ، وربّ قضاء هو أشقّ على صاحبه من الأداء ، فما دام الصوم ميسورا له مع مرضه ، ولم يغلب على ظنه أن صومه يضاعف مرضه أو يطيل زمنه فالأحوط أن يصوم .

[ثانيها] السفر وهو يشمل الطويل والقصير ، وقد جاء فى السنة مايؤيد ذلك الاطلاق . روى أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس أنه قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج مسيرة ثلاثة أميال أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين » . ويرجح كون الرواية ثلاثة أميال حديث أبي سعيد عند سعيد بن منصور قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فرسخا يقصر الصلاة » والفرسخ ثلاثة أميال ، بل روى ابن أبي شيبة باسناد صحيح عن ابن عمر أنه كان يقصر الصلاة فى الميل الواحد ، ولاخلاف بين المسلمين فى أن السفر الذى يباح فيه قصر الصلاة يباح فيه الفطر . والمعنى أن المسافر من حقه أن يفطر ، وكانت الصحابة تسافر فى الجهاد والغزو فيفطر البعض، ويصوم البعض، ولايعيب المفطر على الصائم ، ولاالصائم على المفطر ، وقد يترجح الافطار إذا كان فى الصوم مشقة وكان الفطر أقوى للمسافر وأعون له على أداء مهمته .

(وعلى الذين يطيقونه فدية) بيان لعذر آخر من أعذار الصوم ، وهو أداؤه بمشقة وصعوبة يقال أطاق الشيء : إذا كانت قدرته عليه فى غاية الضعف بحيث يتحمل به مشقةشديدة ، ولذلك لايقال لغة : أطقت حمل العصا . بل يقال : أطقت حمل الصخرة ، وهو يشمل الشيوخ الضعفاء ، والحوامل والمراضع يخفن على الأجنة والأطفال ، ويشمل المرضى بالمعدة مرضا لايمكنهم من مصابرة الجوع .

وقد سألنى بسور يارجل عمل عملية جراحية بالمعدة فصغرت حتى لاتسع من الطعام إلامقدارا صغيرا ، ولايستطيع أن يصبر عن الطعام طول النهار ، فقلت له : عليك الفدية ، وذكرت له الآية ، وقلت له ان الدين لم ينزل لاعنات الناس ، وإنما نزل لحياتهم ، ففرح وسرّ بذلك القول ودعالى بخير ، كما تشمل الآية الفعلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة ، كاستخراج الفحم الحجرى من مناجمه ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فهو يشمل أيضا سائقى قطارات السكك الحديدية الذين يقفون نهارهم أمام النار . ويشقّ عليهم الصبر عن الماء فى اليوم الشديد الحرّ ، والعرانين الذين لا يستطيعون الصوم فى أيام الصيف فى البلاد الحارة — وتكليفهم ترك أعمالهم لايتفق ويسر الدين فى شيء ، لأن المفروض فى التشريع أن يكون صالحالجميع الطبقات وفيهم العمال وأصحاب الأعمال الشاقة ، فمن رحمة الله بهم أن يقبل منهم الفداء ، وهو إطعام مسكين عن كلّ يوم ، ومن أخذ منهم نفسه بالشدّة ، وألزمها الصوم ، وتحمل فى ذلك المشاقّ فهو أمير نفسه ، فان الله لم يفرض عليه الفطر ، وإنما أباح له ، وهو صاحب الشأن فيه ، والله سائله عن دينه وصومه وعذره ، وهو أعلم به ان كان همه التخلص من التكاليف ، أو همه إرضاء ربه ، والمحافظة على حياته ومصلحته .

(٣) (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) الخ .

يرينا الله أن الأيام المعدودات هى شهر رمضان ، وقد اختاره الله لذلك لأنه أنزل فيه القرآن

أى كان بدء نزوله فيه ، وهو نعمة عظمى على الناس ، لأنه هدى للناس ، وآيات واضحات من الهدى ، وكلّ كتب الله هدى ، وكذلك هو آيات فى الفرق بين الحقّ والباطل .

(فمن شهد منكم الشهر فليصمه) : يرشدنا الله تعالى بذلك الأسلوب الى أن من الناس من يشهد الشهر كأصحاب المناطق المعتدلة والمنطقة الاستوائية ، فأولئك فرضهم أن يصوموا الشهر ، ومن الناس من لايشهد الشهر كأصحاب المناطق القطبية ، فان نهارهم نصف سنة وليلهم كذلك ، فهؤلاء لم يشهدوا الشهر ، ولذلك يرى العلماء أنهم يقدّرون مدّة توازى الشهر ويصومونها اجتهادا ويقول الأستاذ الامام : ان هذه الآية من دلائل كون القرآن من عند الله لامن وضع محمد صلى الله عليه وسلم الذى نشأ بجزيرة العرب ، وإلا فمن الذى أعلمه أن من البلاد من لايشهد الصوم ولذلك قيد الحكم بمن شهد الشهر .

(ومن كان منكم مريضا) الخ ، أعاد الرخصة اهتماما بشأنها ، وإيذانا بأن الله تعالى يحبّ أن يتعبد برخصه كما يحبّ أن يتعبد بعزائمه ، ولأن من شأن الناس أن تزهد فى الرخصة وتحرص على العزائم ، فالله تعالى يكررها كأنه يحثّ على العمل بها ويرغب فيها .

ثم عقب ذلك بقوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ليؤكد ذلك الطلب (ولتكملوا العدّة) عطف على قوله (يريد الله بكم اليسر) أى ويريد أن تكملوا العدّة فمن لم يكملها أداء لعذر أكملها قضاء (ولتكبروا الله على ماهداكم) إليه من الأحكام النافعة لكم بأن تذكروا عظمته وجلاله (ولعلكم تشكرون) له هذه النعم بالقيام بها على وجهها فتكونوا من الكاملين .

(٤) (أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) إرشاد من الله تعالى لحقيقة الصوم فى الاسلام ، وأنه يجوز الافضاء الى النساء فى أىّ ليلة من ليالى رمضان ، لأن (ليلة) مفرد مضاف فيعمّ ، وقوله (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ) بيان للسبب فى إباحة الافضاء الى النساء فى الليل أى إذا كان بينكم وبينهن هذه الملابسة والمخالطة فان اجتنابهنّ عسر عليكم ، فلهذا رخص لكم فى مباشرتهنّ .

(علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أى تنتقصونها بعض ما أحلّ الله لها من اللذات توهما منكم أن من قبلكم كان كذلك (فتاب عليكم) ببيان هذه الرخصة (وعفا عنكم) حيث أخطأتم فى اجتهادكم الذى أدّى الى التضييق على النفس وإيقاعها فى الجرم .

ويحتمل علم الله أنكم كنتم تخونون أنفسكم إذ تعتقدون شيئا ثم لاتلتزمون العمل به ، فهو مبالغة من الخيانة التى هى مخالفة مقتضى الأمانة ، وقوله (فتاب عليكم) الخ : أى قبل توبتكم وعفا عن خيانتكم أنفسكم ، وأذن لكم الآن إذنا صريحا بأن تباشروا النساء بالنية الصالحة طالبين ماكتبه الله لكم من النسل ، لا لمجرّد الشهوة .

(وكلوا واشربوا) الخ ، بيان لغاية الوقت الحلال ، وأنه ينتهى بظهور الفجر الصادق ، والآية مثل ، وليست حقيقة .

وقد غفل عن ذلك بعض الصحابة ففهم أنها حقيقة ، فأتى بعقالين : أبيض وأسود ، وجعلهما تحت وسادته ، وكان يقوم بالليل وينظر اليهما فلا يتبين له الأبيض من الأسود ، فلما أصبح غدا

الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره فضحك ، وقال : إنك لعريض القفا ، إنما ذاك بياض النهار ، وسواد الليل . فالله تعالى يبيح للانسان أن يأكل الى طلوع الفجر ، أما تركه للأكل والشرب قبل الفجر بنحو ثلث ساعة ، فهو احتياط من صنع الناس .

(ثم أتموا الصيام إلى الليل) بيان للمدّة التي يمسك فيها الصائم ، فالآية تر ينا أن اتيان النساء والأكل والشرب مباحة للمسلم من غروب الشمس الى طلوع الفجر ، وهـذه هي المفطرات التي نصّ عليها القرآن الـكريم .

(تلك حدود الله فلاتقربوها) الاشارة الى الأحكام التى تقدمت ، وسميت حدودا لأنها حدّدت الأعمال و بينت أطرافها وغايتها ، وقوله (فلا تقربوها) أبلغ فى التحذير من قوله فى آية أخرى (فلا تعتدوها) لأنه يرشـد الى الاحتياط ، فمن قرب من الحدّ أوشك أن يعتديه ، كالشابّ يداعب امرأته فى النهار لايثق بالوقوف عند حدّ المباح له ، وقيل لاتقربوها بالتأويل ، ولابالهوى والرأى ، بل اقبلوها كما هى (كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) على ذلك النحو من البيان يبين الله لهم آياته ليعدهم للتقوى .

الحـــج

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ «٩٧» آل عمران

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا [١] لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ «٩٧» المائدة

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ [٢] يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ «٢٧» لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى

---

[١] يقوم به أمر الناس فى دينهم ودنياهم . الهدى : ما يهديه المحرم من الابل ، أو البقر ، أو الغنم لفقراء الحرم . القلائد جمع قلادة : ما يجعل فى عنق الهدى حتى لايتعرّض له أحد .

[٢] ضامر : خفيف اللحم من العمل لا من الهزال . فجّ عميق : طريق بعيد .

مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ (١) فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ «٢٨» ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ (٢) وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ «٢٩» الحج

شرح وتعليق

(١) فرض الله الحجّ فى السنة التاسعة من الهجرة وقد خرج عليه السلام للعمرة فى السنة السادسة فصدّته قريش عن البيت ، وقضى تلك العمرة فى السنة السابعة ، وفى السنة التاسعة حج بالناس أبو بكر رضى الله عنه ، وفى العاشرة خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وحج بجمهور المسلمين حجة الوداع ، وفيها بين للناس كيفية الحج ، وقال لهم «خذوا عنى مناسككم» .

وقد أرانا الله بقوله (ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا) أنه أوجب على مستطيع الحج أن يحج الى بيت الله لأداء هذه الفريضة ، ولم يبين الله لنا حدّ الاستطاعة ، لأن كلّ أحد يعلم من نفسه ان كان يستطيع الحجّ أولا يستطيع ، وان كان عاميا ، لأنها عبارة عن القدرة على الوصول الى بيت الله ، وهى تختلف باختلاف الناس فى أنفسهم ، وفى بعدهم عن البيت وقربهم منه .

واننا نرى جماهير المسلمين يذهبون الى الحج فى كلّ عام بدون أن يستفتى واحد منهم العلماء عن نفسه أهو مستطيع أم غير مستطيع ؟ فدلّ ذلك على أن الاستطاعة أمر موكول للشخص وهو أدرى بنفسه - وان كان عاميا - من غيره وان كان عالما نحريرا .

وقد استنبط بعض العلماء من الآية أن حجّ البيت من فروض الكفايات التى يجب أن يقوم بها طائفة من المسلمين فى كلّ عام ، وإذا عطلوا هذه الشعيرة أثموا جميعهم ، والدليل على ذلك أنه وجه الوجوب فى الآية الى الناس عامّة ، فتكون الآية دالة على وجوب الحجّ وجوبا كفائيا على عامّة المسلمين ، على معنى أنه يجب على عامّة المسلمين أن يقوم فريق منهم ، وهو المستطيع - بأداء ذلك الركن ، وتدلّ فوق ذلك على وجوبه وجوبا عينيا على كلّ مسلم مستطيع ، وإذا تركه أثم ، وذلك الاستنباط لايتمّ إلا حيث اعتبرنا (من استطاع) فاعلا لقوله (حج) أما إذا قلنا إن (من استطاع) بدل من الناس و بيان له فلاتدلّ الآية على أن الحج فرض كفاية على عامّة الناس .

بل يكون معناها : ولله على الناس الذين استطاعوا الوصول الى بيت الله أن يقصدوا الى ذلك البيت لأداء النسك ، فتكون الآية بيانا لمن يجب عليهم الحجّ وجوبا عينيا - أما وجوب احياء هذه الشعيرة كبقية شعائر الدين فهو مأخوذ من أدلة أخرى .

(ومن كفر فان الله غنىّ عن العالمين) أى من لم يذعن لوجوب ذلك الركن وما فرض الله

---

[١] بهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم . [٢] يزيلوا أوساخهم . العتيق : المكرّم ، عتقه الله أن تسومه الجبابرة .

من حج ذلك البيت فانه لايضرّ بذلك الجحود إلا نفسه ، فان الله غنيّ عن العالمين ، لايستفيد من عبادتهم ، ولايتألم لعصيانهم ، ومنهم من حمل الكفر هنا على ترك الحج ، وأيد رأيه بأحاديث منها مارواه ابن عدى عن أبي هريرة مرفوعا « من مات ولم يحجّ فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا» وهو بعيد، والحديث لم يصحّ ، وكذلك ماروى بمعناه .

(٢) (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) الخ : أي صير الله الكعبة التي هي البيت الحرام أمرا يقوم به أمر الناس ويتحقق ، أو يستقيم ويصلح بايداع تعظيمها في القلوب ، وجذب الأفئدة إليها ، وصرف الناس عن الاعتداء فيها وعلى مجاوريها وحجاجها ، وتسخيرهم لجلب الأرزاق إليها .

ويدلّ لذلك قول الله تعالى (ربنا انى أسكنت من ذرّيتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون «٢٧» [1]) .

وفي معناه قول الله تعالى (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كلّ شيء رزقا من لدنا ولكنّ أكثرهم لايعلمون «٥٧» [2]) وكذلك الشهر الحرام ، وهو ذو الحجة الذى تؤدّى فيه مناسك الحج ، أوالمراد به جنس الأشهر الحرم التي كانوا يتركون فيها القتال ، جعل حرمتها قياما للناس ومصلحة لهم ـ وجعل الهدى الذى يساق الى الحرم ، والقلائد التي يسمون بها الهدى حتى لايعتدى أحد عليه هى مصلحة للناس فى الجاهلية والاسلام ، أو القلائد التي كانوا يقلدون بها أنفسهم وهم راجعون من الحج ليأمنوا على أنفسهم في عهد الجاهلية هى أيضا مصلحة لهم ، وكان الناس إذا رأوا هديا عليه القلائد لايقربونه ولوكانوا فى شدّة الجوع ، كلّ ذلك يعمل إعظاما لبيت الله ومايتصل به ، ذلك هو الجعل التكويني الذى هو من خلق الله وتصبيره .

ولك أن تقول (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) أى بما شرعه من القصد إليها ، وتعبد الناس باجلالها وتعظيمها ، وجعل حجّ ذلك البيت أصلا من أصول الدّين ، وشعيرة من شعائره ، فجعلها بذلك التشريع قياما للناس يقوم بها أمر دينهم ودنياهم ، لأنها عبادة بدنية ، مالية ، روحية، اجتماعية، يجتمع فيها المسلمون على اختلاف ألوانهم ، وتباعد مساكنهم ، ليكون ذلك الجمع مؤتمرا عاما لهم ، يفكرون فيه فيما يصلحهم ، ويتشاورون فيما يحيط بهم ، وطرق الخلاص من أمراضهم .

وقد فطن لذلك أعداء الاسلام من زمن بعيد ، فأخذوا يضعون العقبات فى سبيل حجهم ، ويضيقون الخناق عليهم فى ذهابهم وإيابهم ، ولكنّ المسلمين غافلون عن كلّ ذلك ، فحلّ بهم ماحلّ ، وحاق بهم ما حاق .

غير أن الذى يذهب إلى بيت الله ويختلط باخوانه المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، يعلم أن هناك عقبة كئودا تحول دون انتفاع المسلمين بحكمة الحج ، وهى تفارقهم فى اللغة ،

---

[١] ابراهيم . [٢] القصص .

وتباينهم فى وسائل التفاهم ، فتجد الهنود تسود فيهم اللغة الأوروبية ، وفريق منهم يحسن اللغة الانجليزية ، وتجد المغاربة والسوريين يحسنون اللغة الفرنسية ، وتجد المصريين جاهيرهم يحسن اللغة العربية ، وتجد الأتراك يعرفون اللغة التركية ، وهكذا . . .

ولو أن المسلمين فطنوا لذلك الاشكال الذى يعترضهم ، وفكروا فى طريق الخلاص منه لجعلوا لهم لغة رسمية قومية ، تجمع بين أشتاتهم ، وتوحد طريق التفاهم بينهم ، وهى لغة القرآن والدّين وهى التى بها يفهم القرآن ، وتفهم السنة على الوجه الصحيح ، وبها نزل التشريع السماوى .

لو أنهم عملوا على ذلك ، واهتموا بدراسة اللغة العربية فى جميع بلادهم ، لأفادوا من هذه الدراسة فائدتين :

[إحداها] : انتفاعهم بحكمة الحجّ ، واتصال بعضهم ببعض لاتفاقهم فى اللهجات واللغة بدون حاجة إلى مترجمين .

[ثانيتهما] : انتفاعهم بهذه اللغة وخصائصها فى فهم الدين من ينبوعه الصحيح ، والوقوف عليه من مصادره الأولى ، بدل أن يأخذوه عن تراجم كثيرا مّا تشوّه جماله ، ولا تفى بأغراضه ومقاصده .

نعم ان الذى يذهب إلى الحجّ يفهم مقدار ذلك الاشكال الذى سببه اختلاف الناس فى لغاتهم وصعوبة وقوف كلّ شعب من الشعوب على أغراض الشعوب الأخرى ، والله ولىّ التوفيق .

وكما يستفيد المسلمون من اتصال بعضهم ببعض فى نفوسهم وأخلاقهم كذلك يستفيدون من جهة اقتصادهم ومتاجرهم ، وكذلك يستفيد المؤمنون من ذلك المؤتمر الذى يجتمع إليه الناس طائعين فى كلّ عام قوّة إيمانهم ، وارتباط غنيهم بفقيرهم ، وشرقيهم بغربيهم ، وشماليهم بجنوبيهم حتى يشعر المؤمن بأن كلّ أولئك المؤمنين هم إخوان له فى السرّاء والضرّاء ، وأعوان له على الشدائد التى تنتابه ، وبذلك يقوى عنده الأمل فى الاصلاح ، والرغبة فى العمل الجدّى النافع الذى يعود على المسلمين بالخير فى الدّين والدنيا .

ولم يكن ذلك الاجتماع الذى دعا إليه الدين أول اجتماع إسلامى ، فان الدّين يدعو إلى الجماعة فى كلّ صلاة ، والجماعة فى كلّ جمعة ، ويدعو إلى الجماعة فى كلّ سنة فى العيدين ، كلّ ذلك لينمى فى المسلمين عاطفة الاجتماع ، ويقوى فيهم غريزة حبّ الصالح العام ، وكثيرا ما تكون ضعيفة فى المسلم ، فمن المصلحة أن تنمى .

من المصلحة أن يجتمع الناس على هذه الشعيرة شعيرة الحج الأكبر لابسين لباسا واحدا فى إحرامهم ، طائفين حول بيت واحد ، مصلين خلف إمام واحد ، ساعين بين الصفا والمروة فى مكان واحد ، واقفين للتعارف على مكان واحد ، يعبدون إلها واحدا على ملة أبيهم ابراهيم عليه السلام كلّ ذلك مما ينمى فى المؤمن شعوره بوحدة المسلمين فى أغراضهم ومقاصدهم ، ويغرس فيهم ملكة الشعور بهذه الوحدة ، وأنهم ينبغى أن يكونوا سواسية فى مرافق الحياة ، لافضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى ، ولا ميزة لعربيهم على أعجميهم ، ولا لغنيهم على فقيرهم ، حتى ان الرجل الذى كبل

بالامتيازات فى حكومته ليشعر وهو يحج إلى بيت الله الحرام أنها قيد ثقيل على نفسه وعلى أمته يجب الخلاص منها .

هذه حكمة الحج العامة ، وعلى المسلم أن ينظر إليه من هذه الناحية ، ويعرف أن الله تعالى قد اختار هــذه الأماكن المقدسة لأداء ذلك النسك ، وجعل ذلك النسك على أساوبه الخاص الذى شرعه ، لأنه يرى فيها من الخصائص ما لا يوجــد فى غيرها ، وإذا جهل الناس الحكمة الخاصة بهذه المناسك وكيفيتها فلا يمنعهم ذلك من اقتناعهم بالحج ، لأنهم يعرفون حكمته العامة .

ومثل الرجل الذى ينـكر الحج لأنه لم يعرف الحكمة فى أن الله جعل عرفة بخصوصــه مكانا لاجتماع الناس فيــه ، ولم يعرف لماذا كان الطواف ببيت الله سبعا ولم يكن ثلاثا ، أوأربعا ، ولا الحكمة فى أن السعى بين الصفا والمروة بذلك الأسلوب الذى نعرف .

مثل ذلك الرجل مثل مريض وثق بطبيب فقدم له نفسه ليفحص مرضه ، ويصف له الدواء وبعد أن فرغ من الفحص وكتب له الدواء قال له : لا أتعاطى دواءك إلا إذا علمت كيف تركب ذلك الدواء ، ومقدار نسب التركيب ، ولماذا أخذت من العقاقير بهذه النسب ، ولماذا لم تـكن النسب على نحو آخر ، فهل يشك أحد فى أن ذلك المريض رجل أحمق ؟ .

فـكذلك المؤمن الذى رضى الله ربا ، واقتنع بأنه حكيم فى تشريعه ، وفوض له أمر دينــه ودنياه ، وفهم الحكمة العامة فى الحج ، لا يضره أن يجهل الحكمة الخاصة بالتفاصيل ، لأنه لابد من التعبد فى صــور العبادات ، وأشكالها وكيفيتها وكميتها ، ويكفى أن تـكون معقولة فى جملتها ، ألا ترى الصلاة ، فرضها الله لأنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، ولـكن لماذا كانت خمسا فى كل يوم وليلة ؟ ولماذا كان الصبح ركعتين والظهرأربعا الخ ؟ ولماذا كانت الركعة الواحدة فيها ركوع وســجودان دون العكس ؟ كل ذلك تعبدى لايضر المؤمن أن يجهله ، وإذا فهم حكمته فذلك فضــل من الله تعالى ، وكذلك فرض الله الصوم ليعدنا به للتقوى ، ولـكنه جعله شهرا فى كل سنة لماذا ؟ أليس ذلك متروكا إلى الله تعالى ؟

فـكذلك الحج عرفنا الله حكمته العامة فى الآية المذكورة ، وكذلك عرفنا فى قوله (ليشهدوا منافع لهم) وسكت عن حكمة التفاصيل ، لأن ذلك متروك لله تعالى نأخذه منــه ، كما يأخذ المريض دواءه من الطبيب ، لأنه وثق به ، ورضيه طبيبا له ، وهوأدرى بتكوين الدواء ، ونسب الأجزاء بعضها إلى بعض ، وكذلك الاله — وله المثل الأعلى — رضيناه ربا ، وعرفنا الحكمة العامة من التكاليف ، ونترك الحكمة الخاصة لأن علمها عنده وهو المحيط بها .

أصـــــول المعاملات

لم يقف الاصلاح المحمدى عند دعوة الناس إلى العبادات التى تصلح نفوسهم كالصلاة والصوم أو اجتماعهم كالزكاة والحج ، بل تناول الاصــلاح فى المعاملات ، ووضع نظاما صالحا لها يحول بين الناس وبين الفساد .

حل البيع وحرمة الربا

(١) ألا ترى القرآن الكريم يحلّ للناس البيع ، ويحرّم عليهم الربا ، لأنه لا غنى لهم عن البيع ، والربا لا يتفق ورحمة الانسان بأخيه الانسان ، وهو استغلال لحاجة الفقير .

وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا «٢٧٥» البقرة

ثم يقول :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا «٢٩» وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا «٣٠» النساء

ويقول : وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ «١٨٨» البقرة

ليرينا أن أكل أموال الناس بدون مقابل قد حرّمه الله إلا حيث كان ذلك المال كسبا فى تجارة ، وكانت التجارة عن تراض من المتبايعين فانه يصير حلالا ، ويرينا الله تعالى بقوله (ولا تقتلوا أنفسكم) أن أكل مال الناس بالباطل من ذرائع القتل ووسائله الموصلة إليه ، والذى يرجع إلى بلاد الريف ويعرف آثار أكل المال بالباطل لا يشكّ فى أن ذلك العمل قتل للنفوس .

فترى الرجل يشحّ بميراث أبيه على أخته ، ويجتهد فى حرمانها من ذلك الميراث ليأكل مالها بالباطل ، فيبرز له زوجها وأولادها ، ولا يزالون به حتى يقتلوه ، إن لم يكن قتلا حسيا فقتل أدبىّ ينتهى بفقر الطرفين وسوء الحال بينهما .

فلله ما أحكم هذه الآية ، وما أبعد مداها ، دع ما تدلّ عليه الآية من أمور ظاهرة ، كأخذ مال الغير من طريق الغصب أو السرقة أو التزوير ، فان هـذه الحوادث من شأنها أن تجرّ إلى القتل ، فان السارق إذا اضطرّ إلى الدفاع عن نفسه يستبيح فى ذلك السبيل القتل .

وكذلك صاحب المال يستبيح أن يقتل السارق فى سبيل حفظه لماله ، وتأمّل قول الله تعالى (ولا تقتلوا أنفسكم) ولم يقل : ولا يقتل بعضكم بعضا ، ليرينا أن الرجل الذى يقتل أخاه المسلم هو قاتل لنفسه .

وكذلك الرجل الذى يأكل مال غيره بالباطل هو مضيع لماله بذلك العمل ، فالآية ترشدنا إلى وحدة الأمّة وتكافلها ، فى الخير والشرّ ، وأن الاعتداء على الغير اعتداء على النفس ، وما أحسن قول الله تعالى بعد ذلك (إنّ الله كان بكم رحيما) .

ومن رحمته بنا أن وضع لنا ذلك التشريع العادل ، ثم توعدنا إذا نحن لم نسمع لذلك النصح بقوله (ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا) ليرينا أن من الناس من يأكل مال غيره وهو يعتقد خطأ أنه ماله ، ورجل ذلك حاله ليس له هذا الوعيد .

تحريم الرشــوة

ثم تراه فى آية البقرة ينهانا عن الرّشـوة ، وأن نتقدّم بمالنا إلى الحكام لنستعين بذلك المال على أكل فريق من أموال الناس بالاثم ، لأن ذلك مفسد لأداة الحكم ، ومتى فسدت أداة الحكم كانت الطامّة الكبرى ، والأمّة لاتزال بخيرمادام قضاؤها نزيها ، وحكامها لا يخضعون للمؤثرات ، وأن الأمّة التى تفشو فيها الرّشوة هى أمّة قد تودع منها .

كتابة الدين

(٢) ثم أرشـدنا القرآن إلى العناية بالدّين ، وأنه ينبغى أن يكتب ، وأن الكاتب ينبغى أن يكون عدلا ، حتى لا يكون موضعا للتجريح عند التقاضى ، وينبغى لذلك الكاتب العدل أن يكتب على النحو الذى علمه الله ، وأن المدين هو الذى يملى على الكاتب ، وليتق الله فى ذلك الاملاء ، فلا ينقص شيئا من دينه ، وأن المدين إذا كان سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يملى فليملل وليه بالعدل والانصاف ، وينبغى أن تستشهدوا على ذلك الدين شهيدين من رجالكم ، فان لم يوجد رجلان فليشهد رجل وامرأتان ، مخافة أن تضـلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، وأنه ينبغى للشاهد أن لا يكتم شهادته إذا دعى إليها ، ولا ينبغى احتقار الدّين وترك كتابته لصغره

ثم بين حكمة ذلك كله بأن ذلك العمل أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى أن لاتوجد ريبة بين المتعاملين ، ثم استثنى من ذلك التجارة الحاضرة ، فلا بأس من عدم كتابتها .

أرشدنا الله تعالى إلى هذه المصالح فى القرآن الكريم إذ يقول :

يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِٱلْعَدْلِ وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْـَٔمُوٓا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ

أَقْسَطُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ «١٨٢» البقرة

العهود والمواثيق

(٣) من الأصول العامة التى وضعها القرآن الكريم لاصلاح المعاملات: الوفاء بالعقود والمواثيق وقد نصّ على ذلك نصوصا مؤكدة ، فمنها ما هو عامّ ، ومنها ما هو خاصّ ، فمن العامّ قول الله تعالى فى أوّل المائدة :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ «١»

وقوله تعالى فى سورة النحل :

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ «٩١»

وقوله تعالى فى سورة الاسراء :

وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا «٣٤»

وأما العهود الخاصة فمنها قوله تعالى فى سورة التوبة بعد أن أعلن البراءة من المشركين .

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ «٤»

فأرانا بهذه الآية الكريمة أن العهد محترم حتى مع المشركين المخالفين لنا فى الدين والعقيدة ، ما داموا قائمين بشروط العهد ، ولم يعاونوا علينا أحدا من الكفار ، وأرشدنا إلى أن الوفاء بالعهد من التقوى التى يحبها الله تعالى ، ولا يصحّ لمسلم أن يتعرّض لسخط الله تعالى بنقض العهد . وقال الله تعالى فى السورة نفسها :

إِلا ٱلَّذِينَ عٰهَدْتُمْ عِنْدَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ «٧»

فتراه يحثّ على الوفاء ما دام المشركون لم ينقضوا العهد ، ثم كرّر الحثّ على ذلك الوفاء فى قوله (إنّ الله يحبّ المتقين) .

ثم ترى القرآن الكريم ينفر من النقض أشدّ تنفير ، ويصف الناقضين بأنهم شرّ الدوابّ على وجه الأرض ، ويبيح لنا — إذا علمنا من المعاهدين أنهم يريدون بنا الشرّ ، ولا يحافظون على العهد — أن ننبذ إليهم عهدهم ، ونعلنهم الحرب والعداء ، على علم منا ومنهم بذلك النقض إذ يقول :

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ «٥٥» ٱلَّذِينَ عٰهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ «٥٦» فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ «٥٧» وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ «٥٨» الأنفال

بل إن القرآن الكريم أعلى من شأن العهد والميثاق إلى أبعد حدود الاعلاء ، فتراه يرشدنا إلى أن المؤمنين الذين لم يهاجروا معكم إذا استنصروكم فى دين الله فعليكم النصر لهم على الكفار ، إلا إذا كان الكفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروا المؤمنين عليهم ، قياما بحقّ العهد ، فجعل حقّ الميثاق فوق حقّ الأخوّة فى الدّين .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَٰيَتِهِمْ مِنْ شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَٰقٌ

ثم هدّدهم إذا هم لم يرعوا حق الميثاق بعناية إذ يقول بعد ذلك :

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ «٧٢» الأنفال

فهل فطن لذلك أعداء الاسلام والمسلمين ؟ وهل عرفوا مقدار عناية القرآن بحفظ العهد والميثاق ؟ .

اليتيم والعناية به

(٤) علم الله أن اليتامى إذا أهمل شأنهم ، وتركوا بدون تربية كانوا مرضا فى جسم الأمة يفسد عليها كل اصلاح ، فأمر القوامين عليهم أن يربوهم تربية صالحة فى أخلاقهم ودينهم ، وأن يهتموا بما ترك لهم الآباء من مال فينموه لهم ، حتى إذا بلغوا وآنسوا منهم الرشد دفعوا إليهم أموالهم كاملة غير منقوصة .

وَءَاتُوا الْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا[١] كَبِيرًا «٢» النساء

وَابْتَلُوا الْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم[٢] مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا[٣] أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا «٦» النساء

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا «٩» إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ الْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا «١٠» النساء

ولعل فى ذلك عبرة لجماعة الأوصياء الذين هم كالوحوش الضارية ، لعل لهم عبرة فى قول الله تعالى (وآتوا اليتامى أموالهم ولاتتبدلوا الخبيث بالطيب) حتى لاتتبدلوا الخبيث من أموالهم بالطيب من أموال اليتامى ، سواء أكان ذلك فى العقار أو المواشى ، ولعلهم يعتبرون بقول الله تعالى (ولاتأكلوا أموالهم الى أموالكم) وتضموها إليها ، ثم عقب ذلك النهى بقوله (إنه كان حوبا كبيرا) .

لعل فى القرآن الكريم عبرة لجماعة الأوصياء الذين يريدون أن تكون وصايتهم على اليتامى الدهر كله ، يأمرهم الله أن يختبروهم فى الشئون المالية ، حتى إذا أبصروا فيهم الرشد لتدبير المال

---

[١] ذنباً . [٢] أبصرتم . [٣] مبادرين إلى أكلها مخافة أن يكبروا .

والاحتفاظ به دفعوا إليهم أموالهم ، ولكن أولئك الأوصياء لايعترفون لليتامى برشد ، وان أقاموا ألف دليل ودليل على رشدهم ، حتى يكونوا بقرة حلوبا يستدرون أموالهم ، و يعيشون على حسابهم ، ومثلهم فى ذلك مثل المستعمرين الذين احتلوا البلاد بحجة أن أهلها لم يستعدوا لحكم أنفسهم بأنفسهم ، فهم فى حاجة الى قوم راشدين يهيمنون على مصالحهم وشئونهم ، يأخذون البلاد و يحتلونها بذلك الاسم ، ثم يضربون الرق على أهلها ماداموا قادرين عليهم ، وفى استطاعتهم أن يحتلوهم ، و إن أقاموا الأدلة على رشدهم ، وقدرتهم على تصريف شئونهم ، فالأوصياء على اليتامى ، والأوصياء على الدويلات الضعيفة سواء فى الظلم ، واستغلال الضعف ، ووضع العقبات والعراقيل فى سبيل انتفاع الناس بما أعطاهم من مال ومواهب ، وحسبنا الله فى الفريقين .

وتأمل قول الله تعالى (ولا تأكلوها إسرافا و بدارا أن يكبروا) لتعلم أن من الناس من يأكل مال اليتيم ، والحامل له على ذلك الاسراف والبذخ ، والخوف من أن يبقى ذلك المال تحت حيازة اليتيم الى أن يكبر ، فلا يستطيع الوصى أن يأكله بعد الكبر ، فيبادر بأكله وهوصغير ثم يأمر الله من كان غنيا منهم أن يتعفف عن الأكل من مال اليتيم ، ويحفظ له ماله بدون أجر ، ومن كان فقيرا منهم أباح له أن يأكل من مال اليتيم بالطريق المعروف ، فلا يسرف فى ذلك.

ثم يأمر الأوصياء بأن يشهدوا على الأيتام إذا دفعوا إليهم أموالهم بعد الرشد ، حتى لايوجد نزاع ، ثم يعقب ذلك بقوله (وكفى بالله حسيبا) وهو تهديد شديد لجماعة الأوصياء إذا هم غالطوا اليتيم فى ماله ، يريهم به أن الله تعالى رقيب عليهم ، حسيب على أعمالهم ، وما أشد قول الله تعالى فى سورة النساء .

وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ «٩»

يهدد به الأوصياء ، ويريهم أن كل واحد منهم عرضة لأن يموت ، وتصبح أولاده يتامى فى حاجة الى عطف الناس ورعايتهم ، فهل يرضيه إذا كان أولاده كذلك أن يظلمهم الناس ، و يضيعوا أموالهم ، و يحولوا بينهم و بين الحياة ؟ ذلك هو الوعيد الذى توعد الله به القوامين على اليتامى ، والناس جد غافلين عن اليتامى وعن حقوقهم ، ولا يعاملهم الأوصياء إلا شر معاملة .

و إنك لتجد واحدا فى الألف يحرص على حق اليتيم وماله ، و يعمل على تثمير ثروته والابقاء عليه .

نظام البيوت

لما كانت الأمة لاتقوم إلا على أسر و بيوت ، وضع الله نظاما للبيوت يكفل حياتها و بقاءها ، و يعد هذه الأسر للقيام بوظيفتها فى هذه الحياة .

الزواج

(١) فشرع الزواج وحثّ عليه ، وامتنّ على الناس أن جعل بين الزوجين مودّة ورحمة ، وخلق لنا من أنفسنا الأزواج لتسكن إليها نفوسنا ، وتطمئنّ إليها أفئدتنا .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ «٢١» الروم

وقال تعالى :

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ «٣٢» النور

وهو خطاب لأولياء البنين والبنات ، يطالبهم الله فيه أن يزوّجوا من لازوج له ، والصالح للزواج من العباد والاماء . وقوله (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) ترغيب فى النكاح وتسهيل لأمره ، وردّ على من يتشدّد فى أمر الزواج و يرغب عنه بعلة الفقر ، وكأنّ الله يرينا أن الزواج من أسباب الغنى ووسائل الاقتصاد .

وكثيرا مّا يكون الرجل مسرفا لا يستطيع أن يحافظ على ماله ، لأنه لم يكن له امرأة تحافظ على ذلك المال ، وتضطرّه معيشته إلى إضاعة ماله فى سبيل مأكله ومشربه ، فاذا اقترن بزوج صالح للزوجية من جهة خلقه وتدبيره حفظ ماله ، ونمت ثروته .

ثم يرينا الله أنه لا غرابة فى ذلك إذ يقول (والله واسع عليم) وليس المراد بالفقراء : الذين لا يجدون مؤنة النكاح من مهر أو نفقة على الزوج ، بدليل قوله بعد (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) .

تعدد الزوجات

(٢) ولم يكن عند العرب حدّ يرجعون إليه فى تعدّد الزوجات ، فوضع القرآن الكريم لذلك حدّا وسطا ، وأباح التعدّد لمن أمن الجور فى معاملة النساء . قال تعالى فى سورة النساء :

فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ [١] لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

[١] لعلّ المراد بالطيب من النساء العفيفة .

تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا «٤»

فأنت ترى القرآن الكريم أباح للرجل أن يتزوّج أكثر من واحدة ، وشرط فى ذلك أن يأمن الجور الذى من شأنه أن يفسد على الرجل بيته ، و يفرق بين بنيه ، وأوجب عليه امرأة واحدة إذا خاف الجور ، فضلا عن تيقنه .

ثم ختم الآية بقوله (ذلك أدنى ألا تعولوا) أى أقرب من ألا تفتقروا ، من عال الرجل عيلة : افتقر ، يريد أن اكتفاء الرجل بامرأة واحدة من أسباب غناه وعدم فقره ، فان الشأن فى المرأة إذا رأت زوجها قد تزوّج امرأة أخرى أن تفرّط فى ماله ، وتعمل على تبديده ، لأنه لم يكن خالص لها ولأولادها ، فالأصل فى الزواج أن يكون للرجل امرأة واحدة ، والزيادة على ذلك لابدّ أن تكون لحاجة ماسة من شأنها أن ترجح على مافى التعدّد من أضرار مالية ومنزلية ، وتفريق بين الأبناء ، ولا سيما إذا كانت النساء جاهلات ، كأن يتزوّج الرجل امرأة و يتبين أنها عاقر لاتلد ، وهو يحبها وتحبه ، فمن الخير لها وله أن يتزوّج عليها ولايفارقها ، وكأن تكون حاجة الرجل الطبيعية لاتكتفى بالمرأة الواحدة ، فبدلا من أن يعرّض الرجل نفسه للزنا ، أو غشيان امرأته فى أيام الحيض والنفاس ، مما يسبب له أمراضا ، يبيح الله له أن يتزوّج امرأة أخرى ، وكأن يطرأ على امرأته من الأمراض مايحول بين استمتاع الرجل بها ، و يرى أنها امرأة فقيرة لاتجد من ينفق عليها ، فيستبقيها الرجل على أن تكون ضرّة وهو خير من أن يدعها وهى على ذلك الحال المؤلم .

هذه وأمثالها أسباب خاصة لتعدّد الزوجات ، وهناك اعتبار آخر يبيح التعدّد ، وهو أن الشأن فى الرجال أن تكون عرضة دائما للنقص عن النساء بواسطة الحروب والأسفار ، وهذه الحرب الكبرى قد تركت أيامى كثيرات من النساء .

فلو أن الله تعالى حرّم على الرجل تحريما باتا أن يتزوّج بأكثر من واحدة لتعرّض كثير من النساء للاتجار بأعراضهنّ ، وتفشى الزنا إلى حدّ كبير ، وخير للمرأة أن يكون لها ضرّة أو ضرّات ، ولا تتجر بأعزّ شىء لديها وهو خلقها وعفتها ، فسبحان الحكيم فى تشريعه ، العليم بحاجات خلقه وضروراتهم .

وقد بين القرآن منزلة الرجل من المرأة من جهة الحقوق ، حتى ينتظم البيت وتسعد الأسرة بقيام كلّ منهما بما أوجبه الله عليه ، فقال :

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٢٢٨» البقرة

وهى درجة الرياسة التى بينها الله تعالى فى سورة النساء .

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ «٣٤»

فترى القرآن الكريم أوجب للمرأة من الحقوق على الرجل مثل ماله عليها فى حدود المعروف بين الناس ، حسب البيئة التى تعيش فيها ، والوسط الذى تكون فيه ، وفضل الرجل على المرأة بدرجة الرياسة ، لأنه لاغنى للبيت عن رئيس يرجع أمره إليه ، وأولى الزوجين بالرياسة هو الرجل بسبب تفضيل الله للرجال على النساء بالعلم ، والعقل الراجح والولاية ، و بسبب ما أنفقوا عليهن من أموالهم .

الطـــلاق

(٣) علم الله تعالى أن الصلات بين الزوجين قد تسوء إلى حدّ كبير ، حتى لايمكن معه إصلاح فوضع نظاما للفرقة كما وضع نظاما للاجتماع ، ذلك النظام الذى وضعه للفرقة هو الطلاق ، ولو كانت صلة الرجل بالمرأة ضربة لازب لا سبيل إلى الخلاص منها بحال من الأحوال لكان فى ذلك من إحراج الزوجين وإعناتهما ما لايتفق والحياة الطيبة ، ولأدّى ذلك الالزام إلى انتحال أسباب من شأنها أن تكون طريقا للتخلص من الزوجية ، و إن كانت الأسباب لايرضاها الله تعالى ، ولا ترضاها المروءة ، فكان من رحمة الله بالزوجين مشروعية الفرقة بينهما ، وهى الطلاق .

لم يجعل الله الطلاق فوضى ، بل حاط عقد الزوجية بما يحفظه من التعرّض للانفعال الوقتى بوسائل شتى .

[أولها] أن الله تعالى شكك المرء فى وجدانه عند حصول نفرة ، فقال فى سورة النساء .

وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا «١٩»

[ثانيها] أنه رغب كلا من الزوجين فى الصلح عند وجود مقدّمات النفرة ، حتى لايستفحل الأمر ويتسع الخرق ، فقال فى سورة النساء :

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا «١٢٨»

[ثالثها] أمر الله تعالى بالتحكيم عند خوف الشقاق ، فقال يخاطب المؤمنين فى سورة النساء :

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا «٣٥»

[رابعها] أنه جعل الطلاق مرة بعد أخرى ، حتى إذا طلق الرجل امرأته لسبب عارض ، ثم زال ذلك السبب راجعها ، فاذا طرأ من الأسباب مايقتضى الطلاق مرة ثانية طلقها ، وفى المرة الأخيرة لاحق له فى أن يرجع إليها حتى تنكح زوجا آخر . قال تعالى فى سورة البقرة :

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ «٢٢٩»

أى الطلاق الذى بعده رجعة مرتان .

التيسير على المطلقة

(٤) إذا لم يكن للرجل بد من الطلاق بعد علاج الأمر بما ينبغى أن يعالج به وجب أن يكون فى ابتداء العدة : أى فى طهر لم يمسها فيه حتى لا تطول العدة على المرأة . قال تعالى فى سورة الطلاق

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ

ووجب على الرجل أن لايخرج المرأة من بيته وهى فى العدة لقوله تعالى فى سورة الطلاق :

لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا «١»

وكذلك إذا بلغت المرأة الأجل المقدر لها عليه أن يمسكها بالمعروف أو يفارقها بالمعروف .

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ «٢» الطلاق

ثم أمر الرجال بالرفق بالمرأة وهى فى عدتها ، فقال فى سورة الطلاق :

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ «٦» لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا «٧»

وأمر المرأة إذا طلقت قبل الدخول ولم ينفق لها على مهر أن تمتع بما تتعزى به ، وجعل ذلك حقا واجبا لها ، فقال فى سورة البقرة .

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ «٢٣٦»

ونهى الرجل أن يأخذ شيئا مما آتاها فقال فى سورة النساء :

وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا «٢٠» وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا «٢١»

نظام التوريث

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ

ءاباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما «١١» ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كللة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل وحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم «١٢» تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنت تجرى من تحتها الأنهر خلدين فيها وذلك الفوز العظيم «١٣» ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خلدا فيها وله عذاب مهين «١٤» النساء

يستفتونك قل الله يفتيكم في الكللة [١] إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم «١٧٦» النساء

تعليق وشرح

(١) بين الله تعالى لنا فى هذه الآيات نظام توريث المال بين الأقارب ، وهو نظام عادل حكيم ، وصدّره بكلمة الوصية إذ قال (يوصيكم الله فى أولادكم) الخ ليرينا أن التخلص من ذلك النظام الذى وضعه الله تعالى هو خروج على وصيته التى أوصى بها الآباء لينفذوها للأبناء ، ثم يختم هذه الوصية بقوله :

---

[١] هو الميت الذى لم يترك والداً ولا ولداً ذكراً أو أنثى .

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ «١٣» وَمَنْ يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ «١٤» النساء

فتراه وعد من يطيع الله ورسوله بوقوفه عند هذه الحدود التى رسمها القرآن الكريم بجنات تجرى من تحتها الأنهار مخلدا فى أولئك الجنات ، وتوعد من يعصى الله ورسوله ، و يتعدّ حدوده التى وضعها فى هذه الوصية نارا خالدا فيها ، وتوعده مع ذلك العذاب المهين .

ومع ذلك الوعيد الشديد تجد الناس يخرجون على هـذه الحدود ، و يعملون للخلاص من هذه الوصية الحكيمة .

أما الآباء فمرّة يخرجون من هـذه الوصية من طريق حبس الأرض على أبنائهم الذكور وحرمان بناتهم من التركة ، بحجة أن المال ملك لهم وهم أحرار فى ذلك المال ما داموا على قيد الحياة ، وان ذلك النظام إنما يجب بعد الموت . وفاتهم :

[أوّلا] أن الله تعالى وجه الوصية إليهم فلو لم يكونوا مكلفين بانفاذ هذه الوصية ما كان هناك معنى لتوجيهها إليهم .

[ثانيا] أنهم مكلفون أن لايسدّوا الباب على من بعدهم من المكلفين بانفاذ هـذه الوصية ، إذ كانت الآية خطابا للأمّة متكافلة متضامنة بانفاذ ذلك النظام ، فاذا أبحنا للآباء أن يصنعوا بما لهم ذلك الصنع ، وأمثال ذلك الصنع لتعطلت الوصية بالنسبة لغير الآباء ، وتعذّر إنفاذها بعد الموت ، و إلا فما الذى يصنع المؤمنون بتركة حبسها صاحبها قبل الموت على أبنائه دون بناته ؟ .

وهل يشكّ أحد فى أن ذلك العمل تعطيل لنظام التوريث ، وهدم لوصـية الله تعالى إن لم يكن من طريق مباشر فمن طريق غير مباشر ؟ وهل ذلك يتفق وذلك العـدل الذى أوجبه الله على الآباء للأبناء ؟ وهل البنت التى حرمت من مال أبيها على ضعفها وحاجتها إلى المال فى حياتها تحرص على الصلات بينها و بين أخيها الذى استبدّ بمال أبيها ؟ .

وأحيانا يخرج الآباء على وصـية الله تعالى من طريق الكتابة للأبناء ، وحرمان البنات ، ناسين ما يتركه ذلك العمل فى نفوس البنات من أثر سيء ، وشقاق مستمرّ ، ولو علموا أن ذلك مدعاة لتقطيع أواصر المودّة بين البيوت والأسر ، وتأريث للعداوة والبغضاء بين ذوى القرابات ــ مالجأوا لشيء من هذا .

(٢) وأما الأبناء فكثيرا مايخرجون على هذه الوصـية من طريق حمل الآباء على أن يكتبوا لهم التركة وهم فى حال المرض ليستقلوا بها ، وقد يحملهم ذلك الحرص على أن يزوّروا على آبائهم وثائق ليحرموا بها البنت من الميراث الذى تستحقه عن أبويها ، فتشتبك الأخت بأخيها وتقاضيه فى ذلك الميراث ، وتنتهى المقاضاة بحرمان البنت والولد وانتفاع دور القضاء ورجال المحاماة ، والذى لا يستبيح لنفسـه من الأبناء أن يزوّر على أخته لا يتعفف أن يطمع فى نصـيبها ، وكلما طالبته

بنصيبها من مال أبيها يماطل و يسوّف ، وقد تكون أخته فى غاية الفقر ، ولكنه لا يرحمها باعطائها نصيبها من المال ، و يضطرّها إلى أن تجمعه الجوع ، وتوسط بينها و بينه من تحبّ ومن لا تحبّ و بعد الجهد الجهيد يساومها على نصيبها ، و يطلب إليها أن تنزل عن مقدار منه ، و إذا لم تسمح نفسها بذلك عدّها الناس قاسية قليلة الذّوق ، وكأنّ الله فرض عليها أن تشطر نصيبها شطرين فتدع شطره لأخيها ، وشطره الآخر الذى تسمح به نفسه تأخذه ، وكثيرا ما يكون الأخ شرها فى ذلك التشطير ، فلا يقنع إلا أن يأخذ ثلث نصيبها ان لم يكن نصفه ، وقلما ينصف أخ أخته ، و يدعها تأخذ نصيبها كاملا غير منقوص ، كلّ ذلك لأنه لم يفطن لوصية الله فى المواريث ، ولم يرض الله تعالى قاسما لمال أبيه ، ولو رضى الله ربا وامتلأ قلبه بحكمة الله وعدله فى قسمته ماطمع ذلك الطمع .

ولو علم الأبناء أن الرجل القنوع الراضى يبارك الله له فى نصيبه وان قلّ ، وأن الرجل الشره ينزع الله البركة من ماله — لو علم الأبناء ذلك وعلموا أن أصهارهم هم أعوان لهم ، ولا طريق إلى تأليفهم بهم سوى الاحسان ، و إعطائهم نصيب أزواجهم ، وأن البنت لا تكون محبة لأخيها إلا حيث أعطاها حقها وواساها طول حياتها ، وأن البيوت لا تصلح ولا تلتئم إلا من طريق الاحسان إلى الأقارب ، وأعظم وسائل الاحسان أن يعطى كلّ ذى حقّ حقه ، وأكبر وسائل القطيعة أن يحال بين الناس و بين حقوقهم .

لو علم الناس ذلك لحرصوا على إنفاذ وصية الله تعالى كاملة غير منقوصة .

(٣) ومن عجيب أمر الناس أنهم حيال قسمة الله تعالى للمواريث صنفان :

[صنف] يبخل على البنت بمال أبيها و يحاول أن يحول بينها و بين حقها بمختلف الأساليب .

[وصنف آخر] لا يقنع للبنت بهذه القسمة التى فرضها الله لها فى قوله (للذكر مثل حظّ الأنثيين) و يرى أن البنت يجب أن تأخذ مثل أخيها ، وليس بعجيب أن يوجد ذلك من قوم لا دين لهم ولا عقيدة ، انما العجيب أن يكون ذلك من قوم مؤمنين ، يعلمون أن الله تعالى حكيم فى تشريعه ، عادل فى قسمته .

ولو تدبروا الأمر قليلا لعلموا أن الله تعالى قد أنصفَ البنت بهذه القسمة ، وأكرمها فوق إكرام أخيها ، ذلك لأن البنت تأخذ حقها من مال أبيها وهى غير مكلفة أن تنفق ذلك المال على بيتها و بنيها ، لأن نفقتها واجبة على زوجها ، وكذلك نفقة أبنائها . أما زوجها فيأخذ حقه من مال أبيه لينفق منه على نفسه وزوجه وأولاده ، فأىّ الولدين أسعد بمال أبيه ؟ : الولد الذى يأخذ نصيبه لينفق منه على نفسه وغيره ، أم البنت التى تأخذ مالها لتدّخره ؟ فاذا كان هناك محاباة فى التوريث فهى محاباة المرأة ، و إذا كان هناك مواساة فهى مواساة البنت ، واساها الله بذلك حتى يكون عندها مال احتياطىّ تنتفع به عند الطوارئ ، كأن يموت زوجها فتتأيم ، وقد يكون لها من الأولاد من يحتاج إلى النفقة ، لذلك أعطاها الله نصيبها من مال أبيها لتدّخره لأمثال هذه الطوارئ .

ولو فطن الناس لقسمة الله تعالى لعلموا أنها وسط بين الافراط والتفريط ، وسط بين طريق

القساة البخلاء الذين يحرمون البنت من مال أبيها ، وبين الغلاة الجاحدين الذى يريدون أن يعطوها مثل ماللرجل ، ناسين ظروفها ، وما يجب على الزوج من نفقة لأولاده وبيته ، ولو أنصفوا وصححوا التعبير لقالوا [نحن نطلب أن يضاعف الله تمييز البنت على الولد] لأن هذه المواساة لا تكفينا . أما نحن معشر المسلمين فنؤمن بعدل الله وحكمته فى تشريعه وقسمته .

الحكومة فى الاسلام

(١) لما كان الاسلام دينا ودولة وضع أساسا للحكم هو نظام الشورى ، وقد عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلفاؤه الراشدون ، على ما تسمح به طبيعة القوم فى ذلك الظرف .

وقد وصف الله المؤمنين بأن الشورى فى شئونهم الدولية والدنيوية شأن من شئونهم ، كالصلاة وغيرها من أمور الدين . قال تعالى :

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنْفِقُونَ «٣٨» الشورى

وقال تعالى : مخاطبا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ «١٥٩» آل عمران

والأمر هنا أمر الدولة ، لا أمر الدين : من عقائد وعبادات وما إلى ذلك ، فإنه يعتمد الوحى الصريح . أمر الله رسوله أن يستشير أصحابه فى الشئون العامة كالحرب والسلم ، وعقد المعاهدات ، وأسرى الحرب ، كما وقع فى أسرى بدر ، وأمثال ذلك من الأمور العامة ، ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن يعد الأمر عدته من الشورى (فاذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) ليريه أنه لايصح له بعد أن يصحح النية ، ويبحث المسألة من جميع وجوهها أن يرجع عما عزم عليه ، لأن ذلك الخلق خلق التردد لايليق برئيس دولة .

هذا هو الأساس الذى وضعه الدين للشورى ، وترك نوع الشورى للزمن ، لأن كل زمن يناسبه نوع من الشورى قد لا يتفق وزمن آخر ، والذى يرى كيف تطورت الشورى فى البلاد النيابية ، ويرى كيف كان نظام الشورى فى صدر الاسلام أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، يجد الفرق جليا واضحا ، ويعرف حكمة الله تعالى وعلمه المحيط ، حيث لم يحدد

نظاما خاصا للشورى ، بل أمر بها ، وترك نوعها للزمن ، وذلك من أدلة أن ذلك القرآن من كلام الله الذى يعلم الحاضر والمستقبل ، لامن كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

أما قسم العقائد ، وأما قسم العبادات ، وأما ما يشبهها من أمهات الأخلاق والفضائل ، ونظام التوريث ، ونظام البيوت من زوجية وطلاق ، فهى من الأمور التى لاتختلف باختلاف الزمان ، ومن أجل ذلك حدّدها ، و بين ما ينبغى أن يبين منها ، ولم يدعها للعقول ولا للزمن ، لأن ذلك حقه وحده ، فهو الذى يحدّده و يتعبدنا به .

لم يكتف القرآن الكريم بوضع نظام للحكم وهو الشورى ، فنصح إلى الحكام أن يحكموا بين الناس بالعدل ، وأن يتحرّوا الحقّ والانصاف :

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ «٩٠» النحل

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا «٥٧» النساء

أسرى الحرب فى الاسلام

(٢) قد أريناك فيما سبق أن القتال فى الاسلام لم يكن لاكراه الناس على عقيدة ، وإنما الغرض منه حماية الدّعوة الاسلامية من المؤثرات ، حتى يكون المؤمنون آمنين على أنفسهم وعقائدهم ، وحتى يكون الدّاعى حرّا يأمن الاعتداء عليه من أيدى المخالفين له ، فهو قتال دفاع لا قتال هجوم ، وأن ما وقع من جماعة المسلمين ضدّ أعدائهم فى مختلف الغزوات كان لتأديب المعتدى ، أو حماية الدّاعى ، لا يعدو شيئا من ذلك فى جوهره .

وآية أن القتال قد شرعه الله تعالى لحماية الدّعوة ومصلحة الاسلام دون أشخاص المسلمين اختلاف الصحابة فى أسرى بدر ، ففريق كان يرى قتلهم وعلى رأسهم عمر رضى الله عنه ، قال يارسول الله : أولئك الأسرى قد كذبوك وقاتلوك ، وأخرجوك من بلدك ، فأرى أن تمكننى من فلان لقريب له فأضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه العباس ، وعليا من أخيه عقيل ، وهكذا حتى يعلم الناس أنه ليس فى قلوبنا مودّة للمشركين ، ما أرى أن تكون لك أسرى ، فاضرب أعناقهم هؤلاء صناديدهم وقادتهم .

وقال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله : هؤلاء أهلك ، وقومك ، قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم ، أرى أن تستبقيهم ، وتأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوّة على الكفار ، وعسى أن الله يهديهم بك فيكونوا لك عضدا ، فقال عليه السلام : إنّ الله ليلين قلوب أقوام

حتى تكون ألين من اللين ، وان الله ليشدد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة ، وان مثلك ياأبا بكر مثل ابراهيم . قال :

فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٣٦» ابراهيم

وان مثلك يا عمر مثل نوح . قال :

رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَٰفِرِينَ دَيَّاراً [١] «٢٦» نوح

ورأى عليه السلام رأى أبى بكر بعد أن مدح كلا من الصاحبين ، لأن الوجهة واحدة ، وهى إعزاز الدين ، وخذلان أعداء الحق المحاربين .

وقد نزل الوحى بتصويب رأى عمر رضى الله عنه فى شأن أسرى بدر ، فقال :

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٦٧» لَوْلاَ كِتَٰبٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ «٦٨» الأنفال

نهى سبحانه وتعالى عن اتخاذ الأسرى قبل الاثخان فى قتل الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعون دينه من الانتشار ، وعاب بعض المسلمين على ارادة عرض الدنيا، وهو الفدية ، ولولا حكم سابق من الله أن لايعاقب مجتهدا على اجتهاده مادام المقصد خيرا — لكان العذاب .

وحادث الأسرى مثل من أمثلة الشورى فى أمور الدولة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قدوة صالحة فى امتثال أمر الله ، وأن الرسول قد يخطئ وقد يصيب فى مثل هذه الشئون ، ولكن الله تعالى لايقره على الخطأ ، بل يبين له الحق .

غنائم الحرب فى الاسلام

(٣) كانت العرب قبل الاسلام تغنم وتوزع الغنيمة على المحاربين ، وتجعل للرئيس قسطا كبيرا منهم ، أشار إليه أحد شعرائهم فقال :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

والمرباع : ربع الغنيمة ، والصفايا : مايصطفيه الرئيس لنفسه مما يستحسن ، والنشيطة :

---

[١] دياراً : نازل دار : أى أحداً .

مايقع فى أيدى المقاتلين قبل الوقعة ، والفضول : ما يفضل عن القسمة ، فلما جاء الاسلام كانت أوّل الغنائم ما وصل المسلمين فى غزوة بدر ، فقال الله فى شأنها .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ «١» الأنفال

أى أمرها فى توزيعها الى الله والرسول ، ثم بين ذلك بقوله :

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ «٤١» الأنفال

فجعل خمس الغنيمة موزعا بين مصالح المسلمين ، ومنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرابته من بنى هاشم ، و بنى المطلب الذين نصروه ، دون أقاربه الذين خذلوه ، ولاصلاح اليتامى ، والمساكين ، والمسافرين ، وأربعة أخماس الغنيمة للمقاتلين : للفارس سهمان ، وللراجل وهو المحارب على قدميه سهم واحد ، فانظر الفرق بين الجاهلية والاسلام .

وهناك نوع من المال يغنمه المسلمون من أعدائهم الكفار بدون حرب ، وهو الذى يسميه القرآن الكريم بالفىء ، وهو موزع على مصالح المسلمين توزيع خمس الغنيمة .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ[1] عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «٦» مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ «٧» الحشر

وقوله (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) بيان لحكمة توزيع الفىء على ذلك النحو الذى ترى ، وهو أن يصرف فى مصالح الدولة ، ولا يكون متداولا بين الأغنياء من المسلمين .

العقوبات فى الاسلام

لما كانت طبائع الناس متفاوتة ، وكان فيهم من يكفيه الترغيب فى ثواب الله والترهيب من عقابه ، وفيهم من لا تكفيه هذه الأساليب ، ولو ترك بدون عقوبة لأفسد فى الأرض ، وجرّأ

---

[١] أسرعتم من أجله خيلا ولا إبلا : أى لم تتحملوا فيه مشقة .

غيره على الفساد ، وأصبحت دماء الناس وأموالهم وأعراضهم عرضة للضياع .

لما كان ذلك شأن الناس قضت الحكمة الالهية أن يكون فى دين الله من الزواجر ما يكفى لحماية الضعيف من يد القوى ، والابقاء على مصالح الناس ، والاحتفاظ بسلطان الحكومة وحرمتها فى النفوس ، من أجل ذلك شرع الله عقوبات مختلفة على الجرائم التى من شأنها أن تهدد الناس فى مصالحهم وأعراضهم ونفوسهم ، فشرع :

القصاص

(١) وقد كان القصاص قبل الاسلام غير قائم على أساس العدل والمساواة ، فكانت القبيلة كلها مسئولة عن جناية فرد منها ، إلا إذا أعلنت خلعه فى المجتمعات العامّة ، وقلما كان ولىّ المجنى عليه يكتفى بالقصاص من الجانى ، ولا سيما إذا كان المجنى عليه شريفا أو سيدا فى قومه ، وكثيرا ما كانت قبيلة الجانى تحميه فتتولد من ذلك شرور وحروب بين قبائل ، فجاء القرآن الكريم محدّدا للمسئولية فى القصاص ، وقصرها على الجانى وحده ، فقال فى سورة البقرة :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ

بين الله بذلك أن الجانى وحده هو الذى يؤخذ بجريرته دون قبيلته ، وكان نظام الديات معمولا به عند العرب فأبقاه القرآن ، وأشار إليه فى قوله بعد :

فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ «١٧٨»

فترى القرآن الكريم جعل الأصل فى العقوبة القصاص والمساواة إلا إذا عفا أولياء الدم عن القاتل ، وطابت نفوسهم بذلك العفو ، ورضوا بأخذ الدية بدون تأثير عليهم (فاتباع بالمعروف) لذلك العفو واجب ، (وأداء إليه باحسان) أى أداء الدية الى ولىّ المقتول واجب كذلك باحسان لا بغلظة .

ثم أشار الى تيسير الله علينا فى إباحة دفع الدية بقوله (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) ولو أن الله تعالى لم يجعل لولىّ المقتول حقّ العفو عن الجانى لكان فى ذلك إعنات للناس .

ثم يرينا أن من يعتدى بعد العفو سواء أكان ذلك الاعتداء من أولياء الدم ، أو كان من أقارب الجانى (فله عذاب أليم) فى الآخرة .

ذلك هو مايجب فى القتل العمد . أما مايجب فى القتل الخطأ كما يقع كثيرا من الناس ، فقد بينه الله تعالى فى قوله :

وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا «٩٢» النساء

فأنت ترى القرآن الكريم لم يعف القاتل من العقوبة وان كان قتله خطأ ، فأوجب عليه فى القتل الخطأ عقوبة مالية : هى اعتاق رقبة مؤمنة ، ودفع الدية الى أهله ، وقد كانت الديات معروفة قبل الاسلام فأقرها ، و بينتها السنة أنها مائة من الابل على عصبة القاتل ، إلا أصله وفرعه ، موزوعة عليهم فى ثلاث سنين إلا أن يصدق أولياء المقتول باسقاط الدية فذلك حقهم .

وان كان من قوم محاربين للمؤمنين ، وكان القتيل مؤمنا فلا تجب له دية ، لأن الدية حق مالى يجب لأولياء القتيل ، وهم محاربون للمؤمنين ، فلا تدفع له دية ، ويجب أن يعتق الجانى رقبة مؤمنة ، كفارة لادية ، ابقاء على حرمة المؤمن ، وان كان من قوم بيننا و بينهم عهد كأهل الذمة ، وجبت الدية ، وتحرير رقبة مؤمنة ، احتراما للعهد ، غير أن دية اليهودى أو النصرانى على الثلث من دية المؤمن ، ودية المجوسى ثلث عشر دية المؤمن . ومن لم يجد الرقبة المؤمنة فصيام شهرين متتابعين ، ليكون ذلك توبة من الله عليه من قتل المؤمن التابع لقوم محاربين ، ومن قتل الذمى أو المعاهد .

وقد أوجب الله فى قتل المؤمن خطأ عتق الرقبة المؤمنة والدية [أولا] احتراما للنفس ، حتى لايفهم الناس هوانها ، حتى ان من قتلها خطأ يعاقب على القتل عقوبة مالية ، و[ثانيا] لحمل الناس على الاحتياط فى مسألة النفوس والدماء ، و[ثالثا] سدا لذرائع الفساد ، حتى لايقتل أحد من الناس من يريد قتله ، ويتستر بأنه قتله خطأ .

أما القصاص فى الأطراف فبينه القرآن الكريم فى قوله من سورة المائدة :

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ «٤٥»

حكمة القصاص

(٢) أرانا الله تعالى أن مصلحتنا فى ذلك القصاص ، وأن حياتنا المادّية والأدبيـة فى مشروعية القصاص ، وللقرآن فى ذلك جملة — هى مضرب الأمثال فى بلاغتها وعلوّ أسلوبها ، وغزارة معانيها ، وسهولتها على اختصار لفظها هى قوله من سورة البقرة :

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ يٰأُولِي الْأَلْبٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ «١٧٩»

والذى يريد أن يعرف قيمة هـذه الجملة العظيمة ، ومالها من أثر ملموس يوازن بين أرقى حكومات العالم اليوم ، وبين حكومة المسلمين فى الصدر الأوّل ليرى الفرق جليا بين الحكومتين ، ويعرف أن حفظ دماء الناس وأموالهم لايمكن أن يكون بدون اقامة حدوده ، وأن القوانين الوضعية فشلت على طول الخط فى علاج الأخطار التى تتهدّد الناس ، والحكومات المتمدينة تنفق اليوم على الأمن قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، ومع ذلك هو مجهود ضائع ، وكلما ضاعفوا الجهود فى تنقيح القوانين ، ومضاعفة القوات ، ضاعف المفسدون جهودهم فى السلب والنهب ، واراقة الدماء ، وما الى ذلك .

ولماذا نذهب بعيدا ونوازن بين الحكومات الحاضرة ، وحكومة المسلمين فى الصدر الأوّل ؟ وهذه حكومة الحجاز فى عهدها الحاضر ، وهى ليست شيئا يذكر فى جانب حكومات أوروبا ، ومع ذلك الأمن فيه مستتب ، والهدوء شامل محيط ، على مافى طبيعة البلاد العربيـة من صعوبات ، ومافى نفوس أصحابها من خشونة وغلظة ، وهى آية من آيات الله فى أن الناس لاتصلح بلادين، وأن قوانينها الوضعية ، وعظمتها فى حريتها وصناعتها ، وأساطيلها لاتغنيها شيئا عن اقامة الحدود الشرعية.

سَنُرِيهِمْ ءَايٰتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ «٥٣» فصلت

حدّ قطاع الطريق

(٣) فرض الله جزاء قطاع الطريق الذين يتهدّدون الحكومات ، فقال فى سورة المائدة :

إِنَّمَا جَزٰٓؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ «٣٣» إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٣٤»

بين الله تعالى لنا فى هذه الآيات عقاب المحار بين المفسدين فى الأرض ، و يعملون فى بلاد الاسلام أعمالا مخلة بالأمن على الأنفس والأموال والأعراض ، معتصمين فى ذلك بقوتهم ، غير مذعنين للشريعة باختيارهم ، فيجب على الحكام أن يطاردوهم و يقبعوهم ، فاذا قدروا عليهم عاقبوهم بتلك العقوبات بعد تقدير كلّ مفسدة بقدرها ، ومراعاة المصلحة العامّة وسدّ ذريعة الفساد ، ومن تاب قبل القدرة عليه لايعاقب بما فى هذه الآية ، و إنما حكمه حكم سائر الناس .

وتأمّل قول الله تعالى (من قبل أن تقدروا عليهم) لتعرف أن التائب قبل القدرة عليه مخلص فى توبته ، أما التائب بعد أن قدر عليه فلا فضل له فى التوبة ، و إنما هى توبة الملجأ والمضطرّ .

حدّ السارق

(٤) قد وضع الله عقوبة للسارق فقال فى سورة المائدة :

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «٣٨»

ذلك هو حكم الله العليم بأمراض النفوس وطريق علاجها . حكمه العادل ، وقضاؤه الحكيم وتشريعه المحكم : أن تقطع يد السارق والسارقة ، لأن اليد من شأنها أن تباشر السرقة ، فكان جزاؤها القطع ، وقد بين الله لنا أن ذلك القطع هو جزاء عادل للسارق والسارقة بما كسبا من خيانة ، وقوله (نكالا من الله) من نكلت به بتشديد الكاف . إذا فعلت به ماينكل به غيره ، ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة :

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ «٦٦»

أى ان الله تعالى شرع قطع يد السارق ليكون عبرة لغيره ، فلايجرؤ غيره على مثل ذلك العمل و بذلك يحفظ المال ، وقد ختم الآية بقوله (والله عزيز حكيم) ليرينا أن الله تعالى حكيم فى ذلك التشريع ، فرضه للمصلحة ، وأنزله لحفظ أموال الناس ، وأن من يعيب على الشريعة قطعها يد السارق هو رجل قصير النظر ، يضحى بمصلحة المجموع فى سبيل حفظ يد خائنة مهينة ، و يجعل أموال الناس عرضة للخطر ، لأنه يرى فى قطع يد السارق وحشية لاتليق بأصحاب القرن العشرين ، ولايليق أن يعطل رجل أو رجال من الناس عن أن ينتفعوا بأيديهم ، و يصيروا مثلة فى هذه الحياة أيا كانت الدواعى لمثل ذلك العمل ، وفاتهم أن الحيلولة بين هؤلاء الخونة و بين انتفاعهم بأيديهم غرض من أغراض المشرع ، والتمثيل بهم أمام الجماهير هو نكال بهم وعبرة لغيرهم ، فان الناس متى رأوا أن ذلك هو مصير السارق لايقعون فى مثل ذلك العمل ، ولماذا

تحرص على سمعة المجرم مادام هو لم يحرص عليها ، وتتألم له أكثر من تألمه لنفسه ؟ وإذا كان الغربيون ومن حذا حذوهم يرون قطع يد السارق وحشية لاتليق ، ومثلة لاتنبغى ، فاننا معشر المسلمين نراها حكمة وعدلا ، ونعدّها إصلاحا لاغنى للناس عنه ، وضعه الاله العالم بأمراض النفوس ، ومادام صلاح المجموعة فى تأديب أولئك الأدنياء أدبا واضحا مكشوفا ، فان المصلحة فى صلاح المجموعة ، وان ضاع فى سبيلها مصلحة الفرد .

وقد ظنّ أصحاب هذه الشبهة أن قطع يد السارق إذا لجأت إليه الحكومات من شأنه أن يكثر العاطلين ، وهم فى ذلك جدّ واهمين ، فان يدا واحدة إذا قطعت من شأنها أن تحول بين الناس و بين جرائم السرقة ، والذى يكثر السرقة بين الناس هو الجزاء المعمول به اليوم ، وهو لايعدو وضع السارق فى السجن ، وقد يكون السجن أحبّ إليه من الأعمال خارج السجن ، وهذه بلاد الحجاز تقام فيها الحدود ، وقد يمضى العام يتلوه العام ولاتقطع يد واحدة .

وإذا كان فريق من الناس لا يزال بعد ذلك مصرّا على أن القطع وحشية ، وحفظ يد المجرم مدنية ، فانا نرحب بوحشية من شأنها أن تحفظ على الناس أمنهم ومالهم وحياتهم ، وتزدرى مدنية تعرّض الأمن إلى الخلل ، وتسبب له اضطرابا دائما ، واختلالا لاينقطع ، وأىّ فرق بين يد خائنة ، و بين عضو مريض فى الجسم ، إذا بقى سبب للجسم مرضا يقضى عليه القضاء الأخير ؟ ولماذا لا ينازعنا أحد فى أن العضو المريض ينبغى بتره ليسلم الجسم ، و ينازعنا الذين يعدّون أنفسهم مهذّبين ومثقفين فى يد خائنة ، هى مرض ينخر فى عظام الأمّة ، ويهدّد حياتها الطيبة ، وسمعتها المرجوّة لها . اللهمّ انه تعصب ظاهر وتقليد أعمى ، جرّته المدنيـة الكاذبة ، وحرمان بلاد المسلمين من حكومات تقيم دين الله وحدوده فى الأرض على مايحبه الله ، وتقضى به المصلحة .

حـــدّ الزانى

(٤) كما وضعت الشريعة عقوبة للخونة الذين يفتاتون على أموال الناس وضعت عقوبة للذين يعتدون على الأعراض ، فنصّ القرآن الكريم على عقوبة الزنا فى سورة النور إذ قال :

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ «٢»

وتأمّل قول الله تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) الخ لتعرف أنه لا تصحّ الهوادة فى إقامة الحدود ، وأن ذلك لم يكن من شئون المؤمنين بالله واليوم الآخر ، وأن الزناة ليسوا أهلا للرأفة والرحمة ، لأن جريمة الزنا متى تفشت فى أمّة من الأمم قضت عليها القضاء المبرم ، وحسبنا أن الله تعالى يقول فيه :

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا «٣٢» الإسراء

ولو لم يكن فيه سوى تعطيل النسل والصدّ عن الزواج الذى فيه بقاء الأمّة وحفظ كيانها لكفى.

والقرآن الكريم يرشدنا إلى التسوية بين الناس فى تطبيق قانون العقوبات ، لأن المحاباة فى تطبيق القانون أضرّ شىء على الأمّة فى أخلاقها وكرامتها (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) إرشاد إلى حكمة ذلك الحدّ ، وهو أن العذاب إذا اطلع عليه فريق من الناس أثر ذلك فى نفس المجرم تأثيرا غير محدود ، و بذلك يقلع عن ذلك العمل ، ذلك هو حدّ الزانى الذى لم يتزوّج .

أما الزانى المتزوّج فقد وردت السنة بقتله رجما ، لأن عنده من وسائل العفة مايحول بينه و بين الزنا ، ومع ذلك يعمد إلى انتهاك الحرمات : مما يدلّ على خبث نفسه ، وولوعه بالفساد ، ومثل ذلك ينبغى أن تطهر منه الأرض ، ذلك هو حكم الله فى الزناة المتزوّجين وغير المتزوّجين .

أما حكوماتنا اليوم فتعدّ للزناة دورا يسرحون فيها و يمرحون ، وأماكن رسمية للدّعارة على حسابها يفسقون ويتمتعون ، و تعطى صاحبات هذه الدور شهادة ممهورة بتوقيع الحكومة ، على حساب هذه الشهادة تعيش محاربة لله ولرسوله ، و إذا تعرّض أحد لهذه البغىّ أو لصاحب من أصحابها بسوء فقد عرّض نفسه لأشدّ العقوبات ، وتحرس هذه الدّور التى تقوم على الفسق والفجور كما تحرس البيوت الطاهرة النقية .

فانظر الفرق بين حكومة الاسلام والمسلمين ، وحكومات العهد الحاضر . حكومة المسلمين تجلد الزناة وترجمهم حتى يموتوا ، لتطهر البلاد منهم ، وحكومات العهد الحاضر تعطيهم وثيقة بواسطتها يزنون علنا تحت حراسة الحكومة و إشرافها ، ولا تستحى من الله أن تعطيهم هذه الوثيقة ، وهى تعلم أن ذلك إغضاب لله فى قوانينها وتشريعها ، واذا طالبت الحكومة بالغاء ذلك الترخيص أخذت تتلمس لعملها المعاذير ، وتنتحل الأسباب .

والعلة الأولى فى ذلك الوباء : الامتيازات الأجنبية ، وأن البلاد محتلة ، وليس من مصلحة المحتلّ أن يحفظ على البلاد أخلاقها ودينها ، فهو يحاربنا بجيوش من الرذائل والمنكرات ، قبل أن يحاربنا بجيوش الاحتلال حتى نبقى مشغولين عنه بشهواتنا ، منغمسين فى ملاذنا . فاللهمّ أنقذ البلاد والعباد من ذلك الخزى ، وطهرها من العار الذى شوّه سمعتها وقضى على كرامتها .

حـــدّ القاذف

(٥) فرض الله فى القرآن عقوبة للقاذف لتبقى الأعراض مصونة ، والحرمات محفوظة ، فقال فى سورة النور :

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ

جَلْدَةً ، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ «٤» إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ «٥» النور

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَٰتِ الْغَٰفِلَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ «٢٣» يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ «٢٤» يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ «٢٥» . النور

فأنت ترى أن الله تعالى جعل عقوبة الذين يرمون العفيفات بالزنا ثم لم يأتوا بأربعة شهداء على زناهم ثمانين جلدة كالزناة ، وذلك لخطر الرمى بالزنا على المرأة العفيفة ، لأنه طعن فى عفتها ، وجرح لكرامتها وعزتها ، وفوق ذلك فان من شأن ذلك الرمى بالزنا أن ينبه النفوس الغافلة لتلك الفاحشة ، فالذى يرمى الغافلة بالزنا يسيء إليها من ناحيتين : [الأولى] طعنه عليها .
[الثانية] تنبيه الغافلة إلى هذه الفاحشة وحملها على التفكير فيها ، ولذلك يقول فى الآية الثانية (والذين يرمون المحصنات الغافلات) . والمراد بالغافلات : من لم تتوجه نفوسهم إلى هذه الفاحشة ، فهم فى غفلة عنها ونسيان لها ، ولذلك جعل لهم عقوبة فى الدنيا فوق الحدّ : هى لعنهم فيها وطردهم من رحمة الله ، وعقوبة فى الآخرة هى لعنهم كذلك ولهم عذاب عظيم .

بحمد الله تعالى تمّ طبع كتاب : « دعوة الرسل إلى الله تعالى » مصححا بمعرفتى بعد مراجعة آياته القرآنية بمعرفة الأستاذ : على محمد الضباع « مراجع المصاحف الشريفة » .

أحمد سعد على

أحد علماء الأزهر ورئيس التصحيح

[من يمن الكتاب أنه تمّ طبعه فى يوم الأحد غرّة ربيع الأوّل سنة ١٣٥٤ هـ / ٢ يونيه سنة ١٩٣٥ م]

ملاحظ المطبعة — مدير المطبعة

محمد أمين عمران — رستم مصطفى الحلبى

فهـــرس إجمالى لأهم ما فى الكتاب

مراجع الكتاب

تفسير المنار ... ... : للأستاذ الكبير السيد رشيد رضا

التفسير الكبير ... ... : للفخر الرازى

تفسير الكشاف ... ... : للزمخشرى

تفسير الجواهر ... ... : للشيخ طنطاوى جوهرى

إرشاد العقل السليم ... ... : المشهور بأبى السعود العمارى

المفردات فى غريب القرآن ... : للراغب الاصفهانى

قصص الأنبياء . . .. : للأستاذ عبد الوهاب النجار

زاد المعاد ... ... : لابن قيم الجوزية

نور اليقين ... ... : لمحمد بك الخضرى

تاريخ التشريع الاسلامى ... : « « «

للمؤلف :

١ — آيات الله فى الآفاق — أو — طريق القرآن الكريم فى العقائد

٢ — التوحيد — أو — العقائد الاسلامية .

٣ — أصول : فى البدع والسنن .